

غُوسْتاف فلوبير

التربية العاطفية





ما بين

روائع الأدب والفكر منقولة إلى العِصَّة



© منشورات عويدات - بيروت

جميع حقوق الطبعة العربية في العالم وفي البلدان العربية
خاصة محفوظة لدار منشورات عويدات - بيروت ، بموجب
اتفاق خاص مع دار غاليمار Gallimard - باريس

حقوق لوحة العلاف الأصلية محفوظة
لمنشورات عويدات بموجب عقد مع دار غاليمار

الطبعة الأولى ١٩٨٣

التربية العاطفية

تقديم البريتيودي

إننا نحفظ ، من « التربية » ، بصورة جيل بشري يجري مع زمانه الخاص ، جارفاً معه أناساً يعبرون . لذلك ، فمدھش عرضها . عرض « مدام بوفاري » كان عرضاً زمنيّاً . تبدأ هي ، منذ طفولة شارل المدرسية ، قصة حياة متنافرة ، سلبية ومهزوزة ، كما قبعة بائسة تحت ضربات الأقدام ، إنها غلطة القدر . يمكن أن تأخذ عليه عدم الاهتمام بالشخصية الرئيسة . في « التربية » ، يستعيد فلوير الأسلوب نفسه ، وهذا طبيعيّ لنوع روايته ، لكنّه يمرّر الزمن فيه بالمكان ، ويمزجه بطريقة عرض تفتح المرحلة « لمدام بوفاري » وسلمبو . بدلاً من أن يجمع ، كما في تينك المرتين ، أشخاصه الرئيسيين في مأدبة كبرى ، هو يجمعهم ويعرضهم للنور ، بواقعية متحركة ترمز إلى مسيرة الوقت واتزانه . إنها رحلة فريديريك ، المركب أولاً ، ثم العربة . بشرية بكاملها ، كاريكاتورية ، تصعد نهراً بطيئاً ، في هذه الرحلة على الماء وقد اعتنى بها فلوير كلوحة مصغرة للجنس البشري الذي يكون ، على كوكبه ، صبيّ طريق ساذج ، يراقبه خالق ساخر . هي ، على كل حال ، صورة طبيعية . هنا ، نذكر ، مفارقةً ، قطعة لامارتين

المدهشة : « النجوم » ، حيث يشعر الشاعر بالأرض تنشق كما زورق يشق أمواج الأثير ، ويأخذ ، في خليج السماء ، الانسانية النائمة . ما يحمله مركب فلوير ، هو حمولة أناس مثيرين للسخرية . ومن جهة أخرى ، فقد كتب في « الشرق » أن الرحلة توسّع ، فيه ، بطريقة مدهشة حساً غريباً . جماعة من الوجوه البورجوازية ، حصيلة النوع البشري ، مأخوذة بين هذين الخطّين ، في البداية والنهاية : « بما أنهم كانوا معتادين أن يرتدوا كيفما اتفق في الرحلة . . . » و « أبواب عائلات يفتحون عيونهم ، كبيرة ، متسائلين » . منظر رتيب يتّج ، دوماً ، المشاهد ذاتها ، ويرمي في المسافة ؛ صورة زمن تكوّن الحياة البشرية المتجمّعة على المركب : « عند كل دورة للنهر ، نجد الستار نفسه من شجر الحور الشاحب . خالياً ، كان الريف . متوقّفة ، في السماء ، غيوم بيضاء صغيرة ، والضجر كان منتشرًا بغموض ، يبدو كأنه يضعف مسيرة المركب ، ويجعل سحْن المسافرين تزداد تفاهة » . ركّز فلوير على سبب الحلم ووسّعه بإصرار متفرّد . يبدو أنه يأخذ مركزاً مشابهاً للمياه . فلنقرأ ، من وجهة النظر هذه ، بداية القسم الثاني كلها ، وهي بفتنة عجيبة ، هذه السلسلة الفريدة واللافتة ، رحلة العربة ، دخول باريس من أحياء مخيفة ، الوصول إلى الفندق ، ثم البحث عن ريجمبار الذي بدا كأنه بمهمة ، كما ليون في رَوّان مدفوعاً بهومي . إنّا ، بعد حصول فريدريك على عنوان أرنو ، نجد عبارة توضح ، استبطانياً ، كل ما بقي : « خرج فريدريك من الحانة إلى أرنو ، كأنه محمول بهواء

فاتر ، وبنشوة نشعر بها في الأحلام » . ويبدو ، حتى الآن ، في الواقع ، تناغم حلم قاد كل شيء : الرحلة الليلية بواسطة المركبات ، وهذا السباق خلف ريجمبار حيث كل ما يطلبه فريدريك يفلت منه ، كما في الأحلام . وهذا يستمر . حفلة الرقص التنكرية عند « المارشالة » ، لها طابع حلم فوضويّ ، وكل شيء ينتهي بحلم حقيقيّ يكمل الحلم غير الحقيقيّ على وسادة فريدريك . إن صورة الحياة هذه ، المطلوبة بسلبية ، والتي يأخذها وجود فريدريك ، لتتناقض مع حياة إيما بوفاري المشتهاة بتلهّف . تحلم إيما بالحياة ، إنما ليست تحلم بحياتها ، فتحياها بطريقة مثيرة للشفقة ، والدليل القاطع انتحارها . ولقد فرضت مدام بوفاري أكثر على الجمهور الذي كان يطلب من الرواية أن تقدّم إليه وهم الحقيقة ، لا أن تريه أن الحقيقة وهم .

من الأمور التي تُشغف فريدريك بالأكثر ، والتي لا يُشقّ له غبار فيها ، شغفه بـ مدام أرنو ، المرأة الثلاثينية ، الملهمّة والعذراء ، التي كان فلوير ، طفلاً ، رآها في تروفيل ، وقد صوّرها في روايته بكثير حنان . هذه اللوحة الدقيقة والمعتدلة كانت أكثر صعوبة من مدام بوفاري ، وربما أن فلوير جعل منها رائعة أدبية تفوق رائعة إيما . هذا النسق من الألوان المعتدلة والنماذج المضيفة ، لا أرى ، أبداً ، ما يوازيه إلّا نسق سانسفرينا . إيما وسلمبو هما حواء الخالدة ، بمظهرين مختلفين ، لكن مدام أرنو تحمل ، في الفن ، كلّ الطهارة المقدّسة التي لاسمها الذي هو : ماري . جاءت لنطاً بقدمها رأس الأفعى . رآها فلوير كما عذراء

هادئة ، حيث تلتطف الأمومة ، تكمل ، تهديء طبيعة المرأة ،
تجعلها تشعّ عذوبة وسطوة .

مع ذلك ، كانت ماري وشيكة السقوط ، يوماً ، وما
أمسكها عن ذلك إلا مرض ابنتها . ومدام دو رينال ، تلك ،
أتصمد تجاه جوليان ، وزوجة تورفيل تجاه فالمون ؟ غميل إلى الظن
أن لا .

إن أمانتها ، في قسم منها ، هي نتيجة تحفظ فريدريك .
إنه الرجل الذي يحلم حياته ، أخلامه مركزة حول ماري ، وتبقى
هي مثار حلمه . ثم انه « رجل كل النقائص » ، تماماً كما أن
فالمون وجوليان هما ، الأول ، رجل عزم متحرّر ، والثاني رجل قوة
صلبة . وعند جوليان ، كل ما يفلت العمل الحاضر ، ينقلب ،
هنا ، تلقائياً ، إلى حلم ، ويصبح مختلفاً في الزمن ، متجهاً نحو
المستقبل .

وهكذا يشترك فريدريك في الفضيلة ، مناصفة ، مع
السيدة أرنو . هناك وصف رائع في بيت أوتوي لهذا الحب الذي
على شفير الخطيئة ، ولا يقع ، بسبب قوة ماري من جهة ، ومن
جهة أخرى لضعف فريدريك . أن يكون رجل كل النقائص ،
فهذا يسمى ، بين بقية الأسماء ، خجلاً . الخجل انهبأر أمام
الحاضر ، نقص في الوصل بين التصوّر والفعل ، والحياة الداخلية
تساعد ، تحديداً ، على ردم أو إخفاء هذه الفجوة . « زد على ذلك
انه كان ممنوعاً ، بنوع من الرادع الديني . يبدو له ذلك الثوب ،
وهو يشبه الظلمات ، غير محدود ، لامتناهياً ، ولهذا ،

بالتحديد ، كانت شهوته تتضاعف . لكن الخوف من أن يفعل كثيراً ومن أن لا يفعل بقدر كافٍ ، كان يتزعزع منه كل بصيرة . وبتذكرنا فاللون وجوليان ، نتبع خطأ منحنيًا يذهب من لاكلو إلى ستندال ، ومن ستندال إلى فلوير . يرى من خلال أبطاهم الثلاثة أن الأول ضابط ، وفي المدفعية ، سلاح بونابرت ، والثاني عسكري أيضاً ، وفلوير مدني محصن .

إذا كان قدر كل واحد متعلقاً بقدر الآخر ، كذلك طباعه ، فإن هذا ، لدى فريديريك والسيدة أرنو ، ليس إلا ملمحاً مشتركاً مع كل شخصيات فلوير الذين ليسوا ذوي إرادات ، لا يفرضون أنفسهم في وسطهم ، وهم ، بطريقة تكاد تكون منحرفة ، يتلقون الفعل دائماً . هكذا بوفار ويكوشيه هما لا ينجدان إلا من يوم تلاقيا ، من يوم هما اثنان : تصور مطلق ، في المنافر ، من طبع جماعيّ يكون عمق البشرية .

بالنسبة لفريديريك ، إن ماري ، وحدها ، هي ما هو العالم الغامض والخياليّ لا يما : صورة السعادة . تجسد هي طيبة مشرقة ، بلطف مشعة ، وبطريقة لا تنضب ، إمكان سعادة ، بعيداً كلياً ، عن طيبة غير متحفظة وفضفاضة ، بقدر ما هي بعيدة عن جفاف قلق لامبالٍ . وفي الأخير ، حين تركز حبها على فريديريك ، تكون ، بصواب ، قد انتقت الرجل الذي يسمح لها بانتصار ، ليس ، في الحقيقة ، سهلاً ، لكنه نسبيّ قياساً بقواها . في مشهد المصنع ذاك ، في كراي ، الذي يزورانه مع سينيكال ، والذي يعيد ، مع فوارق أدق ، زيارة الكاتدرائية في « مدام

بوفاري . كئيماً يبدو وجه السيِّدة أرنو ، لتميَّز وتصدَّ رغبة تحسُّها على شفَّتي فريدرىك . وإنَّ المناسبات التي تساعدُها للابتعاد عن الشوق ، هي مناسبات سعيدة بالنسبة إليها . تستطيع العيش في واقع حزين ، لكنها بحاجة لأن تعيش في واقع هادئ . لا تحمل حبها كله إلى فريدرىك ، إلَّا حين يصبح هذا الحبَّ ماضياً ، وإذ لا تستطيع الحديث عن الفرح ، هي لا تستطيع ، كذلك ، أن تفعل سوءاً ، فيصبح حلمها وراءها ، كما وجده فريدرىك وإيمًا أمامها ، وتقدر أن تمتلكه بدل أن يمتلكها . وحين يظنُّها فريدرىك جاءت لتكون له ، تكون جاءت ، فقط ، لتسويَّ كل شيء في قلبيهما ، فتسدل شعرها الأبيض ، وتقصَّ منه خصلة طويلة تقدِّمها له ، هكذا ، هي تدخل مكانها الطبيعي ، الذي هو هدوء الماضي . ويدهشنا المشهد أكثر حين نعرف أنه حدث ، فعلاً ، بين فلوير والسيِّدة شليسنجر وقد صارا هرمين .

ان « التربية » هي وقائع ١٨٤٨ ، كما ان « الأحمر والأسود » هو وقائع ١٨٣٠ . فالروح التي ألهبت ثورة شباط ، يجب أن تكون ممثلة فيها بطريقة هامة . ليس بواسطة فريدرىك ، البورجوازي الشاب السليبي والعاطفي ، المشرَّع لكل التآثرات ، المهتر مع كل التيارات ، إنما بثوار فاعلين أصحاب عنف . وفي « التربية » نماذج ثلاثة للتوَّار .

هناك ، أولاً ، ديلاوريه ، ابن حاجب غير مستقيم خرب ابنه وحاول يسرق له مال أمه . ساخط وطموح ، يصبح ثائراً عن مصلحة ، ليتبوأ مكانة يرفضها له المجتمع البورجوازي لفقره .

« يحرك جموعاً كثيرة ، ويفتعل الكثير من الضجيج ، ويكون له ثلاثة أمناء سرّ في تصرفه ، وعشاء سياسي حافل مرة في الأسبوع » . والثورة هي الوسط الذي يسمح له بذلك . « نعيش ، كان يقول ، في هذا الزمن ، نستطيع تأكيد حضورنا ، إظهار قوتنا ! محامون بسيطون يأمرّون جنرالات ، معدّمون يغلبون الملوك » . مدّع أحقّ ومتعصّب ، يطمع لأن يقتسم ثروة فريدريك معه بدون أن يعرف له جيلاً . مع ذلك ، هو يكن لفريدريك احتراماً يكاد يكون حائراً ، بطبع جافّ لطبيعة رقيقة وقادرة على التمتع . لكن إعجابه كله يتجه إلى سينيكال ، وهو مثله ساخط ، يحترم فيه إرادة يعرف أنه لا يتحلّى بها ، ويحسده عليها .

سينيكال ، ابن رئيس عمّال ، ورث عنه حبّ السلطة وإصدار الأوامر . إنه ناثر لحاجة إلى السيطرة ، ولشهوة إلى العدالة . نلمحه في الرواية ، على فترات ، دائماً على قمم حيث هو حسن الإقامة ، ذو بسالة يعكسها على الآخرين . هكذا ، يساعد هو في جعل زيارة المصنع ، في كراي ، قطعة أجمل ، وأقلّ تشنّجاً ، بما لا يقارن ، من زيارة الكاندرائية في « مدام بوفاري » ، تعصّبه في النظام والأوامر ، يجعله يتنقل ، طبيعياً ، من الثورة إلى مركز رئيس الشرطة في خدمة الانقلاب . إنه لمن الممكن ، بل والمحتمل ، أن يكون جيل ١٨٤٨ و ١٨٥١ ، قد أفرز هذا النوع ، لكنه ، كما يبدو ، هو أقلّ ظهوراً في تاريخ هذه الفترة من فترة ١٧٩٣ ، حيث طبائع الأمر والسلطة كانت في المقام الأوّل ، وحيث راح اليعقوبيّون يحضرون للامبراطورية المديرين

ورجال الشرطة !

أما الناصر الحقيقي في ١٨٤٨ ، فهو ديسردييه . انه يقدم لنا ، ربما ، الصورة الوحيدة الندية والصريحة ، الجميلة والجذابة ، التي تصادف في « التربية العاطفية » (أقله بين الرجال) . ناثر هو بحماسة ، لحماية الضعفاء والمقهورين . يفشل ديلورييه في مقاطعته . وسينيكال يفشل في الشرطة . وديسردييه يُقتل في الثاني من كانون الأول ، يقتله سينيكال ، رجل الشرطة . وتتم التصفية .

هناك عامل مأساوي عند الثلاثة . لكن يبدو أن فلوير أراد أن ينهي هذه الثلاثية بملهأة حقيقة . وشخصية ريجيمبار ، واحدة من شخصيات مثيري السخرية التي تكثر عند ديكتز وعند ألفونس دوديه ، تخترق الرواية ، بالصورة التي أراده فلوير أن يجتاز بها الحياة . « سينيكال - الذي كانت جمجمته مروسة - ما كان يجلب إلا النظريات . ريجيمبار ، على العكس ، ما كان يرى في الوقائع إلا الوقائع . ما يحزنه فعلياً ، حدود الرين . يطمح لأن يبرز في سلاح المدفعية ، وراح يرتدي ثياباً من خياطة خياط مدرسة البوليتكنيك » . يستطيع ، بهذا المكسب ، أن يجلس في المقاهي ، من الصباح إلى المساء ، يجرع البيرة ويتحدث في السياسة ، بلحية طويلة ، وقبعة ذات أطراف مرفوعة ، وسترة خضراء طويلة . وهو زوج خياطة تهتم بلباسه ، يحمل من بيته إلى المقهى ، ومن طاولة إلى أخرى ، خطوة محترمة . لم يكن على فلوير إلا أن يفتح عينيه ليتعرف إلى ريجيمباري السياسة . ومن لا يعرف الذين هم

للأدب ؟ الرسّام الهرم بيلران هو نظير ريجمبار . واليوم أيضاً ، حين تهتم الأسطورة بسنة ١٨٤٨ ، فإن أوّل ما يلفت الانتباه ، هو ديكور هذه اللحي .

ان الكتاب الفرنسي الذي كان فلوير معجباً به ، بالأكثر ، معنى ومبنى ، هو كتاب « الطبائع » للابروير . أراد أن يجمع ، (وقد نجح إلى حدّ ما) في « التربية العاطفية » ، حصيلة عصره ، كما جمع لابروير ، بدوره ، حصيلة عصره . ولو كان لابروير عاش في عصر عُرفت فيه رواية الملاحظة والتحليل ، لكان كتب كتاباً من هذا النوع . لكن أثر الروائي وأثر الأخلاقي يختلفان بمقدار ما تختلف طبيعة عصر يُنتج روائين وطبيعة عصر ينتج أخلاقيين . ما يقدم مظهراً متناسقاً ، هو مكانة كل من الأثرين ، والجهد المبذول من فنّان كبير ، ليقدّم لوحة عميقة ، حيادية وعامة ، من زاوية البلد والزمن ، حيث عاش وجوده وعرف الانسانية .

لكنّ حظ « التربية العاطفية » كان أقلّ بريقاً من حظ « الطبائع » ، ولا يقارن به إلا من حيث الانتقادات التي وُجّهت ، أوّل الأمر ، إلى فلوير . قال : « إن الأكثر تسامحاً بينها ، هو أنني ، قال ، لم أضع إلاّ لوحات ، وأن التّأليف والرسم ينقصان تماماً » . يبقى ، من كل ما كتب فلوير نفسه عن روايته ، الكشف الأهم الواجب حفظه ، أنه كتب « التربية العاطفية » ، في قسم منها لسانت بوف . وفي الواقع ، ان صورة السيّد أرنو ، هي حصيلة نصائح كان سانت بوف وجّهما إلى فلوير في مقالته

عن « مدام بوفاري » . فرواية فلوير كانت تتطلب درجة من الثقافة أرفع من تلك التي كانت تكفي « مدام بوفاري » ، ألفه مع الأساتذة مثل لابرويير ولوساج الذي منها استوحى . من المحتمل أنه كان يلزمه ، كذلك ، أمر آخر كان ينقص سانت بوف . فقد كان هذا غريباً ، نوعاً ، عن الحياة ، وعن تطوّر الجيل الذي كان فلوير رسمهما هنا ، فقد أحبّ في « التربية العاطفية » بعض مشاهد وبعض أوجه ، لكن مشروع الرواية العام لم يكن يثيره بأكثر مما أثارته رواية « سلمبو » .

نجحت « التربية العاطفية » في العالم الامبراطوري . كان ذوقه ، ربما ، أكثر نداوة وأصحّ من ذوق النقد . في ١٨٦٩ ، قرئت ، كاملة ، على فترات كثيرة ، عند الأميرة ماتيلد ، وأثارت حماسة كبيرة ، وبخاصة الفصل الأخير . وجهت السيّد دو مترینخ إطرعات كثيرة إلى المؤلف ، وهكذا أيضاً فيوليه - لو - دوق . التبس الأمر ، ربما ، على النقد . إنما العبارة الأخيرة أثّرت فيه تأثير ريشة طاووس مرّرت في خياشيم ثور . « تستشهد كل الجرائد ، على وضاعتي بمشهد التركيّة التي جرّدها من طبيعتها ، ويقارنني سارسي بالمركيز دوساد الذي يقرّ بأنه لم يقرأه . . . » ، ويدّعي باري أوريفلي بأنني أوسّخ الجدول وأنا أغتسل فيه » . لم يكن فلوير يتوقّع هذا الفشل الذي كان قاسياً عليه ، والذي لم يفهمه . كان يرّدّد على أصدقائه : « ولكن . . . أنستطيعون تفسير عدم نجاح هذه الرواية ؟ » كان يثق بأنه كتب أكثر من « عادات مقاطعة » ، الرواية الكاملة الكبرى ، (بلزاكية وباريسية) ، التي

تطلبها زمنه والتي كانت تفرض وجودها على فن تلك الفترة . كان يظن أيضاً أنه أنتج عملاً نافعاً وأخلاقياً . ولقد ادعى دو كمب أنه قال له أمان التويلري المحترقة : « ما كان هذا ليحدث ، لو فهموا » التربية العاطفية « ! » ، على كل حال ، كان كتب إليه في ١٨٧٠ : « نعم ، معك حق ، إننا ندفع ثمن كذبتنا الطويل الذي فيه كنا نجيا ، لأن كل شيء كان خطأ : جيش خطأ ، سياسة خطأ ، أدب خطأ ، ثقة خطأ ، وحتى عواهر خطأ . أن تقول الحقيقة ، كان عملاً لا أخلاقياً ، عاب على برسيني ، كل الشتاء المنصرم ، فقدان المثال ، ولربما كان حسن الظن » .

إنما ، إذا كانت « التربية العاطفية » أثارت النقد لكونها لم تبدد ، أبداً ، أوهام الامبراطورية الثانية وهي تظهر لها أوهام الذين تقدموها ، فهي كانت لنشع ، ببطء ، أكيداً وبقدرة ، على كل تطور الرواية الواقعية . تصوير ساخر لكائنات متفككة ، كان عمل الموباسائيين ، الزوليين والهويسمائيين . أن تضع ، في رواية ، لوحة لجليل بكامله ، وأن تترك بعدك هذا الأثر ، هذا الأثر المشع ، كان طموح كثيرين من الروائيين الشبان ، لم تمض سنة ، أو فصل ، ولم يصور ، تقريباً ، بطريقة فنية من أحد فيه . كل روائي صار يريد رسم جيله ، أو ما كان يراه في أوساط كان قدره يقذفه إليها .

ومن هذا الواقع ، فإن تضاعف قيمة آثار فلوير ، دلّ على قوتها الجوهرية ، فقد قلدها كثيرون ، لكنها احتفظت بمجد ان لم يعادها أي من مقلديها .

ألبير تيبوديه

القسم الأول

حوالى الساعة السادسة صباح الخامس عشر من أيلول ١٨٤٠ ، كانت السفينة فيل - دي - مونتر ووشيكة الاقلاع تنفث دخاناً كثيفاً أمام رصيف سان برنار .

يتوافد الناس راكضين ، بينما البراميل والحبال و سلال الثياب تعرقل السير . لا يجيب البحارة أحداً ، الناس يصطدمون بعضهم ببعض ، تصعد الطرود بين المدفتين ، وتضيع الضوضاء في هدير الباخرة ، التي ، وهي تُقلع ، تغمر كل شيء بدخان أبيض ، بينما الجرس ، في المقدمة ، يقرع بلا انقطاع . أخيراً انطلقت الباخرة ، والبارجتان ، مليئتين مخازن ، مشاغل ومصانع ، انطلقتا كشريطتين واسعتين نكراًهما .

بقي شاب في الثامنة عشرة جامداً قرب دفة السفينة ، شعره طويل ، ويتأبط ألوماً . راح يراقب ، عبر الضباب ، الأجراس ، والأبنية التي يجهل أسماءها ، ثم ، بآخر نظرة ، ضمّ جزيرة سان لويس ، ومنطقة « لاسيتي » ونوتردام ، وإذا اختفت باريس ، تنهد تنهداً كبيرة عميقة .

إنه السيد فريدريك مورو ، وهو يعود ، بعد نجاحه في البكالوريا ، إلى نوجان - سور - سين ، حيث عليه أن يمضي شهرين كتيين ، قبل الانطلاق لدراسة الحقوق . كانت أمه ، بالمبلغ الضروري ، أرسلته إلى هافر عند عم تأمل أن يرثه ابنها .

وقد عاد من هناك البارحة . وتعويضاً لنفسه عن عدم القدرة على الإقامة في العاصمة ، هوذا يرجع إلى مقاطعته سالكاً أطول طريق .

بدأ يخفّ الضجيج ، الجميع أخذ مكانه ، البعض واقف يتدفأ قرب المدخنة التي كانت تبصق بغرغرة بطيئة وموقعة ، دخانها الأسود المتموج ؛ نقاط ندى تزلق على النحاس ، يرتجف سطح السفينة لارتجاج بسيط في الداخل ، والدولابان ، يدوران بسرعة ، يخبطان المياه .

كان النهر محاطاً بدروع رملية . وكنت ترى طُوفٌ جُدوع تتماوج بتأثير تقلبات الموج ، أو ترى ، في مركب بلا شراع ، رجلاً جالساً يصطاد ، وذاب ضباب طُوف ، فظهرت الشمس ، وصغرت التلة التي كانت ترافق ، إلى اليمين ، مجرى السين ، وبدت أخرى ، أقرب منها ، إلى الجهة المقابلة .

هذه التلة كانت تظلّلها أشجار متناثرة بين منازل منخفضة سقوفها على النمط الايطالي . تحيط بهذه المنازل حدائق ذات انحدارات تقسمها جدران جديدة ، شبكات حديدية ، فسحات معشوشبة ، أبنية زجاجية لبنات ، وآنية جيرانيوم مُبعدة بترتيب على شرفات ، حيث يمكن الاتكاء . أكثر من واحد ، حين رأى هذه المساكن المتقنة والهادئة ، تمنى لو هو صاحب أحدها ، ليعيش فيها حتى نهاية أيامه ، مع صالة بليار ، ومركب وامرأة أو أي حلم آخر . لذة جديدة كل الجدة للرحلة البحرية هذه كانت تسهّل المناجاة . ابتدأ المزّاحون يروون نكاتهم . كثيرون راحوا يغنون .

كانوا فرحين . وطفقوا يصّبون كؤوساً صغيرة .

كان يفكر فريدريك في الغرفة التي سيشغلها هناك ، في تصميم دراما ، في مواضيع لوحات ، في آلام مستقبلية . رأى أن السعادة التي يستحقها تأخرت في المجيء . أنشد أبياتاً كثيرة ، مشى على ظهر السفينة بخطوات عجل ، تقدّم إلى الطرف ، من جهة الجرس ، وفي حلقة مسافرين وبحّارة ، رأى سيّداً يروي نكات لقروية ، وهو يتلاعب بصليبيها الذهبي الذي على صدرها . كان جريئاً في حوالى الأربعين ، ذا شعر قصير جعد . تملأ سترته المخملية السوداء ، قامته الصلبة ، وزمردتان تلمعان في قميصه الباتسته ، وبنطاله الأبيض الواسع يقع على حذاء أحمر غريب ، روسيّ الجلد ، تعلوه رسوم زرقاء .

ما أزعجه وجود فريدريك . استدار نحوه مرات كثيرة - رامقاً إياه بغمزات من عينيه ، بعد ذلك قدّم سيكّاراً لكل من يحيط به . وإذ ضجر ، ولا شك ، من هذه الرفقة ، راح وجلس بعيداً . لحق به فريدريك .

دار الحديث ، أول الأمر ، على أنواع التبغ المختلفة ، ثم ، وبشكل طبيعي ، على النساء . قدّم السيد ذو الحذاء الأحمر نصائح للشباب ، عرض نظريات ، أخبر نكات ، مستشهداً بنفسه كمثال ، بادئاً كل هذا بنبرة أبوية ، مع سذاجة « إفسادية » مسلية .

كان من حزب الجمهورية . سبق له أن سافر ، وخبر مواطن المسارح ، والمطاعم ، والجرائد ، وكل الفنّانين المشهورين

الذين كان يسميهم ، وبلا تكلف ، بأسمائهم الأولى . وسرعان ما أفضى إليه فريدريك بمشاريعه ، فشجعه عليها .

إلا أنه قاطع نفسه ليراقب قسطل المدخنة ، ثم تتمم ، بسرعة ، حساباً طويلاً ، يعرف « كم كل ضربة مكبس ، كذا مرة في الدقيقة ، يجب . . . » وإذ حصل على الجواب ، استمتع بالمنظر . وقال في نفسه إنه سعيد لخلاصه من الأعمال .

أظهر فريدريك تجاهه نوعاً من الاحترام ، ولم يقاوم رغبة معرفة اسمه . أجاب المجهول ، بنفس واحد :

- جاك أرنو ، صاحب « الفن الصناعي » ، بولفار مونمارتر .

جاءه خادم ؛ على قبعته شريطة ذهب ، يقول :

- لو ينزل سيدي ؟ الأنسة تبكي .

واختفى .

كان « الفن الصناعي » مؤسسة « مخلوطة » ، تضم نشرة رسم وتخزن لوحات . وكان فريدريك شاهد هذا العنوان مراراً في واجهة صاحب مكتبة بلده الأصلي ، على إعلانات هائلة ، حيث يمتد ، بعظمة ، اسم جاك أرنو .

كانت الشمس تحرق صفحة المياه وتلمع جدائل الحديد حول الصواري . عند جؤجؤ السفينة تنقسم المياه قسمين يمتدان حتى حدود الحقول . وعند كل لفطة للنهر ، كنت ترى ستار الحور الشاحب نفسه . الريف مقفر . في السماء بعض غيومات بيضاء متوقفة ، والضجر ، المنتشر بلا تحديد ، يبدو كأنه يضعف مسيرة

المركب ، ويجعل هيئة المسافرين تزداد تفاهة .
 ما خلا بضعة بورجوازيين ، في الدرجات الأولى ، لكن
 المسافرين عمال ، أصحاب محلات بصحبة نساءهم وأولادهم .
 وبما أنهم كانوا معتادين أن يلبسوا كيفما اتفق في الرحلة ، فإن
 معظمهم قد اعتمر طاقيات يونانية قديمة ، أو قبعات نسيت
 ألوانها ، وارتدوا ثياباً سوداء بسيطة ، رثة لاحتكاكها الكثير
 بالمكتب ، أو سترات طويلة مقطّعة الأزرار لكثرة ما خدمت في
 المحلّ ، وهنا وهناك بعض صدرات فوقها شال ، تبدي قميصاً
 قطنياً خشناً ، مبقّعاً قهوة ، دبابيس ذهبانية تعقص ربطات عنق
 شبه ممزّقة ، شرائط مدروزة تحفظ أطراف الأحذية ، اثنان أو ثلاثة
 أوغاد يسكون قضبان خيزران برسلون نظرات منحرفة ، وأرباب
 عائلات يفتحون عيوناً كبيرة متسائلين . يتحدثون واقفين أو
 مقرّفين حول حوائجهم ، آخرون كانوا نائمين في الزوايا ،
 كثيرون كانوا يأكلون . اتّسخ سطح السفينة بقشر جوز ، وأعقاب
 سجائر ، وقشر إجاص ، وبقايا لحوم كانت جُمِلت بأوراق ، ثلاثة
 نجّاري آبنوس ذوي قمصان فضفاضة ، كانوا واقفين أمام
 مطعم . عازف قيثار بثياب ممزّقة وقف يرتاح ، متكئاً على آله .
 بين وقت وآخر ، كنت تسمع طقطقة الحطب في المدفئة ؛ أو
 صيحة ، أو ضحكة ، وعلى جسير النزول ، القبطان ينتقل من
 حاجز هوائي إلى آخر ، لا يتوقّف . وأراد فريدريك أن يعود إلى
 مكانه ، فأزاح شبكة حديد الدرجات الأولى ، مزعجاً صيادين مع
 كليهما .

وَحَدَّثَ مَا يَشْبِهَ الرَّؤْيَا :

كانت جالسة وسط المقعد وحيدة . أو ، أفلّه ، لم ملاحظ
أحداً ، في البريق الباهر الذي أرسلته له عيناها وبيننا كان يمر ،
رفعت رأسها ، ولا إرادياً هز كتفيه ، وحين صار بعيداً ، ومن
الجهة نفسها ، راح ينظر إليها .

كانت تعتمر قبة قش ، لها شرائط زهرية تطير في الهواء ،
وراءها . عصابات رأسها ، الملامسة لحاجبيها الطويلين ، تنزل
عميقاً وتبدو تضغط ، بوله ، وجهها . ثوبها ، الذي من موسلين
زاهٍ ، المنقط بنقاط صغيرة ، يفيض بثنايا كثيرة . كانت تطرّز
شيئاً ، وأنفها المستقيم ، ذقنها ، كلّها ، بوضوح تظهر في عمق
المياه الزرقاء .

وبما أنها حافظت على وضعها ذات ، دار دورات كثيرة يمناً
وشمالاً ليخفي مظهره . ثم انزاع قريباً من شمسيّتها الموضوعة
بجانب المقعد ، وتظاهر بمراقبة زورق إنقاذ .

ما كان رأى ، قبل ، شيئاً مثل روعة بشرتها السمراء ،
واغواء قامتها ، ونعومة أناملها التي يخترقها النور . راح ، بذهول ،
يراقب سلّة شغلها ، كما لو هي أمر غريب . ما اسمها ، تساءل ،
أين مسكنها ، ما نمط حياتها ، ما ماضيها ؟ تنى لو يعرف أثار
غرفها ، كل أثوابها التي كانت ترتديها ، الناس الذين تخالطهم ،
حتى لذة الامتلاك الجسدي نفسها ، اختفت برغبة أعمق ، في
حشريّة اليمّة لا حدود لها .

أقبلت زنجية متشحة بوشاح ، ممسكة بيدها فتاة صغيرة بدأت تكبر . هي مستيقظة لتوها ، عيناها تتلألآن بالدموع . أخذتها على ركبتيها . « ما كانت البنت عاقلة ، مع أنها بلغت السابعة . لن تحبها أمها . لقد تساعنا أكثر من اللزوم مع نزواتها » . سرّ فريدريك لسماعه هذه الأشياء ، كما لو كانت اكتشافاً ، كسباً .

حسبها من أصل أندلسي ، ربما مولدة بيضاء . لعلها ، أتت ، من الجزر ، بهذه الخادمة السوداء معها ؟

وراءها ، على الحرف النحاسي ، شال طويل بحروف بنفسجية ، يفترض أنها لفت به قامتها كثيراً خلال الليالي الرطبة وسط البحر ، وغطت به قدميها ، ونامت بداخله . لكنه راح يزلق قليلاً قليلاً ، وكان سيقع في الماء ، فقفز فريدريك والتقطه . قالت له :

- أشكرك سيدي .

التفت عيناها .

- هل أنت جاهزة ، يا زوجتي ؟ هتف السيد أرنو وقد ظهر

في فتحة الدرج .

ركضت إليه الأنسة مارت ، تعلقت بعنقه ، وراحت تشدّ شاربيه . انتشرت أنغام قيثاره ، وأرادت الفتاة أن ترى الموسيقى . وسرعان ما وصل العازف ، مع العبدية ، ودخل الدرجات الأولى . عرفه السيد أرنو مودياً قديماً . خاطبه برفع الكلفة ، مما أدهش الحاضرين . أخيراً رمى العازف شعره خلف

كتفيه ، مطّ ذراعيه وراح يعزف .

كانت حكاية شرقية ، تحكي عن خناجر وأرهار ونجوم .
يغنيها الرجل ذو الثياب الرثة بصوت نفاذ . ضربات القيثارة تقطع
اللحن خطأ . ينقر أقوى : تهتز الأوتار ، وأنغامها المعدنية تبدو
تصعد شهقات كما شكوى حب متكبر وخاسر . في جانبي النهر ،
تنحني أشجار حتى تلامس الماء . نسيم منعش يمر . والسيدة أرنو
تنظر ، بطريقة غامضة ، إلى البعيد . حين توقفت الموسيقى ،
حرّكت جفونها مرات كثيرة ، كما لو هي تطلع من حلم .

تقدم العازف منهم بتواضع . وحين راح السيد أرنو يبحث
عن مال ، مد فريدريك يده المقفلة صوب الكاسكيت ، وإذا
فتحتها ببراءة ، وضع ليرة ذهبية . ما كان التبجح أمامها دافعه
للاحسان ، لكنها فكرة تبرّك فيها تشترك عاطفة قلبية تكاد تكون
دينية .

دله ارنو على الطريق ودعاه بود إلى النزول ، فأكد له
فريدريك أنه تغدّى - على العكس كان يتصور جوعاً ، وما عاد
يملك قرشاً واحداً .

بعدها ، فكر ، كان له الحق ، كما أي آخر ، بالبقاء في
الغرفة .

وأمام موائد مستديرة ، كان بورجوازيون يأكلون ، وفكرهم
يدور . السيد والسيدة أرنو كانا في العمق ، إلى اليمين . جلس
هو على مقعد مخملي طويل ، بعدما أخذ جريدة كانت هناك .
كان عليهما ، في مونتيرو ، أن يستعجلا أمرهما . رحلتها ،

في سويسرا ، تدوم شهراً . وبِخْت السيِّدة أرنو زوجها لضعفه أمام ابنته . همس في أذنها بشيء عذب ولا شك ، إذ هي ابتسمت . ثم أهتمَّت بتكسير النافذة خلفه .

السقف واطيء وأبيض يعكس نوراً ساطعاً . راح فريدريك يلاحظ ظلال رموشها . تبلَّل شفتيها بكأسها ، تكسر شيئاً من رقاقة محشوة بأصابعها . الرصيلة اللازوردية المعلّقة بسلسلة ذهبي في رسغ يدها ، تفرع صحنها بين وقت وآخر مع ذلك ، فالحاضرون ما كانوا يلاحظونها .

أحياناً ، من نوافذ السفينة ، كان يظهر جنب مركب يقرب الزورق من الشاطئ ليأخذ أو لينزل مسافرين . الناس إلى الطاولات ينحنون إلى الكوى ويسمون المناطق النهرية .

طفق أرنو يشتهي من المطبخ ، وصرخ أمام الحساب ، وأنقصه . ثم أخذ الشاب إلى مقدّم السفينة لشرب مشروب ساخن . لكن فريدريك استدار إلى الخيمة ، حيث عادت السيِّدة أرنو . كانت تقرأ كتاباً رقيقاً غلافه رمادي . زاويتا فمها تنفرجان الفينة بعد الفينة ، وإشراقه رضى ولذة تنير جبهتها . حسد من اخترع هذه الأشياء المهمة بها . ويقدر ما يتأملها ، يشعر بهاويات تنحرف بينهما . فكّر أنّه سيغادرها الآن نهائياً ، من دون أن يحصل على كلمة منها ، من دون أن تترك له ولو ذكرى .

إلى اليمين يمتد السهل . إلى الشمال مرج يصل ، على مهل ، قمة ، حيث ترى كروماً ، وشجر جوز ، وطاحونة ، ودروب صغيرة متعرجة في الأكمة التي تصل إلى حدود السماء . يا

للسعادة ! أن يتسلّقا ، جنباً إلى جنب ، ذراعه حول خصرها ،
بينما ثوبها يكنس الأوراق الصفراء ، فيصغي إلى صوتها تحت
إشعاع عينيها ! تستطيع السفينة التوقف ، ما عليهما إلا النزول :
وهذا الأمر الغاية في السهولة ، ما كان أسهل منه ، إلا تحريك
الشمس !

أبعد قليلاً ، اكتشف قصر . سقفه مقرّن مع أبراج صغيرة
مربعة . روضة أزهار تنبسط أمام واجهته ؛ وممرات تغوص ، كما
عقود قنب سود ، تحت الزيزفون العالي . تحيلها تمرّ على حدود
الخمائل . ظهر ، هذه اللحظة ، على درج المدخل ، بين صناديق
الليمون ، امرأة ورجل في مقتبل العمر . ثم اختفى كل شيء .
بدأت الفتاة الصغيرة تلعب حوله . أراد فريدريك
تقبيلها . اختبأت وراء خادمتها . عنفتها أمّها لكونها لم تكن لطيفة
مع السيّد الذي أنقذ شالها . أكانت هذه تلميحة غير مباشرة ؟
- « استحدّثني أخيراً ؟ » تساءل في ذاته .

الوقت يضغط . كيف الحصول على دعوة عندهم ؟ وما
تفتق له شيء أفضل من أن يجعلها تلاحظ لون الخريف ،
وأضاف :

- قريباً الشتاء . فصل حفلات الرقص والعشاء !
لكن أرنو كان مهتماً بحوائجه . ظهرت ضفة سورفيل ،
اقترب الجسران ، اخترقوا مصنع الحبال ، ثم صفّ بيوت واطئة ؛
تحتها قدور زفت ، نيران حطب ، وأولاد مراهقون يركضون على
الرمل وهم يدورون على أنفسهم . عرف فريدريك رجلاً بصدره

ذات أكمام ، هتف له :

- اسرع .

وصلوا . بصعوبة وجد السيد أرنو ، بين جموع المسافرين ،
أجابه وهو يضغط يده :

- بالتوفيق ، سيدي العزيز .

حين صار على الرصيف ، استدار فريدريك . كانت قرب
دفة السفينة ، واقفة . تطلع إليها بنظرة حاول أن يجعل فيها ذوب
روحه . بقيت جامدة ، كأنه لم يفعل شيئاً . ثم ، من دون اهتمام
بترحيب خادمه :

- لم لم تأتِ بالعربة إلى هنا ؟

صار الرجل يعتذر .

- يا لك من أرعن ! أعطني مالاً !

وراح يتغذى في فندق .

بعد ربع ساعة ، اشتعلت فيه رغبة : أن يدخل ، كما
صدفة ، ساحة العربات . لربما رآها .
- « ما الجدوى ؟ » قال في ذاته .

وحملته العربة . الحصانان لم يكونا لأمه . كانت استعارت
حصان السيد شامبريون ، الجابي ، لتقطره بجانب حصانها .
إيزيدور ، وقد انطلق مساء أمس ، ارتاح في براي ونام في
مونتيرو ، ليرتاح الحيوانان ويخبأ برشاقة .

تمتدّ حقول حُصدت إلى ما لا نهاية . خطّان من شجر
يزيّنان الطريق ، كومات الحصى تتابع ؛ وشيئاً فشيئاً ، فيلنوف -

سان - جورج ، أبلون ، شاتيون ، كورباي ، والمناطق الأخرى ، وكل رحلته استفاقت في ذاكرته ، بطريقة صافية إلى حد أنه ، الآن ، بميز تفاصيل جديدة ، خصائص أكثر حميمية ؟ تحت الدائر الأخير من توبها ، تتعل قدمها حذاء حريراً ناعماً ، بنيا الخيمة التي من نسيج محبوك ، تؤلف ، فوق رأسها ، قبة واسعة ، وشراباتها الحمر الصغيرة التي في الأطراف ، ترتجف ، في النسيم ، بلا هودة .

كانت تشبه نساء الكتب الرومنطيقية . ما أراد أن يزيد شيئاً على شخصيتها ، أو ينقص شيئاً منها . وراح العالم يتسع . صارت النقطة المشعة حيث تلتقي كل الأشياء ؛ واستسلم متمائلاً مع حركة العربة ، جفناه نصف مطبقين ، ونظرة إلى الغيوم . استسلم لفرحة حالمة لا متناهية .

ما انتظر في براي لتقديم الشعير للحصانين ، اتجه ، وحيداً ، إلى الأمام . كان أرنو ناداه « ماري ! » فهتف عالياً جداً : « ماري ! » ضاع صوته في الهواء .

لون أرجواني وسيع ألهب السماء ، إلى الغرب . أكداس القمح الكبيرة ، التي كانت تنهض وسط الأرض المحصودة ، تلقي ظلالها الضخمة في البعيد . راح كلب ينبع في مزرعة ؟ ارتجف ؛ إذ غلّت فيه كآبة لا سبب لها .

حين لحق به إيزيدور ، جلس على مقعد القيادة . زال ضناه . كان قرّر ، حازماً ، أن يدخل ، كيفما كان ، عند آل أرنو ، وأن يرتبط بهم . لا بدّ أن يكون جوهم مسلماً . على كل

حال ، كان السيّد أرنو يعجبه ؛ ثم ، مَن يدري ؟ حينها ، تدفق الدم إلى وجهه : صدغاه يطنّان ، صفق سوطه ، أرخى الرسن ، وقاد الحصانين بسرعة قصوى ، جعلت الخوذيّ يردّد :
- رويداً ! رويداً ! تجعلهما متنفخي الرثة .
شيئاً فشيئاً هدأ فريدريك ، وسمع خادمه يتحدّث .
ننتظرك ، سيّدي ، بفارغ الصبر . بكت الأنسة لويز لتأتي بالعربة .

- مَن هي الأنسة لويز ؟
- صغيرة السيّدة روك ، تعرفها ؟
- آه ! كنت نسيّت ! قال فريدريك بإهمال .
في هذا الوقت ، كان الحصانان قد تعبّا . راحا يعرجان ؛ ودقّت الساعة في سان - لوران عندما وصل إلى ساحة السلاح ، أمام بيت أمّه . هذا البيت الرحب ، مع حديقة تطل على الريف ، أضيفت للملاحظة السيّدة مورو ، الإنسان الشخصية المحترمة بالأكثر ، في كل المنطقة .

إنها تتحدر من عائلة نبلاء قديمة ، انقرضت الآن . زوجها من أبناء الطبقة الشعبية زوّجها إياه أهلها . مات بضربة سيف ، أثناء حملها ، تاركاً لها ثروة مشبوهة . تستقبل ثلاث مرات في الأسبوع ، وبين وقت وآخر ، تقيم غداء احتفالياً . لكنها تعدّ الشموع من قبل ، وتنتظر ، على أحرم من الجمر ، إيجار أراضيها . هذا العوز ، المستور كالنقيصة ، يجعلها رصينة . غير أنها تمارس فضيلتها بتواضع متطرّف ، من دون مرارة . صداقاتها البسيطة

تبدو حسنات كبيرة . يستشيرونها في اختيار الخدم ، في تربية الفتيات ، في فن المربّيات ، وينزل المطران عندها في جولاته الأسقفية .

تغذي السيدة مورو طموحاً كبيراً في ابنها . ما كانت تحب سماع تأنيب الحكم ، بنوع من الحكمة المسبقة . ابنها بحاجة إلى الحماية أولاً . ثم ، بفضل أساليبها ، سيصبح مستشاراً في الدولة ، سفيراً ، وزيراً . نجاحاته في معهد سانس ، تبرّر تكبرها . لقد حصل على جائزة الشرف .

حين دخل الصالون ، نهضوا ، جميعاً ، بسرعة ، قبلوه . وجعلوا ، بالكراسي الواسعة والعادية ، نصف دائرة حول المدفأة . سأله ، مباشرة السيد جمبلان ، رأيه حول السيدة لافارج . هذه الدعوى ، التي في جنون العصر ، ما توانت عن نقاش حاد ، أوقفته السيدة مورو ، على أسف السيد جمبلان ؛ كان يحسبه مفيداً للشباب كونه سيصبح متشرعاً ، وخرج من الصالون مجروحاً شعوره .

لا شيء يباغت في صديق للأب روك ! في ما يخص الأب روك ، تحدّثوا عن السيد رمبروز الذي كان حصل ، من زمان قريب ، على أملاك فورتيل الواسعة . لكنّ الجاني كان انتحي بفريدريك جانبا ليعرف ما يفكر في آخر مؤلف للسيد غيزو . جميعهم يتوقون لمعرفة أعماله . وتصرفت السيدة بنوا بلباقة لتستعلم عن عمها . كيف حاله هذا القريب الطيب ؟ بات لا يخبر عن أحواله . ألم يكن له قريب بعيد في أميركا ؟

أعلنت الطاهية أن طعام السيّد جاهز . بدأوا ينسحبون ،
بفطنة . وإذ هما في الغرفة وحيدان ، قالت أمّه بصوت منخفض :
- وبعد ؟
كان المسنّ استقبله بحرارة ، دون أن يفصح عن نواياه .
تنهّدت السيّدة مورو .
وفكر : « تُرى ، أين تكون الآن ؟ » .
العربة تمشي ، وهي ، ولا شك ، ملتفة بالشال . ساندة
رأسها الجميل النعسان ، إلى قماش العربة .
كانا يصعدان إلى غرفتهما ، حين وصل خادم مرسال حاملاً
ورقة . - ماذا هناك ؟
- إنه ديلورييه بحاجة إليّ .
- آه ! رفيقك ! قالت السيّدة مورو بضحكة احتقار .
الوقت مناسب جداً ، فعلاً ! تردّد فريدريك . إنّما تغلّبت
الصدّاقة . أخذ قبّعته .
قالت أمّه :
- أقلّه ، لا تبقَ طويلاً !

II

كان والد ديلوريه قائد جبهة استقلال في ١٨١٨ ، عاد إلى نوجان وتزوج . وبمال زوجته اشترى وظيفة « مباشر » محكمة بالكاد تكفيه للعيش . يصب غضبه على المحيطين به ، إذ هو ساخط لظلامات متعددة طويلة ، ومتألم من جراح قديمة ، ودائم التأسف على الأباطور . قلائل هم الأولاد الذين ضربوا أكثر من ابنته . ما كان يستسلم المراهق برغم الضرب . حين تحاول أمه التدخل ، تُعنف مثله . أخيراً ، جعله في مكتبه هو ، ويأمره ، طوال النهار ، بالانحناء على طاولته ، ونقل فصول ، مما جعل كتفه اليمنى أقوى من الأخرى بشكل واضح .

عام ١٨٣٣ ، وبعد دعوة السيد الرئيس - باع مكتبه . ماتت زوجته بالسرطان . ذهب يعيش في ديجون ؛ بعدها صار تاجر رجال في « برواي » ، وإذ حصل لشارل على نصف منحة ، وضعه في معهد (Sens) ، حيث تعرّف عليه فريدريك . إنما واحدهما كان في الثانية عشرة ، والآخر في الخامسة عشرة . بالاضافة إلى فروقات كثيرة أخرى في الطباع .

يملك فريدريك ، في صوانه ، كل أنواع الحاجيات ، أشياء نادرة ، ضروريات الزينة ، مثلاً . يجب أن ينام طويلاً في

الصباح ، أن ينظر السنونوات ، أن يقرأ مسرحيات ، وقد وجد حياة المهدي قاسية بالمقارنة مع ملاءات البيت التي راح يتحسر عليها. لكن حياة المعهد بدت جبدة لابن «المباشر» كان يعمل بنشاط ، حتى انه ، في سنته الثانية ، انتقل إلى الصف الثالث . مع ذلك ، بسبب فقره ، أو مزاجه الغاضب ، أحاطت به عدوانية خفية . إنما ، إذ ناداه خادم ، مرة ، ابن المسئول في ملء ملعب الوسط ، قفز إلى عنقه وكاد يقتله لولا تدخل ثلاثة من الأستاذة . وأعجب فريدريك بذلك جداً فضمه بين ذراعيه . من يومها ، صارت صداقتهما كاملة . عاطفة الكبير ، ولا شك ، تملقت غرور الصغير ، وقبل الآخر ، كما السعادة ، هذا التفاني المقدم .

كان والده ، أثناء العطل المدرسية . يتركه في المعهد . وقع صدقة على ترجمة لأفلاطون فتحتمس . أخذ بدراسة الماورائيات . وصار تقدمه سريعاً ، لأنه يقتحمها بقوى شابة ويكبر ذكاء يتحرر . قرأ جوفروا ، كوزان ، لاروميغيير ، مالابرانس ، لايكوسيين ، وكل محتويات المكتبة . أحس بحاجة لأن يسرق مفتاحها ، ليتزود بالكتب .

تسليات فريدريك كانت أقل جدية . رسم في شارع الملوك الثلاثة سلالة المسيح ، المحفورة على عمود ، ثم بوابة الكاتدرائية . بعد فواجع القرون الوسطى ، استثار الذاكرة : فرواسار ، كومينز ، بيار أوليتوال ، برانتوم . تملكته صور مطالعته ، صار يشعر بالحاجة إلى إعادة كتابتها . يطمح لأن يكون ، يوماً ، والتر سكوت فرنسا .

ديلورييه يتفكر في نظام فلسفي مهم يحققه ولو في المستقبل البعيد .
يتحدثان عن كل هذا أثناء الفُرص في الملعب ، بمواجهة
« العبارة الأخلاقية » المرسومة تحت سلة الحائط يتوشوشان في
الكنيسة ، عند حية القديس لويس ، يحملان في المهجع من حيث
ترى مقبرة . أيام النزاهات ، يتدبران أمرهما وراء الآخرين ،
ويتحدثان إلى ما لا نهاية .

يتحدثان عما سيفعلان في ما بعد ، حين خروجهما من
المعهد . أول الأمر ، سيقومان بسفرة طويلة بالمال الذي يجمعه
فريدريك من ثروته ، عند بلوغه سن رشده . ثم يعودان إلى
باريس ، يعملان معاً ، لا يفترقان : - وإذ يرتاحان من أعمالهما ،
يكون لهما مغامرات عاطفية مع أميرات في صالونات صغيرة أو
عربدات خاطفة مع مومسات شهيرات . أحياناً تخيم شكوك على
نزق آمالهما . وبعد نوبات فرح هاذية ، يقعان في صمت عميق .
في أمسيات الصيف ، يأخذهما النهار ، فيتمددان على
ظهرهما ، خائفين ، سكرانين ، بعد أن يكونا مشياً طويلاً عبر
الدروب الحجرية على حدود الكروم ، أو على الطريق الكبرى
وسط الريف ، والقمع يتماوج في الشمس ، في حين يحمل الهواء
روائح سماوية . الآخرون ، بأكمام قمصانهم ، يلعبون
الحواجز ، أو يطّيرون طيارات ورق . يناديهم الناظر . يعودون ،
تابعين بساتين تحترقها جداول صغيرة ، ثم الشوارع العريضة التي
تظللها جدران قديمة . تطن الشوارع المقفرة تحت أقدامهم يفتح
السور ، يصعدون الدرج ، وما هم حزاني كما بعد فجور مفرط .

أدعى المراقب أنها يتحسّسان بالتبادل . والحال أنه إذا ما عمل فريدريك في الصفوف العليا ، فذلك بناء على نصح صديقه ؛ وفي عطلة ١٨٣٧ ، اصططحه عند أمّه .

لم يعجب الشاب السيّد مورو . بغربة أكل ، رفض الذهاب إلى قداس الأحد ، عقد أحاديث جمهورية ؛ وفي الأخير ظنّت أنه سحب ابنها إلى أماكن مشبوهة . راقبوا علاقاتها . أحبّا بعضهما أكثر . ووداعهما كان شاقاً ، في العام الذي أقبل ، حين انتقل ديلورييه من المعهد لدراسة الحقوق في باريس .

نرى فريدريك اللحاق به . ما التقيا من سنتين . بعد انتهاء معانقاتها ، انتقلا إلى الجسور يتحدثان على مزاجهما .

غضب والد فريدريك ، وكان صار صاحب قاعة بليار في فيلنوكس ، غضباً شديداً ، عندما طالبه ابنه بحقوق الوصاية ، حتى أنه توقّف عن الإنفاق عليه . وبما أنه أراد أن يكون استاذاً في الكلية . وهو بلا مال ، قبل ديلورييه في « تروا » مركز كاتب محام عند كاتب عدل . اقتصد أربعة آلاف فرنك ؛ ولو كان لن يقبض من ميراث أمّه ، فإنّ له ما يعمله خلال سنوات ثلاث بحرية منتظراً وظيفة . يجب ، إذن ، التخلّي عن مشروعاتها القديم بالعيش معاً في العاصمة ، في الحاضر ، أقلّه .

وافق فريدريك حزناً ، ها أوّل أحلامه انهارت .

- تعزّز ، قال ابن القائد ، الحياة طويلة ، ونحن شبابان .
الحق بك . لا تفكّر في الأمر . هزّه بيديه ، وليسليّه ، راح يسأله عن رحلته .

ما كان عنده أخبار كثيرة . إنما ، على ذكر السيِّدة ، أرنو ، اختفت كآبته . لم يتحدث عنها ، أمسكه الخجل . تبسط ، في المقابل ، في الحديث عن أرنو ، متذكراً أحاديثه ، حركاته علاقاته ؛ ودعاه ديبلورييه لتعميق هذه المعرفة .

فريدريك ، في أيامه الأخيرة هذه ، ما كان كتب شيئاً . تغيرت آراءه الأدبية : فضّل ، فوق أي أمر ، الألم ؛ فرتر ، رينيه ، فرانك ، لارا ، ليليا وآخرون أقل أهمية حمسوه بالمقدار نفسه . وكان يرى الموسيقى ، أحياناً ، أفضل من يعبر عن اختلاجات نفسه ، فيروح يحلم بسمفونيات . أو تشدّه إليها المسافات ، فيريد أن يرسم . مع أنه كان كتب أشعاراً . وجدها ديبلورييه جميلة جداً ، لكنه لم يسأله أخرى .

لم يعد يهتم بالماورائيات . تشغله الثورة الفرنسية والاقتصاد الاجتماعي . كان ، الآن ، شيطاناً كبيراً في العشرين ، هزياً ، بقم واسع ، حازم المظهر . وهذا المساء كان يرتدي سترة عتيقة . حذاؤه أبيض من الغبار ، إذ كان مشى طريق فيلنوكس ، قصد أن يرى فريدريك .

ذهب إليهما إيزيدور . السيِّدة تسأله الرجوع ، وتخشى عليه البرد ، فأرسلت إليه معطفه .

- إبقِ إذن ! قال ديبلورييه .

وبقيا يتنزهان من جهة إلى أخرى فوق الجسرين اللذين يرتكزان إلى الجزيرة الضيقة المؤلفة بالقناة والنهر .

عندما يذهبان في اتجاه نوجان ، تقابلهما مجموعة بيوت

منخفضة نوعاً . إلى اليمين ، تبدو الكنيسة وراء طواحين الخشب
المقفلة الأبواب . وإلى الشمال حواجز الشجيرات طوال الضفة ،
تنهي حدائق تكاد لا تُلاحظ . لكن ، من جهة باريس ، تنحدر
الطريق في خط مستقيم ، وحقول تختفي في البعيد ، في بخار
الليل . صامته هي ونورها أبيض . تتصاعد إليهما روائح أوراق
رطبة . على مئة متر منها ، هطول مياه يبعث همسه الضاح العذب
الذي تحدّثه الأمواج في الظلمات .
توقّف ديلوريه وقال :

هؤلاء الناس الطيّبون النائمون بطمأنينة ، غريب
أمرهم ، يا للصبر ! تتحضر سنة ٨٩ جديدة ! منهكون نحن من
البنى الاجتماعية ، من القوانين ، من الحجج ، من الأكاذيب !
آه ! لو كان لي جريدة أو منبر حر ، كم كنت أهرّ كل هذا ! إنما ،
لمباشرة أيّ عمل ، لا بدّ من المال . أيّ لعنة تفوق كونك ابن
صاحب حانة وتضيّع وقتك بحثاً عن خبزك اليومي .
رمى فريدريك بعضاً من معطفه فوق كتفي صديقه . تغطّياً
به معاً ، ومشياً جنباً إلى جنب متخاصرين .

- كيف تريدني أن أعيش هناك من دونك ؟ قال
فريدريك . مرارة صديقه أعادت إليه حزنه . كدت أرتبط بامرأة
تجّني . . . لماذا تضحك ؟ الحبّ هو الغذاء الثقافي وكما الجو
الكامل بالابداع . العواطف غير العادية تنتج مؤلفات رائعة .
وحين أحتاج إليها ، أرفض البحث عنها ! وفي حال وجدتها ،
ستصدني . أنا من سلالة المغضوب عليهم ، وسأنطفئ مع كثر من

الماس اصطناعي أو طبيعي ، لا أعرف .
امتد ظل أحد ما على الأرض ، في وقت سمعاً هذه
الكلمات :

- خادمكها ، سيدي !
- إنه رجل قصير ، يرتدي سترة طويلة واسعة سمراء ، يعتمر
كاسكيت تظهر أنفاً مروساً .
- السيد روّك ! قال فريدريك .
- هو بنفسه ! أجاب الصوت .
- برّر ابن نوجان حضوره بأنه عائد يبحث عن فخاخ
الذئب ، في بستانه ، على حدود الماء .
- وها انك عدت إلى منطقتنا ؟ حسناً ! علمت هذا من
ابنتي . أتمنى أن تكون صحتك لا تزال جيّدة . ألن تذهب بعد ؟
- وذهب ، مكرها ولا شك ، لاستقبال فريدريك الفاتر له .
- ما كانت السيّدة مورو تحالطه . كان السيّد روّك يعيش مع
خادمتها بطريقة غير شرعية ، وما كانوا يحترمونهم تماماً بالرغم من
كونه مدير الانتخابات ووكيل أعمال السيّد دمبروز .
- صاحب المصرف الذي في شارع أنجو ؟ تابع
ديلورييه أتعرف ما ينبغي أن تفعل به يا الجريء ؟
- قاطعها إيزيدور ، مرة بعد . عليه إعادة فريدريك .
- السيّدة قلقة لغيابه .
- حسناً ، حسناً ! سنذهب ، قال ديلورييه . لن ينام
خارج المنزل .

وإذ عاد الخادم :

- يجب أن تسأل هذا الشيخ أن يُدخلك عند آل دمبروز .
لا شيء ، أكثر فائدة من مخالطة بيت غني ! وبما أنّ لك ثوباً أسود
وقفازاً أبيض ، إستفد منها ! يجب أن تفتح هذا العالم ! تدخلني
إياه في ما بعد . إنه رجل الملايين ، فكّر ! تدبّر أمرك كي تعجبه ،
وتعجب زوجته أيضاً . صر عشيقها .
هتف فريدريك .

- إنما ، يبدو لي ، أني أقول لك أشياء كلاسيكية . تذكر
راستينيك في « الملهاة البشرية » ! ستنجح ، متأكد أنا !
كان فريدريك يثق بديلوربيه ، فشر أنه تزعزع ؛ ونسي
السيدة أرنو ، أو ظن أنها تدخل ضمن النبوءة عن المرأة الأخرى ،
فما استطاع إلا الابتسامة .
أضاف كاتب المحامي :

- نصيحة أخيرة : إنجح في امتحاناتك ! اللقب نافع
دوماً : واطرك ، صراحة ، أشعارك المسيحية والشيطانية ، الموازية
تقدماً فلسفياً لما كنّا عليه في القرن الثاني عشر . يأسك سخيف .
كثير من التمييزين كانت لهم بدايات أصعب ، خذ ! مثلاً ،
ميرابو . على كل حال ، إن افتراقنا لن يطول . سأستر المسروق
كرهاً من والدي الغشاش . يجدر بي ، الآن ، أن أعود ، وداعاً !
أمعك مئة فلس ثمن عشائي ؟
أعطاه فريدريك عشرة فرنكات ، بقية المبلغ الذي أخذه ،
صباحاً ، من إيزيدور .

في هذه الأثناء ، وعلى مسافة مئة وعشرين قدماً من
الجسرين ، على الضفة الشمالية ، كان نور يلمع في كوة بيت
منخفض .

لاحظه ديلوريه . قال ، حينها ، كمن حزر أمراً ، نازعاً قُبَعته :
- فينوس ، ربة السماوات . لكنّ بينوري هي أم
الحكمة . هل وشوا بنا بسبب هذا ، ياللعجب !
هذا التلميح إلى مغامرة مشتركة جعلهما فرحين . عالياً
قهقهها ، في الشوارع .

وبعدما سدّد حسابه في الفندق ، أوصّل ديلوريه فريدريك
حتى مفترق « أوتيل ديو » ؛ وإذ انتهت معانقتهما الطويلة ، افترق
الصديقان .

III

بعد شهرين وصل فريدريك ، ذات صباح ، إلى شارع كوك - هيرون نازلاً من الباخرة ، وفكر مباشرة في زيارته الكبرى .

ساعده الحظ . جاءه السيد روك بلفات ورق ، رجاه حملها ، بنفسه ، إلى السيد دمبروز . وأرسل ، مع الطرد ، ورقة فيها يقدم مواطنه الشاب .

بدت السيدة مورومدهوشة لهذا الإجراء . أخفى فريدريك الفرح الذي أحدثه فيه .

الاسم الحقيقي للسيد دمبروز كان الكونت دمبروز . إنما ، منذ ١٨٢٥ ، تاركاً شيئاً فشيئاً نبالته وحزبه ، عاد إلى الصناعة . ولقد جمع ثروة يقدرونها ضخمة ، بما أن أذنه كانت في كل المكاتب ، واليد في كل المبادرات ، لاقتناص المناسبات ، وكان بارعاً كيوناني ومثابراً كشخص من « الأوفرنية » . فوق هذا ، كان عسكرياً في جيش الشرف ، عضواً في المجلس العام للجريدة « الفجر » ، نائباً ، عظيماً في يوم من أيامه ، وكرجل مجاملات ،

يتعب الوزير بطلبات المساعدة الدائمة ، والصلبان ، ومكاتب التبغ . وفي استيائه المستمر من السلطة ، يميل إلى اليسار . أمراؤه ، السيّد دمبروز الجميلة ، التي تتحدث عنها جرائد الأزياء ترئس الجمعيات الخيرية . وفي تملّقها للدوقات ، تمتصّ حقد الأشراف ، وتجعلهم يعتقدون أنّ في استطاعة السيّد دمبروز أن يتوب ويؤدي خدمات .

كان الشاب مضطرباً في ذهابه إليهم .
« كنت حسناً فعلت لو أخذت معي ثوبي . سيدعوني ، ولا شك إلى حفلة الاسبوع المقبل الراقصة . ماذا سيقولون لي ؟ » .

عاودته رباطة جأشه إذ فكّر أنّ السيّد دمبروز لم يكن إلّا بورجوازيّاً ، وبسرور قفز من عربته التي بعجلتين على رصيف شارع أنجو .

حين دفع واحداً من بابي العربات ، اخترق ساحة ، صعد درج المدخل ودخل رواقاً ذا بلاط من مرمر ملوّن .

درج مزدوج مستقيم ، وسجادة حمراء تستند إلى جدران عالية من جصّ لامع . عند أسفل الدرجات ، شجرة موز ، أوراقها العريضة تنقلب على محمل المطلع . شمعدانان برونزيان يحملان كرات من بورسلان معلقة بسلاسل ، منافذ أجهزة التدفئة تصدر هواءً ثقيلاً ؛ وما كنت تسمع سوى تكتكات ساعة كبيرة ، موضوعة في الطرف الآخر للرواق ، تحت مجموعة أسلحة .
دقّ جرس ، فظهر خادم أدخل فريدريك غرفة صغيرة ،

حيث تلاحظ خزنتان قويتان مع أدراج ملأى بالكرتون . وسطها يكتب السيد دمبروز على مكتب متحرك .
أسرع في قراءة رسالة السيد روك ، فتح ، بسكينه القماشية المحتوية الأوراق ، تفحصها .

من بعيد ، يبدو شاباً ، بسبب ضعفه لكن شعراته النادرة البيضاء ، وأعضاء الواهية ، وبخاصة شحوب وجهه الغريب ، تدل ، كلها ، على طبع متلف . طاقة لا ترحم ترتاح في عينيه المزرقتي الاخضرار ، الأكثر بروداً من أعين زجاجية . وجنتاه ناتئتان واليدان حركاتها بطيئة .

وإذ نهض ، أخيراً ، وجه إلى الشاب بعض الأسئلة عن أشخاص يعرفهم ، عن نوجان - عن دروسه ؛ ثم صرفه بانحناءة . خرج فريدريك من ممشى آخر ، ووجد نفسه في أسفل الساحة ، قريباً من أبواب الرجوع .

توقفت عربية زرقاء مقفلة أمام درج المدخل . فُتح الباب ، وصعدت امرأة ، فراحت العربية تسير فوق الرمل بضجة لا تتميز .

في الوقت ذاته لوصولها ، وصل فريدريك من الجهة الأخرى ، تحت باب العربات . وإذ لم يكن عرض المساحة كافياً وُجد مرغماً على الانتظار . كانت المرأة الشابة منحنية خارج كوة الباب ، تتحدث ، همساً ، إلى الحاجب . ما لاحظ إلا ظهرها ، مغطى بعباءة بنفسجية . مدّ نظره إلى داخل العربية المغطاة بنسيج ازرق ، مع زركشات وبعض خيطان حريرية . أفعمته ملابس المرأة ؛

تضوّع من هذه العلبة الصغيرة المبطنّة أريج زنبق ، وكما رائحة
أناقات نسائية . أرخى الخوذتيّ الرسن ، مسّ الحصان الحدّ بغتة ،
واختفى كل شيء .

عاد فريدريك على قدميه ، تابعاً الشوارع العريضة .
تأسّف لعدم قدرته على تميّز السيّدة دمبروز .
أبعد قليلاً من شارع مونارتر ، جلبة عربات جعلته يدير
رأسه ، وقرأ ، في الجهة المقابلة ، على بلاطة من مرمر :

جاك أرنو

كيف لم يفكر فيها من قبل ؟ الحق على ديلورييه ؟ وتقدم إلى
المخزن ، مع هذا لم يدخل . انتظر ظهورها .
وراء الزجاج العالي الشفاف ترتيب لبق لتماثيل صغيرة ،
ورسوم ، ومنحوتات ، وفهارس ، ومشاهد من « الفن
الصناعي » ؛ وأثمان الاشتراك مكرّرة على الباب ، الذي تزيّنه ،
في وسطه ، الحروف الأولى من إسم الناشر . وتلاحظ ، على
الجدران ، لوحات كبيرة ، دهانها يلمع ، ثم ، في العمق ،
خزانتان تحملان بورسلاناً ، برونزاً ، إغراءات جدّابة ، يفصل
بينهما درج صغير ، مقفل في أعلاه بستار من موكيت ، وهناك ثرياً
من خزف سكسوني قديم ، وسجادة خضراء على الأرض ،
وطاولة مرصّعة ، كلها تضيف على الجو مظهر صالون أكثر منه
مظهر مخزن .

بدا فريدريك كأنه يتفحص الرسوم . ثم دخل بعد
تأرجحات لا متناهية .

رفع أحد الموظفين الستار ، وأجاب بأن السيد لن يكون في
المخزن قبل الخامسة . ولكن ، إذا كان في الامكان نقل
الرسالة . . .

.. لا ! سأعود ، قال فريدريك بهدوء .

اهتم ، في الأيام التالية ، في البحث عن مسكن ؛ وقرأه
على غرفة مفروشة في الطابق الثاني من فندق في شارع سان -
هياسنت .

وذهب إلى افتتاح المحاضرات الجامعية ، وهو يتأبط نشافة
جديدة ، ثلاثمائة شاب ، حاسري الرؤوس ، يملأون مدرجاً
حيث هرم ، في ثوب أحمر ، يتكلم ، بإسهاب ، بصوت رتيب .
أقلام تصوت على الورق . وجد من جديد في هذه الغرفة رائحة
الصفوف ، منبراً مشابهاً ، والضجر نفسه ! عاد خلال خمسة عشر
يوماً . لكنهم ما كانوا ، بعد ، في الموضوع الثالث ، حتى أهمل
القانون المدني .

ما تحققت الأفراح التي كان قد وعد نفسه بها . وحين
أُتعب غرفة المطالعة ، وجاب مجموعات اللوفر ، وشاهد كثيراً من
لعروض المسرحية ، وقع في بطالة بلا قرار .

ازدادت أحزانه هموماً ومشاكل . كان عليه أن يحسب
بباضاته ويخضع للحاجب ، وهو فظ في مظهر ممرض ، يأتي في
الصباح يسوي له سريره ، وهو يشم الكحول ويشتم .

ما كانت تعجبه شقته الصغيرة المزينة بساعة مرمرية .
جدرانها رقيقة ، يسمع ، كان ، من خلالها الطلاب يسكرون
ويضحكون ويغنون .

راح ، متعباً من هذه الوحدة ، يبحث عن واحد من
أصدقائه القدامى : باتيست مارتينون ؛ اكتشفه في نُزل
بورجوازي في شارع سان - جاك ، يجدّ في درس القوانين الاجرائية
أمام موقد فحم .

تقابله امرأة بزيّ هندية ترفاً جوارب .
كان مارتينون ممن يسمّونهم : رجلاً جيلاً جداً . فهو
طويل ، ممتلئ الخدين ، متناسق الجسد وعيناه الزرقاوان
موحيتان ؛ كان والده ، وهو رجل زراعة كبير ، يعدّه للقضاء ، -
ولأنه يريد أن يظهر وقوراً ، أرخى ذقنه التي يعتني بها .
وبما أنّ ضجر فريديك ، بلا سبب كان ، ولا يستطيع أن
يجد له حجة ، لم يفهم مارتينون شيئاً من مرائيه للوجود . هو كان
يذهب كلّ صباح إلى المدرسة ، يتنزّه ، من بعد ، في
اللوكسمبور ، يشرب ، مساءً ، كأسه النصفية من القهوة ،
وبالآلف وخمسمائة فرنك بالسنة ، وحبّ هذه العاملة ، يجد نفسه
في سعادة تامة .

« يا للسعادة ! » تعجب فريديك في داخله .

كان قد تعرف في المدرسة إلى السيّد دوسيزي ، ابن عائلة
كبيرة ، يبدو فتاة لركة حركاته وعذوبته .
كان هذا السيّد يهتم بالرسم ، يحبّ الغوطي . غالباً ما كانا

معاً يذهبان يتأملان كاتدرائية نوتردام . لكنّ ذوق هذا النبيل الشاب كان يدل على ذكاء عاديّ ، بل بسيط . كل أمر كان يشده ، ويضحك كثيراً لأبسط مزحة ، ويدل على سذاجة كاملة ، حتى أنّ فريدريك حسبه أول الأمر مزاحاً ، لكنه ، في النهاية ، اعتبره أبله .

التوافقات ، إذن ، ما كانت معقولة مع أحد . وظل ينتظر دعوة من آل دمبروز . في رأس السنة ، أرسل إليهم بطاقات ، لكنه ما حصل على واحدة .

فعاد إلى « الفن الصناعي » .

عاد لمرة ثالثة ، فرأى ، أخيراً ، أرنو يتنافش وسط خمسة أشخاص أو ستة ، بالكاد ردّ عليه التحية ، جُرح فريدريك . لكنّه مع ذلك ظل يبحث عن طريق للوصول إليها . ففكر أول الأمر ، أن يحضر قصد شراء لوحات . ثم راودته فكرة أن يبيّث في بريد الجريدة موضوعات « قوية جداً » ، مما يجرّ علاقات . أو ربما من الأفضل الذهاب ، مباشرة ، إلى الموضوع ، إعلان حبه ؟ فكتب ، حينها ، رسالة من اثنتي عشرة صفحة ، مليئة بالبثّ الغنائي والنداءات ، لكنّه مزّقها ، وما عاد فعل شيئاً . ولا حاول أي شيء ، - جمّده خوف الفشل .

فوق مخزن أرنو ، في الطابق الأول ، ثلاث نوافذ تضاء كل ليلة . تتماوج ظلال وراءها ، بخاصة واحد ، هو ظلها ؛ - وراح يتلّبك ، من بعيد ، لينظر هذه النوافذ ويتأمل هذا الظل . عبدة رآها يوماً في التويلري ، ممسكة بيدها فتاة صغيرة ،

ذَكَرته عبدة السيِّدة أرنو، يجب أن تأتي، هنا، هي أيضاً كما
الأخريات؛ وكل مرة يجتاز التويلري، يروح قلبه يدق، أملاً
لقياها. ويكمل نزهته، أيام الشمس، حتى آخر الشانزيلزه.
بالقرب منه، تمر سيِّدات، باسترخاء، جالسات في
عربات، خماهن يطير في الهواء، على خطوة الأحصنة الوثيقة مع
تمرجحات تكاد لا تُحسّ تجعل الجلد اللامع يطقق. يتكاثر عدد
العربات وتتمهل ابتداء من المستديرة، وتملأ كل الطريق. يصير
العُرف بجانب العُرف، الفانوس إلى جانب الفانوس، السروج
التي من فولاذ، سلاسل اللجام المفضضة، الزرد الذي من
نحاس، كلها ترمي، هنا وهناك، نقاطاً مضاءة بين السراويل
القصيرة، والقفازات البيض والقراء المنسدل على العوارض
الأمامية. يحسّ نفسه ضائعاً في عالم بعيد. عيناه تتفلقان فوق
رؤوس النساء؛ وتلاميخ غير واضحة تذكره بالسيِّدة أرنو.
يتصورها، وسط الأخريات، في واحدة من هذه العربات
الصغيرة المقفلة الشبيهة بعربة السيِّدة دمبرز. - وإذ تتحضر
الشمس للمغيب، يبدأ الهواء البارد يرفع الغبار في زوابع
صغيرة. فيجعل الخوذيون ذقونهم في أعناقهم، تسرع
الدوايب، تصرّ الطرقات. وتنزل كل المجموعات، على الخبب
السريع، طوال الشارع، محتكة ببعضها، متجاوزة بعضها،
مفترقة بعضها عن بعض، ثم تتفرق في ساحة الكونكورد. وراء
التويلري تتلون السماء بلون أردوازي. تؤلف أشجار الحديقة
كومتين كبيرتين، بنفسجيتي الرؤوس. تشتعل قناديل الغاز،

ونهر السّين ، مزرقة كلّ مساحته ، يتكسّر تموجات فضيّة لامعة
تحت أضواء قناديل الجسور .

بروح يتعشىّ بمتوسّط ثلاثة وأربعين قرشاً ، في مطعم
بشارع لاهارب .

ينظر ، باحتقار ، طاولة التاجر التي من خشب الأكاجو،
القوط المبقعة ، الفضية القدرة ، والقبعات المعلقة في الجدران .
من يحيطون به هم من الطلاب ، مثله . يتحدثون عن
أساتذتهم، عن عشيقاتهم، هو يكتب من الأساتذة ؟ هل كانت له
عشيقة ؟ وليتخاشى أفراحهم، كان يصل متأخراً قدر المستطاع . بقايا
الأطعمة تكون تغطي كل الطاولات . الصبيان المتعبان ينامان في
زاويتين ، وتملاً الصالة المقفرة رائحة مطبخ ومسرحة ودخان .

ثم ، على مهل ، يطوف الشوارع . تترجع المصابيح
جاعلة ، على الأرض، ترتجف أنوار صفراء . تزلق ظلال بمحاذاة
الأرصفة ، مع تسميات . لزجة الأرض ، والضباب ينزل ،
ويبدو له أنّ الظلمات الرطبة التي تلفه ، تهبط ، لانهائياً ، في
قلبه .

تملكه ندم . عاد إلى المحاضرات . إنما ، بما أنّه لم يكن
مرف شيئاً من المواد المشروحة ، راحت تقلقه أشياء بسيطة .
فأنكبّ يكتب رواية عنوانها : سيلفيو ، ابن الصياد . تدور
حوادثها في مدينة البندقية . كان هو البطل ؛ والسيدة أرنو
البطلة . إسمها أنطونيا ؛- وليحصل عليها ، يسفك دماء كثيرين ،
يحرق جزءاً من المدينة ويغني تحت شرفتها ، حيث تحفّق ، مع

النسيم ستائر شارع مونمارتر الحمراء التي من قماش مشجر .
التذكريات المبهمة والكثيرة التي يذكرها تثبط عزيمته ؛ فما تجاوز هذا
الحّد ، وتضاعفت بطالته .

حينها ، توسّل إلى ديلورييه المجيء ليشاطره غرفته .
يتدبّر أن أمر عيشهما بالألفي فرنك التي له ، كل أمر أفضل من هذا
الوضع الذي لا يطاق . ما كان يستطيع ، بعد ، ديلورييه ،
مغادرة « تروا » . دفع به ليتسلّى وليخالط سينيكال .

كان هذا معلم رياضيات ، رجلاً عنيداً ذا اقتناعات
جمهورية ، سان - جوست جديداً يقول ديلورييه . ذهب إليه
فريدريك ، ثلاث مرات ، في طابقه الخامس ، ولم يتلقَ منه أية
زيارة . فما عاد إليه .

أراد أن يتسلّى . ففكّر في حفلات الأوبرا . هذه الأفراح
الصاخبة جمّدتة وهو في الباب . الخوف من ارتباك ماليّ ، ردّه ، إذ
تصور أنّ عشاء مع دومينو ، يلزمه بمصاريف باهظة ، وهذه مجازفة
كبرى .

مع ذلك ، تراءى له أنّ الحب واجب . كان ينهض ،
مرات ، وقلبه مليء بالأمل ، يرتدي بعناية كما لموعده ، ويروح
يمشي في باريس لا نهائياً . مع كل امرأة تمشي أمامه ، أو تتقدّم في
اتجاهه ، يهتف في ذاته : « ها هي ! » وكل مرة ، خيبة جديدة .
فكرة السيّد أرنو تقوّي رغباته . سيجدها ، ربما ، في طريقه ،
ويتصور ، قصد دخول عالمها ، تعقيدات الصدفة ، أخطاراً
غريبة يخلّصها منها .

هكذا راحت تكرر الأيام ، في تكرار الضجر ذاته ، وقلق العادات نفسها . يتصفّح منشورات تحت قناطر الأوديون ، يقرأ « لاريغودي دوموند » في المقهى ، يدخل غرفة في « معهد فرنسا » ، يستمع ، خلال ساعة ، إلى درس في اللغة الصينية ، أو في الاقتصاد السياسي . يكتب ، كل أسبوع ، طويلاً إلى ديلاورييه ، وبين وقت وآخر ، يتعشى مع مارتينون ، ويلتقي ، مرّات ، السيّد دوسيزي .

استأجر بيانو ، وألف مقطوعات فالس المانيّة . ذات مساء ، في مسرح القصر الملكي ، لمح في المقاعد المتقدّمة ، السيّد أرنومع امرأة . هل هي ؟ كانت الستارة التي من التفتا الخضراء ، المشدودة إلى حدود المقاعد ، تستر وجهها . انتهت اللوحة ، فأسدل الستار . كانت طويلة القامة ، في حوالى الثلاثين ، ذابلة ، شفتاها الممثلتان تظهران ، حين تضحك ، أسناناً رائعة . هي تحدّث ، بألفة ، مع أرنو ، وتدغدغ أصابعه بلمسات من مروحة . ثم ، ها هي فتاة شقراء يكاد جفناها يكونان حراوين كما لو كانت بكت ، تجلس بينها . من حينها ، راح أرنو ، منحنيّاً إلى كتفها ، يحدّثها أحاديث تستمع إليها ولا تحجب . أخذ فريدريك يتفنّن في اكتشاف مكانة هاتين السيّدتين ، المتواضعتي الثوب الغامق بقبة عريضة نازلة . عند آخر الحفل ، أسرع في الأروقة . كانت الجماهير تملأها . ينزل أرنو ، أمامه ، الدرج ، درجة درجة ، ذراعاه بذراعي كل من المرأتين .

فجأة ، أثاره قنديل غاز . في قَبَعته شارة حداد . هل ماتت ؟ عَذَبته هذه الفكرة إلى حدّ تراكض في الغد إلى « الفن الصناعي » ، وإذا دفع سريعاً ثمن لوحة معلقة أمام الساعة ، سأل صبيّ المخزن كيف حال السيّد أرنو .

أجاب الصبي :

- بخير .

أضاف فريدريك شاحباً :

- والسيدة ؟

- السيدة أيضاً !

نسي فريدريك حمل لوحته .

انتهى الشتاء . في الربيع قلّ حزنه ، وراح يحضّر امتحانه ، وإذا اجتازه بطريقة سيئة ، ذهب إلى نوجان .

ما ذهب إلى « تروا » ليرى صديقه ، وذلك كي يتحاشى ملاحظات أمّه . وحين العودة ، ترك محل سكته ، واستأجر ، في شارع نابوليون ، غرفتين فرشهما . نسي أمله بزيارة آل دمبروز . ورغبته الكبيرة في السيدة أرنو ، بدأت تخبو .

IV

ذات صباح من كانون الأول ، وهو ذاهب إلى محاضرات القانون ، ظنّ نفسه يلاحظ ، في شارع سان - جاك حركة تفوق المعتاد . كان الطلاب يخرجون مسرعين من المقاهي أو من النوافذ المفتوحة ، يتنادون من منزل إلى آخر ، في وسط الرصيف ، أصحاب المتاجر ينظرون بكآبة ، يُغلق المنجور ، وحين وصل شارع سوفلو ، لاحظ تجمعاً كبيراً حول البانتيون .

شباب ، في زمر متفاوتة العدد ، بين الخمسة والاثني عشر شخصاً ، كانوا يتنزهون ممسكين بأيدي بعضهم البعض ويقتحمون الجماعات الأكثر عدداً المرابطة هنا وهناك . في آخر الساحة ، بجانب الأسوار ، رجال بقمصان فضفاضة يخطبون بإطناب ، بينما قبعاتهم المثلثة القرون مائلة إلى الأذن ، والأيدي خلف ظهورهم . رجال الشرطة يطوفون على طول الجدران ، تسمع أصوات البلاط تحت أقدامهم . لجميعهم مظهر سرّي ، ذاهل . بالتأكيد ، هم ينتظرون أمراً ما . على شفقي كل منهم سؤال .

وجد فريدريك نفسه قرب شاب أشقر ذي وجه جذّاب ، له شارب ولحية صغيرة كما مرهف من زمن لويس الثالث عشر .

سأله سبب هذه الفوضى .

- لا أعرف شيئاً ، قال الآخر ، ولا هم أيضاً ، هذه هي
الموضة الآن ! يا للمزاح !
وانفجر ضاحكاً .

مطالب بالاصلاح يطلبون توقيعها ، مضافاً إليها إحصاء
هومان ، واحداث أخرى أيضاً ، تركت ، في باريس ، من أشهر
سنة ، غوغاء غير معروفة الأسباب . وغالباً ما كانت تتجدد إذا
تجاهلتها الجرائد لفترة ما .

- كل هذا يفتقر إلى التناسق واللون ، أكمل جار
فريدريك . أعرف ، يا سيد ، كم نحن منحطون ! زمن لويس
الحادي عشر ، وزمن بنجمان كونستان ، كان العصيان أشد بين
الطلاب . أجدهم اليوم هادئين كالخراف ، حمقى كالبله ،
ملائمين لأن يكونوا عطارين ، والله ! وهذا ما يسمونه شببية
المدارس !

بسط ذراعيه واسعاً كما فريدريك لوميتر في روبير ماكير .

- شببية المدارس ، أباركك !

ثم نادى لأم خرق يحرك قشور محار على حدود تاجر خر :

- هل أنت من شببية المدارس ، هذه ؟

رفع الشيخ وجهاً بشعاً نرى ، في وسطه ، لحية بنية ، أنفاً

أحمر وعينين مخمورتين غبيتين .

- لا ! تبدو لي ، بالأحرى ، واحداً من هؤلاء الرجال

ذوي السحن الشاحبة الذين نراهم في جماعات مختلفة ، حاصدين

الذهب ملء أيديهم . . . آه ! إجمع ، يا شيخي الجليل ، اجمع !
أفسدني بكنوز « ألبون » ! . . . هل أنت انكليزي ؟ فلتتحدث
قليلاً عن الوحدة الجمركية .

شعر فريديريك أن أحداً لامس كتفه ، فاستدار . انه
مارتينون ، وكان شاحباً بشكل غريب .

- وبعد ! زفر مصعداً آهة كبيرة ، فتنة أخرى !
خافا أن يكون متهماً ، وصار يشكو . رجال بقمصان
فضفاضة يحزنونه بشكل خاص ، كما لو أنهم يتسبون إلى مجتمعات
سرية .

- هل هناك مجتمعات سرية ؟ قال الشاب ذو الشوارب .
إنها مزحة قديمة من الحكم لترويع البورجوازيين ! . .
طلب إليه مارتينون التحدث بصوت خافت ، خوفاً من
الشرطة .

- أما ترال تؤمن ، أنت ، بالشرطة ؟ إذن ، فكيف لم
تخش كوني واحداً من جهاز المراقبة ؟
ونظر إليه بطريقة ما ، حتى ان مارتينون ، مدهوشاً ، لم
يتنبه ، أول الأمر ، للمزحة . صارت الجموع تدفعهم ، فأكروها
على أن يكونوا في درج صغير ، يؤدي بهم ، عبر ممشى ، إلى
مدّرج آخر .

وسريعاً ما تلاشت الضوضاء تلقائياً . رؤوس كثيرة
حسرت . كانوا يسلمون على الأستاذ الشهير : صاموئيل روندلو ،
الذي التف بسترته الطويلة الضخمة ، رافعاً ، في الهواء ، نظارتيه

الفضيتين ، ولاهناً من الربو ، وهو يتقدّم ، بخطى وثيدة ، ليلقي محاضرتة . انه واحد من الأجداد القضائية في القرن التاسع عشر ، خصم زكريّا وریدورف . منصبه الجديد ؛ كعظيم فرنسا ، ما غير شيئاً في سلوكه . فقير هو ، ويحاط بكثير من الاجلال .
في هذه الأثناء كان بعضهم يهتف ، في آخر المكان :

- فليسقط غيزو !

- فليسقط بريشار !

- فليسقط الخونة !

- فليسقط لويس - فيليب !

ماجت الجماهير ، وضغطت على الباب المغلق فمئعت الأستاذ من التقدم أكثر . توقّف أمام الدرج . رآوه على الدرجة الأخيرة من الدرجات الثلاث . تكلم . غطى صوته هدير . قبل قليل كانوا يحبونه وها هم الآن انقلبوا يكرهونه لأنه يمثّل السلطة ، كل مرة يحاول أن يجعلهم يستمعون إليه ، يعود الصراخ . قام بحركة كبيرة ليتبعه الطلاب . أجابه زعيق عام . بازدراء هزّ كتفيه ، وغاب في الممشى . استفاد مارتينون من مكانه ليغيب في الوقت نفسه .

- يا له من جبان ! قال فريدريك .

- هو محاذر ! قال الآخر .

راح الجمهور يصفق . انسحاب الأستاذ صار نصراً بالنسبة إليهم . في كل النوافذ ، راح حشرون ينظرون . بعضهم راحوا يهدرون بالنشيد الوطني ، آخرون يصرفون الذهب عند

بيرنجيه .

- عند لافيت !

- عند شاتوبريان !

- عند فولتير ! زار الشاب ذو الشوارب الشقراء .

اهتم رجال الشرطة بأن يتمشوا ، قائلين بالطف ما يمكن :

- اذهبوا ، يا سادة ، اذهبوا ، انسحبوا !

هبت أحدهم :

- فليسقط القتلة !

هي ، هذه ، شتمة شائعة ، منذ اضطرابات أيلول .

كلهم ردّوها . راحوا يصيحون ساخرين ، يصفرون لحرس النظام ، بدأوا يشحبون ، واحد منهم ما عاد يحتمل ، ولا محاً شاباً يقترب منه وهو يهزأ به ، بعثف دفعه ، فأوقعه على بعد خمس خطوات ، على ظهره ، أمام محل بائع الخمر . تفرّقوا جميعاً ، لكنه سريعاً ما تدرج ، هو عينه ، قلبه أرضاً شبيه بهرقل ، ذو شعر كحزمة كتان ، يطفو من تحت كاسكيت من قماش مشمّع .

توقّف في زاوية شارع سان - جاك ، بسرعة ترك علبة كرتون يحملها ، ليشب نحو الشرطي ، وإذا قلبه تحته ، راح يزرع وجهه لكلمات قوية . تراكض رجال الشرطة الآخرون ، كان الشاب قوياً جداً ، بالكاد استطاع أربعة منهم ، أو أكثر ، أن يمسكوه . اثنان من عنقه ، اثنان آخران أمسكاه كل من ذراع ، خامس راح يلطمه بخاصرته ، وكلهم ينادونه : قاطع طرق ، مجرم ، مثير للفتنة . صدره عار ، وثيابه مملّعة ، يحتجّ لبراءته ، ما

استطاع احتمال رؤية ولد يُضْرَب .
 - اسمي ديسردييه ! عند السادة فالينسار إخوان . دنتلاً
 وملبوسات جاهزة ، شارع كلاري . أين علبة الكرتون ؟
 أريدها ! وراح يكرّر : ديسردييه !... شارع كلاري . علبة
 الكرتون !

مع ذلك استكان ، وبمظهر رابط الجأش ، تركهم يقتادونه
 إلى مكتب شارع ديكارت . موجة من الناس تبعته . مشى ،
 وراءه مباشرة ، فريدريك والشاب ذو الشوارب ، ممثلين إعجاباً
 بالموظف ، وثائرين ضدّ عنف السلطة .
 كلّما تقدموا به ، تقل الجماعة عدداً .

بين وقت وآخر ، يستدير رجال الشرطة هيئة غاضبة . وإذ
 لا شيء ، بعد ، لأهل الصخب ، يفعلونه ، ولا شيء ،
 للحشريين ، يرونه ، بدأوا جميعاً يذهبون شيئاً فشيئاً . يلتقون
 بجارة يلتفتون إلى ديسردييه وينكبّون ، عالياً ، على أحاديث
 مهينة . وامرأة هرمة ، في بابها ، هتفت بأنه سرق خبزاً . هذا
 الظلم كان ليزيد من غضب الصديقين . وإذ وصلوا ، أخيراً ،
 أمام مقرّ الحرس ، لم يكن بقي إلا حوالى العشرين شخصاً . كان
 مرأى الجنود كافياً لتفرقتهم .

دفاع فريدريك ورفيقه ، بجراً ، عن هذا الذي وضعوه
 في السجن . تهذّدهما الحارس بأن يضعهما ، هما أيضاً ، إن
 أصراً . طلبا رئيس المكتب وأعلنا اسميهما مع صفتها كطالبي
 حقوق ، مؤكّدين أن السجين هو زميل لهما .

أدخلوها غرفة عارية كلياً ، حيث أربعة مقاعد قبالة حيطان
من جصّ مسودة من الدخان . في الطرف ، قُتحت كوة . ظهر
منها وجه ديسردييه القاسي ، الذي ، بشعره المبعثر ، وعينييه
الصغيرتين الصريحتين ، وأنفه المربع الطرف ، يذكر ، ببعض
إبهام ، شكل كلب جيّد .

- ألم تتعرّف علينا ؟ قال هيسّونيّه .

كان هذا اسم الشاب ذي الشوارب .

- ولكن ... تتم ديسردييه .

- لا تكن أحمق ، تابع الآخر ؛ نعرف انك ، مثلنا ،

طالب حقوق .

ما فطن لشيء ، بالرغم من غمزهما له . ثم بدأ يستجمع
ذاته ، وفجأة :

- هل وجدتم علبة الكرتون ؟

رفع فريدريك عينيّه ، واهن العزيمة ، تتم هيسّونيّه :

- آه ! علبتك حيث تضع ملاحظاتك حول المحاضرات ؟

نعم ، نعم ! اطمئن !

كثفا إيماءاتهما . فهم ، ديسردييه ، آخر الأمر ، أنها يريدان
مساعدته . وصمت خشية إخراج موقفهما . كان يعاني من خجل
إذ رأى نفسه في مرتبة الطلاب وشيهاً بهؤلاء الشباب ذوي الأيدي
البيضاء إلى هذا الحد .

- أتريد إبلاغ أحد أمراً ما ؟ سأل فريدريك .

- كلا ، شكراً ، للا أحد .

- وعائلتك ؟

خفض رأسه دون أن يجيب . كان المسكين ابن زنا . عجب الصديقان من صمته .

- أمك ما تدخن ؟ تابع فريدريك .

تلبك ، ثم سحب من جيبه بقايا غليون - غليون جميل من زبد البحر ، مع شبيق^(١) خشبي أسود ، وغطاء فضي وطرف ذهبي .

من سنوات ثلاث ، يعمل فيه ليجمع منه راتعة . كان اعتنى بأن يحافظ على مرق التبغ مضموماً ، بثبات ، في مشد من شاموا ، وأن يدخنه بأكثر ما يمكن من تمهل ، بدون أن يضعه ، أبداً ، على مرمر ، وكل مساء يعلقه قرب سريره . الآن ، يتحسس أقسامه بيده النازفة من تحت الأظافر ، وذقنه في صدره ، يؤبوا عينيه ثابتان ، فاغر الفم . يتأمل آثار فرحه بنظرة لا متناهية الحزن .

- لو نعطيه سيكاراً ، الكثير منها ، ما قولك ؟ قال ، هيسونيه ، بصوت خافت ، متأثراً .

فوضع فريدريك ، بسرعة ، علبة ملأى منها على حافة الكوة .

- خلدها ، وداعاً ، وتشجع !

ارتقى ديسرديه على اليدين المتقدمتين . ضغطهما بشدة ، مخنوقاً صوته بالشهقات .

(١) قصبة الغليون .

- كيف ؟ .. لي أنا هذه ! .. لي أنا ؟ ..
- توارى الصديقان وذهبايتغديان، معاً ، في مقهى تابوراي ،
أمام اللوكسمبورغ ...
- وهو يقسم البفتاك ، أخير هيسونيه رفيقه بأنه يعمل في
جرائد أزياء ، وبأنه يصمم إعلانات لـ « الفن الصناعي » .
- عند جاك أرنو ؟ قال فريدريك .
- أتعرفه ؟
- نعم ! لا ... أقصد انني رأيته ، التقيته .
- وبغير اهتمام ، سأل هيسونيه ، إذا كان يرى زوجته .
- من وقت لآخر ، قال البوهيمي .
- ما جرؤ فريدريك على متابعة أسئلته . أخذ هذا الرجل
مكاناً لا محدوداً في حياته . دفع الغداء دون أي اعتراض من
الآخر .
- كان التعاطف متبادلاً . تبادلا العنوان ، ودعاه هيسونيه ،
بوذ ، لرفقته حتى شارع فلوروس .
- كانا وسط الحديقة ، حين توقف موظف أرنو ، غضب وجهه
بطريقة منكرة وراح يصيح كالديك . أجابته كل الديوك الموجودة
في الجوار بصياح متتابع .
- إنها علامة ، قال هيسونيه .
- توقفا عند مسرح بوبينو ، أمام بيت يدخلونه عبر ممر .
ظهرت امرأة من كوة العلية بين « الكابوسين » ونباتات أخرى ذات
أريج ، حاسرة الرأس ، بالمشد ، سائدة ذراعيها على حافة

المزrab .

- مرحبا يا ملاكي ، مرحبا « بيبش » ، قال هيسونيه ،
مرسلاً إليها القبلات .

بخبطة قدم ، فتح السور واختفى .
انتظره فريدريك طوال الأسبوع . تلكاً في الذهاب إليه لثلا
يبدو مستعجلاً في الغداء عنده ، لكنه بحث عنه في كل الحي
اللاتيني . التقاه ، ذات مساء ، واصطحبه إلى غرفته في شارع
نابوليون .

طال الحديث ، راحا يوحان . يطمح هيسونيه بمجد
المسرح وريحه . كان يشارك بمسرحيات هزلية خفيفة لم تنجح ،
وعنده « كدسات من التصاميم » ، ينظم أغانٍ ، قال بعضها .
وإذ لاحظ ، في رفّ على الحائط ، كتاباً لهيغو وآخر للامارتين ،
تدفّق سخرية على المدرسة الرومنطيقية . ما امتاز هؤلاء
الشعراء ، لا برجاجة العقل ولا باللياقة ، وبخاصة ما كانوا
فرنسيين ! راح يتبجح بمعرفته اللغة ، ويهذي بأحلى العبارات
بطريقة قاسية جارحة ، وذوق أكاديمي يميّز الأشخاص بمزاج مرح
حين يقتحمون الفنّ الرصين .

جُرح فريدريك بشعرائه المفضلين . ودّ لو يتركّان هذا
الحديث . لم لا يغامر ، الآن ، بالكلمة التي بها تتعلّق سعادته ؟
سأل الشاب المتأدّب إذا كان بمستطاعه تقديمه عند أرنو .

كان الأمر سهلاً ، واتفقا على اليوم التالي .
نكث هيسونيه بالموعد ، وبثلاثة أخرى . وظهر ، ذات

سبت ، حوالى الرابعة . إنما ، توقف ، مستفيداً من العربة ،
 أولاً ، عند « المسرح الفرنسي » ، ليحصل على قسيمة شرفة ،
 ونزل أيضاً عند خيَّاط ، وعند خيَّاطة ، كتب قصاصات أوراق
 عند حجاب . أخيراً وصلا إلى بولفار مونمارتر . اخترق فريدريك
 المخزن ، صعد الدرج . عرفه أرنو في المرأة الموضوعة أمام
 مكتبه . ومدَّ له يده ، بإهمال ، وهو يكتب .

كان ثمة أشخاص خمسة أوسنة ، واقفين ، يملأون المكان
 الضيق الذي تنيره نافذة واحدة تطل على الساحة ، كنبه من صوف
 مزركش تشغل ، في آخر المكان ، داخل قبة ، بين ستارين
 قماطين متشابهين . على المدفأة المغطاة بأوراق قديمة ، تمثال
 برونزي لفينوس ، شمعدانان ، مزينان بشموع وردية ، يحاذيانها
 بشكل مواز . إلى اليمين ، بجانب دُرج الملفات ، رجل مستغرق
 في كرسي مريح ، يقرأ الجريدة ، محتفظاً بقبعته على رأسه ،
 الجدران تختفي تحت أدوات الرسم واللوحات ، والصور الثمينة أو
 المخططات لأساتذة معاصرين ، ممهورة بإهداءات تشهد ، لجاك
 أرنو ، بصداقة مخلصه .

- هل كل شيء على ما يرام ؟ قال مستديراً ناحية
 فريدريك .

ومن دون أن ينتظر جوابه ، سأل هيسّونيه بصوت
 منخفض :

- كيف تدعوه ، صديقك ؟

وبصوت عال :

- خذ سيكارة من علبة في دُرج الملفات .

كانت « الفن الصناعي » ، بمكانها في قلب باريس ، مقراً ملائماً للمواعيد ، أرضاً محايدة ، فيها تتلازم الخصومات بوذة . فأنت ترى ، اليوم ، أنتينور بريف ، رسّام الملوك ، جول بورّيو الذي بدأ يشهر برسومه معارك الجزائر ، الكاريكاتوريست سومباز ، النحات فوردا ، وآخرين أيضاً ، وما أحد استجاب لآراء الطالب المسبقة . كانت عاداتهم بسيطة وأحاديثهم حرة . المتزهد لافورياس بدأ حكاية بذئثة ، ومخترع المنظر الشرقي ، ديتّمر العظيم ، كان يرتدي قميصاً حبرية تحت سترة بلا أكمام ، واستقلّ عربة عامة للعودة .

جری الحديث ، أول الأمر ، عن المدعوّة أبولوني ، موديل قديم ، ادّعى بورّيو معرفتها ، على البولفار في عربة . شرح هيسّونيه تحولاتها عبر سلسلة قوادياها .

- كم يعرف هذا الجريء ، فتيات باريس ! قال أرنو .

- بعدك ، إذا بقي ، سيّدي ، تتمم البوهيمي ، مع تحية عسكرية ، ليقلّد رامي الرمات مقدماً مطرته لبابوليون .

ثم ناقشوا بعض اللوحات التي كان رأس أبولوي موديلاً لها ، انتقدوا الزملاء الغائبين . عجبوا لاسعار أعمالهم المرتفعة ، وكلهم كانوا يتشكّون من عدم ربحهم الكافي ، حين دخل رحل متوسط القامة ، ثوبه يزر واحد ، عيناه نابضتان ، مظهره يكاد يكون مجنوناً .

- يا لكم من كدسة بورجوازين ! قال . ماذا تفعلون ؟ با

للعنة ! الشيوخ الذين كانوا ينجزون الروائع ما كانوا يلهثون وراء
الثروة كوريج ، موريلو . . .

- أضف بيلران ، قال سومباز .

لكنه ، من غير أن يوقف هجاءه ، أكمل موعظته بحدّة ،
حتى أن أرنو اضطر للتكرار ، مرتين :

- زوجتي بحاجة إليك ، الخميس . لا تنس !

أعادت هذه الكلمة ذهن فريدريك إلى السيدة أرنو ، لعل
الوصول إليها يتم عبر الغرفة القريبة من الديوان . فتحها أرنو
ليأخذ محرمة . لمح فريدريك في عمقها مغسلة لكن نوعاً من التذمر
صدر من زاوية المدفأة . إنه الرجل قارئ الجريدة ، في الكرسي
المريح . طوله خمس أقدام وتسع بوصات ، جفناه منسدلان ،
شعره رماديّ ، مظهره فخّم ، واسمه ريجيمبار .
- ما بك ؟ قال أرنو .

- سفالة أخرى من الحكم !

كان الأمر يتعلق بعزل أستاذ مدرسة ، أكمل بيلران موازنته
بين ميكال انج وشكسبير . ذهب ديتمر . أمسكه أرنو ليضع ، في
يده ، ورقتي مال ، حينها ، ظنّ هيسونيه الوقت مؤاتياً :

- ألا تستطيع أن تسلفني ، يا ربّ عملي العزيز ؟ . . .

لكنّ أرنو كان جلس وراح يؤنّب شيخاً ذا مظهر كربه ،
نظاراته زرقاوان .

- آه ! جميل أنت ، سيّد اسحق ! ها قد ضاعت لوحات

ثلاث ، افترض أمرها ! كلّ الناس لا يهتمّون بي ! باتوا يعرفونها !

ماذا تريدني أفعل بها ؟ يجب أن أرسلها إلى كاليفورنيا ! . . . يا للشيطان ! اسكت !

اختصاص هذا الرجل يقوم على وضع تواريخ الأساتذة القدماء في أسفل اللوحات . رفض أرنو تأديته حسابه ؟ وبعنفٍ صرفه . ثم ، مغيراً طريقته ، حياً سيّداً أنيقاً ، مترصناً ، بربطة عنق بيضاء .

تحدث مستنداً إلى غلاّقة النافذة ، طويلاً ، إليه ، بكلام معسول . قال ، عالياً ، في الأخير :
- إيه . . . لست مهتماً بأن يكون لي سماسرة ، سيدي الكونت !

إذ اقتنع الرجل ، دفع له أرنو خساً وعشرين ليرة ذهبية ، ومنذ صار خارجاً :

- كم هم مضجرون هؤلاء الأسياد الكبار !
- كلهم بؤساء ! تتم رجيمبار .

بقدر ما تتقدّم الساعة ، تتضاعف مشاغل ارنو . كان يصنف موضوعات ، يفضّ رسائل ، يسدّد حسابات ، وعلى طرق مطرقة في المخزن ، خرج يراقب الخلافات ، ثم عاد إلى عمله ، وراح يجاوب بحدّة على المزاح ، وهو يكتب كان عليه أن يتعشى ، هذا المساء ، عند محاميه ، وأن يذهب غداً إلى بلجيكا .

الآخرون يتحدّثون عن أعمال اليوم : رسم شيرويني ، البناء نصف الدائري للفنون الجميلة ، المعرض القادم . يطعن بيلران بالمؤسّسة . النميمة والأحاديث تلتقي وتتقاطع . الشقة

الصغيرة المنخفضة السقف ، ملأى كانت إلى حد عدم القدرة على التحرك ، وضوء الشموع الوردية كان يرى بين دخان السجائر ، كأشعة شمس في الضباب .

انفتح الباب قرب الديوان ودخلت امرأة طويلة نحيلة - بحركات سريعة تجعل تطن ، على ثوبها الذي من التفتا السوداء ، كل حليها ذات السلاسل التي في ساعتها .

كانت المرأة التي واجهها ، الصيف الماضي في « القصر الملكي » . بعضهم ، من الذين نادوها باسمها ، تبادلوا السلام معها بالأيدي . هيسويته استطاع ، أخيراً ، الحصول على خمسين فرنكاً . دقت الساعة السابعة ، وانسحبوا جميعاً .

طلب أرنو إلى بيلران البقاء ، وقاد الأنسة فاتناز إلى الغرفة . ما سمع فريدريك حديثهما ، كانا يتهامسان في هذه الأثناء ، ارتفع صوت المرأة :

- من أشهر ستة والعمل انتهى ، وما زلت أنتظرا !
ساد صمت طويل . ظهرت الأنسة فاتناز مجدداً . كان

وعدها أرنو بشيء .

- أوه ! أوه ! نرى في ما بعد !

- وداعاً أيها الرجل السعيد ! قالت وهي تخرج .

عاد أرنو إلى الغرفة بحيوية ، مسح على شاربيه دهان تجميل ، رفع حمالات بنطاله ليشد سير حذائه ، وقال وهو يغسل يديه :

- يلزمي مصرعاً باب ، الواحد بمئتين وخمسين ، من نوع

بوشيه ، هل أنت موافق ؟

- حاضر ! قال الفنان وقد احمر .

- حسناً ، ولا تنسَ زوجتي .

رافق فريدريك بيلران حتى ضاحية بواسونير ، وسأله إذا كان في وسعه أن يزوره بين وقت وآخر ، وافق الفنان بسعادة . كان بيلران قرأ كل كتب الجماليات ، ليكتشف نظرية الجمال الحقيقية ، كونه مقتنعاً بأنه إذا ما وجدها ، سيعطي روائع . يحيط نفسه بكل المساعدين الممكنين ، رسوم ، جص ، نماذج ، لوحات ، ويبحث تضنيه الهموم . يشكو الزمن ، الأعصاب ، المحترف ، يخرج في الشارع ليهبط عليه الوحي ، يرتعش إذ يلاقيه ، ثم يتخلى عن مؤلفه ويحلم بسواه مما قد يكون أحلى . هكذا تؤرقه رغبات المجد . وهو الذي يضع أيامه في المناقشات ، في سبيل قاعدة أو إصلاح في مادة الفن ، ما كان ، في الخمسين ، قد أنتج إلا مسودات كانت كبرياؤه الصلبة تمنعه من أن يخضع للفشل ، لكنه دائم الغضب ، ويحيا هذا الحماس المصطنع والطبيعي ، الذي يصنع طبيعة الممثلين الهزليين .

تلاحظ ، وأنت داخل إليه ، لوحتين كبيرتين ، ترى عليهما ، للوهلة الأولى ، بقعاً بُيئة ، حمراء وزرقاء ، شبكة خطوط بالبطشورة تمتد فوقها كأنها زرد شبكة صيد وقد حُبكت عشرين مرة ، حتى انه لمن المستحيل أن تفهم فيها شيئاً . شرح بيلران موضوع هاتين اللوحتين ، مشيراً ، بالابهام ، إلى الأقسام الناقصة . كانت واحدة منهما تحاول أن تكون : « جنون

نبوخذنصر» ، والأخرى : « حريق نيرون لروما » . أعجب بهما
فريدريك .

أعجب ، كذلك ، بعاريات مبعثرات الشعر ، بمنظر
لجذوع شجر كثيرة وقد كسرتها العاصفة ، وخصوصاً بفذلكات
بالريشة ، كتذكّار من كآلو ، من رامبرانت أو من غويا ، ما كان
يعرف أشكالها . بيلران ما كان يقدر ، بعد ، أعمال شبابه .
هو ، الآن ، مع الأسلوب الكبير . يؤكّد ، ببلاغة ، نظريات
فيدياس ووينكلمن . الأشياء ، حوالبه ، تعزّز قدرة كلمته :
كنت ترى رأساً على مرّكع ، سيوفاً تركية محدّبة ، عباءة راهب ،
رسم مثلها فريدريك .

كان ، حين يصل باكراً ، يفاجئه بسرير الميدان السيّء ،
الذي يخفي بقايا بخور ، لأن بيلران ينام متأخراً إذ هو يحضر
مسرّحات ، بمواظبة . تخدمه امرأة هرمة ، ذات أسمال بالية ،
يتعشى في مطعم حقير ، ويحيا من دون عشيقة . معلوماته ، وقد
جمعها كيفما اتفق ، تجعل تناقضاته مرحة . حقهه على العام
والبورجوازي يفيض سخريّة بغنائية بارعة ، ويكّن للأسياد
عبادة ، تكاد ترتفع به إليهم .

إنما ، لم هو لا يتحدث ، مطلقاً ، عن السيدة أرنو؟ أما
بالنسبة إلى زوجها فكان يسمّيه ، مرة ، صبيّاً طيباً ، وأحياناً
مشعوذاً . ويروح فريدريك ينتظر بوحه .

يوماً ، وهو يقلب في واحدة من علبة الكرتونيّة ، وجد ، في
وجه بوهيميّة ، شيئاً من الأنسة فانتاز ، وبما أنها تهّمه ، أراد أن

يعرف وضعها .

كانت في ظنّ يِلْران معلّمة في الريف . الآن هي تعطي دروساً ، وتهتم بالكتابة في الصحف الصغيرة . حسب فريدريك ، نظّنها ، من خلال تصرفاتها مع أرنو ، عشيقته .

- لا عليك ! ان له كثيرات سواها !
حينها ، أضاف الشاب بجرأة ، مميلاً بوجهه الذي احمرّ خجلاً لسوء ظنه :

- تردّ له ذلك زوجته ، ولا شك ؟
- أبداً ! هي شريفة !

ندم فريدريك ، وظهر أكثر اهتماماً بالجريدة . تبدو له الحروف الكبيرة التي تؤلّف اسم أرنو على اللوحة المرمرية ، أعلى المخزن ، مميّزة تماماً ، وغنيّة بالمعاني ، مثل كتابة مقدّسة الرصيف العريض النازل ، يسهّل المرور إليه ، يفتح الباب تلقائياً ، والمسكة ، الناعمة الملمس ، كأنها يد في يدك وأنت تفتح . ومن دون أن يدري ، صار دقيقاً بمواعيده كما ريجمبار . كل يوم ، يجلس ريجمبار في زاوية النار ، في كرسيّ مريح ، مستحوذاً على صحيفة « الناسيونال » ، يعود لا يتركها ، معبراً عن أفكاره بتعجّبات ، أو بهزات كتف بسيطة . من وقت لآخر ، يمسح جبهته بمحزمة جيبه الطويلة كيفمكان ، وبها يحتفظ على صدره ، بين زرين في سترته الطويلة الخضراء . بنطاله ذو ثنيات ، حذاؤه عالٍ ، وربطة عنقه طويلة . وقبعته ، المرفوعة

الأطراف ، تجعله يُعرف ، من بعيد ، بين جماعات الناس .
ينزل في الثامنة صباحاً من أعلى مونغارتر ، ليشرب نبذاً
أبيض في شارع سيّدة النصر . غداؤه الذي يستمرّ حتى الثالثة ،
يتبعه لعب بليار . ويتجه ، حينها ، إلى عمر البانوراما ليشرب
الآبست . بعد الجلسة عند أرنو ، يدخل حانة بوردي ليشرب
الفرموت ؟

ثم ، بدلاً من أن يلحق امرأته ، غالباً ما كان يفضل العشاء
مفرداً ، في مقهى صغير من ساحة غايون ، حيث يريد أطباقاً
« من حواضر البيت ، أشياء بسيطة » ! أخيراً ، ينتقل إلى صالة
بليار أخرى ، يبقى فيها حتى منتصف الليل ، حتى ساعة من
الصباح ، إلى أن يطلب إليه سيّد المؤسسة ، وقد أنهكه التعب ،
الخروج ، بعد أن يكون أطفأ الأنوار وأقفل النوافذ .

لم يكن حب الشراب ما يدفع المواطن ريجمبار إلى هذه
الأمكنة ، لكنها عادة قديمة هي التحدث في السياسة ، ومع تقدمه
في السن ، فقد الحمياً ، لم يبقَ لديه سوى كآبة صامتة . عند مرأى
وجهه الرزين ، تظنّه يفكر في قضايا العالم . ما كان يخرج منه
شيء ، ولا أحد من أصدقائه ، يعرف له مهنة ، بالرغم من أن له
غرفة أعمال .

يسدو أرنو يحترمه غاية الاحترام . قال ، يوماً ،
لفريدريك :

- هذا يعرف كثيراً ! انه رجل قوي !
مرة أخرى ، بسط ريجمبار على طاولته أوراقاً تتعلق بسيّءاء

صلصال بريثاني ، كان أرنو يستند إلى خبرته .
 بدا فريدريك أكثر اهتماماً برمجيمبار - حتى انه ليقدّم له
 الابستت بين الفينة والأخرى . ومهما اعتبره غيباً ، فغالباً ما كان
 يبقى برفقته لساعة طويلة ، فقط لكونه صديق جاك أرنو .

بعدما ساعد كثيرين من أساتذة معاصرين في بداياتهم
 الأولى ، راح تاجر اللوحات ، وهو رجل طموح ، محتفظاً بمظاهر
 فنية ، بأن يوسّع أرباحه المالية . كان يبحث عن تحرر الفنون ،
 عن الرائع الرخيص الثمن ، كل مصانع الترف الباريسي تأثرت
 به ، كان الأمر جيداً بالنسبة للأعمال الصغيرة ، أما بالنسبة
 للأعمال الكبيرة ، فقد كان الأمر سيئاً . بكلفه للمديح ، غير
 اتجاه الفنانين المهرة ، أفسد الأقوياء ، أنهك الضعاف ، وشهر
 الفاشلين . يتصرف بهم ، من خلال علاقاته ومجّلتة . تلاميذ
 الرسم يطمحون أن يروا أعمالهم في واجهة محلّه ، ويأخذ من عنده
 صانعو النجود أزياء المفروشات . يعتبره فريدريك كمليونير ،
 وهاوي فنون ، ورجل أعمال معاً . مع ذلك ، كثير من الأشياء
 كانت تثير عجبه ، لأن السيّد أرنو ماهر في تجارته .

كان يتلقى من آخر ألمانيا أو إيطاليا لوحة مشتراة ، في
 باريس ، بألف وخمسمائة فرنك ، فيعرض إيصالاً يجعلها بأربعة
 آلاف ، ويبيعها ، بمجاملة ، بثلاثة آلاف وخمسمائة ، واحدة من
 دوراته العادية مع الرسامين ، كانت لفرض زيادة على لوحاتهم
 كحسم عليها بحجة أنه يطبع اللوحة ، يبيع ، دائماً ، مصغر
 اللوحة ، ولا تعود ، هي ، تظهر . ويجيب من يرون أنفسهم

مستثمرين بخبطة على البطن . ومع ذلك فهو ممتاز ، يسخو بتقديم السيجار ، يخاطب المجهولين بدالة ، يتحمس لعمل أو لرجل ، وإذا تشبّث برأيه ؛ غير ملتفت إلى شيء ، يضاعف الجولات ، المراسلات ، الاعلانات . يحسب نفسه مستقيماً تماماً ، وفي حاجته إلى الثروة يروي بسذاجة حكايات قلة أمانته .

ولكي يغيظ زميلاً يفتح جريدة رسم أخرى ، في احتفال كبير ، طلب ، إلى فريدريك ، أن يكتب ، تحت نظره ، قبل قليل من زمن الموعد ، بطاقات تلغي دعوة المدعوين .

- هذا لا يمسّ الشرف ، أتفهم ؟

وما جرؤ الشاب على رفض هذه الخدمة .

في الغد ، وفريدريك يدخل مكتب أرنو ، مع هيسونيه ، رأى طرف ثوب يختفي من خلال الباب (الذي يؤدي إلى الدرج) .

- ألف عذرا ! قال هيسونيه ، لو عرفت أن عندك

نساء . . .

- أوه ، بالنسبة إلى هذه ، إنها امرأتي ، قال أرنو ، كانت

تقوم بزيارة لي بسيطة وهي تمرّ .

- كيف ذلك ؟ قال فريدريك .

- طبعاً ! هي تعود إلى البيت .

جمال الأشياء المحيطة به ، ذبل بسرعة . ما كان يحسّ به

يغمره ، تلاشى ، أو بالأحرى ، كأنه ما كان . شعر بمفاجأة لا

متناهية وكما بوجع خيانة .

ابتسم أرنو وهو يبحث في دُرجه أهبزاً به ؟ وضع الموظف
على الطاولة كدسة أوراق رطبة .

- آه ! الملصقات ! هتف التاجر . لست مستعداً لأن
أتعشى الليلة !

تناول ريجمبار قُبْعته .

- كيف ، أنت تغادرني ؟

- هي الساعة ! قال ريجمبار .

تبعه فريدريك .

في زاوية شارع مونغارتر ، استدار ، تلقت إلى نوافذ الطابق
الأول ، وضحك ، سراً ، شفقة على نفسه ، متذكراً بكم من
الحب ، كان تأملها مراراً ! أين ، إذن ، هي تعيش ؟ كيف
الالتقاء بها ، الآن ؟ عادت الوحدة تلف رغبتة أكثر من أي
وقت !

- أتريد شربها ؟ قال ريجمبار .

- شرب ماذا ؟

- الأبسنت !

ترك فريدريك نفسه ينقاد إلى حانة بوردي مستغرقاً في
هواجسه . وبينما رفيقه يتأمل ، مستنداً إلى ذراعه ، الدورق ،
راح يلتفت يمينه ويسرة . لكنه لمح جانب بيلران على الرصيف ؟
فحبط على الزجاج ، وما كاد الرسام يجلس ، حتى سأل ريجمبار
لماذا بات لا يتردد إلى « الفن الصناعي » .

- فلأمت إذا عدت ! انه فظ ، بورجوازي ، حقير ،

غريب الأطوار !

أرضت هذه الشئام غضب فريدريك . مع أنها آذته ، إذ رأى فيها تعريضاً ما بالسيدة أرنو .

- ماذا فعل بك ؟ قال ريجمار .

خبط بيلران الأرض بقدمه ، وتهدّ بقوة بدل أن يجيب .
كان أكب على أعمال مخالفة للقانون ، كأن يرسم رسوم الكبار لهواة قليلي المعرفة ، وبما أن هذه الأعمال تذله ، فقد أثر الصمت عموماً . لكن « قذارة أرنو » ظلت تغيظه كثيراً . فكان يتعزّى بهذه .

بناء على طلب ، كان فريدريك شاهده ، حمل إليه لوحتين . حينها ، سمح التاجر لنفسه ببعض الانتقادات ! ازدري التأليف ، اللون والرسم ، بخاصة الرسم ، باختصار ، ما أراد يقللها إطلاقاً . لكن بيلران ، وقد أجبره الاستحقاق ، تركهما لاسحق اليهودي ، وبعد خمسة عشر يوماً ، باعها أرنو نفسه لاسباني بألفي فرنك .

- ولا فلس ! بال للنذالة ! ويفعل غيرها الحقير ! سنراه ، يوماً ، في محكمة الجنايات .

- كم تبالغ ! قال فريدريك بصوت خجول .

- هيا ! أبالغ أنا ! حسناً ! صرخ الفنان ، ضارباً الطاوله بعنف .

هذا العنف لا شك أنه أعاد إلى الشاب ثقته بنفسه . ولكن مع هذا فان التصرف بطريقة أفضل ، يظل ممكناً ، إذا وجد أرنو

اللوحتين . . .

- رديثان ! قل الكلمة ! أتعرفهما ، أنت ؟ هل هي مهنتك ؟ تعرف ، أنت يا صغيري ، أنني لا أقبل ، أبداً ، بهذا .
الهواة .

- طبعاً ! ليس هذا من اختصاصي ! قال فريدريك .
- إذن ، أية مصلحة لك في الدفاع عنه ؟ نتم ييلران
برود .

تلبك الشاب نوعاً :

- لكن . . . لأنني صديقه .

- قبله عني ، طبت مساءً !

وبالطبع ، خرج الرسام حانقاً ، ومن دون أن يذكر
حسابه .

كان فريدريك أقنع نفسه ، وهو يدافع عن أرنو . وفي
استشاطه غضب ييلران ، أخذه حنان لهذا الرجل الذكي
والطيب ، الأصدقاء ينمون ضده ، وهو ، الآن ، يعمل وحيداً
مهماً . لم يستطع أن يقاوم الرغبة في رؤيته ثانية ، وللحال . بعد
دقائق عشر ، كان يدفع باب المخزن .

كان أرنو ، يحضر مع موظفه ملصقات ضخمة لمعرض
لوحات .

- عجباً ! من يعيدك ؟

هذا السؤال البسيط ، ألقى فريدريك . وإذا لم يدر ما
يجيب ، سأل هل رأى ، صدفة ، مفكرته ، مفكرة صغيرة من

جلد أزرق .

- هذه التي تضمّ رسائلك النسائية ؟ قال أرنو .
وإذ احمرّ فريدريك كالبنّت البتول ، احتجّ على هكذا
افتراض .

- قصائدك ، إذن . أردف التاجر .
كان يتأمل النماذج المعلقة ، يناقش شكلها ، لونها ،
إطارها . ويشعر فريدريك بالغضب أكثر فأكثر ، لمنظره في وضع
التأمل ، وبخاصة ليديه اللتين تتمشيان على الملصقات ، رخوتين
نوعاً ، وبأظافر مسطّحة . أخيراً نهض أرنو ، وإذ قال :
« انتهينا » ، مرّ يده تحت ذقن فريدريك ، بدالّة . هذه الألفة ما
أسرّت الشاب ، فتراجع . ثم اجتاز عتبة المكتب للمرة الأخيرة في
حياته ، كما ظنّ . السيدة أرنو نفسها ، رآها تضاءلت بسبب
تصرفات زوجها .

في الأسبوع عينه ، تلقى رسالة من ديلوريه ، يعلمه فيها
بوصوله إلى باريس ، الخميس القادم . فانكبّ ، من حينها ،
باندفاع ، على هذا التعلّق الأقوى والأكثر صلابة . هكذا رجل
يوازي النساء جميعاً . لن يكون بحاجة لريجيمبار ، لبيترلان ،
لهيسونيه ، ولا لأحد . وليؤوي صديقه بطريقة أفضل ، اشترى
فراشاً صغيراً ، كرسيّاً مريحاً ثانياً ، ضاعف عدة السرير . وصباح
الخميس ، كان بدأ يرتدي ثيابه ليستقبل ديلوريه ، حين سمع
فرع جرس الباب . دخل أرنو .

- كلمة واحدة ! أرسلوا إليّ أمس من جنيف سمكة ترويت

كبيرة حسنة ، نتمناك بيننا ، مساء اليوم في الساعة تماماً . . .
 شارع شوازيل ، ٢٤ مكرّر . لا تنس !
 رأى فريدريك نفسه مرغماً على الجلوس . اصطكت
 ركبته . طفق يردد : « أخيراً ! أخيراً ! » ثم كتب إلى خياطه ؛ إلى
 صانع قبعاته ، وإلى صانع أحذيته . أرسل ورقاته الثلاث هذه ،
 مع ثلاثة رسل مختلفين . دار المفتاح في القفل وظهر الباب ، وعلى
 كتفه حقيبة .

إذ رأى فريدريك ، ديلوريه ، بدأ يرتجف كامراً زانية أمام
 زوجها .

- ما بك ؟ قال ديلوريه . يجب أن تكون تبليغت رسالة
 مني ؟

ما كان لفريدريك القوة ليكذب .

فتح ذراعيه وارتمى على صدره .

ثم طفق كاتب المحامي يروي قصته . ما كان والده يريد
 إعطائه حقوق الوصاية ، متصوراً أنها تنقضي بعد سنوات عشر .
 لكنه ، لقوته في المرافعة ، استطاع ، ديلوريه ، أن يحصل على
 كل ميراث أمه ، سبعة آلاف فرنك ، هي معه ، في محفظة
 عتيقة .

- إنها احتياط لوقت الضيق . يجب أن أفكر في توظيفها وفي
 أن أتوظف أنا نفسي ، من صباح غد . بالنسبة إلى اليوم ، عطلة
 تامة ، وكله لك ، يا عزيزي !

- أوه ! لا تزعج نفسك ! قال فريدريك . لو كان عندك

هذا المساء أمر مهم . . .

- خلّ عك ! . . . وإلا كنت أنا أتعس التعمساء . . .
هذا النعت ، رُمي كيفما اتفق ، مسّ فريدريك في أعماق
قلبه ، كما تلميح مهين .
كان البوّاب وضع على الطاولة ، قرب النار ، أضلاع
خروف ، هلامية ، كركندا ، تحلية ، وقنينتي خمر من بوردو .
هكذا استقبال أدهش ديلورييه .

- تعاملني ، والله ، كملك !

نُحَدِّثُنا عن ماضيها والمستقبل . ومن وقت لآخر ، كانا
يمسكان أيدي بعضهما البعض من فوق الطاولة ، ناظرين بعضها
إلى بعض بحنان . لكن موظفاً أتى بقبعة جديدة . علّق
ديلورييه ، عالياً ، كم هي جميلة ورائعة .
ثم وصل الخياط ، بنفسه ، آتياً بالثوب الذي كان كواه .
- كأنك تستعد للزواج ؛ قال ديلورييه .

وبعد ساعة ، وصل ثالث ، أخرج من كيس أسود كبير
حذاءً ملمّعاً ، زاهياً . وإذا كان فريدريك يقيسه ، لاحظ صانع
الأحذية ، بسخرية ، حذاء الريفي .

- أليس السيد في حاجة إلى شيء ؟

- شكراً ، تتمم كاتب المحامي ، ساحباً ، تحت الطاولة ،
حذاءه العتيق .

أزعج هذا الاذلال فريدريك . ثم استدار ليعترف بالأمر .
أخيراً هتف ، كما مأخوذاً بفكرة :

- آه ! تبأ لي ، كدت أنسى !
 - ماذا هناك ؟
 - أنا مدعو المساء للعشاء في المدينة !
 - عند آل دمبرز ؟ لماذا لم تحدّثني عنهم في رسائلك ؟
 ما كان العشاء عند آل دمبرز ، بل عند آل أرنو .
 - كان عليك أن تعلمني ! قال ديلوريه . كنت أخرب
 مجيئي يوماً .
 - مستحيل ! أجب فريدريك بقوة . لم يدعوني إلا هذا
 الصباح ، من وقت قريب .
 وليعوّض عن خطئه ، ويسلي صديقه ، فك رُبط حقيقته
 المعقدة ، وربّ له أغراضه في الخزانة الصغيرة ، أراد أن يعطيه
 سريره ، وينام في الغرفة الخشبية . ثم بدأ ، منذ الرابعة ، يستعدّ
 للذهاب .
 - ما يزال لديك الوقت الكافي ! قال الآخر .
 ارتدى ثيابه ، أخيراً ، وذهب .
 « هؤلاء هم الأغنياء » فكّر ديلوريه .
 وخرج يتعشّى في شارع سان - جاك ، عند صاحب مطعم
 بسيط يعرفه .
 توقف فريدريك مرات كثيرة ، في الدرج ، لفرط ما كان
 قلبه ينبض . طقّ واحد من كفيّه ، كان ضيقاً . وإذ راح يخفي
 المزق بقميصه ، أمسكه أرنو ، الذي كان صاعداً وراءه ، من
 ذراعه وأدخله .

في المدخل . المزين على النمط الصيني ، فانوس ملون ، في السقف ، وخيران في الزوايا . تعثر فريدريك ، وهو يدخل الصالون ، بجلد نمر . ما كانوا أشعلوا المصابيح بعد ، لكن قنديلين كانا مشتعلين في الصالون الصغير في العمق .

أتت مارت ، الابنة ، تقول إن أمها ترتدي ملابسها . رفعها أرنو إلى علو فمه ليقبلها . ولأنه شاء أن يتقي ، بنفسه ، من القبو بعض قناني الخمر ، ترك فريدريك مع البنت . كانت قد كبرت كثيراً ، عماً رآها عليه في رحلة مونتيرو شعرها البني كان ينسدل حلقات طويلة مجمدة على ذراعيها العاريتين . ثوبها ، الأكثر انتفاخاً من تنورة راقصة ، يُظهر أعلى ساقها الورديتين ، وقامتها اللطيفة تحسها طرية كما باقة . تقبلت ثناء السيّد بمظهر الفخورة ، ركزت عينيها العميقتين عليه ، ودرجت بين الأثاث ، وكما هرة اختفت .

ما عاد يشعر بأي ارتباك . كانت كرات القناديل ، المغطاة بدانتيلاً من ورق ، ترسل ضوءاً لَبَنِيّاً ، يرقق لون الجدران المطلية بالساتان الحَبَازي اللون . عبر صفائح حاجز النار ، الشبيه بمروحة ضخمة ، كنت تلاحظ الفحم في المدفأة ؛ بمقابل الساعة . علبة حلّ فضية الأقفال . وهنا وهناك أشياء مبعثرة : لعبة وسط الأريكة ، خمار كتفين على مسند كرسيّ ، وعلى طاولة العمل ، كتزة صوف منها تنزل صنارتا عاج ، رأسها إلى أسفل . إنه مكان هاديء ، شريف وعائلي معاً .

عاد أرنو ؛ ومن البوابة الأخرى ، ظهرت السيّدة أرنو . بما

أنها تكتنفها الظلال ، لم يلاحظ أول الأمر ، إلا رأسها . ثوبها من مخمل أسود ، وفي شعرها ، شبكة جزائرية طويلة ، خيوطها من حرير أحمر ، تلتفت على مشطها ، وتنزل على كتفها اليسرى .
أرنو قدّم فريدريك .

- أوه ! عرفت السيّد تماماً ، أجابت .

ثم وصل المدعوون جميعاً ، وفي وقت واحد تقريباً : ديتمر ، لوفارياس ، بوريو ، الموسيقي روزنوالد ، الشاعر تيوفيل لوريس ، ناقد فن زميلان لهيسونيه ، صانع ورق ، وأخيراً ، الشهير بيار - بول ماينسيوس ، آخر ممثلي الرسم العظيم ، ويحمل ، بشجاعة ، مع مجده ، سنوات الثمانين ويطنه الضخم .
حين الانتقال إلى غرفة الطعام ، أخذته السيّد أرنو من ذراعه ثمة كرسي لا تزال فارغة ، إنها لبيلرن . يجبه أرنو وهو يستمره .
على كل حال ، كان يخشى لسانه السليط - مع أنه ، لإرضائه ، طبع ، في « الفن الصناعي » ، رسمه مع مديح فيه كثير غلو .
وحوالي الثامنة ، ظهر بيلرن ، متعباً ، وهو يفضل المجد على المال . تصور فريدريك أنها تصالحا من زمان .

كل شيء ، أرضاه : الرفقة ، الأطعمة ، كل شيء .
الغرفة التي تشبه ردهة من القرون الوسطى ، كانت مفروشة جليداً مطروقاً ؛ خزانة رفوف هولندية تقوم أمام مسند أسلحة ذي شُبُق ؛ وحوالي الطاولة ، كؤوس « بوهيم » ، مختلفة الألوان ، كأنها تضيء في بستان ، بين الزهور والثمار .
كان عليه أن يختار بين عشرة أنواع من الخردل . أكل من

البهار الهندي ، من الزنجبيل ، من شجاريز كورسكا ، من « اللازانية » الرومانية ؛ شرب خموراً عجيبة . كان أرنو يتباهى بحسن استقباله . كان يساير ، بخصوص الأطعمة ، كل سائقي سيارات نقل البريد ، وهو مرتبط بطهاة أكبر المطاعم التي ترسل إليه التوابل .

لكن الأحاديث هي أكثر ما أسرَ فريدريك . حبه للسفر ، دغدغه ديتمر الذي تحدّث عن الشرق ؛ أرضى حشريته حول أمور المسرح ، حين استمع إلى روزنوالد يتكلّم عن الأوبرا ؛ وحياة بوهيميا النظيفة بدت له غريبة مضحكة عبر فرح هيسونيه ، الذي روى ، بطريقة مثيرة ، كيف أمضى شتاءً كاملاً لم يكن له ما يأكل خلال له سوى جبنة من هولندا . ثم إن نقاشاً بين لوفارياس وبوريو حول المدرسة الفلورنسية ، ذكره بروائع الآثار ، وفتح له أفاقاً ، ورأى نفسه مكرهاً على كبت حماسه حين هتف بيلران :

- دعوني من هذه الواقعية الكريهة ! ماذا تعني الواقعية ؟ بعضهم يرى أسود ، سواهم أزرق ، الغالبية ترى رؤية الغباء . لا شيء أقل طليعية من ميكال أنج ، ولا شيء أكثر قوة ! وسواس الحقيقة الخارجيّة يدل على التفاهة المعاصرة ؛ وسوف يصبح الفن ، إذا أكملنا هكذا ، ما لا أدري ماذا . لن تصلوا إلى غايته ، - نعم ، غايته ! - إلهي أن تحدّث فينا إثارة غير شخصيّة ، عبر آثار صغيرة ، برغم كل مخادعات الإجراء . هاكم ، مثلاً ، لوحات باسولييه : جميلة ، مغناجة ، غاية في النظافة ، وليست ثقيلة ! كتاب العدل يشترونها بعشرين ألف فرنك ؛ الفكرة بثلاثة

فلوس ؛ إنما من دون الفكرة ، لا شيء عطيماً ؛ من دون عظمة
لا شيء جيلاً . الألب جبل ! قمة الأبنية ، هي ، دوماً ،
الأهرام ؛ الحيوية المتدفقة تفضل الذوق ، والصحراء الرصيف ،
والمتموِّح الحلاق !

راح فريدرريك ، وهو يستمع إلى هذه الأحاديث ، ينظر إلى
السيدة أرنو . كان الكلام يسقط في ذهنه كما معادن في الأتون ،
تضاف إلى آله ، وتُحدث حباً .

على ثلاثة مقاعد منها ، هو جالس ، في الجهة نفسها . هي
تنحني ، بين الفينة والفينة ، لتوجّه بضع كلمات لابتها ؛ وإذا
تبسم ، يغمز خدها ، مما يزيد وجهها طيبة أكثر لطافة ورقة .
وقت الشراب اختفت . صار الحديث حراً . حلّق السيد
أرنو فيه ، وعجب فريدرريك لوقاحة هؤلاء الرجال . في حين أن
انشغالهم بالمرأة يوازيه بهم ، إلا أنه يرتفع عليهم .

وإذا عاد إلى الصالون ، أخذ ، مصادفة ، ألبوماً كان على
الطاولة . كبار رسامي العصر زيتونه بالرسوم ، كتبوا فيه النثر ،
الشعر ، أو وقّعوه فحسب . بين الأسماء الكبيرة ، هناك أسماء
كثيرة لمجهولين ، والأخطار الحشرية ما ظهرت إلا بفبضان من
الغبawat . تحمل ، كلها ، ثناء يكاد يكون مباشراً ، للسيدة
أرنو . خشي فريدرريك أن يخطّ سطرًا إلى جانبها .

ذهبت إلى مخدعها وجاءت منه بعلبة الحلّ ذات الأقفال
الفضية التي كان قد لحظها على المدفأة . هي هدية زوجها ، وهي
أثر من عصر النهضة . أصدقاء أرنو امتدحوها ، زوجته شكرته ؛

أستبدّ به الحنان ، فقبّلها أمام الجمهور .
ثم طفقوا يتحدثون ، جماعات ؛ ماينسيوس الطيّب كان مع
السيدة أرنو ، على مشاة قرب النار . كانت تميل إلى أذنه ،
يتلامس رأسهما . كان قَبِلَ فريدريك أن يكون أصمّاً ، عاجزاً
وبشعاً ، شرط أن يكون مشهوراً ، وشعره أبيض ، ليكون له ما
يؤهّله للدخول في حميّة كهذه . صار قلبه يتفتّت ، غاضباً على
شبابه .

وأنت إلى زاوية الصالون حيث يقوم ، سألته إن كان يعرف
أحداً من المدعوّين ، أن كان يحبّ الرسم ، منذ كم من الوقت
يدرس في باريس . كل كلمة تخرج من فمها ، بدت لفريدريك
جديدة ، تأسره أكثر . راح ينظر ، بانتباه إلى تنسّلات قبّعها ،
مدغدغاً ، عن بعد ، كتفها العارية ؛ وما كان لينتشل عينيه منها ،
يُغرق روحه في بياض هذا الجسد النسائي ، مع ذلك ، ما كان
يجرؤ على رفع جفنيه لرؤيتها وجهاً لوجه .
قاطعهما روزنوالد ، سائلاً السيدة أرنو أن تغني شيئاً قسم
روزنوالد ، فانتظرت . انفتحت شفتاها ، وتهادى صوت نقي ،
طويل ، مغزول .

لم يفهم فريدريك شيئاً من الكلمات الإيطالية .
بدأت بإيقاع خفيض ، مثل ترتيلة كنسيّة ، ثم بثت فيه
حياءً ، صُعداً ، ضاعفت رنات صوتها ، وفجأة هدأت ؛ وعاد
لنغم ، بهيام ، وترجمات عريضة بطيئة .
كانت واقفة قرب ملايس البيانو ، ذراعاها مسترخيتان

نظرها ضائع . أحياناً ، ولتقرأ اللحن ، ترفّ جفونها وهي تمدّ جبينها ، للحظة . صوتها الرنان يتخذ ، في أوتاره الخافتة ، أداء كثيباً يجمّد ، ويميل رأسها الجميل ، بحاجبيها الكبيرين ، إلى كتفها . يتنفخ صدرها ، ذراعها تنتحيان ، يتلوى عنقها ، بلين ، كما بتأثير قبلات هوائية ، وهو يصدر نغمات متعاقبة سريعة . أطلقت ثلاث نغمات مرتفعة ، ثم خفضت ، فنغمة أعلى ، وبعد صمت ، أنهت بنقطة الإطالة .

ما فارق روزنوالد البيانو . أكمل اللعب لذاته . طفق المدعوون ، ينسحب واحد منهم بعد آخر . في الحادية عشرة ، إذ ذهب الجميع ، خرج أرنو مع بيلران بحجة تشييعه . كان من هؤلاء الأشخاص الذين يتمارضون إن لم يتمشوا بعد العشاء . كانت السيّدة أرنو تقدّمت إلى المدخل ، حيّاها ديتّمر وهيسّونيّه ، مدّت إليهما يدها ؛ كذلك مدّتها إلى فريدريك ؛ وشعر كما باختراق لكل ذرّات جسده .

ترك أصدقاءه . كان بحاجة ليكون وحده . قلبه يخفق . لماذا هذه اليد الممدودة ؛ أهي حركة عفويّة ، أم تشجيع ؟ « هيّا بي ! يا لي من مجنون ! » ماذا يهمّ كان هو يستطيع مخالطتها بسهولة ، والعيش في جوّها .

كانت الشوارع خالية . تمرّ أحياناً عربية ثقيلة ترجّ البلاطات . تتتابع البيوت بواجهاتها الرماديّة ، ونوافذها المقفلة ؛ وفكر ، بازدرأ ، في كل البشر النائمين خلف هذه الجدران ، الموجودين من دون أن يروها ، ولا واحد منهم يحس بوجودها ! ما

عاد يعرف المكان ، ولا المسافة ، ولا شيء . خبط الأرض
بقدمه ، وضرب مصاريح المحلات بعصاه ، وظلّ يمشي في اتجاه
وجهه ، للصدفة ، هائماً ، مقاداً . أحاطه هواء رطب ، فعرف أنه
على حدود الأرضفة .

القناديل تلمع في خطين مستقيمين ، بلا حدود ، وتنعكس
أنوار حمراء طويلة ، في عمق المياه . لونها أردوازي ، في حين أنّ
السماء ، الأكثر صفاء ، بدت تحملها الظلال الكثيرة والكثيفة التي
كانت ترتفع من على جانبي النهر . أبنية ضخمة ما كنّا نلاحظها ،
كانت تضاعف من الظلمات . ضبابية مشعة تطفو ، فوق ، على
السطوح ؛ كلّ الضجيج يذوب في طنين واحد . وهبّ نسيم
خفيف .

توقّف في قلب « الجسد الجديد » ، راح يتنفس الهواء ،
حاصر الرأس ، مكشوف الصدر . في هذه الأثناء ، شعر بشيء
يصعد ، من أعماقه ، شيء لا ينضب ، موجة حنان تسكره ، كما
حركة الأمواج تحت فرامي بصره . دقّت الأولى في ساعة كنيسة
ما ، ببطء ، شبيهة بصوت كأنه يناديه .

حينها ، شعر برعشة في روحه حيث يبدو لك انتقل إلى عالم
أرفع . أصابته موهبة غريبة ، لا يعرف موضوعها . بجدية ،
تساءل ، هل سيكون رساماً كبيراً أو شاعراً كبيراً ، ومال للرسم ،
لأن مقتضيات هذه المهنة تقربه من السيّدة أرنو . إذن ، موهبته ،
نداءه الباطني ! صار هدف وجوده واضحاً ، والمستقبل واثقاً .
حين أغلق بابه ، سمع أحدهم يشخر في الغرفة المستقلة

السّوداء ، قرب الغرفة . إنه الآخر . كان نسيه .
ظهر وجهه في المرآة . رأى نفسه جميلاً ؛ - وتأمل ذاته
لدقيقة .



V

اشترى ، قبل ظهر الغد ، علبة ألوان ، ريشاً ، وحمالة ،
 قبل بيلران بأن يعطيه دروساً ، فاصطحبه فريدريك إلى شقته ،
 ليتأكد من أن شيئاً من حاجيات الرسم لا ينقصه .
 كان ديلورييه قد رجع ، كان ثمة شاب يُشغل الكرسي
 المريح الثاني . قال كاتب المحامي دالاً عليه :

- إنه هو ! هاكه ! سينيكال !

لم يعجب فريدريك . عرض جبينه أبرزته قصة شعره التي
 جعلته واقفاً . شيء ما قاس وبارد يلمع في عينيهِ الرماديتين ؛
 وسترته الطويلة السوداء ، وكل لباسه ، يشعراكَ وكأنه عالم تربية
 أو كنسي .

تحدّثوا ، أولاً ، عن أمور عادية ، من بينها آلامية ^(١) روسيني
 وحين سئل سينيكال ، قال أنه لا يذهب أبداً ، إلى المسرح . فتح
 بيلران علبة الألوان .

- أكل هذا لك ؟ قال كاتب المحامي .

- طبعاً .

- يا لها من فكرة !

(١) انشودة تصور آلام أم المسيح .

وانحنى فوق الطاولة حيث معلّم الرياضيات يتصفّح كتاباً
للويس بلان . كان جلّبه ، هو نفسه ، ويقرأ ، بصوت خافت ،
مقاطع منه ، بينما بيلران وفريدريك يتفحصان معاً مجموعة
الألوان . ثم تحدّثا عن العشاء عند أرنو .

- تاجر اللوحات ؟ سأل سينيكال . سيّد جميل ، حقّاً !

- لماذا ؟ قال بيلران .

أجاب سينيكال :

- إنه رجل يسكّ عملة بدناءات سياسيّة !

وراح يتحدّث عن محفورة شهيرة تمثّل كل العائلة الملكيّة
منشغلة باهتمامات مثاليّة : لويس - فيليب - يحمل قانوناً ، الملكة
كتاب صلاة ، الأميرات تطرّزن ، دوق دونيمور يتقلّد سيفاً ؛
السيد دو جوانفيل يُظهر لإخوته الصغار خريطة جغرافية ؛ وفي
العمق نلاحظ سريراً . بجزئين . هذه الصورة واسمها « عائلة
طيّبة » ، كانت لذة البورجوازيين وبلوى المواطنين . أجب بيلران
بنبرة مغتظة كأنه محقّق تلك المحفورة أنّ الآراء تختلف ؛ اعترض
سينيكال . على الفرّ ، فقط ، أن يهدف إلى إصلاح أخلاق
الجماهير ! يجب ألاّ تظهر إلّا المواضيع الدافعة إلى الفضائل ،
الأخرى مصجّرة .

- لكن هذا يتوقّف على التنفيذ ! صرخ بيلران . أستطيع

أن أجعل منها روائع !

- تروح عليك ، إذن ! لاحق لنا ...

- ماذا ؟

- كلا ! سيدي ، ليس من حقك أن تجعلني أهتمّ بأشياء

أنبذها . ما حاجتنا إلى ترهات متكلفة ، مستحيل أن نستفيد منها شيئاً ، إلى ربّات الجمال هذه ، مثلاً ، وكل مناظرك؟ إنّي لا أرى فيها تقيفاً للشعب ! دلّنا على تعاساته ! إدفع بنا إلى التضحيات ! والله ، إن المواضيع كثيرة : المزرعة ، العامل . . .

طفق بيلران يتمّم غيظاً، إذ حسب ذاته وجد حجة :

- موليار ، تقبل به ؟

- فليكن ! قال سينيكال . أعجب به كممهد للثورة

الفرنسية .

- آه ! الثورة ! يا للفن ! ولا مرة حصلت فترة تدعو للثراء

مثلها !

- ليس أهمّ منها ، يا سيّد !

كفّف بيلران ذراعيه ، وقال وهو ينظر إليه في وجهه :

- كأنك حارس وطني مجدّ !

أجاب خصمه المعتاد المناقشات :

- أبداً ! وأكرههم مثلك ! ولكن ، بمثل هذه الاعتقادات

تُفسد الشعب ! وهذا لصالح الحكم ! لن يكون قوياً من دون تواطؤ جماعة مهرّجين كما هذا الرجل .

دافع الرّسام عن التاجر ، لأن آراء سينيكال أسخطته .

استطاع حتى أن يجرؤ على القول إن لجاك أرنو قلباً حقيقياً من ذهب ، وهو مندفع لأصدقائه ، محب لزوجته .

- أوه ! أوه ! لو قدّم له مبلغ محترم ، لما رفض أن يجعلها

موديلاً .

امتقع فريدريك .

- هل آذاك يا سيد !

- أنا ؟ أبداً ! مرة رأيته في المقهى ، مع صديق . هذا كل

ما في الأمر .

كان سينيكال صادقاً في هذا . لكنه رأى نفسه منزعجاً ،
يوميّاً ، من إعلانات « الفن الصناعي » . كان أرنو ، بالنسبة
إليه ، ممثل جماعة يحسبها مهلكة للديمقراطية . كجمهوري
متعصب ، يتهم بالفساد كل الأغنياء .

ما تتابعته المناقشة . تذكر الرسام موعداً ، له ، قريباً ،
والمعلم تلاميذه . وإذ خرجا ، سأل ديلوريه ، بعد صمت
طويل ، أسئلة مختلفة عن أرنو .

- ستقدمني إليه في ما بعد ، أليس كذلك يا عزيزي ؟

- بالطبع ، قال فريدريك .

ثم اهتمّا بإقامتهما . كان ديلوريه حصل ، من دون تعب ،
على مركز كاتب ثان عند محام ، وتسجل في مدرسة الحقوق ،
واشترى الكتب اللازمة ، - وابتدأت الحياة التي كانا حلما كثيراً
بها .

كانت سعيدة ، لنضارة شبابها . وكون ديلوريه لم يتكلم
قط على اتفاق ماليّ ، ما تحدّث عنه فريدريك . تكفل بكل
النفقات ، ربّ الخزانة ، اهتم بترتيب الشقة ؛ ولكن ، إذا لزم
توبيخ البواب ، كان هو يتكفل بالأمر ، مكملاً ، كما في المعهد ،
دوره كحام وكبكر .

بعد انفصال طوال النهار ، يلتقيان مساءً . يأخذ كل منهما مكانه في زاوية قرب النار ، وينكب على عمله . لا يتأخران في التوقف عنه . يتناحيان بلا نهاية ، يُسرّان بلا سبب ، ويختلفان مرات بسبب قنديل يدخن أو كتاب ضاع ، غضب لحظة تبدده ضحكات .

ويتحدّثان ، من سريرهما ، إذ يتركان باب الغرفة المنفصلة مفتوحاً .

في الصباح ، يتمشيان بقميصيهما الفضفاضين على الشرفة ؛ تشرق الشمس ، يمرّ ضباب خفيف فوق النهر ، ويُسمع صراخ في سوق الأزهار المجاور ؛ - ودخان غليونهما يحلّق في الهواء النقي ، يلامس عينيها اللتين لا تزالان متورمتين . يشعران ، وهما يتنشقانه ، أملاً كبيراً .

وعندما لا غطر الأحد ، يخرجان معاً ؛ ويتمشيان في الشوارع . تأتيها الأفكار نفسها معاً ، أو يتحدّثان ولا يريان شيئاً حواليهما . ديلوريه يطمح إلى الغنى كوسيلة سلطة على البشر . أراد أن يحرك كثيراً من الناس ، يثير كثيراً من الضجة ، يكون له أمناء سر ثلاثة في تصرفه ، وعشاء سياسي كبير ، مرة في الأسبوع . فريدريك سيفرش قصراً بطريقة أسطورية ، ليحيا نائماً على أرائك من كشمير ، على خرير نافورة مياه ، يخدمه عبيد ؟ - وصارت أحلامهما هذه ، في غاية الدقة والوضوح ، حتى إنها يتكذّران كما لوها أضعاعها .

- ماذا يفيدنا أن نحلم بكل هذا ، ما دمتا لن نحققه ،

أبداً .

- مَنْ يدري ؟ أجاب ديلوريه .
بالرغم من آرائه الديمقراطية ، أراده أن يدخل عند آل
دمبروز . اعترض الآخر مذكراً بمحاولاته .
- لا بأس ! عد إليهم ! سوف يدعونك !

حوالى منتصف الشهر ، وصلتهما ، بين الحسابات
الكثيرة ، حساب صاحب المطعم الذي كان يأتيهما بطعام
العشاء . وإذ لم يكن مع فريدريك كل المبلغ ، استدان من
ديلوريه مئة ريال . بعد خمسة عشر يوماً ، أعاد الطلب ذاته ،
وعفنه كاتب المحامي على النفقات التي كان يضطر إليها عند أرنو .
في الواقع ، ما كان معتدلاً في إنفاقه . زين جدرانها الثلاثة
بمنظر البندقية وآخر ل نابولي وثالث للقسطنطينية ، ومواضيع خيالية
من الفرد دودرو متناثرة ، وجماعة من براديه على المدفأة ، أعداد
من « الفن الصناعي » على البيانو ، وأغلفة كرتون على الأرض في
الزوايا ، كلها تملأ المسكن بطريقة يصعب معها وضع كتاب ،
وتحريك الذراعين . يدعي فريدريك أنها ، جميعها ، تلزمه
لرسمه .

كان يعمل عند بيلران . وغالباً ما يكون هذا في جولات .
فهو معتاد حضور كل المآتم والأحداث التي تتحدث الجرائد عنها .
فيمضي فريدريك ساعات ، في المحترف ، وحيداً . هدوء هذه
الغرفة الواسعة ، ميت لا يُسمع سوى كردحة الفئران ، والضوء
المنسدل من السقف ، وحتى صوت الموقد ، كلها تجعله أول الأمر

في جَوْ ثقافي مريح . ثم تمتد عيناه ، مغادرتين عمله ، إلى قشور الجدران ، بين تحف الرفوف ، إلى جذوع التماثيل حيث الغبار المتراكم كأنه بقايا مخمل ؛ وكمسافر ضائع وسط غابة ، كل الطرقات تؤدِّي به إلى المكان ذاته ، باستمرار ، فيجد في عمق أية فكرة ، ذكرى السيِّدة أرنو .

يحدّد أياماً لزيارته . وحين يصل إلى الطابق الثاني ، أمام بابها ، يتأرجح في دَقّة الجرس . تقترب خطوات ، يُفتح الباب ، ويسمع هذه الكلمات : « السيِّدة خرجت » ، يكون خلاصه ، وكحمل ثقيل أزيل عن قلبه .

مع ذلك التقاها . مرة أولى ، كان برفقتها ثلاث نساء . في المرة الثانية ، بعد ظهر ذات يوم ، وصل معلّم الخطّ للآنسة مارت . على كل حال ، الرجال الذين تستقبلهم السيِّدة أرنو ، لم يكونوا يزورونها . فلم يعد ، خجلاً .

لكنه ما كان يغيب ، لُيُدعى إلى عشاء الخميس ، عن الحضور إلى « الفنّ الصناعي » ، كل أربعاء ، بشكل دائم ؛ ويبقى هناك بعد الجميع وحتى بعد ريجمبار ، إلى آخر دقيقة ، يتأمل لوحة ، يتصفّح جريدة . أخيراً يقول له أرنو : - « هل أنت حر ، غداً مساءً ؟ » .

ويوافق قبل أن تتم العبارة . يبدو أرنو يستلطفه . أبان له فنّ معرفة الخمور ، وصنع « البنش » ، وتحضير سلمية دجاج الأرض ؛ يعمل فريدريك بنصائحه ، محبّاً كلّ ما يتعلّق بالسيِّدة أرنو ، أاثاتها ، خَدَمِها ، بيتها ، شارعها .

ما كان يتكلم في حفلات العشاء ، بروح بتأملها . برين
خذا ، إلى اليمين ، في صدعها ، خال صغير ، عصانات رأسها
أكثر سواداً من بقية شعرها ، وكأنها ، دائماً ، رطبة ، نوعاً ، من
أطرافها . تنحسها ، بين وقت وآخر ، بإصبعين فقط . صار
يعرف شكل كل من أطرافها ، يلتذ بسمع حفيف ثوبها الحريري
حين تمرّ قرب الأبواب ، ويستنشق ، سرّاً ، أريج محرمها ؛
ويحسب مشطها ، قفازها ، حوائجها ، أشياء عميرة ، مهمة كآثار
فنية ، تكاد تكون حية كشر . كلها تستحود على قلبه وتصاعف
أله .

لم يقدر على إخفاء هذا عن ديلوريه . حين يعود من
عندها ، يوقظه ، كأن الأمر حصل سهواً ، ليستطيع التحدث
عنها .

بشاء ديلوريه طويلاً ، وهو كان ينام في غرفة الحشب
المنفصلة ، قرب النبع . يجلس فريدريك عند أسفل سريره .
يتحدث ، أولاً ، عن العشاء ، ثم يروي مئة حبر صغير لا معنى
له ، حيث يرى علامات ازدياد أو عاطفة . فمثلاً ، ذات مرة ،
رفضت ذراعها ، لتأخذ ذراع ديتمر ، فحزن هو .

- آه ! يا للسخف !

أو أنها نادته صديقها .

- هيا بك إذن !

- لكنني لا أجرؤ ، قال فريدريك .

- إذن ، فلا تفكرن بها . طبت مساء .

استدار ديلورييه صوب الزقاق ونام . ما كان يفهم شيئاً من هذا الحب الذي كان يحسبه كضعف أخير من فترة المراهقة . وإذا رأى أن حميميتها باتت ، لا شك ، لا تكفيه ، تصوّر أن يدعو أصدقاءها المشتركين ، مرة في الأسبوع .

صاروا يصلون السبت في حوالى التاسعة . تكون مسحوبة الستائر الثلاثة . القنديل مضاء وهكذا شموع أربع . وسط الطاولة ، وعاء دخان ، مليء ، موضوع بين قناني البيرة ، إبريق الشاي ، وعاء « الروم » وحلويات صغيرة . تسمعهم يتحدثون عن خلود النفس ، ويقارنون بين الأساتذة .

في مساء ما ، جاء هيسونيه بشاب طويل يرتدي سترة قصيرة الأكمام ، ذي وقفة مرتبكة . كان الفتى الذي دافعا عنه في مكتب الشرطة ، العام الماضي .

قدّم سيّده بحقه دعوى سرقة ، لأنه ما استطاع أن يعيد إليه علبة الدانتيل التي ضاعت في الشغب . الآن هو موظف في محلّ نقال . كان هيسونيه التقاه ، صباحاً ، في زاوية من شارع ، وأتى به ، لأن ديسردييه ، كعرفان بالجميل ، أراد أن يرى الآخر .

وقدّم إلى فريدريك علبة السيجار التي لا تزال ملأى ، وهو احتفظ بها ، بكل تقوى ، على أمل أن يردها إليه . دعاه الشباب للعودة . لى .

كانوا كلّهم متعاطفين . كرههم للحكم كأنه شريعة في ما بينهم . وحده ، مارتينون ، اهتمّ بالدفاع عن لويس - فيليب . فيتهمونه في الأمكنة العامة وفي الصحف : سجن باريس ، قوانين

أيلول ، بريتشار ، لورد غيزو ، فيسكت مارتينون خوف إغضاب أحدهم . خلال سنوات سبع ، في المعهد ، ما نال عقاباً ، وفي مدرسة الحقوق كان يعرف كيف يرضي الأساتذة . عادة ، هو يرتدي سترة واسعة لونها مصطفي مع واقٍ للحذاء من مطاط ؛ ولكنه ، ذات مساء ، ظهر في زيّ عريس : سترة مخملية مع شال ، ربطة عنق بيضاء ، سلسلة ذهبية .

تضاعف العجب حين عرفوا أنه آتٍ من عند السيد دمبروز . في الواقع ، كان صاحب المصرف دمبروز قد اشترى من مارتينون الأب قسماً من غابة كبيرة . وإذ عرفه الرجل بابنه ، دعاها للعشاء عنده .

- هل كان هناك كثير من الفطور اللذيذ الطعم ؟ سأل ديلورييه . وهل اقتنصت زوجته ؟

حينها ، دار الحديث على النساء . بيلران ما كان يقبل بوجود نساء جيالات (يفضّل ، كان ، النمر) ؛ ويرى المرأة مخلوقة منحطة في السلم الجمالية .

- ما يغريك هو ، بخاصة ، ما يذلّها كفكرة ، أعني النهود ، الشعر ...

- مع ذلك ، اعترض فريدريك ، شعر طويل أسود ، وعينان كبيرتان سوداوان ...

- أوه ! عرفتھن ! هتف خيسّونيّه . كثيرات من الأندلسيات في المروج ! أشياء قديمة ؟ بلا مزاح ! عادة ماجنة تسلي أكثر من ربة جمال ! لنكن فرنسيين أصيلين ، ورعايا هذا العهد ان

استطعنا !
 « سيلي أيتها الخمورة الطيبة ؛ ويا أيتها النساء ، تكرمَن
 بانتسامه ! » .
 يجب الانتقال من السمراء إلى الشقراء ! - أهذا رأيك ،
 ديسردييه ؟
 لم يجب ديسردييه . دفعوه ، كلهم ، ليعرفوا ذوقه .
 - أفضل ، أنا ، قال محمراً ، أن أحبّ الواحدة ذاتها ،
 دوماً !

قال هذا بطريقة جعلتهم يصمتون لحظات ، بعضهم
 فوجيء بهذه البراءة ، الآخرون اكتشفوا ، ربما ، رغبة أنفسهم
 السرية .

وضع سينيكال كأس جعته على إطار النافذة ، وأعلن ،
 جازماً ، أن البغاء ظلم والزواج فجور ، فالأفضل الابتعاد عنهما .
 ديلوريه ، كان يعتبر النساء للمتعة وحسب . السيدة دوسيزي
 كن يحشاهن .

لأنه ربي تحت نظر جدة ثقيّة ، وجد رفيقة هؤلاء الشباب
 مثيرة كمكان مشبوه ، ومثقفة كسوربون . لم يعطوه دروساً ؛ وبدا
 مليئاً حيوية حتى أراد التدخين رغماً عن أمراض القلب التي تؤرقه
 كلّ مرة ، وبانتظام . كان فريدريك يعتني به . تعجبه ربطات
 عنقه الأنيقة ، فراء سترته وبخاصة حذاؤه الرقيق كالقفازات
 البادي كغاية في النظافة والرقّة ؛ سيّارته كانت تنتظره في الشارع .
 وذات مساء ، إذ خرج والثلج ينزل ، طفق سينيكال

يشتكي من حودثه . ثم ثار ضد ذوي القفازات الصفر ، ونادي الفروسيّة . يبدو عاملاً أكثر منه من هؤلاء الأسياد .

- أقله ، أنا أعمل ! فأنا فقير !

- هذا واضح ، قال فريدريك ، أخيراً ، فاقد الصبر

حقّد عليه معلّم الرياضيات ، بسبب هذه الكلمة .

ولكن ، إذ قال ريجمبار إنه يعرف سينيكال قليلاً ، أراد

فريدريك أن يرضي صديق أرنو ، طلب إليه حضور لقاءات

السبّ ، وبدا لقاء المواطنين لطيفاً

مع ذلك ، كانا مختلفين .

ما كان سينيكال ، المدوّر الرأس ، يحترم إلّا النظريات

ريجمبار ، على العكس ، ما كان يرى في الأمور إلّا الأمور نفسها .

ما كان يمزجه بالأكثر ، هو حدود الرين .

كان يدّعي أنه يعرف بالمدفعية ، ويرتدي لباساً يخطه له

خياط المدرسة البوليتكنيكية .

مذقّم له الكاتو ، في اليوم الأول ، رفع كتفيه بازدراء قائلاً

إن مثل هذه تلائم النساء . ولم يظهر ، في أي حال ، أكثر لطفاً في

المرات التالية . فور أن تبلغ الأفكار حداً معيناً ، يتمتم : « أوه !

بلا أوهام ، بلا أحلام ! » في ما يختصّ بالفنّ (بالرغم من تردّده

إلى المحترفات ، حيث يعطي ، أحياناً ، مسaire ، دروساً في

سيف المبارزة) ، ما كانت آراؤه أبداً ، فائقة الأهمية . كان يقارن

أسلوب السيّد ، ماراست بأسلوب فولتير ، والأنسة فاتناز بمدام

دوستايل ، بسبب أنشودة عن بولونيا فيها عاطفة . أخيراً ، كان

ريجمبار يرهق الجميع وبخاصة ديلورييه ، لكونه مقرباً من أرنو .

كاتب المحامي كان يطمح إلى التردّد على هذه العائلة علّه يرتبط بمعارف تعود عليه بالنفع . « متى ستقدّمني هناك ؟ » كان يقول . يحتاج ، الآخر ، يكون أرنو مأخوذاً بأعماله الكثيرة ، أو هو مسافر ؛ ثم ، ليس الأمر مهماً ، فحفلات العشاء شارفت على الانتهاء .

لو كان عليه المخاطرة بحياته لأجل صديقه ، لفعل فريدريك . إنّما ، لكونه يريد الظهور بأفضل ما يمكن ، كان يخشى ألاّ يعجب السيّد أرنو ، ممّا يسيء إلى وضعه ، هو ، تجاهها ، ويحطّه في عينيها ، بسبب لغته ، تصرفاته وثوبه ، التي راح يراقبها ليأخذها ، بعدها ، إلى مكتب « الفنّ الصناعي » حين يكون صار لا يذم سببها . كان ليقل بالآخرين ، أما هذا ، بالتحديد ، فهو يرعجه ألف مرة أكثر . انتبه كاتب المحامي إلى أنه لا يريد الوفاء بوعدده ، وبدا له صمت فريدريك شتائم مضاعفة .

كان يريد اصطحابه ، يراه تحقيقاً لأحلام فتوتها ، ويشيره كسله ، كرفض وكخيانة . كان فريدريك ، مليئاً من فكرة السيّد أرنو ، يتحدث ، أكثر الأحيان ، عن زوجها ؛ ويبدأ ديلورييه تكرار كلمات بشكل لا يطاق يردّد إسم أرنو مئة مرة في النهار ، في نهاية كل عبارة ، كما عادة معتوه مستهجنة . حين يطرقون بابه ، يجيب : « أدخل ، أرنو » في المطعم ، يطلب ، « على غرار أرنو » ، جبن بري . وفي الليل ، متظاهراً بكابوس ، يوقظ رفيقه وهو يزعم : « أرنو ! أرنو ! » وفي نهارٍ ما ، كان فريدريك

أرهق ، قال له بصوت شاك :
- دعني وشأني مع أرنو !
- أبداً ! أجب كاتب المحامي .
دائماً هو ! أينما كان ! إما مشتتة إما باردة .
صورة أرنو . . .
- إخرس ! صرخ فريدريك رافعاً قبضته .
بهذوء ، تابع :
- انه موضوع يشق عليّ ، تعرف هذا تماماً أنت .
- أوه ! معذرة أيها الرجل الطيّب ، أجب ديلوريه كثير
الأنحاء ، سنحترم ، منذ اللحظة ، أعصاب الأنسة ! معذرة ،
مرة بعد ! ألف عذر !
هكذا انتهت المداعبة .
إنما ، بعد أسابيع ثلاثة ، قال له ، ذات مساء :
- لقد رأيت ، منذ وقت قريب ، السيّد أرنو !
- أين ؟
- في القصر ، مع المحامي بالندار ؛ امرأة سمراء ، متوسطة
القامة ، أليس كذلك ؟
وافق فريدريك ، بحركة منه . انتظر أن يتحدث ديلوريه .
عند أول كلمة إعجاب ، كان سيروح له بشكل تفصيلي . كان مستعداً ،
تماماً ، لمصادقته . بقي الآخر صامتاً . ما استطاع ، فريدريك
الاحتمال ، فسأله ، بمظهر اللامبالي عن رأيه فيها .
وجدها ، ديلوريه ، « لا بأس بها ، إنما خصوصيات

تميّزها .

- آه ! تظن ؟ قال فريدريك .

حلّ أب ، فترة امتحانه الثاني . حسب الاعتقاد السائد ، خمسة عشر يوماً تكفي لتحضير المواد . ابتلع فريدريك ، الواثق من قواه ، ودفعة واحدة ، الكتب الأربعة الأولى لأصول المحاكمات ، الثلاثة الأولى لقانون الجزاء ، الكثير من المقاطع من أصول التحقيق الجنائي وقسماً من القانون المدني ، مع تعليقات السيد بونسليه . ليلة الامتحان ، جعله ديلورييه يراجع موادّه حتى الصباح ؛ وللاستفادة من الربع ساعة الأخير ، تابع أسئلته له على الرصيف ، وهما سائران . كان في الساحة كثير من الناس لأن اختبارات عدة تجري في وقت واحد . وكان بين الحاضرين هيسّويه وسيزي ، ما كانا يتغيبان عن هذه الاختبارات ، حين يتعلّق الأمر بالرفاق . ارتدى فريدريك الثوب التقليدي الأسود ؛ ثم دخل ، يتبعه حشد ، مع طلاب ثلاثة آخرين ، غرفة كبيرة تضيئها نوافذ لا ستائر لها ومجهزة بمقاعد منجّدة ، على امتداد الجدران . في الوسط ، كراسٍ جلديّة تحيط بطاولة عليها غطاء أخضر . هي تفصل المرشحين عن السادة الممتحنين وهم بثوب أحمر ، يتشحون ، جميعاً ، أوشحة جامعية من فرو القاقم على الكتف (١) ، مع قبعة بشرائط ذهبية على رأس الرئيس . وجد فريدريك نفسه ما قبل الأخير في صفّه . انها وضعية سيئة . مع أوّل سؤال عن الفرق بين الاتفاق والعقد ، حدّد الواحد بالآخر ؛

(١) حيران من الفصيلة السّورية .

وإذ كان الأستاذ رجلاً طيباً ، قال له : - « لا تضطرب ، يا سيدي ،
عد إلى روعك ! » ثم ، بعدما سأله سؤالين سهلين ، أعقبهما جوابان
غامضان ، انتقل إلى السؤال الرابع . فريدريك كان صارثابط الهمة ،
لهذه البداية التافهة . ديبلورييه ، بمواجهته بين الجمهور ، يومئ إليه أن
لم يضع ، بعد ، كل شيء . وفي الاختبار الثاني عن القانون الجنائي ،
نجح بشكل مقبول . إنما ، بعد الثالث ، المتعلق بالوصية السرية ،
وكان بقي الفاحص هادئ الأعصاب طوال الوقت ، قلقه ازداد ؛ لأنَّ
هيسوييه كان يضم يديه كما ليصفق ، بينما ديبلورييه راح يهز كتفيه . وفي
النهاية ، ما الوقت الذي فيه يجب أن يجيب عن طريقة المحاكمات ! كان
الأمري دور على المعارضة الثالثة . وإذ صُدم الفاحص لسماعه نظريات
مناقضة لنظرياته ، سأله بلهجة عنيفة :

- وأنت ، يا سيّد ، أهذا رأيك ؟ كيف توفّق بين مبدأ المادة
١٣٥١ من القانون المدنيّ وهذه الطريق الهجومية الغريبة ؟
شعر فريدريك بألم كبير في رأسه ، لأنه أمضى الليل كله ولم ينم .
ووقع عليه شعاع شمس داخل من فرجة حصيرة النافذة ، راح واقفاً
وراء الكرسي ، يتمايل ويمس شاربه .
- مازلت انتظر إجابتك ! تابع رجل القبعة ذات الشرائط
الذهبيّة .

وبما أن حركة فريدريك ، ولا شك ، أغاظته :
- لن تجدها في لحيتك !
هذا التهكم أحدث ضحكاً في الحضور . وإذ أحس نفسه

ممدوحاً ، رضي الأستاذ . سأله سؤالين بعد عن التأجيل والقضية
المجملية . ثم أحنى رأسه علامة الرضا . انتهى الامتحان وعاد فريدريك
إلى الرواق .

في حين راح الحاجب يخلع عنه الثوب ليعطيه ، مباشرة ،
لآخر ، أحاط به أصدقاؤه مكملين ادعائهم المتناقضة حول
نتيجة الامتحان . سريعاً ما أعلنوها بصوت جهوري ، في مدخل
القاعة : المرشح الثالث ... أرجىء ! .

- هيا بنا ! قال هيسونيه ، فلنذهب من هنا !
أمام مقر الحاجب ، التقوا بمارتينون ، أحمر ، معجباً ، مع بسمه
في العينين وهالة المجد على جبينه . كان نجح ، بدون صعاب ، في
امتحانه الأخير . تبقى ، فقط ، الأطروحة . لا تمر أيام خمسة عشر ،
إلا يصبح مجازاً . عائلته تعرف وزيراً ، فلا بد من مجال حسن يُفتح
أمامه .

- انه يورطك مع ذلك ، قال ديلورييه .
لا شيء مذل كما رؤية الحمقى ينجحون في مشاريع نفشل نحن
فيها . أجب فريدريك بغيظ ، إنه يسخر من كل أمر . طموحاته كانت
أسمى ؛ وإذا بدا هيسونيه كأنه يريد الذهاب ، انتحى به فريدريك
جانباً ليقول له :

- ولا كلمة عن كل هذا ، عندهم ، أبداً !
كان حفظ السرسهلاً ، إذ إن أرنو ، في الغد ، يذهب برحلة إلى
المانيا .

في المساء ، حين عاد كاتب المحامي ، وجد صديقه متبدلاً : كان

يردّد الأشياء ذاتها ، يصفر ؛ وإذ دُهِش لهذا المظهر ، أعلن فريدريك أنه لن يذهب إلى أمّه ؛ سيقضي عطلته بالعمل .

غمرة فرح ، إذ عرف بسفر أرنو . صار في وسعه الحضور هناك براحة ، من دون خشية مقاطعته في زيارته . اليقين بالطمأنينة التامة جعله شجاعاً . وأخيراً ، هولن يكون بعيداً ، لن يكون منفصلاً عنها ! شيء ما ، أقوى من سلسلة حديدية تربطه بباريس ، صوت باطني يهتف له بالبقاء .

اعترضته صعوبات . تخطّأها بالكتابة إلى أمّه ، اعترف لها برسوبه ، سبّبه تغييرات طارئة في المنهاج ، - صدفة ، ظلم ؛ - على كل حال ، كل المحامين الكبار (ذكرهم بأسمائهم) ، كانوا رسبوا في امتحاناتهم . لكنه سيقدّم من جديد في تشرين الثاني . وبما أنّ لا وقت لديه للإضاعة ، فلن يذهب إلى البيت هذه السنة ؛ وطلب ، عدا قسط فصل ، مئتين وخمسين فرنكاً لإعادات الحقوق ، وهي ضرورية جداً . كل هذا مغلفاً بالندم والتعزيات والمداهنات وتوكيد الحب البنوي . السيّد مورو ، التي كانت تنتظره في الغد ، تضاعف حزنها . أخفت مغامرة ابنها ، وأجابته بضرورة العودة ، مهما حصل . لم يوافق فريدريك وقع خصام . مع ذلك ، حصل ، في نهاية الأسبوع ، على قسط الفصل مع المبلغ المطلوب للإعادة ، ودفعه ثمن بنطلون رمادي لؤلؤي ، وقبّعة من لبد بيضاء وخيزرانة مذهّبة الرأس .

حين حصل على كل هذه :

« لربما هي فكرة مزين راودتني » ففكر .

واستحوذ عليه تردّد كبير .

رمى في الفضاء ثلاث مرات قطعاً نقدية ليقرّر هل يذهب عند
السيدة أرنو . كل مرة كان الفأل سعيداً . إذن القدر يأمره . وانطلق
بعربة فيكر إلى شارع شوازيل .
صعد الدرج بحيوية ، وشد حبله الجرس ما قرع أحس أنه
سينهار .

ثم رجّ ، ببخطة قوية ، الشراية الحريية الحمراء الثقيلة .
مجموعة أجراس متناغمة الدقات دقت ، وهذات تدريجياً ، ثم لم يسمع
شيئاً . خاف فريدريك .

الصق أذنه بالباب ؛ ولا نفّس ! وضع عينه في ثقب القفل ، ولم
يلاحظ في المدخل ، سوى رأسي قصبة على الحائط ، بين زهور
الورق . وإذا استدار ليعود ، غير رأيه . ودقّ ، هذه المرة ، دقة
خفيفة . فُتح الباب ، وعلى العتبة ، بدا أرنون نفسه ، مشعث الشعر ،
وجهه محمّر ، ومظهره مقطب .

- عجباً ! أيّ شيطان أتى بك ؟ أدخل !

أدخله ، لا إلى الصالون الصغير ، ولا إلى غرفته، بل إلى غرفة
الطعام حيث يرى ، على الطاولة ، قنينة شمبانيا وكأسين ؛ وبنبرة
مفاجئة :

- هل لك ما تطلبه مني ، يا صديقي العزيز ؟

- لا ! أبداً ! أبداً ! تلثم الشاب مفتشاً عن ذريعة لزيارته .

قال ، أخيراً ، انه أتى ليعرف أخباره ، لأنه ظنّه في ألمانيا حسب

هيسونيه .

- إطلاقاً ! أجب أرنو . يا للولد الطائش يسمع كل شيء
بلا تميز !

وليخفي اضطرابه ، راح فريدريك يمشي يميناً وشمالاً ، في
الغرفة . أوقع ، إذ تعثرت قدمه بكرسي ، مظلة موضوعة فوقها ؛
كسرت قبضتها العاجية .

- يا إلهي ! صرح ، كم أنا حزين لتحطيمي مظلة السيدة أرنو !
عند هذه الكلمة ، رفع التاجر رأسه ، وابتسم ابتسامة خاصة .
وانتهز فريدريك المناسبة المتاحة للحديث عنها ، فأضاف بحزن :
- ألا يمكنني أن أراها !

هي في بلدتها ، بجانب أمها المريضة .
ماجرؤ على أن يسأل عن مدة هذا الغياب . فقط ، سأل عن بلدة
السيدة أرنو .

- شارتر ! أيدهشك هذا ؟

- أنا ؟ لا ! لماذا ؟ إطلاقاً !

ما وجدنا ، بعد ذلك ، شيئاً يقولانه . أشعل أرنو سيجارة ،
استدار حول الطاولة ، نافخاً . وقف فريدريك أمام الموقد يتأمل
الجدران ، الرفوف ، الأرض . وغامت ، في باله ، صور عذبة ،
وأمام عينيه . وأخيراً انسحب .

جزء من جريدة كان مرمياً في أرض المدخل ؛ لهما أرنو ، ووقف
على أصابع قدميه ، وأنفذه في الجرس ، ليكمل ، كما قال ، قيلولته
التي انقطعت . وإذ ودّعه بالمصافحة :

- أخطر الحاجب ، من فضلك ، أني لست هنا !
وأغلق الباب وراءه بعنف .

نزل فريديك الدرج درجة درجة . فشله في هذه المحاولة الأولى
لم يشجعه على محاولات أخرى . وابتدأت ثلاثة أشهر ضجر . وبما أن
لا عمل لديه ، فقد ضاعفت بطلته حزنه .

كان يمضي ساعات من على شرفته ينظر إلى الجدول الذي يسيل
بين الأرصفة البنية ، المسودة ، من مكان إلى آخر ، خلال انطماسة
الزرائب مع طوف ، من عند الكواءات ، راس عند الحدود ، حيث
صبيان يتسلون مرات ، ويغسلون كلباً مجمد الوبر ، طويله . عيناه ،
إذ تركان إلى الشمال جسر نوتر - دام الحجري وثلاثة جسور معلقة ،
تتجهان دائماً ، صوب رصيف الدردار ، تحلقان فوق أجمة من أشجار
عتيقة شبيهة بزيزفون جسر مونتيرو . برج سان - جاك ، القصر
البلدي ، سان جرفي ، سان لويس ، سان بول ، كلها تنهض في
وجهه ، عبر السقوف المتشابهة ، - وهندسة بناء تموز التذكاري ،
تترأى ، إلى الشرق ، كنجمة ذهبية طويلة ، بينها ، في الطرف
الأخر ، قبة التويلري ، تكوّر ، على السناء ، صولجانها الأزرق
الضخم . وراء هذه الجهة ينبغي أن يقوم بيت السيدة أرنو .

يدخل غرفته ، وإذ ينام على أريكته يستسلم إلى التأمل
الفوضوي : تصاميم مؤلفات ، مشاريع عمل ، انطلاقات صوب
المستقبل . وأخيراً ، لينجو من نفسه ، يخرج .

يصعد ، كما صدقة ، إلى الحي اللاتيني ، الضاحج ، عادة ، إنما
المقفر في هذه الفترة ، لأن الطلاب كانوا عادوا إلى عائلاتهم . جدران

المعاهد الكبيرة ، كما ممتدة بالصمت ، كانت ذات مظهر أكثر كآبة ؛ كنت تسمع كل أنواع الضجيج الهادئ ، خبط أجنحة في الأفقاص ، غطيط مخرطة ، مطرقة إسكافي ؛ وتجار الألبسة ، وسط الشوارع ، يسألون النوافذ ، بعيونهم ، بلا فائدة . في عمق المقاهي المستوحدة تشاءب المحاسبة بين قنائها الملائى ؛ والجرائد ، على طاولات غرف المطالعة ، تبقى مرتبة . في مشغل الكواءات ثياب ترتعش بتأثير نفثات الهواء الفاتر . يتوقف ، كان ، بين لحظة وأخرى ، أمام رفوف مكتبة ، يستدير حين سماعه صوت سيارة النقل العام ؛ وإذ ينتبه لكونه أمام اللوكسمبور ، لا يعود يذهب أكثر .

يجتذبه ، أحياناً ، صوب الشوارع الواسعة ، أمل بالتسلية . بعد أزقة مظلمة تضوع منها نداوات رطبة ، كان يصل إلى ساحات كبيرة مقفرة ، مشعة نوراً ، وحيث الأبنية الضخمة ترسم على حدود الأرض تخريجات ظل أسود . لكن العربات والمحلات تعود تبدأ ، والجماعات تصممه ، وبخاصة الأحد - حين تتماوج موجة كبيرة على الطريق ، وسط الغبار في حركة دائمة ، من الباستيل حتى العذراء . يحس نفسه مقززاً لوضاعة الوجوه ، وتفاهة الأحاديث ، والسرور الغيبي ، التي تنز كلها عرقاً على الجباه ! على كل حال ، لم يكن لديه ما هو أفضل من النظر إلى هؤلاء الناس .

وكل يوم يذهب إلى « الفن الصناعي » ؛ - وقصد أن يعرف متى تعود السيدة أرنو ، يروح يستعلم ، طويلاً ، عن أمها . جواب أرنولم يكن يتغير ؛ « تتقدم باستمرار » أمراته وصغيرته ، تعودان الأسبوع المقبل . بمقدار ما تتأخر في العودة ، يكتب فريدريك ، - إلى حدّ رق

أرنبو لهذه العاطفة ، فصار يصطحبه خمس أو ست مرّات للعشاء في المطعم .

عرف فريدريك من خلال هذه المواجهات المباشرة أن تاجر الرسم ، كان كثير الروحانيّة . كان يستطيع أرنبو ملاحظة هذا البرود . ثم كانت مناسبة يردّ له ، نوعاً ، بعض فضله . ولأنه أراد أن يقوم بواجبه ، على وجه كامل ، باع كل ثيابه الجديدة من تاجر سقط ، بما يعادل الثمانين من الفرنكات ؛ وإذ أضاف فوقها مئة أخرى باقية لديه ، جاء إلى أرنبو يأخذه إلى العشاء . كان عنده ريجمبار . وذهبوا إلى « تروا - فرير - بروفنسو » .

بدأ المواطن بخلع سترته الطويلة ، وإذ كان واثقاً من مراعاة الآخرين له ، كتب اللائحة . لكنه انتقل إلى المطبخ ليتحدّث بنفسه إلى الرئيس ، ونزل إلى القبو ، وكان يعرف كل زواياه ، وأصعد المسؤول عن المؤسّسة وبيّحه ما كان مسروراً من الأطعمة ، ولا من الخمر ، ولا من الخدمة ! مع كل طبق جديد ، مع كل قنيينة مختلفة ، منذ اللقمة الأولى والجرعة الأولى ، يترك شوكتة تقع ، أو يدفع كأسه بعيداً ؛ ثم يصرخ ، مستنداً بكوعيه إلى الشرشف بكل طول ذراعيه ، انه ليس بالإمكان ، بعد ، العشاء في باريس ! أخيراً ، ريجمبار ، الذي لا يعرف أن يحلم إلا لقمة ، طلب لوبياء بزيت ، هكذا ببساطة ، رآها نصف ناجحة ، لكنها أرضته نوعاً . ثم تحدّث إلى الصبي عن صبيان المطعم القدامى : « ماذا حل بأنطون ؟ والمدعو أوجين ؟ وتيودور الصغير ، الذي كان دائماً يخدم في الأسفل ؟ في ذلك الوقت كان الطعام أفضل ، كما لن يحصل في ما بعد ! » .

ثم دار حديث عن ثمن الأراضي في الضاحية ، مضاربة لأرنو ، أكيدة . في الانتظار ، يحسر فوائده لأنه لا يريد البيع بأي ثمن . كشف له ريجيمبار أحداً ما ، وراحا يحسبان ، بالقلم ، حسابات حتى نهاية التحلية .

انتقلوا لشرب القهوة ، مفترق سومون ، في حانة من دور منخفض . راح فريدريك ، واقفاً ، يتفرّج إلى ألعاب لا تنتهي بالبلليار ، شارباً كؤوساً كثيرة ؛ - وبقي ، هنا ، إلى منتصف الليل ، دون أن يعرف لماذا ، ضعفاً ، حماقة ، على أمل غامض بأن يحدث أمر ما لصالح حبه .

متى سيراه مجدداً ؟ كان يتشائم . إنما في إحدى أواخر أمسيات تشرين الثاني ، قال له أرنو :

- تعرف ؟ أمس عادت امرأتي .

في الخامسة من الغد ، كان يدخل إليها .

بدأ بتهانيء بخصوص أمها التي كان مرضها خطراً .

- لا ! من قال لك هذا ؟

- أرنو !

صعدت آها خفيفة ، ثم أضافت أنها ، أول الأمر ، خشيت حقاً ، لكنها ، الآن ، زالت مخاوفها .

كانت جالسة قرب النار ، في المثنواة المطرزة . هو ، إلى الكنبه ، قبعته بين ركبتيه ؛ كان الحديث صعباً تركه كل هنيهة ، لم يجد مناسبة ليبيح بعواطفه . وإذ راح يشتكي من دراسته المماحكة ، قالت : - « نعم ... ، أدرك ... ، المشاغل ... ، خافضة رأسها ،

مأخوذة ، فجأة ، بأفكار شتى .
 كان مهتماً لأن يعرف هذه الأفكار حتى أنه لا يفكر في سواها . بدأ
 العروب يلقي الظل حولها .
 نهضت ، إذ عليها الخروج ، ثم ظهرت بقبعة مخملية وعباءة
 سوداء موشاة بفرو السنجاب . جرّو في أن عرض عليها مرافقتها .
 ما كنت ترى ؛ كان برد وضباب كثيف يحجب واجهات المنازل
 ويتعفن في الفضاء . راح فريدريك يتنشق بلذّة ، لأنه كان يشعر عبر
 قضب الثوب ، شكل ذراعها ، ويدها التي فيها قفاز من شاموا ،
 بررين ، يدها الصغيرة التي أراد أن يلبسها جسداً من القبل ، تستند إلى
 ذراعه . كانا يترجّحان في مسيرهما ، بسبب الأرض التي تعرّضهما
 للانزلاق . بدا له كأنهما متمرّجان بالهواء في قلب غيمة .
 أعاده بريق الأنوار ، على البولفار ، إلى الواقع . المناسبة ملائمة
 والوقت يمثّ . أمهل نفسه حتى شارع ريشليويو بحبّه . لكنها ،
 فحاة ، توقّفت أمام محلّ بورسلان قائلة له :
 - ها قد وصلنا ، شكراً لك ! إلى الخميس ، كالعادة ، أليس
 كذلك ؟

عادت حفلات العشاء ، يزداد دنفه بمقدار ما تزداد مخالطته
 للسيدة أرنو .
 يشير تأمل هذه المرأة ، كما استعمال عطر قويّ جداً . نزل هذا
 حتى أعماق طبعه ، وصار ، تقريباً ، غطاءً عاماً للشم ، طريقة جديدة
 للعيش .

البغايا اللواتي كان يلتقيهن على ضوء الغاز ، المغنيات المحترفات

اللواتي يطلن تعاقب النجمات السريعة ، الفارسات على أحصتهن الخاتبة ، البورجوازيات السائرات ، الشابات المرحات في نوافذهن ، كل النساء كنّ يذكرنه إياها ، بمشابهة أو بمفارقة بعيدة . راح ينظر ، عبر زجاج المحلات ، الكشمير ، الدانتيل والنوط المن الأحجار الكريمة ، ويتخيلها مزينة حول نهديها ، مدروزة في صدرها ، لامعة في شعرها الأسود . في معرض البائعات ، تنهالك الأزهار لتنتقيها وهي تمرّ ؛ في واجهة الإسكافيين تبدو الأخفاف النحيفة التي من ساتان معرّق ، منتظرة قدمها ، كل الشوارع تؤدّي إلى بيتها : العربات لا تتوقف في الساحات إلّا لتوصل إليها بسرعة أقصى ؛ باريس ، كلّها ، تتعلّق بشخصها ، والمدينة الكبرى بكل أصواتها ، تتمم ، كما أوركسترا عظيمة ، حوالها .

حين يذهب إلى حديقة النباتات ، فإن مرأى نخلة يطوّف به إلى بلاد بعيدة . معاً يسافران ، على ظهر جمال ، في غرفة يخبّئ بين جزر زرقاء ، أو جنباً إلى جنب على بغلين بأجراس صغيرة ، تصطدم بالأعشاب الخضراء الطويلة ، حيث أعمدة مكسورة . يتوقف ، أحياناً ، في اللوفر أمام لوحات قديمة ، فيتصورها في شخصيات تلك الرسوم ؛ معتمرة طنطوراً ، تصلي راکعة وراء حاجز سميک ؛ سيّدة الكاستيل أو الفلاندر ، جالسة بسحنة جامدة وحس صوت يتدفّق ماء . ثم تنزل درجاً ما كبيراً من برفير وسط مساع ، تحت قبة من ريش النعام ، بثوب من الديباج . وأحياناً أخرى ، يحلم بها في بنطلون من حرير أصفر على وسائل حريم - وكل جميل ، مثل تلالو النجوم ، وبعض الألحان ، وطريقة عبارة أو محيط ، يذكره بها بطريقة مفاجئة

ولا شعورية .

وبخصوص أن يجعل منها عشيقته ، كان واثقاً من أن كل محاولة ستبوء بالفشل .

ذات مساء ، وصل ديتمر وقبلها في جبينها ؛ لوفارياس أيضاً ، قائلاً :

- تسمعين ، أليس كذلك ، بحسب امتياز الأصدقاء ؟
تتم فريدريك :

- يبدو لي أننا ، جميعاً ، أصدقاء .

- ليس الجميع أعزاء ، أجابت .

هذا لتجبه ، مسبقاً ، بطريقة غير مباشرة .

ما العمل ، إذن ؟ البوح لها بحبه ؟ سوف ترفض استقباله ولا شك ، أو هي تطرده من بيتها ساخطة . على أنه يفضل كل أنواع الآلام على أن لا يراها .

جسد موهبة عازفي البيانو ، جراح الجنود . عني مرضاً خطيراً علّه ، هكذا ، «يثير اهتمامها» .

أمراً أدهشه ، إنه لم يكن يحسد أرنو ، وما كان يستطيع تصورها سوى مرتدية ثيابها ، تبدو براءتها طبيعية ، ويخفي جنسها في ظلال خفية .

مع ذلك ، يحلم ، كان ، في سعادة أن يحيا معها ، يخاطبها بدالة ، يمرر يده على عصابات رأسها ، طويلاً ، أو أن يركع على الأرض ، ذراعاه حول خصرها ، يتملى من روحها في عينيه !
يجب لذلك قلب نظام القدر ، وهو غير قادر على مثل هذا ،

ويروح يلعن الله مشتكياً من جنبه ، ويتلو في رغبته كسجين في
زنايته . يخنقه قلق مسيطر . يبقى جامداً لساعات ، أو ينفجر باكياً .
ويوماً ، إذ لم يتمالك نفسه ، قال له ديلوريه :
- تباً لك ! ماذا دهاك ؟

كان فريديريك يشكو من أعصابه . لكن ديلوريه ما صدق
شيئاً . وأمام ألم كهذا ، استفاقت عاطفته وراح يشدد عزمه . رجل مثله
يترك نفسه يتلاشى ، يا للحماسة أمر مسموح في المراهقة ، إنما ، في ما
بعد ، هو مضبغة . للوقت

- أنت تضيعني يا فريديريك ! أود أن استعيد ، فيك ، القديم .
شاب هو نفسه دائماً ! كان يعجبي ! هيا ، دخن غليوناً ! هز نفسك
قليلاً ، تحزنني !

- هذا صحيح ، قال فريديريك ، أنا مجنون !
أجاب كاتب المحامي :

- آه ! أيها الشاعر الجوال القديم ، أعرف ، أنا ، ما يثقل
عليك ! قلبك ؟ أصدقني ! عجباً ! تفقد واحدة ، تحظى بأربع !
نتعزى عن النساء الورعات بالأخريات أتريد أن أعرفك على نساء ؟
ليس عليك إلا أن تأتي إلى « الألهامبرا » .

كان مرقصاً شعبياً حديث العهد في أعلى الشان - إليزيه ، انهار منذ
الفصل الثاني بموت عجيب تعرفه مثل هذه المؤسسات . نلهو ، هناك ،
قدر ما نشاء . هيا بنا ! تأخذ أصدقاءك ، إذا شئت . أرسل إليك
حتى ريجمبار !

سردابان من الطراز العربي المغربي يمتدان متوازيين إلى اليمين وإلى الشمال . في المقابل ، جدار منزل يشغل كل العمق ، والجهة الرابعة (التي للمطعم) ، تشكّل رواق دير غوطي ، زجاجة ملوّنة . يحمي المنبر ، حيث يعزف الموسيقيّون ، نوع من الغناء الصيبيّ . الأرض المحيطة كانت من أسفلت ، وفوانيس بندقية معلقة في أعمدة تؤلّف ، من بعيد ، على الرباعيّات الراقصة ، تاجاً من أضواء متعدّدة الألوان . هنا وهناك ، قاعدة تمثال تحمل حوض حصي فيه ترتفع نافورة ماء . بين الأغصان المقطوعة كنت تلمح تماثيل جصّ . « هيبه » أو « كوييدون » لزجان من ألوان زيتيّة ؛ والممرات الكثيرة المزينة برمل أصفر بعناية مفلوش ، يجعل الحديقة أوسع ، بكثير ، مما هي . هناك طلاب ينزّهون عشيقاتهم ؛ موظفون يتخفّرون بشياهم الجديدة ، وعصا بين أصابعهم ؛ تلاميذ ثانويون يدخنون . عازبون عتاق يدغدغون لحيتهم المصبوغة بمشط ؛ وهناك إنكليز ، وروس ، وأناس من أميركا الجنوبيّة ، وثلاثة مشاركة بالطربوش . وكذلك ، غادات ماجنات ، وشابات مرحات ، وفتيات ، جئن إلى هنا أملاً بوجود عشيق ومعليل ، أو حبيب ، أو قطعة ذهب ، أو فقط ، حبّاً بالرقص . وفساتينهن ذوات القمصان الخضراء ، الزرقاء ، الكرزية أو البنفسجيّة ، تمر ، تحفّق بين الأبنوس والليلك . يكاد جميع الرجال يكونون بالثياب ذوات المربعات ، بعضهم في البنطلون الأبيض . برغم برود المساء . والإضاءة لقناديل الغاز . هيسويّه ، لعلاقاته مع جرائد الأزياء والمسارح الصغيرة ، كان يعرف الكثير من النساء . يرسل إليهن قبلات على طرف الأصابع .

وبين الوقت والآخر ، يفارق أصدقاءه ، ليتحدث إليهن .
كان ديلورييه حسوداً لهذه المظاهر . اعترض ، بوقاحة ، شقراء
كبيرة ترتدي النانكين . بعد أن تأملته بمظهر عبوس ، قالت له : -
« كلا : لا ارتاح إليك ، سيدي ! » واستدارت على عقبها .
أعاد الكرة مع سمراء ضخمة ، مجنونة ولا شك ، غضبت منذ
الكلمة الأولى ، وتهددته ، إذا هو أكمل ، بمناداة رجال الشرطة .
اجتهد ديلورييه في الضحك . وإذا لاحظ امرأة صغيرة متنحية جالسة
تحت فانوس ، عرض عليها رقصة الكدريل .
الموسيقيّون جاثمون على المنبر في وضعية القرد ، يسيثون
العزف ، ويصفرون بعنف . رئيس الفرقة ، واقفاً ، يعين النغم
بطريقة آليّة . كانوا متجمهرين يمرحون ؛ شريط القبعات مفكوك
يلامس ربطات العنق ، الأحذية تغوص تحت التنانير الداخلية ؛ كلهم
يقفزون بإيقاع ؛ ديلورييه يشدّ إليه المرأة الصغيرة ، ومأخوذاً بجنون
الكانكان ، راح يتعثّر وسط مربعات الرقص كدمية في مسرح العرائس
سيزي وديسرديه يكملان نزهتهما ؛ والأرستقراطي الشاب طامع
بالفتيات ، لكنه ، بالرغم من حرص الموظف له ، ما كان يجرؤ على
التحدث إليهن ، متصوّراً أنّ لدى هؤلاء النساء ، دوماً ، « رجلاً مختبئاً
في الدرج مع مسدس ، ومنه يخرج لجعلك توقّع كميالة » .
عادا قرب فريدريك . توقّف ديلورييه عن الرقص ؛ وكلهم
كانوا يتساءلون كيف إنهاء السهرة ، حين هتف هيسوئييه :
- عجباً ! مركيزة أماغي !
كانت امرأة شاحبة ، خائسة الأنف ، بقفازات من دون أصابع

حتى الكوعين ، وأقراط سوداء كبيرة تنزل على طول الخدين ، كما أذني كلب . قال لها هيسّونيّه :

- يجب إقامة عيد صغير عندك ، حفلة استقبال شرقية ؟ اهتمي بأن تجمعني بعضاً من صديقاتك هؤلاء الفرسان الفرنسيين . وبعد ، ما يزعجك ؟ أنتظرين نبيلاً إسبانياً !

خفضت الأندلسية رأسها . كانت تخشى ألا تكون الحفلة إلا لترطيب . أجوائه ، تعرف ، هي ، عادات صديقها القليلة البذخ . في الأخير ، حين لفظت كلمة : مال ، عرض سيزي خمس نابوليونيات هي كل ما يملك . تقرّر الأمر . لكنّ فريدريك ما كان ، بعد ، هناك .

ظنّ نفسه عرف صوت أرنو ، لمح قبعة امرأة ، فاختفى ، بسرعة ، في الغيضة المجاورة . كانت الأنسة فانتاز وحيدة مع أرنو .
- أعذرني ! هل أزعجك ؟
- اطلاقاً ! أجاب التاجر .

فهم فريدريك ، في آخر الحديث ، أنه أتى « الألهامبرا » ليرعى للأنسة فانتاز عملاً عاجلاً ، ويبدو أن أرنو لم يكن بعد واثقاً تماماً ، لأنه قال لها بصوت كثيب :

- أواثقة ، أنت ، تماماً ؟

- تمام الثقة ! آه ! يا لك من رجل !

ومطّت شفيتها مقدّمة اياها مكتنزتين - مدمّتين تقريباً لفرط احمرارهما . إنها ذات عينين رائعتين وحشيتين مع نقاط ذهبية في البؤبؤين ، مليثتين حياة ، حُباً وشهوة . تضيئان كما قنديلين ، وجهها

الضعيف يكاد يكون أصفر . بدا أرنو مسروراً بصدودها . انحنى صوبها قائلاً :

- لطيفة أنتِ ، قبليني !

من أذنيه أخذته ، وقبّلت جبينه .

في هذه اللحظة ، توقّف الرقص ؛ وظهر في مكان رئيس الفرقة شاب جميل ، سمين جداً ، بياضه يشبه بياض الشمع . شعره أسود طويل منسدل على طريقة شعر المسيح ، يرتدي سترة مخمل أزرق سماوي ذات سعف مذهبة ، متكبر المظهر كطاووس ، أبله كمغرور ، وبعدما حيا الجمهور ، شرع في أغنية . إنه قروي يروي رحلته إلى العاصمة ، ولكنه نورماندية سافلة ، كأنه رجل سكران .

وكانت أغنيته تثير الحماسة . إن دلماس « مغنٌ معبرٌ » يعرف كيف لا يترك الجمهور يفتّر . أعطوه بحيوية ، غيتاراً ، وراح ينتحب بأغنية عنوانها « شقيق الألبانية » .

ذُكرت الكلمات فريدريك بالكلمات التي كان غناها الرجل ذو الملابس الرثة في السفينة . عيناه تعلّقتا ، لا إرادياً ، بأسفل الثوب الذي أمامه . بعد كل مقطع ، استراحة طويلة ، - وهبوب الهواء في الأشجار ، يشبه ضجة الأمواج .

كانت الأنسة فاتناز ، وهي تكشف بيدها أغصان شجرة الزينة ، التي كانت تحجب نظرها عن المنبر ، تتأمل المغني ، بتركيز ، منخاراها مفتوحان ، حاجباها متقاربان ، كأنها مأخوذة في فرح حقيقي . - حسناً ! قال أرنو . أفهم لماذا أنت ، هذا المساء ، في

« الألهامبرا ! يعجبك دلماس يا عزيزتي !

ما أرادت تبوح بشيء .
 - آه ! يا للحشمة !
 ومشيراً إلى فريدرىك :
 - هل بسببه ؟ أنتِ على خطأ . ليس أكنتم منه !
 الآخرون الذين كانوا يبحثون عن أصدقائهم ، دخلوا القاعة
 ذات الاخضرار . قدمهم هيسونيه . قدم أرنو ، إلى كل واحد سيجاراً
 وشراباً .
 احمرت الأنسة فانتاز إذ رأت ديسردييه .
 سريعاً ما قامت ، وإذ مدت إليه يدها مصافحة :
 - ألا تذكرني ، سيد أوغيست ؟
 - كيف تعرفها ؟ سأله فريدرىك .
 - كنا في المحل نفسه ! أجاب .
 جذبه سيزي من قميصه وخرج فور اختفائه ، راحت الأنسة
 فانتاز تمتدحه . وأضافت أنه يمتاز بموهبة الحب .
 ثم دار الحديث عن دلماس ، الذي يمكنه ، كإيجائي ، أن يبرع في
 المسرح . وتبع هذا مناقشة اختلط فيها شكسبير ، بالرقابة بالابداع ،
 بالشعب ، برع بوابة - سان - مارتان ، بالكسندر ديم ، بفيكتور هيغو
 وديمارسان . وابتدأ أرنو بمواضيع مهمة فمال الشباب يستمعون إليه .
 لكن كلماته لم تكن واضحة لصخب الموسيقى ، وإذ انتهى الرقص
 المربع أو البولكا ، أرتموا كلهم على الطولات ، ينادون الصبي
 ويضحكون . وبين الأوراق كانت تشرقناي البيرة وشراب الليمون
 الغازي ، ونساء تصرخن كاللدجاج . وكنت ترى ، أحياناً ، رجلين

يريدان المصارعة . وجرى توقيف لص .
بعجلة غزا الراقصون الممرات . يتقاطرون لاهئين ،
مبتسمين ، بوجوه حمراء ، في زوينة ترفع الأثواب وأذيالها . تزار
الأبواق أقوى ، يتسارع اللحن . ووراء الرواق الذي من القرون
الوسطى ، تُسمع خشخشة ومفرقات ؛ فطفقت تدور شמוש ،
وللحظة ، أضاءت ناربنغاليّة ، زمرديّة اللون ، الحديقة كلّها ؛ ومع
آخر صاروخ ، زفر الجميع نهدة كبيرة .

وببطء ، بدأوا ينسحبون . سحابة من بارود المدفع تطفو في
الهواء . كان فريدريك وديلوريه يسيران خطوة خطوة ، وسط
الجماعة ، حين استوقفهما مشهد : مارتينون يصرف نقوداً في مستودع
المظلات ، وهو يرافق امرأة خمسينيّة ، بشعة ، أنيقة اللباس ، ومن
طبقة اجتماعيّة مشكوك فيها .

- هذا الشجاع ، قال ديلوريه ، هو أقلّ بساطة مما نظنّ .
ولكن أين سيزي ؟

أشار ديسردييه إلى الحانة ، حيث رأوا ابن الشّهاء ، أمام كوب
من « البنش » برفقة قبعة وردية .

عاد هيسّوتيه ، وكان غاب لخمس دقائق ، للظهور في اللحظة
ذاتها .

تستند صبيّة إلى ذراعه ، وتناديه ، بصوت عالٍ ، « هرّي
الصغير » .

- لا ! قال لها . لا ! ليس أمام الجمهور ! بل ناديني فيكونت !
هذا يعطيك صفة فارسة من طراز لويس الثالث عشر وجزمة ليّنة ، وهذا

يعجبني ! نعم ، يا حسنائي ، فارسة قديمة ! أليست لطيفة ! - أمسك
ذقنها . - حَيَّ هؤلاء السادة ! كلهم أبناء عظام فرنسا ! أخالطهم
ليجعلوني سفيراً !

- كم أنت مجنون ! قالت الأنسة فانتاز .

طلبت إلى ديسرديه أن يوصلها إلى منزلها .

نظر أرنو إليهما يبتعدان ، ثم استدار نحو فريدريك :

- أتعجبك الأنسة فانتاز ؟ لست صريحاً من هذه الجهة . أظن

أنك تخفي عواطفك .

- أكمدّ لون فريدريك ، وأقسم أنه لا يخفي شيئاً .

- هذا لأننا لا نعرف لك عشيقة ، قال أرنو .

رغب فريدريك أن يذكر اسماً ، مطلق إسم . إنما لربما رويت

قصته . فأجاب أنه ، في الواقع ، لا عشيقة له .

استنكر التاجر ذلك .

- هذا المساء كانت المناسبة مؤاتية ! لماذا لم تتصرف كالآخرين

يذهبون كلٌّ مع امرأة ؟

- وأنت ؟ قال فريدريك ، نافذ الصبر لهذا الإلحاح .

- آه ! أنا ! يا صغيري ! الأمر مختلف ! أعود إلى جانب أمراتي !

طلب عربة واختفى .

سار الصديقان . وكان الهواء شرقياً . ما كانا يتحدثان . يأسف

ديلوريه كونه لم ينجح عند مدير جريدة ، وفريدريك يستغرق في

حزنه . قال أخيراً إن المرقص بدا له سخيفاً .

- خطأ من ، هو ؟ إذا لم تتركنا بسبب أرنو .

- عجباً ! كل ما كان في إمكاني عمله يبدو ، تماماً ، بلا معنى !
لكنّ لكاتب المحامي نظريّات . يكفي ، للحصول على
الأشياء ، أن تتمنّاها بقوة .

- مع هذا ، أنت نفسك ، من لحظات . . .
- أسخر من ذلك تماماً ! قال ديلوريه ، موقفاً التلميح . هل
سأقيّد نفسي بالنساء !
وهاجم لطفهن المتكلّف وغباءهن ؛ وبالإجمال لا تعجبه
النساء .

- لا تتخذ واحدة ، إذن ! قال فريدريك .

صمت ديلوريه . ثم ، فجأة :
- أترأى ، بمئة فرنك ، انني أواصل أولى من نصادف ؟
- نعم ! قبلت !
كانت المارة الأولى شحاذة كريهة ؛ وكانا بدءاً يقنطان من الحظ
عندما لمحاوّلين الرقولي ، فتاة طويلة القامة حاملة علبة كرتون
صغيرة .

اقترّب منها ديلوريه تحت القناطر ، مالت ، بسرعة ، ناحية
التولري . ومشت إلى ساحة القروسية ؛ راحت تلتفت يمينا وشمالاً .
ركضت قرب عربة فيكر ، حاذاها ديلوريه . مشى إلى جانبها وهو
يحادثها بالإشارات . قبلت ، أخيراً ، ذراعها ، وأكملها طوال
الأرصفة . ثم ، تنزّها على الرصيف ، خلال عشرين دقيقة ، في
الأقل ، حول الحصن الصغير ، كأنها بحريّان يحرسان . لكنهما ،

فجأة ، اخترق جسر « الشنج » ، سوق الأزهار ، ورصيف نابوليون .
دخل فريدريك وراءهما . أفهمه دييلورييه أنه قد يزعجهما ، وليس عليه
إلا أن يحدو حذوه .

- كم معك ؟ بعد ؟

- ورقتان من فئة المئة فلس :

- هذا يكفي ! طبت مساء !

عجب فريدريك كما لو أنه رأى مزحة نجحت : « يسخرمني ،
فكّر في نفسه . لوعدت إليه ؟ » لربما ظنّ دييلورييه أنه يحسده ؟ « كأن
ليس لي حب ، مئة مرة أندر ، أشرف ، أقوى ! » شكل من الغضب
راح يدفعه . وصل أمام باب السيّدة أرنو .
النوافذ الخارجية كانت مقفلة كلّها . مع ذلك ، ظلّت عيناه على
الواجهة ، كما لو أنه ظنّ يستطيع تذويب الجدران . الآن ، ولا شك ،
هي هادئة مطمئنة تستريح كزهرة نائمة ، بشعرها الأسود الجميل بين
دانتيل الورد ، شفتاها نصف مطبقتين ، ورأسها على ذراع .
هي ذراع أرنو . ابتعد لينجو من هذه الرؤيا .

عادت إلى ذاكرته نصيحة دييلورييه ، كريمة رآها . وراح يتشرّد
في الشوارع .
حين يتقدم سائراً ، كان يهتمّ بالتفرس في وجهه . بين وقت
 وآخر ، يمرّ من بين قدميه شعاع نور ، يرسم على الأرض ربع دائرة ،
ويظهر رجل في الظل ، بجزمته وفانوسه . في بعض الأمكنة ، الهواء
يحرك قساطل المدافئ ؛ وتتصاعد نغمات بعيدة تمتزج بطنين رأسه ،
ويحسب نفسه سمع في الفضاء لازمة موسيقى لرقصة الكوريل . حركة
مسيره ، تدل ، كانت ، على سكره . وجد نفسه على جسر

الكونكور د .

حينها ، استعاد ذكرى ذلك المساء ، في الشتاء الماضي ، - حين اضطر ، وهو خارج من عندها ، للمرة الأولى ، إلى التوقف لفرط نبض قلبه السريع ، تحت قبضة آماله . هذه الآمال ماتت كلها الآن .

تغطّي وجه القمر ، من وقت لآخر ، سحبات مظلمة . يقف يتأملها حالماً بوساعة المدى ، بشقاء الحياة ، بالعدم ، . ظهر النهار ، اصطكت أسنانه ؛ وتساءل ، نصف نائم ، ميلاً بالضباب ، مليئة عيناه بالدموع : لماذا لا يُقدم على الانتحار ؟ لا شيء سوى حركة للتنفيذ ! ثقل جبهته يجرّجه ، ، ورأى جثته طافية على المياه ؛ انحنى فريدريك . كان الدرايزين عريضاً نوعاً ، ولتخاذه لم يحاول اجتيازه . استولى عليه رعب . عاد إلى الشوارع العريضة وتراخى على مقعد . رجال من الشرطة أيقظوه ، مقتنعين أنه قد أتى فحشاء ما . عاد يمشي . وإذ شعر بالجوع ، والمطاعم مقفلة جميعها ، ذهب يتعشى في خمار . بعدها ، وقد رأى أن الوقت ما يزال باكراً ، راح يتسكّع في ضواحي دار البلدية ، حتى الثامنة والربع . من زمان كان ديلورييه قد صرف آنسته . وكان يكتب على الطاولة ، في وسط الغرفة . حوالى الرابعة ، دخل السيد دوسيزي . هو ، بفضل ديسردييه ، قابل سيّدة ، ورافقها ، في عربة ، وزوجها ، حتى عتبة بيتها ، حيث اعطته موعداً . ولكن لا أحد يعرف اسمها .

- ماذا تريدني أفعل ؟ قال فريدريك .

حينها ، طفق الرجل الطيّب يهذي . تحدّث عن الأنسة فاتناز ، عن الأندلسيّة ، وعن الأخريات كلّهن . أخيراً ، وبكثير من التلميح ، عرض هدف زيارته : واثقاً من كتمان صديقه ، أتى إليه يساعده في مسعى ، بعده ، يرى نفسه ، نهائياً ، رجلاً . وفريدريك ما رفضه . روى القصة لديلورييه من دون أن يقول الحقيقة في ما يخصّه هو .

رأى كاتب المحامي أنه ، الآن ، في وضع جيّد . هذه المراجعة لنصائحه ضاعفت بشاشته .

بشاشته هي ما أغرت ، منذ اليوم الأوّل ، الأنسة كليمنس دافيو ، مطرّزة الأمتعة العسكريّة بالذهب ، أجمل شخص ، رشيقة كقصبة ، عيناها كبيرتان زرقاوان ، مبهورتان دائماً . راح كاتب المحامي يبالغ في الحديث عن براءتها ، حتى جعله يظنّه وساماً . كان يزخرف سترته الطويلة ، بشريطة حمراء ، في مواجهاتها ، لكنه ينزعها أمام الجمهور ، لئلاّ يذلّ ربّ العمل ، كما يقول . في ما تبقى ، يحتفظ بها على مسافة ، يستسلم للملاطفات كباشا ، ويناديه « ابنة الشعب » ، على طريقة المزاح . كل مرة كانت تجلب له باقات صغيرة من بنفسج . ما رغب فريدريك في هكذا حبّ .

مع ذلك ، حين كانا في نجران ، متخاضرين ، إلى مكتب بنسون أوبارييلو ، يحسّ بحزن متميّز . ما كان فريدريك يعرف كم من سنة ، كان ألم ديلورييه ، كلّ خميس حين ينظّف أظافره قبل الذهاب للعشاء في شارع شوازيل !

ذات مساء ، من على شرفته ، رأى ، من بعيد ، هيسونيه على

جسر الأركول . طفق البوهيمي يناديه بالاشارات ، وإذ نزل فريدريك
طوابقه الخمسة :

- إليك الأمر : السبت القادم ، ٢٤ من الشهر ، عيد السيّد
أرنو .

- كيف ذلك واسمها ماري ؟

- أنجيل أيضاً ، لا يهم ! سيحتفلون ببيتهم الريفى في سان -
كلو ؛ مكلف أنا بإبلاغك . ستجد مركبة في الثالثة ، عند الجريدة !
هكذا الاتفاق ! عفواً لإزعاجك . ولكن علىّ دورات كثيرة !
لم يكد فريدريك يعود على أعقابها ؛ حتى سلّمه البوّاب رسالة :
« السيّد والسيّد دمبروز يسألان السيّد ف . مورو أن يشرفهما
بالعشاء عندهما السبت ٢٤ الجاري . - المرجو الجواب » .

« بعد فوات الأوان » ، فكّر بينه وبين نفسه .

مع ذلك ، فقد أظهر الرسالة إلى ديلورييه الذي هتف :
- آه ! أخيراً ! لكنك لا تبدو فرحاً . لماذا ؟

بعد تأرجح بسيط ، قال فريدريك إنّ لديه دعوة أخرى في اليوم
نفسه .

- دع لي لذة إقصاء شارع شوازيل . إياك والحماقات اسأجيب
عنك ، إذا كان الأمر يزعجك .

وكتب كاتب المخامي موافقاً ، بصيغة الغائب .

يتصوّر العالم ، وكان لا يراه إلا من خلال توهّج رغباته ،
كمخلوق اصطناعي ، عامل بمقتضى القوانين الرياضية . عشاء في
المدينة ، لقاء رجل صاحب مركز ، بسمّة امرأة جميلة ، كلّها تقدر أن

تتوصّل إلى نتائج مدهشة ، بعد سلسلة اسقاطات بعضها من بعض .
 بعض الصالونات الباريسية هي كالألات التي تتناول المادة الخام وتجعلها
 ذات قيمة مئة مرة أكثر . كان يؤمن بالعاهرات اللواتي يرشدن
 الديبلوماسيين ، بحفلات الزواج التي لم تحصل إلّا بعد مكائد ، بموهبة
 المحكومين بالأشغال الشاقة ، بانقياد القدر لسطوة الأقوياء . وطفق
 يحلّ معايشة آل دمبروز المفيدة جداً ، وتكلّم عليها بحماسة مما جعل
 فريدريك يختار في اختياره .

ما كان يريد أقلّ من هذا ، إذ إنه عيد السيدة أرنو ، من أن يرسل
 إليها هدية . فكّر ، بشكل طبيعيّ ، في مظلة ليصلح خطاه . والحال
 أنه اكتشف مظلة حريرية متموجة اللون ، ذات مقبض عاجيّ مرصّع ،
 آتية من الصين . لكن ثمنها مئة وخمسة وسبعون فرنكاً ولا يملك أيّ
 فلس ، ويعيش ، حتى ، على مال الفصل المقبل . ومع ذلك ، هو
 يريدّها ، تمسّك بها ، وبالرغم من نفوره ، استنجد بديلورييه .
 أجابه ديلورييه بأن لا مال معه .

- بحاجة أنا ، للمال ، قال فريدريك ؛ بحاجة كبيرة !

وإذ كرّر الآخر ، العذر نفسه ، غضب .

- كان في وسعك مرّات ...

- ماذا ؟

- لا شيء !

وفهم ديلورييه . أخذ ، متحفّظاً ، المبلغ المطلوب ، وإذ نقدّه

قطعة قطعة :

- لا أطلب إليك إيصالاً ما دمت أعيش على نفقتك !

قفز فريدريك إلى عنقه يقبله ويؤكده . بقي ديلوريه بارداً .
وفي الصباح قال عندما لاحظ المظلة على البيانو :
- أه ! لهذه !

- سأبعث بها ، قال فريدريك ببرود .
ساعده الحظ . حصل في المساء على ورقة أطرافها سوداء ،
تعلمه بها السيدة دمبروز بموت أحد أعمامها ، وتعتذر لتأجيل اللقاء به .
وصل ، منذ الثانية ، إلى مكتب الجريدة ، لكن أرنو ، بدلاً من
انتظاره لاصطحابه بعربته ، كان ذهب مساء البارحة ، إذ لم يعد
يستطيع مقاومة حاجته للاستحمام .

هو ، كل سنة ، مع بروز الأوراق الأولى ، خلال بضعة أيام
متتالية ، يرحل فجأة في نزاهات طويلة عبر الحقول ، يشرب الحليب في
المزارع ، يلهو ، كالأطفال ، مع القرويات ، يستعلم عن
المحاصيل ، ويجلب بقلًا للسلطة . أخيراً ، ليحقق حلمًا قديماً ،
اشترى بيتاً في الريف .

في وقت كان يتحدث فريدريك إلى الموظف ، وصلت الأنسة
فاتناز ، وخاب أملها إذ لم يكن أرنو موجوداً . سيبقى هناك يومين بعدما
نصحها الموظف بالذهاب ، ما كانت تستطيع ؛ بالكتابة إليه ،
خشيت أن تضيع الرسالة . عرض فريدريك حملها بنفسه . كتبت
رسالة على عجل ، وتوسلت إليه أن يسلمها دون أن يراه أحد .
بعد أربعين دقيقة ، نزل في سان - كلو .

كان البيت ، الذي على بعد مئة متر من الجسر ، وسط تلة .
ينحفي ، جدران الحديقة ، صفاريزفون ، ومرجة خضراء واسعة تصل

إلى حدود الجدول . كان باب السياج مفتوحاً ، فدخل فريدريك .
كان أرنو مضطجعاً على العشب ، يلعب جراء هرة صغار .
تبدو هذه التسلية تستغرقه كلياً . أيقظته من غفلته رسالة الأنسة فاتناز .
- يا للشيطان ! هذا مضجر ! معها حق ؛ يجب أن أذهب .
وإذ دسّ الرسالة في جيبه ، سُرّبأن يعرض له مسكنه . عرض له
كلّ شيء ؛ الزريبة ، العنبر ، المطبخ ، الصالون إلى اليمين ، ومن
ناحية باريس يُطلّ على طرق مزدوجة لعريش ، عليها ياسمين برّي .
إنّما ، فوق رأسهما ، تصاعد تعاقب نغمات سريع . كانت السيّدة
أرنو ، حاسبة نفسها وحيدة ، تتسلّى بالغناء .
تقسّم سلّم أنغام ، زغردات ، توقعات متعاقبة سريعة . هناك
نغمات كانت تبدو طويلة ، وأخرى سريعة كنقاط شلال ؛ وصوتها ،
الناوذ من الشباك ، يقطع الصمت الطويل ، ويتصاعد صوب
السماء .

فجأة توقفت ، حين وصل السيّد والسيّدة أودري .
ثم ظهرت ، هي نفسها ، في أعلى درج المدخل . وبما أنها تنزل
الدرج ، لمح قدمها . كان حذاءها مكشوفاً ، من جلد أسمر ذهبي ،
مثلث اللسان بطريقة مستعرضة ، مما يرسم ، على جواربها ، تشبيكاً
ذهبياً .

وصل المدعوّون . كانوا مدعوّي الخميس ، باستثناء السيّد
لوفوشيه المحامي .

كلّ منهم جاء بهديّة ما : ديتّم وشاح سوري ، روز نوالد ألجوم
أغان عاطفيّة ، بوريو لوحة مائيّة ، سومباز لوحة كاركاتورية تمثله هو ،

وبيلران لوحة بقلم الفحم تمثل شكلاً من رقصة الأموات ، بتخيّل
 كريبه وتنفيذ سيء . هيسويّه كان أعفى نفسه من كلّ هديّة .
 انتظر فريدريك ليقدم هديته بعد الآخرين .
 شكرته شكراً جزيلاً ، فقال :
 - إنّما . . . هي تكاد تكون دنيئاً عليّ ! زعلت كثيراً .
 - لماذا ؟ أجابت . لا أفهم !
 - إلى المائدة ! قال أرنو ، وقد أخذه من ذراعه ، ثم همسن في
 أذنه ! لست ماكرّاً إطلاقاً أنت !
 لا شيء ، كان طريفاً مثل غرفة الطعام ، مدهونة بالأخضر
 المائي . في أحد أطرافها غادة من حجر مقطّسة إبهامها في حوض ماء على
 شكل صدفة . ونرى ، من النوافذ المفتوحة ، كل الحديقة مع المرحّة
 المحاذية لصنوبرة اسكتلندية قديمة ، تكاد تكون عارية من الأوراق ؛
 باقات من الأزهار تزيّنها بتفاوت ، وبعد النهر تمتد ، بنصف دائرة
 واسعة ، غابة بولونيا ، نويي ، سيفر ، ميدون . أمام السور ، في
 المقابل ، زورق شراعيّ يتموّر .
 دار الحديث أوّل الأمر عن هذا المنظر ، ثم عن المنظر بشكل
 عام . وبدأت المناقشات حين أصدر أرنو أمره للخادم بتحضير العربة
 (خفيفة بدواليب أربعة ، يجرّها جوادان) في حوالى التاسعة
 والنصف . هناك رسالة من أمين صندوقه تستدعيه .
 - أتريدني أعود معك ؟ قالت السيّدّة أرنو .
 - بالتأكيد ! وأضاف بعد تحيّيها تحيّة جميلة : تعرفين جيّداً ،
 سيّدتي ، انني لا أستطيع عيشاً بدونك !

كلّهم هناؤها على هذا الزوج الطيب .
- آه ! هذا لأنني لست وحيدة ! أجابت بلطف ، وهي تدلّ على ابنتها الصغيرة .

وإذ عادت الأحاديث إلى الرسم ، تحدّثوا عن واحد اسمه روسدايل ، يأمل منه أنزو مبالغ محترمة ، وسأله بيلران إذا كان ، فعلاً ، سول ماتياس العظيم، قد جاء من لندن الشهر الماضي يقدّم إليه ثلاثة وعشرين ألف فرنك .

- صحيح جداً ! وإذا استدأرناحية فريدريك : إنه السيّد الذي كنت أنزّهه ذاك اليوم ، في « الألهامبرا » رغماً عني ، أو كذّ لك ، لأن هؤلاء الانكليز ليسوا فكهين !

كان فريدريك ، الذي اشتبه بحكاية ما ، نسائية ، في رسالة الأنسة فاتناز ، قد أعجب بلباقة السيّد أنزو في إيجاد مخرج شريف لهربه . لكنّ كذبتة الجديدة ، ولا لزوم لها أبداً ، جعلته يحملك . فأضاف التاجر ، بشكل بسيط :

- ما اسم صديقك ، ذاك الشاب الكبير ؟
- ديلورييه ، قال فريدريك بحيوية .
وليصّح بعض أخطاء يأخذها عليه ، امتدحه كشاب متفوق الذكاء .

- حقاً ؟ إنّا لا يبدو شاباً طيّباً كما الآخر موظف النّقل .
لن فريدريك ديسردييه . قد تحسبه السيّد أنزو يصادق الناس الشعبيين .

بعدها سأل عن تحسينات العاصمة ، والأحياء الجديدة ، وذكر

السيد أودري ، بين كبار المضاربين في التجارة ، السيد دمبرز .
قال فريدريك ، مستغلاً الفرصة ليجعل نفسه ذا شأن ، إنه
يعرفه . لكنَّ بيلران انطلق في نقد لاذع ضدَّ العطارين ، بائعي شموع
كانوا أوفضة ، لا فرق . راح أرنو يتحدث في بستنة الحدائق مع السيدة
أودري ، أما سومباز ، المهرج من المدرسة القديمة ، فطفق يتندّر عن
زوجها ، يدعو أودري كالمثل ، يجب أن يكون متحدراً من
أودري ، رسام الكلاب ، لأنَّ دمعته الحيوانات بارزة على جبينه .
أراد ، حتى ، أن يحسَّ له رأسه ، امتنع الآخر بسبب شعره المستعار .
وانتهى وقت التحلية على صخبٍ من الضحك .

بعد شرب القهوة ، تحت الزيفون والتدخين وبضع دورات في
الحديقة ، تمَّ الانتقال للتنزّه على طول النهر .
توقفوا أمام صياد ينظف أنقليساً ، في مسمكة . أرادت الأنسة
مارت أن ترى . أفرغ علبته على العشب ، فارتمت الفتاة لتلتقطها ،
صارت تضحك لذّة ، وتصرخ هلعاً . ضاعت جميعها . فدفع ثمنها
أرنو .

رغب ، بعد هذا ، في نزهة بالزورق .
جهة ، من الأفق ، كانت بدأت تحمّر ، بينما من الجهة الأخرى
يتشرلون ليموني واسع في السماء ، وكان أرجوانياً على قمم التلال وقد
صارت سوداء ، كانت السيدة أرنو جالسة على حجر ضخم ، وراءها
هذا الضوء كأنه لحريق . الآخرون ، يتسكعون هنا وهناك ؛
هيسوئيه ، في أسفل الزورق الضيق ، يقفز إلى الماء .
عاد أرنو يتبعه زورق إنقاذ ، كدّس فيه مدعوّيه ، برغم

الملاحظات الحكيمة . أظلمت ، فصارت عودتهم ضرورية .
كانت الشموع مضاءة في الصالون المزروق ، وفي شماعدين
مشعبة معلقة بالجدران . الأم أودري تهجع ، هائثة ، في كرسي
مريح ، والآخرون يستمعون إلى السيد لفوشيه متحدثاً عن أجداد
المحامية . وحدها السيدة أرنو ، قرب النافذة . توجه صوبها
فريدريك .

تحدثاً عن الموضوع المطروح . هي معجبة بالخطباء . هو يفضل
مجد الكتاب . ولكن يجب أن نشعر ، قالت ، بلذة تحريك الجماهير ،
أن ننقل إلى نفوسهم كل ميولنا . هذه الانتصارات لم تكن قط لتراود
فريدريك ، الذي لا طموح له .

- آه ! لماذا ؟ قالت . يجب أن يكون لك ولو القليل منه .
كانا متحاذيين ، واقفين عند النافذة . يمتد أمامهما الليل كوشاح
هائل مظلم ، مرصع بالفضة . للمرة الأولى هما لا يتحدثان في مواضيع
لا معنى لها . فقد عرف ، حتى ، ما تكره وما تحب : بعض العطور
تؤذيها ، تهمها كتب التاريخ ، وتؤمن بالأحلام .
اقتحم فصل المغامرات العاطفية . شكت بلايا الرغبة ، لكنها
ثارت على الدنئات الخبيثة . واستقامة الروح هذه ، تتوافق ، تماماً ،
مع جمال وجهها المتناسق إلى حد تبدو متعلقة به .

تبسم مرات مركزة عينيها عليه ، لدقيقة . يشعر ، حينها ، أن
نظرتها تخترق أعماقه ، كاشعة الشمس العظيمة التي تنزل إلى عمق
المياه . من دون قصد سيء ، يجلبها من دون أمل العودة ، إطلاقاً . وفي
فوران الصامت ، الشبيه بانطلاقات العرفان ، أراد اغراق جبينها بوابل

من القبلات . في هذه الأثناء ، كأن انتفاضة حملته خارج ذاته ؛ انها رغبة بالنضحية ، حاجة ، مباشرة ، للإخلاص ، قوّة إلى حدّ لا يمكنه إشباعها .

ما ذهب مع الآخرين ، ولا هيسّونيّه . سيعودان ، مع عائلة أرنو ، بالعربة . كانت هذه العربة تنتظر عند أسفل درج المدخل ، حين نزل أرنو إلى الحديقة يقطف وروداً . وإذ حزم الباقية بخيط ، لاحظ أن سوقها متفاوتة الطول ، فبحث في جيبه المليئة بالأوراق ، أخذ واحدة كيفما اتفق ، وغلفها بها وأمسكها بدبّوس وقدمها إلى زوجته ، مع شيء من الحنان .

- هذه لك ، حبيبتي ، أعذريني لكوني نسيك !
لكنها صرخت صرخة بسيطة ، كان الدبّوس ، الموضوع بغباء ، قد جرحها ، وعادت إلى غرفتها . انتظروها حوالى الربع ساعة . ظهرت أخيراً ، حملت مارت ، وارتمت في العربة .
- وبأقتك ؟ قال أرنو .

- لا ! لا ! ليس الأمر مهماً !
ركض فريدريك يأتي بها ، هتفت له !
- لا أريدها !

لكنه سريعاً ما عاد بها ، قائلاً إنه أعاد وضعها في الغلاف لأنه وجد الأزهار أرضاً . أغرقتها في جيب المقعد الجلدي ، وانطلقوا .
لاحظها فريدريك ، وكان جالساً بجانبها ، ترتجف بشدة . وإذ اجتازوا الجسر ، انحرف أرنو شمالاً :
- ولكن لا ! إنك تخطيء ! من هنا ، إلى اليمين !

بدت غاضبة . كل أمر يزعجها . أخيراً ، غفت مارت ،
فأخذت الباقة ورمتها خارجاً ، ثم أمسكت فريدريك من ذراعه ،
وأشارت إليه بالأخرى ، ألا يتحدث عنها .
بعد ذلك ، أطبقت بحرماتها على شفيتها ، وماعدت تتحرك .
الآخران ، على المقعد ، يتحدثان عن الطباعة والأشترابات .
ضاع أرنو ، وكان يقود من دون انتباه ، وسط غابة بولونيا . راحوا
يتعدون في دروب صغيرة . يمشي الحصان ببطء ، وأغصان الأشجار
تلامس غطاء العربة . ما كان فريدريك يلاحظ ، من السيدة أرنو ،
إلا عينيها . مارت ممددة في حضنها ، وهو يحمل لها رأسها .
- هي تتعبك ! قالت أمها .

أجاب :

- أبداً ! أبداً !

زوابع غبار بطيئة ارتفعت كانوا يدخلون أوتوي . كل البيوت
مقفلة . قنديل ، هنا وهناك ، ينير زاوية جدار ، ثم يدخلون
الظلمات . ولاحظ ، مرة ، أنها تبكي .
هل هو ندم ؟ رغبة ؟ ماذا إذن ؟ تهمة ، هذه الكآبة التي
لا يعرف سببها ، كأمر شخصي . صار الآن بينها نوع من المشاركة ،
فقال لها بالطف ما استطاعه من صوت :
- تتألمين ؟

- نعم ، إلى حد ما ، أجابت .

العربة تدور ، والنباتات التزيينية من زهر العسل والسرنجة ،
تطفو في أسوار الحدائق ، تنشر ، في الليل ، هبات عطر موهية . ثنيات

فسناها الكثيرة تغطي قدميها . بدا له أنها يتواصلان بواسطة جسد القناة الممدد بينهما . انحنى ناحية البنت الصغيرة . أزاح شعرها الداكن الجميل ، وقبل جبينها ، متمهلاً .

- أنت رجل طيب ! قالت السيّد أرنو .

- لماذا ؟

- لأنك تحب الأطفال .

- ليس كلّهم !

وما أضاف شيئاً ، لكنه مدّ يده اليسرى صوبها وتركها ممدودة ، على آخرها ، - متصوّراً أنها ، ربما ، ستحدوحدوه ، ويلتقي يدها . ثم خجل وسحب يده .

ووصلوا إلى الطريق . صارت العربّة أسرع ، تضاعفت قناديل الغاز ، إنها باريس . وأمام مستودع الأثاث ، قفزهيسويّه عن المقعد . انتظر فريدريك الوصول إلى الساحة ، لينزل . ثم ترصد ، في زاوية من شارع شوازيل ، ورأى أرنويسير متمهلاً صوب الشوارع العريضة . ومنذ صباح اليوم التالي ، أكبّ على العمل بكلّ قواه .

وراح يرى نفسه في محكمة الجنایات ، في مساء شتائي ، عند نهاية المرافعات ، حين المحلّفون شاحبون ، والجموع اللاهثة تفرح حواجز المحكمة . متحدثاً منذ أربع ساعات ، ملخصاً كلّ براهينه ، كاشفاً سواها ، وشاعراً مع كلّ عبارة ، مع كل كلمة ، مع كل حركة ، بشفرة المفصلة ، العلقة وراءه ، ترتفع ؛ ثم ، على منبر المحكمة ، خطيباً يحمل على شفّيته خلاص شعب بكامله ، مغرقاً خصومه بتأثير تشخيصاته ، محطّماً إياهم بأجوبة سريعة لاذعة ، بصواعق ونبرات

موسيقية بصوت ساخر ، مؤثر ، نزق ، سام . وستكون ، هي ، هنا ، في مكان ما ، وسط الآخرين ، مخبئة ، بوشاحها ، دموع الحماسة ؛ ثم يتلاقيان ؛ ولن يعرف وهن العزيمة ولن تؤثر فيه الافتراءات والشتائم ، شرط أن تقول له : « آه ! كم هذا جميل ! » وهي تمد يديها الناعمتين تلامس منه الجبين .

تومض هذه الصور كمنارات في أفق حياته . روحه صارت في التهاها ، أكثر رشاقة وأكثر قوة . اعتزل حتى آب ونجح في امتحانه الأخير . عجب ديلوريه من تدفقه حماسة ، وكان طالما شقي ليلقنه ، مرة بعد ، المادة الثانية في نهاية كانون الثاني ، والثالثة في شباط . خلال عشر سبب يجب أن يكون صار نائباً ، وزيراً ، خلال خمس عشرة ؛ لم لا ؟ يستطيع ، مبراته الذي سوف يحصل عليه قريباً ، أن يؤسس جريدة . تكون هي البداية . بعدها ، نرى ، وبالنسبة إليه ، هودائم الطموح لمركز أستاذ في مدرسة الحقوق ، وناقشت أطروحة الدكتوراه بطريقة مميزة ، جعلت الأساتذة يهتفون .

ونجح فريدريك بأطروحته بعد أيام ثلاثة . وقبل أن يذهب في العطلة ، جاءت فكرة نزهة في الهواء الطلق ليختتموا اجتماعات السبت .

بدا فرحاً . فالسيّدة أرنو هي الآن في شارتر ، قرب أمها . لكنه سيجدها قريباً ، وينتهي بأن يصبح عشيقها . قبل ديلوريه ، في اليوم ذاته ، كمتدرج في تمرين الخطابة في أورساي ، ألقى خطاباً صققوا له كثيراً . وبرغم كونه زاهداً ، فقد انتشى ، وقال لديسرديه في وقت التحلية :

- نبيل أنت ! حين أصبح غنياً ، ساعتك وكيل أعمالى .
كانوا جميعهم سعداء . سيزي لن ينهى دراسة الحقوق .
مارتينون سيكمل تدرجه في الإقليم حيث سيعين قائمقاماً . بيلران
سيهتم بلوحة كبيرة تمثل عبقرية الثورة . وفي الأسبوع المقبل سيقرا
هيسونيه على مدير تحرير «الدبلوماسان» Délassements ، تصميم
مسرحية ، ولا يشك في النجاح :

- لأن حبكة الدراما تنسجم معي ! أكثر من الأسفار لأختبر
الآلام . وبالنسبة للنكت والطرائف ، فهي مهنتي !
وقفز ، واقعاً على يديه ، ماشياً عليها حول المائدة ، ورجلاه في
الهواء .

ما أسرّت سينيكال ، هذه الشقاوة . فهو قد طُرد لتوّه من
مدرسته ، لكونه ضرب ابن ارستقراطي . وازداد شقاؤه ، لأنه عومل
على أساس طبقي ، فصاريكره الأغنياء ويلعنهم ؛ وأفصح بحرية إلى
ويجம்பار الذي كان خائب الظن أكثر فأكثر ، مكدرأ ، مشمئزأ .
استدار « المواطن » ، الآن إلى الأسئلة المتعلقة بالموازنة وراح يشكو
بطانة الحكام وكيف تبذر الملايين في الجزائر .

وبما أنه لم يكن يستطيع النوم من دون التوقف في حانة ألكسندر ،
فقد اختفى منذ الحادية عشرة . تأخر الآخرون بعد ذلك الوقت ، وإذا
كان فريدريك يودع هيسونيه ، عرف أن السيّد أرنو قد تكون عادت
ليلة أمس .

توجه إلى مكتب السفريات يؤجل سفره ، وحوالى السادسة
مساء وصل إلى عندها . أخبره الحاجب أن عودتها أرجئت أسبوعاً .

تعشّى فريدريك وحيداً ، ثم راح يتسكّع في الشوارع .
 غيمات وردية ، على شكل وشاح ، كانت تمتد فوق السطوح ؛
 بدأوا يرفعون خيم المحلات ، وطناير الريّ شرعت تسكب مياهها كالطر
 فوق الغبار ، وامتزجت ، نداوة غير منتظرة ، بتشعّع المقاهي التي
 تريك ، من أبوابها المفتوحة ، بين الفضيات والأواني المذهبة ، باقات
 أزهار تتراءى في الزجاج العالي . تمشي الجموع ، على مهل . كان ،
 هناك ، جماعات من الرجال يتحدثون على الرصيف ، ونساء يتهادين
 بليونة في العيون وسحنة الكاميليا التي يُضيفها ، على أجساد النساء ،
 تعب القيط . شيء ما ، ضخم ، ينحني ، يلفّ المنازل . ولا مرّة
 بدت له باريس على هذا الجمال . وما كان يرى ، مستقبلاً ، إلا سلسلة
 سنوات لا متناهية مليئة بالحُبّ .

توقف أمام مسرح بوابة - سان - مارتان ، يتأمل الملصق . ولأنه
 بلا عمل ، اشترى بطاقة دخول .

كانت تقدّم مسرحيّة جنّ . المشاهدون قلّة . في كوى المقصورة
 العليا ، يتجزأ النور في مربعات صغيرة زرقاء ، بينما مسارج صف
 الأنوار كانت تشكّل صفّاً واحداً من أضواء صفراء . يعرض المشهد
 سوق عبيد في بكين ، مع أجراس صغيرة ، وطبيلات ، وسلطانات ،
 وقبعات مروّسة وأعواد هندية طيّبة الرائحة . وإذا أسدل الستار ، هام في
 الصالة وحيداً ، فأعجب بعربة لاندو خضراء ، في الشارع ، عند
 أسفل درج المدخل ، مقطورة إلى حصانين أبيضين ، يسكهما حوذي دو
 سروال قصير .

كان يعود إلى مكانه حين ، في مقعد من صدر المسرح ، دخلت

سيّدة وسيّد . الزوج ذو وجه شاحب ، يحمل لحية رمادية ، زراً وردياً في وسام عسكري ، ومظهر بارد يُنسب للدبلوماسيين .

تصغره زوجته بعشرين عاماً ، على الأقل ، متوسطة القامة والمظهر ، شعرها أشقر ملولب على النمط الإنكليزي ، ترتدي فستاناً ذا صدار مسطح ، وتحمل مروحة عريضة بدانتيلاً سوداء . كي يأتي مثل هؤلاء إلى المسرح في هذا الفصل ، ويجب افتراض صدفة ، أو الضجر من قضاء أمسية على انفراد . كانت المرأة تعض مروحتها ، ويتنأب السيد . ما استطاع فريدريك تذكّر أين رأى هذا الوجه .

في الاستراحة التالية ، إذ كان يجتاز ممشى ، التقاهما . حيّاهما تحية حائرة ، عرفه السيد دمبروز ، فدنا منه واعتذر ، مباشرة ، عن إهمالات لا تُغتفر . كان هذا تلميحاً إلى بطاقات عديدة أرسلها بناء لرغبة كاتب المحامي . غير أنه يخلط بالزمان ، ظاناً أنّ فريدريك في سسته الثانية من دراسة الحقوق . ثم حسده لذهابه إلى الريف . بحاجة ، هو ، للراحة ، لكن الأعمال تقيّده بباريس .

مالت السيّدة دمبروز ، مستندة إلى ذراعه ، برأسها قليلاً . رقة وجهها المرهفة تتناقض مع كآبتها للحظات مضت .

- نجد فيها ، مع ذلك ، تسليات جميلة ! قالت ، عند آخر كلمات زوجها . كم سخيفة هذه المسرحية ! أليس كذلك ، ياسيّد ؟ وظلّوا واقفين يتحدثون عن المسرح والمسرحيات الجديدة . كان فريدريك معتاداً تقطّيعات البورجوازيات الريفيات ، فما وجد ، عند واحدة منهنّ ، هذه العفوية ، هذه البساطة التي هي تهذيب ، ويرى ، فيها البسطاء تعبيراً عن انجذاب فوري .

اعتمد عليه ، عند عودته . حمّله السيّد دمبوز تحيّاته للسيّد
روك .

ماتأخّر ، في العودة ، في أن يخبر ديلوربيه عن هذا الاستقبال .
- رائع ! أجاب كاتب المحامي ، ولا تترك أمك تأسرك ! عُد
بسرعة !

في الصباح التالي ليوم عودته ، وبعد الغداء ، اصطحبت السيّد
مورو إليها إلى الحديقة .

هي سعيدة ، تقول ، لرؤيته في مركز جيّد ، إذ ليسا غنيّين كما
يُرى . لا تعود الأرض بشيء ، وفير ، ولا يدفع المزارعون شيئاً ذا
بال ؛ حتى انها اضطرت إلى بيع عربتها . أخيراً ، شرحت له وضعهما .
في أوائل عقبات ترمّلها ، أقرضها رجل ماهر ، هو السيّد روك ،
مالاً ، تجددت القروض وطالت ، رغماً عنها . أتى يطلب ماله فجأة .
خضعت لشروطه ، وباعته ، بثمان بخس ، مزرعة برال . بعد عشر
سنين اختفى رأس مالها بإفلاس صاحب مصرف في ميلن . ولأنها تخاف
الرهونات العقاريّة ، وحفاظاً على مظاهر ضروريّة لمستقبل ابنها ،
أملت أذنّها ، مرة بعد ، إلى السيّد روك . لكنها هذه المرّة دفعت دينها .
وبالإجمال ، فقد بقي لها دخل يقارب العشرة آلاف فرنك ، منها ألفان
وثلاثمئة له ، كل ميراثه !

- هذا غير معقول ! صرخ فريدريك .

هزّت برأسها أن الأمر معقول جداً .

ولكن ، هل عمّه سيترك له شيئاً ؟

لا شيء أكيداً !

ودارا في الحديقة ، صامتين . أخيراً ، ضمته إلى صدرها ،
وبصوت تخنقه الدموع :

- آه ! يا ولدي المسكين ! لكم تخلّيتُ عن أحلام كثيرة !
جلس على المقعد ، في ظل شجرة الأكاسيا الكبيرة .
كانت تنصحه بأن يعمل كاتب محام عند بروهارام المحامي ، هذا
يتخلّى له عن مكتبه . وإذا ما جعله مهتماً ، يستطيع بيعه ، ويتخذ قراراً
مناسباً .

ماعاد فريدريك يسمع . راح ينظر ، بآلية ، من فوق الحاجز ،
إلى الحديقة الأخرى ، المجاورة .

كانت هناك فتاة وحيدة ، في حوالى الثانية عشرة ، شعرها أحمر .
مخضّرها الرمادي يترك كتفيها عاريتين ، ذهبتهما الشمس قليلاً . بقع
مرّبيّ تلمّطخ تنورتها البيضاء ؛ تبدو عصبية ورفيقة . أدهشها ،
ولا شك ، وجود مجهول ، لأنها توقفت فجأة ويدها مرشّتها ، ترشقها
بعخوخ شائك أخضر - أزرق صافٍ .

- هي ابنة السيّد روك ، قالت السيّد أرنو . لقد تزوّج خادمته
وأقرّ نسبة الابنة إليه .

VI

مفلس ! مسلوب ! ضائع !
 بقي على المقعد ضائعاً كمن أصابته صدمة يلعن الحظَّ أراد أن
 يضرب أحداً ما ؛ وليقوِّي يأسه ، أحسَّ ثقله الاهانة ، الفضيحة ؛ -
 تصور ، كان ، أن ثروته الأبويَّة ستبلغ يوماً دخلاً يوازي خمسة عشر
 ألفاً ، والملح بهذا ، كان ، إلى آل أرنو . سيُعْتَبَر ، إذن ، متشدِّقاً ،
 مضحكاً ، سوقيّاً وضيعاً ، دخل عالمهم على أمل استفادةٍ ما ! وهي ،
 السيِّدة أرنو ، كيف رؤيتها الآن ، من بعد ؟
 على كل حال ، هذا غير ممكن إطلاقاً ، بهذا الدخل الذي من
 ثلاثة آلاف فرنك ! بات لا يستطيع البقاء في الطابق الرابع ، وأن يكون
 خادمه البوَّاب ، والحضور بقفازات بائسة سوداء ازرقَّت أطرافها ،
 وقبَّعة ضخمة ، والسترة نفسها طوال السنة . لا ! لا ! مستحيل ! مع
 ذلك ، فالحياة لا تطاق بدونها . كثيرون يعيشون جيداً بدون أن تكون
 لهم ثروة ، ديلورييه منهم ؛ - ورأى حاله جباناً في أن يعلّق أهمية كهذه
 على أشياء تافهة . ربما ضاعف الفقر كفاياته . تحمَّس إذ فكَّر بالرجال
 العاملين في السقائف . روحية كما التي للسيِّدة أرنو ، تعجب بمشهد
 كهذا ، ويرقُّ قلبها . وهكذا ، تحوَّلت الكارثة إلى سعادة . كشفت له

غنى طبيعته ، كما تكشف الهزّات الأرضيّة الكنوز . ولكن ، لا مكان في الدنيا لاستثمارها ، إلّا باريس ! ففي اعتقاده ، الفنّ والعلم والحبّ (هذه الوجوه الثلاثة لله ، حسب بيلران) تتعلّق ، حتّى ، بالعاصمة . ومساءً ، أعلن لأّمه عزمه العودة إلى باريس . فوجئت وسخّطت . هذا جنون ، وسخف . الأفضل اتّباع نصائحها ، أي البقاء في مكتب قربها . رفع فريدريك كتفيه : « لست جادة ! » - إذ رأى نفسه مهاناً بهذا العرض .

حينها ، استعملت المرأة الطيّبة طريقة أخرى . راحت ، بصوت حنون ، وبعض شهقات بسيطة ، تحدّثه عن وحدتها ، عن شيخوختها ، عن تضحياتها لأجله . الآن ، وهي أكثر تعاسة ، يتركها . ثم ، ملّحة إلى نهايتها القريبة :

- القليل من الصبر ، يا إلهي ! قليلاً وتكون حراً !

كان هذا النواح يتكرر عشرين مرة في النهار ، خلال ثلاثة أشهر . وفي الوقت عينه ، تشيره بهجات المنزل . هوينعم بسريرناعم ، وفوط غير ممزّقة ؛ ومع كونه سماً ، عصبيّاً ، خاسراً ، أخيراً ، بقوة العذوبة الغريبة ، ترك نفسه ينقاد عند المحامي بروهارام . لم يظهر لا علماً ولا كفاءة . كانوا اعتبروه ، حتى الآن ، كشاب ذي وسائل كثيرة ، يجب أن يكون فخر المحافظة . فكان خيبة أمل شعبيّة .

أوّل الأمر ، قال في نفسه : « يجب إبلاغ السيّدة أرنو ، وخلال أسبوع ، راح يفكر في رسائل تقرّضية ، ورسائل قصيرة ذات أسلوب رشيقي سامٍ . إنّما الخوف من البوح بوضعه يؤخّره . ثم ظنّ أنه الأحسن

الكتابة إلى الزوج . أرنوفهم الحياة ، ويعرف كيف يفهمه . أخيراً ، بعد تأرجح خمسة عشر يوماً :

« عجباً ! يجب ألا أراهم من جديد ؛ لينسوني ! أقله ، لا أكون انحططت في ذاكرتها ! لربما تحسبني ميت ، وتأسف عليّ . . . » .
وبما أنه كان يقرر بسرعة ، فقد أقسم على ألا يعود إلى باريس ، وحتى على ألا يستعلم عن السيّد أرنو .

ومع هذا كان يأسف حتى لرائحة الغاز ولفوضى عربات النقل العام . كان يحلم بكلّ الكلمات التي قالتها له ، برنة صوتها ، بنور عينيها ، - ولأنه حسب نفسه كرجل ميت ، ما عاد يعمل شيئاً ، إطلاقاً .

متأخراً يستيقظ ، وينظر للغابة . من النافذة مرور العربات وسائقيها . الستة الأشهر الأولى كانت كريمة .

وفي بعض الأيام ، يأخذه غضب على ذاته ، فيخرج . يذهب إلى الحقول نصف المغطاة في فصل الشتاء بغيضان السّين . تقسمها صفوف من الحور . هنا وهناك جسر ما ، صغير ، يُبنى . يشرّد حتى المساء ، مقلّباً الأوراق الصفراء بقدميه ، متنشّقاً الضباب ، قافزاً فوق الحفر . بقدر ما تنبض شرايينه أقوى ، تستفيق فيه رغبات عمل حائق . يريد أن يكون صياداً في أميركا أن يخدم باشا في الشرق ، أن يبحر كبَحّار ؛ وينفث كتابته في رسائل طويلة إلى ديلورييه .

كان هذا يكافح ليشقّ طريقه . سلوك صديقه الجبان ، ونواحه الدائم ، ظهرا له بلا معنى . وسريعاً ما صارت مراسلاتها شبه متوقّفة . كان فريدريك أعطى كلّ أثنائه إلى ديلورييه ، الذي حافظ على

المسكن . كانت أمّه تحدّثه عنه ، مرّات ، أخيراً ، ذات يوم أعلن أنه أهده ، ووبّخته حين تلقّى رسالة .
- ما بك ؟ قالت ، ترتجف ؟
- لا شيء ! أجاب فريدريك .

كان دييلورييه يخبره بأنه استقبل ، عنده ، سينيكال ، ومنذ خمسة عشر يوماً ، هما يعيشان معاً . فسنيكال هو ، الآن ، بين الأشياء التي من عند أرنو ! يستطيع بيعها ، التعليق عليها ، والمزاج . أحسّ نفسه مجروحاً حتى أعماق النفس . صعد إلى غرفته . كان يتمنّى الموت . نادته أمّه . تريد استشارته حول زراعة في الحديقة .

هي تشبه بستاناً إنكليزياً ، مقسوماً ، في نصفه ، بسياج قضبان ، ويمتلك نصفه السيّد روك ، المالك أيضاً ، آخر ، على حدود النهر . الجاران متخاصمان ، فكانا يتجنّبان الطهور في الساعات ذاتها . إنّما ، بعد عودة فريدريك ، طفق الرجل يتنزّه أكثر من ذي قبل ولا ييخل باللياقات تجاه ابن السيّد مورو . شكّا إليه سكناه مدينة صغيرة . ويوماً أخبره أنّ السيّد دمبوز كان سأل عن أخباره . ومرة أخرى استرسل في عادة شرب الشمبانيا ، حين بدأ بطنه يجعله من الوجهاء !

- في هذا الوقت ، كان في أمكانك أن تصبح سيّداً ؛ فأملك كانت تدعى دوفوفان . ويأما قيل ! انه جدير بالعناية ، إسم كبير ا على كل حال ، أضاف ، ناظراً إليه بخبث ، هذا يعود إلى وزير العدل . هذا الغرور بالاستقراطية ، يتوافق ، بغرابة ، مع شخصه . ولأنه قصير ، كانت سترته الكستنائية الضخمة تبالغ في إظهار طول

جذعه . وحين ينزع كاسكيتته ، فانت تلاحظ وجهاً يكاد يكون نسوياً
مع أنف مروّسٍ كثيراً ؛ شعره الأصفر كأنه مستعار ، يحبي الناس
بخفوت وهو يلامس الجدران .

حتى الخمسين من سنواته ، كان اكتفى بخدمات كاترين ، ابنة
« اللورين » التي من سنه ، والتي فيها آثار واضحة للجدي . إنما ،
حوالي سنة ١٨٣٤ ، أتى ، من باريس ، بشقراء ، جميلة ، ذات وجه
غنميٍّ و « جسد ملكي » . وسريعاً ما صارت تُرى تبختر ، بأقراط
كبيرة ، وعُرف كل شيء بولادة فتاة سُميت إليزابيت - أوليمب - لويز
روك .

كاترين ، في حسدها ، كانت تتوقع أن تكره الفتاة . على
العكس ، فقد أحببتها . أحاطتها بالعناية ، بالإتباه والمداعبات ؛
وكان الأمر سهلاً للحلول محلّ أمّها وجعلها كريمة ، لأنّ السيّدة إليونور
تُهلّ بالصغيرة ، كلياً ، مفضّلة الثروة عند التجار . منذ اليوم التالي
لزوجها ، قامت بزيارة مقرّ وكيل الوالي ، أعادت الكلفة بينها وبين
الخدم ، وظنّت أنه من الأفضل أن تبدو قاسية مع ابنتها . تحضر
دروسها ، وكان الأستاذ بيروقراطياً هراماً من العُمدة ، فما يعرف كيف
يتصرف . تتمرّد التلميذة فتُصَفّع وتروح تبكي في حضن كاترين التي
تجعل ، دوماً ، الحقّ بجانبها . تتقاتل المراتان ، ويأتي السيّد روك ،
يُسكِتهما . كان تزوّج حُبّة يابسته ، ولا يريد إزعاجها .

غالباً ما هي ترتدي ثوباً أبيض مع بنطلون مزين بالدانتيل ، وفي
الأعياد الكبرى ، تخرج مرتدية كأميرة ، لتدّل ، إلى حدّ ما ،
البورجوازيين الذين كانوا يمنعون أولادهم من مخالطتها ، لولادتها غير

الشرعية .

وحيدة تعيش ، في حديقته ، تتمرجح بالأرجوحة ، تركض خلف الفراش ، ثم ، فجأة ، تتوقف تتأمل السينويات^(١) المتخبطة على أزهار الورد . هي هذه العادات ، ولا شك ، التي أعطت وجهها مظهر الجرأة والأحلام . كانت بقامة « مارت » ، من هنا قول فريديك لها ، منذ مقابلته الثانية لها :

- أسمحين بأن أقبلك ، آنستي ؟

رفعت رأسها ، أجابت :

- طبعاً أريد !

لكن حاجز القضبان يفرقهما الواحد عن الآخر .

يجب الصعود فوق الحاجز ، قال فريديك .

- لا إحملني !

انحنى فوق الحاجز ، وحملها من أطراف يديه ، وقبلها على خديها ؛ ثم أعادها حيث كانت ، الأسلوب الذي غدا يتكرر في المرات التالية .

صارت ، فور معرفتها بمجيء صديقها ، تنطلق طلاقاته من دون تحفظ ، أو تختبئ خلف شجرة ، وتنبج ، مثل كلب ، لتخيفه . يوماً ، ولم تكن السيّد مورو في البيت ، أصعدها إلى غرفته . أخذت كل قناني العطور ، ونثرت فوق شعرها بغزارة . ثم ، بلا أيّ حرج ، استلقت على السرير ، وبقيت متمددة ومستيقظة .

(١) حشرات من مغمّدات الأجنحة .

- أتصور أنني امرأتك ، قالت .
في الغد ، رأها تبكي . صارحته بأنها « تبكي خطاياها » ،
وإذ حاول أن يعرفها ، أجابت خافضة عينها :
- لا تسألني أكثر !

تقترب قربانتها الأولى . في الصباح ، أخذوها إلى كرسي
الاعتراف .

لم يجعلها السرّ عاقلة . تغضب ، أحياناً ، غضباً حقيقياً .
فيستنجدون بالسيد فريديك ليهدئها .

غالباً ما كان يصطحبها في نزهاته . وبينما هو يحلم في
سيره ، تروح تقطف الزهور على حدود القمح ، وحين تراه أكثر
حزناً من المعتاد ، تحاول تعزيته بكلمات لطيفة . انجذب قلبه ،
المحروم من الحب ، نحو صداقة الطفلة ؛ صار يرسم لها
اشخاصاً ، يروي لها قصصاً ، وراح يقرأ لها .

بدأ بـ « الحوليات الرومنطيقية » ، مجموعة شعر ونثر شهيرة .
ثم ، ناسياً عمرها إذ إن ذكاءها بهر ، قرأ عليها ، بالتتابع :
« أتال » ، « الخامس من آذار » ، « أوراق الخريف » . لكنها ،
ذات ليلة كانت ، في المساء عينه ، استمعت إلى « مكبث » ،
بترجمة لوتورنور البسيطة ، استفاقت صارخة : « اللطخة !
اللطخة ! » تصطك أسنانها ، ترتجف ، وتركز عينين ذاهلتين على
يدها اليمنى ، تفركها قائلة : « دائماً اللطخة ! » وصل الطبيب ،
أخيراً ، فنصح بتجنّبها الانفعالات .

ما رأى البورجوازيون في هذا سوى تشخيص غير مشرف

لعاداتها . قالوا إن « الشاب مورو » يريد أن يجعلها ممثلة .
وسريعاً ما دخل الاهتمام أمر آخر ، معرفة متى يأتي العم
برتلماوس . عيّنت له السيّدة مورو غرفة نوم ، واندفعت تتنازل
مستخدمة قرشها الأبيض في أيامها السوداء .

لكن الشيخ لم يكن محبوباً . يقارن ، باستمرار ، بين هافر
ونوجان ، حيث رأى الهواء ثقيلاً ، الخبز سيئاً ، الشوارع سيئة
التبليط ، الغذاء رديئاً والمواطنين كسالى . « للتجارة البائسة
عندكم ! » استنكر تبذير المرحوم أخيه ، بينما جمع ، هو ، دخلا
يوازي سبعة وعشرين ألف ليرة ! في بحر الأسبوع غادر ، وعلى
عتبة العربة قال هذه الكلمات القليلة التطمين :
- أنا مسرور دائماً لكونكم في حالة حسنة .

- لن تحصل على شيء ! قالت السيّدة أرنو وهي تدخل .
لم يكن قد جاء إلا بناء على إلحاحها . وخلال ثمانية أيام ،
كانت ألمحت إلى شيء ، وربما بطريقة واضحة تماماً . ندمت على
فعلها ، وبقيت على كرسيها ، خافضة الرأس ، مطبقة الشفتين .
راح فريدريك ، وهو بجانبها ، يراقبها . كانا صامتين معاً ، وقد
عاد من مونتيرو لسنوات خمس . هذه المصادفة ، وقد طرأت على
ذهنه ، ذكرته بالسيّدة أرنو .

تردّدت ، في هذه الأثناء ، ضربات سوط ، وسمع في
اللحظة نفسها صوتاً يناديه .

إنه السيّد روكّ ، وحيداً في عربته المفتوحة الجانبين . ماضٍ
هو لتمضية النهار في فورتيل ، عند السيّد دمبروز ، وعرض ،

صادقاً ، على فريدرىك ، مرافقته .

- لست بحاجة لدعوة وأنت معي ، لا تخش !

رغب فريدرىك بالقبول . إنما كيف يفسر إقامته الدائمة في نوجان ؟ لم يكن له ثوب صيفي ملائم ؛ وما تقول أمه ؟ فرفض . من حينها ، بدا الجار أقل صداقة . كانت لويز تكبر مرضت السيدة إلبونور مرضاً خطيراً ، والعلاقة توقفت ، فكان فرح عظيم للسيدة مورو ، تخشى على زواج ابنها ، من معاشرته مثل هؤلاء الناس .

كانت تحلم أن تشتري له قلم المحكمة . ما كان يتحمس كثيراً ، فريدرىك ، لهذه الفكرة . صار ، الآن ، يرافقها إلى القداس ، وفي المساء يتسلبان بلعب الورق . كان صار يعتاد الريف ، يستغرق فيه ؛ - وحتى حبه كان انطبع بعذوبة كثيفة ، وقتنة منعسة . لفرط ما سكب ألمه في رسائله ، ومزجه في قراءاته ، كان ، إلى حد ما ، استفده ، حتى أن السيدة أرنو ماتت بالنسبة إليه ، وعجب كيف لا يعرف قبرها ، ولطالما كان هذا الانفعال هادئاً ومستسلماً .

يوماً ، في ١٢ كانون الأول ١٨٤٥ ، حوالى التاسعة صباحاً ، سلمته الطاهية رسالة في غرفته . عنوانها مخطوط بالحروف الكبيرة ، ويخط لا يعرفه . وإذا كان ما يزال نائماً ، ما عجل في فصها . أخيراً قرأ :

« محكمة صلح هافر ، الدائرة الثالثة .

سيدي .

بما أن عمك ، السيد مورو ، قد توفي بلا وصية . . . » .

سيرث !

كان حريقاً اشتعل في الغرفة . قفز من سريره ، حافي القدمين ، في غلالته : مرّ يده على وجهه ، شاكاً بعينه ، ظاناً أنه يحلم ، ولينأكد ، في الواقع ، شرع النافذة . كان سقط الثلج . السطوح بيضاء . - ورأى دلو غسيل في الساحة ، تعرّب به ليلة أمس .

أعاد تلاوة الرسالة ثلاث مرّات متتالية ، الأمر حقيقي ! كل ثروة العم ! دخل سبع وعشرين ألف ليرة ! وأخذ فرح جنوبي ، عند فكرة رؤيته السيدة أرنو ثانية . وبوضوح الوهم ، رأى ذاته قريباً ، عندها ، مقدّماً لها هدية ما ملفوفة بالحرير ، في حين تقف أمام الباب تلبرية^(١) ، لا ، بالأحرى عربة مقفلة بدواليب أربعة ! عربة مقفلة سوداء ، مع خادم ذي خلعة سمراء ؛ صار يسمع صهيل حصانه وصوت اللجام مختلطاً بهمس القبلات . وسيستجّد الأمر كل يوم ، إلى ما لا نهاية . سيستقبلهم عنده ، في بيته ؛ غرفة الطعام ستكون من جلد أحمر ، صالون السيدات الصغير من حرير أصفر ، أرائك في كلّ مكان ! وياخزائن الرفوف ، ما أجملها ! والآنية الصينية ! والسجاد ! تصطبّخ هذه الصور ، فيشعر بدوار في رأسه . ولتذكّر أمّه . فتزل ، والرسالة بيده . حاولت السيدة مورو تمكّك نفسها ، فانهارت . أخذها

(١) مركبة خفيفة ذات عجلتين ياسم صانعها .

فريدريك بين ذراعيه وقبلها بجبينها .
 - أمي الرائعة ، تستطيعين استعادة عربتك الآن .
 إضحكي ، لا تبكي ، كوني سعيدة !
 وخلال عشر دقائق ، عمّ الخير حتى الضواحي . فتراكض
 السيد بنوا وزوجته ، والسيد جبلان ، والسيد شامبيون وكل
 الأصدقاء . اقتنص فريدريك فرصة للكتابة إلى ديلوريه . طرأت
 زيارات أخرى . وانقضى بعد الظهر بالتهاني . نسوا ، الآن ،
 السيدة روك ، فهي « وضيعة » .
 ولما صاروا وحيدين في المساء ، نصحت السيدة مورو ابنها
 بالإستقرار في « تروا » محامياً . فهو ينجح أكثر ، وبسهولة ، إذ
 إنه أكثر شهرة في منطقته من أية منطقة أخرى .
 - اه ! الأمر لا يطاق ! صرح فريدريك .
 ما كان يحصل على سعادته ، حتى يراد له التخلي عنها .
 أخبرها برغبته النهائية في السكن في باريس .
 - ماذا ستفعل هناك ؟
 - لا شيء !
 فوجئت أمه بتصرفاته ، فسألته ماذا يريد أن يكون .
 - وزيراً ! أجاب فريدريك .
 وأكد لها أنه لا يمزح أبداً ، وأنه يطمح إلى الانطلاق في
 الدبلوماسية ، فدروسه وميوله الفطرية كلها تدفعه في هذا
 الإتجاه . سيدخل ، أولاً ، بمعاونة السيد دمبروز مجلس مستشاري
 الدولة .

- تعرفه ، أنت ، إذن ؟
- طبعاً ! بواسطة السيّد روك !
- أمر غريب ، قالت السيّدة مورو .
أيقظ في قلبها أحلامها القديمة . استسلمت لها ، في ذاتها ،
وما عادت تحدّث عن سواها .
لو عرف تلّهّفها ، لكان فريدريك ذهب في اللحظة عينها .
في الغد ، كانت كل الأمكنة محجوزة في العربات . فندبّر أمره لما
بعده ، في السابعة مساء .
وبينما هما يجلسان إلى العشاء ، دقّ الجرس دقات حزن
طويلة . ودخلت الخادمة تعلن موت السيّدة إليونور .
ما كانت هذه الميئة تعاسة لأحد ، حتى ولا لأبتها . في ما
بعد ، لن تكون الفتاة إلّا أفضل .
وبما أن البيتين متلاصقين ، كانا يسمعان ضجة مجيء
ورواح ، وصخب كلام . وألقت هذه الجثة القريبة شيئاً من حزن
على انفصاليهما . فمسحت السيّدة مورو عينيها مرتين أو ثلاثاً ،
وانقبض قلب فريدريك .
انتهى الطعام ، أتت كاترين أوقفته بين بايين . تريد الآنسة
أن تراه ، مهما كلّف الأمر . هي تنتظره في الحديقة . خرج جانب
الحاجز وتوجه ، وهو يصطدم بالأشجار ، إلى منزل السيّد روك .
كانت أضواء تسطع في نافذة من الطابق الثاني . ظهر شكل في
العمّة ، وهمس صوت :
- هذا أنا !

بدت له أكبر من المعتاد ، بسبب ثوبها الأسود ، ولا شك .
ما عرف بما يبدأ الكلام ، فاكتفى بأن أخذ يديها متنهّداً :
- آه ! لويزتي المسكينة !
لم تحب . نظرت إليه ، بعمق ، وقتاً طويلاً . خشي
فريدريك أن تسبقه العربية ، ظنّ يسمع صوتها في البعيد ،
وليتخلّص :
- أعلمتني كاترين أنك تريدني شيئاً . . .
- نعم ، هذا صحيح ! كنت أريد أن أقول لك . . .
أخذته الدهشة ، وبما أنها بقيت صامتة :
- ماذا ؟
- ماعدت أعرف . نسيت ! أصبح أنك ذاهب ؟
- نعم ، حالياً .
كرّرت :
- آه ! حالياً ؟ . . . كلياً ؟ . . . ألن نلتقي ثانية ؟
خنفتها الشبهات .
- الوداع ! الوداع ! قبّليني !
وضمّته إلى صدرها بعنف .

القسم الثاني

I

أحسّ نفسه مغموراً بالنشوة ، حين جلس في مكانه في
العربة ، وتحركت تجرّها جيادها وقد أسرع في الانسحاب معاً .
نظّم حياته ، سلفاً ، مثل مهندس معماريّ يضع تصميمياً لقصر .
ملأها عذوبة وجلالاً ؛ كأنها تصل حتى السماء . بدت خصبة بأمور
كثيرة مهمة ؛ وهذا الاستغراق في التأمل كان عميقاً إلى حدّ
اختفت معه المواضيع الخارجيّة .

عند أسفل شاطئ سوردون ، عرف أين صار . ما
انقضى ، بعد ، سوى كيلومترات خمسة ، على الأكثر ! سخط .
فتح الكوة ليرى الطريق . مرّات عدة سأل السائق كم يلزم من
الوقت ، بالضبط ، للوصول . مع ذلك استكان ، وبقي في
زاويته ، وعيناه مفتوحتان .

الفانوس المعلق بمقعد الحوذيّ ، ينير أرداف الجياد . ما كان
يرى أبعد من أعرافها المتماوجة كموج أبيض ؛ كان لهاثها يؤلّف
ضباباً من كل جهة من القرن . سلاسل الحديد الصغيرة ، تدقّ ،
الزجاج يرتجف في قاعدته ، والعربة الثقيلة ، تسير سيراً

متموازيماً . بين مكان وآخر ، كنت تلاحظ جدار مستودع ، أو فندقاً وحيداً . أحياناً ، أثناء المرور في القرى ، يكون فرن خباز يعكس أضواء كالخريق ، فتبدو أشباح هائلة للجياد تركض على البيت المقابل . في المرباط ، حين يكونون تحضروا للرحيل ، يجتمعون صمت عميق ، للحظة . أحدهم يخطو ، فوق ، تحت الخزان ، بينما تقف ، على عتبة الباب ، امرأة شمعتها في يدها . وإذا يقفز السائق إلى مكانه ، تعاود العربة مسيرها .

سمعوا الساعة تدق الأولى والربع في مورمان .

« إذن ، فكر ، اليوم ! اليوم ، عما قليل ! » .

إنما بدأت آماله وذكرياته ، شيئاً فشيئاً ، نوجان ، شارع شوازيل ، السيّد آرنو ، أمه ، كل شيء اختلط في ذهنه .

ضجيج ألواح أيقظه . كانوا يجتازون جسر شارنتون ، انها باريس . حينها ، خلع رفيقه الواحد ، كاسكيتيه والآخر شاله ، اعتمرا قبعتهما وطفقا يتحدثان . كان الأول تاجراً ، رجلاً أحمر ضخماً ، ذا سترة طويلة مخملية ؛ الثاني آتياً كان إلى العاصمة لاستشارة الطبيب ؟ - وإذا ظنّ فريدريك أنه أزعجه خلال الليل ، راح ، بسرعة ، يعتذر ، من فرط ما ارهفت نفسه سعادة .

أكملوا المسير في خطّ مستقيم ، فرصيف المحطة ، ولا شك ، مغمور بالماء . وابتدأ الريف ، من جديد . في البعيد ، مداخن معامل ترسل دخاناً . ثم استداروا إلى ايفري . صعدوا شارعاً ؛ وفجأة ، رأى قبة البانتيون .

بالقلوب ، بدا السهل أطلالاً . سور تحصيناته مقبب

أفقيّاً ؛ وعلى الأرصفة الترابيّة المحاذية للطريق ، أشجار صغيرة أغصان لها تحميها ألواح شائكة .

تتالى مؤسسات منتجات كيميائيّة مع مراكم محروقات لتجار الخشب . أبواب عالية ، كما يوجد في المزارع ، ترك للرؤية من مصاريحها نصف المفتوحة ، ساحات وسخة ملأى بالأقذار ، وفي وسطها برك مياة وسخة . مقاو فنية ، حمراء قانية ، في طوابقها الأولى بين النوافذ قضيباً بليار بشكل صليب في إكليل زهور ملوّنة . وبعض أكواخ ، نصف مبنية ، صارت مهجورة . ثم صف مزدوج من البيوت ، ما عاد ينقطع . وعلى عري واجهاتها بين مكان وآخر ، يبرز سيجار ضخّم من حديد أبيض مشيراً إلى دكان تبغ ، أو لافتة قابلة قانونيّة تمثّل سيّدة بقبّعة ، تهزّز طفلاً صغيراً في غطاء سرير مزخرف بالدانتيل ؛ أو ملصقات تغطي زوايا جدران ، ممزقة ، ترتجف في الهواء كخرق . وعمال يمرّون ، بقمصان فضفاضة ، وعجلات نقل لبائعي جعة ، ومقطورات كوّاءات ، وعربات قصّابين ؛ ينزّ مطر خفيف ، فالطقس بارد ، والسماء شاحبة ، لكنّ عينيّن تلمعان خلف الضباب توازيان الشمس بالنسبة إليه .

طويلاً توقّفوا على باب المدينة ، لأنّ تجار بيض وطيور ، سائقي عجالات ، وقطيع غنم تجعل فيه زحمة . الخفير يروح ويحيي أمام كوخه ليديفاً ، وقد خفض معطفه .

صعد موظف الجمرك العربية ، فانطلق ضجيج أبواق . نزلوا الشارع العريض خبيّاً ، ميازين العربية تصطرع ، والمجرّات

طائرة . عذبة السوط تصطفق في الهواء الرطب . يطلق القائد صوته المرتفع : « أضيء ! أضيء ! يا ! » فيتراجع المكّنسون ، المشاة إلى الوراء يقفزون ، يتدقق الوحل حتى الكوى ، يلتقون بطناير ، بعربات ، بعربات نقل عام . وأخيراً ، امتدّت حديقة النباتات .

يكاد نهر السّين ، مصفراً ، أن يلامس سطح الجسور . تنتشر منه برودة . تنشقها فريدريك ملء رئتيه ، متدوّفاً هواء باريس الذي يبدو وكأنه يحمل دفقات عاشقة وهموماً ذهنيّة ؛ رقّ قلبه لمراى أوّل فيكر . وأحبّ ، حتى عتبة تجّار الخمر وعليها القش ، ومسّاحي الأحذية ، وصبيان المحلّات يهزّ كل منهم محمصة البن . نساء تكردحن تحت مظلاتهن ؛ كان ينحني ليميّز وجوههنّ ؛ فقد يجعله القدر يرى السيّدة أرنو . تتابع المحلات ، تتضاعف الجموع ، صار الصخب أقوى . بعد أرصفة سان - برنار ، التورنيل والمونتي - بلو ، ساروا في رصيف نابوليون ؛ أراد ألا يرى نوافذه ، لكنها كانت بعيدة ثم ، من جديد ، فوق السين ، على الجسر الجديد ، وانحدروا حتى اللوفر ، ووصلوا شارع كوك - هيرون عبر شوارع سان - أونوريه ، وكروا - دي - بيتي - شان والبولوا ، ودخلوا ساحة الفندق .

ليطيل لذّته ، ارتدى فريدريك ، على مهل ، وحتى سار مشياً إلى بولفار مونغارتر ؛ كان يتسم لفكرة رؤيته مجدداً الاسم العزيز على اللوحة المرميّة ؛ رفع عينيه . لا واجهات ، لا لوحات ، لا شيء !

ركض إلى شارع شوازيل . ما كان فيه ، بعد ، السيد
والسيدة أرنو ، وتحفظ جاره بمسكن البواب ؛ انتظر فريدريك ؛
ظهر أخيراً ، لم يكن هو نفسه . ما كان يعرف عنوانها الجديد .
دخل فريدريك مقهى ، وراح ، وهو يتغذى ، يبحث في
دليل التجارة . فيه ثلاثمئة أرنو ، إنما ولا جاك أرنو ! أين هم ،
إذن ؟ بيلران لا بد أن يعرف .

انتقل إلى أعلى ضاحية بواسوانير ، إلى محترفه . ليس
للباب جرس ولا مقرعة ، فضرب بقبضة يده عليه ، نادى ،
صرخ . وحده ، الفراغ ، أجابه .

بعد ذلك فكّر بهيوسوني . إنما أين يجد رجلاً مثل هذا ؟ مرة
رافقه إلى بيت عشيقته ، شارع فلوروس . وإذ رأى نفسه في
شارع فلوروس ، انتبه إلى جهله إسم الأنسة .

استنجد بمديرية الشرطة . هام من درج إلى درج ، من
مكتب إلى مكتب . مكتب الاستعلامات كان مقفلاً . قالوا له أن
يعود غداً .

فدخل عند كل تجار اللوحات الذين اهتدى إليهم ، عليهم
يعرفون أرنو . عرف أنه ما عاد يتعاطى التجارة .

أخيراً عاد إلى فندقه ثابت الهمة ، منهوئاً ، مريضاً ، ونام .
وبينما هو يتمدد في فراشه ، طرأت على باله فكرة جعلته يقفز
فرحاً :

« ريجمبار ! يا لي من أحق ، كيف لم أفطن إليه ! » .
في السابعة من صباح الغد ، وصل إلى شارع نونتر - دام -

دي - فيكتوار أمام محلّ مشروب كحوليّ ، حيث اعتاد ريجمبار أن يشتري النبيذ الأبيض . ما ان فتح ، بعد ، قام بنزّهة في الأرجاء ، وخلال نصف ساعة حضر مجدداً . كان ريجمبار خرج للتوّ . انطلق فريدريك في الشارع . ظنّ أنه يرى قُبْعته من بعيد ؛ تداخلت عربة موتى وعربات حزن . وإذ انتهى الصخب اختفت الرؤية .

بفرح تذكّر أنّ « المواطن » يتغذى كل يوم في الحادية عشرة تماماً عند صاحب مطعم صغير في محلّة غايون . عليه بالصبر ! وبعد تسكّع لا متناهِ من « البورس » إلى « المادلين » ، ومن « المادلين » إلى « جيمناز » ، دخل فريدريك ، في الحادية عشرة تماماً ، مطعم محلّة غايون ، واثقاً من أنه سيجد ريجمبار .
- لا أعرفه ! قال صاحب المطعم الحقير بنبرة متعجرفة .
أصرّ فريدريك ؛ أجاب :

- بتّ لا أعرفه ، يا سيّد ! وهزّ حاجبيه بعظمة مع تمايل في رأسه ، أفشت سرّاً .

ولكن ، في لقائهما الأخير ، كان « المواطن » تحدّث عن حانة ألكسندر . ابتلع فريدريك فطيرة حلوى ، وقافزاً إلى عربة خفيفة ، استعلم من الخوذيّ إذا كان هناك ، في مكانٍ ما ، في أعلى سانت - جينيقييف ، مقهى ما اسمه ألكسندر . أخذه الخوذي إلى شارع فران - بورجوا - سان - ميشال ، إلى مؤسّسة بهذا الاسم ، وعند سؤاله : « السيّد ريجمبار ، إذا شئت ؟ » أجابه صاحب المقهى ، ببسمة غاية في الرقة ، وقال :

- لم نره ، بعد ، ياسيدي ، بينما رمق زوجته الجالسة إلى المكتب ، بتظرة ذكّية .

وسريعاً ما نظر إلى الساعة :

- إنما سيصل خلال عشر دقائق ، ربع ساعة على الأكثر . سيلستان ، أسرع بالقائمة ! - ماذا يفضل السيّد أن يتناول ؟

بالرغم من أنّ فريدريك ليس في حاجة إلى شيء ، فقد جرع كأس روم ثم كأس كيرش ثم كأس كوراسو ثم جرعات مختلفة باردة مرة ومرة ساخنة .

قرأ « العصر » كلّها ، وأعاد قراءتها . وتفحص ، حتى أعماق الورقة ، رسم « كاريفاري » الكاريكاتوري . وفي الأخير ، صار يعرف ، غيباً ، كل الإعلانات . بين وقت وآخر ، يقرع حذاء على الرصيف ، إنه هو ! ويبدو جانب أحدهم على الزجاج ، ثم يختفي دائماً !

ولكنه ما أصابه من ضجر طفق يبدّل مكانه . جلس في آخر الصالة ، ثم إلى اليمين ، في الشمال . وبقي في نصف المقعد ، ذراعه ممدودتان . لكنّ هرة ، وقد داست ، برقة ، غمل المسند ، أخافته إذ قفزت فجأة لتلسح بقاع الشراب عن الطاولة ، ويلعب صبيّ في الرابعة من عمره ، لا يطاق ، بشخشيشة على درجات المكتب . تبسم أمه ، وهي امرأة صغيرة شاحبة ، بمظهر غبيّ . ماذا تراه يفعل ريجمبار ؟ ينتظره فريدريك ، هائماً في خيبة لا محدودة .

يقرع المطر كالبرد على غطاء العربى . يلاحظ ، من خلال فتحة الستارة ، الحصان المسكين فى الشارع ، أكثر جهوداً من حصان خشبى . صار السيل غزيراً ، والحوذى ينام ، محتبئاً بالغطاء . لكنه يخاف من تسلل البورجوازي ، فيشق الباب ، بين فينة وأخرى ؛ - ولو كانت النظرات يمكن أن تستهلك الأشياء ، لكان فريدريك أذاب الساعة لفرط ما تعلقت عيناه بها . ومع ذلك هى تدور . ويتمشى السيد ألكسندر ، طولاً وعرضاً ، وهو يردد : « سوف يأتي ! سوف يأتي ! » ويسلّيه ، يقيم معه حواراً ، يتحدث فى السياسة . أكثر ، عرض عليه أن يلعب « دومينو » . أخيراً ، فى الرابعة والنصف ، نهض فريدريك ، مرة واحدة ، وهو هنا منذ الظهر ، وأعلن أنه لن ينتظر بعد . - لا أفهم شيئاً ، أنا نفسى ، أجاب صاحب المقهى بمظهر بريء النية ، انها المرة الأولى فيها يتخلف السيد لودو !

- كيف ، السيد لودو ؟

- طبعاً يا سيدي :

- قلت ريجمبار ! صرخ فريدريك مغتاضاً .

- آه ! عذراً ، ألف عذر ! أنت تخطيء ! - السيد سأل عن السيد لودو ، أليس كذلك سيّدة ألكسندر ؟

وملتفتاً إلى الصبي :

- ألم تسمعه أنت ، مثلي ؟

ولكى يتقمم الولد ، ولا شك ، من معلّمه ، اكتفى بالابتسامة .

عاد فريدريك نحو الشوارع ساخطاً على الوقت الضائع ،
 غاضباً من « المواطن » ، متوسلاً حضوره كأنه إله ، مقررّاً أن
 يتشله من أعماق المخايء البعيدة . أزعجته العربية ، فتخلّى
 عنها : تصطخب أفكاره ؛ ثم تفجرت في ذاكرته كل اسماء المقاهي
 التي سمع ذلك الأبله يتلفظ بها ، مرة واحدة كأنها ألعاب نارية :
 مقهى غاسكار ، مقهى غريمير ، مقهى هالبو ، حانة بوردلي ،
 هافانيه ، هافري ، بوف الامود ، معمل جعة الماند ،
 مارموريل ؛ وانتقل إليها جميعها . إنما ، في مقهى ، يكون ريجمبار
 خرج لتوه ، في آخر ربما سيأتي ؛ في ثالث ما رآه من أشهر ستة ؛
 في غير مكان ، كان طلب ، أمس ، فخذ خروف ليوم السبت .
 أخيراً ، عند فوتيه ، بائع شراب الليمون ، وبينما فريدريك
 يفتح الباب ، اصطدم بالخادم .

- أتعرف السيّد ريجمبار ؟

- كيف لا أعرفه ؟ إني ، أنا ، من لي شرف خدمته . إنه
 فوق ؛ ينهي غداءه ! واقترب منه صاحب المحل بنفسه ، والقفوطة
 تحت ذراعه :

- تطلب السيّد ريجمبار ، يا سيّدي ؟ من لحظة كان هنا .
 أطلق فريدريك شتيمة ، لكن بائع شراب الليمون أكّد له
 أنه سيجده ، حتماً ، عند بوتفيلين .

- أقسم بشرفي ! ذهب قبل المعتاد إذ انه على موعد عمل
 مع سادة . لكنك ستجده ، أكرّر لك القول ، عند بوتفيلين ،
 شارع سان - مارتان ، ٩٢ ، المدخل الثاني إلى اليسار ، في آخر

الساحة ، الطابق الأول ، الباب إلى اليمين !
 وجده أخيراً عبر دخان الغلايين ، وحيداً ، في آخر الحانة
 قرب بليار ، أمامه كأس جعة ، ذقنه منخفضة ، في وضع من
 يستغرق في التأمل :

- آه ! من زمان وأنا أبحث عنك ، أنت !
 ومن غير أن يفاجأ ، مدّ له ريجمبار إصبعين فقط ، وكأنه
 رآه لليلة أمس ، تلفظ بجمل متعددة لا معنى لها عن افتتاح دورة
 الامتحانات :

قاطعة فريدريك ، قائلاً له ، بالنبرة الطبيعية التي
 استطاعها :

- هل أرنو بخير؟
 - تأخر الجواب ، كان ريجمبار يتغرغر بشرا به .
 - نعم ، حسناً !
 - أين يسكن الآن ؟
 - ما بك ؟ ... شارع بارادي - بواسونير ، أجب
 - « المواطن » متعجباً .
 - أي رقم ؟
 - ٣٧ ، تبا لك ، يا لك من غريب الأطوار !
 - نهض فريدريك :
 - كيف أتذهب ؟
 - نعم ، نعم ، عندي عمل ، قضية كدت أنساها !
- الوداع !

انطلق فريدريك من الحانة إلى أرنو كأنه محمول بهواء فاتر وبهواء غير عاديّ كالذي نشعر به في الأحلام .

سريعاً ما وجد نفسه في طابقٍ ثانٍ أمام باب يدقّ جرسه ؛ ظهرت خادمة ؛ انفتح باب ثانٍ ؛ السيّدة أرنو جالسة قرب النار . قفز أرنو وقبله . في حضنها صبيّ في الثالثة ، تقريباً ؛ وكانت ابنتها ، التي هي الآن كبيرة مثلها ، واقفة من الجانب الآخر للمدفأة .

- إسمح لي بأن أقدم لك هذا السيّد ، قال أرنو ، حاملاً ابنه .

وسرّ لحظات برميّه في الهواء ، عالياً جداً ، ليتلقاه بطرف يديه .

- ستقتله آه ! يا إلهي ! إنه هذا الأمر ! صرخت السيّدة أرنو .

لكن أرنو أقسم أن لاخطر ، فأكمل وزأراً بمداعبات باللهجة المرسليّة ، لغته الأصليّة . « آه ! حمامة شجاعة ، عندليبي الحبيب ! » ثم سأل فريدريك لم لم يكتب إليه طوال تلك المدة ، ماذا عمل هناك ، وما أرجعه .

- أنا الآن يا عزيزي تاجر خزفيات . لكن لتحدّث عنك ! أفاض فريدريك في الحديث عن صحة أمّه ؛ علّق على الأمر أهميته كبرى ليجعل نفسه مهمّاً . باختصار ، سيقطن باريس ، نهائياً هذه المرة ؛ وما ذكر شيئاً عن الميراث ، خوفاً من الإساءة إلى ماضيه .

كانت الستائر ، مثلها مثل الأثاث ، من صوف كستنائي مزخرف ، وسادتان تلامسان المسند ؛ سخّانة على النار ؛ وكَمّة المصباح ، الموضوع خزانة صغيرة تجعل الشقة مظلمة نوعاً . ترتدي السيّدة أرنو مبذلاً ، من صوف المرينوس^(١)، أزرق . نظرها إلى النار ، ويدّها على كتف الطفل ، وبالأخرى تفكّ رباط صديريّته . هوييكي ، حاكاً رأسه ، كما ألكسندر الإبن . كان فريدريك ينتظر تشنّجات فرح ؛ - لكنّ العواطف تذوي حين تتغرّب بها ، وبدت له السيّدة أرنو ، لكونه لم يرها في الوسط الذي عرفها فيه ، كأنها فقدت شيئاً ، كأنها تقهقرت بغموض ، أخيراً ، بدت هي نفسها . هدوء قلبه أذهله . استخبر عن الأصدقاء القدامى ، ومن بينهم بيلران .

- لا أراه كثيراً ، قال أرنو .

أضافت :

- بتنا لا نولم ، كما من زمان !

هل هذا لإعلامه بأنه لن يُدعى ؟ لكنّ أرنو تابع حديثه الحميم ، ولامه لأنه لم يأتٍ للعشاء معهم ولو بدون إعلامهم . وشرح لماذا هو أبذل تجارتهم .

- ماذا تريد أن تفعل في فترة انحطاط كفّرتنا هذه ؟ الرسم العظيم انتهى ! على كلّ ، نستطيع بتّ الفنّ أينما كان . تعرف ؟ أحبّ أنا الجمال ! يجب أن أصطحبك ، مرة ، إلى مصنعي .

(١) غنم إسباني .

وأراد أن يظهر له ، للحال ، بعضاً من إنتاجه في محله في الطابق الأول .

تنتشر الأطباق على الأرض ، مع الحسائيات ، والصحون والأحواض . على الجدران ، علقت مربعات عريضة من بلاط للحمامات ولغرف الزينة ، مع تماثيل ميتولوجية ، من طراز عصر النهضة ، بينها ، في الوسط ، خزانة رفوف مزدوجة ، تصل حتى السقف ، فيها كؤوس للبوطة ، آنية زهور ، شماعات ، أحواض صغيرة ، وتماثيل كبيرة متعددة الألوان ، تمثل عبداً أو راعية . . . أشياء أرنو أضجرت فريدريك الذي كان برداناً وجائعاً .

ركض إلى المقهى الإنكليزي ، تعشى عشاء دسماً ، وراح يفكر ، وهو يأكل :

« كنت مرتاحاً ، هناك ، مع آلامي ! بالكاد عرفتني ! يا لها من بورجوازية ! »

وبقوة فجائية اتخذ قرارات أنانية . أحس قلبه قاسياً مثل الطاولة حيث يسند كوعيه . إذن ، فهو الآن يستطيع الارتقاء ، وسط العالم ، بلا خوف . أتته فكرة آل دمبروز . سيستعملهم ، ثم تذكر ديلورييه . « آه ! بالواقع ، تبالة ! » مع ذلك ، فقد أرسل إليه ، مع موظف ، رسالة قصيرة يواعده فيها ، غداً في « الباليه - رويال » كي يتغديا معاً .

ما كان ديلورييه ميسوراً .

كان تقدّم إلى مسابقة شهادة الأستاذية بأطروحة عن حقّ

الوصية ، فيها يترافع عن وجوب حصره بقدر ما يمكن ؛ - ؛ إذ دفعه خصمه لقول حماقات ، فقد أتى منها الكثير من دون أن يندم الفاحصون . ثم شاء الحظ أن يسحب بالقرعة موضوع أمثولة التقادم^(١) ؛ حينها انطلق ديلوريه في نظريات ضعيفة ؛ الاعتراضات القديمة يجب أن تكون لها قيمة الجديدة ؛ لماذا يُحرّم المالك من ملكه لأنه لا يستطيع تقديم مستنداته إلّا بعد انقضاء إحدى وثلاثين سنة ! يريد أن يعطي ضماناً للرجل النبيل لا للصّ الذي اغتفر . كلّ الظلامات كرسها امتداد هذا القانون ، وهو ظلم ، تعشق القوة ! حتى إنه صرخ :

- لنلغه ! ولن يثقل الفرنسيون على الغاليين ، ولا الانكليز على الايرلنديين ، ولا اليانكيون على الهنود الحمر ، ولا الأتراك على العرب ، ولا البيض على السود ، بولونيا . . . قاطعه الرئيس :

- حسناً ! حسناً ! سيدي ! ليس علينا إلّا الأخذ بآرائك السياسية ، ستتقدّم في ما بعد !

ما كان أراد ديلوريه التقدّم . لكن هذا الشقي ، العنوان ٢٠ من الفصل الثالث من القانون المدني كان صار ، بالنسبة إليه ، جبلاً - عقبة . فراح يعدّ مؤلفاً كبيراً حول « التقادم ، معتبراً كأساس للقانون المدني وللقانون الطبيعي للشعوب » . وضاع بدينو وروجاريوس ، وبالبوس ، وميرلان ، وفازاي ،

(١) حق اكتساب بمرور الزمن .

وسافيني ، ونرويلونغ وقراءات أخرى كثيرة . ليشعر بنفسه مرتاحاً أكثر ، استقال من منصبه ككاتب أوّل . كان يعيش من إعطائه دروساً ، من وضعه أطروحات ؛ وفي جلسات تمارين الخطابة ، يخيف ، كان ، بحدّته ، الحزب المحافظ ، كل الشباب العقائديين المتحدّرين من السيّد غيزو ، حتى أنه كانت له شهرة في عالم ما ، ممزوجة بحذر منه .

وصل الموعد مرتدياً سترة ضخمة مبطنه بالفلانيلّ الحمراء ، كالتّي كانت ، قديماً ، لسينيكال .

ما استطاعوا التعانق طويلاً بسبب الجمهور الذي كان يمرّ وذهباً عند فيفور ، متخاصرين ، ضاحكين فرحاً ، مع دمعة في عمق عيونها . ومنذ صارا وحدهما ، هتف ديلورييه :

آه ! سعادوها جميلة ، الآن !

ما أحبّ فريدريك هذه الطريقة الفجائية للارتباط بشوته .

أظهر صديقه فرحاً كبيراً لكلّيهما ، وليس به وحده .

ثم روى ديلورييه رسوبه ، وشيئاً فشيئاً أعماله ، حياته ، متحدّثاً عن ذاته بعزم وعن الآخرين بمرارة . ما كان يعجبه شيء . ولا رجل في مركز إلّا وهو أبله أو نذل . غضب على صبي المطعم لكأس سيّئة الشطف ، وردّاً على ملامة بسيطة من فريدريك قال له :

- كأنني سأزعج نفسي إرضاء لهكذا . أشخاص ، يربحون

منك حتى ستة وثمانية آلاف فرنك في السنة ، وهم ناخبون وربما منتخبون ! آه ! كلاً ، كلاً !

ثم ، بمظهر بشوش :

- لكنني نسيت أني أتحدث إلى رأسمالي ، إلى موندور^(١)، إذ إنك موندور ، الآن ! وعاد إلى التركة ، وعبر عن هذه الفكرة : أن الميراث الجانبي (أمر غير عادل في ذاته ، بالرغم من أنه مغتبط به) سوف يلغى في يومٍ ما ، في الثورة القادمة .
- تظن ؟ قال فريدريك .

- ثو بهذا ! أجب . هذا لن يتأخر ! نعاني كثيراً ! حين أرى في الفقر أشخاصاً مثل سينيكال ...
« دائماً هذا السينيكال ! » فكر فريدريك .
- هل من جديد ، بعد هذا ؟ أما تزال عاشقاً للسيدة أرنو ؟ لقد انتهى ذلك ، أليس كذلك ؟
أغمض فريدريك عينيه ، خافضاً رأسه ، لا يدري ماذا يجيب .

بخصوص أرنو ، أخبره ديلورييه أن جريدته تخصّص ، الآن ، هيسوتيه الذي حوّلها . صار اسمها : « الفن : مؤسسة أدبية » ، شركة مساهمة ، كل سهم بمئة فرنك ؛ رأسمالها : أربعون ألف فرنك « مع إمكان كل مساهم تحسين صورته ؛ لأن « هدف الشركة طبع مؤلفات المبتدئين ، وتجذب المواهب ، وربما العباقرة ، المصائب الأليمة التي تحقق القرائح الخ ... ترى النكتة ! » مع ذلك فهناك شيء للعمل ، رفع أسلوب الجريدة ،

(١) مشعوذ من القرن السابع عشر جمع ثروة لا بأس بها .

ثم مع الاحتفاظ بالمحرّرين أنفسهم ومع الوعد بتتمة المجموعة ،
 خدمة المشتركين بجريدة سياسية ؛ السلفات لن تكون ضخمة .
 - هيا ، ماذا ترى ؟ أتريد الإشتراك ؟
 ما رفض فريدريك العرض ، إنّما يجب تركيز أعماله قبل
 ذلك .

- إذن ، إذا كنت بحاجة لشيء . . .
 - شكراً ، يا عزيزي ! قال ديلوريه .
 ثم راحا يدخنان متكئين على لوحة من مخمل ، على حدود
 النافذة . كانت الشمس تلمع ، والهواء ناعماً ، ورفوف العصافير
 تحوّم في الحديقة ؛ تماثيل البرونز والمرمر ، مغسولة بالمطر ،
 تتلأأ ؛ خادمتان بمراييلهن يتحدّثن جالسات على كراسي ؛
 وتُسمع ضحكات أطفال ، مع الهمس الدائم تحدّثه نافورة المياه .
 أحسّ فريدريك نفسه مكثراً بمرارة ديلوريه ؛ إنّما بتأثير
 الخمر الصاخب في العروق ، ما كان يشعر إلاّ بحالة سعادة ،
 بليدة التلذذ ، كنبته مكتفية بالحرارة والرطوبة ، نصف نائم ،
 مخدّراً ومتقبّلاً الضوء بملء وجهه . ديلوريه ، جفناه نصف
 مطبقين ، ينظر إلى البعيد ، بحيرة . تنهّد وطفق لنا يقول :
 - آه ! كان أجمل ، حين كان كميل دي مولان ، واقفاً
 هناك على الطاولة يدفع الشعب على الباستيل ! يحيون ، كانوا ،
 ذلك الزمن ، يؤكّدون ذواتهم ، قواهم ! محامون صغار أمروا
 قادة ، حفاة خلعوا ملوكاً ، بينما الآن . . .
 صمت . ثم ، فجأة :

- عجباً ! المستقبل كبير !
 وقال هذه الأبيات من برتيلمي ، وهو يدقّ على الزجاج :
 « ستعود إلى الظهور تلك الجمعية الرهيبة التي منها ، بعد
 أربعين سنة ، رأسك يدوخ .
 جبّارة تمشي بخطى واثقة بلا خوف » .
 - لا أعرف البقيّة ! لكنّ الوقت متأخر ، لو نذهب !
 وأكمل ، في الشارع ، عرض نظريّاته .
 راح فريدريك ، من غير أن يستمع إليه ، يراقب في
 واجهات المتاجر الأقمشة والمفروشات الملائمة لسكنائه ؛ وربما هي
 فكرة السيّد أرنو ، ما جعله يقف عند بسطة تاجر سِقْط ، أمام
 صحن خزفية مزخرفة ثلاثة . مزدانة ، كانت ، بزخارف عربية
 صفراء ، بلمعان معدني ، ه الصحن منها بمئة قرش . وضعها
 جانباً .
 - لو كنت مكانك ، قال ديلورييه ، كنت أشتري فضيّة ،
 كاشفاً بحبّه للأشياء الفاخرة أصله الرهيف .
 مذ صار وحده ، ذهب إلى بوما دير الشهير ، حيث أوصى
 على بناطلين ثلاثة ، وثوبين ، وعباءة مبطنّة بفرو ، وسترات
 خمس ؛ ثم إلى صانع أحذية ، فصانع قمصان وصانع برانيط ،
 طالباً إليهم جميعاً أقصى السرعة في التنفيذ .
 بعد أيام ثلاثة ، عند عودته من هافر ، وجد خزائنه
 مלאى ؛ وقرر ، في استعجاله اللبس منها ، زيارة فوريّة لآل
 دمبروز . لكن الوقت مبكّر ، فما كادت تصير الثامنة .

« لو أذهب إلى الآخرين ؟ » قال في ذات .
 وحيداً ، أرنو ، أمام المرأة يخلق . عرض عليه أخذه إلى
 موضع فيه يريح ، وعلى ذكر السيد دمبرز :
 - آه ! هذا حسن ! سترى هناك بعضاً من أصدقائه ؛
 تعال ! ستكون سهرة غريبة .
 راج فريدرىك يقدم الأعدار ، عرفت صوته السيدة أرنو ،
 فحيته من وراء الفاصل ، لأن ابنتها متوعدة ، وهي متأللة ؛
 ويسمع ضجيج ملعقة على كأس ، وحفيف أشياء بلطف يجركونها
 في غرفة مريض . ثم اختفى أرنو ليودع امرأته . يكدس الحجاج ،
 كان :

- تعرفين جيداً أن الأمر جدي ! يجب أن أذهب ، بحاجة
 أنا إلى ذلك ، ينتظرونني .
 - إذهب ، إذهب ، يا صديقي . إله !
 نادى أرنو من بعيد عربة خيل :
 - باليه - رويال ! صالة عرض مونبسييه ، ٧ .
 ومتراخياً على الطنافس :
 - آه ! كم اني متعب ، يا عزيزي . أكاد أتهاوى . عدا
 ذلك ، سأصارحك أنت . مال إلى أذنه ، وسراً :
 - أبحث لأجد أحر النحاس - المعروف عند الصينيين .
 وشرح ما هو الطلاء والنار الخفيفة .
 وإذ وصل عند شيفيه ، أعطوه سلّة حملها معه في العربة .
 ثم انتقى لزوجته « المسكينة » عنباً ، أناناس ، ومأكولات لطيفة

أخرى ، وطلب أهْ تُحْمَلْ إليها في الغد الباكر .
 انطلقا ، بعد هذا ، إلى صانع ألبسة مسرحية . فالأمر
 يتعلّق بحفلة تنكرية . أخذ أرنو سروال غمّل أزرق ، وسترة
 مشابهة ، وشعراً مستعاراً أحمر ، وفريدريك دومينو^(١) . نزلا شارع
 لافال ، أمام بيت مضاء في الطابق الثاني بفوانيس ملوّنة .
 يُسَمَّع ضجيج الكمنجات ، من أسفل الدرج .
 - يا للشيطان ! إلى أين تصطحبني ؟ قال فريدريك .
 - إنها فتاة طيبة ! لا تخف !
 فتحت لهما الباب وصيف ، فدخلوا غرفة الانتظار ، حيث
 مرمية كدسات ، من سترات ومعاطف وأوشحة ، على كراسٍ .
 تقدّمت امرأة بزي خيال من زمن لويس الخامس عشر . إنها
 الأنسة روز - أنيت برون ، سيّدة المكان .
 - وبعد ؟ قال أرنو .
 - فُضي الأمر . أجابت .
 - آه ! شكراً يا ملاكي !
 - وأراد أن يقبلها .
 - إحذر يا غبيّ ستُفسد زيتي !
 قدّم أرنو فريدريك .
 - أدخل وافرح ، سيّدي ، أهلاً وسهلاً !
 فتحت باباً وراءها ، وراحت تصرخ بتفخيم :

(١) لباس التفتّح .

- السيد أربو ، وأمير من أصدقائه !
 دُهل فريدريك أول الأمر ، من الأضواء . ما رأى سوى
 الحرير ، والمخمل ، والأكثاف العارية ، وكتلة من الألوان تتمايل
 على أنغام أوركسترا مخبئة وراء الإخضرار ، بين الحيطان الممدودة
 بالحرير الأصفر ذي رسوم بالباستيل بين مكان وآخر ، وشماعدين
 كبيرة كريستالية من طراز لويس السادس عشر . لمبات عالية كراتها
 غير مصقولة تشبه كرات الثلج ، تشرف على سلال أزهار موضوعة
 على مناضد مزخرفة في الزوايا ؛ وفي المقابل ، بعد غرفة ثانية
 صغيرة ، كنت تلاحظ في ثالثة ، سريراً ذا أعمدة حلزونية ،
 بجانبه مرآة من البندقية .

توقف الرقص ، وعلا تصفيق وضجيج فرح عند مرأى أربو
 متقدماً وسلته على رأسه ؛ الأطعمة كانت تؤلف حلبة في
 الوسط . - « حذار الثريا ! » رفع فريدريك عينيه : إنها الثريا المن
 خزف سكسوني قديم الكانت تزين محل « الفن الصناعي » ؛
 مرت بباله ذكرى الأيام القديمة ؛ إلا أن جندي مشاة في لباس
 بسيط ، عليه إمارات البلاهة التي يذكرها التقليد للمجندين ،
 انزعج أمامه رافعاً يديه علامة التعجب ؛ فعرف فيه صديقه القديم
 هيسونيه ، رغم الشارين الأسودين المخيفين الحادي التروس
 يشوهانه . أثقله البوهيمي بالتهاني ، ببريرة نصف ألزاسية
 ونصفها الآخر زنجي ، منادياً آياه بكونولنيله . فريدريك ،
 المشوش بكل هؤلاء الأشخاص ، لم يعرف ما يجب . وإذ عادت
 من جديد الموسيقى ، قام الراقصون و الراقصات إلى الرقص .

حوالى الستين شخصاً كانوا . غالبية النساء في زي
 قرويات أو مركزيات ، والرجال ، وأكثرهم في سنّ المضج في
 البسة سائقي العجلات ، أو حمالي المرفأ أو البحارة .
 حاذى فريدريك الحائط وراح يتأمل حلبة الرقص أمامه .
 شيخ جميل مرتد كقاضٍ أول في محكمة البندقية ، بسيمار
 طويل من حرير أرجواني ، يرقص مع السيّدة روزانيت التي كانت
 ترتدي ثوباً أخضر ، سروالاً صوفياً وجزمة لينة بمهاميز ذهبية .
 الثنائي المواجه كان مؤلفاً من أرناؤ وطيّ محمّل سيوفاً تركية محدّبة
 وسويسرية ذات عينين زرقاوين ، بيضاء مثله ، سمنية كسماني ،
 بقميص فضفاضة ومخصّر أحمر . وامرأة شقراء كبيرة هي ممثلة بكاء في
 الأوبرا ، تزيت بزى امرأة متوحشة لتلفت الانتباه إلى شعرها
 المنسدل حتى مابض ركبتيها ؛ وغير قماطها الأسمر اللون ليس
 عليها سوى تنورة جلدية ، دمالج زجاجية ، وإكليل من بريق
 خدّاع ترتفع منه رزمة ريش طاووس . أمامها ، واحد ، على
 طريقة بريشار ، بلباس غريب أسود واسع جداً ، يعين النغم
 بكوعه على نافذته . راع صغير أزرق صاف وفضي كما ضوء
 قمر . يصدم عصاه بمزراق على رأس كاهنة باخوس ذات تاج من
 عنب ، على جنبها الأيسر جلد فهد وأخفاف قديمة كانت للممثلين
 بشرائط مذهبة . في الجهة الأخرى ، بولونية بستره قصيرة مخملية
 برتقالية ، تميل تنورتها الشفافة على جواربها الحريرية ذات اللون
 الرمادي اللؤلؤي ، المضمومة بجزمة وردية مزترّة بفرو أبيض .
 تبسم ، هي ، لأربعينيّ ذي بطن متنكّر بلباس صبيّ الجوقة ،

ويقفز عالياً ، رافعاً ، بيدٍ درعه ، وممسكاً ، بالأخرى ، قلنسوته الحمراء . لكنها الملك ، النجمة ، إنما كانت الأنسة لولو ، وهي راقصة شهيرة في حفلات الرقص العامة . بما هي غنيّة ، الآن ، فإنها تضع طوقاً من دانتيلاً على سترتها المخملية ؛ وبنطالها الحريري العريض ذو اللون الأحمر الورديّ ، لاصقاً بالردف ومزموماً على خصرها بوشاح كشمير ، له ، على امتداد درزته زهور كاميلية طبيعية بيضاء ، صغيرة . تبدو سحتها الشاحبة ، المتورمة قليلاً وذات الأنف الخانس ، أكثر وقاحة بتشعث شعرها المستعار حيث تضع قبعة رجالية من لبد رمادي ، مائلة فوق الأذن اليمنى ؛ وفي القفزات التي تقفزها ، كان حذاؤها الخفيف الزرد الألماسي ، يكاد يلامس أنف جارها ، بارون ضخّم من القرون الوسطى ، مقبّد بشكّة حديدية . هناك أيضاً ملاك ، سيف ذهبي في اليد ، جناحاً إوز عراقيّ على الظهر ، يروح ويحيي ، مضيقاً ، كلّ لحظة ، مراقبه ، بزّي لويس الرابع عشر ، لا يفهم شيئاً في الوجوه ويشوّش الرقص .

وهو ينظر هؤلاء الأشخاص ، أحسن فريدريك بتخلّ ، بضيق . ما زال يفكر في السيّد أرنو ، وبدا له أنه يشارك في شيء عدائي مدبر ضدها .

عندما انتهت الرقصة ، دنت منه السيّد روزانيت . كانت تلهث قليلاً ، وواقية عنقها المصقولة كما مرآة ، ترتفع ، بلطف ، تحت ذقنها .

- وأنت ، سيّدي ألا ترقص ؟

اعتذر فريدرىك ، ما كان يعرف أن يرقص .

- حقاً ! ولكن معي ؟ طبعاً تعرف !

وعلى رجل واحدة ، الأخرى منحنية قليلاً ، وقفت تداعب
بيدها رمانة سيفه اللؤلؤية ، وتأملته دقيقة ، نصف متوسلة ،
نصف ساخرة . قالت أخيراً : « طبت مساء ! » ، استدارت
واختفت .

طفق فريدرىك ، متزعجاً من ذاته ، غير عارف ما يعمل ،
يدور في الحفل .

دخل صالون السيدات الصغير ، المبطن بالحرير الأزرق
الباهت ، مع باقات من أزهار الحقول ، بينما في السقف ، وفي
دائرة من خشب مذهب ، رسوم حب ، ضافية في سماء صافية
الزرقة ، تلهو كالأطفال على غيوم بشكل زغب . هذه الأناقات
التي قد تكون اليوم لروزانيت سخافات ، أذهلته . وأعجب بكل
شيء : الزهور الأرجوانية الأصطناعية تزين دائر المرأة ، ستائر
المدفأة ، الأريكة التركية ، وفي تجويف في الحائط ، نوع من خيمة
منسوجة بحرير وردي ، مع موسلين أبيض . أثاث أسود مرصع
نحاساً يفرش غرفة النوم ، حيث يقوم ، على منبر مغطى بجلد
إوز عراقي ، السرير الكبير ذو القبة وذو ريش النعام . دبابيس
رأس من جواهر مركزة في مدبسات ، خواتم على صوان ، حل
مرصعة ذوات دوائر مذهبة ، وعلب حل فضية ، كلها ، ترى
كانت ، في العتم ، بضوء تفيضه جرة من نوع « بوهام » ، معلقة
بثلاث سلاسل قصيرة . يلاحظ ، كذلك ، من خلال فتحة باب ،

دفينة تملأ كل عرض سطح ، وفي نهايتها مطيرة في الطرف الآخر .
إنه مكان للتسلية . وفي نزوة مفاجئة من شبابه ، أقسم أن
يستمتع ، تجراً ؛ وإذ عاد إلى مدخل الصالون ، حيث ازداد
الناس (كل شيء يتموج بذوروية مضيئة) ، ظل واقفاً يتأمل
الحلبة ، رافاً عينيه ليرى أحسن ، - ومتشققاً أريج النساء الذي
كان يدور كقبلة هائلة منتشرة .

إنما بالقرب منه ، في الجهة الأخرى من الباب ، يقف
بيلران ؛ - إنه في زينة متكاملة ، يده اليسرى في صدره وممسكاً ،
باليمنى ، إلى قبعته ، قفازاً أبيض ممزقاً .

- عجباً ! مرّ زمن طويل ولم نرك ! أين كنت ؟ في رحلة إلى
إيطاليا ؟ أمدهشة كما يقولون ؟ أم هي مبتذلة ؟ لا فرق ! هل
ستأتي بمخططات رسومك في يوم ما ؟ ومن غير أن ينتظر
جوابه ، راح الفنان يتحدث عن حاله .

كان قد تقدّم كثيراً بعدما عرف ، نهائياً ، حماسة النسق
يجب ألا ننقب كثيراً عن الجمال والوحدة في اللوحة ، بل عن
الشخصية والتنوع .

- لأن كل شيء موجود في الطبيعة ، إذن كل شيء
شرعي ، لين . فقط ، يلزم التقاط الإشارة . اكتشفت السر !
وكرر مرّات وهو يلكره بكوعه : - اكتشفت السر ، تلاحظ أنت !
هكذا ، أنظر هذه المرأة الصغيرة ذات التسريحة الشبيهة بأبي
الاهول ، إلهي ترقص مع حوذي روسي ، هذا صاف ، جاف ،
ثابت ، كله مستعرض وذو نبرات فجّة : أزرق نيلي تحت

العنين ، صفيحة قرمزية على الخد ، سخيم على الصدغين ؛
طق ! طق !

وراح يرمي في الهواء ، باهامه ، ما يشبه ضربات الريشة .
- بينما الضخمة ، هناك ، تابع دالاً على السماكة ، ذات
التوب ذي اللون الكرزي بصليب ذهبي في العنق وخمار مقصّب
معقود على الظهر ، - لا شيء إلا استدارات ؛ المخاران دهبان
كأجنحة طاقيتها ، زاويتا فمها تنفرجان ، ذقنها تنخفض ،
كل ما فيها بدين ، غير واضح ، غزير ، هاديء ومشع ،
ريتنز حقيقي ! مع ذلك هن كاملات ! أين المثال إذن ؟ -
اغتاظ . - من هي المرأة الجميلة ؟ ما هو الجمال ؟ آه ! الجمال !
تحدّده لي . . .

قاطعة فريدريك ليعرف من هذا البزيّ بيارو ، ذو الجانب
الشبيه بالتيس ، وهو يبارك كل الراقصين مغنياً أغنية رعيوية .
- لا شيء ! إنه أرمل ، أب لصبيان ثلاثة . يتركهم من
دون سراويل ، يمضي حياته في النادي ويضاجع الخادمة .
- وهذا المتنكر بشباب مشرف ملكي ، المتحدّث في فتحة النافذة
إلى « المركيزة بوميادور » .

- المركيزة هي الآنسة فانداليل ، ممثلة قديمة في الجيمناز عشيقة
« القاضي » ، الكونت دويالازو . من عشرين سنة هما معاً ، ولا أحد
يعرف لماذا . هل كان لها عيتان جميلتان هذه المرأة ؟ وبالنسبة إلى
الشخص ، قربها ، يسمّونه العقيد هيريبيني ، ليس له كثرة إلا
صليب الشرف ومعاشه ، يخدم كعمّ للشابات المرحات في

الاحتفالات ، ينظم المبارزات ويتعشى في المدينة .

- هل هو وغد ؟ قال فريدريك .

- لا ! انه رجل شريف !

- آه !

سمي له الفنان آخري ، وحين رأى سيداً يرتدي مثل أطباء مولير ، ثوباً أسود من نسيج صوفي متين ، لكنه شقوق من أعلى إلى أسفل ليظهر كل حلته ، قال :

- هو يمثل الدكتور دوروجيس ، ساخطاً لأنه ليس شهيراً

كتب كتاباً إباحياً في الطب ، يتملق الناس . وهو كئوم تعبده هؤلاء النسوة . يتجرجر ، هو وامرأته (هذه الهزيلة الكستنائية بثوب رمادي) ، في كل الأماكن العامة وفي سواها . برغم العمل ، حصلت عندهما حفلات شاي فنية يقال فيها شعر .

- احترس !

بالفعل تقدم منها الطبيب . وألفوا ، معاً ، عند مدخل الصالون ، جماعة متحدثين ، وانضم إليهم هيسونيه ثم حبيب المرأة « المتوحشة » ، وهو شاعر شاب ، متفاخر ، بمعطف قصير على طريقة فرنسوا الأول ، وأخيراً ، انضم شخص متكرر بزي تركي من رجال الجمارك . لكن سترته ذات الشارات الصفرة ، كانت تنقلت على ظهر أطباء الأسنان المتجولين ، وينطلونه العريض ذو الثنية أحمر أجرد ، عمامته ملتفة ، كأنقليس ، على الطريقة التترية بمظهر مسكين ، كل ثوبه المحزون جعل النساء لا تخفي الاشمزاز . عزاه الطبيب بمديح كثير عن « جمالة الميناء » عشيقته . هذا التركي كان ابن صاحب مصرف .

اتجهت روزانیت ، بین مربّعی رقص ، إلى المدفأة ، حيث يستلقي ، في كرسيّ مريح ، عجوز قصير بدین ، بثياب كستنائية أزواره مذهّبة . يبدو مرحاً ، بالرغم من خدّيه الرخوين المتدلّين على ربطة عنقه البيضاء وشعره الأشقر المتجعّد طبيعياً كوبر كلب جعید . استمعت إليه ، مائلة نحو وجهه ، ثم هيأت له كأس شراب ، ما كان شيء أكثر نعمة من يديها تحت كميتها اللذين من دانتيل والذين يتجاوزان زخارف النوب الأخضر . بعدما شرب الرجل الطيّب ، قبلهما .

- إنه السيد أودري ، جار أرنو !

قال بيلّان ضاحكاً : لقد فقدته !

- كيف ؟

حوذني أخذها من خصرها ، وابتدأت رقصة فالس . حينها ، نهضت كل النساء برشاقة . وابتدأت تنانيرهنّ وأوشحتهنّ وقبعاتهنّ تدور .

كنّ يدرن قربه ، حتى انه يرى نقاط العرق على جباههن . - وهذا الدوار المتزايد والمتناغم ، المدوّخ ، الباث في باله نوعاً من السكر ، يثير فيه صوراً أخرى ، بينها هنّ ، جميعاً ، لهنّ الانبهار ذاته ، ولكل منهن إثارة مميّزة حسب نوع جمالها . « البولونية » التي كانت مستسلمة بشكل منحط ، أثارت فيه الرغبة بضمها إلى صدره ، منسحجين معاً في مركبة جليد فوق سهل مغطّى بالثلج . وتحت خطي « السويسرية » التي كانت ترقص وجذعها مستقيم وأجفانها مطبقة ، كانت تدور آفاق لذة حسية هادئة في شاليه على ضفاف بحيرة . ثم ، فجأة ، إذأحنت كاهنة باخوس ، إلى الوراء ، رأسها الأسمر ، جعلته

يحلم بمداعبات نزقة في غابات دفل في زمن عاصف ، على ضجيج
طبلا متشابك . أما « السمّانة » التي كان النغم السريع يتبعها ،
فنتضحك عالياً ؟ وأراد لو يشرب معها حتى الانطفاء ، داعكاً خمارها
بملء يديه ، كما في الزمن السحيق الجميل . لكنّ حمالة الميناء ،
الأصابعها رشيقة بالكاد تلامس الأرض ، فبدت تحبّ في ليونة
أعضائها ورصانة وجهها كل لباقات الحب الحديث ، الذي له صحة علم
وتحرّك عصفور . روزانيت تدور ، يدها على خصرها ، شعرها
المستعار القافز على رقبتها ، ينشر حوالها مسحوق السوسن . وفي كل
دورة لها ، في نهاية مهامها الذهبية ، ما استطاعت إيقاع فريدريك في
فخها .

عند آخر تساقولرقصة الفالس ، ظهرت الأنسة فاتناز ، على
رأسها محرمة جزائرية ، قروش كثيرة على جبينها ، كحل على عينيها ،
مع سترة من كشمير أسود تصل حتى تنورة صافية ، مفضضة ، وفي يدها
دف من الباسك .

وراءها يسير صبي كبير ، في ثوب دانتي الكلاسيكي ، وهو (ما
كانت تخفي ذلك الآن) المغني القديم في « الالهامبرا » ، - واسمه
أوغيسست دولامار ، كان تسمي أولاً أنتينور ديلا مار ثم دكاس ، ثم
بنمار وأخيراً دكار ، مغيراً ومحسناً اسمه ، حسب شهرته المتنامية ، لأنه
ترك الجوقة الصاخبة إلى المسرح ، ومن قريب بدأ ، بضجة في مسرح
« الأميغو » بملودراما : « غاسباردو الصياد » .

إذ رآه هيسونيه اكفهّر . مذ رُفضت مسرحيته صار يكره
الممثلين . خيلاء هؤلاء السادة لا تتصوّر ، وهذا بخاصة ! - « ياله من

مدّع» !

حيّاً دلمار روزانیت ثم استند على المدفأة . وثابتاً بقي ، يد على القلب ، الرجل اليسرى إلى الأمام ، العينان في العلاء ، مع تاجه الذي من غار مذهب فوق اسكيمه ، مجتهداً في أن يجعل نظرتة مملوءة شعراً لسحر النساء . تحلقوا في دائرة كبيرة حوله .

لكنّ الأنسة فاتناز ، بعدما عانقت روزانیت طويلاً ، جاءت تتوسّل هيسونيه لأن يعيد النظر في أسلوب كتاب تربية تريد طبعه وهو كتاب أدب وأخلاق . وعد رجل الأدب بذلك . حينها سألته إذا كان لا يستطيع في واحدة من الجرائد التي يصل إليها ، أن يمدح قليلاً صديقها وأن يقدّم له دوراً في ما بعد ونسي هيسونيه أن يشرب كأس « ينش » .

كان أرنو صنع هذا الشراب ، وراح يقدّمه ، بلذّة إلى الناس ، يتبعه وصيف الكونت حاملاً صينية فارغة .

وعندما جاء ليتجاوز السيّد أودري ، أوقفته روزانیت

- وبعد ، ما هذا العمل ؟

احمرّ قليلاً ، وأخيراً قال الرجل :

- تقول صديقتنا انه سيكون لك فضل . . .

- كيف لا يا جار ! كله لك .

ولفّظ اسم السيّد دمبرز ؟ وبما أنهم كانوا يتحدثون بصوت منخفض ، لم يسمعه فريدريك بوضوح ، فحمل نفسه إلى الزاوية الأخرى من المدفأة حيث روزانیت ودلمار يتحدثان .

كان للمثل الفاشل مظهر خشن ، مصنوع ، مثل ديكور

المسرح ، ليراه الناس من بعيد : يدان ضخمتان ، رجلان كبيرتان ، فكّ ثقيل . كان يغتاب الممثلين الأكثر شهرة ، يتحدث ، متعالياً ، عن الشعراء ، كان يقول : « عضوي ، بنيتي الجسدية ، وسائلي » ، مزخرفاً حديثه بكلمات قليلة الوضوح بالنسبة إليه ذاته ، وهو يفضلها من مثل : « مماثل ، تجانس ... » .

تستمع إليه روزانيت وتمز رأسها استحساناً . كنت ترى الاعجاب ظاهراً تحت حمرة خديها ، وشيء ما رطب يمرّ كحجاب في عينيهما الصافيتين اللتين لا يتحدّد لونهما . كيف يفتنها رجل كهذا ؟ وراح فريدريك ، في أعماق ذاته ، يحاول احتقاره أكثر .
الآنسة فاتناز ، هي الآن مع أرنو . وتنظر ، بين وقت وآخر ، وهي تضحك عالياً ، إلى صديقته التي لا يحيد السيد أودري بنظره عنها .

ثم اختفى أرنو والآنسة فاتناز ، وصار الشاب يحادث روزانيت بصوت خافت .

- طيّب ، نعم ، انفقنا ! أتركني وشأني .
وطلبت إلى فريدريك ليرى هل أرنو في المطبخ .
عدد كبير من كؤوس نصف مملأى تغطّي السقفية ؟ والقلّي السريع جارٍ في القدور الكبيرة ، والترسية * والمقلّاة . يأمر أرنو الخدم برفع الكلفة ، يخنق الخردلية ، يذوق الصلصة ، يمازح الخادمة .
- حسناً ، أعلمها ! قال ، سأبدأ الضياقة .

* إناء يطبخ فيه سمك الترس وهو يشبهه .

توقّف الرقص ، عادت النساء للجلوس ، الرجال يتمشّون .
وسط الصالون ، نفخ الهواء واحداً من الستائر المسدلة : والمرأة
« السفكس » ، بالرغم من تنبيهات الجميع ، تعرّص للهواء ذراعيها
العرقانين . أين روزانيت ؟ بحث عنها فريدريك أبعد ، حتى في
صالون السيّدات الصغير والغرفة . كان التجأ ، إلى هناك ، بعضهم
ليكون وحيداً أو اثنين اثنين . يخلط الظل والهمس . ضحكات خافتة
تحت المحارم ، ونلمح ، قريباً من الصدور ، أصوات مراوح ، بطيئة
وحلوة كما خفقات أجنحة عصفور جريح .

وهو يدخل المِصري ، رأى ، تحت أوراق نبتة الكالاديوم
العريضة ، قريباً من نافورة المياه ، دلمار ممدداً على بطنه على أريكة ،
روزانيت ، قريبة منه ، يدها في شعره ، وينظران بعضهما . في اللحظة
عنها ، دخل أرنو من الجهة الأخرى ، جهة المطيرة . نهض دلمار
بقفزة ، ثم خرج بخطى هادئة لا يلتفت وراءه . وحتى ، توقّف قرب
الباب ليقطف زهرة خبيزة جعلها في عروقه . أحنت روزانيت رأسها ،
فلاحظ فريدريك ، الذي كان براها من جانبها ، أنها تبكي .
- عجباً ، ما بك ؟ قال أرنو .

رفعت كتفيها ولم تجب .

- هل بسببه ؟ تابع .

طوّقه بذراعيها ، وقبلته ، على مهل ، في جبينه قائلة :

- تعرف انني أبقي أحبك دوماً . لا نفكر فيه بعد ! هيّا إلى

العشاء !

تثيرثياً ، ذات أربعين شمعة ، الغرفة العالية الجدران المختفية

تحت زخارف قديمه معلقة . وهذا النور الساطع النازل عمودياً يجعل سمكة الترس الضخمة أكثر باصاً بين المقبلات والفواكه وسط شرشف تحيطه صحنون ملاءى بشريدة سلطعونية . راحت النساء تجلس الواحدة قرب الأخرى فيسمع حفيف تنانيرهن وفمصانهن الفضفاضة وأوشحتهن ، والرجال تمرکزوا واقفين في الزوايا . أجلس بيلران والسيد أودري قرب روزانيت ، أرنو في المقابل . بالازو وصديقه خرجا للتو .

- رحلة سعيدة ، قالت ، فلنبداً !

فابتداً « صبي الجوقة » ، وهو رجلى فكه ، صلاة المائدة رأساً إشارة الصليب .

استنكرت السيدات الأمر وبخاصة « السماكة » وهي أم فتاة تربدها امرأة شريفة . أرنو ، كذلك ، « ما أحب هذا » ، قائلاً بضرورة احترام الديانة .

دقت ساعة المانية ، مجهزة بديك ، الساعة الثانية ، فأحدثت ، على الصباح ، مزاحاً وتفكهات . نبع ذلك كل أنواع الأحاديث : توريات ، طرائف ، تبجحات ، مراهنات ، أكاديث تُحسب حقائق ، أقوال بعيدة الاحتمال ، مزيج كلمات ، سرباً ما تناثر وصار أحاديث خاصة . دارت الخمر ، تابعت الأطباق ، فقطع « الدكتور » . وكانوا يتراشقون بليمونه ، بسداة قنيئة ، بعضهم يترك مكانه ليتحدث إلى آخر ، وغالباً ما كانت تستدير روزانيت صوب دلمار ، جامداً وراءها . بيلران يثرثر ، السيد أودري يئنسم . الآنسة فاتناز تكاد تكون وحدها أكلت هرم السلطعون ، وتسمع القوقعة تحت

أضراسها الطويلة . « الملاك » الجالس على مقعد البيانو (هو المكان الوحيد الملائم لجناحيه) ، يعلك بهدوء وانتظام .
- يا للأكل اللذيذ ، كان يردّد « صبيّ الجوقة » مبهوراً ، يا للأكل الطّيب !

وراحت المرأة « السفنكس » تجرع ماء الحياة ، تصرخ بصوت مرتفع ، نهيج كما جني . فجأة ، انتفخ خدّاها ، وإذا ما عادت تستطيع مقاومة الدم الذي كاد يخنقها ، وضعت فوطتها على فمها ، ثم رمتها تحت الطاولة .

رآها فريدريك .

- ليس شيئاً !

وعلى إلحاحه للذهاب والاعتناء بنفسها ، أجابته متمهّلة .

- ماذا ينفع ؟ هذه كسواها ! الحياة ليست طريفة !

حينها ارتجف ؛ أخذته كآبة جليديّة ، كما لو أنه رأى عوالم كاملة من الشقاء واليأس ، موقد فحم قرب فراش ميدان ، وجثث معرض الجثث المجهولة الهوية ، وحنقيّة مياه باردة تسيل على شعرها .
في هذه الأثناء كان هيسّونيّه مقرّصاً قرب « المرأة المتوحشة » ، ناهقاً بصوت مبحوح ليقلّد الممثل غراسو :

- لا نكون متحجرة العاطفة ، يا سيلوتا ! بهيج هذا الاحتفال

العائلي ! أسكريني لذات حسية ، حباً ! فلنمجن ! فلنمجن !

وراح يقبل النساء في أكتافهن . ترتعشن ملسوعات بشاربيه ، ثم رأى أن يكسر صحناً على رأسه ، قلّده آخرون ، وابتدأت قطع الصيني تتطاير كما القرميد في هواء عاصف ، فهتفت « حمالة الميناء » :

- لا تهتموا ! لا تكلف شئاً ! البورجوازي ، صانعها ، بهديا منها !

كل الأعين اتجهت إلى أرنو . أجب :

- آه ! على الفاتورة ، إذا شئت .

مركزاً ، ولا شك ، على ألا يبدو أويبقى عشيق روزانيت .

لكن صوتين غاضبين ارتفعوا :

- غبي !

- بذيء !

- بأمرك !

- بأمرك أنت !

إنه « غيال » الذي من القرون الوسطى و « الحوذني » الروسي يتنازعان . هذا كان قال إن الشكاك* ليست دليل شجاعة ، الآخر اعتبر الأمر شتيمة . أراد المشاجرة ، كلهم تدخلوا ، وراح « العقيد » وسط الصخب ، يحاول أن يسمع صوته .

إسمعوني أيها السادة ! كلمة ! عندي اختبار ، أيها السادة ! وإذ ضربت روزانيت سكينها على كأس ، ران صمت . وقالت وهي تنظر إلى الفارس المحتفظ بخوذته ، ثم إلى الحوذني المعتمر قبعة ذات وبر طويل :

- إنزع ، أنت ، قدرك ! إنها تثيرني ! وأنت ، هناك ، رأسك الشبيه برأس الذئب . أطيعاني ! أنظرا كتفي ! أنا المارشالة !

* مجموع آلات الوقاية العلنية كالدرع والحدوة . . .

توقفت مشاحتها وصقّ الجميع هاتفين :

- لتحيا المارشالة ! لتحيا المارشالة !

عندئذ تناولت قنينة شمبانيا ، وبدت تصب عن عل ، في كؤوس يقدمونها إليها . وبما أن الطاولة عريضة جداً ، كان المدعوون ، والنساء بخاصة ، يأتون إليها واقفين على رؤوس الأصابع ، على قضبان الكراسي ، ممّا أَلَفَ ، لدقيقة ، جماعة هرمية من تسريحات الشعر ، من الأكتاف العارية ، من الأيدي الممدودة ، من الأجساد المائلة . ويتناثر خمر بينهم جميعاً ، لأن « بيارو » وأرنو ، الواقفين في زاويتي الغرفة ، وكلّ منهما يحمل قنينة ، راحا يطرطان الوجوه . عصافير المطيرة الصغار ، وقد ترك بابها مفتوحاً ، اقتحمت الغرفة ، نافرة ، طائرة حول الثريا ، خابطة على الزجاج والأثاث . وغطّ بعضها على الرؤوس ، كأنه زهر عريض في الشعر .

الموسيقيّون كانوا ذهبوا . أتوا بالبيانو من غرفة الانتظار إلى الصالون . جلست إليه الأنسة فاتناز ، يرافقتها « صبيّ الجوقة » ناقرأ دفّاً ، وشرعت تعزف رقصة الكدريل بهيجان ، ناقرة ملامس البيانو كحصان هائج ، متمائلة القامة لتعزف أفضل . اصطحبت المارشالة فريدريك ، هيسّونيه يستدير على ذاته ، « حمالة الميناء » تتصرّف كمهرّج ، « بيارو » يقلّد نوعاً من القردة ، « المتوحّشة » ، ذراعاها مبعدتان ، تترجّح كزورق إنقاذ . وإذ تعبوا ، جميعاً ، توقّفوا ، وفُتحت نافذة .

ودخل الفجر مع نداوة الصباح . خيّمت دهشة ثم صمت . ارتعشت الشعلات الصفراء ، وبين لحظة وأخرى ، تشتطّي

رؤوسها ، وانتثرت على الأرض ، شرائط وأزهار وحبّات لؤلؤ . بقع
« بنش » ومشروب لطّخت المنافذ المزخرفة ، اتّسخت البُسط ،
دُعكت الثياب ، اغبرت ، نزلت الضفائر على الأكتاف ، وأظهر
الماكياج وجوهاً شاحبة ، بعدما سال مع العرق ، وبدت الأعين حمراء
ترفّ .

« المارشالة » كانت ندية ، كحين خروجها من الاستحمام ،
خذاها ورديان ، عيناها لامعتان . رمت ، بعيداً ، شعرها المستعار .
وانهدّ شعرها حواليلها كجزّة لم يعد يرى من ثيابها سوى سرواها مما أحدث
أثراً ساخراً ولطيفاً معاً .

« المرأة السفنكس » ، التي أسنانها تصطك حرارة ، كانت في
حاجة إلى وشاح .

ركضت روزانيت إلى غرفتها لتجيء به ، وإذ تبعها الآخر ،
أقفلت ، بقوة ، الباب في وجهه .

لاحظ « التركي » عالياً أن أحداً لم ير السيّد أودري يخرج . ما
انتبه أحد لهذا الخبث . كانوا متعبين .

ثم ، وهم ينتظرون العربات ، التّفّوا بالرأسيات والمعاطف .
دقّت الساعة . المرأة « الملاك » لا تزال إلى الطاولة أمام مزيج من زبدة
وسردين . و « السماكة » ، قربها ، تدخّن مقدّمة إليها نصائح حول
أمور الحياة والوجود .

وصلت أخيراً العربات الخفيفة ، فانصرف المدعوون . كان
على هيسونيه أن يقرأ ، قبل غدائه ، ثلاثاً وخمسين صحيفة ،
« المتوحّشة » عندها تمرين في المسرح ، بيلران موديل ، « صبيّ

الجوقة « ثلاثة مواعيد . لكن » الملاك « مصابة بعوارض عسر هضم وما استطاعت النهوض . حملها » البارون « القرن متوسطي ، إلى العربية .

- انتبه لجناحيها ! صرخت « حَمَّالة الميناء » من النافذة .
كانوا على قرص الدرج حين قالت الأنسة فاتناز لروزانيت :
- وداعاً ، حبيبتي ! كانت سهرتك لطيفة جداً .
ثم مالت إلى أذنها :
- تحفظي !

- إلى أوقات أفضل ، أجابت « المارشالة » مدبرة ، على مهل .

أرنوو فريدريك معاً عادا كما أتيا . بدا تاجر الخزفيات كامد اللون إلى حد جعل رفيقه يظنه متعباً .
- أنا ؟ أبداً !

وراح يعضُّ شاربه ، يفرك حاجبيه ، فسأله فريدريك إذا كانت مشاغله هي التي تؤرقه .
- أبداً !

ثم فجأة

- أنت تعرفه ، أودري ، أليس كذلك ؟
وبلهجة حاقدة :

- إنه غني ، هذا الوغد العتيق !
بعدها تحدّث أرنو عن طبخة مهمة يجب إنهاؤها الليلة في مصنعه

يريد أن يراها . سيذهب القطار بعد ساعة . « في هذه الأثناء يجب أن أذهب أقبل امرأتي » .

« آه ! زوجته ! » فكّر فريدريك .

ثم نام وألم لا يطاق في رأسه ، وشرب قنينة ماء ليروي عطشه . عطش آخر كان اعتراه ، إلى النساء ، إلى البذخ وإلى كل ما تحمله الحياة الباريسية . أحسّ نفسه ضائعاً إلى حدّ ما ، كرجل ينزل عن بارجة ، وفي رؤيا أول النوم ، رأى تمرّ وتعود ، باستمرار ، كتفا « السمّانة » نهداً « حمالة الميناء » ، فخذاً « البولونوية » شعر « المتوحّشة » . ثم ظهرت عينان سوداوان كبيرتان لم تكونا في الحفلة ، وخفيفتان كفراشات ، ملتهبتان كمشاعل ، تروحان ، تجيئان ، تتموّجان ، تصعدان في الأفريز ، تهبطان حتى فمه . استبسل فريدريك ليعرف هاتين العينين ، ولم يتوصّل . أخذه الحلم ، وبداله أنه مكدون وأرنو إلى عربة خيل وأن « المارشالة » مقرّصة فوقه ، تبقره بمهاميزها المذهّبة .

II

وجد فريدريك ، في زاوية شارع ريمفور ، فندقاً صغيراً ، واشترى ، في وقت معاً ، العربية الخفيفة ، الجواد ، الأثاث وحوضي زهور من عند أرنول يضعهما من جهتي باب الصالون . وتضم شقته غرفة وغرفة منفصلة . رأى أن يسكن معه ديلورييه . ولكن كيف يستقبلها ، هي ، عشيقته ، العتيقة ؟ وجود صديق سيكون محرّجاً . هدم الحائط الذي بين الحجرتين ليوّسع الصالون ، وجعل من الغرفة المنفصلة ، غرفة تدخين .

اشترى مجموعات الشعراء الذين يحبّ ، وكتب رحلات ، أطلس ، قواميس . كانت له تصاميم أعمال لا عدّها ، يستعجل العمال ، يدور على المحلات ، وفي سروره اللامتناهي ، يشتري كل شيء بلا مساومة .

من خلال حساب مقاوليه ، رأى فريدريك أنه سيدفع ، قريباً ، حوالي أربعين ألف فرنك ، عدا رسوم الارث ، وهي تفوق السبعة وثلاثين ألفاً . وبما أن ثروته تكمن في تملك الأراضي فقد كتب إلى كاتب عدل هافر ليبيع منه حصّة بها يتخلّص من ديونه ويكون له مبلغ في تصرفه . وإذا أراد معرفة هذا الشيء المبهم ، اللامع غير المحدّد ، والذي يسمّونه العالم ، سأل ، كتابة ، آل دمبروز ، إذا في وسعهم

استقباله . أجابت السيّدة أنها تنتظر زيارته في الغد .
 كان نهار استقبال . في الساحة عربات متوقفة . أسرع خادمان
 تحت مظلة الباب ، وثالث ، في أعلى الدرج ، راح يمشي أمامه .
 اجتاز غرفة استقبال ، غرفة أخرى ثم صالوناً نوافذ عالية ،
 ومدفاته الهائلة تحمل ساعة كبيرة على شكل كرة مع إناءين من بورسلين
 راعين حيث حزمتا شمعدين تنتصبان كمجموعة جنييات برية
 متداخلة الأغصان ، مذهبة . في الجدران لوحات على غمط الاسباني
 ربييرا ، انسدلت الأسجاف المزخرفة بعظمة ، وللكراسي المريحة ،
 والمنافذ المزخرفة ، والطاولات ، وكل الأثاث الذي من الطراز
 الامبراطوري ، كان لها ، جميعها ، هبة وشيء من ديبلوماسية .
 ابتسم فريدريك ، لذة ، بالرغم منه .
 وصل أخيراً إلى شقة بيضاوية مطلية باللون الزهري الغامق ،
 مليئة بأثاث ناعم ، تضيئها مرآة واحدة تشرف على حديقة . السيدة
 دمبروز جالسة قرب النار ، وحواليها ، على شكل دائرة ، حوالي اثني
 عشر شخصاً . وبكلمة لطيفة ، أشارت إليه بالجلوس ، إنعاماً دون أن
 تبدوا عليها لهفة .

كانوا يمتدحون ، حين دخل ، فصاحة الأب كور . ثم راحوا
 يشتكون من خلاعة الخدم ، بسبب سرقة اقترفها فرّاش ، ودار القيل
 والقال . السيّدة دوسوميري الهرمة كانت مزكّمة ، الأنسة دوتورفيزو
 ستترّوج ، آل مونتشارون لن يعودوا قبل نهاية كانون الثاني ، ولا آل
 برينتكور ، فهم يطيلون ، الآن ، البقاء في الريف . وكأنّ تفاهة
 الأحاديث متعلقة بترف الأشياء المحيطة بهم ، فما يقولون أكثر غباء من

طريقة تحدّثهم ، من دون هدف ، من دون تتابع ، ومن دون حياة . مع هذا ، فهناك أناس لهم خبرة في الحياة : وزير سابق ، خوري رعيّة كبيرة ، اثنان أو ثلاثة موظفين كبار ، يوجدون ، كانوا ، في الأماكن العامة الأكثر ارتياداً . بعضهم يشبه السيّدات المسنّات المرهقات ، آخرون يشبهون وسطاء مهرة ، ومستنون يصطحبون زوجاتهم وكأنهن أحفاد لهم .

تستقبلهم السيّدة دمبروز بلطف . في حديثهم عن مريض ، تفرك حاجبيها بلوعة ، وتبدو فرحة عند الحديث عن حفلات أوسهرات ستحرم منها قريباً ، لأنها ستخرج ابنة أخ زوجها ، وهي يتيمة ، من مدرستها الداخلية . فامتدحوا تفانيها ، هكذا يليق برّبة العائلة أن تتصرف .

راقبها فريدريك . بشرة وجهها الكامدة بدت رخوة وبطراوة غير ذات بريق ، كبشرة ثمرة محفوظة . لكن شعرها الملوّب على الطريقة الانكليزية ، كان الفم من الحرير ، عيناها صافيتا الزرقة اللامعة ، كل حركاتها ناعمة . جلست على أريكة لشخصين ، في الطرف ، تداعب شرّابات حمراء لستار ياباني ، لتظهر ، ولا شك ، يديها : يدان طويلتان ضيّقتان ، وإلى حدّ ما ضعيفتان ، بأصابع مقلوبة من أطرافها . ترتدي ، كانت ، ثوباً رمادياً من نسيج متموّج ، بصدار عالٍ كما واحدة طهريّة .

سألها فريدريك إن كانت لن تأتي هذه السنة إلى فورتيل . ما كانت ، تعرف ، بعد . تصوّر أن نوجان تضجّرها . تضاعفت الزيارات . حفيف أثواب دائم على السجّاد ، السيّدات الجالسات على

أطراف الكراسي يطلقن ضحكات صغيرة ، يتلفظن بكلمتين أو ثلاث ، ويذهبن ، خلال خمس دقائق ، مع فتياتهن . وسريعاً ما صار الحديث مستحيلاً ، فاستعدّ فريدريك للانسحاب ، فقالت له السيدة دمبروز :

- كل أربعاء ، سيد مورو ، أليس كذلك ؟ معوضةً بجملتها الوحيدة هذه ، إهمالها .

كان سعيداً . وانطلق يتنشق ، في الشارع ، نسمة هواء ندية ، ولأنه بحاجة إلى جو أقل تصنعاً ، تذكر أن عليه زيارة « للمارشالة » . كان باب غرفة الانتظار مفتوحاً . ركض كلبان طويلان الوبر . هتف صوت قائلاً :

- دلفين ! دلفين ! - أهذا أنت يا فليكس ؟
وقف لم يتقدم . الكلبان الصغيران ينبحان . ظهرت أخيراً روزانيت ملتفة بنوع من ثوب استحمام من موسلين أبيض مزركش بدانتيل ، عارية القدمين في بابوج .

- آه ! عذراً سيدي ! ظننتك المزين . دقيقة ! سأعود !
بقي وحيداً في غرفة الطعام .

النوافذ مغلقة . تلفّت فريدريك في كل أرجائها ، متذكراً صخب تلك الليلة ، حين لحظ في الوسط ، على الطاولة ، قبعة رجل ، من لبد قديم محذبة ، ضخمة ، قذرة . لمن هي هذه القبعة ؟ ودالاً بوقاحة على قبعته المفتقة ، بدا يقول : « أسخر من كل أمر ، مع هذا ! أنا السيد ! » .

عادت المارشالة . أخذتها ، فتحت المِصرى ، ورمتها ،

أغلقت الباب (أبواب أخرى ، في وقت واحد ، انفتحت وانغلقت) ، وبعدها اجتازت وفريدريك المطبخ ، أدخلته غرفة زينتها .

بسرعة يُلاحظ ، أن هذا هو المكان المسكون بالأرواح ، وكأنه مركز صالح في الواقع . يزِين الجدران قماش فارسيّ مزخرف ، وهكذا الكراسي وأريكة واسعة مريحة ، وعلى طاولة مرمرية بيضاء حوضان عريضان من خزف أزرق ، أوان كريستالية أخرى فوقها رفوف ملأى بقوارير ، وفراشٍ وأمشاط وأغراض تجميلية ، وعلب بودرة ، وتُرى النار في مرآة متحركة عالية ، وقماش يتدلّى خارج مغطس ، وتفوح روائح عجيبين لوز ولبان جاوة .

- تعذرنى على هذه الفوضى ! فالليلة أتعشى خارجاً .
أخذتها وإذا استدارت على أعقابها ، كادت تسحق كلباً . رآهما فريدريك لطيفين . قالت وهي ترفع إليه وجهها الأسود :

- هيا ، ابتسما ، قبلًا السيّد .
دخل فجأة رجل يرتدي سترة طويلة وسخة ذات قبة من فرو .
- فليكس ، أيها الطيّب ؛ ستحصل على أجرك الأحد القادم ، بكل تأكيد .

وابتدأ الرجل يمشطها ، ويروي لها عن صديقاتها . السيّد دو روشفين ، السيّد دوسان - فلورنتين ، السيّد لومبار ، كلهن نبيلات كما عند دمبروز . ثم تحدّث عن المسرح ، ثمّة في المساء عرض غريب في « الأمبيغو » .

- تذهب ؟

- لا ! أبقى في البيت .
ظهرت دلفين . ويّختها لكونها خرجت من دون إذن منها .
أقسمت هذه أنها « تعود من السوق » .
- هاقي الحساب ! تسمحين ، أليس كذلك ؟
وهي تقرأ ، راحت روزانيت تبدي ملاحظات على كل أمر .
وكان الجمع خطأ .
- ردي لي أربعة فلوس !
ردّتها دلفين ، وبعدها صرفتها :
- آه ! وحقّ العذراء ، كم نعاني مع هؤلاء الناس .
صُدم فريدريك لهذا الاتهام . انه يذكره الآخرين ، ويقيم
مقارنة بين البيتين بطريقة مزعجة .
عادت دلفين ، همست في أذن « المارشالة » .
- لا ! لا أريدها !
عادت دلفين من جديد :
- سيّدتي ، هي تصرّ .
- آه ! يا للازعاج ، أطرديها !
وفي اللحظة ذاتها ، دفعت الباب سيّدة بالأسود . ما سمع
فريدريك شيئاً ولا رأى شيئاً . كانت أسرع روزانيت للقائها في
الغرفة .
حين ظهرت ، مجدّداً ، كان خدّاهما محمرّين وجلست على كرسيّ
من غير أن تتكلم .
كرجت دمعة على خدّها ، ثم قالت بلطف وهي تستدير إلى

الشاب :

- ما اسمك الأول ؟

- فريدرىك .

- آه ! فريدرىكو ! ألا يزعجك أن أناديك هكذا ؟

وراحت تنظر إليه بطريقة غنجة ، تكاد تكون عاشقة . وفجأة صرخت فرحاً لرأى الأنسة فاتناز .

ما كان للفنانة وقت تضيّعه . عليها ، في السادسة تماماً ، أن تترأس طاولة ضيافتها . وكانت تلهث ، متعبة . وسحبت من قفّتها سلسال ساعة وورقة ثم أشياء أخرى ، ومشتريات .

- تعرفين أنه يوجد في شارع جويير ، قفّازات أسوجية بستة وثلاثين فلساً ، هذرائع ! منظف ثيابك يطلب ، بعد ، ثمانية أيام . وبخصوص التخريم قلت ليمروا في ما بعد . بيغنيو حصل على العربون . يبدو لي هذا كل شيء ! تكوينين مدينة لي بمئة وخمسة وثمانين فرنكاً !

راحت روزانيت لتأتي بعشر ليرات نابولونية . أي منها لم يكن معها نقود ، فقام فريدرىك ونقدها .

- أردّها لك ، قالت الفاتناز ، وهي تدسّ الخمسة عشر فرنكاً في حقيبتها . لكنك فلاح . ماعدت أحبك ، لم تراقصني ولا مرة الليلة الماضية !

- آه ! يا عزيزتي ، اكتشفت ، في محل في شارع فولتير ، إطار عصافير مصبّرة لطيفة جداً . لو كنت مكانك لاشتريتها . هه ! كيف ترين ؟

- وعرضت قطعة قماش قديمة من حرير ورديّ كانت اشتريتها
لتخيط منها صديريّة قرن متوسّطية للدار .
- هو جاء اليوم ، أليس كذلك ؟
- لا !
- غريب !
- وبعد لحظة :
- أين تذهين هذا المساء !
- عند ألفونسين ، قالت روزانيت ، كانت ، للمرة الثالثة ،
تغيّر رأيها حول مكان تمضية السهرة .
- تابعت الأنسة فاتناز :
- وبخصوص شيخ الجبل ، هل من جديد ؟
- وبغمرة سريعة طلبت إليها « المارشالة » السكوت ، وقادت
فريدريك إلى غرفة الانتظار لتعرف هل سيرى أرنو قريباً .
- ألحّ عليه بالمجيء ، ليس ، طبعاً ، أمام زوجته .
- في أعلى الدرج ، مظلة مسنودة إلى الحائط ، وقبّاب .
- إنه قبّاب الفاتناز ، قالت روزانيت . يا لها من رجل ، أليس
كذلك ؟ هي قويّة ، صديقتي !
- وبنبهة ميلودرامية ، مشدّدة على الحرف الأخير من الكلمة :
- لا نفاخر بها كثيراً !
- تشجّع فريدريك بعد هذه المسارّة ، فأراد تقبيلها بعنقها . قالت
ببرود :
- أوه ! افعل ! هذا لا يكلف شيئاً !

بخروجه من عندها ، أحسّ نفسه رشيّقاً ، متيقّناً من أنها
ستصبح قريباً عشيقته . هذه الرغبة أيقظت رغبة أخرى . وبرغم
الشعور بالحقد الذي يحمله ، أراد رؤية السيّدة أنزو .

على كل حال ، عليه الذهاب لأجل مهمّة روزانيت .
« إنّا ، الآن ، (دقّت السادسة) ، لا شك أن أنزوموجود » .
أرجأ زيارته للغد .

كانت في جلستها الأولى التي رآها فيها أوّل مرة ، تخطّ قميص
طفل . الصغير يلعب ، عند قدميها ، بلعبة خشبيّة . صارت ، أبعد
قليلاً ، تكتب .

شرع يمتدحها خلال ولديها . أجابت بلا مبالغة وبلا حماقة
أموميّة .

الغرفة ذات مظهر هاديء . شمس جميلة تخترق الزجاج ، تلتمع
زوايا الأثاث ، وبما أنها جالسة قرب النافذة ، فإن شعاعاً يرتقي على
خصل عنقها ، يخترق جلدها العنبريّ . عندئذ قال :

- إنها كبرت تماماً في ثلاث سنوات !- أتذكرين ، آنستي ، حين
كنت تنامين على ركبتيّ في العربية ؟- مارت لم تكن تذكر - ذات مساء في
العودة من سان - كلو ؟

ألقت السيّدة أنزونظرة خاصة حزينة . هل ذلك ل تمنع عليه أية
إشارة إلى ذكراهما المشتركة ؟

عينها الجميلتان السوداوان ، الذي يشع بياضهما ، تحرّكتا ،
بلطف ، تحت جفنيهما الثقيلين إلى حد ما . في أعماقهما طيبة
لا متناهية . تملكه ثانية حبّ أقوى من كل مرة ، غريب : انه تأمل

يخذه ، وقد أثار فيها شيئاً . كيف يظهر مزاياه ؟ بأيّة أساليب ؟ فما وجد
إلا التحدّث عن المال . فراح يتحدّث عن الطقس الذي كان أقلّ بروداً
مما هو عليه في هافر .

- هل كنت هناك ؟

- نعم ، لعمل ... عائلي ... ميراث .

- آه ! مسرورة أنا جداً ، أجابت بفرح حقيقي ، ممّ كانه

خدمة كبيرة تجاهه .

ثم راحت تسأله عما يريد أن يعمل ، فالرجل يجب أن يعمل عملاً
ما . تذكر كذّبه ، وقال انه يأمل أن يصير في مجلس مستشاري الدولة ،
بفضل السيّد دمروز ، النائب .

- أتعرفه ؟

- بالاسم .

ثم ، بصوت خافت :

- « هو » اصطحبك إلى الحفلة التذكيرية ، ذلك اليوم ، أليس

كذلك ؟

صمت فريدريك .

- هذا ما كنت أريد معرفته ، شكراً .

بعدها سأله سؤالين أو ثلاثة رزينة عن عائلته ومنطقته . كان

جَمِلاً منه أن يبقى هناك مدة طويلة من غير أن ينسأهم .

- ولكن ... أستطيع ؟ أجاب . أو تشكّين ؟

نهضت السيّدّة أرنو .

- أرى أنك تكنّ لنا محبة كبيرة وراسخة . الوداع ... إلى

اللقاء !

ومدّت يدها بطريقة صادقة ورجولية . أليس هذا ارتباطاً ، وعداً ؟ فريدريك أحسّ نفسه سعيداً لأن يحيا ، يحسّ نفسه لثلاثي ، بحاجة كان ليخالط الناس ، ليقوم بمروءات وصدقات . تلقت حواليه ليرى هل أحد بحاجة لاغاثة . وغارت إرادته بالتفاني لأنه ليس رجلاً يبحث عن المناسبات لذلك .

ثم تذكر أصدقائه . كان هيسونيه أول من تذكر ، بيلران الثاني . وضع ديسردييه السيء أوحى ، تلقائياً ، بالمراعاة . وبالنسبة إلى سيزي ، كان يسرّب أن يُظهر له ثروته قليلاً . فكتب إلى الأربعة ليأتوا للاحتفال بالبيت الجديد بمأدبة يقيمها الأحد القادم ، الحادية عشرة تماماً ، وكلف ديلورييه باصطحاب سينيكال .

كان فصل المعلم من مدرسته الثالثة إذ لم يرد توزيع جوائز ، اعتبر هذا الأمر مسيئاً إلى المساواة . هو الآن عند صانع آلات ، وما عاد يسكن مع ديلورييه من ستة أشهر .

ما كان شيء صعباً في افتراقهما . كان سينيكال صار يستقبل ، في المدة الأخيرة ، رجالاً بقمصان فضفاضة . مواطنون ، عمال ، طيّون جميعاً ، لكن رفقتهم بدت مضجرة للمحامي . ومن جهة أخرى ، فإن بعض أفكار صديقه ، الممتازة كسلاح في معركة ، لم تكن تعجبه . وكان يسكت طمعاً ، متمسكاً بمراعاته ليوصله ، إذ أنه ينتظر ، بنفاد صبر ، ثورة كبرى ، حيث يحسب لنفسه مكاناً ، مقاماً رفيعاً . اقتناعات سينيكال كانت أكثر لا مبالاة . كل مساء ، عند انتهاء عمله ، يصعد إلى سقيفته ، ويبحث في الكتب عما يبرّر أحلامه . كان

فسّر « العقد الاجتماعي » . امتلاً بأفكار « المجلة الحرة » . تعرّف مابلي ، موريلي ، فورييه ، سان سيمون ، كومت ، كابيه ، لويس بلان ، جمل الكتاب الاشتراكيين الثقيل ، من يريدون للبشرية مستوى الثكنات ، ويرغبون بأن يجعلوها تتسلّى في ماخور أو يطووها في مصرف ، ومن مزيج هؤلاء اتخذ مثلاً للديمقراطية الفاضلة ، لها مظهر مزدوج لا كارة ، ومصنّع غزل ، حيث لا وجود للفرد إلا في خدمة المجتمع ، أكثر سلطاناً مطلقاً ، مثاليّة ، عصمة ، سماويّة ، من اللاما* الكبار والنبوخذنصريين . ما كان يشكّ بتطبيق هذا المفهوم ، وكل ما يتراءى له عدائياً ، وينكبّ عليه بحجج رياضيّ وإيمان الباحث . تصدّمه ألقاب الشرف ، الصليبان ، التبخر ، لباس الخدم الموحد بخاصة ، وحتى الشهرة الطنّانة ، - دروسه كما آلامه ، تؤجّج ، كل يوم ، كرهه الرئيسي لكل تفرقة أو تكبر .

- بماذا أنا مدين له ، هذا السيّد ، لأقوم بواجب تجاهه ؟ لو

أرادني لجاء إليّ !

اصطحبه ديلورييه .

وجدوا صديقهم في غرفة نومه . فيها ستائر وستائر مزدوجة ، مرآة من البندقية ، لا شيء ينقصها ، كان فريدريك مستلقياً في مشواه ، مرتدياً سترة مخملية ، يدخن سجائر دخان تركي . اغتمّ سينيكال ، كما مراؤن اصطحبوا إلى اجتماعات اللذة . بنظرة واحدة رأى ديلورييه كل شيء . ثم ، وهو يحیی بصوت خافت :

* لا ما : كاهن للديانة اللامية عند التتر والبوذيين الكلمة تعني : « أمين الله » .

احتراماتي سيدنا !

قفز ديسردييه إلى عنقه .

- أنت ، إذن ، غني الآن ؟ آه ! هنيئاً لك ! نعماً حدث !
ظهر سيزي وعلى قبعته شارة حداد . منذ وفاة جدته ، صار
يستمتع بثروة محترمة ، ويهتم بالمسرح ، أقل من اهتمامه بالتمايز عن
الآخرين ، يريد ألا يكون كبا الجميع ، ليكون له « طابعه » . هذه هي
كلمته .

صار الظهر ، وكلهم يشاءون ، فريدريك ينتظر أحداً ما .
وعلى اسم أرنو ، قطب بيلران . يعتبره مارقاً منذ تخلّيه عن الفنون .
- لو نتخلّى عنه ؟ ما قولكم ؟
وافقوا جميعاً .

فتح الباب خادم يتعل راناً ضخماً ، فأوا غرفة الطعام بنعل
جدار عال ، من سنديان مطعم بالذهب وخزائني الأطباق المحملتين
آنية . قناني الخمر تتدفأ على النار ؟ شفر السكاكين الجديدة تلمع قرب
المحار ، وبرنة صوت الزجاج الدقيق جداً لطافة جذابة . لا تظهر
الطاولة ، كانت ، تحت ألوان الطعام ، والثمار ، والأشياء
الغريبة . هذه الملاحظات كانت ضائعة بالنسبة لسينيكال .

ابتدأ بأن طلب خبزاً بيتياً (بنبرة حازمة) ، وبهذا الخصوص ،
تحدث عن جرائم بيزانسيه وأزمة المعاش .

لا شيء من كل هذا كان طراً الوانهم يهتمون بالزراعة ، لولم يكن
كل شيء ترك للمنافسة ، للفوضى ، للاتكالية والاهمال هكذا تتأسس
إقطاعية المال ، الأشد مضضاً من الأخرى ! إنما لنحضرها ! الشعب في

النهاية ، سيتعب ، وسيجعل الميسطرين على رؤوس الأموال يدفعون ثمن آلامه ، إما بثورة دموية أو بسلب فنادقهم .

استشفَ فريدرىك ، في لحظة ، موجة رجال بأذرع عارية يقتحمون صالون السيِّدة دمربوز الكبير ، محطمين المرايا .

أكمل سينيكال : إن العامل ، نظراً لانخفاض الأجور ، هو أكثر نعاسة من المسترقِّ والعبد والمنبوذ ، بخاصة إذا كان له أولاد .

- أعليه أن يتخلَّص منهم بالاختناق ، كما ينصحه دكتور انكليزي نسيب اسمه ، من أتباع مالتوس ؟

وقال مستديراً صوب سيزي :

- هل نتحوَّل ، نحن ، إلى نصائح مالتوس السافل ؟
أجاب سيزي ، الذي كان يجهل الدناءة وحتى وجود مالتوس ،
انهم ينجدون ، مع ذلك ، الكثير من البائسين ، وأن الطبقات الراقية ...

- آه ! الطبقات الراقية ! قال الاشتراكي ساخراً . أولاً ، ليس هناك طبقات راقية ، ليس الرقيّ إلّا رقيّ القلب ! لا نريد إحساناً ، اسمع جيداً ! إنَّما المساواة ، والعدالة في توزيع المنتجات .
ما كان يطلبه ، هو أن يصير العامل رأسمالياً ، كما الجندي عقيداً . مجلس المحلِّفين ، أقلّه ، يستطيع الحدّ من زحمة العمّال ، إذ يحدّون من عدد المتدرّجين ، والشعور بالأخوة يكون محفوظاً في الأعياد والرايات .

هيسوتيه ، بصفة كونه شاعراً ، أسف على الرايات ، بيلران

كذلك ، إثارتاه في مقهى دانيو ، وهو يستمع إلى أحاديث المشركين* .
فاعلن فورييه رجلاً عظيماً .

- دعك من هذا ! قال ديلورييه . هو حيوان قديم ! يرى في
تقويض الامبراطوريات نتائج الثارالهي ! تماماً كما السيدسان سيمون
وجماعته ، مع حقه على الثورة الفرنسية : كدسات من المهرجين
يريدون ردتنا إلى الكتلكة !

قال السيد دوسيزي ، للتعلّم ولا شك ، أوليعطي عن نفسه
فكرة حسنة : - هذان العالمان ، أليسا من رأي فولتير؟

- هذا ، أتركه لك أنا ! أجاب سينيكال .

- كيف ؟ كنت أظن . . .

- لا ! لم يكن يحب الشعب !

ثم راح الحديث يدور حول الأحداث المعاصرة : حفلات
الزفاف الاسبانية ، اختلاسات روشفور ، فصل سان دي الجديد ، ممّا
أدى إلى تضاعف الضرائب . مع أنهم يدفعون كثيراً ، حسب
سينيكال .

- ولماذا ؟ لبناء القصور وفيها قرود متحف العلوم الطبيعية ،
ليجعلوا أعوان الزعماء يتبخثرون في ساحاتنا ، أوللمحافظة ، بين خدم
القصر ، على سمة قوطية !

قال سيزي : - قرأت في « لامود » اتهم في سان -
فرديان ، وفي حفلها التويلري التنكرية ، كانوا كلهم متنكرين .

* واحداهم المشتركي وهو أحد أنصار نظرية الفيلسوف فورييه في التجمّع
الاشتراكي .

- أليس هذا مدعاة للرتاء ؟ قال الاشتراكي ، هازاً كتفيه بقرف .

- ومتحف فرساي ! هتف بيلران . لتتحدث عنه ! هؤلاء الأغبياء اختصروا لوحات دولاكرو وأكثروا من لوحات غرو ! ركبوا ، في اللوفر ، وكشطوا وقلبوا بغير عناية كل اللوحات التي لن يبقى منها ، في عشر سنوات ، ولا لوحة . وفي ما يختص بأخطاء الدليل ، فقد كتب ألماني كتاباً كاملاً . بات الغرباء يسخرون منا !

- نعم ، لقد صرنا سخرية أوروبا ، قال سينيكال .

- هذا ، لأن الفن متشيع للتاج .

- طالما لن نحصل على الانتخاب العام . . .

- عفوك ! لأن الفنان ، هو المرفوض منذ عشرين سنة في كل المحافل ، كان غاضباً على السلطة . إيه ! ليتركونا وشأننا . اسأل شيئاً ، أنا ! فقط ليحكم المجلس بأهمية الفن . يجب تأسيس منبر لعلم الجمال وليكن الاستاذ ، في الوقت عينه ، ممارساً وفيلسوفاً ، يتوصل ، كما آمل ، إلى جمع الجمهور .

- حسناً تفعل ، هيسونيه ، لو تكتب كلمة بهذا المعنى في جريدتك .

- هل تتمتع الجرائد بالحرية ؟ هل نحن أحرار ؟ قال ديلوريه بحماسة . حين ترى أنه يمكن إيجاد ثمان وعشرين قاعدة لبناء مركب صغير عند النهر ، فهذا مما يجعلني أرغب بالذهاب للعيش عند أكلة لحوم البشر ! السلطة تفترسنا ! كل شيء لها ، الفلسفة ، الحق ، الفنون ، الهواء ؛ وفرنسا تحشرج ، غاضبة ، تحت جزمة الجندي وعباءة رجل

الدين !

هكذا ، راح ميرابو المستقبل يصبّ غضبه . وأخيراً ، تناول كأسه ، نهض ، وقال واضعاً يده على خصره ، وعينه تلتمع :
- أشرب نخب سقوط النظام الحالي كلياً ، أعني كل مايسمونه امتيازاً ، احتكاراً ، إدارة ، طبقية ، نفوذاً ، دولة ! وبصوت أرفع :
« أريد أن أحطمها كهذه الكأس ! » ورمى الكأس الجميلة فتطايرت شظايا .

كلهم صفّقوا ، وبخاصة ديسردييه .
مشهد الظلامات يثير قلبه . يقلقه . كان من هؤلاء الذين يرمون تحت العربات لينجدوا الجياد الواقعة . كانت معرفته محدودة بكتابين ، أحدهما « جرائم الملوك » والآخر « أسرار الفاتيكان » . بسرور واندهاش ، استمع إلى المحامي . وإذ لم يتمالك نفسه ، قال :
- ما آخذه على لويس - فيليب ، هو تخلّيه عن البولونيين !
- إسمع ! قال هيسونيه . أولاً ، بولونيا غير موجودة ، إنها اختراع لافاييت ! البولونيون ، عامة ، هم جميعاً من صاحبة سان مارسو ، بعدما غرق الحقيقيون مع بونيا توفسكي .
لم يدافع سينيكال عن البولونيين ، لكنه اهتم بآخر كلمات الأديب . يحسدون ، كانوا ، الباباوات ، الذين كانوا ، بعد كل شيء ، يحامون عن الشعب ، وسمّى الرابطة « فجر الديمقراطية » ، حركة مساواة كبرى ضد فردية البروتستانتين .
فوجيء فريدريك بهذه الأفكار . وبالتأكيد تضرع سيزي ، لأنه تحدّث عن اللوحات الحية في « الجيمناز » ، التي كانت تجذب

الكثير من المشاهدين .

تألم سينيكال من هذا . هكذا مشاهد تفسد فتيات البروليتاري ، ثم نراهن ينشرهن ترفاً متكبراً . كذلك امتدح الطلاب البافاريين الذين أهانوا لولا مونتيس . على غرار روسو ، يعلق الأهمية على امرأة فحam أكثر منها على عشيقه ملك .

- أنت تمزح ! أجاب هيسونيه بجلال . ثم دافع عن هؤلاء النساء لصالح روزانيت . وإذ تكلم على حفلتها التنكرية وعلى ثوب أرنو ، قال بيلران :

- يؤكدون أنه بدأ الاهتزاز في الثروة .

كان رفع على تاجر اللوحات دعوى بخصوص أراضيهِ في بلّفيل ، وهو ، حالياً ، في شركة صلصال صيني مع آخرين أمثاله . ديسردييه يعرف أكثر ، لأن رب عمله ، السيد مونتينو ، ذهب يستعلم عن أرنو عند صاحب مصرف : أوسكار لوفيفر وقد أجاب أنه لا يراه ثابِتاً ، إذ هو يعرف بعض تجديده .

انتهت التحلية ، فانتقلوا إلى الصالون ، المفروش كصالون « المارشالة » ، بقماش دمشقي أصفر مزركش ، أثاثه من طراز لويس السادس عشر .

بيلران لام فريدريك لأنه لم ينتقِ الطراز اليوناني المتجدّد . سينيكال حكّ أعواد ثقاب على الطنافس ، ديلوريه ما جاء ولا بملاحظة . تركها للمكتبة وقد سماها مكتبة فتاة صغيرة . تضم غالبية آثار الكتاب المعاصرين . كان الحديث عن آثارهم مستحيلاً ، لأن هيسونيه ، مباشرة ، راح يروي نكات عنهم ، ينتقد وجوههم ،

عاداتهم ، لباسهم ، متحمساً لأطراف أدباء مغمورين ، مزدرياً المشهورين ، راثياً ، بالطبع ، انحطاط العصر . مطلق أغنية قصيرة قروية ، تتضمن ، وحدها ، شعراً يفوق كل غنائيي القرن التاسع عشر : بلزك أدنى من شهرته ، بايرون لا شأن له ، هيغولا يفهم شيئاً في المسرح ، الخ ...

- لماذا لم تقتن كتب شعرائنا العمال ؟ قال سينيكال .

وعجب السيد دوسيزي ، وهو يهتم بالأدب ، لكونه لم يجد ، على طاولة فريدريك « بعضاً من هذه الفيزيولوجيات الجديدة ، فيزيولوجيا المدخن ، صياد السمك ، موظف الحدود » .
توصلوا إلى إزعاجه ، إلى حد رغب في أن يرميهم خارجاً .
« لكنني صرت بهيماً ! » وأخذ أديسرديه على حدة ، سأله إذا في وسعه أن يقدم إليه مساعدة ما .

رق قلب الشاب الطيب . وبسبب مركزه كأمين صندوق ، ما كان في حاجة لشيء .

بعدها ، اصطحب ديلورييه إلى غرفته ، وأخذ من مكتبه ألفي فرنك :

- هاك ، أيها الصديق ، ضع في جيبيك ! هذه بقية ديوني القديمة .

- ولكن ... والجريدة ؟ قال المحامي . تكلمت إلى هيسونيه ، تعرف أنت .

وإذ أجاب فريدريك أنه مخرج الآن ، ابتسم الآخر ابتسامة خبيثة .

بعد المشروبات ، شربوا البيرة ، بعدها مشروبات ساخنة ،
دَحَنُوا ، من جديد ، كل منهم غليوناً . وفي الخامسة مساءً انصرفوا
جميعاً . كانوا يسرون متقاربين ، صامتين ، حين قال ديسردييه ان
فريدريك أحسن استقباهم . كلهم وافقوه الرأي .
أعلن هيسونيه أنه أكثر الأكل . انتقد سينيكال تفاهة داخل
بيته . سيزي يظن الأمر ذاته . انه فاقد « الطابع » تماماً .
وبيلران :

- كان في بإمكانه أن يطلب لوحة مني .
وتمشى ديلورييه ، صامتاً ، ويده في جيبيه ، تمسك بالألفي
فرنك .

فريدريك بقي وحده . يفكر في أصدقائه ويرى هوة كبيرة معتممة
بينه وبينهم . مع ذلك كان بسط لهم ذراعيه وما استجابوا لصراحة
قلبه .

تذكر كلمات بيلران وديسردييه عن أرنو . هل كان هذا
اختراعاً ، حسداً ؟ ولكن لماذا ؟ وتراءت له السيّدة أرنو محطّمة ،
باكية ، بائعة مفروشاتها . أرقت هذه الفكرة طوال الليل ، وفي الغد
حضر اليها .

لم يدر كيف يبدأ الحديث حول ما يعلم ، سألها - بطريقة

الحوار - إذا كان أرنو لا يزال يحافظ على املاكه في بلّفيل .

- نعم ، دائماً .

- أظنه الآن في شركة للصصلال الصيني ، اليس كذلك ؟

- بلى .

- معمله يسير سيراً حسناً

- أفترض هذا .

وبما انه يتلعثم :

- ما بك ؟ إنك تحيفني !

أخبرها قصة التجديدات . خفضت رأسها وقالت :

- كنت أشكّ في هذا !

بالواقع ، كان اربو ، لمضاربة قوية ، رفض بيع أراضيّه ، استلّف عليها كثيراً ، وإذ لم يجد ، أبداً ، مشترين ، ظن نفسه يعوّض بانشاء مصنع . تجاوزت التكاليف التوقعات . ما كانت تعرف اكثر ، يتجنّب ، كان ، كل سؤال ، ويؤكد باستمرار ان كل شيء يسير حسناً .

اهتمّ فريدريك بطمأننتها . هي ، ربما ، ارتباكات مؤقتة . وإذا ما عرف أموراً أخرى ، فسوف يطلعها عليها .
آه ! نعم ، اليس كذلك ؟ قالت ضامّة يديها بنبرة متوسّلة ناعمة .

يمكنه ، اذن ، ان يكون مفيداً لها . وها هو يدخل عالمها ، قلبها !

ظهر أرنو .

- آه ! كم هو لطيف منك ان تصطحبني للعشاء !

بقي فريدريك صامتاً .

تحدّث أرنو عن أشياء لا أهمية لها ، ثم ابلغ امرأته أنه سيرجع متأخراً جداً بسبب موعد مع السيّد أودري .

- عنده ؟

- طبعاً ، عنده .

باح ، وهما ينزلان الدرج ، انه مادامت « المارشالة » منفردة سيقضيان معاً سهرة عائلية في « الطاحونة الحمراء » ؛ وبما أنه في حاجة دائمة لمن ييوح اليه بما يؤرقه جعل فريديريك يرافقه حتى الباب . بدل ان يدخل ، بقي يتمشى على الرصيف مراقباً نوافذ الطابق الثاني . فجأة أزيحت الستائر .

- آه ! حسناً ! ذهب أودري . طبت مساء !

انه أودري ، اذن ، من كان يحادثها ؟ ما عاد فريديريك يعرف ما يفكر .

انطلاقاً من هذا النهار ، صار ارنو أكثر حميمية من ذي قبل . يدعو له للعشاء ، عند عشيقته . وسريعاً ما صار فريديريك يتردد إلى المنزلين معاً .

بيت روزانيت يسليه . يأتونه مساء ، بعد الخروج من النادي أو المسرح . يشربون شايًا . ويلعبون اللوتو* . الأحديتسلون بالحزازير . تمايز روزانيت عن الجميع ، فهي أكثر صخباً ، وتقوم بأشياء غريبة ، كالركض على أربع ، أو أن تتزيًا بقبعة قطنية غريبة . لتنظر المارة من النافذة ، تستعمل قبعة من جلد مقسى . تدخن الشُبقي ، تغني تيروليات** بعد الظهر ، لبطالنها ، تقطع أزهاراً على قطعة قماش

* نوع من لعب الورق .

** مفرد هاتيرولية وهي عناء جبلي أصله من التيرول يتميز بالانتقال السريع من صوت

الصدر إلى صوت الرأس وبالعكس .

فارسيّ ، تلصقها ، بنفسها ، على زجاجها ، تلطّخ بالخضاب كليها
الصغيرين ، تحرق أقراطاً معطرة ، أو تنسحب تكشف الحظّ .
واذ هي لا تستطيع مقاومة رغبة ما ، تولع بتحفة مارأتها ، تعود
لا تنام ، تركض لتشتريها ، تقايضها بأخرى ، وتبيعها بثمن بخس ،
تضيّع جواهرها ، تبذّر المال ، تكاد تبيع قميصها لمقعد في مقصورة
المسرح الأمامية . غالباً ما تسأل فريدريك عن مضي كلمة قرأتها ،
لكنها لا تستمع الى الجواب ، لأنها تنتقل ، مباشرة ، إلى فكرة أخرى ،
مكثرة من الأسئلة . وبعد كثير فرح ، تنقلب الى فورات غضب
طفولية . أو هي تحلم ، جالسة على الأرض ، أمام النار ، خافضة
الرأس ، ركبته بين يديها ، أكثر جهوداً من حنش نخدر . وبدون
احتراز ، تروح ترتدي ثيابها أمامه ، تشد ، يبطء ، جواربها
الحريّة ، ثم تغسل وجهها بماء كثير قالبه قامتها كحورية ماء ترتعش ،
وضحكة اسنانها البيضاء ، بريق عينيها وجهاها ، فرحها ، تخلب ،
كلها ، فريدريك ، وتجلد أعصابه .

والسيّدة أرنو ، يكاد يجدها ، دائماً ، تدلّ طفلها كيف يقرأ ، أو
وراء كرسيّ مارت التي تكون تقسّم على البيانو . ويحصل فرح كبير له
حين يلّم لها ، مرات مقصّها أو الدبايس ، حين تكون تخيط . ذات
جلال هادئ كل هذه الحركات ، يداها الصغيرتان كأنهما لا غداق
الصدقات ، لكفكفة الدموع . وصوتها البهيم بطبيعته ، فيه نبرات
لطيفة وكنسمات نسيم منعشة .

ما كانت تتحمّس للأدب ، لكن روحها تفتن بكلمات بسيطة
ونافذة . تحبّ السفر ، وعصف الهواء في الغابات ، والتنزّه ، حاسرة

الرأس ، تحت المطر . يستمع فريدريك الى هذه الأمور بلذّة ، ظاناً أنها بدأت تستسلم .

مخالطة هاتين المرأتين جعلت في حياته ، ضربين من الموسيقى : الأول لعوب ، متحمّس ، مسلّ ، والآخر رزين يكاد يجاوز التدنّين . ومعيّ عازفان ، يضيفان دائماً ، وشيئاً فشيئاً يمتزجان - لأنه ، إذا ما لمستّه ، مثلاً ، السبّدة أرنو ، ولو بطرف إصبعها ، تحضر الأخرى ، تلقائياً ، لأن حظه معها أقرب مما هو مع الأولى ؛ - وبرفقة روزانيت ، حين يحسب قلبه مبهوراً ، يتذكّر ، فوراً ، حبّه الكبير .

هذا الارتباك سببه المشابهة بين المنزلين . خزانة من اللواتي تُرى في بولفار مونغارتر ، تزين ، الآن ، غرفة طعام روزانيت ، وأخرى صالون السيّدة أرنو . هي نفسها ، في البيتين ، خدمة المائدة ، ونرى ، حتى ، المخمل نفسه المنسحب على كل مثواه ، ثم كثير من هدايا صغيرة ، ستائر ، علب ، ومراوح تنتقل من العشيقّة الى الزوجة ، لأن أرنو ، ومنها دون حرج ، يستعيد من الواحدة ما كان أهداها ليهديه للأخرى .

تضحك « المارشالة » مع فريدريك من هذه الطُرُق السيّئة . ذات أحد ، بعد العشاء ، اصططحته خلف الباب وأرته ، في جيب سترة أرنو ، كيس حلوى كان أخفاه على المائدة ، ليقتسمه ، ولا شك ، وعائلته الصغيرة . كان السيّد أرنو يأتي عفرتات تحاذي الدناءة . يرى هذا أمراً كالهرب من رسم الدخول ؛ ما كان يذهب الى المسرح ويدفع ، فيبطاقة للمقاعد الخلفيّة يأتي ، دوماً الى الأماميّة ، ويروي ، كطرفة ممتازة ، أنه معتاد ، في الحمامات الباردة ، وضع زر

سر وال على رأس الصبي في مقابل عشرة فلوس ، وما كان هذا يمنع
« المارشالة » من أن تحبه .

ومع ذلك قالت يوماً وهي تتحدث عنه :
- آه ! إنه بات يزعجني ! عانيت كثيراً ! مهما كان الأمر ، أجد
سواه !

اعتقد فريديريك أن « الآخر » موجود ، واسمه السيد اودري .
- وبعد ، قالت روزانيت ، ماذا يمكن ان يحدث ؟
وأضافت وصوتها متلجلج بالدموع :
- مع ذلك ، أطلب منه الأشياء بسيطة ، ولا يقبل إلا يريد !
بينما الأمر مختلف بالنسبة الى وعوده .

حتى أنه وعدا بربع أرباحه في مناجم الصلصال المهمة ، ما وفي
بشيء ، من هذا ، سوى بالكشمير الذي كان يغويها من أشهر سة .
لتو ، فكر فريديريك في ان يهديها شيئاً . هذا قد يجعل أرنو يعتبر
ويمكن ان يغضبه .

مع ذلك ، هو طيب ، زوجته نفسها تقول هذا . لكنه مجنون !
بدلاً من أن يأتي بالناس للعشاء عنده ، بات يأخذ أصدقاءه الى المطعم .
يشترى أشياء لا فائدة منها إطلاقاً ، كسلاسل ذهب ، ساعات ، أشياء
منزلية . حتى ان السيدة أرنو ، دلت فريديريك ، في الممشى ، على كثير
من السخانات ، الدفايات والسماور * . باحت أخيراً ، ذات يوم ،
بكآباتها : فقد جعلها أرنو توقع سناً لأمر السيد دميروز .

* عناية رومية للشاي .

في هذه الأثناء ، كان فريدرىك يحتفظ بمشاريعه الأدبية ، بنوع من النخوة بينه وبين ذاته . يريد ان يكتب تاريخاً لعلم الجمال ، نتيجة محادثاته مع بيلران ، ثم وضع فترات مختلفة من الثورة الفرنسية بقلب مسرحي ، بتأثير غير مباشر من ديلاورييه وهيسنويه . وفي انصرافه الى العمل ، غالباً ما يأتيه وجه الواحدة أو الأخرى . يقاوم رغبة رؤيتها ، وما يتأخر في ان يخضع لها . ويكون أكثر حزناً في عودته من عند السيدة أرنو .

ذات صباح ، وهو يجترّ كآبته قرب ناره ، دخل ديلاورييه . أحاديث سينيكال النارية أحزنت ربّ عمله ووجد نفسه ، مرة بعد ، بدون عمل .

- ماذا تريدني أفعل له ؟ قال فريدرىك .

- لا شيء ! أعرف أن لا مال لك . لكن هذا لا يمنعك من أن

تجد له مكاناً ، إمّا بواسطة السيد دمبروز وإمّا بواسطة أرنو .

قد يكون هذا بحاجة الى مهندسين في مؤسسته . ألهم فريدرىك

شيئاً : يمكن سينيكال ان يعلمه بتغيب الزوج ، ان يحمل الرسائل ، أن يساعده في الف مناسبة تطراً . تتبادل هذه الخدمات بين رجل ورجل .

ومن جهة اخرى يجد له عملاً دون ان يرتاب بشيء . تقدّم له الصدفة مساعداً ، إنه فآل حسن ، يجب اقتناصه . أجاب ، متظاهراً باللامبالاة ، بأنه قد يستطيع ذلك ، وبأنه سيهتمّ بالأمر .

مباشرة ، بدأ بالاهتمام . لكن أرنو يعاني صعوبات كثيرة في

مصنعه . يبحث عن الأحمر النحاسي الصيني ، لكنّ ألوانه تتبخر في الطبخ . لتلافي الصدوع في خزفياته ، راح يمزج خزفه بالكلس . انما

ظلت القطع ، بعاليها ، تتكسر ، طلاء رسومه يفور قبل طيحه ،
قطعه الكبيرة تنتفخ ، واذيردخييات أمله للآلات السيئة ، أراد أن يأتي
بطواحين جديدة ، وبحفقات أخرى . تذكر فريدريك شيئاً من هذا ؛
فذهب اليه مشيراً انه اكتشف رجلاً قوياً ، قديراً على ايجاد الأحمر
المطلوب . قفز أروفرحاً ، وإذسمعه ، أجاب انه ليس بحاجة لأحد .
امتدح فريدريك معارف سينيكال المتقدمة ، فهو مهندس ،
كيميائي ومحاسب معاً بالاضافة الى أنه رياضي من الطراز الأول .
فوافق الخزي أن يراه .
اختلفا على الراتب . تدخل فريدريك وتوصل خلال أسبوع ،
الى عقد اتفاق بينهما .

ولكن بما أن المصنع في كراي ، ماكان سينيكال يستطيع مساعدته
في شيء . هذه الفكرة البسيطة أحبطت آماله .

وظن انه بمقدار مايفصل أرنوعن امرأته يزيد حظه معها . فراح
يمتدح روزانيت باستمرار . وروى له كل اخطائه تجاهها ، وأخبره
بتهديدات المبهمة ذلك اليوم ، وحتى ، تحدث عن الكشمير من غير أن
يخفي شكواها من بخله .

جرح أرنو للكلمة (وكان لاحظ اكتئابها) ، فأتاها بكشمير ،
لكنه وبخها لكونها بثت شكواها الى فريدريك . فقالت انها ذكرت مئة
مرة بوعده ، فادعى انه كان ينسى لكثرة مشاغله .

في الغد ذهب فريدريك اليها . كانت لا تزال نائمة برغم أن
الساعة صارت الثانية ، وبجانها دثار أمام إسكمتة يأكل شريحة

كبدية * . من بعيد هفت : « حصلت عليه ، حصلت عليه » ، ثم أخذته من أذنيه ، قبلته في جبينه ، شكرته كثيراً ، رفعت الكلفة بينها حتى انها أرادت أن تجلسه على سريرها . تبرق عيناها الجميلتان الحنونتان ، يتسم فمها الرطب ، ذراعاها المدورتان تخرجان من قميصها الذي بلا أكمام ، وبين وقت وآخر ، كان يحسّ عبر الباتستا حدود جسدها . في هذه الأثناء راح دلمار يجول بيؤبؤي عينيه .
- ولكن ، حقاً يا صديقتي ، يا صديقتي العزيزة !

وهكذا في المرات التالية . مذدخل فريدريك ، تقف على طنفستها ليقبلها بطريقة أفضل ، تسميه صغيرها ، حبيبها ، تضع زهرة في عروته ، تسوي ربطة عنقه ، وهذه المداعبات تتضاعف كل مرة يكون دلمار موجوداً .

أهذه مقدمات ؟ ظنّ الأمر هكذا فريدريك . أما بالنسبة الى خيانة صديق ، أرنو ، فهاهمه الأمر ! ومعه حق كان في ألا يكون عفيفاً مع عشيقته ، طالما أنه عفيف مع زوجته ؟ لأنه يظن أنه كان ، بالأحرى أراد أن يخدعه متعمداً ، تبريراً لجبانته الاستثنائية . مع ذلك رأى نفسه أحق وقرّر ان يباشر ، صراحة ، مع « المارشالة » .

وعلى هذا الأساس ، مرة بعد ظهر ذات يوم ، وهي منحنية أمام خزانة الصغيرة ، اقترب منها وقام بحركة تنم عن بعض وقاحة . فانصببت حمرة . أعاد الكرة ، فبكت قائلة ، انها شقية وإن هذا ليس سبباً لاحتقارها .

* معجنة من الكبد والتوابل .

كرّر محاولاته . تصرّفت بنسق آخر ، هو الضحك الدائم . ظنّ من الذكاء مبادلتها بالنبرة ذاتها ، وبشكل مبالغ فيه . لكنه بدا كثير المرح لظنه صادقاً . ورفقتها كانت عائقاً للروح بأي عاطفة جدية . أخيراً ، ذات يوم ، أجابته أنها لا تقبل ببقايا أخرى .
- أية أخرى ؟

- إيه نعم ! إذهب وراء السيّدة أرنو !
لأنه كان كثير التحدث عنها . من جهة أرنو ، عنده العادة نفسها ، نفد صبرها ، آخر الأمر ، لسماعها دوماً امتداح هذه المرأة ، واتهامها هذا كان نوعاً من الانتقام .
حقد عليها فريدريك .

بدأت تستثيره بقوة . تتصرّف ، مرات ، كمختبرة ، فتتحدّث عن ضرر الحبّ بضحكة متشكّكة تجعله يلتهب لصفعها . وبعد ربع ساعة ، يصبح الحبّ الوحيد في العالم ، وتضم ذراعيها على صدرها كأنها تضمّ أحداً ، وتهمس : « أوه ! بلى ، إنه لذيذ ! لذيذ جداً ! » وجفونها نصف مطبقة مرتعشة نشوى . مستحيلة معرفتها ، معرفة ، مثلاً ، إذا كانت تحبّ أرنو ، لأنها تهزأ منه وتبدو ، غيورة عليه . الأمر نفسه بالنسبة الى فاتناز التي كانت تسمّيها تعيسة ، ومرات أخرى صديقتها المفضّلة . أخيراً ، إنّ لها في كلّ شخصها ، وحتى في ارتفاع شعرها الملتفّ في مؤخرة رأسها ، شيئاً لا يعبر عنه يشبه التحديّ ؛ - ويشتهيها للذة وبخاصة ليغلبها ويسيطر عليها .

كيف العمل ؟ لأنها غالباً ما راحت تردّه على أعقابها ، تظهر ، للحظة ، وتهمس له : « انني مشغولة ! إلى اللقاء هذا المساء ! » أوهو

يجدها وسط اثني عشر رجلاً ، وحين هما وحدهما تتابع الاهتمامات والانشغالات بكثرة . يدعوها للعشاء فترفض دائماً ، مرة قبلت لكنها أخلفت .

طرات على باله فكرة انتهازية .

وهو يعرف بواسطة ديسردييه ، مآخذ بيلران عليه ، فرأى أن يطلب اليه أن يرسمها لوحة كبيرة تتطلب جلسات عديدة ، لن يتغيب عن واحدة ؛ وإن عدم تقيد الفنان المعهود بمواعيده يسهل عليه عملية المواجهة . فاتفق مع روزانيت على هذا ليهدي وجهها للعزيز أرنو . قبلت ، هي ، لأنها ستجد نفسها وسط الصالون الكبير ، في مكان الشرف ، والجموع أمامها ، وستحدث عنها الجرائد ، مما « يطلقها » سريعاً .

وبالنسبة لبيلران فإنه قبل العرض بلهفة . قد نجعله ، هذه اللوحة ، رجلاً مهماً ، فسيحاول جعلها تحفة فنية .

استعاد في ذاكرته كل اللوحات المهمة التي يعرفها ، وقرأه في الأخير ، على واحدة على شاكلة تيتيان ، مزينة بزخارف على طريقة فيرونيز . إذن ، فسينفذ مشروعه بلا ظلال اصطناعية ، باضاعة واضحة تنير الأقسام العارية بالقدر نفسه ، وتجعل اللواحق تتألق . فكّر في ذاته : « لو ألْبَسْتُها ثوب حرير وردياً مع بُرُوسٍ شرقي؟ لا ! البرنس حقير ! وبالأحرى لو ألْبَسْتُها مخملاً أزرق فوق خلفية رمادية زاهية ؟ نستطيع جعل ياقتها من التخريم الأبيض ونجعل مروحتها سوداء ونضع ستاراً قرمزيّاً في الورا ؟ » . وهكذا يروح كل يوم يوسّع تصوّره ويعجب به .

قفز قلبه حين وصلت روزانيت ، يرافقه فريديريك . للجلسة الأولى . أوقفها على شبه منبر وسط الشقة ، وإذشكا النور وأسف على محترفه القديم ، جعلها ، أولاً تتكىء الى قاعدة تمثال ، ثم تجلس على كرسي مريح واسع ، ويتعد عنها قليلاً قليلاً ، ثم يقترب ليصلح ، بنقرة ، ثانياً ثوبها ، ينظر اليها وجفونه نصف مطبقة ، واستشار فريديريك بكلمة .

- لا ! صرخ . أعود الى فكرتي !

سيكون توبها من مخمل أحمر وردي وزنار صياغة ، وكمها الواسع المطن بفرو القاقم يظهر ذراعها العارية التي تلامس دريزين مرتفعا وراءها . وإلى يسارها عمود كبير يصل حتى أعلى اللوحة ليتصل بالزخارف التي على شكل قنطرة . ويلاحظ من تحت ، بابها ، مجموعة أشجار برتقال تكاد تكون سوداء ، حيث تتقاطع سماء زرقاء موشحة بغيوم بيضاء . على عمود الدريرين المغطى بسجادة ، سيكون في وعاء من الفضة ، باقة أزهار ، سبحة عنبر ، خنجر وعلبة حلى من عاج قديم ، أصفر قليلاً ، طافحة بنقود ذهبية إيطالية قديمة ، بعض هذه النقود ، الواقعة أرضاً ، كأنها الطخات لامعة بطريقة تقود العين الى مقدم قدمها ، لأنها ستكون موضوعة على الدرجة ما قبل الأخيرة ، بحركة طبيعية وفي وضوح النهار .

ذهب يجلب صندوق لوحات وضعه على المنبر ليكون كدرجة ، ثم جهز اللوازم على مقعد بمثابة دريزين ، دراعته ، ترساً ، علبة سردين ، رزمة ريشات ، سكيناً ، وبعد ما رمى أمام روزانيت ما يقارب الاثني عشر فلساً ، جعلها تتخذ وضعها .

- تصوّري أن هذه الأشياء هي ثروة ، هدايا رائعة . أميلي
رأسك إلى اليمين قليلاً ! ممتاز ! ولا تتحرّكي ! هذه الجلسة الجليلة
تناسب نوع جمالك .

ثوبها من قماش شطرنجي ، فوقه غطاء طويل مكسو بالفراء
لتدفئة اليدين ، وتمسك نفسها عن الضحك .

- وبالنسبة إلى التسريحة فسنجعل فيها جديدة لؤلؤ : هذا
يؤثّر تأثيراً حسناً في الشعر الأحمر .

صرخت « المارشالة » قائلة ان شعرها ليس أحمر .

- دعكِ من هذا ! أحمر الرسامين ليس أحمر البورجوازيين .

ابتدا يصمّم وضعيّة الأجسام ، مأخوذاً كان بفنّاني النهضة
الكبار ، راح يتحدّث عنهم . وحلم ، خلال ساعة ، بصوت
عالٍ ، بهؤلاء العظماء العابرة ، ذوي المجد والبدخ ، ودخولهم
المنتصر إلى المدن ، والاحتفالات على ضوء القناديل ، وسط نساء
نصف عاريات ، جميلات كلّهات .

- مخلوقة أنبت لتعيشي في ذاك الزمان . واحدة من وزنك
كانت استحقّت سيّداً عظيماً !

كانت روزانيت مسرورة بهذا المديح . تحدّد موعد الجلسة
التالية ، واهتمّ فريدريك بتأمين اللوازم .

وبما أن لبيب النار جعلها دائخة إلى حدّ ما ، عادا مشياً عبر
شارع البارك ووصلا إلى « البور رويال » .

كان الطقس جميلاً ، لاذعاً وساطعاً . تنحدر الشمس ،
يلمع زجاج المنازل ، في المدينة ، كصفائح ذهبيّة ، بينما في

الخلف ، إلى اليمين ، ترسم جانبياً بأسود على زرقة السماء ،
أسوار نوتردام المستحمة عند الأفق بضباب رماديّ . هبّ الهواء ،
وإذ أعلنت روزانيت جوعها ، دخلا « الباتيسري انكليز » .

وجدنا ، هناك ، نساء صبايا وأولادهن ، يأكلون أمام
مقصف من المرمز ، حيث تتدافع صحنون الحلوى تحت أجراس
زجاجيّة . أكلت روزانيت كعكتي فاكهة بالقشرة . رسم سكر
البودرة على زاويتي فمها شاربين أبيضين . وكانت ، لتمسح
السكر ، بين وقت وآخر ، تسحب محرماتها من غطاءها الطويل
الذي من فراء . ويبدو وجهها ، تحت معطفها الحريريّ
الأخضر ، وردة متفتحة بين أوراقها .

عادا إلى المسير . توقفت ، في شارع « السلام » ، أمام محل
صائغ لترى إسواره . أراد فريدريك أن يهديها إياها .
- لا ، قالت . احتفظ بمالك .

جرحته الكلمة .

- ما بها القطة ؟ هل هي حزينة ؟

وإذ استأنفا الحديث ، عاد ، كما العادة ، إلى توكيد

الحب .

- تعرف جيّداً أن الأمر مستحيل !

- لماذا ؟

- آه ! لأن ...

كانا جنباً إلى جنب ، هي مستندة إلى ذراعه ، ودوائر ثوبها
تلامس ساقيه . ذكره هذا غروباً شتائياً ، فيه ، على الرصيف

ذاته ، مشّت بجانبه السيّدة أرنو . استغرقت هذه الذكرى كلياً ،
فما عاد يرى روزانيت أو يفكر فيها .

تلّفت أمامها كيفما اتفق ، تجرّ نفسها كولد كسول . كانت
ساعة العودة من النزّهة ، وطواقم رجال السفن يتابعون بسرعة
على البلاط الجاف . انها تستعيد ، ولا شك ، مديح بيلران ،
فصعدت نهدة .

- آه ! هنالك من هنّ سعيدات ! أنا ، بالتأكيد ، مخلوقة
لرجل غنيّ .

أجاب بنبرة عنيفة :

- تملكين واحداً ! لأن السيّد أودري أكثر من مليونير .

ما كانت تتمنى أكثر من التخلّص منه .

- من يمنحك ؟

وأظهر سخريّة لاذعة تجاه هذا البورجوازي الهرم ذي الشعر
المستعار ، مؤكّداً أن هكذا علاقة غير جديرة بها ، وانه عليها
قطعها !

- نعم ، أجابت « المارشالة » ، كمن يحدث نفسه . هذا

ما سأنتهي إليه ، ولا شك !

سُرّ فريدريك لهذه اللامبالاة . راحت تتباطأ ، ظنّها
متعبة . أصرت على رفضها عربيّة ، وصرفته أمام بابها ، مرسلّة له
قبلة على أطراف أصابعها .

« آه ! يا للخسارة ! وتصوروا أن أغبياء يجدونني غنيّة ! »

حين وصل كان الظلام قد خيم .

وهيسونيه وديلورييه ينتظرانه .

يرسم البوهيمي الجالس إلى طاولته ، رؤوس أترك ،
والمحامي ، مجزمته الملوثة بالوحل ، يرقد على الأريكة .
- آه ! أخيراً ! هتف . إنما أي مظهر قاس ! أتستطيع أن

تصغي إليّ ؟

رواجه ، كمعلم ، بدأ يخف ، هو يحشو رؤوس تلاميذه
نظريات غير ملائمة لامتحاناتهم . كان ترافع مرتين أو ثلاثاً
وخسر ، وكل خيبة جديدة كانت تدفع به ، أكثر من سابقتها ،
نحو حلمه القديم : جريدة بها يفاخر ، ينتقم ، يقذف غضبه
ويجأهر بأفكاره . ثروة وشهرة ، على كل حال ، هما تبتاليان .
انه ، بهذا الأمل ، وارب البوهيمي ، إذ انه يمتلك صحيفة .

هو يطبعها الآن ، على ورق زهري ، يخترع إشاعات ،
يؤلف ألغازاً رمزية ، يحاول الدخول في حروب كلامية ، وحتى
يريد اعداد حفلات موسيقية ! اشتراك سنة « يعطي حقاً بمكان في
الصالة في واحد من أهم مسارح باريس ، أكثر ، فالادارة تهتم
بأن تمنح السادة الغرباء كل التعليمات التي ييغون ، فنية
وسواها » . لكن القيم على المطبعة يتوعد ، عليهم ثلاثة أقساط
للمالك ، وكل أنواع العقبات بدأت تظهر . كان هيسونيه ليرك
الفن وشأنه لولا نصائح المحامي الذي كان يحرضه يومياً . ضمّه
إليه ، لتكون انطلاقة أقوى .

- آتيان نحن بخصوص الجريدة ، قال .

- عجباً ، ما زلت تفكر فيها ! أجبان فريدريك شارد

الذهن .

- طبعاً أفكر فيها !

ومن جديد ، عرض تصميمه . من التعامل مع البورصة ، يرتبطان بعلاقات مع رجال مال ، ومحصلان ، هكذا ، على المئة ألف فرنك ككفالة ضرورية . إنغا ، لتحوّل النشرة إلى جريدة سياسية ، يجب أن يكون هنالك ، مسبقاً ، مجال انتشار واسع ، وهناك نفقات كثيرة من ثمن ورق وطباعة أو مكتب ، بالاختصار مبلغ خمسة عشر ألف فرنك .

- لا مال لديّ ، قال فريدريك .

- فكم بالحرّي نحن ! قال ديلورييه شابكاً يديه .

أجاب فريدريك وقد جُرح للحركة :

- هل هو ذنبي ؟ ...

- آه ! حسن جداً ! عندهم حطب في المدفأة ، فطور للذيذ

على المائدة ، سرير ناعم ، مكتبة ، عربة ، عندهم كل الضروريات الكمالية ، إنغا ان يرزح آخر تحت الديون ، يتعشى بعشرين فلساً ، يعمل كمحكوم بالأشغال الشاقة ، ويتخبط في الفقر ! هل هو ذنبهم ؟

وراح يكرّر : « هل هو ذنبهم ؟ » بسخرية شيشرونية

مرهفة . أراد فريدريك أن يتكلّم .

- ومع ذلك ، أفهم ، هناك حاجات ... أرستقراطية ،

إذ ولا شك ... امرأة ما ...

- وبعد ، ألسن حراً ؟ ...

- أوه ! كل الحرية !

وبعد دقيقة صمت :

- الوعود سهلة جداً !

- يا الهي ! انني لا أنكرها ! قال فريدريك .

تابع المحامي :

- نقسم اليمين ، في المعهد ، نؤسس كتيبة ، نقلد الثلاثة

عشر لبلازاك ! ثم ، بعدما نتلاقى : طبت مساء ، يا عزيزي ،

اذهب تنزه ! لأن من يستطيع خدمة الآخر ، يحتفظ بكل شيء له وحده .

- كيف ؟

- نعم ، فأنت لم تقدّمنا ، حتى ، عند آل دمبروز !

التفت إليه فريدريك بسترته السيئة ، بنظاراته المخشنة

ووجهه الكامد ، بدا له المحامي كخادم مدرسة ، فما استطاع أن

يخفي ابتسامه ساخرة ظهرت على شفتيه . ديلوريه لاحظته واحمرّ .

تناول قبعته مستعداً للخروج . حاول هيسوييه أن يلاطفه

بنظرات متوسّلة ، وبما أن فريدريك يدير له ظهره ، قال له :

- هيا ، يا عزيزي ! كن نصيري ! إحمِ الفنون !

وبحركة قبول مفاجئة ، أخذ فريدريك ورقة ، وبعدما

خربش بضعة أسطر ، أعطاه إيّاها ، أشرق وجه البوهيمي ، ثم

مرّرها إلى ديلوريه قائلاً له :

- اعتذر ، يا سيّد !

كان صديقها قد طلب إلى كاتب عدله أن يرسل إليه ، على

جناح السرعة ، خمسة عشر ألف فرنك .
 - هكذا أعرفك ! قال ديلورييه .
 - قسماً بشرفي ، أضاف البوهيمي ، أنت رجل طيّب .
 تابع المحامي :
 - لن تخسر شيئاً ، المضاربة ممتازة .
 - قسماً ، هتف هيسّونييه ، أقدم رأسي للمقصلة .
 وابتدأ بحماقات ووعد بعجائب (ربما هو يؤمن بها) ،
 بحيث لم يعرف فريدريك هل هذا ليهزأ بالآخرين أم بنفسه .
 في المساء ذاته ، وصلته رسالة من أمه .
 كانت تعجب كيف لم تره ، بعد ، وزيراً ، وهي تمزح
 بعض الشيء . ثم تحدّثت عن صحتها ، وأخبرته أن السيّد روك
 صار يزورها . « منذ ترمّله ، ما عدت أخشى استقباله . ولقد
 تغيّرت لوز كثير في صالحه » . وفي الحاشية : « لم تقل لي شيئاً
 عن معرفتك الجديدة بالسيد دمبروز ، لو كنت مكانك ،
 لاستفدت منه » .
 لم لا ؟ كانت هجرته طموحاته الثقافية ، وثروته (هو يعني
 ذلك) غير كافية ، إذ ، بعد دفعه ديونه ، وتقديمه المبلغ المتفق
 عليه ، سيكون دخله قد نقص ، أقلّه ، أربعة آلاف فرنك ! على
 كل حال ، بات يشعر بالحاجة للخروج من جوّه ، وبضرورة
 التعلق بعمل ما . وفي الغد كذلك ، وهو يتعشى عند السيّدة
 أرنو ، ذكر أن أمّه تريده أن يقوم بمهنة .
 - لكنني كنت أظن أن السيد دمبروز سيدخلك مجلس

مستشاري الدولة . هذا يناسبك تماماً .
هي تريد ذلك ، إذن . فاطاع .
كان صاحب المصرف جالساً ، كما في المرة الأولى ، إلى
مكتبه ، فاستمهله بإشارة بضع لحظات ، لأن رجلاً ما ، ظهره إلى
الباب ، يتحدث بأمر مهمّة . عن فحم وعن دمج شركات مختلفة
يجب أن يتمّ .

رسماً الجنرال فوا ولويس - فيليب موضوعان ، كل إلى
جانب من المرأة ، أدراج ملفات على الحائط تصل حتى السقف ،
وهناك ست كراسي قش ، ما كان السيّد دمبروز يحتاج لشقة أجمل
لأعمال ، انه مكان معتم كتلك المطابخ حيث تحضر مادب كبيرة .
لاحظ فريدريك ، بخاصة ، خزنتين ضخمتين موضوعتين في
زاويتين . تساءل كم من الملايين تحويان . فتح صاحب المصرف
واحدة ، فاستدارت صفيحة الحديد وما تركته يرى ، في
الداخل ، سوى دفاتر أوراق زرق .

أخيراً مر الرجل أمام فريدريك . انه السيّد أودري .
تصافحا واحمراً ، فبدا السيّد دمبروز مدهوشاً . وفي ما بقي ، كان
لطيفاً جداً . ما كان شيء أسهل من أن يزكي صديقه الشاب عند
وزير العدل . يكونون مسرورين به بينهم . وأنهى ملاطفاته بأن
دعاه إلى سهرة يقيمها خلال أيام .

كان فريدريك يصعد عربة خفيفة ليذهب إليه ، حين
وصلته رسالة من « المارشالة » . قرأ على ضوء الفوانيس :
« أيها العزيز ، اتبعت نصائحك وها هي الحرية تعود إليّ »

غداً أقل انني لست شجاعة .
 إنما كان هذا دعوة له إلى المركز الشاعر . تنهّد مرتاحاً ، دفع
 الرسالة إلى جيبه وذهب .

في الشارع اثنان من المجلس البلدي على حصانين . سلسلة
 فوانيس ملوّنة تشتعل عند رتاجي البابين ؛ وخدم في الساحة
 يصرخون لتتقدّم العربات حتى أسفل درج المدخل تحت مظلة
 الباب . ثم ، فجأة ، هدأت الضجّة في الرواق .

تملاً بثر السلم أشجار كبيرة ، تسكب كرات البورسلين
 نوراً يتموّج كتموّج الساتان الأبيض على الجدران العالية . صعد
 فريدريك الدرج بنشاط . هتف حاجب باسمه ، صافحه السيّد
 دمبروز ، وفي الوقت نفسه تقريباً ، ظهرت السيدة دمبروز .

ثوبها ليلكيّ موشى بالدانتيل ، خصلات شعرها كانت أكثر
 غزارة من المعتاد ، من دون أية حلية .

راحت تشكو زيارته النادرة ، فوجد وسيلة لقول شيء .
 كان المدعوّون يتوافدون . وكطريقة للسلام ، يرمون جدوعهم
 جانباً ، أو ينحنون انحناء عميقة ، أو ، فقط ، هم يخفضون
 الرأس . ثم مرّ زوجان ، وتفرّق الجميع في الصالون الممتلئ .

في الوسط ، تحت الثريا ، محسبة ضخمة عليها حوض ،
 زهوره المحنية كما ريش الزينة في القبعات ، تميل رأس النساء
 الجالسات في شكل دائرة ، حولها ، بينما أخريات يشغلن مقاعد في
 خطين مستقيمين تفصلهما ، بتناسق ، ستائر النوافذ التي من يحمل

صديّ اللون ، وكوى الأبواب العالية المذهّبة السّاكف *
 جماعة الرجال الواقفين ، وقبّعاتهم في أيديهم ، تبدو ، من
 بعيد ، كتلة واحدة سوداء ، حيث أشرطة العرى تجعل هنا وهناك
 نقاطاً حمراء ، وتجعلها أكثر عتمة الرتابة البيضاء التي لربطات
 العنق . بعض شباب لحاهم ما تزال طريّة يدون ، جميعاً ،
 ضجرين ، وبعض متأثّقين ، بوجوه عابسة ، يتميلون في
 أمكنتهم . الشعور المستعارة كثيرة كانت ، فالرؤوس رماديّة .
 وبين مكان وآخر ، تلمع جمجمة صلعاء ، والوجوه ، إما ارجوانيّة
 أو كثيرة الشحوب ، تجعلك ترى في تجعّداتها ملامح تعب كبير ،
 الناس الموجودون هنا ، هم سياسيون أو رجال أعمال . وكان
 السيّد دمبروز دعا أيضاً بضعة علماء ، قضاة ، طبيين أو ثلاثة
 مشهورين ، وراح يردّ ، بأوضاع متواضعة ، المدائح التي تطلق
 على سهرته ، والتلميحات إلى غناه .

يدور ، أينما كان ، خدام كثيرون بشرائط ذهبيّة . وتفتّح
 على الستائر شماعدنين كبيرة كباقات من نار . هي تتراءى ،
 أيضاً ، في المرايا ، وفي آخر غرفة الطعام ، يزيّنها الياسمين ، يبدو
 صوان السفرة كمذبح رئيسي في كاتدرائيّة ، أو كمعرض
 مجوهرات ، - لكثرة ما هناك من أطباق ، وأجراس ، ومقارش ،
 وملاعق فضيّة وذهبيّة ، وسط كريستال متعدّد المظاهر وهو
 يتقاطع ، فضلاً عن النجومات والأضواء القوس قزحيّة الألوان .

* أعلى الباب الذي يقابل العتبة .

أما الصالونات الثلاثة الأخرى ، فتكاد تضيق بالآثار الفنية ،
مناظر لأسياد الرسم معلقة في الجدران ، عاج وبورسلان على
أطراف الطاوالات ، طُرف صينية على المناضد المزخرفة ، وتمتد
حواجز واقية مبرنقة أمام النوافذ ، وفي المدفئات باقات كاميليا ،
ومن بعيد ، تنهادر موسيقى خفيفة كطنين نحل .
الرقصات المربعة لم تكن كثيرة ، والراقصون بدوا ،
بثاقلهم ، كمن يتّمم واجباً .

كان يسمع فريدريك عبارات مثل هذه :

- هل كنتِ ، آنستي ، في آخر مهرجان لفندق لامبرت ؟
- لا ، يا سيدي !
- سوف يصير الجو قائظاً !
- نعم ، كثيراً ،
- لمن موسيقى البولكا هذه ؟
- لا أعرف ، يا سيدتي !

وراء ثلاثة مهارشين يتوششون بكلام بذيء . آخرون
يتحدّثون عن السكك الحديد ، عن التجارة الحرة ، رجل رياضي
يروى حكاية صيد ، ملكي وجهوري يتناقشان .

وهو يهيم من جماعة إلى أخرى ، وصل إلى صالون
المقامرين ، حيث ، في دائرة من رجال وقورين ، عرف
مارتينون ، « هو ، الآن ، ملحق بشركة وكلاء بورصة
العاصمة » .

عنقه الضخم الذي بلون الشمع يملأ تماماً عقده الذي هو

تحفة ، معه يبدو شعر صدره الأسود متساوياً . وليحافظ على حدود الأناقة التي تتطلبها سنّه ، وعلى الرفعة التي يفرضها مركزه ، راح يعلّق إبهامه بإبطه حسب استعمال المتأنّقين ، ثم يعود فيضع يده في صدره على طريقة العقائدين . وبالرغم من كون جزمته لامعة جداً ، فهو خلق صدغيه ، ليجعل من نفسه مفكراً .

بعد بضع كلمات ببرود بدأت ، استدار صوب حديث مشبوه . كان ملاك يقول :

- إنها طبقة من الرجال الذين يحلمون بقلب المجتمع !
- يطالبون بتنظيم العمل ! أجاب آخر . أتدرك ما يعني هذا ؟

- ماذا تريد ! قال ثالث ، حين نرى السيّد دو غينو يمدّ يده إلى « العصر » !

- إنهم ، أنفسهم ، محافظون ، يجعلون ذواتهم تقديمين ، ليؤمّنوا لنا أي شيء ؟ الجمهورية ! كما لو هي ممكنة في فرنسا ! جميعهم أعلنوا أن الجمهورية مستحيلة في فرنسا .
- مهما يكن ، قال عالياً رجل ما يهتمون كثيراً بالثورة ، ينشرون عنها قصصاً ، كتباً . . .

- دون أن يحسبوا ، ربما ، أن هناك مواضيع للدرس أكثر أهمية ، قال مارتينون .

تحمّس موظف رسمي ضدّ فضائح المسرح :
- هكذا ، مثلاً ، هذه الدراما الجديدة ، « الملكة مارغو » ، هي تتجاوز الحدود فعلاً ! أين هي الحاجة التي حدّثونا

بها عن الفالوا؟ كل هذا يظهر المَلَكِيَّة المتناقضة ! انه كصحافتكم ! كثيراً تحدّثوا عن قوانين أيلول ، زعموها جيّدة ! أبغي أنا محاضرات المحاكم العرفية لأسكت الصحفيين ! عند أقل وقاحة أسوقهم أمام مجلس عسكري ! ونأقّل !

- أوه ! احذر يا سيدي ، احذر ! قال أستاذ ، لا تهاجم استفتاءاتنا الثمينة للعام ١٨٣٠ ! لنحترم حرياتنا !
كان الأجدر إبطال المركزية ، توزيع فائض المدن في الأرياف .

- إلا أنهم منحّلون ! قال كاثوليكي . اعملوا على تعميق الدين !

استعجل مارتينون إلى القول :

- فعلاً ، انه كابح !

كل الشر يكمن في هذه الرغبة الحديثة ، الارتفاع فوق الطبقة ، الحصول على الترف .

- مع هذا ، اعترض صناعي ، ان الترف يشجّع التجارة . أيضاً استحسن أن يفرض دوق دو نيمور السروال القصير في سهراته .

- حضرها السيّد تيار بالبنطلون أتعرف كلمته ؟

- نعم. ، هو لطيف ! لكنه يصبح دماغوجياً ، وحديثه عن

مسألة المضادات لم يكن بلا تأثير على اعتداء ١٢ نوار .

- آه عجباً !

- إيه ! إيه !

اضطرت الحلقة للانفراج قليلاً ليمرّ خادم حاملاً صينية ،
يريد الدخول إلى صالون المقاهرين .

تغطي الطاولة ، تحت الأضواء الخصرء ، أوراق وقطع
ذهبية . توقف فريدريك أمام واحدة منها ، خسر النابوليونيات
الخمس عشرة التي كانت معه ، استدار على قدم واحدة ووجد
نفسه على عتبة صالون السيدات حيث السيّدة دمبرز .

الصالون مليء بالنساء ، منقاريات على مقاعد بدون
مساند . تبدو تنانيرهن الطويلة المنتفخة حواليهن ، موجات تظهر
فيها قاماتهن ، وتراءى نهودهن من تقوية الصدور . جميعهن
يحملن باقة بنفسج باليد . وقفازاتهن الكامدة اللون تبدى بياض
أذرعهن ، تتدلى ، فوق أكتافهن ، تنسّلات خيوط وأعشاب
عطرية ، وتظن ، مرات ، عند بعض الارتعاشات ، أن الوب
يكاد يقع . لكن احتشام الأوجه يلطف من إثارة الأثواب ،
الكثيرات منهن ، تكاد مسالتهن تكون بهيمية ، ويذكر هذا
التشابه لنساء نصف عاريات ، بداخل « حريم » . وتناهى إلى
ذهن الشاب شبه أكثر مجوناً . في الواقع ، كل أنواع الجمال كانت
هناك : انكليزيات مزخرفات ، إيطالية عيناها تشعان كبركان
فيزوف ، ثلاث أخوات بالأزرق ، ثلاث نورمانديات طريّات
كشجرات تفاح نيسانيات ، شقراء ضخمة مثقلة بالمجوهرات ،
والإمصاصات البيض التي للأماس ، وتهتزّ في الشعور ، كذلك بقع
الأحجار الكريمة المضيئة والمعلقة على الصدور ، وبريق اللؤلؤ
المرافق للأوجه ، كل هذا يمتزج بلمعان المحابس الذهبية ،

بالدانتيل ، بالبودة ، بالريش ، بأجر الأفواه الصغيرة ، بصدف
الأسنان . والسقف ، المدور كقبة ، يجعل صالون النساء هذا
كحوض أزهار ، وينتشر هواء عطر بفعل خفقان المراوح .
فريدريك المرباض وراءهن ، ما رأى كل الأكتاف بغير
عيب ، راح يفكر في « المارشالة » ، مما دفع عنه الاغراء أو سلاه .
مع ذلك انسكب يتأمل السيدة دمبروز ، وجدها جميلة
بالرغم من فمها الطويل إلى حد ما ومنخريها العريضين . لكن
جمالها كان خاصاً . خصل شعرها كما لو فيها ذبول قش ، وجبينها
العقيقي بدا مملوءاً بالكثير من الأشياء ويشير إلى جبين سيد .
كانت .أجلست قربها ابنة أخ زوجها ، وهي صبية على
جانب من البشاعة . وتتململ ، بين وقت وآخر ، لاستقبال
الآتيات ، وتسمع جلبة أصوات النساء المتزايدة كتنققة عصافير .
كان الحديث عن السفراء التونسيين وأثوابهم . سيّدة كانت
حضرت الاستقبال الأخير في الأكاديمية ، أخرى تحدّثت عن « دون
جوان » موليار ، قدّمت حديثاً أمام الفرنسيين . وإذ التفتت
السيدة دمبروز إلى ابنة أخ زوجها واضعة إصبعها على فمها ،
قفزت إلى شفتيها ابتسامة كذّبت سلطتها .
وفجأة ، ظهر مارتينون ، في الجهة المقابلة ، تحت الباب
الآخر . وقفت . قدّم إليها ذراعه . ولكي يراه فريدريك يكمل
ملاطفتاته ، اخترق طاولات اللعب ولحق بهما في الصالون الكبير ،
ابتعدت السيدة دمبروز عن مرافقتها وأتت تحدّثه بودّ .
فهمت أنه لم يلعب ولم يرقص .

- زمن الشباب نكون حزان ! ثم ، راقمة الحفل بنظرة واحدة :

- مع ذلك ، كل هذا ليس غريباً ! أقله لبعض الطبايع !
وتوقفت أمام صف الكراسي المريحة ، موزعة ، هنا وهناك ، كلمات لطيفة ، بينما أتى مستون بمنظارهم المزدوج يتوّدون إليها وبها يتغزلون . قدّمت فريدريك إلى بعضهم . لمسه السيّد دمبروز من كوعه ، برقة ، واصططحه خارجاً إلى الشرفة . كان رأى الوزير . ما كان الأمر سهلاً . قبل أن يكون المرء مندوباً في مجلس الدولة ، عليه أن يخضع لامتحان ، أجاب فريدريك ، وفد أخذته ثقة لا تفسير لها ، بأنه يعرف المواد .

لم يفاجأ الرأسمالي بعد كل ثناء السيّد روك عليه .
عند سماعه هذا الاسم ، تذكر فريدريك لوزير الصغيرة ، بيته ، غرفته . وتذكر أيضاً الليالي المشابهة حيث كان يبقى إلى نافذته ، مصغياً إلى سائقي العجلات يمرون . تذكر هذه الكآبات أدّى به إلى تصوّر السيّد أرنو ، فصمت متابعاً المشي على الشرفة . فتحات النوافذ ترسل ، وسط الظلمات ، أنواراً حمراء مستطيلة ، راح يضعف صخب الحفل ، وابتدأت العربات بالذهاب .

- لماذا تصرّ على مجلس الدولة ؟ قال السيّد دمبروز .
وأكد له بنبرة ليبرالية ، أن الوظائف العامة لا تؤدّي إلى شيء ، يعرف بعض أشياء عنها ، تفضلها الأعمال . فاعترض فريدريك على صعوبة تعلّمها .

- لا يهَمُّكَ ! في وقت قصير أضعك في أجوائها .
 أكان يريد مشاركته في مشاريعه ؟
 وكما في رؤيا ، لمح الشاب أن ثروة هائلة سوف تأتيه .
 - فلندخل ، قال المصرفي . ستتعشى معنا ، أليس
 كذلك ؟
 كانت الساعة الثالثة ، بدأوا يذهبون . وطاولة جاهزة في
 غرفة الطعام تنتظر الخاصة .
 رأى السيد دمبروز مارتينون ، فتقدّم إلى امرأته وسألها
 بصوت خافت :
 - هل أنتِ دعوته ؟
 بخشونة أجابت :
 - طبعاً !
 ما كانت ابنة الآخر هنا . شربوا جيداً وضحكوا عالياً ،
 تجرّأوا في الدعابات ، كلهم أحسّوا بهذه الرشاقة التي تلي الواجبات
 الطويلة إلى حدّ ما . وحده ، مارتينون ، بدا رصيناً ، رفض
 شرب الشمبانيا تهديباً ، هو دمّ ، على كل حال ، ومفرط
 التهذيب ، لأن السيد دمبروز ، إذ راح يشكو من إحساس
 بالاختناق ، لكونه ضيق الصدر ، صار هو يسأله عن صحته مرة
 بعد مرة ، ثم يوجّه عينيه الزرقاوين ناحية السيّد دمبروز .
 هي طففت تسأل فريدريك عمّن أعجبه من الشخصيات
 الشابة . ما كان انتبه إلى أحد منهم ، وهو يفضل ، على كل
 حال ، النساء الثلاثينيات .

- ليس هذا سيئاً ! أجابته .
ثم ، إذ راحوا يرتدون ستراتهم المبطنة بالفرو ، قال له
السيد دمبرز :
- تعال إليّ في صباح ما نتحدث !
عند أسفل الدرج ، أشعل مارتينون سيجاراً ، وبدا ، وهو
يمتصّه ، ثقیل الرأس ، فقال رفيقه :
- والله ، إن رأسك الجميل !
- وقد أمال إليه رؤوساً كثيرة ! أجاب المأمور القضائي
الشاب ، بنبرة ، هي في الآن ذاته ، واثقة ومغتازلة .
قبل النوم استعرض فريدريك السهرة . أولاً زينتته (كان
نظر إلى ذاته مرات كثيرة في المرايا) ، من قصة الثوب حتى عقدة
الحذاء ، تحدّث إلى رجال محترمين ، رأى عن قرب ، نساء
ثريات ، وبدا السيد دمبرز ممّازاً والسيدة دمبرز تكاد تكون
جذابة . زان كلماتها ، كلمة كلمة ، نظراتها ، ألف. أمر غير قابل
للتحليل ومع ذلك معبر . سيكون فخوراً إن حصل على عشيقة
مماثلة ! لم لا ، بعد كل شيء ! انه يوازي أي شخص آخر ! لربما
هي ليست صعبة ! بعدها ، عاد مارتينون إلى ذاكرته ، وهو
يعفو ، ابتسم شفقة على هذا الشاب الطيّب .
أيقظته فكرة « المارشالة » ، كلمات رسالتها هذه : « ابتداءً
من مساء الغد » ، هي ، حتّى ، موعد للنهار ذاته . انتظر حتى
التاسعة ، وركض إليها .
شخص ما ، أمامه ، وكان يصعد الدرج ، أغلق الباب .

هو دقّ الجرس . أنت دلفين تفتح ، وأكدت أن السيّدة ليست هنا .

أصرّ فريدريك . توّسل قال عليه أن يوصل إليها أمراً مهماً ، كلمة بسيطة . أخيراً ، نجحت حجة المئة فلس ، وتركته الخادمة وحيداً في غرفة الانتظار .

ظهرت روزانيت . كانت في القميص ، وشعرها مفكوك . وهي تحرك رأسها من بعيد ، قامت بحركة كبيرة في يديها بمعنى لا تستطيع استقباله .

على مهل ، نزل فريدريك الدرج . فاق هذا الثقل كل ما سبقه . ما فهم شيئاً من ذلك .

وأمام مأوى البوّاب ، أوقفته الأنسة فاتناز .

- هل استقبلتك ؟

- لا !

- طردتك ؟

- كيف عرفت ؟

- الأمر واضح ! إنما تعال ! لنخرج ! أكاد أختنق !

اصطحبته إلى الشارع وكانت تلهث . أحسّ ذراعها

الضعيفة ترتجف على ذراعه . وفجأة انفجرت :

- آه ! يا للمسكين !

- مَنْ ؟

- إنما إنه هو ! هو ! دلمار !

هذا الكشف أغضب فريدريك ، أجاب :

- متأكدة أنت ؟

- لكني تبعته ! أقول لك ، قالت الآنسة فاتناز ، رأيته يدخل ! أتفهم الآن ؟ كان عليّ أن أنتظر هذا . أنا ، ببلاهي ، جئت به إليها . ولو كنت تعرف ، آه ، يا إلهي ، فقد لمته ، أطعمته ، كسوته ، ويا ما عملت له في الصحف ! أحببته كأّم ! - وبسخرية : - آه ! السيد تلزمه ملابسه المخملية ! مضاربة من قبله ، فكر ملياً ! وهي ! عرفت ما تجهّز بياضات ! بدوني ، كادت تتصوّر جوعاً ، أكثر من عشرين مرة . لسوف أدفعها إلى ذلك ! أوه طبعاً ! أريدها أن تموت في المستشفى ! سنعرف كل شيء ! وراح غضبها ، كشلال ماء يجرف أقداراً ، يُظهر لفرديريك بصخب ، عاز منافستها .

- لقد ضاجعت جوميلاك ، فلاكور ، الآر ، برتينو ، سان فاليري ، المجدور . لا ! الآخر ! هما اخوان ، ما يهم ! وحين يحدث لها مشاكل ، أسوّمها لها . ماذا كنت أستفيد ؟ هي في منتهى البخل ! ثم ، وأنت توافقني الرأي ، كانت مسيطرة لطيفة ان أراها ، لأننا ، في الأخير ، لسنا من مستوى واحد ! أنا عاهرة ؟ هل أبيع نفسي ؟ بصرف النظر عن أنها خرقاء كملقوفة ! فهي تكتب فئة همزة على الألف . وفي الأخير ، هما متساويان ، هما زوجان ، مهما تسمي فتاناً وحسب ذاته موهوباً ! إنما ، يا إلهي ! لو يملك بعض ذكاء لما أقدم على عمل شائن كهذا ! لا نهجر امرأة رفيعة الشأن بسبب ندلة ! أستخف بهما ، بعد كل شيء . يتحوّل بشعاً ! بت أكرهه ! لو التقيته لبصقت في وجهه . - بصقت . -

نعم ، هذا ما سأفعله الآن ! وأرنو ؟ هل هو كريحه ؟ لقد غفر لها مرات كثيرة ! لا يمكننا تصوّر تضحياته ! كان عليها تقبيل قدميه ! إنه كريم ، وطيب جداً !

كان فريديريك مسروراً لسماعه اغتيال دلمار . كان قبل أرنو . بدا له مكر روزانيت أمراً غير مألوف ، غير عادل ، وصار ، متعاطفاً مع هذه العانس ، يحس نوعاً من الحنان تجاهها . وفجأة ، وجد نفسه أمام بابه ، كانت الأنسة فاتناز ، على غفلة منه أنزلته حي بواسونير .

- ها نحن هنا ، قالت . أنا ، لا أستطيع الصعود . إنما أنت ، فلا شيء يمنعك .

- لماذا إذن ؟

- لتقول له كل شيء !

وكمّن يستيقظ قافزاً ، فهم فريديريك إلى أي عمل معيب قادته .

- وبعد ؟ قالت له .

رفع عينيه إلى الطابق الثاني . قنديل السيّد أرنو مضاء . في الواقع ، لا شيء يمنعه من الصعود .

- أنتظرك هنا . اصعد !

هذا الأمر ثبّط عزيمته ، فقال :

- سأبقى ، فوق ، طويلاً . يكون من الأفضل لو تعودين . أذهب إليك في الغد . قالت فاتناز ، خابطة بقدمها :
- لا ، لا ، لا ! خذه ! اصطحبه إلى هناك ! دعه يفاجئهما !

- لكن دلمار يكون ذهب !
خفضت رأسها .
- نعم ، قد يكون هذا صحيحاً .
ونفيت صامتة ، وسط الشارع ، بين العربات ، ثم
قالت ، مركزة عليه عينيها كعيني هرة متوحشة :
- يمكنني الاعتماد عليك ، أليس كذلك ؟ خلّ الأمر
بيننا ، هو جليل ! تصرف إلى الغد !
سمع فريدريك وهو يجتاز الممشى ، صوتين يتجاوبان .
صوت السيّد أرنو يقول :
- لا تكذب ! لا تكذب !
دخل فصمنا .
كان أرنو يتمشى طويلاً وعرضاً ، والسيّد جالسة على
تكرسي الصغيرة قرب النار ، شاحبة الوجه ، جامدة النظرة .
رأى فريدريك الانسحاب . أخذ أرنو من يده ، سعيداً بالنجدة
المواصلة .
- لكنني أخشى . . .
- إبق ! همس أرنو في أذنه .
قالت السيّد :
- يجب أن نكون متساهلين ، سيّد مورو ! هذه من الأمور
التي نصادفها أحياناً في العائلات .
- هذا لأن هناك من يضعها هنا ، قال أرنو بجرأة . النساء
من لك نزوات . هكذا ، هذه الآن ، مثلاً ، ليست سيّئة . لا .

على العكس ! ومنذ ساعة وهي تتسلّى بأن تضاعفني بكدة قصص .

- هي حقيقة ! أجابت السيّد أربو ، نافذة الصبر لأنك ، أخيراً ، اشتريته .
- أنا ؟

- نعم ، أنت نفسك ! من محل « برسان » !

فكر فريدريك : « الكشمير » !
شعر بنفسه مذنباً وخاف .

وتابعت :

- كان هذا الشهر الماضي ، السبت ١٤

- آه ! في هذا اليوم بالذات كنت في « كراي » ! ترين ؟

- أبداً ! فنحن تعشينا عند آل برتان ، في ١٤

- ١٤ ؟ ... قال أرنو رافعاً عينيه كمن يبحث عن تاريخ .

- الموظف الذي باعك إياه كان أشقر !

- هل أستطيع تذكر الموظف !

- وقد كتب ، ياملاء منك ، العنوان : ١٨ ، شارع دي

لافال .

- كيف عرفت ؟ قال أرنو مدهوشاً .

هزّت كتفيها .

- أوه ! الأمر في غاية البساطة : كنت هناك لأصلح خماري

الكشميري ، فأخبرني مسؤول عن جانح أنهم أرسلوا واحداً مشابهاً إلى السيّد أرنو .

- هل ذنبي إذا كان هناك ، في الشارع نفسه ، سيّدة أرنو أخرى ؟

- طبعاً ! إنما ليس جاك أرنو ، أجابت .
حينها ، راح يهذي متمسكاً ببراءته . انها غلطة ، صدفة ،
واحدة من هذه الأمور التي تحصل ولا تفسير لها . يجب ألا نحاكم
الناس بناء على الشكوك ، والاشارات المبهمة ، وأعطين مثلاً عن
السيّء الحظ لوسورك * .

- أوكد أنّك على خطأ ! تريدان أن أقسم لك بشرفي ؟

- لا ضرورة لذلك .

- لماذا ؟

نظرت إليه في وجهه ولم تقل شيئاً ، ثم مدّت يدها ،
أخذت علبة الحلّى من على المدفأة ، وناولته فاتورة كبيرة .
احمرّ أرنو حتى أذنيه ، وانتفخت أوداجه المتشنّجة .
- وبعد ؟

بهدوء أجاب : - إنما . . . ما تثبت هذه ؟

- آه ! قالت بنبرة خاصة فيها الألم والسخرية معاً . آه .
احتفظ أرنو بورقة الحساب بين يديه ، طواها ولم يعل بنظره
عنها كأنه اكتشف فيها حلاً لمشكلة معقّدة . قال أخيراً :

- أوه ! نعم ، نعم ، أتذكّر ، إنها تكليف . . . يجب أن
تعرف هذا أنت يا فريدريك . - صمت فريدريك . - تكليف من

* أعدم سنة ١٧٩٦ بتهمة قتل ساعي بريديون ، ثم تبيّن ، في مابعد ، أنه بريء .

قبل . . . من قبل السيّد أودري .
- ولمن ؟
- لعشيقته !
- لعشيقتك أنت ! صرخت السيّدة أرنو ، ناهضة بقوة .
- أقسم لك . . .
- لا تعد ! أعرف كلّ شيء !
- آه ! حسناً ! هكذا يتجنّسون عليّ !
ببرود أجابت :
- ربما هذا يجرح شعورك ؟
- طالما أنك تغضبين ولا وسيلة للتفاهم ! أجاب أرنو آخذاً
قبعته .
وبعد تنهّد عميق :
- لا تتزوّج أنت ، يا صديقي المسكين ، لا تتزوّج ،
صدّقني !
وخرج فجأة .
خيم صمت ثقيل . وبدأ ، كل شيء في المنزل إنه في حاجة
إلى الهواء . أكثر جموداً . دائرة نور ، فوق مصباح الزيت ، ترسم
على السقف ، بينما يمتدّ ، في الزوايا ، ظل ستائر شفافة . . . كنت
تسمع تكتكة الساعة وزفير النار .
جلست السيّدة أرنو في الزاوية الأخرى للمدفأة . كانت
تعضّ شفتيها مرتجفة ، رفعت يديها إلى عينيها ، بدت تنحب
بأكية .

جلس هو على كرسي صغير ، وبصوت ناعم به نتوحه إلى مريض ، همس :

- تعتقدين اني أقدر أن أساركك ؟

لم تجب بشيء . إنما ، قالت مكملة تفكيرها بصوت مرتفع :

- أتركه حراً ! لم يكن بحاجة ليكذب !

- بالطبع ! قال فريدريك .

إنها ، ولا شك ، عاقبة عاداته ، ما فُكر فيها ، وربما هو في أمور أهم ...

- أترى أموراً أكثر أهمية من هذه ؟

- أوه ! لا ! لا شيء !

أحني فريدريك رأسه وبسمة موافقة على شفتيه . مع ذلك ، فأرنو يمتلك بعض صفات ، هو يحبّ ولديه .

- آه ! لقد فعل كل شيء لخرابهما !

- هذا متأث من سهولة طبعه ، هو إنسان طيب .

صرخت :

- ماذا يعني أن يكون إنساناً طيباً ؟

وهكذا ، راح يدافع عنه بالطريقة الأكثر غموضاً التي استطاع أن يجدها ، وكان مسروراً ، في قرارة نفسه ، وهو يؤاسيها . فُكر : ستلجأ إليه ، إما انتقاماً وإما لاحتياجها إلى العاطفة . أمله ، وقد كبر بلا حدود ، راح يقوّي حبه .

ولا مرة بدت له أسرة هكذا ، وجهيلة إلى هذا الحد . ترفع

صدرها ، بين وقت وآخر ، نهدة ، تبدو عيناها تتوسّعان بفعل رؤيا نفسيّة ، وبقيّ فمها نصف مطبق كما لحظة الموت . أحياناً ، ترفع محرماتها إلى وجهها وتضغط بها بقوة ، هو اشتهاى تلك القماشة التي من الباتيستا المبلّلة بالدموع . وبالرغم منه ، يخلّص النظر إلى السرير في طرف المخدع ، متخيلاً رأسها على المخدّة ، ويتراءى له ذلك بوضوح ، إلى حد هو يمسك نفسه عن ضمها بذراعيه . أطبقت جفونها ساكنة ، ثابتة . حينها ، اقترب منها أكثر ، وراح منحنيّاً صوبها ، يتأمل وجهها بلهفة . سمع صوت جزمة في المشى ، كان الآخر . سمعاه يقفل باب غرفته . بالاشارة ، سألتها فريدريك إن كان عليه أن يخرج .

بالاشارة أجابته « نعم » ، وهذا التبادل الأخرس للأفكار ، رآه نوعاً من الموافقة ، بداية لخيانة زوجيّة . كان أرنو ، وهو يتحضّر للنوم ، يخلع سترته الطويلة ، سأله :

- وبعد ، كيف هي الآن ؟

- أوه ! أحسن ! قال فريدريك . سيتهي الأمر !

لكنّ أرنو كان قلقاً .

- لا تعرفها أنت ! هي ، الآن ، على أعصابها ! . . . يا

للموظف الأبله ! هوذا ما يعني أن يكون الانسان طيباً ! لو لم أعط روزانيت هذا الخمار الحس

- لا تأسف على شيء ! إنها ممتنة لك فوق أي حد !

- أو تظن ؟

ما كان فريدريك يشك . البرهان أنها طردت السيد
أودري .

- آه ! يا للمسكين !

وفي قمة انفعاله ، أراد أرنو الاسراع إليها .

- لا ضرورة لهذا ! إن آت من عندها . هي مريضة !

- وهذا سبب مهم للذهاب إليها !

ارتدى ، من جديد ، سترته الطويلة ، وتناول شمعدانه
الصغير . لعن فريدريك نفسه لغباوته ، وقال له إن من اللياقة
البقاء الليلة مع امرأته . يجب ألا يتركها ، يكون الأمر سيئاً تماماً .

- بصراحة ! تخطيء إن فعلت ! لا شيء يستدعي

العجلة ! تذهب في الغد ! هيا ! افعل هذا من أجلي .

وضع أرنو شمعدانه ، وقال له وهو يقبله :

- كم أنت انسان طيب ، أنت !

III

وابتدأت ، بالنسبة لفريدريك ، مرحلة صعبة . صار طفيلي البيت .

إن مرض أحد ، بعوده ثلاث مرات ، في النهار الواحد ، ليعرف أحواله ، يذهب عند مصلح البيانو ، يخترع ألف مجاملة ، ويعاني ، بمظهر سعيد ، حرد الأنسة مارت ومداعبات أوجين الصغير ، الذي كان ، باستمرار ، يداعب له وجهه بيديه الوسختين . يكون حاضراً في العشاء ، حيث السيد والسيدة متواجهان ، ولا يتبادلان كلمة ، أو يزعج أرنو زوجته بملاحظات سخيفة . ويلعب ، بعد انتهاء الطعام ، في غرفته مع ابنه ، يختبئ خلف الأثاث ، أو يحمله على ظهره ، داباً على يديه ورجليه . بعدها يخرج ، فتبدأ هي مباشرة موضوع شكواها الدائم : أرنو .

لم يكن سوء سيرته ما يزعجها . لكنها تتألم في كبريائها ، وتظهر اشمئزازها من هذا الرجل غير المرفه ، والذي بلا كرامة ولا عزة .

- أو ، بالأحرى ، هو مجنون ! كانت تقول .
وراح فريدريك بمهارة يغريها بالمساة . وسريعاً ما عرف كل

حياتها

ذووها من البورجوازيين الصغار في شارتر . ويوماً ، إذ كان أرنو يرسم على ضفة النهر (في ذلك الزمن كان يحسب نفسه رساماً) ، رآها وهي تخرج من الكنيسة وتطلبها للزواج ، وبسبب ثروته ، لم يمانع أهلها . على كل حال ، كان يحبها بوله . أضافت : يا إلهي ! ما يزال يحبني ! على طريقته ! سافرا ، في الأشهر الأولى ، إلى إيطاليا .

وبالرغم من غرام أرنو بالمناظر والروائع ، ما اهتم إلا بالخمر ، وطفق ينظم نزهات إلى البراري مع انكليز ليتسلى . حضته على التجارة في الفنون ، لوحات باعها بثمن مرتفع . ثم أولع بمصنع خزف . والآن ، مضاربات أخرى تغريه ، وصار يتخذ عادات ماحنة وباهظة الثمن . كانت تلومه على منكراته أكثر من أي أمر آخر . لم يتغير شيء ، وها تعاستها لا تعوض . من جهته ، أكد فريدريك أن حياته ناقصة .

مع أنه شاب ، فلماذا اليأس ؟ وراحت تنصحه : « اعمل ! تزوج ! » يجيبها بابتسامات مُرّة ، إذ انه ، بدلاً من أن يعبر عن سبب حزنه الحقيقي ، يخلق آخر ، أشد نبلاً ، ويجعل نفسه أنطوني ، المنكود الحظ ، وهذا كله ، في النهاية ، لا يغير شيئاً مهماً في أفكاره .

بالنسبة إلى بعض الرجال ، إن العمل مستحيل التنفيذ بمقدار ما تكون الرغبة قوية . عدم الثقة بأنفسهم يقلقهم ، الخوف من ألا يرضوا يؤرقهم ، على كل حال ، إن التعلق العميق

يشبه النساء الفاضلات ، هنّ يخفنّ افتضاح أمرهنّ ، فيفضين الحياة حافضات العيون .

وبالرغم من كونه عرف السيّد أرنو أكثر (وربما بسبب هذا) ، صار أجبن ممّا سبق . يقسم لنفسه ، كل صباح ، أن سيكون جسوراً . ويمنعه حياء لا يقهر ، وما كان بإمكانه أن يتصرّف وفق أي مثل ، لأن هذه تختلف عن الأخريات . وبقوّة أحلامه ، جعلها فوق الحدود الانسانيّة ، يشعر ، إلى جانبها ، أنه أقلّ أهمية على الأرض ، من نُتف الحرير التي تهملها بمقصّها . ثم يروح يفكر في أشياء هائلة ، لا معقولة ، كالمفاجآت ، ليلاً ، بمنوم ومفاتيح مزوّرة . - كل شيء ، يبدو له أسهل من أن يعرّض حاله للاحتقار .

وهكذا يرى الولدين ، الخادمتين ، ترتيب الغرف ، صعوبات لا تُغلب . إذن ، يقرّر أن يمتلكها وحده ، والذهاب بعيداً ، للحياة معاً في قلب وحدة ، وحتى ، فهو يبحث على أية بحيرة صافية الزرقة ، على ضفة أي شاطئ جميل سيكونان ، في اسبانيا ، في سويسرا ، أو في الشرق ، ويختار الأيام التي هي فيها أكثر سخطاً ، ويقول لها انه عليها الخروج من هنا ، تصوّر طريقة ما ، ولا يجد هو أفضل من الانفصال . ولكن ، لن تتوصّل إلى هكذا نهاية حباً بأولادها . وهكذا فضيلة تزيد من احترامه .

يقضي بعد ظهر أيامه بتذكّر زيارته ليلة أمس ، وباشتائه زيارة الليلة . وحين لا يتعشى معهم ، يربط ، في التاسعة ، في زاوية الشارع ، وفور إقفال أرنو الباب وراءه ، يصعد فريدريك ،

بنشاط ، الدرج وبسأل الخادمة بمظهر ساذج :

- هل السّد هنا ؟

فـ « يفاحاً » بأنه لم يجده .

وغالباً ما كان يعود أرنو بغتة . فيتحتّم لحاقه إلى مقهى

صغير في شارع القديسة حنة ، حيث يكون ريجمبار

يبدأ « المدبّي » بالكلام ضد العرش . يذكر تظلمات

جديدة . تم يدور الحديث شتائم ، لأن صاحب المصنع يحسب

ريجمبار مفكراً من طبقة رفيعة ، ولكونه حزين لرؤيته وسائل كثيرة

ضائعة ، يروح يؤتبه على كسله . ويظن « المدبّي » أن أرنو رجل

شجاع وصاحب خيال ، لكنه ، بالطبع ، خليع ، ولا يتساهل في

معاملته معه ويرفض ، حتى ، العشاء عنده لأنّ « الرسميات

نزعه » .

أحياناً ، لحظة الوداع ، يشعر أرنو بجوع شديد . يكون في

حاجة لأن يأكل عجة بيض أو تفاحاً مطبوخاً . وبما أن المأكولات

لا توجد حيث هو ، فانه يرسل يطلبها . لا يذهب ريجمبار ،

وينتهي الأمر بأن يأكل شيئاً معه . إلا أنه يبقى كثيراً . فهو يظل ،

لساعات ، أمام الكأس نصف المملأى نفسها . وبما أن العناية

لا تدبر ، أبداً ، الأمور حسب مشتهاه ، يقع في السوداوية ،

ولا يريد أن يقرأ الجرائد ، بعد ، ويطلق زجرات لمجرد سماعه

اسم انكلترا . صرخ مرة بسبب خادم المقهى ، وقد أساء

خدمته :

- أليس عندنا ما يكفيننا من العار من الخارج !

وعدا هذه النوبات ، يبقى سكوتاً ، متأملاً « ضربة أكيدة
النجاح تفجّر كلّ المحل » .

وفيمّا يكون مأخوذاً في هذه الأفكار ، يروح أرنو ، بصوت
رتيب ونظرة سكرى ، يروي حكايات لا تصدّق ، برع فيها
دائماً ، بسبب ثقته بنفسه . ويدي فريدريك (لتشابه عميق)
تعاطفاً معه . ويلوم نفسه على ضعفه هذا واجداً أنه ، على
العكس ، عليه أن يكرمه .

تألم أرنو أمامه لمزاج زوجته ، عنادها ، أحكامها المسبقة غير
العادلة . ما هكذا كانت من زمان .

- لو كنت مكانك ، قال فريدريك ، لأعطيها نفقة وعشت
وحيداً .

ما أجاب أرنو بشيء ، ثم شرع في مديحها . فهي طيبة ،
مخلصة ، ذكية ، فاضلة ، وإذا انتقل إلى مزاياها الجسدية ، راح
يغالي في الكشف عنها ، بخفة هؤلاء الناس الذين يعرضون
كنوزهم في الفنادق .
كارثة أخلّت بتوازنه .

كان دخل ، كعضو في مجلس المراقبة في شركة صلصال .
إنما ، بما أنه يثق بكل ما يقال له ، وقّع على تقارير خاطئة ،
وصدّق ، بدون تدقيق ، البيانات السنوية المرفوعة ، من الوكيل ،
بخداع . وبما أن الشركة انهارت ، وهو قانوناً المسؤول ، فقد
حكم عليه ، مع الآخرين ، بضمان التعويضات ، مما جعله يخسر
حوالى الثلاثين ألف فرنك ، مزيدة عليها نفقات الحكم .

عرف فريدريك هذا من جريدة ، فأسرع إلى شارع
« الفردوس » .

استقبل في غرفة السيِّدة . كان الوقت حين فطور الصباح .
تزدحم الاسكاملة ، قرب النار ، بأقداح القهوة بالحليب . وتناثر
على السجادة أحذية قديمة ، وثياب على الكراسي . كانت عينا
أرنو ، الذي لا يزال بثياب النوم ، حراوين وشعره مشعثاً ،
أوجين الصغير يكي بسبب « أبو كعيب » ، وهو يقضم
« عروسة » صغيرة ، أخته ، بهدوء ، تأكل ، تخدم الثلاثة ،
السيِّدة أرنو الأكثر شحوباً من المعتاد .

زفر أرنو نهدة عميقة وقال : - وبعد ، لقد عرفت ! - وإذ قام
فريدريك بحركة شفقه ، أضاف : - هكذا ! لقد كنت ضحية
ثقتي !

ثم صمت . كان إرهاقه عظيماً إلى حد رفض الطعام .
رفعت السيِّدة أرنو عينيها هاژة كتفيها . مرّ يديه على جبينه .
- لست مذنباً . لا أوأخذ نفسي على أمر . انها مصيبة !
أستقيل منها ! آه ! ماذا تريد !

وشرع يأكل فطيرة حلوى ، مستجيباً في ما تبقى ،
لتوسّلات امرأته .

في المساء ، أراد أن يتعشياً معاً ، وحدهما ، في غرفة خاصة
في « البيت الذهبي » . لم تفهم السيِّدة أرنو شيئاً من هذا الأمر ،
مغتازلة حتى لكونها ظنّته يعاملها كغادة ماجنة ؟ - لكن أرنو ، على
العكس ، أراد بهرناً على عاطفته . وإذ رأى نفسه يكاد يضجر ،

توجّه يتسلّى عند « المارشالة » .

حتى الآن ، هم تفاضوا له عن أمور كثيرة بسبب طبيته .
دعواه صنفته بين المصايين بعاهات . وأحاطت الوحدة بمنزله .
حسب فريدريك ، بنخوته ، أنه من الضروري مخالطتهما
أكثر . فحجز مقصورة في المسرح ، إليها يذهبون كل أسبوع .
غير أنها كانا في تلك الفترة التي فيها الزواج المتنافر ينتج منه ملل
لا يُفهر يجعل الحياة لا نطاق . تمسك السيّد أرنو نفسها لثلاث
تنفجر ، وأرنو يكتب ، ومرأى هذين الكائنين الناسيين يُحزن
فريدريك .

هي ، عهدت إليه ، بما أنه حظي بثقتها ، في أن يتحرّى
عن أعماله . لكنه يخجل ، يتألم ، كان ، لكونه يتعشى عنده وهو
يطمع بامرأته . إلا أنه ثابر على ذلك واجداً لنفسه عذراً هو أنه
يدافع عنها وأنّ كلّ مناسبة تقرّبها إليه تنفعه .

بعد ثمانية أيام من الحفل قام بزيارة للسيّد دمبوز . قدّم
إليه هذا التحوّل أعمالاً عدة ، في مشروعه المتعلق بالفحم
الحجري ، ما رجع إليه فريدريك . كتب إليه ديلوريه رسائل ،
أبقاها من دون ردود . دعاه بيلران لرؤية الرسم ، كان يُعبده
دوماً . غير أنه ماشى سيزي ، الذي كان أزعجه بالالحاح ليعرفه
إلى روزانيت .

استقبلته بالترحاب ، إنما من دون أن تقفز إلى عنقه ، كما
من زمان . كان رفيقه سعيداً ، لأنه حظي باستقبال فاحشة ،
وبخاصة لكونه تحدث مع ممثّل ، دلمار كان هناك .

كانت دراما لعب فيها دور قرويّ يوجّه لويس الرابع عشر ويتنبأ بسنة ٨٩ ، قد أبرزته إلى أحد انهم باتوا يكتبون له أدواراً مشابهة ، وتقوم وظيفته ، حالياً ، على السخرية من ملوك كلّ البلدان . صانع جعة انكليزي يذم شارل الأوّل ، طالب في سلمنكا يلعن فيليب الثاني ، أو هو والد مرهف يسخط على السيّدة بومبادور ، وهذا هو الدور الأجل ! بات ينتظره المراهقون ، ليروه ، على أبواب المسرح الخلفيّة ، وتباع سيرة حياته أوقات الاستراحة وهي ترسمه كمعتن بأمّه المسنة ، قارئ الانجيل ، مساعد الفقراء ، تقرّبه من مزايًا قديس شبيه بالقديس منصور دو بول على شيء من بروتس وميراو . صاروا يقولون : « دلمانا » . باتت له رسالة ، يشبّهونه بالمسيح .

كل هذا فتن روزانيت ، فتخلّصت من السيّد أودري غير مهمّة بشيء لأنها ليست طماعة .

وأرنو ، كان يعرفها ، استمتع بها لزمن ما ، وإذ تقدّم الرجل الآخر ، اهتّم الثلاثة بالآ يتصارحوا . وإذ تصوّر أنها صرفت الآخر لأجله وحده ، زاد أرنو من الانفاق عليها . لكن طلباتها تتجدّد بكثرة لا مبرّر لها ، فهي تعيش حياة أقل كلفة ، حتى أنها باعت خمار الكشمير ، مصرّة على أن تفي ديونها القديمة ، كما قالت ، وهو يعطي باستمرار ، فهي تسحره ، وتفترّط به من غير شفقة . وهكذا الفواتير والأوراق المدفوعة تمطر في البيت . شعر فريدرريك بكارثة وشيكة .

حضر ، يوماً ، لرؤية السيّدة أرنو . كانت خرجت .

والسيد يعمل ، تحت ، في المخزن .
 في الواقع ، كان أرنو وسط آنيته الصينية الكبيرة ، يحاول
 استمالة أزواج جدد من بورجوازيي الريف . يتحدث ، كان ،
 عن الخرط ، عن المجزّع والمصقول ، ما أراد الآخرون الظهور
 مظهر من لا يفهم ، فراحوا يومتون موافقين ويشترون .
 حين خرج الزبائن من عنده ، أخبره أنه تخانق ، في
 الصباح ، مع زوجته . وانه ، استباقاً لملاحظاتها حول الانفاق ،
 أكد لها أن « المارشالة » لم تصبح بعد عشيقته .
 - قلت لها ، حتى ، انها عشيقتك أنت .
 زعل فريدريك ، لكن أي توبيخ منه قد يفضحه . لذلك
 همس :

- آه ! لقد أخطأت خطأ كبيراً !
 ماذا يمكن أن يحدث ؟ وتابع أرنو : أين العار في أن تكون
 عشيقها ؟ طالما أني كذلك ، ألا يسرك أن تكون أنت كذلك ؟
 أتراها باحت بشيء ؟ هل هذا تلميح ؟ استعجل فريدريك
 للاجابة :

- لا ! أبداً ! بالعكس !
 - إذن ؟
 - نعم ، صحيح ! لا يهم !
 قال أرنو :
 - لماذا بت لا تأتي إلى هناك ؟
 وعد فريدريك بالعودة .

- آه ! كدت أنسى ! عليك . . . وأنت تتحدّث عن روزانيت . . . أن تجعل امرأتي . . . كيف أقول . . . ستجد قولاً يجعلها تلمس أنك عشيقها . أطلب إليك هذا كخدمة !
قَطَب الشاب وجهه ولم يجب . أفقدته هذه النميّة صوابه . وفي المساء ذاته ذهب إليها يقسم أن ادّعاء أرنو ليس صحيحاً .

- صحيح ؟
رأته صادقاً ، وبعدما تنهّدت عميقاً ، قالت :
« أصدّقك » ، مع ابتسامة جميلة . ثم خفضت رأسها ، ومن دون أن تنظر إليه :

- وفوق ذلك ، ليس لأحد عليك أيّ حقّ !
ما عرفت شيئاً إذن ، واحتقرته ، رأته لا يحبّها بما فيه الكفاية ليكون لها مخلصاً ! نسي فريدريك مبادراته عند الأخرى ، ووجد الأذن مهيناً .

التمست منه ، بعد هذا ، أن يذهب أحياناً « عند هذه المرأة » ليرى ما يحدث هناك .

ودخل فجأة أرنو ، وبعد خمس دقائق أراد أن يصحبه عند روزانيت .

صار الوضع لا يطاق .
التهى عن ذلك برسالة من الكاتب العدل تنبئه بتسلم خمسة عشر ألف فرنك ، غداً . وليعوّض إهماله تجاه ديلورييه ، ذهب مباشرة إليه يخبره بالحدث .

يسكن المحامي في ساراع « المريمات الثلاث » ، في طابق خامس يشرف على الساحة . مقرّه ، غرفة صغيرة مرصوفة بلاطاً ، باردة ، ومزينة بورق رمادي ، ديكورها الأساسي مدالية ذهبية ، هي جائزته في الدكتوراه ، موضوعه في إطار أبنسي قرب المرأة . ومكتبة من خشب الأكاجو تضم ، خلف الزجاج ، مئة كتاب تقريباً . المكتب مغطى بجلد ناعم ، وهو يشغل وسط المكان . كراس مغملية أربع موزعة في الزوايا ، وفي المدفأة تشتعل نشارة حيث ، دائماً ، حزمة حطب حاضرة للاشتعال عند قرع الجرس . إنها ساعة الاستشارات ، كان المحامي بربطة عنق بيضاء .

خبر الخمسة عشر ألف فرنك (ما كان يعتقد ان المبلغ أكبر) أحدث فيه ضحك لذة ، أفرحه .

- هذا حسن ، يا صديقي ، هذا حسن ، حسن جداً !
رمى حطباً في النار ، عاد للجلوس ، وتحدث مباشرة عن الجريدة . أول عمل عليهما أن ينفذاه هو التخلص من هيسونيه .
- يتعبنى هذا الوغد ! وحين تريد الاضرار برأي ، فالأكثر عدلاً ، حسب رأيي ، والأكثر قوة ، هو ألا يكون لك أي رأي .
تعجب فريدريك .

- أكيد ! حان الوقت لمعالجة السياسة بطريقة علمية . كان شيوخ القرن الثامن عشر قد بدأوا يفعلون ذلك ، حين أدخل روسو ورجال الأدب ، التجرد ، الشعر ، وتوافه أخرى على السياسة ، وذلك لمتعة الكاثوليك . هذا تحالف طبيعي ، فوق

ذلك ، بما أن المصلحين المعاصرين (أو كُند هذا) ، يؤمنون ، جميعاً ، بالوحي . إنما ، إذا كنت تقيم قداديس لأجل بولونيا ، وإذا ، بدلاً من اله الدومينيكان ، الذي هو سقّاح ، أخذت إله الرومنطيقين ، الذي هو صانع نجود ؛ وإذا ، أخيراً ، لم يكن عندك ، عن المطلق ، إدراك أشمل من إدراك آبائك ، ستخترق الملكيّة أنظمتك الجمهوريّة ، ولن تكون قبعتك الحمراء سوى قلنسوة كهنوتيّة ! فقط ، يكون حلّ نظام السجن الانفرادي بدل التنكيل ، وشتيمة الدين بدل التدنيس ، والانسجام الأوروبي بدل التحالف المقدّس . وفي هذا النظام المصنوع من بقايا المشييعين للويس الرابع عشر ، من آثار الفولتيريين ، مع معجون امبراطوري واجزاء من تشريع انكليزي ، ترى المجالس البلديّة تهتم بإغاظة حاكم المدينة ، والمجالس العامة مديرها ، والصحافة السلطة ، والهيئة الادارية كلّ الناس ! لكن النفوس الطيبة تفرح بالنظام المدني ، وقد صنعتها ، مهما قيل في ذلك ، ذهنيّة تافهة ، طاغية ، لأن المشترع ، بدلاً من أن يحقق هدفه ، وهو تنظيم العرف ، ادعى تغيير المجتمع على غرار ليكورغ * لماذا يثقل الشرع على ربّ العائلة في قضية الوصية ؟ لماذا يعطل البيع الجبري للأثاث ؟ لماذا يعاقب ، كجرعة ، التشرّد ، وهو يجب ألا يكون ، حتى ، مجرد مخالفة ؟ وهناك أمور أخرى ! أعرفها ! سوف أكتب رواية قصيرة عنوانها « حكاية فكرة العدالة » ، ستكون غريبة !

* خطيب أثيني ورجل سياسة (حوالى ٣٩٦ - ٣٢٣ ق. م .) أدار ماليّة أثينا .

لكن بي عطشاً لا يرتوي ! وأنت ؟
 انحنى من النافذة ، وطلب إلى البواب أن يشتري مشروباً
 ساخناً من الحانة .

- باختصار ، أرى ثلاثة أحزاب . . . ، لا ! ثلاث
 جماعات ! - ولا واحدة تهمني ، منها : مَنْ معهم ، من لم يبق
 معهم ، ومن يعملون ليحصلوا . لكنهم ، جميعاً ، يتفقون على
 عبادة بلهاء للسلطة ! والأمثلة كثيرة : مابلي يوصي بالآل ينح
 الفلاسفة من نشر عقائدهم ، السيّد ورونسكي ، المهندس ،
 يطلق على الرقابة اسم « ردع العفوية النظرية » ، والأب أنفونتان
 يبارك آل هابسبورغ « لكونهم اخترقوا جبال الألب لقهر
 إيطاليا » ، بيار لورو يريد إرغامك على سماع خطيب ، ولويس
 بلان يميل إلى عبادة الدولة ، طالما أن هذا الشعب التابع مهووس
 بالسلطة ! مع ذلك ، ولا واحد منهم شرعي ، برغم مبادئهم
 السرمديّة . وبما أن « المبدأ » يعني « الأصل » ، فيجب الاتكال
 على ثورة ، على عمل عنيف ، على عمل انتقالي ، تغيير .
 هكذا ، فمبدأنا هو السيادة القوميّة ، مفهومة بالشكل البرلماني ،
 مهما كان البرلمان غير موافق ! إنّا ، بَمَ سلطة الشعب هي أكثر
 احتراماً من الحق الإلهي ؟ كلاهما وهم ! انتهينا من الماورائيات ،
 ومن الأشباح ! لا لزوم للعقائد من أجل تنظيف الشوارع !
 سيقولون اني أقلب المجتمع ! وماذا بعد ؟ أين الضرر ؟ في
 الواقع ، نظيف مجتمعتك !
 كان فريدريك يستطيع مناقشته . إنّا ، إذ رآه بعيداً عن

نظريات سينيكال ، تساهل . اكتفى بأن اعترض بالقول إن هكذا نظاماً يجعلها مكروهين بعامه .

- على العكس ، بما أننا نكون شحنا كل فئة كرهاً للأخرى ، يعتمدون ، كلهم ، علينا . تكون أنت معنا ، تكون الناقد المترفع !

تجرب مجابهة الأفكار الجاهزة ، الأكاديمية ، معهد المعلمين ، المعهد الفني ، الكوميدي فرانسيز ، كل ما هو يشبه مؤسسة . من هنا يمدون بالعقيدة مجلتهم . ثم ، حين تصبح متمكنة ، تتحول يومية ، حينها تتم مهاجمة الشخصيات .
- وتأكد من أننا نكون محترمين !

يريد ديلورييه تحقيق حلمه القديم : رئاسة تحرير جريدة ، أعني لذة قيادة الآخرين ، قطع مقالاتهم ، وأن يأمر ويرفض . عينها راحتا تشعان تحت نظارتيه ، تحمس وراح يشرب ، دون توقف ، آلياً .

- يجب أن تدعو للعشاء مرة في الأسبوع . هذا ضروري ولو أنفقت نصف دخلك ! سيكون هذا مركزاً للآخرين ، دافعاً لك ، ومقلباً الرأي من وجهتين : الأدبية والسياسية ، سترى ، بعد أشهر ستة ، نتصدر باريس .

كان فريدريك وهو يصغي إليه يحس بتجدد شبابه ، كرجل بعد إقامة طويلة في غرفته ، نقلوه إلى الهواء الطلق . أخذته الحماسة .

- نعم ، كنت كسولاً ، أحمق ، الحق بجانبك !

الحمد لله ! هتف ديلورييه ، هكذا أعرف فريدريك !
وأضاف واضعاً قبضته على ذقنه .

- آه ! لقد آلتني . لا يهيم ! أحبك كيفما كنت .
كانا واقفين ينظر أحدهما إلى الآخر ، رقيقى القلب ،
يكادان يتعانقان .

ظهرت قبة امرأة عند عتبة غرفة الانتظار .
- من أتى بك ؟ قال ديلورييه .
إنها الآنسة كليمنس ، عشيقته .
أجابت أنها ، وهي تمر ، صدفة ، أمام بيته ، ما استطاعت
مقاومة رغبتها لرؤيته ، وليأكلا معاً وجبة خفيفة ، جلست معها
بعض حلوى وضعتها على الطاولة .
- انتبهي لأوراقني ! قال المحامي بخشونة . على كل
حال ، هي المرة الثالثة التي بها أسمعك من المجيء أثناء
الاستشارات .

أرادت أن تقبله .
- حسناً ! هيا ! حلّ ربطة عنقك !
دفعها عنه ، فتنهدت نهدة عميقة .
- آه ! إنك تضايقيني !
- لأنني أحبك !
- لا أطلب حباً بلا طاعة !
أوقفت ، هذه الكلمة القاسية دموع كليمنس . انزهرت
أمام النافذة بلا حراك ، جبينها إلى الزجاج .

وقفته وصمتها أزعجا ديلوريه .

- حينما تنتهين ، ستطلين عربتك ، أليس كذلك ؟
استدارت غاضبة :

- أطرديني ؟

- تماماً !

ركّزت عليه عينيها الزرقاوين الكبيرتين ، في ترجّ أخير ،
ولا شك ، شبكت طرفي قميصها ، انتظرت لحظة ثم خرجت .
قال فريدريك :

- عليك أن تناديهما !

- لا بأس عليها !

وبما أنه عليه الخروج ، دخل ديلوريه مطبخه الذي كان
أيضاً غرفة زيتته . كان هناك ، على بلاطة ، قرب جزمة ، بقايا
غداء بسيط ، فراش وغطاء في زاوية .

- هذا يدلك على أنني قليلاً ما أستقبل مركيزات ! هي
لا تهمني ! ولا سواهن . تأخذ وقتك من لا تكلفك شيئاً . هذا
توفير ومن وجهة أخرى ، فأنا لست غنياً ! ثم ، هنّ جميعاً
حمقاوات ! حمقاوات تماماً ! أتستطيع ، أنت ، الحديث إلى امرأة .
افترقا عند زاوية « الجسر الجديد » .

- إذن ، اتفقنا ! ستأتيني بالمال غداً ، فور حصولك عليه .
- اتفقنا ! قال فريدريك .

ومع نهوضه من النوم ، صباح اليوم التالي ، حصل من
البريد على قسيمة بخمسة عشر ألف فرنك ، من المصرف .

مثّلت له هذه الورقة البسيطة خمسة عشر كيساً كبيراً من المال ، وقال في ذاته انه ، مع مبلغ كهذا ، يستطيع أولاً ، الاحتفاظ بعربته لثلاث سنوات ، بدل أن يبيعها كما كان سيضطر قريباً ، أو أن يشتري تنقتين جميلتين مزخرفتين كان رآهما على رصيف فولتير ، وأشياء أخرى ، لوحات ، كتباً ، باقات زهر ، وهدايا للسيدة أرنو ! كل شيء ، في نهاية المطاف ، أفضل من المجازفة ، من فقدان المال في هذه الجريدة ! بدا له ديلوريه مدّعياً ، برودته ، الليلة الماضية ، شلّته مكانه ، واستسلم فريدريك يتأسّف حين ، بعد هنيهات ، فوجيء كلياً بدخول أرنو الذي جلس ، بثاقل ، على حافة السرير ، كرجل مثقل بالهموم .

- ماذا هناك ؟

- لقد انتهيت !

كان عليه أن يدفع ، في النهار ذاته ، في مكتب السيدة بومينييه ، وهي كاتبة عدل في شارع القديسة حنة ، مبلغ ثمانية عشر ألف فرنك ، استدائها من رجل اسمه فانيروي .

- هي كارثة لا تفسير لها ! كنت قدّمت إليه رهناً عقارياً يجب أن يهدّته ، لكنه يتهدّدي بإنذار ، إن لم أدفع له بعد ظهر اليوم ...

- ماذا يحدث ؟

- الأمر بسيط ! يستملك منزلي . الاعلان الأول يخربني ، هذا كل شيء ! آه ! لو كنت أجد من يقرضني هذا المبلغ

المشؤوم ، يحلّ محلّ فانيروي وأكون أنقذت ! أليس عندك أحد ؟
الحوالة ، كانت لا تزال على الطاولة ، قرب كتاب . أخذ
فريدريك الكتاب ووضعه عليها قائلاً :

- يا إلهي ! لا ، يا صديقي العزيز !

إنما يكلفه رفض طلب أرنو .

- كيف ؟ ألا تجد أحداً يستطيع ؟

- أبداً ! إنما ، خلال ثمانية أيام ، سأحصل على مبالغ !

ربما خمسون ألفاً آخر الشهر !

- ألا تستطيع الطلب إلى مَنْ سيدفعون لك أن يدفعوا قبل

ذلك ! . . :

- آه ! حسناً ! بلى !

- أمعك مبلغ ما ، أوراق ؟

- لا شيء !

قال فريدريك :

- ما العمل ؟

- هذا ما أتساءل بشأنه ، أجب أرنو .

سكت ، وراح يقطع الغرفة طولاً وعرضاً .

- ليست لأجلي ، يا إلهي ! إنما لأولادي ، لزوجتي

المسكينة !

ثم ، وهو يلفظ كلمة كلمة :

- أخيراً . . . سأكون قوياً . . . أحزم كل أمتعتي . . .

وأذهب أعمل . . . في مكانٍ ما !

- مستحيل ! صرخ فريدرىك .

أجاب أرنو بهدوء :

- كيف تريدني ، الآن ، أن أحيأ في باريس ؟

وخيم صمت طويل .

بعدها ، قال فريدرىك : متى تردّه ، هذا المبلغ ؟

ليس لأنه يمتلك هذا المبلغ ، على العكس ! لكن لا شيء

يمنعه من رؤية أصدقاء ، أن يحاول . وطلب خادمه ليرتدي

ملابسه . شكره أرنو .

- تريد ثمانية عشر ألف فرنك ، أليس كذلك ؟

- أوه ! تكفيني ستة عشر ألفاً ! أستطيع تحصيل ألفين

وخمسمئة إلى ثلاثة آلاف ، إذا أمهلني فانيسروي إلى الغد ،

وتستطيع أن تؤكّد للمدين ، أكرّرك هذا ، أنني أردّ المبلغ خلال

ثمانية أيام ، أو ربما ، حتى ، خلال خمسة أو ستة . على كل

حال ، الرهن العقاري يقوم بدلاً منه . هكذا لا خطر . . .

أتفهم ؟

جزم فريدرىك أنه فهم ، وسيخرج للحال .

بقي في بيته لاعتناً ديلوربيه ، هو يريد تنفيذ وعده ، وفي

الآن ذاته ، خدمة أرنو .

» لو أتوجه إلى السيّد دمبروز ؟ إنّا بأية حجة أطلب إليه

مالاً ؟ على العكس ، عليّ أنا أن أتوجّه إليه بخصوص الفحم

الحجري ! آه ! ليتسلّ وأعماله ! لن أعملها ! » .

وصفّق فريدرىك فرحاً لاستقلاله ، كما لو أنه رفض خدمة

للسيد دمبرز .

« حسناً ، قال في ذاته بعد ذلك ، بما أنني أخسر من هذه الناحية . . . لأنني أستطيع ، بخمسة عشر ألف فرنك ، أن أربح مئة ألف ! هذا يحصل ، مرات ، في البورصة . . . إذن ، بما أنني أراجع مع واحد ، أأستحراً ؟ . . . على كل حال ، متى ينتظر ديلورييه - لا ، لا ، هذا عاطل ، هيا بنا ! » .

التفت إلى الساعة .

« آه ! لا شيء يستدعي العجلة ! لا يقفل المصرف قبل الخامسة » .

وحين قبض ماله في الرابعة والنصف :

« غير مجد الآن ! لن أجده ، أذهب هذا المساء ! » معطياً نفسه ، هكذا ، فرصة للتراجع ، لأنه يبقى ، في عمق الضمير ، شيئاً من سفسطات سكبناها فيه ، يحتفظ بشيء كرهه كما بعد شراب رديء .

راح يتنزه في الشوارع العريضة ، وتعشى وحده في المطعم ، ثم استمع إلى فصل من مسرحية هزلية ليتسلل . لكن أمواله باتت تزعجه كأنه اختلسها . لم يكن ذلك خوفاً من ضياعها .

ووجد ، وهو يدخل بيته ، رسالة فيها هذه الكلمات :

« هل من جديد ؟ »

« زوجتي تنضم إليّ ، صديقي العزيز ، في أمل . . . »

« واسلم »

ويلي الامضاء :

« زوجته ! تلتمني ! »

وفي الوقت نفسه ، ظهر أرنو ، ليعرف هل وجد المبلغ
الضروري .

- هاكه ، خذه ! قال فريدريك .

وبعد أربع وعشرين ساعة ، أجاب ديلوريه : لم أحصل
على شيء !

عاد المحامي طوال ثلاثة أيام متتالية . كان يحثه على الكتابة
للكاتب العدل . عرض ، حتى ، السفر إلى هافر .

- لا ! هذا لا يجدي ! سأذهب أنا !

وفي نهاية الأسبوع طلب فريدريك بخجل من السيد أرنو
الخمسة عشر ألفاً .

أرجأه أرنو إلى الغد ، ثم إلى ما بعد الغد . فصار فريدريك
يتسكع خارجاً مع الليل ليتحاشى ديلوريه .

وذات مساء ، اصطدم به أحدهم في زاوية « المادلين » .

كان هو .

- سآتي بها ، قال .

رافقه ديلوريه إلى باب بيت في ضاحية « بواسونير » .

- انتظري !

انتظر . وبعد ثلاث وأربعين دقيقة ، خرج فريدريك مع
أرنو ، وأشار إليه أن يصبر ، بعد ، قليلاً . كانا يصعدان
متخاضرين ، تاجر الخزف ورفيقه ، شارع « هوتفيل » ، بعده

راحا في شارع « شابرول » .

كان الليل مظلماً مع نسيمات هواء فاترة . طفق أرنو يتحدث
عن خفايا التجارة ودهاليزها ، وهو يسير ببطء : تتابع ممرات
مشجرة قادهما من بولفار « سان دني » إلى « الشاتليه » ، حيث
أخذته رغبة ملححة بالدخول ، وبين وقت وآخر كان يتوقف ليرى ،
من خلال زجاج المحلات ، وجه الشاب المرحات ، ثم يتابع
حديثه .

كان فريدريك يسمع خطوات ديلورييه وراءه ، كتأنيبات ،
كضربات تجلد ضميره . لكنه لا يجرؤ على المطالبة خجلاً وخوفاً
من أن تكون بلا طائل . اقترب الآخر . حزم أمره ، هو ، وقرر .
فقال أرنو ، بنبرة طليقة ، إن تغطياته لم تحصل ،
فلا يستطيع ، الآن ، دفع الخمسة عشر ألف فرنك .
- أنتصورك لست بحاجة إليها .

في هذه اللحظة ، اقترب ديلورييه من فريدريك ، وإذا
انتحي به جانباً ، قال :

- كن صريحاً ، أمعك المال ، نعم أم لا ؟

- حسناً ، لا ! فقدته !

- آه ! وكيف ؟

- في القمار !

لم يجب ديلورييه بكلمة ، ودّعه ، بصوت منخفض جداً ،
وذهب . استفاد أرنو من هذه الفرصة ليدخن سيجاراً في دكان
تبغ . عاد وسأل من يكون هذا الشاب ؟

- مجرّد صديق !

وأمام باب روزانيت ، بعد دقائق ثلاث :

- اصعد اذن ، قال أرنو ، تكون سعيدة لرؤيتك . كم تبدو إنساناً متوحّداً ، الآن !

فانوس مواجهه كان ينير وجهه . وبسيجارة بين أسنانه البيضاء ومزاجه السعيد ، كان به شيء لا يطاق .

- آه ! للمناسبة ، زار كاتب عدلي هذا الصباح كاتبك أنت ، بخصوص ذلك الرهن العقاري . انها زوجتي من ذكرني بالأمر .

- انها امرأة ذات رأي ! قال فريدريك آلياً .

- أظنّ هذا !

وأعاد أرنو ثنائه . ليس من يضاهيها ، روحاً ، قلباً ، اقتصاداً ، وأضاف بصوت هامس ، لامعة عيناه : - وكجسد امرأة !

- الوداع ! قال فريدريك .

تراجع أرنو : عجباً ! لماذا ؟

ويده نصف ممدودة صوبه ، تفحصه ، محتاراً لهذا الغضب في وجهه .

تابع فريدريك بخشونة : الوداع !

نزل شارع « بريدا » ، كحجر يتدحرج ، حانقاً من أرنو ، واعداً نفسه بالألأ يراه من بعد ، ولا هي أيضاً ، دامي الفؤاد ، أسفاً . بدلاً من الانفصال الذي كان ينتظره ، وهاكه ، على

العكس ، يستغرق في حبها ، كلياً ، من أطراف شعرها حتى اعماق روحها . ترعج فريدريك فظاظة هذا الرجل . كل شيء يخصه إذن ! سيجده ثانية على عتبة الغادة الماجنة ؛ وعلى كل حال ، ان شرف أرنو مقدماً ضمانات لضمان ماله يسحطه . كان أراد حنقه ؛ ومن فوق كآبته ، حوم ، في ضميره ، كما ضباب ، شعور بجبانته تجاه صديقه . كادت الدموع تخنقه .

انحدر ديلوربيه في سارع الشهداء ، وهو يشتم ، من غضب ، بصوت مرتفع ، ذلك بأن مشروعه ، كمسألة تهدمت ، بدا له الآن ذا ارتفاع عجيب . اعتبر نفسه مسروقاً ، كما لو انه عانى كارثة كبرى . ماتت صداقته لفريدريك ، وشعر نفسه ، لذلك ، فرحاً ، إنه تعويض ! أخذه حقد على الأغنياء . مال الى آرا سينيكال وتعهّد بالعمل لها .

في هذه الأثناء كان أرنو جالساً براحة على مثواه قرب النار ، برشف شايبه ، آخذاً « المارشالة » على ركبتيه .

ما عاد فريدريك إلى عائلة أرنو ؛ وليتعرّى عن ألمه المفاجع ، قبل أول موضوع تبادر الى ذهنه ، فقرّر كتابة « تاريخ النهضة » . وراح يضع على طاولته ، كيفما اتفق ، كتب الآداب القديمة ، وكتب الفلاسفة والشعراء ؛ طفق يذهب الى أي مكان يساعده على ذلك ، يرى محفورات مارك - أنطوان ، يهتمّ بسماع ماكيفالي . وشيئاً فشيئاً سكّنه هدوء العمل ونسي الاستغراق في شخصيات الآخرين ، شخصيته ، وهذه ، ربما ، في الطريقة الوحيدة لعدم التألم منها .

يوماً ، وهو يبحث بهدوء ، ويسجل ملاحظات ، فُتح الباب وأعلن الخادم وصول السيِّدة أرنو .
إنها ، فعلاً ، هي ! وحيدة ؟ لا ! هي تمسك بيدها ابناً الصغير أوجين ، تتبعه خادمتها بمريولها الأبيض . جلست ، وبعد
سعال :

- من زمان لم تذهب إلينا .
إذ لم يجد فريدريك عذراً ، أضافت .
- إنه لطف منك !

أجاب :

- أيّ لطف ؟

- ما عملته لأرنو ! قالت .

قام فريدريك بحركة ذات معنى ، وقال : « لا أهتم به !
كان ذلك لأجلك ! »

أرسلت ابناً يلعب ، مع الخادمة ، في الصالون . تبادل
كلمتين أو ثلاث حول صحتها ، ثم انتهى الحديث .

كانت ترتدي ثوب حرير اسمر ، كنيذ اسبانيا ، مع سترة
مخمل أسود ، مزخرفة بفراء ثمين ؛ هذا الفراء يغري بمد اليد اليه
ودغدغته ، وخصل شعرها الطويلة المألسة تجذب الشفاه . لكن
انفعلاً يرففها ، وقالت مديرة عينيها صوب الباب :

- الطقس حار هنا !

فهم فريدريك قصدها المحترس :

- عفواً ! ليس المصراعان إلا مدفوعين .

- آه ! فعلاً !
وابتسمت كما لتقول : « لا أخشى شيئاً » .
سألها سبب مجيئها .
- زوجي ، أجابت بجهد ، دفعني للمجيء إليك ، هو
لا يجرؤ على هذا بنفسه .
- ولماذا ؟
- انت تعرف السيد دمبروز ، أليس كذلك ؟
- نعم ، إلى حد ما !
- آه ! إلى حد ما .
صمتت .
- لا يهم ! أكمل .
حينها ، أخبرته أن أرنو ، ما قبل ليلة أمس ، لم يستطع دفع
أربع أوراق من فئة الألف لصاحب المصرف ، وكان وقع على
ذلك . وراحت تتأسف لكونها جازفت بثروة ولديها . لكن كل
ذلك يهون أمام العار ؛ وإذا ما ارفق السيد دمبروز الملاحقة
سيدفعون له ذلك قريباً حتماً ؛ هي ستبيع ، في شارتر ، بيتاً لها
صغيراً .
- يا للمرأة المسكينة ! همس فريدريك .
- سأذهب ! اعتمدي عليّ .
- شكراً !
وقامت لتذهب .
- أوه ! لا شيء يدعوك للعجلة !

بقيت واقفة ، متألمة تذكّار صيد من نبال مونغولية في
السقف ، المكتبة ، غلافات الكتب ، كل ادوات الكتابة ؛ رفعت
وعاءً برونزياً فيه الريش ؛ وقعت قدماها على أمكنة مختلفة من
السجادة . كانت مرات عديدة زارت فريدريك ، إنما مع أرنو .
الآن ، هما وحدهما ، - وحدهما في بيته هو ؛ - إنه حدث غير
عادي ، يكاد يكون ثروة لا بأس بها .

أرادت ان تشاهد جنيته ، أمسك بيدها ، وراح يطوف بها
في عوالمه ، بستان يبلغ ثلاثين قدماً ، تحيط به بيوت ، تزينها
شجيرات ، وفي الوسط مسكبة .

الزمن : أوائل نيسان . أوراق الليلك بدت خضراء ،
نسيم لطيف يعطر الهواء ، وعصافير صغيرة تزفّزق مرددة أغانيها
مع ضجيج مصهر صانع المركبات البعيد .

وبينما هما يتنزّهان ، جنباً إلى جنب ، كان الصبي ، يجمع
أكوام رمل في الممرّ . تعتقد السيّد أرنو أنه لن يكون ، مستقبلاً ،
صاحب خيال واسع ، لكنه ذو مزاج لطيف . على العكس أخته
تمتاز بخشونة طبيعيّة تجرحها أحياناً .

- هذا يتبدّل ، قال فريدريك . يجب ألاّ تيأسي .

ردّدت :

- يجب ألاّ نياس !

بدا له هذا التكرار العفوي لعبارته ، نوعاً من الحثّ ؛
قطف وردة هي الوحيدة في الحديقة .

- أتذكرين . . . ذات مساء ، باقة وردٍ ما ، في العربة ؟

احمرّت إلى حدّ ما ، وقالت بنبرة شفقة ساخرة :
- آه ! كنت ما أزال صغيرة .
- وهذه الوردة ، تابع بصوت مهموس ، أتلاقي المصير
نفسه ؟

أجابت وهي تبرم عنقها بين أصابعها كخيط مغزل :
- لا ، سأحتفظ بها !
وبإشارة منها ، أقبلت الخادمة والصبي على يديها ، ثم ،
على عتبة الباب ، في الشارع ، تنشّقت السيّدة أرنو الوردة ، مميلة
رأسها إلى كتفه مع ابتسامة تعادل القبلّة حناناً .
حين عاد الى غرفته ، راح يتأمّل الكرسيّ حيث جلست ،
وكل الأشياء التي كانت لامستها . شيء منها يحوّم حواليه ، يلفّ
عالمه . لطافة حضورها لا تزال حاضرة .
« هي ، إذن ، أتت هنا ! » قال في نفسه .
وغمرته أمواج عذوبة لا متناهية .
في الحادية عشرة من صباح الغد ، حضر عند أرنو .
استقبلوه في غرفة الطعام . كان المصري يتغذى في مواجهة
امراته ، وابنة أخيه الى جانبها ، وفي الجهة الأخرى المعلّمة ،
انكليزيّة طبعها الجذري ، في وجهها .
دعاه السيّد دمبروز للجلوس بينهم ، وإذ رفض :
- بمّ يمكنني أن أخدمك ؟ إني أستمع اليك .
قال فريدريك ، مظهرأ لا مبالة ، إنه أتى يلتبس طلباً
لواحد اسمه أرنو .

- آه ! آه ! ناظر اللوحات القديم ، قال المصري ، مظهراً
أسنانه البيضاء من خلال ضحكة صامتة . من زمان ، يكفله ،
كان ، أودري ؟ لقد تحاصم .

وراح يتصفح الرسائل والجرائد الموصوعة قربه .
يخدمهم خادمان بلا ضجة على البلاط ، كل ما في الغرفة
من كماليات مترفة ، من علوها وأبوابها الثلاثة المزخرفة ،
ومغسلتيها المرمريتين ، ولمعان المواقد ، وترتيب المقبلات ، وحتى ،
طية الفوط ، كل هذا جعل فريدريك يلاحظ التناقض مع غداء
آخر عند أرنو .

لم يجرؤ على مقاطعة السيد دمبوز . لكن السيدة لاحظت
قلقه :

- هل ترى أحياناً صديقنا مارتينون ؟
- سيأتي هذا المساء ، قالت الفتاة بحيوية .
- آه ! تعرفينه ؟ قالت خالتها وهي تحدجها بنظرة باردة .
وإذ همس خادم في أذنها :
- هيّا ، يا ابنتي ، لقد أتت خياطتك ! ... الآنسة
جونسون ! ومطبعة ، اختفت المعلمة مع تلميذتها .
انزعج السيد دمبوز لضجيج الكراسي ، فسأل ماذا
يجري .

- انها السيدة ريجمبار .
- عجباً ! ريجمبار ! أعرف هذا الاسم . صادفت توقيعه .
دخل فريدريك في صلب موضوعه . يستحق أرنو

الاهتمام ، وهو ، في محاولته لدفع ديونه سيصل ، حتى ، إلى بيع زوجته بيتاً .

- إنه بيت جميل ، قالت السيّدة دمبروز .

أضاف المصرفي بمظهر طيّب :

- هل انت صديقهم ... الحميم ؟

من دون ان يجيب فريدريك بوضوح ، قال انه مضطر للأخذ في الاعتبار ...

- حسناً ، بما ان هذا يسرّك ، فليكن ! ننتظر ! ما يزال

لديّ وقت لو ننزل إلى مكّتي ، تريد ؟

انتهى الغداء ، انحت السيّدة دمبروز قليلاً ، مبتسمة

ابتسامة مميّزة مليئة بالتهذيب والسخرية . ما استطاع فريدريك

التفكير ، إذ ما ان صاراً وحيدين :

- لم تأت بحثاً عن أعمالك .

ومن دون ان يسمح له بالاعتذار :

- حسناً ! حسناً ! إنه من الحقّ ان تعرف طبيعة العمل

بطريقة أفضل .

قدّم له سيجاره وبدأ الكلام .

تأسّست شركة الاتحاد العام للفحم الحجري الفرنسي . لم

يعد هناك إلا إصدار الأمر . عملية الاتحاد تخفض نفقات المراقبة

واليد العاملة ، وتزيد الأرباح . أكثر ، تأمل الشركة أمراً جديداً

هو أن يهتمّ العمال بشأنها ستبني لهم بيوتاً ، شققاً صحيّة ، وأخيراً

ستكون الموردّ نعمالها ، تسلمهم كل شيء بسعر الكلفة .

وسيربحون ، يا سيّدي . انه تقدّم حقيقيّ ، إنه إفحام بعض تخرصات الجمهوريين ! وعندنا ، في مجلس لادارة (أظهر البيان التمهيديّ) شريف فرنسي ، عالم من المجمع ، ضابط مهندس متقاعد ، أسماء معروفة ! هكذا عناصر ، تطمئن رؤوس الأموال الخائفة وتستدعي رؤوس الأموال الذكية ! - تضمن الشركة طلبات الدولة ثم طرقات الحديد ، البحرية العاملة على البخار ، المؤسسات المعدنية ، الغاز ، المطابخ البورجوازية . - هكذا ، ندفي نحن ، ننير ، ندخل حتى ، البيوت الأكثر تواضعاً . إنما ، قد تسألني ، كيف نوّمن المبيع ؟ بفضل حقوق - عمالية ، يا سيّدي ، وسنحصل عليها ؛ هذا من اختصاصنا ! ونوق ذلك ، أنا ، بصراحة ، تحريمي ! البلد قبل كل شيء ! جعلوه مديراً ! لكن الوقت ينقصه للاهتمام ببعض التفاصيل ، بينها الكتابة . « انني متلبك بعض الشيء ، نسيت اليونانية ! محتاج أنا لأحد . . . يستطيع ترجمة أفكارني » . ومرة واحدة : « أتريد أن تكون ، أنت ، هذا الرجل مع وظيفة الأمين العام » ؟

لم يدر ، فريدريك ، جواباً .

- وبعد ، ما يمنحك ؟

وظيفته محدودة بكتابة تقرير ، كلّ سنة ، للمساهمين . سيجد نفسه على علاقات يومية مع رجال باريس الأكثر أهمية . وكممثل للشركة تجاه العمال ، سيحبّونه ، طبعي هذا أن يقوده ، في ما بعد ، إلى المجلس العام ، إلى النيابة .

طنت أذنا فريدرىك ، من أين تأتى هذا الرفق ؟ وغالى في شكره .

ولكن ، قال المصرى ، يجب ألا يكون متأثراً بأحد .
والسبيل الأفضل أن يشتري أسهماً ، وهذا « تدبير ممتاز ، لأن رأسمالك يضمن وضعك ووضعتك رأسمالك » .

- بكم ، تقريباً ؟ قال فريدرىك .

- بقدر ما تشاء ، من أربعين إلى ستين ألف فرنك .

هذا المبلغ كان زهيداً بالنسبة الى السيد دمبروز الذي كانت سطوته مميزة إلى حدّ دفعت الشاب ، مباشرة ، إلى ان يقرر بيع مزرعة . وافق . سيعين السيد دمبروز يوماً لانهاء الترتيبات لذلك .

- هكذا ، يمكنني القول لجاك أرنو . . . ؟

- كل ما تريده ا يا للرجل المسكين ا كل ما تريد ا

فكتب فريدرىك إلى أرنو بأن يطمئن ، وأرسل الرسالة مع خادمه الذي أجيب :
- حسن جداً ا

مسعاه كان يستأهل أكثر من « حسن جداً » . راح ينتظر زيارة . أو رسالة في الأقل . لم يتلق أية زيارة . وما وصلت أية رسالة .

هل كان هذا نسياناً أم ذلك متعمد ؟ وبما أنّ السيدة أرنو زارته مرة ، فمن يمنحها عن المجيء ؟ ما فعلته إذن من أمر مضر ، من اقرار ، لم يكن إلا بدافع المصلحة ؟ « هل تلاعبا بي

؟ أهى متواطئة ؟ » وبالرغم من رغبته الذهاب الى هناك ، فإن نوعاً من الحياء يمنعه .

ذات يوم (لثلاثة أسابيع بعد لقائهما) ، وصلته رسالة من السيّد دمروز يعلمه فيها أنه ينتظره خلال ساعة .

اقتحمت ذهنه ، فى الطريق ، فكرة آل أرنو . وإذ لم يكشف أية حجة لتعرفها ، غمرته كآبة ، شعور مسبق حزين . ولكى يتخلص من هذا الوضع ، طلب عربية صغيرة وسأل الحوذيّ الانتقال به الى شارع الفردوس .

أرنو فى رحلة .

- والسيّدة ؟

- فى الريف ، فى المصنع !

- متى يعود السيّد ؟

- غداً ، حتّى !

سيجدها وحيدة ، انها المناسبة . وراح شيء ما ، ملجأ ،

يصرخ فى باله : « اذهب اليها » !

والسيّد دمروز ؟ « حسناً ، لينتظرا أقول له : كنت

مريضاً » ركض الى المحطة وفى الحافلة : « ربما انى أخطأت ، ما هم ! » .

تمتد ، الى اليمين وإلى اليسار ، حقول خضراء ، القطار

يسير ، تظهر البيوت الصغيرة فى المحطات كديكور ، ودخان القاطرة يسكب ، من الجهة ذاتها دائماً ، ندائفة الكبيرة ، تتراقص على العشب ثم تختفي .

وحده فريدريك في مقعده ينظر إلى هذا ضجراً ، ذاهلاً في هذا التراخي الذي يدفع إلى قمة نقاد الصبر . بدت طيور عظيمة ، ومستودعات . إنها « كراي » .

بدت له المدينة فرحة ، فيها شيء خفيّ وطيب ، لكونها تقوم بين تلتين منخفضتين (أولاهما جرداء والثانية تتوجها غابة) ، ووبرج كنيستها ويوتها غير المتساوية وجسرها الحجريّ . تجري ، مع المياه المبقعة يلفحها الهواء ، سفينة كبيرة هادئة ، على أقدام تمثال للمسيح المصلوب بضع دجاجات تنقد في التبن ، مرّت امرأة تحمل غسّيلة على رأسها .

وجد نفسه ، بعد الجسر ، في جزيرة حيث رأى إلى يمينه آثار دير . هناك طاحونة تدور ، حاجبة على كل امتدادها ، ضفة « الواز » الأخرى ، التي يشرف عليها المصنع . أدهشت أهمية هذا البناء فريدريك . بدأ يحترم أرنو أكثر . وبعد ثلاث خطوات ، دخل في شارع صغير ينتهي ، عند طرفه ، بسياج . كان دخل . نادته البوابة صارخة :

- هل معك إذن ؟

- لماذا ؟

- لتزور المؤسسة ؟

قال فريدريك نبرة خشنة أنه آتٍ يزور السيّد أرنو :

- من هذا السيّد أرنو ؟

- الرئيس ، السيّد ، المالك ؟

- لا ، يا سيّد ، هنا مصنع السادة لوبوف وميليه !

إنها تمزح ولا شك . رأى عمالاً قادمين اقترب من اثنين أو ثلاثة وسألهم . كانت إجابتهم هي نفسها .
 ومتهادياً كما سكران ، خرج فريدريك من الساحة ، وكان مندهشاً إلى حدّ أن سألّه بورجوازي يدخّن غليونه على جسر « البوشري » ، هل هو يبحث عن شيء . هذا ، يعرف كان ، مصنع السيّد أرنو . إنه في مونتاتير .
 سأل عن عربة ، فما وجد إلا في المحطة . عاد إليها . رأى ، وحيدة أمام مكتب الحوائج ، عربة مخلّعة مقرونة إلى حصان هرم ، رحله المفكّك يتدلّى على عريش العربة .
 تطوّع صبيّ للبحث عن « السيّد بيلون » . بعد عشر دقائق عاد ليقول أن السيّد بيلون يتغلّى . ما استطاع فريدريك الانتظار ، فذهب . كان حاجز الممرّ مقفلاً . انتظر ليمر موكبا جنازة . وأخيراً أسرع نحو الريف .
 الخضرة الرتيبة جعلته يشبه سجّادة بليار هائل . بقايا حديد على جانبي الطريق ككُوم حصى . أبعد قليلاً ، مداخن مصنع ترسل دخانها الواحدة قرب الأخرى . وبالقرب منه ، على تلة مستديرة ، يقوم قصر صغير ذو بُرّيجات ، مع قبة مربعة الزوايا لكنيسة . وفي الأسفل ، جدران طويلة تؤلّف خطوطاً غير متناسقة بين الأشجار ، وفي الأسفل الأسفل ، تنتشر بيوت القرية .
 إنها من طابق واحد ، وأدراج من ثلاث درجات من حجارة بلا باطون . وبين فترة وأخرى ، يُسمّع جرس بقال . تغوص في الوحل الأسود خطى ثقيلة ، وهطل رذاذ قاطعاً ، بألف حزة ،

السَّاء الشَّاحِبَة .

تابع فريدريك وسط البلاط ، ثم صادف ، إلى يساره ، عند مدخل طريق ، قوساً كبيراً من خشب ، عليه بأحرف ذهبية :
خزفيات مزخرفة .

ليس بغير هدف اختار جاك أرنو جيرة كراي . ان ذلك يثير في الجمهور ارتباكاً لمصلحته ، إذ هو أقام مصنعه أقرب ما يمكن من الآخر (الموثوق به من زمان) .

أهم جزء من البناء يقوم على ضفة نهر يخترق المرج . يتميز بيت السيد المحاط بحديقة ، بمدخله المزين بأربعة آنية ينتصب فيها صبار . كومات تراب أبيض تجف في العنابر ، وكومات أخرى في الهواء الطلق ؟ ووسط الساحة ، يقف سينيكال بسترته الزرقاء الخالدة ، المبطنة بالأحمر .

صافحه أستاذ الرياضيات القديم بيده الباردة .

- آت أنت من أجل صاحب المصنع ؟ ليس هنا .

قال فريدريك مقطباً وبغواء :

- أعرف هذا . لكنه ، متداركاً الأمر ، قال : أتيت

بخصوص قضية تتعلق بالسيدة أرنو . أتستطيع استقبالي ؟

- آه ! لم أرها منذ ثلاثة أيام .

وشرع بسلسلة من الشكاوى . حين قبل بشروط صاحب

المصنع ، كان فهم أنه سيسكن في باريس ، وليس التنسك في هذه المقاطعة ، بعيداً عن أصدقائه ، محروماً من الجرائد . ومع هذا فقد تغاضى عن الأمر ! لكن أرنو يبدو لا يعيره أي اهتمام . لقد

صار محدوداً ، متقهقراً ، جاهلاً كما ولا واحد . بدلاً من العمل على التحسينات الفنية ، كان من الأجدى له لو أدخل التدفئة إلى الفحم الحجري وإلى الغاز . البورجوازي سائر إلى الافلاس : شدد سينيكال على الكلمة . وباختصار : اهتماماته لا تعجبه ؛ ويكاد يكون أنذر فريدريك للتحدث بشأنه علّه يرفع له راتبه . - إطمئن ! قال الآخر .

ما صادف أحداً على الدرج . في الطابق الأول ، مدّ رأسه إلى غرفة ، بدت فارغة ، إنه الصالون . نادى بصوت عالٍ . لم يجب أحد . لا شك أن الطاهية خرجت ، كذلك الخادمة . وحين وصل إلى الطابق الثاني ، دفع باباً . وحدها ، السيّدة أرنو ، كانت أمام المرأة . زنار مبهذا المشقوق يتدلّى على خصرها . جانب من شعرها كان كموجة سوداء على كتفها اليمنى ، ويدها مرفعتان ، بيد تُمسك بخصلة شعر ، وبالأخرى تغرز فيها دبّوساً . صرخت واختفت .

ثم عادت مرتدية ثيابها . كل ما فيها أعجبه : قامتها ، عيناها ، هديل ثوبها . أمسك نفسه لئلا يغمرها بالقبلات . - أستمحك عذراً ، قالت ، إنما لم أكن أقدر . . .

جرؤ على مقاطعتها :

- مع ذلك . . . ، كنت حسنة المظهر . . .

رأت المديح مبالغاً به ولا شك ، احمرّ خداهما . حشي أن يكون أساء إليها . قالت :

- أية صدفة جميلة قادتك إلينا ؟

لم يحرج جواباً . وبعد أحة أعطته مجالاً للتفكير ، قال :
- لو قلت ، هل تصدقين ؟
- لم لا ؟
قال فريدريك انه رأى الليلة الماضية حلماً مخيفاً :
- حلمت أنك مريضة ، وبخطر ، وأنتك مشرفة على الموت .
- أوه ! لا أنا مريضة ولا زوجي !
قال : ما حلمت إلا بك !
نظرت إليه بهدوء .
- لا تتحقق الأحلام دائماً .
تلعثم فريدريك ، باحثاً عن كلماته ، أخيراً استرسل ،
لفترة طويلة ، يتحدث عن تعاطف الأرواح . هناك قوة تستطيع ،
عبر المسافات ، جعل شخصين يتصلان بعضهما ببعض ، تخطرهما
بما يشعران وتعمل على تلاقيهما .
راحت تستمع إليه ، خافضة الرأس ، مبتسمة ابتسامتها
الجميلة . كان يراقبها بطرف عينه ، فرحاً ، معبراً بحرية ، عن
حبّه ، لتسهيلات هذا المكان المشترك . عرضت أن تريه المصنع ،
وإذ ألحّت ، قُبِل .
ولتسلّيه ، أوّل الأمر ، بشيء طريف ، أرته نوعاً من
المتحف يزّين الدرج . النماذج المعلقة على الجدران أو الموضوعّة
على لوحات ، تؤكد جهود أرنو المتابعة . بعدما توصّل إلى أحمر

النحاس الصيني ، أراد أن يحقق عجائب ، فاينزيات *
 أتروريات ** ، شرقيات ، يجرب بعضاً من تحسينات ستحقق
 آنفاً . يلاحظ أيضاً ، في هذه الأنماط ، آنية كبيرة مطلية باللون
 الليموني ، وقصع سمراء مذهبة لماعة ، وآنية تعلوها كتابات
 عربية ، وأباريق من طراز عصر النهضة ، وصحون واسعة مرسوماً
 عليها شخصان كما باللون الأحمر القاني ، بطريقة كثيرة اللطف ،
 دقيقة . هو ، الآن ، يصنع حروفاً للافتات ، وبطاقات للخمر ،
 لكن ذكاه ليس خارقاً ليتوصل إلى الفن ، ولا بورجوازيماً بما فيه
 الكفاية ليتتفع به ، كان يسير نحو الهاوية من دون أن يُرضي
 أحداً . كلاهما لاحظ ذلك ، حين مرت الأنسة مارت .
 - ألم تعرفيه ؟ قالت لها أمها .

- بلى ! قالت وهي تحييه ، بينما نظرتهما الصافية والمرتابة ،
 نظرتهما الملائكية ، بدت تقول : « ما أتيت تفعل ، أنت ، هنا ؟ »
 وصعدت الدرج ، مائلة برأسها إلى كتفها .
 اصطحبت السيّدة أرنو فريدريك إلى الساحة ، ثم طفقت
 تشرح بنبرة رصينة كيف تُسحق التربة ، وتُنقى وتُغربل .
 - المهم هو تحضير العجين .

وأدخلته غرفة تملأها دنان ، فيها يدور ، على ذاته ، مدار

* مدينة إيطالية ، عُرفت كمركز مهم للسيراميك وللخزفيات . أعطتها
 اسمها .

** قديماً كانت تقع غربي إيطاليا .

عمودي له ذراعان أفقيّتان . بدا فريدريك كمن حقد على ذاته حين لم يرفض عرضها بوضوح .

- إنها سفن بطيئة ، قالت .

رأى الكلمة مضحكة ، وكأنها غير ملائمة لضمها .

أحزمة عريضة تمرّ ، في السقف ، من طرف إلى آخر ، لتلتف على اسطوانات ، وكلّها تتحرّك بطريقة غير متوقفة ، دقيقة ، مثيرة .

خرجوا من هنا ، ومروا إلى كوخ متهدّم ، كان ، من زمان ، مكاناً لوضع أدوات البستنة .

- بات لا ينفع ، قالت السيّد أرنو .

أجاب بصوت مرتجف :

- يمكن السعادة أن تبقى مقيمة فيه !

ضجيج مطفاة النار غطّى كلماته ، ودخلا محترف وضع

التصاميم .

كان رجال يجلسون إلى طاولة ضيقة ، واضعين أمامهم ، على أطباق متحركة ، كتلة عجينة ، أيديهم اليسرى تكشط داخلها ، واليمنى تلامس الخارج ، ونراها تصير آنية كزهور تفتّح .

قالت السيّد أرنو إن هذه النماذج هي للأعمال الأكثر

صعوبة .

في غرفة أخرى ، كانوا يصنعون زخارف هندسيّة على شكل خيطان ، حلقات ، خطوطاً بارزة . في الطابق الأعلى ، يزيلون

الروائد ، ويسدّون بالحصّ الثقوب الصغيرة التي كانت تركتها
العمليات السابقة .

وكنت ترى فخاريات أينما كان ، في الكوى ، في الزوايا ،
ووسط الممرات .

كان فريدريك بدأ يضجر .

- لربما يتعبك هذا ؟ قالت .

خشي أن تنتهي زيارته هنا ، أظهر ، على العكس ، حماسة
كبيرة . ندم ، حتى ، لكوبه لم يتكرّس لهذه الصناعة .
بدت متعجبة .

- بكل تأكيد ! كنت استطعت العيش قربك !

وإذ راح يبحث عن نظرتها ، تحاشته السيّد أرنو ، آخذة
عن منضدة مزخرفة كريات عجيب ناتجة من إصلاح ناقص ،
سطحتها وطبعت فوقها كفها .

- أيمكنني أخذها ؟ قال فريدريك .

- إلى هذا الحدّ ولد أنت ؟ يا إلهي !

كان سيجيب ، إلّا أن سينيكال دخل .

لاحظ نائب المدير ، وهو ، بعد ، على العتبة ، خرقاً
للنظام . يجب أن تُكنس المحترفات كل أسبوع ، اليوم السّبت ،
وبما أن العمال لم يكونوا فعلوا شيئاً ، أنذرهم بوجوب البقاء ساعة
بعد انتهاء الدوام .

« إنها غلطتكم ! » .

فمالوا إلى أماكنهم من دون أن يتمتموا شيئاً ، إنما كنت تعرف

غضبهم من تنفس صدورهم الحارقة . مع ذلك ، لم تكن قيادتهم سهلة كلياً ، إذ كانوا ، جميعاً ، طُردوا من المصنع الكبير . كان يحكمهم الجمهوري بقسوة . كرجل نظريات ، لم يكن يتنذر إلا المجموعات ويبدو قاسي القلب مع الأفراد .

ومما أن فريدريك تضايق منه ، سأل السيّد أرنو ، همساً ، إذا كان بسطيع مشاهدة الأفران . نزلا الطابق السفلي ، وكانت تشرح استعمال المواد الخام حين وقف بينهما سينيكال الكان لحقهما

أكمل ، هو ، الشرح ، وأفاض في الحديث على مختلف أنواع الوقود ، الخبز ، أفران الآجر المتعدّدة البُور ، دهانات الفخار ، الثريات والمعادن ، مُكثراً من استعمال الألفاظ الكيميائية : كلورور ، سلفور ، بورق ، كربونات . فريدريك ما كان يفهم شيئاً ، وملتفت كل لحظة صوب السيّد أرنو .

- أنت لا تنصت ، قالت ، مع أن سينيكال واضح جداً . يعرف كل هذه الأمور أفضل مني بكثير .

عرض الرياضي ، وقد سرّ للثناء ، أن يريه كيف يتمّ التلوين . سأل فريدريك السيّد أرنو ، بنظرة كثيفة . بقيت ساكنة ، حتماً ، هي لا تريد البقاء وحدها معه ، كما لا تريد أن تفارقه . قدّم لها ذراعه .

- لا ! شكراً جزيلاً ! يضيق بنا الدرج !

وحين وصلوا إلى فوق ، فتح سينيكال باب شقة ملأى بالنساء .

إنهن يحركن ريشاً ، فارورات ، صدفاً ، صفائح زجاجية .
وعلى امتداد الافريز ، الذي على الحائط ، تمتد ألواح مخمورة ؛
تتطاير أطراف ورق رفيعة ، وموقد من حديد مصبوب ينشر حرارة
منقّرة ، تمتزج برائحة التريبتين .
ثياب كل العاملات ، تقريباً ، وسخة . ومع هذا فهناك واحدة
ترتدي مدراساً* وأقراطاً طويلة . هي نحيفة وممتلئة في آن معاً ، لها
عينان سوداوان كبيرتان ، وشفتان شهوانيتان كشفتي عبدة . يبرز نهديها
العامر تحت قميصها المحصورة على قامتها بزّار تنوّرتها ، تنظر ،
بشروء ، إلى البعيد في الريف ، يد على منضدة العمل ، والأخرى
متدلّية . قربها ، قنينة خمر وبعض لحومات .
كان القانون يحظر الأكل في المحترفات ، نظراً لنظافة العمل
ولصحة العمال .

صرخ سينيكال ، يدفعه ، إما إحساسه بالواجب أو
الاستبداد ، مشيراً إلى إعلان في إطار :
- هيه ! هناك ، يا البُردوية** ! إقرئي ، عالياً ، المادة ٩ .
- إيه . . . وبعد ؟
- وبعد ، يا آنسة ؟ ستدفعين غرامة ثلاثة فرنكات !
تطلّعت إليه بوقاحة :
- ماذا يضيرني ؟ عند عودة السيّد ، سيدفع عني غرامتك !

* نسيج خفيف من الحرير والقطن .
** برميل كبير يستعمل لحزن النبيذ في بوردو .

لا أهتم لك يا سيّد !
اكتفى سينيكال ، ويداه وراء ظهره ، كناظر في غرفة دراسة ،
بالابتسام .

- المادة ١٣ ، عصيان ، عشرة فرنكات !
عادت البروديّة إلى عملها . ولم تقل السيّد أرنو أية كلمة ،
لياقة ، لكنّ حاجبيها تغصّنا . تتمم فريدريك :
- آه ! كديموقراطي ، أنت قاسٍ جداً !
أجاب الآخر بحزم :
- ليست الديمقراطية فجور الفردية . إنها المساواة بالقانون ،

توزيع العمل ، النظام !
- أنت تنسى الانسانية ! قال فريدريك .
أخذت السيّد أرنو ذراعه ، وكأنّ سينيكال اغتاز هذه الموافقة
الصامتة ، فخرج .

شعر فريدريك براحة عميقة . هويبحث منذ الصباح عن مناسبة
للافصاح عن مكنوناته ، ها هي أتت . حركة السيّد أرنو العفويّة ،
بدت تحمل إليه وعداً ، وكأنّه أراك أن يدقّ قدميه ، سألها الصعود إلى
غرفتها . وابتدأ تلّبكه حين صار جالساً قربها ، نخونه نقطة الانطلاق .
ولحسن حظّه تذكّر سينيكال .

- بلهاء هذه العقوبة !
أجابت السيّد أرنو :
- هنالك عقوبات ضروريّة !
- كيف ، أنت الطيبة ! أوه ! أخطأت ! لأنك ، أحياناً ،

تسلّين بأن تعذّبي !

- لا أفهم الألغاز ، يا صديقي .

أوقفته عند هذا الحدّ نظرتها السلطوية ككلمتها . كان أراد أن يكمل . وُجد ، صدفة ، على طاولة صغيرة ، كتاب لموسيه . قلب بضع صفحات فيه ، ثم راح يتحدث عن الحب ، عن خيالاته وعن نزقه .

رأت ، السيّدة أرنو ، كل هذا إجراماً أو تصنعاً . أحسّ نفسه وقد جُرح لهذه السلبية ، وليواجهها ، ذكر ، كمثل ، الانتحار الذي يقرأون عنه في الصحف ، أثار النماذج الأدبية الكبيرة : فيدر ، ديدون ، روميو ، دي غريو . وارتبك . انطفأت النار في المدفأة . والمطر لا يزال يقرع زجاج النوافذ . لم تكن السيّدة أرنو تتحرّك ، تاركة يديها على ذراعي كرسيّها ، ربّط قبعتها تتدلى كعصيات سفنكس ، برز جانب وجهها النقي شاحباً في الظلّ . كان يرغب أن يرتقي على ركبتيها . سمع قرقرة في الممشى فما جرؤ .

يمنعه ، على كل حال ، نوع من الخجل الديني . هذا الثوب ، الشبيه بالظلمات ، يبدو له بغير حدود ، لا متناهيّاً ، لا يمكن رفعه . وقاماً ، لهذا السبب ، تنضاعف رغبته . لكن الخوف من أن يتجرأ كثيراً ، ومن ألاّ يفعل بقدر كافٍ ، كان ينزع منه كل بصيرة . » إذا كنت لا أعجبها ، يقول في ذاته ، لتطردني ! وإذا هي ترغب بي ، فلنشجّعني ! « وقال متنهّداً :

- إذن ، أنت لا توافقين أنه بالامكان حبّ . . . امرأة ؟

أحابت السيّدة أرو :
 حين هي يرسم الزواج ، نتروّجها ، وحين هي لآخر ، نبتعد

عنها

- هكذا فالسعادة ، إذن ، مستحيلة ؟
- لا ! إنما نجدها ، أبداً ، في الكذب ، والكآبات والندم .
- لا يهّم ! إذا كانت نتيجتها الأفراح السامية .
- التجربة باهظة الثمن !
- أراد أن يهاجمها بسخرية .
- ليست الفضيلة ، إذن ، إلّا جُبناً ؟
- قلها ، بالأحرى ، بُعد نظر . بالسبّة إلى من ينسين الواجب
- أو الدين ، تكفي الفطرة السليمة . الأناثيّة أساس ثابت للحكمة !
- آه ! يا لها من أمثلة بورجوازية ، هذه التي تعرفين !
- لكني لا أدعي اني سيّده مهمة !
- حينها ، ركض ابنها الصغير :
- ماما ، أتأتين للغداء ؟
- نعم ، حالاً !
- نهض فريدريك ، وفي اللحظة نفسها ظهرت مارت .
- لا يستطيع أن يقرّر الذهاب ، وينظرة مليئة توسلاً قال :
- هؤلاء النساء اللواتي تتحدثين عنهنّ ، هنّ ، إذن ، عديّات
- الشعور ؟

- لا ! إنما هنّ صمّوات حين يجب ذلك .
 وظلّت واقفة على عتبة غرفتها ، ولداها إلى جانبيها . انحنى من

دون أية كلمة . وأجابته هي تحييه بصمت مماثل .
 دُهِش . حطّمت هذه الطريقة لفهامه بطلان أمله . أحسّ ذاته
 ضائعاً كرجل واقع في عمق هوة ويعرف أن أحداً لن ينجده ، وأنه
 سيموت .

وراح يمشي ، لا يرى شيئاً . يجري مع الصدفة . اصطدم
 بحجارة . ضلّ الطريق . سمع وقع أقدام ، كانوا عمّالاً يخرجون من
 المسبك . فانتبه إلى ذاته .

في الأفق ، قناديل خط الحديد ترسم خطأ نارياً . وصل إذ كان
 يغادرها قطار ، وجد لجسده مكاناً في حافلة ، ونام .

بعد ساعة ، كان صار في شوارع باريس الواسعة ، والأفراح ،
 هناك ، جعلت رحلته كأنها تمّت من زمان . أراد أن يكون قوياً ، وكذب
 قلبه ذاماً السيّد أرنو بالفاظ مهينة :

« إنها بلهاء ، حمقاء ، فظّة ، فلا نفكر فيها ، بعد ! » .
 وإذ دخل بيته ، وجد في غرفته رسالة من ثماني صفحات على
 ورق أزرق مصقول وحر في ر . أ .

تبدأ الرسالة بمعاتبات رقيقة :

« ماذا حلّ بك ، يا صديقي ؟ أضجر أنا » .

كان الخط سيئاً إلى درجة أراد معها فريدريك رمي الرسالة كلّها ،
 حين لاحظ ، في الحاشية : « أعول عليك ، غداً ، لتصحبني إلى سباق
 الخيل » .

ما تعني هذه الدعوة ؟ هل هو ، بعد ، مقلب من « المارشالة » ؟
 لكن لا يمكن الهزء مرتين برجل واحد ، لا شيء ، ومدفوعاً بالخشية ،

قرأ الرسالة ، ثانية ، وبتأن .
قرأ فريدريك : « سوء تفاهم . . . ضلال . . . خيبات . . .
يا لنا من أولاد مساكين ! الخ » .
يتعارض هذا الأسلوب مع لغة الفاسقة العادية . ما هذا التغير
الطارىء ، إذن ؟
احتفظ طويلاً بالأوراق في يديه . تضحك منها رائحة السوسن ،
ورأى في شكل الأحرف ، وفي تباعد الأسطر غير المتناسق ، كفوضى
وعدم ترتيب ألقاه .
لم لا أذهب إليها ؟ قال أخيراً في ذاته . ولكن . إن عرفت السيدة
أرنو ؟ آه ! فلتعرف ! هذا أفضل ! ولتحسدها ! سيكون ذلك انتقاماً
لي ! » .

IV

« المارشالة » كانت حاضرة تنتظره .
- لطيف هذا ! قالت مركزة عليه عينيها الجميلتين ، الحنونتين
الفرحتين أيضاً .
حين عقدت معطفها ، عادت فجلست على الأريكة ، وبقيت
صامتة .
- أنذهب ؟ سأل فريدريك .
تطلعت إلى الساعة .
- أوه ! لا ! ليس قبل ساعة ونصف ، - كأنها وضعت ، بينها
وبين ذاتها ، هذه الحدود لشكها .
وإذ دقت الساعة - الموعد :
- إيه حسناً الآن .
وسوت ، لمرة أخيرة ، عصابات رأسها ، وأصدرت أوامر
لدلفين .
- أتعود سيدتي للعشاء ؟
- لماذا أعود ؟ ستتعشى معاً في مكان ما ، في المقهى
الانكليزي ، في أي مكان !

- فليكن !

نبح كلباها الصغيران حواليتها .

- نستطيع الاتيان بهما ، أليس كذلك ؟

هملهما فريدريك ، بنفسه ، إلى العرة . إنها « برليسه » للابجار
بجوادين وحوذتي مساعد . وقد أجلس فريدريك كلبه في المقعد
الخلفي . بدت « المارشالة » مغتبطة من مجاملاته ، وفورا جلسنت ،
سألته إذا كان زار أرنو أخيراً ، فأجاب :

- لم أره منذ شهر .

- التقيته أنا قبل أمس ، يكون اليوم عاد . لكنه يعاني مشاكل
كثيرة ، بعد لا أدري أية قضية . يا له من رجل غريب الأطوار !

- نعم ! غريب فعلاً !

أضاف فريدريك بغير مبالاة :

- للمناسبة ، أما زلت ترين . . . ماذا تسمينه ؟ . . . هذا

المغني القديم . . . ، دلمار ؟

أجابت بخشونة :

- لا ! لقد انتهينا !

إذن ، فقطيعتهما أكيدة . رأى فريدريك في ذلك أملاً .

نزلاحي بريدا . وبما ان النهار أحد ، كانت الشوارع مقفرة ،
وخلف النوافذ تبدو وجوه بورجوازيين . أسرع العربة ، فصار المارة
يلتفتون لضجة الدواليب ، يلمع غطاء السيارة المخفوض ، يقوس
الخدام قامته ، والهافانيان ، وأحدهما قرب الآخر ، يدوان كفروتين من
فرو القاقم ، موضوعتين على تكتيتين . استسلم فريدريك لهدهدة

العربة . أما « المارشالة » فكانت تتلقت بمنة ويسرة ، مبتسمة .
قُبعتها التي من القش الصدي اللون ، كانت مزخرفة بدانتيلاً
سوداء . قلنسوة برنسها تطير في الهواء ، وتحتمي من الشمس بمظلة من
الساتان الليلكي مروسة وفي أعلاها مثل « باغود » .

- يا للأصابع النحيلة اللطيفة ! قال فريدريك ، آخذاً ،
بلطف ، يدها اليسرى ، تزيئها أسواره ذهبية بشكل سلسال . هه !
إنها ناعمة ؟ من أين هي ؟

ما اعترض بشيء ، على هذا الجواب الماكر . فضل « الاستفادة
من المناسبة » . اذ كان لا يزال ممسكاً بيدها ، طبع فوقها شفتيه ، بين
القفاز والكم .

- أنه ! سيرونا !

- وإذا ما رأونا ؟!

بعد ساحة الكونكورد ، ذهباً في شارع الكونفيرانس ثم بيلي ،
حيث أرزة في حديقة . روزانيت كانت تظن لبنان في الصين . ضحكت
لجهلها وسألت فريدريك ان يعطيها دروساً في الجغرافيا . ثم ، بعدما
تركها ، الى اليمين « التروكاڨيرو » تجاوزا جسر إنييا ، وتوقفاً أخيراً ،
وسط « شان دي مارس » قرب العربات الأخرى التي كانت مصطفة في
ميدان الخيل .

الأكمام الخضراء كانت ممتلئة بأناس من الطبقة الدنيا . كنت
ترى بعضاً من الفضوليين على شرفة المدرسة الحربية . والجناحان ،
خارج الموزن ، والمنصتان اللتان في حرمه ، وثالثة ، أمام التي للملك .
جميعها كانت ملأى بأناس متأنقين ، تشهد أنافتهم على احترام هذه

التسلية التي لا تزال جديدة . جمهور سباق الخيل ، وكان استثنائياً في ذلك الزمن ، كان أقل خشونة . انه زمن سير الران ، والياقات المخملية والقفازات البيضاء . كانت النساء يرتدين أثواباً طويلة ، ذات ألوان زاهية ويجلسن على درجات المدرج كباقات زهور كثيفة يتبعها بالأسود ، هنا وهناك ، لباس الرجال المعتم . إنما كل الأنظار صوب الجزائري الشهير بومازا الذي كان هادئاً ، بين ضابطين من مجلس القيادة ، في واحدة من المقصورات الخاصة . تلك التي لنادي الفروسية يملأها أناس خطرون .

من هم أكثر حماسة كانوا جالسين في الأسفل في جهة الحلبة ، يفصلها صفان من عصي تحمل حبالاً ، في الشكل البيضوي الكبير الذي يرسمه هذا الممر ، بائعوسوس يحركون خشخشياتهم ، آخرون يبيعون برنامج السباق ، آخرون ينادون على السيجار ، فيرتفع طنين كثير : الحراس يمرون ويعاودون المرور ؛ دقت جرسة معلقة بعمود مغطى بالأرقام . ظهرت جياد خمسة ، واتخذ الناس أماكنهم . في هذه الأثناء ، ظهرت غيوم كبيرة فوق رؤوس شجر الدردار المقابل . خشيت روزانيت المطر .

- معي مظلات ، قال فريدريك . وكل ما يلزم للتسلية ، أضاف ، رافعاً صندوقاً فيها مأكولات .
 - براقو ! نحن متفاهمان .
 - ونتفاهم أكثر ، أليس كذلك ؟
 - معقول ! واحترت .
- راح يهتهم فرسان السباق ، معتمرين خوداتهم ، بصفت جيادهم

ويعسكونهم بكلتا اليدين . أنزل رجل علماً أحمر . حينها ، انحنى الخمسة معاً صوب عُرف الجياد ، وانطلقوا . ظلّوا أوّل الأمر ، كتلة واحدة ، سريعاً ما استطالت ، ثم تجزأت . كاد يقع الفارس ذو الخوذة الصفراء ، في منتصف الدورة الأولى ، طويلاً استمرّ الشك بين فيلي وتيبي ، ثم بدا نوم بوس في المقدّمة ، لكن كلوستيك ، وهو ، منذ الانطلاق ، في الوراء ، لحق بهما ، ووصل أولاً ، غالباً سير شارل بطولين ، راحوا يصرخون : انها مفاجأة صارت تهتزّ أكواخ الخشب بتأثير خبط الأرجل .

- نتسلّى نحن ! قالت « المارشالة » . أحبّك يا عزيزي !
ما عاد فريدريك يشكّ في السعادة . كلمة روزانيت الأخيرة طمأنته .

على مئة قدم منه ، ظهرت امرأة في عربة ميلوردية . تنحني إلى خارج بوابة العربة ، ثم ترتدّ بسرعة : دام هذا مرات عديدة ، ما استطاع فريدريك تبين وجهها . استبدّ به هاجس ، بدت له كأنها السيدة أرنو . مع ذلك ، مستحيل هذا ! لماذا أتت ؟؟ نزل من العربة بحجة التسلية في الموزن .

- لست ظريفاً ! قالت روزانيت .
لم يسمع شيئاً وظلّ يتقدّم . استدارت الميوردية وذهبت .
في اللحظة نفسها تلقّفه سيزي .
- مرحبا أيها العزيز ، كيف الحال ! هيسونيه موجود هناك !

اسمع !

يحاول فريدريك التخلّص منه للحاق الميوردية . أشارت اليه

« المارشالة » بالعودة الى قربها . رآها سيزي ، فرغب ، باصرار ، في اللقاء التحية عليها .

منذ انتهاء الحداد على جدته ، راح يحقق مثاله ، صار ذا طابع مميز . سترة اسكتلندية ، ثوب قصير ، شرابات عريضة على خفه ، وبطاقة دخول في بريم قبّعتة ، لا شيء ينقصه ، فعلياً ، لما يسميه هو « اناقة » ، اناقة مقلّد الانكليز والفارس الملكي . بالتدّمر من « شان دي مارس » سباق خيل رديء جداً ، ثم تحدّث عن سباق « شنتيلي » والألاعب التي تجري هناك ، أقسم أنه يستطيع شرب اثني عشر كأساً من خمرة الشمبانيا خلال دقائق نصف الليل الاثنتي عشرة ، عرض على « المارشالة » ان تراهن ، داعب كليبها بلطف ، وراح يسرد بلاهات أخرى ، ومقبض عصاه في فمه ، ورجلاه منفرجتان ، متطاولاً ، ويدّ له مستندة على بوابة إلى العربة . فريدريك قربه ، يدخن ، باحثاً عن الميلوردية .

إذ دقّ الجرس ، ذهب سيزي ، وسرت روزانيت ، انه مسثم كثيراً ، كما قالت .

لم يكن في الشوط الثاني شيء خصوصي ، ولا في الثالث ؛ سوى ان رجلاً حملوه على نقالة . الشوط الرابع كان الأهم ، فالجيايد الثمانية تتنافس على جائزة المدينة .

تسلّق مشاهدو المدرج المقاعد . الآخرون واقفون في العربات ، يتابعون والمنظار في أيديهم ؟ كنت ترى الفرسان يمرّون كبقع حمراء ، صفراء ، بيضاء وررقاء على امتداد الجماعة الذين كان يضيق بهم الميدان . من بعيد لم تكن ترى سرعتهم مفرطة ، وفي الطرف الآخر

تحسبهم يتباطأون لا يتقدمون إلا انزلاقاً ، حيث بطون الجياد تلامس الأرض متهادون أن تطوى قوائمها الممدودة . انما ، اذ يعودون بسرعة ، هم يكبرون مرورهم يقطع الهواء ، ترتجف الأرض ، تنطير الحصى ، ويندفع الهواء في قبعات الفرسان ، فيجعلها تخفق كما اشرفة ؛ ويضرب سياط متتابع ، يحثون الجياد للوصول الى العمود ، إنه الهدف . تُحذف أرقام ، ويبقى رقم ، ووسط التصفيق ، يتقدم الجواد الفائز الى الموزن ، مبللاً بالعرق ، رُكبه مشدودة ، عنقه منحنية ، بينما فارسه يمسك بخصره ، كأنه محشرج فوق السرج .

اعتراض آخر الانطلاقة الأخيرة . تدفقت الجماعة التي كانت تضرع جماعات من الرجال يتحدثون عند أسفل المدرجات الأحاديث كانت متنوعة . غادرت سيدات مجتمع صدمتهن مجاورتهن للنفاجرات .

كانت هناك أيضاً ملصقات عن احتفالات شعبية ، صور لممثلات هزليات ، - ولم تكن الأجل من تنال أكثر ثناء . . . جورجين أوبر ، من كان يسميها مؤلف هزلي ، لويس الحادي عشر التهر ، الممكية بشكل يثير الخوف ، والمطلقة ، بين وقت وآخر ، نوعاً من ضحكة شبيهة بالتذمر ، بقيت ممددة ، باسترخاء في عربتها الطويلة ، مرتدية سترة من فروثين كما في قلب الشتاء . السيدة ريموسو ، وقد أخرجها مشروعه الى النور ، تتبخر على مقعد عربة بريك برفقة أميركيين ، وتريز باشلو ، في مظهرها كعذراء قوطية ، تملأ بزينتها الكريمة داخل عربة لها ، بدل حاجز فاصل ، حوضاً مليئاً وروداً .

انجسدت « المارشالة » من هذا المجد ، ولكي يشعروا بوجودها ،

راحت تقوم بحركات ملحوظة وتحدثت وبصوت عالٍ جد . عرفها بعض السادة ، فحيوها من بعيد . أجابتهم وهي تذكر أساءهم لفرديريك . جميعهم كونت أو فيكونت أو دوق أو مركيز . وراح ينتفخ ، لأن كل العيون كانت تعبر بشيء ، من التقدير ، عن ثروته الطائلة .

لم يكن يبدو أقل سعادة وسط الرجال الناصجين المحيطين به يتسمون ، كانوا متعاليين ، كأنما يضحكون منه ، أخيراً خبط يد الأكبر سنأ وأقبل صوب « المارشالة » .

كانت تأكل بشراسة مصطنعة ، شريحة كبد دسم ، فرديريك مطيعاً لها ، راح يقلدها ممسكاً قنينة نبيذ على ركبتيه .

الميلوردية ظهرت ثانية ، انها السيدة أرنو . لقد شجبت بشكل عجيب .

- أعطني شمبانيا ! قالت روزانيت .

رفعت كأسها المليئة أقصى ما يمكن ، وهتفت :

- أوه ! هناك أيتها النساء الشريفات ، يا زوجة عشيقتي

ومعيلي !

تعالى الضحك حولها ، واختفت الملوردية . جذبها فرديريك من ثوبها ، كان سيغضب . لكن سيزي كان لا يزال هناك ، في وضعيته الأولى ، وبثقة زائدة ، دعا روزانيت الى العشاء في المساء ذاته .

- مستحيل ! قالت . سندهب معاً الى المقهى الانكليزي .

بقي فرديريك صامتاً ، كأنه لم يسمع شيئاً ، وعاد سيزي بمظهر

خائب .

وبينما هو يتحدثها ، واقفاً إلى بَوَاية الجهة اليمنى ، فاجأها هيسونيه من الجهة الشمالية ، واذ سمع اسم المقهى الانكليزي :

- انه مكان جميل ! نتناول فيه طعاماً خفيفاً !

- كما تريد ، قال فريدريك مجمّعاته في زاوية عربته البرلينية ، ناظراً ، في الأفق ، الميلورديّة تختفي ، شاعراً أنّ شيئاً ما لا يعوّض قد حصل ، وانه فقد حبّه الكبير . وبالقرب منه ، حبّه الآخر ، الحب الفرح والسهل ! لكنه متعب ، مليء بالرغبات المتناقضة ، لا يعرف ، حتى ، ما يريد ، فاستغرق في كآبة لا محدودة ، أراد الموت .

ضجّة خطوات وصوت جعلته يرفع رأسه ، فقد أقى الصبيان ، محاذين حبال الحلبة ، يشاهدون المنصّات ، قرّر الذهاب . سقطت بضع نقاط من المطر . ازداد ضجيج العربات . وضاع هيسونيه .

- ايه . . . هذا أفضل ! قال فريدريك .

- تفضّل أن نبقي وحدنا ؟ أجابت « المارشالة » واضعة يدها على يده .

حينها مرّت أمامها عربة لاندو رائعة يجرها أربعة جياد ، يقودها ، على طريقة دومون ، فارسا سباق بسترّة مخملية وأهداب مذهّبة . كانت السيّدة دمبروز قرب زوجها ، مارتيتون على المقعد الآخر ، جميعهم بدوا مندهشين .

قال فريدريك لذاته : « لقد عرفوني ! » .

أرادت روزانيت التوقف ، لترى الاستعراض بشكل افضل .

أنّما يمكن السيدة أرنو أن تظهر مجدّداً . فصرخ بالحوذي :

- هيا ! هيا ! إلى الأمام !

وانطلقت البرلينية نحو الشانزيلزه وسط العربات الأخرى التي

من كل نوع . وفي عربات مكشوفة مكتظة بالناس . ولدّ جالس على
أقدام الآخرين ، تاركاً رجله تتدليّان خارجاً . وعربات كبيرة تجول
بسيّدت مسنّات قريبات من أن ينمن . في هذه الأثناء ، تضاعف
هطول المطر . فرأيتهم يأخذون المظلات ؛ صغيرة وكبيرة ، والمعاطف
المشمّعة ، ومن بعيد يهتفون بعضهم لبعض : « مرحباً ! - هل انت
بخير ؟ - نعم ! - لا ! - إلى اللقاء ! » وراحت الوجوه تتابع بسرعة
الظلال الصينيّة . فريدريك وروزانيت استنكفا عن كل حديث ،
شاعرين ببلادة لرؤيتهما كل هذه الدواليب تدور ، باستمرار قريبها .
كنت ترى أحياناً أن أرتال العربات المعجّلة جداً ، تتوقّف دفعة
واحدة في صفوف عديدة . في هذه الحالة يروح الناس يتفحص بعضهم
بعضاً . وينظرون الى الشعب بلا مبالاة من المقطورات المزينة
بالشعارات ؛ تلمع في عمق العربات عيون مليئة برغبة ، وتحيب هزات
الرأس المتكبر ابتسامات تحقيريّة ؛ وأفواه كبيرة مفتوحة تعبّر عن
إعجاب أبله ، وهنا وهناك ، متسكع ما ، وسط الطريق ، يقفز الى
الوراء اتقاء لفارس يسرع بين العربات وينجح في الخروج من بينها . ثم
تعود جميعها الى الحركة ، يرخي الخوذيون الزمام ، يهوون بسياطهم على
الجياد ، فتسرع هازة سلسلة اللجام ، زافرة حواليلها زبداً ، وتصدّد
أكفّالها وأرحالها الرطبة بخاراً تخترقه الشمس الغاربة . ولإذ تمر تحت
قوس النصر ، يمتد على طول رجل ، ضوء أصهب يلمع ثقب الدواليب ،
مسكة الأبواب ، طرف مجر العربات ، حلقات المقاعد الخشبية الصغيرة ؟
وعلى جانبي الجادة الواسعة ، - الشبيهة بنهر حيث تتماوج أعراف الجياد ،
والثياب والرؤوس البشرية - تتصبب الأشجار لامعة بالمطر ،

كجدارين أخصرين . وزرقة السماء البادية في بعض أمكنة ، تمتاز
بعذوبة الساتان .

وتذكر فريدريك أياماً بعيدة ، يا ما اشتهى فيها سعادة
لا توصف : ان يجد نفسه الى جانب امرأة في واحدة من هذه العربات .
هو الآن يمتلك تلك السعادة ، لكنه غير سعيد بها .

توقف المطر . فانطلق المارة الذين كانوا الجأوا بين أعمدة « الغارد
- موبل » . بعض متزهين في الشارع الملكي ، يضعدون نحو
البولفار . وأمام فندق « الشؤون الخارجية » جماعة متسكعين على
الأدراج .

عند طلعة « الحمامات الصينية » تمهلت العربية البرلينية ،
لوجود بعض الحفر . رجل بستر ذات لون رمادي أحمر ، يمشي على
حافة الرصيف . طرطشته في ظهره دواليب العربية . استدار الرجل
غاضباً . سحب وجه فريدريك ، انه ديلورييه .

سرح العربية عند باب « المقهى الانكليزي » سبقتة روزانيت في
الصعود بينما هو يدفع للحوذتي .

لحق بها في الدرج وهي تتكلم مع احد الرجال أخذ فريدريك
ذراعها . انما استوقفها رجل آخر ، في وسط الممشى .

- لا تهتم ! قالت . لك أنا ! أكمل !

ودخل وحده . من خلال النافذتين المفتحتين ، يلاحظ أناساً
في نوافذ البيوت المواجهة . التماعات عريضة تبدو في الطرقات التي
كانت تجف ، وزهرة مانويليا على طرف الشرفة تنشر عطرها في المكان .
أرخت أعصابه هذه الرائحة العطرة وهذه الندوة ، فاستلقى على

الأريكة الحمراء ، تحت المرأة .

وصلت « المارشالة » قالت وهي تقبل جبينه :

- أعندك هموم ، يا « قطني » المسكين ؟

- لربما ! أجابها .

- لست الوحيدة دعك منها ! عما يعني : « لينسى كل احدا منا

همومه ، في سعادة مشتركة » !

ثم أخذت بتلة زهرة في شفتيها ، وقدمتها له لينقرها . رقت

قلب فريدريك ، هذه الحركة اللطيفة ، والتي تكاد تكون ذات وداعة
شهوانية .

قال مفكراً في السيدة أرنو :

- لماذا تزعليني ؟

- أزعلك ، أنا ؟

وراحت تنظر اليه ، واقفة أمامه ، جفناها متقاربان واليدان على

كتفيه .

بسالته كلها ، وكل حقهه ، غرقا في جبن بلا قرار .

أكمل ، وهو يجذبها فوق ركبتيه :

- لأنك لا تريدان أن نحبيني !

تركته يفعل ذلك ؛ طوق خصرها بذراعيه ؛ أثاره حفيف ثوبها

الحريري .

- أينهما ؟ قال صوت هيسونيه في الممشى .

قالت « المارشالة » فجأة وجلست وظهرها الى باب .

طلبت محاراً ، وجلسا الى الطعام .

ما كان هيسوتيه فكها . لفرط ما هو يكتب ، يومياً ، في كل الموضوعات ، ويقرأ كثيراً من الجرائد ، ويسمع كثيراً من المناقشات وينشر متناقضات ليهر ، فقد انتهى بأن فقد المفهوم الصحيح للأمر ، متعامياً بمفرقاته البسيطة . مشاكل الحياة ، السهلة في ما مضى ، القاسية الآن ، جعلته في حركة دائمة ، وعجزه ، الذي لا يريد الاقرار به ، جعله شكساً تهكماً . بخصوص « أوزاي » وهي باليه جديدة ، شنّ هجوماً شديداً على الرقص ، وبخصوص الرقص على « الأوبرا » ، ثم بشأن « الأوبرا » ، ضد الايطاليين ، وقد حلت محلهم ، الآن ، فرقة ممثلين إسبان ، « كأننا لم نشبع من الكاستيليين ! » جرح فريدريك بحبه الرومنطقي لاسبانيا ، ويقصد أن يقطع الحديث ، استخبر عن « معهد فرنسا » الذي منه طردوا إدغار كينيه ومبكافيتس . لكن هيسوتيه ، كمعجب بالسيد دومير ، راح يناصر السلطة والروحانية . مع ذلك ، يشك هو في الأمور المقامة البراهين حولها كأفضل ما يمكن ، ينكر التاريخ ، ويعترض على الأشياء الأكثر إيجابية ، إلى حد أنه صرخ عند كلمة هندسة : « إنها مزحة هذه الهندسة ! » مازجاً كل أقواله بحركات ممثلين . بالأخص سانفيل الذي كان مثاله .

أرهق فريدريك هذا الكلام الفارغ . وبحركة نفاد صبر ، صدم كلباً من الاثنين ، بقدمه ، تحت الطاولة .
أخذنا ينبحان معاً بطريقة مزعجة .
- عليك أن ترافقها ! قال بخشونة .
شكت روزانيت بهما معاً .

حينها ، استدار صوب البوهيمي :

- هيا ، هيسونيه ، تقدّم لذلك !

- أوه ! نعم ، يا عزيزي ! يكون عملاً لطيفاً منك !

خرج هيسونيه بلا إلحاح .

بأية طريقة تكافأ كياسته ؟ ما عا د فكريديريك في الأمر . راح

يبتهج بكونه وجهاً لوجه معها ، حين دخل صبيّ المقهى :

- سيدتي ، هنالك من بطلبك !

- كيف ذلك ؟

- يجب أن أرى ! قالت روزانيت .

هو في عطش إليها ، يحتاجها . بداله هذا الانسحاب خيانة ،

عملاً فظاً . ماذا تريد إذن ؟ ألم يكفها أنها أغضبت السيّد أرنو ؟ مع

ذلك ، إنها غلظتها هذه ! الآن ، كره كل النساء ، نبعت دموع تكاد

تُخنقه ، حبه لم بقدر وشهوته خُدعت .

عادت « المارشالة » ، قالت وهي تقدّم سيزي :

- لقد دعوته . حسناً فعلت ، أليس كذلك ؟

- كيف لا ؟ طبعاً !

أشار فريديريك إلى الرجل بالجلوس ، وبدأت على شفّتيه بسمة

إنسان معذب .

طفقت « المارشالة » تسرح بصرها في اللائحة متوقّفة عند الأسماء

الغريبة .

- أرى لو نأكل أرناب على طريقة ريشليو ونشرب بودنغ على

طريقة أورليان ؟

- أوه ! من دون أورلياد ! صرخ سيزي الذي كان ملكباً وحسب نفسه قال شيئاً .

- أنفضّل سمكة ترس بطريقة شامبور ؟ قالت .
صدمت هذه الملاطفة فريدريك .

قرّرت « المارشالة » شريحة من خاصرة بقرة ، سلاطين ،
فطوراً ، سلطة أناناس ، شراباً معطراً بالونيلية .

- بعد هذا نرى . إبدأ . آه ! كدت أنسى ! هات لي سُجقاً
بلا ثوم !

وراحت تنادي الصبي « شاباً » ، تدق ، بسكينها كأسها ،
رمي إلى السقف لبّ خبزها . أرادت أن تشرب حلاً نيذ بورغونيا .

- لا نشرب منذ البداية ، قال فريدريك .
رأى الفيكونت أن هذا قد يحصل أحياناً .

- إيه لا ! أبداً !

- بلى ، أوكد لك !

- آه ! رأيت !

رافقت كلمتها هذه نظرة تعني :

« إنه رجل غنيّ ، هذا ، إسمع له ! » .

في هذه الأثناء كان الباب يُفتح كل لحظة ، يصرخ صبيان المقهى
صراخاً كريهاً شبيهاً بالعواء ، وأحدهم ، في الغرفة المجاورة ، يلعب
موسيقى فالس على بيانولا يطاق . ثم إن سباق الخيل أدّى إلى حديث
عن الفروسية ، وعن المذهبين العدوين . راح سيزي يدافع عن بوشير
وفريدريك عن الكونت دور ، حين رفعت روزانيت كتفها .

- كفى ، يا إلهي ! يعرف أحسن منك ، رُح !
كوعها موضوع إلى الطاولة ، هي تعضّ رمانة . ترتجف ، في
الهواء ، شموع الشمعدان أمامها ، يخرق هذا النور الأبيض جلدها
بلون صدفيّ ، يلقي لونا زهرياً على رموشها ، يجعل وافي عينيها يلعب ،
احمرار الرمانة يمتزج ، كان ، باحمرار شفيتها ، وأنفها الناعم يخفق .
كل كيائها ينقر فريدريك بما فيه من سفاهة ، ومع هذا تسكب في قلبه
لذات مجنونة .

ثم سألت ، بصوت هادئ ، لمن هذه العربة اللاندو الكبيرة مع
هذه الخلعة الكستنائية .

أجاب سيزي : للكونتيسة دمبروز .

- هم أثرياء جداً ، أليس كذلك ؟
- أوه اجد أثرياء ! بالرغم من أن السيّدة هي ابنة والي مقاطعة
من آل بوترون ، ليست غنية .

زوجها ، على العكس ، كان ليرث ميراثاً وفيراً ، من أكثر من
اتجاه . عدّها سيزي . بما أنه يخالط آل دمبروز ، فهو يعرف قصّتهم .
راح فريدريك يصبر على معارضته ، هكذا يعود لا يعجبه . أصرّ
على أن السيّدة دمبروز هي من أصل نبيل .

- ماهمّ ! أريد أن يكون لي مثل ما لها ! قالت « المارشال » ،
قالبة نفسها على الكرسي الواسع والمريح .
وإذ لاق طرف كمّها قليلاً ، كشف ، في معصمها ، عن أسورة
تزيّن ثلاثاً أحجار كريمة متغيّرة الألوان .

رآها فريدريك .

- عجباً ! لكن . . .
تفحصوا بعضهم واحمروا .
فُتِحَ الباب قليلاً ، بخفر ، ظهر طرف فَبْعَة ، ثم جانب وجه
هيسُونِيَه .

- أعذراني أيها العاشقان إن كنت أزعجكما !
لكنه توقّف مدهوشاً لرؤيته سيزي ولكون هذا أخذ مكانه .
أتوا له بطعام ، وبما أنه كان كثير الجوع ، راح يفتّش ، كيفما
اتفق ، في بقايا الأطعمة ، وجد لحماً في صحن ، وفي سلّة ثمرأ ، فراح
يشرب بيدو يأكل بالأخرى ، وهو يخبر عن إتمامه عمله ، أوصل الكلين
الصغيرين . لا جديد في المنزل . وجد الطاهية مع جندي ، اختلاق
كاذب ، اخترعه فقط للثارة .

أخذت « المارشالة » معطفها من المشجب . أسرع فريدريك إلى
الجرس صارخاً ، من بعيد ، للصبي :
- عربة !

- معي عربتي ، قال الفيكونت .
- إنما ، سيدي !
- مع ذلك ، سيدي !
ونظرا إلى بعضهما البعض في ملء العينين ، شاحبين ، مرتجفي
الأيدي .

أخيراً ، أخذت « المارشالة » ذراع سيزي ، وإذ دلت على
البوهيمي الجالس إلى المائدة ، قالت :
- إعتنِ به ! يكاد يختنق . لا أريده أن يموت بسبب كلبتي .

انغلق الباب .

- وبعد ؟ قال هيسونيه .

- وبعد ، ماذا ؟

- كنت أعتقد . . .

- ماذا كنت تعتقد ؟

- هل أنت . . . ؟

أكمل عبارته بحركة .

- إيه لا إيهات !

لم يصّر هيسونيه .

كان يهدف إلى أمرحين دعانفسه إلى العشاء . يريد تحويل جريدته إلى مجلة أسبوعية ، وحده ، بدون معونة ديلورييه . هي لم تنجح وأبدل اسمها : « الفن » باسم آخر هو : « المتعجرف » مع هذه العبارة التوجيهية : « أيها المدفعيون ، إلى سلاحكم ! » عاد فتحدث عن مشروعه القديم ، وعرض تصميمه الجديد .

أجاب فريدريك بأشياء غامضة ، هو ، ولا شك ، لم يفهم . أمسك هيسونيه بأكثر من سيجار عن الطاولة قال : « الوداع ، يا صديقي الطيب ! » واختفى .

طلب فريدريك ورقة الحساب . اللويلة هي ، كان الصبي ينتظر المال ، والفقطة على ذراعه ، حين ألقى رجل ما ، باهت ، يشبه مارتينون وقال له :

- اعذرنا يا سيدي ، نسينا أن نضيف على الحساب عربة

الخليل .

- أي عربة ؟

- التي أخذها هذا السيد لارجاع الكليين الصغيرين .
واستطلع وجهه ، كأنه أشفق عليه . رغب فريدريك لو
يصفعه . أعطى حلواناً العشرين فرنكاً التي أرجعوها له .
- شكراً ، ياسيدي ! قال الصبي الذي معه الفوطه ، مع تحية
عظيمة .

أمضى فريدريك اليوم التالي في اجترار غضبه وخزيه . لام نفسه
لكونه لم يصفع سيزي . أما « المارشالة » ، فقد أقسم ألا يراها من
بعد . سواها ، ممن يعادلها جمالاً ، موجودات ، وبكثرة . وبما أن المال
ضروري لامتلاك مثل هؤلاء النساء ، فلسوف يضارب في البورصة
بشمن مزرعته ، يصير غنياً ، ويحطم ، بترفه ، « المارشالة » وكل
الناس . وإذا حلّ المساء ، عجب كيف لم يفكر في السيدة أرنو .
« هذا أفضل ! ماذا ينفع التفكير فيها ؟ » .

وفي الثامنة من بعد الغد ، أتى بيلران يزوره . بدأ بذكر إعجابه
بالأثاث ، ثم بملاطفات تزلفت . وفجأة :

- هل كنت في سباق الخيل ، الأحد ؟

- نعم ، للأسف !

راح الرسام يهاجم بنية الجياد الانكليزية ، يثني على جياد جيريكو
وكذلك جياد بارتينون . « هل كانت روزانيت معك ؟ » وشرع
يمتدحها بلباقة .

حيرته برودة فريدريك . بات لا يعرف كيف يأتي إلى الحديث
عن اللوحة . رغبته الأولى كانت أن ينفذ واحدة تشبه لوحات تيتيان .

إنما ، شيئاً فشيئاً ، أغراه تلوين نموذج المتغير . وراح يعمل بلا تردّد ، مكّدساً معجونة فوق معجونة ونوراً فوق نور . روزانيت كانت مسرورة أوّل الأمر ، مواعيدها ودمار قطعت جلساتها وتركت لبيّر ان كل الوقت لينهر . وإذ تزايد إعجابه ، تساءل إذا لم يكن رسمه مهما . عاد يرى لوحات تيتيان ، تينّ الفرق ، عرف خطاه ، وأكب يعيد حدوده ببساطة . ثم عمل ، وهو يرتبها ، على أن يضيّع فيها ، وأن يمزج فوارق درجات لون الرأس وخلفيات اللوحة ، واتخذ الوجه قوة ، والظلال عنفواناً ، كل شيء بدأ أكثر حزمًا . عادت « المارشالة » أخيراً . سمحت لنفسها ، حتى ، باعتراضات ، اعترض الفنان ، بالطبع . وبعد غضب كبير بسبب غباوتها ، قال في ذاته انها قد تكون على حق . وبدأ ، حينها ، عهد الشكّ ، وتمزّق الأفكار وتشتتها ، مما يحدث مغص المعدة ، الأرق ، الحمى ، الاشمتزاز من الذات ، تجرّأ على أن يقوم بإصلاحات ، إنما من غير اندفاع وشاعراً أنّ عمله سيء .

أسف ، فقط ، لكونه رُفض في الصالون ، ثم لام فريدريك لأنه

لم يأت كي يرى رسم « المارشالة » .

- أسخر منها ، هذه « المارشالة » !

شجّعته مثل هذا القول .

- أظنّ أن هذه الحرقاء باتت الآن لا تريده ؟

ما لم يقله هو أنه طلب إليها ألف ريال . والحال أنها ما كانت تهتمّ بمن سيدفع ، وتفضل أن تنال من أرئوا أشياء أكثر ضرورة . وما عادت حدّثته عن الرسم .

- إيه ، وأرنو ؟ قال فريدريك .

- كانت وجهته إليه . لكن تاجر اللوحات القديم لم يهتم للأمر .
- يصّر على أنّ اللوحة لروزانيت .
- في الواقع هي لها .
- كيف ذلك ؟ هي أرسلتني إليك ! أجب بيلران .
لو كان يؤمن بجودة عمله ، ما كان فكّر ، ربما ، في الافادة منه .
لكنّ مبلغاً (ومبلغاً محترماً) يكون تكديماً للتقيد وتقوية للذات .
وليتخلص منه فريدريك ، سأله ، بلباقة ، عن شروطه .
أثاره المبلغ المرتفع ، أجب :
- لا ، آه ! لا !
- مع ذلك ، فأنت عشيقها ، أنت من طلب إليّ اللوحة !
- من فضلك ، كنت أنا الوسيط !
- لكنني لا يمكن أن أبقى هكذا !
غضب الفنان .
- آه ! ما كنت أعهدك جشعاً إلى هذه الدرجة .
- ولا عهدتك بهذا البخل !
وإذ هو يغادر ، وصل سينيكال .
ولأنه مضطرب ، قام فريدريك بحركة تدل على السأم .
- ماذا هناك ؟
أخبر سينيكال قصته .
- حوالى التاسعة من نهار السبت ، تلّقت السيّدّة أرنور رسالة
تدعوها إلى باريس . وصدفة ، لم يكن هناك أحد يمكنه الذهاب إلى
كراي للمجيء بعربة ، فرغبت في إرسالى أنا . رفضت ، لأن هذا ليس

من ضمن أعمالي . ذهبت وعادت مساء الأحد . وأمس صباحاً ، وُجد
أرنوفي المصنع . اشتكت البردوية . لا أدري أنا ما يجري بينهما ، لكنه
رفع العقوبة أمام الجميع . تبادلنا كلاماً قاسياً . باختصار : دفع لي
حسابي وها أنذا !

ثم ، بوضوح ، فاصلاً الكلمة عن الأخرى ، أضاف :
- مع ذلك ، لست أندم ، قمت بواجبي . مهما كان الأمر ، انه
بسبك .

- ماذا ؟ صرخ فريدريك وقد خشي أن يكون سينيكال كشفه .

ما كان سينيكال اكتشف شيئاً ، لأنه أجاب :

- هذا يعني ، أنه ، لولاك ، لربما كنت وجدت عملاً أفضل .

أصيب فريدريك كما بتبكيت ضمير .

- بماذا يمكنني الآن أن أساعدك ؟

سأله سينيكال وظيفة ما ، مركزاً .

- هذا سهل عليك . تعرف ، أنت ، كثيرين ، بينهم السيد

دمبروز كما أخبرني ديلوريه .

كان ذكر ديلوريه بغيضاً بالنسبة إليه . وما كان يحلم بالعودة عند

آل دمبروز منذ لقاء « شان دي مارس » .

- لست حميماً بما يكفي ، معهم ، لأستطيع أن أوصي بأحد .

تحمل الديموقراطي هذا الرفض برباطة جأش ، وبعد هنيهة

صمت :

- أكيد أنا ، أن كل هذا ، بسبب البردوية وسيدتك أرنو .

« سيدتك » ، هذه ، انتزعت من قلب فريدريك ما بقي فيه من

إرادة طيبة . ومع ذلك ، قدّم إليه فريديريك ، لباقة ، مفتاح مكتبه .
شكره سينيكال على جميله .

- شكراً .

ثم طفق يتحدّث ، ناسياً مشاكله ، عن أمور الوطن ، عن
الأوسمة التي يسرفون في توزيعها في عيد الملك ، عن تغيير الوزارة ،
شؤون درويّار وبينيه ، فضائح العصر ، هاجم البورجوازيين وتنبأ
بثورة .

استوقف نظره خنجر ياباني ملتزم معلق في الحائط . أخذه ، جرّب

قبضته ثم رماه على الأرض بظهره اشتمزاز .

- هيا ، الوداع ! يجب أن أذهب إلى نوتر-دام -دي لوريت .

- عجباً ! لماذا ؟

- تصادف اليوم الذكرى السنوية لغودفروا كافينيك . لقمات

في العمل ! إنّا ، ما انتهى كل شيء . . . من يدري ؟

ومدّ سينيكال يده بشجاعة .

- لربما عدنا التقينا ! الوداع !

هذه الكلمة ! الوداع ! وقد أعادها سينيكال مرتين ، تقطية

حاجبيه وهو يتأمل الخنجر ، عناده ومظهره ، بخاصة ، كلها جعلت
فريديريك يحلم ، لكنه سريعاً ما نسي الأمر .

الأسبوع ذاته ، أرسل إليه الكاتب العدل من هافر ، ثمن

مزرعته مئة وأربعة وسبعين ألف فرنك . جعلها قسمين : ترك الأول ،
وحمل الآخر إلى عميل صرافة ليضارب بها في البورصة .

راح يأكل في الحانات المشهورة ، يتّردّد إلى المسارح ويهتم بالنرفيه حين وجه إليه هيسّونيه رسالة يخبره فيها بفرح أن « المارشالة » طردت سيزي منذ اليوم الثاني لسباق الخيل . سعد فريدريك من دون أن يحاول معرفة لماذا يخبره البوهيمي بهذا .

و شاء القدر أن يلتقي بسيزي ، بعد ذلك بثلاثة أيام . أظهر الرجل رباطة جأش ودعاه ، حتى ، للعشاء الأربعاء القادم .

صباح ذلك اليوم ، وصل فريدريك تبليغ يعلمه فيه السيّد شارل - جان - باتيست أودري ، أنه ، بناء على حكم المحكمة ، قد صار صاحب ملكية في بلّفيل تخص السيّد جاك أرو ، وأنه مستعد لدفع المئتين وثلاثة وعشرين ألف فرنك ، حصيلة ثمن المبيع . لكنه يخلص إلى القول إنه بما أن قيمة الرهونات التي تثقل البيت ، تفوق ثمن التملّك ، فقد ضاع ، كلياً ، دين فريدريك .

سبب هذا يعود إلى أنه لم يجدّد الرهن في الوقت المناسب . كان تكلف أرنوبال أمر ، ونسيه في ما بعد . نقم عليه فريدريك ، وحين هدأ غضبه :

« وماذا بعد ؟ ... ماذا ؟ إذا كان هذا ينقذه ، فلا بأس ! لن أموت ! ولأنصرف عن التفكير فيه ! » .

لكنه ! وهو قلب أوراقه على طاولته ، لمح رسالة هيسّونيه ولحظ الحاشية التي ما كان انتبه إليها في المرة الأولى . يطلب البوهيمي خمسة آلاف فرنك لينطلق بالجريدة .

« آه ! هذا يضايقي ! » .

وبعنف رفض إعطاءه ، في رسالة مختصرة . بعدها ، ارتدى

ثيابه ليذهب إلى « البيت الذهبي » .

قدّم سيزي مدعوّيه بادئاً بالأهم : سيّد ضخم أبيض الشعر .
- المركيز جيلبير دي أولناي ، عرابي . السيّد أنسلم دي
فورشمبو ، قال بعد ذلك ! كان شاباً أشقر ونحيفاً ، أصلع ، ثم ،
مشيراً إلى رجل مربوع في مظهر بسيط : « جوزف بوفرو ، فريقي » ،
شخص نصف سائق عجالات ، نصف طالب مدرسة إكليريكية ، في
الحية كثة وسترة طويلة ، مزرّرة في الأسفل بزرّ واحد بطريقة تؤلّف معها
شالاً على الصدر .

ظل سيزي يتّظر أحداً ما ، البارون دو كومينغ ، « هوربما أتى ،
لست أكيداً » . يخرج كل دقيقة ، يبدو كثيراً ، أخيراً ، في الثامنة ،
انتقلوا إلى غرفة مضياء بطريفة ممتازة وواسعة جداً بالنسبة إلى عدد
المدعوّين . كان سيزي انتقاها ، عمداً ، كدليل أبهة .
يملاً وسط الطاولة ، سرتوت * قرمزي مملوء زهراً وثماراً .
والطاولة مليئة بصحون فضية حسب الطريقة الفرنسيّة القديمة ،
صحائف ملأى بالقديد والتوابل تحيط بها ، بين مسافة وأخرى ، أباريق
خمر مورّد مزوج ثلجاً ، وقد صُفّت خمسة أقداح متفاوتة الحجم أمام كل
صحن ، مع أشياء لا نعرف وجهة استعمالها ، أصناف مأكولات
كثيرة ، - وهناك ، فقط لبداية الوليمة ، طعام من رؤّوس الحفش**

* سرتوت : صينية للزينة توضع على المائدة .

** جنس من الأسماك .

مبَلَّل بالشمبانيا ، جانبون من يورك مغموس بالتوكاي * ، سمنة مع
بريشة ، سمانى مشوية ، حجال حمراء مقلية بسرعة ، وعلى طرفي كل
هذا ، بطاطا معزوجة بفطور لذيذة الطعم . تنير المكان ، وهو مفروش
بقماش أحمر مزركش ، ثرياً وشماعدين مشعبة . يقوم على خدمتهم ،
أربعة خدام بلباس أسود يقفون وراء الكراسي الجلدية الملونة . صرخ
المدعوون ، عند هذا المشهد ، وبخاصة الربى :
- قسماً بشرفي ، إن مضيفنا قد قام بجنون فعلي ! هذا جميل
جداً !

- هذا ؟ قال الفيكونت دو سيزي . هيا بنا !
ومنذ اللقمة الأولى :

- وبعد ، عزيزي دو أولناي ، هل ذهبت إلى المسرح الملكي
تشاهد « الأب والبواب » ؟
- تعرف أن لا وقت لدي ! قال المركز .

صباحاته مأخوذة بمحاضرات عن الغراسية ، أمسياته بالحلقة
الزراعية ، وكل بعد ظهره بدروس في مصانع آلات الحراثة . بما أنه
يسكن ثلاثة أرباع السنة في « سانتونج » فهو يستفيد من رحلاته هذه إلى
العاصمة للتثقف ، وها قبعتة الفضفاضة أطرافها ، والموضوعة على
منضدة مزخرفة ، مملوءة نشرات .

وإذ لاحظ سيزي أن السيد دو فورشمبور رفض الخمر ، قال :
- إشرَب ! كن جسوراً في وقعتك الأخيرة كصبي عازب !

* خمر مجرية من مقاطعة توكاي .

عند هذه الكلمة ، مالوا جميعاً وهنأوه .

قال المربي :

- بالطبع ، فالعروس لطيفة ، أليس كذلك ؟

- تباً له ! صرخ سيزي . مهما كان الأمر ، فهو على خطأ

فالزواج أمر أخرق !

- تتكلم بخفة ، يا عزيزي ، أجب السيد دو أولناي ،
والدمعة تتلألأ في عينيه ، لتذكره فقيدته .

وكرر فورشمبو ، مراراً القول ساخراً :

- ستصل إليه أنت ذاتك ، ستصل إليه !

اعترض سيزي . يفضل ، هو ، التسلية ، أن يكون في « غاية
الأناقة » . يريد أن يتعلم التضارب ليزور حانات الأشرار في المدينة ،
كما الأمير رودولف في رواية « أسرار باريس » * ، أخذ من جيبه غليوناً
قصيراً ، خاشن الخدم ، شرب بكثرة ، وكي يجعلهم يكونون عنه
فكرة ، ذم كل الأطباق . حتى أنه أعاد الفطور اللذيذة ، وقال المربي ،
وهو يتلذذ ، بدناءة :

- هذا لا يوازي ، أبداً ، البيض المضروب الذي كانت تعدّه

جدّتك !

ثم راح يتحدث مع جاره المهندس الزراعي الذي كان يرى في
الاقامة في الريف الكثير من الحسنات ، ليس أقلها المقدرة على تربية

* رواية لأوجين سو ، كانت ما تزال تنتشر في الأوساط ، وقد بدأت تظهر في ١٨٤٢
، « جورنال دو ديبا » .

العتبات كما هي الرغبة الحقيقية . كان المرء مصفّق لأفكاره ويتملّفه ،
مفترضاً له التأثير على تلميذه الذي يرغب في أن يكون مدير أعماله .
كان امتلاً فريدربك غضباً صديزي ، ملاهته كشفت أمره .
لكن حركاته ، وجهه ، كلّه ، جعله يتمزق غضباً أكثر فأكثر ، إذ تذكّر
عشاء المقهى الانكليزي ، ويصغي ، كان ، إلى الملاحظات الفظة التي
يبدّيها ، بصوت هامس ، قريبه جوزف ، وهو شاب طيّب فقير ،
هاوي صيد ومضارب في البورصة ، ليمزح ، سيزي ، كان ناداه ،
مرات عدة - « السارق » ، ثم فجأة :

- آه ! البارون !

حينها ، دخل ثلاثيني جسور ، قاسي الملامح ، لينّ الأطراف ،
قبعته فوق أذنه ، وزهرة في عروته . إنه مثال الفيكونت . كان سعيداً في
انضمامه إليه .

وظفّق يسأل السيد دوكومينغ أسئلة كثيرة عن أشخاص مجهولين
في المجتمع ، ثم ، كمن تذكّر أمراً :
- قل لي ، هل فكّرت بي ؟
هزّ الرجل كتفيه .

- ما تزال صغيراً ، مستحيل !

كان سيزي ألحّ عليه ليقبله في ناديه . وبما أن البارون مالأ غرور
سيزي ، قال له :

- آه ! كدت أنسى ! ألف تهتة على شرطك يا عزيزي !

- أي شرط !

- الذي شارطته في سباق الخيل ، في أن تذهب ، المساء ذاته ،

عند تلك المرأة .

هنا ، كأنما أحسّ فريدريك بلسعة سوط . وسريعاً ما هدا إذرأى
وجه سيزي المقطب .

في الواقع ، كانت « المارشالة » منذ الغد ، ندمت ، حين جاء ،
في اليوم ذاته ، أرنو عشيقها الأول ، رجلها . معاً أفهما الفيكونت أن
وجوده « يزعج » ، وصرفاه بلا احترام .

تغاضى عن السماع ، فأضاف البارون :
- ماحل بها ، هذه الطيبة روز ؟ . . . أما تزال جميلة الساقين ؟
مظهِراً ، هكذا ، انه يعرفها تماماً .
اغتاظ فريدريك لهذه المعرفة .

- لماذا الاحمرار ، تابع البارون ؟ انه عمل حسن !
فرقع سيزي بلسانه .

- تبّاً له من عمل ! ليس بتلك الجودة !
- آه !

- بلى ! فأنا لا أجد فيها شيئاً غير عادي ، ثم إننا نحصد
الكثيرات مثلها ساعة نشاء ، لأنها أخيراً . . . تعرض نفسها للبيع !
- ليس لكل الناس ! قال فريدريك بخشونة .
- يحسب نفسه مختلفاً عن الآخرين ! أجاب سيزي . يا
للنكته !

وسرت ضحكة على المائدة .

شعر فريدريك بضربات قلبه تحنقه . ابتلع كأس ماء ، دفعة
واحدة .

- لكن البارون يحتفظ ، كان ، بذكرى طيبة من روزانيت .
- أما تزال مع واحد اسمه أرنو ؟
فقال سيزي :
- لا أعرف عنها شيئاً ، لا أعرف هذا الرجل .
ومع ذلك ذكر أنه غشاش .
- إسمع ! صرخ فريدريك .
- مع ذلك فالأمر واضح ! أقيمت عليه دعوى .
- غير صحيح !
وراح فريدريك يدافع عن أرنو . هويضمن نزاهته ، انتهى بأن
آمن بها ، اخترع أرقاماً ، أدلة . لكن الفيكونت أصر على تأكيداتة ،
يملاه الحقد ، بحيث أن فريدريك قال بتوعد :
- أهذا لتغيظني يا سيد ؟
ونظر إليه بعينين ملتهيتين كسيجارة .
- أوه ! لا ، أبداً ! أوكد لك حتى أن عنده شيئاً ممتازاً :
زوجته .
- تعرفها ؟
- يا لك من غبي ! صوفي أرنو ، الجميع يعرفونها .
- تقول ؟
كرّر سيزي القول ، وكان نهض :
- الجميع يعرفونها !
- أسكت ، ليست من هؤلاء اللواتي تعاشر !
- وهذا من دواعي فخري !

قذفه فريدريك بصحن على وجهه .
 كالبرق مرّ الصحن فوق الطاولة ، أوقع قنيتين ، هذ طاولة
 شراب ، أصاب بطن الفيكونت .
 كلهم هبوا لتهديته . تخلص منهم صارخاً ، وقد أخذه نوع من
 الهيجان . راح السيّد دو أولناي يردّد :
 - إهدأ ! هيا اهدأ يا عزيزي !

فزعل المرءي :
 - إنه لشيء فظيع !
 صار فورشمبو ادكن كالبرقوق ، وراح يرتجف ، ضحك
 جوزف عالياً بينما كان الخدم يمسخون النبيذ ، ويلمّون الحطام من
 الأرض ، وذهب البارون وأقفل النافذة لأن المخاضمة وصلت إلى
 البولفار بالرغم من ضجيج العربات .
 وبما أن الجميع كانوا يتحدثون ، مرة واحدة ، حين قُذف
 الصحن ، كان من المستحيل معرفة سبب هذه الاساءة ، هل هي
 بسبب أرنو ، بسبب السيّد أرنو ، بسبب روزانيت أولسبب آخر ! ما
 هو حقيقيّ ، هو عنف فريدريك الذي لا يوصف ، وقد رفض رفضاً
 قاطعاً أن يعتذر .

حاول السيّد دو أولناي تهدئته ، وهكذا جوزف والمرءي ، حتى
 فورشمبو نفسه . في هذا الوقت ، كان البارون يشدّد عزم سيزي ،
 الذي راح يبكي ، مستسلماً لضعف عصبي . فريدريك ، على
 العكس ، غضب أكثر فأكثر . وكان الأمر ليوم أكثر لولم يقل البارون
 لينهي الأمر :
 - سيرسل الفيكونت غداً ، يا سيدي ، شهوده إليك .

- في أية ساعة ؟
- ظهراً إذا شئت .
- اتفقنا سيدي .

وإذ صار فريدريك في الخارج ، تنفّس ملء رئتيه . من زمان وهو يكبت قلبه . وها هو أخيراً يروي غليله . وانه يشعر كما بكبرياء الرجولة ، أسكرته قوى غزيرة حميمة . فكّر أولاً ، برجمبار ، وللوقت اتجه ناحية حانة في شارع سان ديني . كانت الواجهة مقفلة . لكن نوراً يلتصع على زجاج فوق الباب . دخل ، بعدما فُتح الباب ، كثير الانحناء تحت الافريز .

ينير الغرفة شمعدان على طرف طاولة التاجر . كل الكراسي على الطاولات ، وأرجلها في الهواء . والسيد والسيدة ، مع ابنيهما ، يتعشّون في الزاوية قرب المطبخ ، ويشاركونهم الطعام ريجمبار ، وقبّعه على رأسه ، وهو يزجج الصبي الذي كان مضطراً ، عند كل لقمة ، لأن يلتفت قليلاً جانباً . أخبره فريدريك بالأمر وطلب حضوره . ما أجاب « المديني » بشيء أول الأمر ، راح يتلفّت كمن يفكّر ، دار دورات عديدة في الغرفة ، وأخيراً قال :

- نعم ، بكل طيبة خاطر !
 - وفرّحته ابتسامة مجرّمة ، حين عرف أن الخصم نبيل .
 - سنسوقه بخشونة ، كن مطمئناً ! أولاً . . . بالسين . . .
 - إنّا ، اعترض فريدريك ، لربما لم يكن لي الحق . . .
 - أقول لك يجب اعتماد السيف ! قال « المواطن » بخشونة .
- هل تعرف كيف تصوّب ؟

- قليلاً !

- آه ! قليلاً ! هكذا هم جميعاً ! ويحنقون إلى حدّ المسايقة !
علام تشهد غرفة السلاح ؟ اسمعني : قف جيداً على مسافة ساجناً
نفسك ضمن دوائر ، وابتعد ! ابتعد ! هذا مسموح . أنهكه ! ثم
هاجمه بلا تردّد ! ومن دون مكر ، لا تعتمد ضربات على طريقة
لافوجير ! كلا ! فقط : واحد اثنان ، تم تحرير . هاك ، أنتبه ؟ وأنت
تدير قبضة يدك كما لتفتح قفلاً . - سيد فوتيه ، أعطني عصاك ! آه !
هذا يكفي !

أخذ العود الذي كان يُستعمل لاشعال الغاز ، كوّر ذراعه
اليسرى ، ثنى اليمنى ، وراح يهاجم الفاصل فجأة . كان يضرب
بالقدم ، يتحمّس ، يصوّر نفسه كمن يلاقي صعوبات ، وهو
يصرخ : « أنت هنا ؟ أنت هنا ؟ » وانطرح شبحه الضخم على
الحائط مع قبعته التي بدت تلامس السقف . بائع شراب الليمون يقول
بين لحظة وأخرى : « برافو ! جيد جداً ! » زوجته ، أيضاً ! أعجبت
ولومندهشة ، والجندي القديم ، تيودور ، بقي مسمراً من الدهشة ،
فضلاً عن أنه منعصّب لريجيمبار .

صباح الغد الباكر ، أسرع فريدريك إلى محل ديسرديه . بعد
سلسلة غرف ، ملأى كلها بالأقمشة المائلة أجنحة أو الموضوعه ،
عرضاً ، على طاولات ، بينما ، هنا وهناك ، أشخاص خشب يحملون
شالات ، رآه في غرفة كقفص مسوّ ، وسط سجلات يكتب واقفاً أمام
مكتب . ترك الفتى الطيب عمله بسرعة .

وصل الشهود قبل الظهر . حسب فريدريك أنه ، من الذوق

السليم ، عدم حضوره المداولة .
أعلن البارون وجوزف أنها يقبلان مجرد الاعتذار البسيط . لكن
ريجمبار ، الذي كان مبدأه عدم التراجع ، والذي كان يتمسك بالدفاع
عن شرف أرنو (ما كان فريدريك حدثه عن سوى هذا) ، طلب أن
يعتذر الفيكونت . ثار السيد دو كومينغ للتكبر . ما غير ريجمبار رأيه .
كل مصالحة مستحيلة ، وسوف يتبارزان .
طرأت صعوبات أخرى ، فان اختيار السلاح ، قانوناً ، هومن
حق سيزي المهان . لكن ريجمبار احتج أنه بطلب التحدي للمبارزة
صار ذلك الحق له . مع ذلك قال شهوده ان الصفعة هي أقسى أنواع
الاهانات . اختتم « المواطن » ، ملخصاً ، أن الضربة ليست صفعة .
تقرر ، أخيراً ، الرجوع إلى عسكريين . وخرج الأربعة الشهود
ليستشيروا ضباطاً في إحدى الثكنات .
توقفوا عند ثكنة شارع أورساي . تقدم السيد دو كومينغ إلى
عقيدين ، شرح لهما النزاع .
ما فهم شيئاً ، اختلط عليهما الأمر لأقوال ريجمبار الاعتراضية .
باختصار طلبا إلى هؤلاء السادة أن يكتبوا محضراً رسمياً ، على ضوءه
يقرران . حينها ، انتقلوا إلى مقهى ! وليكون الأمر في غاية السرية ،
مثلوا سيزي بحرف « هـ » وفريدريك بحرف « ك » .
ثم عادوا إلى الثكنة . كان الضابطان قد خرجا . ظهرا ،
مجدداً ، وأعلنا أن حق اختيار السلاح يعود إلى السيد « هـ » . عادوا ،
جميعاً ، إلى سيزي . بقي ريجمبار وديسرديه على الرصيف .
حين علم الفيكونت بالحل ، أخذه اضطراب كبير ، حتى انه

سألها عنه مرات عديدة ؟ وإذ تطرّق السيّد دو كومينغ إلى ادّعاءات ريجمبار ، همس « مع ذلك » ، إذ لم يكن بعيداً ، هو نفسه ، عن الاذعان لها . ثم ترك نفسه يغرق في كرسيّ مريح وأعلن أنه لن يبارز .
- إيه ؟ ماذا ؟ قال البارون .

. استسلم سيزي ، حينذاك ، لثروة لا معنى لها . يريد التبارز بالطبنجة ، عن كُتب ، بمسدّس واحد .

- أو نضع زرنichاً في كأس ، ونقترع عليه بالقرعة . هذا يجري ، أحياناً ، قرأت عنه !

عنّفه البارون ، وهو ، عادة ، قليل الصبر .

- هذان السيّدان ينتظران جوابك . هذا غير لائق منك ! ماذا

تقرّر ؟ هل هو السيف ؟

أجاب الفيكونت « نعم » بحركة من رأسه ، وتعيّن الموعد في اليوم التالي عند بوابة مايو ، تمام الساعة .

وإذ كان ديسردييه مضطراً للعودة إلى أعماله ، ذهب ريجمبار يُعلم فريدريك .

كان ترك طوال النهار من دون أخبار ، نفاد صبره صار لا يطاق .
- هذا أفضل ! هتف .

سرّ « المواطن » لرباطة جأشه .

- طلبوا إلينا أن نعتذر ، اتصدّق هذا ؟ لم يكن الأمر شيئاً ، مجرد

كلمة ! لكي رددتهم كاسفين ! حسناً فعلت ، أليس كذلك ؟
- من دون شك ، قال فريدريك ، مفكراً أنه كان حسناً فعل

هو ، لو اختار شاهداً آخر .

وحين صار وحده ، راح يردّد ، عالياً ، مرات كثيرة :
 « سوف أبارز . عجباً ، سوف أبارز ! إنه لأمر غريب ! » .
 وإد راح يمشي في غرفته ، ماراً أمام المرأة ، رأى نفسه شاحباً .
 « هل سأخاف ؟ »
 استبد به قلق بغيض لفكرة أنه سيخاف أثناء المباراة .
 « لو قُلت ؟ مات أبي بالطريقة نفسها . نعم ، سوف
 أقتل ! » .
 وفجأة رأى أمه بثياب الحداد ، دارت في رأسه صور مشوشة .
 أغاظه جُبنه . أخذته نوبة شجاعة ، عطش ضار . كتيبة لا تستطيع
 رده . وإذ هدأت هذه الحمى ، شعر بفرح أكيد الرسوخ . ذهب إلى
 الأوبرا بقصد أن يتسلّى ، تُقدّم ، هناك ، باليه . استمع إلى
 الموسيقى ، رغب بالراقصات ، وشرب كأس بنش خلال
 الاستراحة . لكنه ، وهو يدخل بيته ، أحسّ بضعف ؛ ظن يرى
 عرفته ، أثاثه ، للمرة الأخيرة .
 نزل إلى حديقته . كانت النجوم تلمع ، راح يتأملها . فكرة
 المباراة من أجل امرأة سترفعه في عينيها ، تعظّمه . ثم ذهب ينام
 هادئاً .
 لم ينجِ الأمر على المنوال ذاته بالنسبة إلى سيزي . بعد ذهاب
 البارون ، اهتمّ جوزف برفع معنوياته ، وإذ بقي الفيكونت على
 بروده :
 - مع ذلك ، يا عزيزي ، إذا كنت تفضّل البقاء هنا ، فاني
 أذهب لأبلغه .

ما جرؤ سيزي أن يخيبه : « طبعاً » ، لكنه يريد إلى قريبه أن لا يقدم له هذه الخدمة من دون أن يجدّه عنها .

تمنى لومبوت فريدريك ، خلال الليل ، بانفجار في الدماغ ، أو أن تحدث فتنة ، فتقوم حواجز ، في الغد ، تقطع كل المعابر إلى غابة بولونيا ، أو أن يحدث طارئ يمنع واحداً من الشهود عن الحضور ، لأنه ، إن تغيب أحد الشهود ، فلا تجري المباراة . رغب له يهرب بالقطار السريع إلى مكان ما ، أي مكان . تأسف لكونه لا يعرف بالطب ليتناول شيئاً ما يجعله كالميت من دون أن يعرض حياته للخطر . توصل ، حتى ، إلى أن تمنى لنفسه لو يكون مصاباً بمرض حطر . ويقصد أن يحصل على نصيحة أو نجدة ، أرسل بطلب السيد دو أولناي . لكن الرجل الطيب كان عاد إلى سانتونج بناء لخبر سريع عن توقع إحدى بناته . بداله الأمر نذير شؤم . إنما من حسن حظه أن أتاه السيد فيزو أستاذه . فأسر إليه بما يؤرقه .

- كيف العمل ، يا إلهي ! كيف العمل ؟

- لو كنت مكانك ، سيدي الفيكونت ، لدفعت إلى واحد من الرعاع ، قوي ، فيطعنه طعنات متتابعة .

أجاب سيزي : يعرف ، هكذا ، من يكون الدافع الحقيقي ! وراح ، وبين لحظة وأخرى ، يرسل أنيناً ، ثم قال :

- إنما أمعقول أن نقتل في مباراة ؟

- ماذا تريد ! هذا من بقايا البربرية !

ومجاملة ، دعا المربي نفسه إلى العشاء . ما أكل تلميذه شيئاً ، وبعد الطعام شعر أنه في حاجة إلى نزهة .

قال وهو يمرّ أمام كنيسة :
 - لو ندخل قليلاً . . . لنرى .
 سرّ السيّد فيزو بذلك ، وقدم له ، حتى ، مياهاً مقدّسة .
 كان شهر مريم ، فالأزهار تغطي المذبح ، أصوات ترتل ،
 والأرغن يعزف . لكنه استحال عليه أن يصلي ، فخفخة الديانة أوجت
 إليه أفكاراً جنائزية ، سمع مثل طنين صلاة « من الأعماق صرخت
 إليك يا الله » .

- لنذهب من هنا ! لا أحسني مرتاحاً !
 أمضيا كل الليل بلعب الورق . عمل الفيكونت على أن يخسر
 ليظهر حظّه السيء ، رآها فيزو مناسبة استفاد منها . ومع الفجر
 الباكر ، ما كان يستطيع سيزي أن يتحمّل أكثر ، فتمدّد على السجادة
 الخضراء ونام يحلم أحلاماً كريهة .
 مع هذا ، لو كانت الشجاعة في تمّلك الضعف ، لكان
 الفيكونت شجاعاً ، لأنه ، عند مرأى شاهديه آتين ليذهبا معه ،
 تشدّد ، وتمّلك كل قواه ، فهم أن أيّ تراجع يجعله يهلك . وهنّاه السيّد
 دو كومينغ على بشاشته .

لكنّ تاراجع عربة الخيل في الطريق ، وحرارة الشمس الصباحية
 أثاراه . تراجعت طاقته . بات لا يميّز أين كانوا .
 راح البارون يتسلّى بأن يزيد خوفه ، إذ طفق يتحدّث عن
 « الجثة » ، وعن طريقة إعادته إلى المدينة ، بموكب فخم . شارك
 جوزف في الحديث ، وكلاهما ، وقد تبيننا سخافة الأمر ، اعتقدا أنه
 سيتدبّر .

احتفظ سيزي برأسه متدلياً على صدره ، رفعه بهدوء ونبه إلى أنهم
لم يحضروا معهم طبيباً .

- هذا لا يجدي ، قال البارون .

- إذن فلا خطر ؟

أجاب جوزف بنبرة مهيبة :

- لنتمنّ ذلك !

وما عاد أحد تحدّث في العربة .

وصلوا أمام بوابة « مايو » في السابعة والدقيقة العاشرة . كان
فريدريك هناك مع شاهديه ، جميعاً في ثياب سوداء . ريجمبار ، بدلاً
من ربطة العنق ، تزيّياً بياقة من هُلبٍ كما عسكري ، وكان يحمل نوعاً
من علبة كمان طويلة خاصة بهذا النوع من المغامرات . تبادلوا تحية
باردة . ثم تواروا جميعهم في غابة بولونيا عن طريق مدريد بحثاً عن مكان
مناسب .

قال ريجمبار لفريدريك الذي كان يمشي بينه وبين ديسردييه :

- وبعد ، لم كل هذا الخوف ؟ إذا كنت في حاجة لأي شيء ،

فلا تقلق ، أعرف هذا ! الخوف أمر طبيعي في الناس .

ثم ، بصوت منخفض :

- لا تدخن بعد ، هذا يوهن !

رمى فريدريك سيكاره الذي كان يزعبه ، وأكمل بخطى

واثقة . إلى الراء ، يتقدّم الفيكونت مستنداً إلى ذراعي شاهديه .

يصادفون بعض المارة . السماء زرقاء ويُسْمَع ، بين حين وآخر ،

قفز أرناب . على لفنة درب ، امرأة بمدراس تتحدّث إلى رجل بقميص

فضفاضة ، وفي الممر الكبير تحت أشجار الكستناء ، خدم بسترات
كتّانية ينزّهون جيادهم . طفق سيزي يتذكّر الأيام السعيدة ، حين
كان ، ممتطياً جواده الأشقر ، يَحِلُّ عند بوابة العربات ، ذكرياته تعمق
قلقه ، أحرقه عطش لا يرتوي ، يختلط هسيس الذباب بنهض
شروشه ، قدماء تغرقان في الرمل ، بداله أنه ، من زمن لا بداية له ،
وهو يسير .

كان الشهود يبحثون على جانبي الطريق عن مكان ملائم .
تداولوا في أمر الذهاب إلى « كرواكانلان » أو عند جدران « باغاتيل » .
أخيراً ، راحوا يميناً ، وتوقفوا في تخميسة ماء بين الصنوبر .
اختير المكان على أساس أن يقسم بطريقة متساوية . عَيَّنوا مكان
الخصمين . ثم فتح ريجمبار علبته . كانت تحتوي على تبطين من جلد
أحمر ناعم ، وعلى سيوف أربعة جميلة ، مجوّفة الوسط ، مقابضها
مزخرفة بخيوط ذهبية . وقع عليهم شعاع ، مخترقاً الأوراق ، وقد بدت
لسيزي تلمع وكأنها أفاع فضية في بحيرة دم .
أظهر ريجمبار أن السيوف موحدة الطول ، أخذ الثالث لنفسه ،
ليفصل بين المتبارزين إذا دعت الحاجة . السيّد دو كومينغ يمسك
عصا . خيم صمت . تواجهها . كلّ الأوجه فيها أمرٌ ما تخيف أو
شريس .

حينها ، اهتم السيّد دو كومينغ بمحادثات (هو يريد
لفريدريك ، بعد ، وقتاً للتفكير) . أعلن حقّه في وضع قفاز يمسك به
سيف الخصم باليد اليسرى ، ما رفض ريجمبار الذي كان مستعجلاً
متحمساً . وفي الأخير ، توجه البارون بالحديث إلى فريدريك ، قال :

- كل شيء يعود إليك ، ياسيدي ! لا عار أبداً في أن يعترف
المرء بخطئته

وافقه ديسردييه بالاشارة . غضب ريجمبار .
- عجباً ! أو تظن أننا ، هنا ، لنتف ريش البط ؟ انتبها !
كان الخصمان متواجهين ، شهودهما في كل جانب . هتف
بإشارة البدء :
- هيا !

شحب سيزي بشكل عجيب . يرتجف طرف سيفه كسوط .
رأسه يهتز ، ذراعاه يبتعدان ، وقع على ظهره ، غائباً عن الوعي .
أنهضه جوزف ، راح يهزه بقوة وهو يقرب إلى أنفه أنبوباً . فتح
الفيكونت عينيه ، ثم ، فجأة ، وثب إلى سيفه كأنه غاضب . كان
احتفظ فريدريك بسيفه ، وراح ينتظره ، ثابت النظرة ، عالي اليد .
- توقفا ، توقفا ! هتف صوت من صوب الطريق مع ضجة
حصان يخب ، وسقف العربة يكسر الأغصان ! كان رجل يمد رأسه
خارجاً ويلوح بمحرمة ، ويهتف دائماً : « توقفا ، توقفا ! »
رفع السيد دو كومينغ عصاه ، ظاناً تدخلاً من الشرطة .
- توقفا ! الفيكونت ينزف !

- أنا ؟ قال سيزي .
كان قد وقع وجلف إبهام يده اليسرى في سقوطه .
- لكن هذا حصل في وقوعه ، قال ريجمبار .
إلا أن البارون بدا كأنه لم يسمع .
كان أرنو قفز من مركبته .

- وصلت متأخراً ! لا ! لئتمجد الله !
 أخذ فريدريك بجماع يديه ، يتحسّسه ، يمطر وجنته قبلات .
 - أنا هو السبب ، أردت أن تدافع عن صديقك القديم ! حسن
 هذا ، حسن ! لن أنساه أبداً ! كم أنت طيّب ! آه ! يا ولدي الحبيب !
 راح يتأمله ملياً ويسكب الدموع ، هادياً فرحاً . استدار البارون
 ناحية جوزف .
 - أظنّ أننا سعداء في هذا العيد العائلي البسيط . انتهى كل
 شيء ، أليس هكذا أيها السادة ؟ - فيكونت ، ضمّد يدك ، هاك
 منديل رقبتى . وبحركة حاسمة : هيا ! بدون ضغينة ! لينته الأمر
 هكذا !
 تصافح المتبارزان برخاوة . ذهب الفيكونت والسيد دو كومينغ
 وجوزيف في اتجاه ، وفريدريك وأصدقائه في الاتجاه الآخر .
 وبما أن مطعم مدريد لم يكن بعيداً ، اقترح أنو أن يعرجوا عليه
 ليشربوا كأس بيرة .
 - بل نستطيع أن نتغذى ، قال ريجمبار .
 - لكن لا وقت ، قال ديسرديه . لذلك اكتفوا بمربط في
 البستان . كلّهم سعدوا بهذه الغبطة التي تلي النهايات السعيدة . مع
 ذلك ، كان ريجمبار غاضباً فالمبارزة توقفت في اللحظة الحاسمة .
 أنو كان علم بهذا بواسطة رجل اسمه كومبان ، وهو صديق
 لريجمبار . ركض ، في انطلاقة عاطفية ، ليمنع حصوله ، حاسباً ،
 فوق ذلك ، أنه السبب . توّسل إلى فريدريك ليخبره ببعض
 التفاصيل . فريدريك ، وقد أخذ يبراهين عاطفته ، اهتمّ بأن يضاعف

توهمه :

- بريك ، دعنا من هذا !
- وجد أرنو هذا التحفظ في غاية اللطافة . ثم قال ، منتقلاً إلى فكرة أخرى ، حسب خفته المعهودة :
- ما الجديد ، أيها « المواطن » ؟
- وراحا يتحدثان عن الكمبيالات وآجال الاستحقاق . وليكونا في مزيد من الرقة ، ذهبا يتهاامسان إلى طاولة أخرى .
- استطاع فريديريك تمييز هذه الكلمات : « سوف تجبر لي
- طبعاً ! هذا أمر متفق عليه فافوضه ، أخيراً ، على ثلاثمائة !
- مهمة حسنة ، والله ! » بالاختصار كان واضحاً أن أرنو يتلاعب ويرجمبار بأمور كثيرة .
- فكّر فريديريك أن يذكره بالخمسة عشر ألف فرنك . لكن مسعاه الأخير كان يمنعه من اللوم ، والمعاتبة ، حتى الأكثر لطافة . على كل حال هو يحسّ نفسه متعباً . ما كان المكان ملائماً . أجل الأمر إلى يوم آخر .
- راح أرنو يدخن جالساً في ظل جنبات للترتين ، ببسمة جدلانة . رفع عينيه صوب أبواب الغرف المطلة كلها على الحديقة ، وقال انه جاء إلى هذا المكان من زمان مراراً .
- لم تكن ، ولا شك ، وحيداً ! أردف ريجمبار .
- أقسم بذلك !
- يا للسوقي ! أنت رجل متزوج !
- وبعد ، وأنت ؟ أجاب أرنو ، وببسمة متساهلة : واثق أنا أن

هذا النذل يتلك غرفة في مكانٍ ما ، يقود إليها فتبات صغيرات .
اعترف ريجمبار بهزة خفيفة لحاجبيه أن هذا صحيح . حينها راحا
يعرضان أذواقهما : أرنوبات يفضل ، الآن ، الشابات ، العائلات ،
ريجمبار يكره المتصنعات ويتمسك قبل أي شيء بالواقعة . طلع تاجر
الزخارف بنتيجة أنه يجب ألا تعامل النساء بجديّة .

فكّر فريديريك : « مع ذلك ، هو يجب امرأته ! » ، واستدار
عنه ، ووجده إنساناً غير شريف . يريده كان أن يقوم بالمبارزة ، كما لو
لأجله هو ، منذ هنيهات ، وصل إلى حدّ المجازفة بحياته .
لكنه كان مقدراً لديسردييه على اندفاعه . وصار الموظف ، على
الحاح منه ، يزوره كل يوم .

راح فريديريك يعيره كتباً : تيار ، ديلور ، بارانت ، « لي
جبروندين » للامرتين . يصغي إليه الشاب الطيب بخشوع ويتقبل
آراءه كأنها آراء أستاذ .

وذات مساء وصل مذعوراً .

في الصباح ، على البولفار ، كان رجل يركض بكل زخم
اصطدم به ، وإذ عرفه صديقاً لسينيكال ، قال له :

- ها هم يأسرونه ، وقد نجوت !

أمر ثابت . فقد أمضى ديسردييه نهاره في الاستعلامات .
سينيكال في السجن كمتهم بمؤامرة سياسية .

إنه ابن رئيس عمال ولد في ليون . وبما أن أستاذه كان
تلميذاً قديماً لثالييه ، منذ وصوله باريس ، جعلهم يقبلونه في
جمعيّة العائلات . عرفت عاداته ، صارت الشرطة تراقبه . كان

ضُرب في عمليّة أيار ١٨٣٩ ، ومن حينها ، جعل نفسه في الظل ،
إنما ناقماً أكثر فأكثر ، متعصباً لآليو ، مازجاً شكواه ضدّ المجتمع
بشكاوى الشعب ضدّ السلطة ، ومستيفظاً كل صباح على أمل أن
تقوم ثورة تغيّر العالم بخمسة عشر يوماً أو شهراً . أخيراً ، إذ نفّره
تراضي إخوانه ، وغضب للتأخيرات التي كانت تعترض أحلامه ،
ويئس من الوطن ، دخل كيميائي في مؤامرة القنابل المحرقة ،
وضبطوه حاملاً باروداً ذاهباً يختبره في مونمارتر ، محاولة قصوى
لنأسيس الجمهورية .

ما كان ديسردييه يحبّ الجمهورية أقل ، يظنها تعني تحرراً
وسعادة كونيّة . يوماً ، في الخامسة عشرة ، في شارع
« ترانسنونان » ، أمام محلّ بقال ، كان رأى جنوداً حراسهم حمراء
من الدم ، وشعر لاصق بقندق بواريدهم ، منذ تلك اللحظة ،
أغاظه الحكم ، رآه تجسيداً حقيقياً للظلم . طفق يخلط بين
المجرمين والجنود ، كل فرد من جهاز المراقبة براه كقاتل أبيه أو
أمّه . بنسب كل شر في الأرض إلى الحكم ، ويكرهه كرهاً
عظيماً ، دائماً ، يمتلك عليه كلّ لَبّه وينقي إحساسه . خطابات
سينيكال بهرته . مجرماً كان أم لا ، ومحاولته قبيحة ، كل هذا
لا يهمّ ! بما أنه شهيد السلطة ، فمساعدته واجب .

- سيحكمه المسؤولون ، ولا شك ! ثمّ يجلبونه بعربة
مساجين كمحكوم بالأشغال الشاقة ، ويلقونه في « مون - سان -
ميشال » حيث تتركهم الحكومة يموتون ! أوستن جنّ ! ستوبن قتل
نفسه ! شدّوا بارييس من قدميه ، من شعره ، لنقله إلى زنزانه !

داسوا جسمه ، ورأسه يقفز من درجة لدرجة على امتداد الدرج .
يا للرجس ! يا لهم من مساكين !
أخذته نوبات غضب ، راح يدور في الغرفة كمن يخنقه قلق
كبير .

- يجب عمل شيء ! هيا ! لا أدري أنا ! لو نحاول
تخليصه ، أليس كذلك ؟ وهم يسوقونه إلى اللوكسمبور ، يمكن
الانكباب على الحرس في الممر ! دزينة رجال مصممين ، هذا
يحصل أينما كان .

شعلة تلهب عينيه ، جعلت فريدريك يرتعش .
بدا له سينيكال أكبر مما يظنه . تذكر آلامه ، حياته
القاسية ، بدون أن يتحمس لأجله كما ديسردييه ، يشعر ، فقط ،
بهذا الاعجاب يثيره كل إنسان يضحي من أجل فكرة . قال في
ذاته ، لو أنجده ، لن يكون سينيكال هنا ، وراح الصديقان
يبعثان ، بجذ ، عن طريقة لانقاذه .
كان من المستحيل الوصول إليه .

انقلب فريدريك يبحث عن مصيره في الجرائد ، وتردد إلى
غرف المطالعة خلال أسابيع ثلاثة .

يوماً ، وقعت في يده أعداد كثيرة من الـ « فلمبار » . لاحظ
أن المقال الأساسي ، دائماً ، مكرس لتحطيم رجل مشهور . بعده
أخبار العالم ، النائم . بعدها ممازحة الأوديون ، كرينتراس ،
تربية الأسماك ، والمحكومون بالموت حين يكون موجوداً منهم .
اختفاء سفينة أمّدت مادة مزاح طوال سنة . بريد فنون ، في

العمود الثالث ، يقدّم ، بشكل نكتة أو نصيحة ، إعلانات خيّاطين مع أخبار السهرات ، إعلانات بيع ، تحاليل مؤلفات ، تعامل ، بالأسلوب نفسه كتاب شعر أو حذاء . القسم الجدي الوحيد كان نقد المسارح الصغيرة ، حيث تهجم على مديريّن أو ثلاثة .

كاد فريدريك يلقي بها إذ صادفت عيناه مقالاً بعنوان : امرأة بين ثلاثة أشخاص . هي قصة مبارزته مروية بأسلوب حيويّ ، ماجن . بدون شقاء ، عرف نفسه ، إذ أشير إليه مراراً بطريقة ساخرة . صُور ، حتى ، كرجل قروي مسكين ، أبله تماماً ، يحاول مخالطة الأسياد الكبار . وبالنسبة للفيكونت ، فله الدور الحسن ، أولاً في العشاء ، فيظهر قوياً ، ثم في المراهنة إذ اصطحب الفتاة ، وأخيراً في ساحة المبارزة حيث تصرّف بلباقة . ما أنكرت شجاعة فريدريك ، تحديداً ، لكن يُلمح تدخل الوسيط ، العشيق نفسه والعائل ، في الوقت المناسب . وينتهي المقال بهذه العبارة الملأى مكرراً :

« من أين ينبع حنانها ؟ إنها لمسألة ! وكما يقول بازيل : يا للشيطان ، من يخان هنا ؟ » .

هذا ، بدون أدنى شك ، انتقام هيسونيه من فريدريك ، لرفضه إعطائه الخمسة آلاف فرنك .

ما العمل ؟ إذا ما سأله السبب ، يدّعي البوهيمي بالبراءة ، ولن يستفيد بشيء . فالأفضل السكوت . ولا أحد ، على كل حال ، يقرأ الـ « فلمبار » .

وهو خارج من غرفة المطالعة ، رأى أناساً أمام محل تاجر لوحات . كانوا ينظرون إلى رسم امرأة ، وفي الأسفل هذه العبارة بأحرف سوداء : « الأنسة روزانيت - برون ، تخص السيد فريدريك مورو من نوجان » .

إنها ، فعلاً ، هي - أو تكاد ، - بمنظر جانبي ، نهداها حاسران ، شعرها مرخي ، ويديها كبس نقود مخمليّ أحر ، بينما ، إلى الراء ، طاووس ومنقاره إلى كتفها ، مغطياً الخلفية بريشه الكبير الذي على شكل مروحة .

قام بيلران بهذا العرض ليلزم فريدريك بالدفع ، مقتنعاً بأنه مشهور وبأن باريس كلها متحمسة له ستتهتم بهذه القضية .
أهي مؤامرة ؟ هل حضر الرسام والصحافيّ مكيدتهما معاً ؟ مبارزته لم تمنع شيئاً . طار هزاة ، فالجميع ينسخرون منه .
بعد ثلاثة أيام ، في آخر حزيران ، إذ ارتفعت أسهم « الشمال » خمسة عشر فرنكاً ، وبما أنه كان اشترى ألفين الشهر المنصرم ، وجد نفسه وقد ربح ثلاثين ألف فرنك . أعطته هذه الثروة ثقة . قال في ذاته انه ليس في حاجة لأحد ، إن كل اضطراباته متأتية من حياته ، من تأرجحاته . كان عليه أن يبدأ بقسوة مع « المارشالة » ، أن يرفض هيسؤيته منذ اليوم الأول ، أن لا يجازف مع بيلران ، ولْيُظهر أن لا شيء يضايقه ، ذهب عند آل دمبروز ، إلى واحدة من السهرات المعتادة .

وسط غرفة الانتظار ، استدار مارتينون الواصل في الوقت ، نفسه ، معه .

- كيف ؟ انجيء إلى هنا ؟

- لم لا ؟

وتقدّم فريدريك نحو الصالون ، وهو يبحث عن سبب لمثل هذا الوصول .

خافئاً كان النور ، بالرغم من القناديل الموضوعة في الزوايا ، لأن الثلاث نوافذ ، المشرّعة ، ترسم ، كانت ، ثلاثة مربعات ظل أسود ، عريضة . أحواض زهور ، تحت اللوحات ، في فُرجات الجدران ، بقامة رجل ، واهريق شاي فضي مع سماور ، ينعكس ، في الطرف ، بمرآة . ترتفع همسات أصوات رزينة . وكنت تسمع أخفأاً تطقطق على السجادة .

رأى ثياباً سوداً ، ثم طاولة مستديرة مضاءة يعاكس نور كبير ، سبع أو ثمانى نساء بأزياء صيفيّة ، وأبعد قليلاً ، السيّد دمبروز في كرسيّ قلاب . لثوبها المن تفتا ليلكيّة أكامام مستقوقة ، منها تخرج ثنايا موسّلين ، أسلوب ثوبها الهادى يتراوح مع لون شعرها . جالسة هي ، مائلة بعض الميل إلى الخلف ، وطرف قدمها على تكيّة ، - هادئة كلوحة فنية مليئة رشاقه ، زهرة فائق الاعتناء بها .

السيد دمبروز يتمشى وعجوز أبيض الشعر في طول الصالون . بعضهم يتحدثون على أطراف أرائك صغيرة متثرة هنا وهناك ، الآخرون واقفون ، حلقة في الوسط .

يتبادلون أحاديث انتخابات ، إصلاحات ، تعديل إصلاحات ، يتحدثون عن خطبة السيد غراندان ، عن جمهوريّة

السيد بنوا . العامة ، أكيداً ، ذهبوا بعيداً ! كان على اليسار أن يتذكر أحد له أفضل من ذلك ! تلقت الوزارة طعنات خطيرة ! مع ذلك ، فما يطمئن هو انهم لم يجدوا لها خلفاً . باختصار ، الوضع هو نفسه الذي كان في ١٨٣٤ .

فريدريك الذي تسثمه هذه الأمور ، اقترب من النساء . بالقرب منهن مارتينون ، يقف وقبعته تحت ذراعه ، يشبه تماماً « بورسلين سيفر » . تناول ، هو ، « مجلة العالمين » المتروكة على الطاولة ، بين صورة لوحة فنية ودليل « غوتا » السنوي ، أبدى رأيه في شاعر شهير ، قال انه يحضر محاضرات سان فرنسوا ، اشتكى من حنجرته ، بين وقت وآخر ، يتلع كرة صمغ ، وأثناء ذلك ، راح يتحدث موسيقى ، يتظاهر بالخفة . قريبة السيدة دمبروز ، الأنسة سيسيل ، التي كانت تطرز زوج أردان ، بدت تنظر إليه ، خلصة ، بعينين شاحبتين الزرقاء ، والأنسة جونسون ، المعلمة ذات الأنف الأفطس ، تركت نجودها ، كلتاها بدت تصرخ في أعماقها :

« كم هو جميل ! » .

استدارت السيدة دمبروز صوبه .

- أعطني مروحتي عن هذه المنضدة المزخرفة ، هناك . لا !

الأخرى !

قامت ، وإذ هو عائذ ، التقيا وسط الصالون وجهاً لوجه ، وجّهت إليه بضع كلمات ، بحمياً ، لا شك أنها توبيخات . يُعرف هذا من سمة وجهها المتكبر ، هم مارتينون بالضحك ، ثم

راح يختلط في اجتماع الرجال الوقورين غير القانوني . عادت السيّد دمبروز إلى مكانها ، قالت لفريدريك وهي تنحني على ذراع كرسيها :

- رأيت شخصاً ، قبل أمس ، حدّثني عنك ، السيد دو سيزي ، تعرفه أنت ، أليس كذلك ؟
- بلى . . . نوعاً ما .

فجأة هتفت السيّد دمبروز :

- أيتها الدوقة ، آه ! يا للسعادة !

وتقدّمت حتى الباب أمام امرأة قصيرة متقدّمة السن ، ترتدي ثوباً من التفتا الكرملية ، وقبعة من التخريم ، أطرافها عريضة . هي ابنة رفيق المنفى للكونت أرتوا ، وأرملة مارشال من الامبراطورية ، تتمسك بالبلاط القديم كما بالجديد ، وتستطيع أن تحظى بأشياء كثيرة . تفرّق من كانوا يتحدثون واقفين ، ثم عادوا إلى أحاديثهم .

هي ، الآن ، تتحدث حول الفقر الذي كان ، حسب هؤلاء السادة ، مبالغاً فيه في لوحات الرسم .

- مع ذلك ، فالفقر موجود ، لنعترف بهذا ، اعترض مارتينون . لكن الدواء لا يتعلّق لا بالعلم ولا بالسلطة . إنها قضية محض شخصيّة . حين تريد الطبقات الدنيا التخلص من نقائصها ، فهي تتحرّر من حاجاتها . ليكن الشعب أكثر أخلاقية ، يكن أقلّ تعاسة !

حسب السيّد دمبروز ، لا يمكن الوصول إلى وضع أفضل

من دون زيادة عن الحاجة في رأس المال . إذن ، فالوسيلة الوحيدة الممكنة هي أن نعهد ، « كما يريد السان سيمونيون (يا الهي ، كانوا على بعض حق ! لكن عادلين مع الجميع) ، أن نعهد ، كنت أقول ، بقضية التقدم إلى القادرين على زيادة الثروة الشعبية » . ومن دون أن يدروا اقتحموا باب الاستثمارات الصناعية ، خطوط الحديد ، الفحم الحجري . واتجه السيد دمبرز صوب فريديريك وقال بصوت خافت :

- لم تأت ، بعد ، بخصوص مسألتنا .
اعتذر فريديريك بمرض ، وإذ أحس العذر سخيلاً :
- على كل حال ، فقد احتجت إلى نقودي .
- لشراء عربة . أجابت السيدة دمبرز التي كانت مارة قربها وفي يدها فنجان شاي ؟ وتأملته لدقيقة ورأسها مائل نوعاً إلى كتفها .

كانت تظنه عشيق روزانيت ، فالتورية واضحة . وبدأ حتى لفريديريك أن جميع النساء ينظرنه من بعيد وهن يتهاמשن . ولكي يعرف ما يفكرن اقترب منهن ، مرة بعد .
إلى الجانب الآخر من الطاولة ، يقلّب مارتينون ألبوماً قرب سيسيل . إنها طباعات حجرية تمثل أثواباً إسبانية . يقرأ الشروح عالياً : « امرأة من سيفيل ، - بستاني من فالنس ، - بيكادور أندلسي » ؛ وإذ وصل ، مرة ، حتى أسفل الصفحة ، أكمل بلا توقّف :

- جاك أرنو ، ناشر . - واحد من أصدقائك ، أليس

كذلك ؟

- بلى ، قال فريدريك ، وقد جُرح لمظهره .

قالت السيّد دمبروز :

- لقد جئت ، في الواقع ، ذات صباح ... من

أجل ... بيت ، فيما أظن ؟ أجل ، بيت يخص زوجته . (هذا كان يعني : « أنها عشيقتك ») .

احمرّ حتى أذنيه ، وأضاف السيّد دمبروز ، وقد وصل في اللحظة عينها :

- كنت تبدو في غاية الاهتمام بها .

هذه الكلمات الأخيرة أفقدت فريدريك رباطة جأشه .

فكّر أنّ ارتبأكه الذي يرويه ، سوف يؤكد الشكوك حين قال له السيّد دمبروز عن قرب بصوت خفيض :

- أظنّ أنكما لا تقومان بأعمال مشتركة ؟

بحركات كثيرة من رأسه أجاب أن لا ، من دون أن يفهم

نيّة الرأسمالي الذي كان يريد أن ينصحه .

رغب في الذهاب . أمسكه الخوف من أن يبدو ضعيفاً .

كان خادم يرفع كؤوس الشاي ، السيّد دمبروز تتحدّث مع ديبلوماسي في ثياب زرقاء ، فتاتان متقاربتا الجبهتين تتفرّجان على محبس ، الأخريات ، الجالسات على كراسٍ بشكل نصف دائرة ، يحركن بلطف وجوههن البيضاء ، يزيّنها شعر أسود أو أشقر ، لا أحد يهتمّ به . استدار فريدريك على أعقابهِ ، وعلى أثر تعرّجات طويلة ، كاد يصل إلى الباب ، حين رأى ، وهو يمرّ قرب

منضدة مزخرفة ، فوقها ، بين إناء صيني والتليس الخشبي ،
جريدة مطوية . سحبها قليلاً وقرأ : « لوفلمبار » .

من جاء بها ؟ سيزي ! لا أحد سواه بالتأكيد . وما يهمه !
سوف يصدقون ، أو هم ، الآن ، يصدقون المقال . لم هذا
التركيب غلفتة سخريه صامته . أحس نفسه كشريد في صحراء .
لكن صوت مارتينون ارتفع :

- بخصوص أرنو ، لقد قرأت ، بين أسماء موقوفى القنابل
المحرقة إسم واحد من موظفيه ، سينيكال . هل هو الذي
نعرف ؟

- هو نفسه ، قال فريدريك .
ردّد مارتينون صارخاً عالياً جداً :
- كيف ، سينيكالنا ، سينيكالنا !
حينها ، سألوه عن المؤامرة ، وظيفته كملحق في النيابة
العامة لا بد أنها تسهل الاطلاع على المعلومات .
اعترف بأنه لا يعرف شيئاً . فضلاً عن أنه يكاد لا يعرف
الرجل ، رآه مرتين أو ثلاث ، فقط ، حسب ، في النهاية ،
كظريف فاشل ! غضب فريدريك فصرخ :
- أبداً ! إنه رجل كثير الاستقامة !
- مع ذلك ، سيدي ، قال متملّك ، لا نكون شرفاء حين
نتأمر .

غالبية الرجال الذين هنا ، خدموا ، في الأقل ، أربع
حكومات ، وكانوا لبيعوا فرنسا أو الجنس البشري لضمان

ثروتهم . لتجنب ضيق ، أو ارتباك ، أو حتى عن مجرد دناءة ، في عبادتهم الغريزية للقوة . جميعهم يقولون ان الجرائم السياسية ذنب لا يغتفر ، يجب ، فقط ، مساححة الجرائم المتأتية عن حاجة ! وما نسوا أن يستشهدوا بالمثل الخالد عن رب العائلة الذي سرق قطعة الخبز الخالدة من عند الحَبَّاز الخالد .

محافظ ، حتى ، هتف .

- أنا ، يا سيدي ، لو عرفت أن أخي يتآمر ، لو سئيت به ! ادعى فريدريك بحق المقاومة ، وإذ تذكر بضع عبارات كان ديلوربيه قالها له ، استشهد بديلوم ، بلاكستون ، مشروع قانون الحقوق في انكلترا ، والمادة ٢ من دستور ٩١ . وبحسب هذا القانون عينه أعلن سقوط نابوليون ، جرى اقراره عام ١٨٣٠ وجُعل في رأس الميثاق .

- من جهة أخرى ، فالملك حين ينقض العهد ، تفرض العدالة قُلبُهُ .

- لكن هذا شيء فطيع ! علقت زوجة أحد كبار المديرين .

صمتت الأخريات كلهن ، بغموض روعن ، كما لو أنهن سمعن طلقات الرصاص . كانت السيِّدة دمبورز تترجح في كرسيها ، وتستمع إليه يتحدّث وهي باسمه .

اهتم صناعي ، وهو فحام قديم ، في أن يبرهن له أن آل أورليان عائلة طيِّبة ، هناك تجاوزات ، ولا شك . . .

- إذن ، وبعد ؟

- يجب ألا نقولها ، سيّدي العزيز ! لو كنت تعرف أن كل
صياح المعارضة يضرّ بالأعمال !
- لا تهمني الأعمال ! أجب فريدريك .

يشير تهروؤ هؤلاء المسنين ، وراح ، مدفوعاً بشجاعة
تصيب ، أحياناً ، الأكثر خجلاً ، يهاجم رجال المال ، النّوّاب ،
الحكومة ، الملك ، يدافع عن العرب ، يذكر سخافات كثيرة .
بعضهم حمّسه بسخرية : « هيا ! أكمل ! » بينما توشوش آخرون :
« يا للشيطان ! يا لها من إثارة ! » أخيراً رأى من المناسب
الانسحاب ، وإذ هو ينسحب ، قال له السيّد دمبروز ، ملّمحاً
إلى مركزه كسكرتير :

- لم ينته شيء بعد ! إنما أسرع !
وقالت السيّدّة دمبروز :
- إلى اللقاء قريباً ، أليس كذلك ؟

حسب فريدريك وداعهما سخرية أخيرة . قرّر ألا يعود أبداً
إلى هذا البيت ، ألا يخاطب ، بعد ، كل هذه الجماعة . ظن أنه
جرحهم ، غير عالم أيّ أساس متين من اللامبالاة يمتلك العالم !
أسخطته ، بخاصة ، تلك النسوة . ولا واحدة ساندته ولو
بالنظر . أراد ألا يكون أذهلهنّ . وبالنسبة إلى السيّدّة دمبروز
وجد فيها شيئاً ذنباً وقاسياً في الوقت عينه ، يمنعه من أن يحدّدها
بصيغة . أها عشيق ؟ أيهم ؟ أهو الديبلوماسي أم سواه ؟ لربما

مارتينون ؟ مستحيل ! ومع ذلك ، شعر بنوع من الحسد منه ،
وبنوع من العدوانية لا تفسير لها .

كان ديسردييه ، ككل مساء جاء ، وينتظره . قلب
فريدريك مثقل ، فرّغه ، وشكاواه ، بالرغم من كونها مبهمه
وصعبة الفهم ، أحزنت الموظف الطيّب ، راح يشكو حتى من
وحدته . عرض ديسردييه ، وهو متأرجح نوعاً ، الذهاب عند
ديلورييه .

وإذ سمع فريدريك إسم المحامي ، تملكته رغبة قصوى
برؤيته ثانية . وحدته الفكرية عميقة كانت ، ورفقة ديسردييه غير
كافية . أجابته ليرتبّ الأمور كما يرغب .

كان ديلورييه كذلك ، منذ خصامهما ، أحسّ نقصاً في
حياته . فاستسلم بلا عناء إلى تمهيدات ودية .

تعانقا ، ثم طفقاً يتحدثان عن أشياء غير مهمّة .

تحفّظ ديلورييه رفق قلب فريدريك ، وليقوم تجاهه بنوع من
التعويض ، باح له في الغد بخسارته الخمسة عشر ألف فرنك ،
من دون أن يذكر له أنها كانت سلفاً معروفة المصير . بعد ذلك ،
ما عاد المحامي شك في شيء . هذه المغامرة السيئة ، وهي تثبت
آراءه المسبقة حول أرنو ، أوقعت حقه ، كلياً ، وما تحدّث من
بعد ، أبداً ، عن الوعد القديم .

ظنه فريدريك ، وقد خانه صمته ، نسي ذلك . سأله ،
بعد أيام ، إذا ليس هناك من طريقة لاسترداد ماله .

بالامكان مناقشة الرهونات السابقة ، الشكوى على أرنو

كراهن ملك لبضعة أشخاص ، إقامة ملاحظات في المنزل ضد المرأة .

- لا ! لا ! ليس صدها ، هتف فريدريك ، ومستسلماً إلى أسئلة كاتب المحامي القديم ، أقرّ بالحقيقة .
كان ديلورييه مقتنعاً أنه لم يبح بها كاملة ، لطفاً ولا شك .
هذا النقص في الثقة جرحه .

كانا ، مع ذلك ، متقاربين كما من زمان ، وحتى هما يجدان لذة في التلاقي إلى حدّ بات حضور ديسردييه يزعجهما . وبحجة المواعيد ، توصّلا إلى التخلّص منه شيئاً فشيئاً . هنالك أناس لا ضرورة لهم بين الآخرين إلّا أن يكونوا وسطاء ، تنسلقهم كجسور ، ونذهب أبعد منهم .

لا يخفي فريدريك شيئاً عن صديقه القديم . أخبره بمسألة الفحم الحجري ، مع عرض السيد دمبروز . صار المحامي حالماً .

- غريب ! ينبغي لهذا المركز شخص متضلع بالحقوق !
- إنما ستساعدني ، قال فريدريك .
- أجل هه يا للجنة ! بالطبع .
وصلته ، في الأسبوع نفسه ، رسالة من أمّه .
تشكو السيّد مورو من كونها كانت تظنّ سوءاً بالسيّد روكّ ، وقد برّر سلوكه بشكل مرضٍ . ثم هي تذكر ثروته وإمكان الزواج ، في ما بعد ، من لويز .
- لن يكون هذا غباء ! قال ديلورييه .

عاد فريديريك بعيداً إلى الورا ، فالسيد روك كان غشاشاً قديماً . هذا لن يضير بشيء ، حسب المحامي .
حصل ، في آخر تموز ، هبوط لا تفسير له في أسعار أسهم « الشمال » . ما كان فريديريك باع أسهمه ، فخسر ، دفعة واحدة ، ستين ألف فرنك . وجد عائداته انخفضت بشكل ملحوظ . فكان عليه إما حصر نفقاته ، أو إيجاد وظيفة ، أو زواج سعيد .

حينها ، أخذ ديلورييه يتحدث عن الأنسة روك . لا شيء يمنع من الذهاب شخصياً لرؤية الأمور بنفسه . وبما أنه متعب ، فالريف والبيت الوالدي يريحانه . فذهب .
طبيعة شوارع نوجان ، وقد اجتازها في ضوء القمر ، أعادته إلى ذكريات قديمة ، وأحس بنوع من القلق كالعائدين بعد سفر طويل .

رأى عند أمه كل من كان يراهم قديماً ! السادة جبلان ، هيدراس وشامبريون ، عائلة لوبرين ، « الأنسات أوجيه » ، يزيد عليهم السيد روك ، ومقابل السيدة مورو ، أمام طاولة لعب ، الأنسة لويز . هي ، الآن ، امرأة . نهضت مصدرة صرخة .
كلهم تحرّكوا . وحدها ، بقيت جامدة ، واقفة ، وزادت شحوبها القناديل الفضية الأربعة الموضوعة على الطاولة . حين أكبت ، مجدداً ، على اللعب ، راحت يدها ترتجف . إنفعالها هذا ، أرضى فريديريك ، فوق أي حد ، وكان زهوه مريضاً ، قال في نفسه : « ستحبيني أنت ! » وليشأ من خيالاته هناك راح يتصرف

كباريسي ، كاسد ، يخبر عن المسارح ، يروي نكات ، كان قرأها في جرائد قليلة الأهمية ، بهر مواطنيه .

أفاضت السيّد مورو ، في الغد ، بكلامها على خلال لويز ، ثم عدّدت الغابات ، المزارع التي ستملكها . فقد كانت ثروة السيّد روك محترمة .

لقد حصلها في توظيف عند السيد دمبوز ، كان يقرض أشخاصاً يستطيعون تقديم رهونات جيّدة ، مما يسمح له بطلب إضافات أو عمولات . رأسماله مضمون ، نظراً لرقابة فعّالة . زد على ذلك أن السيد روك كان لا يتردد أمام مصادرة ، ثم يشتري ، ثانية ، بسعر متدنٍ الأملك المرهونة . وهكذا يجد السيّد دمبوز أمواله تتدفّق ، فيحسب أن أعماله تسير سيراً حسناً .

لكن هذه المناورة التجارية غير الشرعيّة ، كانت لتعرضه للخطر تجاه مديره . فما يرفض له شيئاً . وبناء على إلحاحه استقبل فريدريك استقبالاً حسناً .

كان السيّد روك ، في الواقع ، يخفي طموحاً ما . يريد ابنته أن تصبح كونتيسة ، وليتوصل إلى هذا ، من دون أن يعرض للخطر سعادة ابنته ، ما كان يعرف شاباً غير هذا .

بدعم السيّد دمبوز ، يكسبونه لقب جدّه ، فالسيّد مورو هي ابنة كونت من آل فوفان ، يضاف إلى هذا ، أنها نسيبة أعرق العائلات مثل آل لافرناد ، آل إتريني . وبالنسبة لآل مورو ، فإن نقشاً قوطياً قرب طواحين « فيلنوف - لرشفيك » ، يتحدث عن جاكوب مورو الذي أعاد بناءها في ١٥٩٦ ، ويشاهد قبر ابنه بيار

مورو ، أول معلّم فروسيّة للملك عهد لويس الرابع عشر ، في كنيسة مار نقولا الخاصة .

كثير من مثل هذه « الشرفيات » تجذب السيّد روك ، ابن الخادم القديم . فإذا لم يحصل على تاج الكونتيّة ، يظل له عزاء آخر ، لأن فريدريك يمكنه أن يصير نائباً حين يصبح السيد دمبوز أمير إقطاع ، فيساعده في أعماله ، فيحصل على تموين وتنازلات . يعجبه الشاب شخصياً . أخيراً ، هو يريد صهرًا له ، لأنه ، من زمان ، كان صار مغرمًا بهذه الفكرة التي ما كانت تفعل إلا أن تتعاضد في باله .

الآن هو يتردّد إلى الكنيسة ، وكان أغرى السيّد مورو بذلك ، بخاصة على أمل اللقب . تحفّظت على كل حال قبل أن تجيبه نهائيًا .

هكذا ، وبعد أيام ثمانية ، ومن دون أي وعد أو ارتباط ، صار فريدريك يُحسب زوج المستقبل للآنسة لويز ، وصار السيّد روك ، القليل التشكك ، يتركها منفردين أحياناً كثيرة .

V

استحصل ديلورييه من فريدريك عل نسخة قرار الاستبدال مع تفويض يمنحه سلطات تامة ؛ لكنه ما إن صعد طوابقه الخمسة ، وصار وحيداً وسط غرفته الحزينة ، في كرسيه الجلدي ، حتى قزّه مرأى الورقة التي عليها الطابع .

كان متعباً من هذه الأمور ، ومن المطاعم ذات الدرجة الدنيا ، من رحلات في عربات النقل العام ، من فقره ، من نشاطاته . استعاد أوراقه القديمة ، سواها إلى جانبه ، كانت البيانات التمهيدية لشركة الفحم الحجري مع لائحة المناجم وتفصيل محتواها . ترك له فريدريك كل هذا ليعرف رأيه حول هذا الأمر .

طرأت له فكرة : الحضور عند السيد دمبوز وطلب مركز السكرتير . وهذا المركز ، بالطبع ، لا يمكن الحصول عليه من دون شراء عدد من الأسهم . عرف تهوّر مشروعه وقال لنفسه :

« أوه ! كلا ! لن يكون هذا حسا » .

عندئذ راح يبحث كيف التصرف لنغطية الخمسة عشر ألف فرنك . مبلغ كهذا ليس شيئاً بالنسبة لفريدريك ! إنما لو حصل عليه ، هو ، فيا للمؤثر ! وغضب كاتب المحامي القديم لأن للآخر ثروة وافرة .

« يستعملها بطريقة تدعو للراء . إنه أناذي . إيه ! أهزأ تماماً بفرنكاته الخمسة عشر ألفاً ! » .

لماذا هو أقرضها ؟ لعيني السيّدة أرنو الجميلتين . هي عشيقته ! لا يشك دبلورييه في هذا . « هوذا أمر يسهله المال ! » وتدفقت فيه أفكار حاقدة .

ثم فكّر في شخصية فريدريك . هي ، دوماً ، فرضت عليه سحراً يكاد يكون أنثوياً ، وتوصّل إلى الاعجاب به لنجاح يعرف أنه هو غير قادر عليه .

مع هذا ، أليست الارادة هي العامل الأساسي للمشاريع ؟ ثم ، بما أننا ، بها ، نحقق كلّ ... « آه ! يكون أمراً غريباً ! » .

ثم خجل لهذه الخيانة ، وبعد دقيقة فكّر :

« عجباً ! هل أنا خائف ؟ » .

انتهت السيّدة أرنو (لكثرة ما سمع أحاديث عنها) ، بأن صارت في خياله صورة عجيبة . إصرار هذا الحب يثيره كما مسألة زد على هذا أن سيّدة المجتمع (أو ما كان يراه هكذا) ، تبهر المحامي فشل رمز وموجز ألف لذة مجهولة . يا للمسكين ، كم

تشهى الترف بشكله الأكثر إغراء .

« بعد كل شيء ، حين يغضب ، فلا بأس ! لقد أساء إليّ
لأنزعج ! لا شيء يثبت لي أنها عشيقته ! لقد أنكر ذلك . إذن فأنا
حر ! » .

لم تعد تفارقه لهذه السعي . هذا أراده اختباراً لقواه ؛ - حتى
أنه ، ذات صباح ، فجأة ، مسح حذاءه بنفسه ، اشترى قفازات
بيضاء ، وأخذ في الطريق ، متصوراً ذاته بدل فريدريك ،
ومتصوراً ، تقريباً ، أنه يكاد يكون له ، بتطور ثقافي فردي
حيث ، معاً ، الانتقام واللفظ ، التقليد والحماسة .
أعلن نفسه « الدكتور ديلورييه » .

فوجئت السيّد أرنو ، هي لم تطلب أيّ طبيب .
- آه ألف عذر ! دكتور في الحقوق . جئت بخصوص
مصالح السيّد مورو .

بدا الاسم وقد أربكها .

« هذا أحسن ! فكّر كاتب المحامي القديم ، بما أنها رغبت
به ، فهي ترغب بي ! » مشجعاً نفسه بفكرة إيجاد عشيق أسهل من
إيجاد زوج .

كان سعد بلقائها ، مرة ، في القصر . وحتى فقد عين
التاريخ . هكذا ذاكرة أدهشت السيّد أرنو . تابع بلهجة
متملّقة :

- كان عندك ، حينها . . . بعض ارتباكات . . . في
أعمالك !

لم تجب بشيء ، فالأمر ، إذًا ، حقيقي .
 راح يتحدث في موضوعات شتى ، عن مسكنه ، عن
 المصنع ، وإذ لاحظ حلى بيضوية في أطراف المرأة ، قال :
 - آه ! إنها ، ولا شك ، صور عائلية ؟
 انتبه لرسم امرأة مسنة ، هي أم السيِّدة أرنو .
 - تبدو شخصية ممتازة ، نموذجاً للجنوبي .
 وعلى اعتراضها بأنها من شارتر ، قال :
 - شارتر ! مدينة جميلة .
 أثنى من كاندرائيتها ومجموعة بيوتها ، وإذ عاد إلى الرسم ،
 وجد فيه ملامح إلى السيِّدة أرنو ، وامتدحها بطريقة غير مباشرة .
 ما صُدمت . تشجّع وقال انه ، من زمان ، يعرف أرنو .
 - هو إنسان طيب ! لكنّه يتورط ! فمثلاً ، لهذه الرهنية ،
 لا نتصوّر طيشاً ...
 - نعم ! أعرف . قالت هازة كتفها .
 هذا الازدراء العفويّ دفع ديلورييه إلى المتابعة .
 - قصته في الصلصال ، لربما تجهلونها أنت ، انتهت
 عاطلة ، وحتى سُمعته ...
 تقطيب حواجب أوقفه .
 ارتد ، حينها ، إلى العموميات ، رثى السيِّدات اللواتي
 ييذر أزواجهن الثروة ...
 - لكنها له ، يا سيّدي ، أنا لا أملك شيئاً !
 لا يهّم ! لا ندرني ... إنسان مجرّب يمكنه الخدمة . قدّم

نفسه لذلك ، امتدح مزايأ ذاته ، ونظر إليها ، جانبياً ، عبر نظاراته التي كانت تلمع .

أخذها خَدَر غامض ، ثم ، فجأة :

- لنر في الأمر ، أرجوك !

عَرَض الملفّ .

- هذا تفويض فريدريك . مع مستند مشابه بين يدي

حاجب يكون تنبيهاً رسمياً ، لا شيء أكثر بساطة : خلال الأربع

والعشرين ساعة ... بقيت هادئة الأعصاب ، أبذل هو

مناورته ، مع ذلك ، لا أفهم أنا ، ما يدفعه لطلب هذا المبلغ ،

لأنه لا يحتاج إليه ، أبداً !

- كيف ! بدا السيد مورو طيباً للغاية ...

- أوه ! متفقان !

وشرع ديلوريه بمدحه ، ثم بدأ يذمه بتروّ ناعثاً إيّاه

بالنسي ، الأناني ، البخيل .

- كنت أحسبه صديقك يا سيّد ؟

- هذا لا يعني من رؤية نقائصه . هكذا هو

لا يحسن ... كيف أقول ؟ اللياقة ...

قلّبت السيّد أرنو أوراق الدفتر الضخم . قاطعته ، ليشرح

لها كلمة .

انحنى على كتفها ، قريباً منها إلى حد لامس معه خدّها .

احمّرت ، أثار . هذا الاحمرار ديلوريه ، وبينهم قبل يدها .

- ماذا تفعل سيّدي !

وتركته ، وهي واقفة إلى الجدار ، جامداً تحت عينيها
السوداوين الكبيرتين الساخطين .

- اسمعيني ! أحبك !

ذهبت ضاحكة بقوة ، ضحكة عالية ، مثبّطة الهمّة ،
فظيحة . أحسّ ديلورييه غضباً يكاد يخنقه . تملّك نفسه ، وبمظهر
خاسر يطلب رأفة :

- آه ! إنك لمخطئة ! لا أتصرّف مثله ، أنا . . .

- عمّن أنت تتكلّم ؟

- عن فريدريك !

- إيه ! قلت لك ، لا أبالي به السيّد مورو !

- آه ! عذراً ! .. عذراً !

ثم ، وبصوت نفاذ ، متمهل العبارات :

- كنت أظنّ أنك تهتمّين به بشكل كافٍ لتعلمي ،

بسروور . . .

لّفها الشحوب جميعها . أضاف كاتب المحامي القديم :

- سيتزوّج !

- هو !

- خلال شهر على الأكثر ، من الأنسة روك ، ابنة مدير

أعمال السيّد دمبروز . لقد ذهب إلى نوجان بسبب هذا الأمر .

وكما أمام صدمة قويّة ، رفعت يدها إلى قلبها ، لكنها ،

فجأة ، قرعت الجرس . ما انتظر ديلورييه ليخرجه . حين

استدارت كان اختفى .

غصّت السيّدة أرنو . اقتربت من النافذة تتنشق هواء .
إلى الجهة الأخرى من الشارع ، على الرصيف ، رزّام
بقميص واسعة يسمر صندوقاً . عربات تمرّ . أغلقت النافذة
وعادت تجلس . وبما أن البيوت العالية المجاورة كانت تحجب
الشمس ، كان نور بارد ينزل على البيت . ولداها في الخارج
ولا شيء يتحرّك حولها . ذلك كان كهجر مرعب .

« سيتزوّج ! أمعقول ! »
وأخذتها رجفة عصبية .
« لمّ هذه الرجفة ؟ أحبه ؟ » .
وفجأة :

« ولكن بلى ، أحبه . . . أحبه ! » .

بدا لها أنها تفرق في شيء ما عميق ، لا ينتهي . دقت
الساعة الثالثة . استمعت إلى تموجات صوت الساعة تموت . وعلى
طرف كرسيها بقيت ، بؤبؤا عينيها ثابتان ، ومبتسمة دائماً .
بعد الظهر نفسه ، وفي الوقت عينه ، كان فريدريك يتنزّه
والآنسة لويز في البستان الذي كان السيّد روك يملكه في آخر
الجزيرة . من بعيد ، تراقبهما كاترين الهرمة ، جنباً إلى جنب يمسيان ،
وفريدريك يقول :

- أتذكرك حين كنت أصطحبك إلى الريف ؟
- كم كنت طيباً معي ! أجابت كنت تساعدني في صنع
حلويات بالرمّل ، في ملء مرشّتي ، في تمرّجحي بالأرجوحة !
- ماذا حلّ بكلّ ألعابك التي كانت تحمل أسماء ملكات

ومركيزات ؟

- قسماً ، لا أعرف عنها شيئاً !

- وكُلِّيك موريكو ؟

- غرق العزيز المسكين !

- ودون كيشتوت ، الذي كنا معاً نلّون رسومه ؟

- ما زلت أحتفظ به !

ذكّرها بيوم قربانتها الأولى ، وكم كانت جميلة في أثناء الصلاة ، بطرحتها البيضاء ، وشمعتها العسلية الكبيرة ، أثناء مرورهن حول المذبح ، والجرس يقرع .
ما كانت هذه الذكريات مهمة للأنسة روك ، فما حارت جواباً .

وبعد لحظة :

- أيها القاسي ! يا من قطع عني أخباره !

ادّعى فريدريك أن ذلك عائد لكثرة أعماله .

- ماذا تفعل ؟

حيّره السؤال ، ثم قال إنه يدرس السياسة .

- آه !

ومن دون أن تسأله أكثر :

- هذا يشغلك ، أما أنا ! . . .

وطفقت تجربته عن جفاف عالمها ، إذ لا أحد تراه ،

لا لذة ، ولو ضئيلة ، لا تسلية بسيطة ! كانت ترغب في ركوب الخيل .

- يدّعي الكاهن أن هذا غير لائق بفتاة ، من زمان كانوا
يتركونني أفعل ما يحلو لي ؛ الآن ، لا شيء ! ما أسخف التقاليد !
- مع ذلك ، والدك يحبك !
- نعم ؛ ولكن ...

زفرت نهدة كانت تعني : « هذا لا يكفي لسعادتي » .
بعدها ، خيّم صمت . كانا لا يسمعان سوى صوت الرمل
تحت أقدامهما ، مع صوت شلال الماء ، فخر السين ، فوق
نوجان ، مشطور شعبتين . التي تدير الطواحين تصب في هذا
المكان فيض موجهاً ، لتلحق في أسفل مجرى النهر الطبيعي ،
وأنت عائد من الجسور ، تلاحظ على الجانب الآخر إلى اليمين
منحدرًا مُعشِباً يشرف عليه بيت أبيض . إلى الشمال ، في
الحقل ، يمتد شجر حور ، والأفق المقابل ، يحده خطّ النهر
المقوس ؛ كان مصقولاً كمرآة ، تتزحلق على المياه الهادئة حشرات
كبيرة . باقات قصب وأسل تحيط به بطريقة متساوية ، كل أنواع
النباتات التي هنا تتفتح أزوار ذهب ، ترخي عشاكيل صفراء ، تمدّ
عرانيس زهور قطيفة ، ترسل ، كيفما اتفق ، صواريخ خضراء .
في جُوبين صغير من النهر ، ينتشر نيلوفر كثير ، وصفّ صفصافات
عجوزة يخفي فخاخ ذئب ، إلى هذه الجهة من الجزيرة ، هي كل
سور الحديقة .

من جانب آخر ، في الداخل ، تضم جدران أربعة ذات
غطاء أردوازيّ مبقلة ، حيث تؤلف مربعات الأرض ، الحديثة
الحراثة ، لطخات بنية . تلمع أزهار الشّمام على طبقتها الضيقة ،

وتتابع الأرضي الشوكي واللوبياء والسبانخ ، والجزر والبندورة حتى مسكبة هليون تبدو ، كانت ، كغابة ريش صغيرة .

كل هذه الحديقة كانت ، أيام حكومة المديرين ، ما يمكن تسميته تديراً . ومنذ ذلك الوقت كبرت الأشجار كثيراً . يربك ياسمين البر الشرم البتولي ، تغطي الممرات الطحالب ، ينمو ، غزيراً ، أينما كان العليق . قطع تمثال فتت جصّها تحت الأعشاب . كنت تحسب نفسك في بقايا ما لعمل بسلك حديدي . ما كان بقي من الرواق سوى غرفتين من الطابق الأرضي مع قصاصات ورق أزرق . ويمتد كرم معترش ، أمام الواجهة ، على الطريقة الإيطالية ، حيث يحمل تسييج من عصي ، عريشة ، على ركائز من قرميد .

جاء إلى هناك . وراح فريدريك ، متحدثاً إلى لوز ، يتأمل ظل الأوراق على وجهها ، بما أن الضوء ينسكب ، كان ، من ثقب الخضر غير المتساوية .

في كعيكة شعرها الأشقر دبّوس ينتهي بكرة زجاج تقليد الزمرد ، وبرغم حدادها ، كانت ترتدي (نصّور كم ذوقها ساذج) ، خفّ قشّ مزركشاً بساتان زهري ، طرفه غريبة ، اشترتها ، ولا شك ، من معرضٍ ما .

لاحظه وبسخرية امتدحه . قالت له :

- لا تسخر مني !

ثمّ ، بعدما تأملته كلّ . من قبعته التي من لبد بني ، حتى جواربه الحريرية ، قالت :

- كم أنت متأنق !

بعدها ، توسّلت إليه أن يعينَ لها مؤلّفات تقرأها . عدّد لها الكثير . فقالت :

- أوه ! كم أنت عالم !

كانت ، وهي صغيرة ، قد انجرفت في حبّ صبياني ، يتميز ، في وقت معاً ، بقداسة الدين وعنف الحاجة . كان رفيقها ، أخاها ، أستاذها ، علّل نفسها ، جعل قلبها يدقّ ، ولا شعورياً ، سكب ، حتى أعماق نفسها ، نشوة مستمرة مستمرة . ثم هجرها في قمة نوبة مأساوية ، وإذ ماتت أمّها ، امتزج اليأسان . غيابه عنها جعله مثالياً في تذكّرها له ، بهالة عاد فاستسلمت ، ببساطة ، لسعادة أن تراه .

فريدريك ، للمرة الأولى في حياته ، شعر أنه محبوب ، وهذا السرور الجديد ، الذي ما كان يجاوز نظام الأحاسيس المستحبة ، راح يسبّب له انتفاخاً داخلياً ، بحيث انه أبعد يديه وهو يردّ رأسه إلى الوراء . كانت غيمة كبيرة تمرّ في السماء .

- هي تذهب ناحية باريس ، قالت لويز ، تريد أن تتبعها ، أليس كذلك ؟
- أنا ؟ لماذا ؟
- من يدري ؟

وأضافت وهي تتفحصه بنظرة حادة :

- قد يكون لك هناك . . . (راحت تبحث عن الكلمة)

تعلق ما .

- ايه ! لا تعلق لي !

- أكيد ؟

- نعم ، آنستي ، أكيد !

وحدث ، خلال أقل من سنة ، تحوّل غريب أدهش
فريدريك . أضاف بعد هنيهة صمت :

- يجدر بنا التخاطب بلهجة ودية ، كما من زمان ،
تريدين ؟

- لا .

- لماذا ؟

- لأن !

أصرّ . أجابت خافضة الرأس :

- لا أجرؤ !

كانا وصلا إلى آخر البستان ، على ساحل ليفون الرمي .
راح فريدريك يلاعب ، بقدمه ، حصاة . أمرته بالجلوس ،
فأطاع . ثم ، قال ، وهو ينظر إلى شلال المياه :
- إنه مثل نياغارا !

طفق يتحدّث عن الأماكن البعيدة والرحلات الطويلة .
دغدغتها فكرة القيام برحلة من مثل هذه . لن تحشى شيئاً ،
لا عواصف لا أسودا .

راحا يذرّيان حفنات من الرمل ، وهما يجلس واحدهما قرب
الآخر ، ويتحدثان . ويأتيهما الهواء الحارّ الذي كان يصل من

السهول ، دفعات من روائح الخزامى ، مع عطر الزفت النافذ من سفينة خلف هويس النهر . كانت الشمس تصفق الشلال ، كتلات الحائط المخضوضرة ، حيث الماء يسيل ، تبدو مثل ستر فضي شفاف منبسط دوماً . خطّ زبد طويل يبرز عند قدمه بطريقة منتظمة . يحدث هذا ، كان ، غلياناً ، أعاصير ، وألف مجرى متواجه ، كلها تنتهي بالذوبان في سحابة صافية .

همست لويز بأنها تحسد وجود السمك .

- يجب أن يكون للذيذاً جداً التقلب داخلها ، حسب المزاج ، والشعور بأنك مداعب من كل مكان .
وارتجفت بحركات مداعبة شهوانية .

لكنّ صوتاً هتف :

- أين أنتِ ؟

- تناديك خادمتك ، قال فريدريك .

- حسناً ! حسناً !

ما أزعجت نفسها لويز بشيء .

- سوف تغضب ، قال .

- لا يهمني هذا ! ومع ذلك . . فالآنسة روك طلبت إليه إبقاء الأمر سراً .

مع هذا ، فقد نهضت ، ثم شكت ألم رأسها . وبما أنهما يمران كانا أمام مرآب واسع يضمّ حزمة قضبان :

- لو نقف تحت !

تظاهر بعدم الفهم ، وحتى فهو عذّبها بسبب لكنتها .

انفجرت قليلاً قليلاً زوايا فمها ، تعضّ شفيتها ، تخلّصت منه لتقاطع حردة .

لحق بها فريدريك ، أقسم أنه لم يكن يريد الاساءة إليها وانه يجبها كثيراً .

- أصبح هذا ؟ هتفت ، وهي تنظر إليه ببسمة تضيء وجهها المزروع بيقع غش .

ما قاوم شجاعة عاطفته ، ولا نداوة شبابه ، وأجاب :

- لماذا أكذب عليك ؟ .. أنت تشكين ، أليس كذلك ؟

قال هذا ومرّر ذراعه اليسرى وطوّق خصرها .

خرج من حلقتها صوت عذب كما هديل ، انقلب رأسها إلى الخلف ، خارت فأمسكها . والوساوس حول أمانتها غير مجدية صارت ، أخذه خوف أمام هذه العذراء المتألّمة . أعانها ، من بعد ، لتقوم ببضع خطوات ، برفق . توقّفت ملاطفاته الكلامية ، وإذ بات لا يريد إلا أشياء بلا معنى ، راح يحدّثها عن أشخاص من المجتمع النوجاني .

فجأة أبعدته ، وبصوت محزن :

- لن تجرؤ فتأخذني !

بقي جامداً كثير الانبهار . انفجرت شهقات ، ومغرقة رأسها في صدره :

- أيمكنني العيش بدونك ؟!

حاول تهدئتها . رفعت له يديه وضعتها على كتفيها لتراه وجهاً لوجه ، وراشقة يؤبؤها صوب عينيه الخضراوين ، بنداوة

شبه مفترسة :

- أتريد أن تكون زوجاً لي ؟
 - إنما ... ، تتمم فريدريك باحثاً عن إجابة ما . بدون شك ... لا أطلب أفضل من هذا .
 في هذه اللحظة ، ظهرت كاسكيت السيد روك خلف ليلكة .

اصطحب « صديقه الشاب » ليومين يتجول قليلاً في الأنحاء القريبة ، في أملاكه ، وحين عاد فريدريك ، وجد ، عند أمه ، رسائل ثلاثاً .

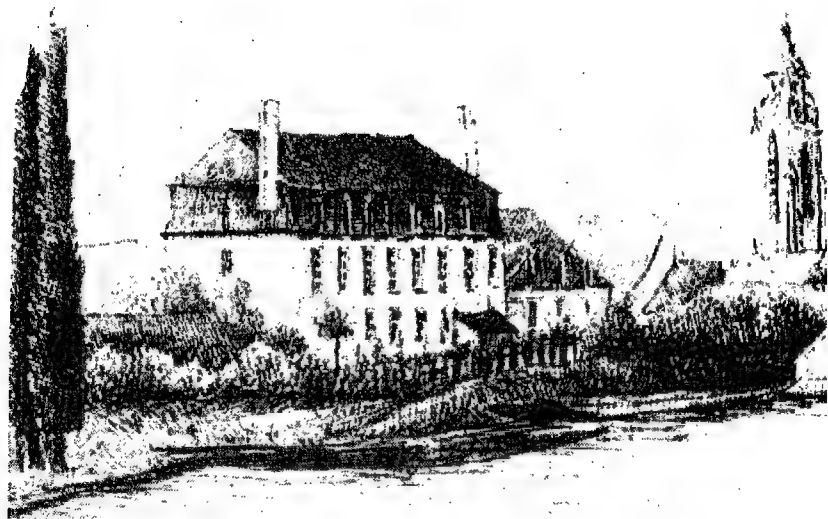
كانت الأولى من السيد دمبوز يدعوه فيها للعشاء الثلاثاء السابق . بخصوص أي أمر هذه الالتفاتة ؟

الثانية من روزانيت . تشكره على مجازفته بحياته لأجلها ، ما فهم ، فريدريك ، أول الأمر ما تعني . وبعد كثير مراوغة ، تلمس منه ، مثيرة صداقته ، معتمدة على لطافته ، على الركبتين كما تقول ، بسبب الضرورة الملحة ، وكما يُطلب الخبز ، معونة بسيطة من خمسمائة فرنك . قرّر فوراً مدها بها .

ومن ديلورييه الرسالة الثالثة ، وتحدثت عن الوكالة . وهي طويلة مبهمة . ما كان اتخذ المحامي بعد أية خطوة . يطلب إليه ألا يزج نفسه : « عودتك لن تفيدك في شيء ! » مشدداً على هذا بالبحاح غريب .

وقع فريدريك في أنواع من الظنون ، ورغب العودة إلى هناك ، أثاره هذا الطموح للسيطرة على سلوكه .

من جهة أخرى ، بدأ يأخذه الحنين إلى البولفار ، ثم إن أمّه
تحتّه ، والسيد روك يحيطه بكبير عناية ، والأنسة لويز تحبّه كثيراً ،
فما كان يستطيع البقاء طويلاً من دون إعلان زواجه . كان في
حاجة إلى التفكير ، في الابتعاد سيري الأمور أوضح . واخترع
قصة كي يبرر رحلته . وذهب ، واعدأ الجميع ومصدقاً نفسه بأنه
سيعود قريباً .



بيت التركية : ذكريات الولادة . . . والتلك الأول

VI

رجوعه إلى باريس لم يُحدث فيه أي سرور ، كان المساء في
أواخر آب ، البولفار شبه فارغ ، يتتابع المارة بوجوه عابسة ، هنا
وهناك رجل زفت يدخن ، بيوت كثيرة مغلقة شبابيكها كلياً .
وصل إلى مقره . الغبار يغطي السُط . شعر باستسلام غريب ،
وهو يتعشى وحيداً ، فراح يفكر في الأنسة روك .

ما عادت فكرة الزواج تبدو له غير مألوفة . سيسافران ،
يذهبان إلى إيطاليا ، إلى الشرق ! وسيكتشفها واقفةً على أكمة ،
متأملاً منظرأ ، أو مستندة إلى ذراعه في صالة عرض فلورنسية ،
متوقفة أمام اللوحات . يا للفرح يغمره وهو يرى هذا الكائن
الصغير الحبيب يستغرق في روائع الفن والطبيعة ! ستكون رفيقة
لطيفة بعد خروجها من وسطها بقليل . زد على ذلك أن ثروة
السيد روك تغريه . مع ذلك ، قرار مثل هذا ، هو ينفر منه كما
ضعف ، أو خزي .

لكنّه كان قرّر (مهما عليه أن يفعل) أن يغيّر نمط حياته ،
أي أن لا يسلم قلبه للألام غير المثمرة ، وها هو ، حتى ، يتأرجح

في إتمام المهمة التي أوكلتها إليه لوزير . طلبت إليه أن يشتري لها ، من عند جاك أرنو ، تمثالين كبيرين لعبدين مثل التماثيل الموجودة في مديرية شرطة « تروا » . تعرف هي طريقة أرنو ، لا تريد من عند سواه . خشي فريدريك ان عاد « عندهم » ، من أن يقع ، مرة بعد ، في حبه القديم .

شغلته هذه التأملات السهرة كلها ؛ وكان يستعد للنوم حين دخلت امرأة .

- هذا أنا ، قالت الأنسة فاتناز وهي تضحك . جئت من قبل روزانيت .

- إذن ، تصالحتما ؟

- نعم ! تعرفني لست خبيثة . فوق ذلك ، فالمسكينة . . . يطول الحديث لو حكيت لك .

باختصار ، ف « المارشالة » تريد أن تراه ، انتظرت رسالة ، بعدما مَشُورت رسالتها من باريس إلى نوجان ، ما كانت الأنسة فاتناز تعرف مضمونها . فاستخير فريدريك عن « المارشالة » .

هي ، الآن ، مع رجل كثير الغنى ، روسي ، إنه الأمير تزنونكوف ، كان رآها في حفلات سباق الخيل الصيف الماضي . - عندها ثلاث مركبات ، بيت في الريف ، خلية مجنون للايطاليين ، وأشياء أخرى كثيرة . هكذا يا عزيزي .

وهي ، الفاتناز ، كأنها استفادت من تبدل الثروة هذه ، فبدت أكثر مرحاً ، وهي سعيدة . خلعت قفازاتها وتفحصت ، في الغرفة ، الأثاث والتحف . تحدّدها بسعرها الحقيقي ، كتاجر

السقط . أوشك أن يسألها في مسألة بيعها بأفضل ثمن ، وأنت على ذوقه الماهر :

- آه ! هذا لطيف ، ممتاز للغاية ! ليس إلّاك لهذه المسائل .

ثم ، إذ لاحظت باباً بجانب المضجع :

- من هنا تخرج النساء ، أليس كذلك ؟

وأمسكت ذقنه ، وديا . ارتجف للامسة يديها الطويلتين ، الضعيفتين والجميلتين معاً . كان حول معصميهما تحريم دانتيل ، وعلى صدار ثوبها الأخضر زركشات قيطانيّة كهوصار* . قُبعتها التي من تول أسود ، وذات أطراف نازلة . تحتها ، عيناها تلمعان ، تفوح من شعرها روائح عطر البشولي ، أبرز فكّها مصباح الزيت الموضوع على اسكاملة ، إذ هو يضيئها من أسفل كصف أنوار في المسرح ، وفجأة ، أحسّ فريدريك ، أمام هذه المرأة البشعة التي كان في قامتها تموجات ثمر ، برغبة عظيمة ، رغبة شهوة حسية حيوانية .

قالت له بصوت عذب ، ساحبة من حافظة نقودها بطاقات ثلاثاً :

- ستشتري مني هذه !

هي لمقاعد ثلاثة لمسرحية ريعها للدار .

- كيف ! هو ؟

- طبعاً !

* جندي من الخيالة .

ويدون أن توضح أكثر ، أضافت الأنسة قانناز أنها تعبه
أكثر من أي وقت . وإذا ما صدّقها ، فالكوميدّي يحسب ،
نهائياً ، بين « أقطاب العصر » . وهو ، فريدريك ، ليس مطلق
شخصية ، لكنه عبقرية فرنسا ، يمثل الشعب ! إنه صاحب
« روح إنسانية ، يفهم قدسيّة الفن ! » ولتحرّر من هذه
المدائح ، دفع لها فريدريك ثمن البطاقات الثلاث .
- لا يجدي التحدث بهذا هناك ! - كم الوقت متأخر ، ي
إلهي ! يجب أن أغادرك . آه ! كدت أنسى العنوان : شار-
غرانج - باتليير ١٤٢ .

وعلى العتبة :

- وداعاً ، أيها الرجل المحبوب !

« محبوب تمنّ ؟ تسأل فريدريك . يا للانسانة
الغريبة ! » .

وتذكّر أن ديسرديه كان قال له ، يوماً ، بشأنها : « أوه !
إنها لا تساوي شيئاً ! » كأنه يلّمح ، كان ، إلى أمور غير ذات
نبل .

في الغد ، ذهب عند « المارشالة » . كانت تسكن بيتاً
جديداً ، ستاراته تنقذ إلى الشارع . على كل قرص درج مرآة إلى
الحائط ، حوض زهور بسيط أمام النوافذ ، وعلى امتداد الأدراج
بساط كتّاني . وحين تصل من الخارج ، فإن طراوة الدرج
تريحك .

جاء خادم فتح الباب . يرتدي سترة حمراء . على المقعد ،

في غرفة الانتظار ، امرأة ورجلان ، هم ، ولا شك ، موردون ينتظرون كما في رواق وزير . إلى الشمال ، أنت ترى ، من باب غرفة الطعام المشقوق ، قناني فارغة على المقاصف ، فوطا على الكراسي ، وبشكل مواز يمتد رواق ، حيث عصي بلون ذهبي تسند تعريشة ورود . عند الأسفل ، في الساحة ، صبيان عاريا الذراعين يحفان عربة لاندو . صوتهما يصل إلى أعلى مع الضجة المتناوبة لمحسة يخبطانها على حجر .

عاد الخادم « ستستقبل السيّد السيّد ! » وأدخله غرفة انتظار ثانية ، ثم صالوناً كبيراً ممدوداً بسندس مزخرف أصفر ، وجدائل زخرفية في الزوايا تلتقي في السقف وتبدو تكملها غضبات ثرياً بشكل مرس . هم ، ولا شك ، أولموا ليلة أمس . وقد بقي على المناضد المزخرفة رماد سيجار .

دخل أخيراً نوعاً من صالون نسائي تضيئه بارتباك زجاجيات ملونة . تزخرف أعلى الأبواب نفليات من خشب ، خلف حاجز مفرّع ، ثلاث فرش أرجوانية تؤلف أريكة ، ينسحب فوقها نريش أركيلة بلاتينية . بدل المرأة ، المدفأة لها خزانة رفوف هرمية ، مظهره على درجاتها مجموعة طرف : ساعات قديمة من فضة ، مشابك من أحجار كريمة ، أزرار من جواهر ، خزفيات ، تماثيل ، عذراء بيزنطية صغيرة بغطاء من قرمز ، وكل هذا يمتزج بشفق مذهب ، مع لون السجادة المائلة إلى الزرقة ، وانعكاس لؤلؤ المقاعد ، وطابع الجدران المتوحش ، الجدران المغطاة بجلد كستنائي . على قويعدات صغيرة في الزوايا ، آنية

برونزية فيها باقات أزهار تثقل الجو .
 ظهرت روزانيت مرتدية سترة وردية مع بنطلون كشمير
 أبيض ، وعقد قروش ، وطاقيّة حمراء يحيطها غصن ياسمين .
 بدا فريدريك وقد فوجيء ، ثم قال إنه يحمل « الأمر
 المطلوب » ، وهو يقدّم لها ورقة النقد .
 نظرت إليه مذهولة ، وبما أن الورقة بقيت في يده ولا يعرف
 أين يضعها ، قال :
 - خذها !
 تناولتها ، وبعدما رمتها على الأريكة :
 - أنت لطيف جداً .
 كان المال لتسديد ثمن أرض في بيلفو ، تدفعه أقساطاً
 سنوية . جُرح فريدريك لكونها بدت بلا كلفة . مع ذلك ، فهذا
 أفضل ! هذا يثّار له من الماضي .
 - إجلس ! قالت . هنا ، أقرب . وبنبرة رصينة : أولاً ،
 عليّ أن أشكرك ، عزيزي ، لكونك جازفت بحياتك .
 - أوه ! ليس هذا مهماً !
 - كيف ! لكنّه أمر جميل جداً !
 وأظهرت له « المارشالة » امتناناً محرّجاً . ذلك أنها كانت ،
 دون ريب ، تفكّر أنه قاتل ، فقط ، لأجل أرنو .
 « لربما هي تسخر مني » ، فكّر فريدريك .
 ما بقي عليه شيء يفعل ، نهض ليذهب متذرّعاً بموعد .
 - إيه لا ! إبق !

عاد فجلس وامتدحها على ثيابها .
أجابته وهي تتظاهر بالتعب والسأم :
- إنه الأمير ، يحبني هكذا ! ويجب التدخين بمثل هذه
الآلات ! أضافت روزانيت وهي تدل على النارجيلة . لو نذوقها ؟
تريد ؟

جاء بنار ، وإذ راح التنباك يشتعل بصعوبة ، صارت تخبط
الأرض بقدمها لنفاد صبرها . ثم أخذها خدر ، وبقيت جامدة
على الأريكة ، تكية تحت إبطها ، جسدها ملوي قليلاً ، ركبة
مشنبة ، الأخرى مستقيمة . الحية الطويلة المن جلد أحمر ، الكانت
تشكل حلقات على الأرض ، التفت على ذراعها . وضعت لها
سهما المن عنبر على شفيتها وراحت تنظر فريدريك ، غامرة العينين
عبر الدخان الذي كانت نفثاته تلقها . تنفس صدرها يجعل المياه
تقرر ، وبين وقت وآخر تتمم :

- هذا المسكين اللطيف ! هذا المسكين العزيز !
حاول أن يجد موضوعاً لمحادثة مستحبة ، جاءته فكرة
القناناز .

قال إنها بدت له شديدة لأناقة .
- قسماً ! قالت « المارشالة » . سعيدة هي هذه لكوني
لها ! - من دون أن تضيف كلمة ، لفرط ما في أحاديثهما من
تحديد .

كان كل منها يحس ضغطاً ، عائقاً . في الواقع ، إن المباراة
التي كانت روزانيت تحسب نفسها سبباً لها ، أطرت كبرياءها . ثم

هي تعجبت كثيراً كيف أنه لم يتراخض ليفتخر بعمله ، ولتجبره على الرجوع ، اخترعت هذه الحاجة إلى الخمسة فرنك . كيف يحدث أن فريدريك لا يطلب ، في العودة ، شيئاً من حب ! إنه التهذيب ما يبهرها ، وفي فورة اعتراف قالت له :

- أتريد المجيء معنا إلى حمامات البحر ؟

- من « نحن » ؟

- أنا وعصفوري ، أقدمك على أنك قريبي ، كما في

الهزليات القديمة .

- ألف شكر !

- إذن تأخذ شقة قرب شقتنا .

أذلته فكرة الاختباء من رجل غني .

- لا ! مستحيل .

- كما تريد !

وإذ أطلقت دمعة في عيني روزانيت ، استدارت . لحظها

فريدريك ، وليسجل اهتمامه بها ، قال انه سعيد لرؤيتها ، أخيراً ، في وضع ممتاز .

هزت كتفها . ما يحزنها إذن ؟ هل ، صدفة ، أنهم

لا يحبونها ؟

- أوه ! أنا ، يحبونني دائماً !

أضافت :

- يبقى أن نعرف بآية طريقة !

واشتكت « المارشالة » « الاختناق من الحرارة » ، فخلعت

سترتها ، وبدون أيّ لباس آخر حول حَقْوَيها سوى قميصها
الحريرية ، أحنت رأسها على كتفه ، بهيئة أمة ملأى إتارات .
إن أي رجل ، أنانيّة أقل تفكيراً ، ما كان ليظنّ أن
الفيكونت ، أو السيّد كومينغ ، أو أيّ آخر ، يمكن أن يطرأ .
لكنّ فريدريك غالباً ما كان يجذّع بمثل هذه النظرات ليجازف في
خزي جديد .

أرادت أن تعرف علاقاته ، تسلياته ، توصلت حتى إلى
الاستعلام عن أعماله وعرضت أن تقرضه المال ، فيها لو كان
بحاجة إليه . ما استطاع فريدريك أن يحتمل بعد . تناول قُبْعته .
- هيا ، باعزيزتي ، الكثير من السرور هناك ، إلى اللقاء !
حملت ، ثم بنبرة قاسية :
- إلى اللقاء !

عاد عبر الصالون الأصفر وعبر غرفة الانتظار الثانية . وجد
على الطاولة ، بين إناء مليء بطاقات دعوة ومحبرة ، علبة حلّ فُصْبَة
مرصّعة . إنها التي للسيدة أرنو ! شعر ، حينها ، بحنان ، وفي
الوقت نفسه كما بفضيحة الخيانة . رغب أن يرفع إليها يديه ، أن
يفتحها . خاف أن يرى ، فذهب .

كان فريدريك شجاعاً . لم يعد على الإطلاق عند أرنو .
أرسل خادمه يشتري العبدین ، بعدما زوّده بالتعليمات
الضروريّة ؛ وأرسلت الصندوقة ، في الليلة نفسها ، إلى نوجان
في الغد ، وهو ذاهب عند ديلوربيه ، في مفترق شارع فيفيان
والبولفار ، بدت السيدة أرنو أمامه ، وجهاً لوجه .

أولى حركاتها كان التراجع . ثم علت الابتسامة نفسها
شفتيهما واقتربا ، واحدهما من الآخر . لهنية ، ما تكلم أحدهما .
تخيظها الشمس ؛ كل ما فيها بدا له غريب الاشرار :
وجهها البيضوي الشكل ، حاجباها الطويلان ، شالها الذي من
دانيل أسود مقولباً شكل كتيها ، نوها الحريري المتموج اللون ،
باقة البنفسج في زاوية معطفها . نفيص من عيبيها الجميلتين
عذوبة لامتناهية ، قال ، متلعثاً ، كفيما اتفق ، بأولى الكلمات
التي جاءت على لسانه :

- كيف حال أرنو ؟

- أشكرك !

- وولدك ؟

- بصحة جيّدة !

- آه ! ... آه ! ... يا له من طقس جميل نتمتع به ،

أليس كذلك ؟

- بلى . انه رائع !

- هل أنت تمشين ؟

- نعم .

وبانحناءة رأس بطيئة :

- وداعاً !

لم تمد له يدها ، لم تقل كلمة مُحبة ، حتى لم تدعه للمجيء
إليها ، ما هم ! ما كان ليفرط بهذا اللقاء مقابل أجل المغامرات ،
وراح يستعيد حلاوته مكملًا طريقه .

فوجيء ديلوريه برؤيته ، كظم غيظه ، - فهو يحتفظ ،
بعد ، بتصلب رأي ، ببعض أمل من جهة السيّدة أرنو ، وكان
كتب إلى فريدريك ليبقى هناك ، هكذا يكون أكثر حرية في
تحركاته .

أخبر ، مع ذلك ، أنه حضر عندها ليعرف إذا العقد يوضح
التجمّع : حينها يمكن ملاحقة المرأة ؛ « وأبدت سحنة غريبة حين
أخبرتها بزواجك » .

- عجباً ! يا للاختراع !
- كان يقتضي ذلك للبرهان على أنك بحاجة إلى أموالك !
الانسان اللامبالي ما كان ليصاب بهذا النوع من الاغماء الذي
أصابها .

- حقاً ؟ هتف فريدريك .
- آه ! أيها الشجاع ، تفضح نفسك ! كن صريحاً ، هيّا !
اعتري عاشق السيّدة أرنو خور رهيب .
- إنما لا . . . أوكد لك ! . . . أقسم بشرفي !
هذا الانكار المائع انتهى بديلوريه إلى الاقتناع . جامله
سأله « تفاصيل » . ما باح فريدريك بشيء ، وحتى قاوم رغبة في
اختراعها .

أما بالنسبة للرهنّة ، فقال له أن لا يفعل شيئاً ، لينتظر .
رآه ديلوريه على خطأ ، وكان عنيماً في توبيخاته .
من جهة أخرى ، كان أكثر اكتئاباً ، عدوانية ونزقاً من أيّ
وقت مضى . وإذا لم تبدّل الثروة ، خلال سنة ، لسوف يبحر إلى

أميركا أو ينتحر . أخيراً ، كان يبدو غاضباً على كل شيء ،
وبراديكالية مطلقة ، إلى حد لم يستطع فريدريك معه إلا أن يقول
له :

- ها أنت مثل سينيكال .

للمناسبة ، أخبره ديلوريه أنه خرج من « سانت -
بيلاجي » لأن التحقيقات لم تقم أدلة مقنعة لوضعه في المحاكمة .
أراد ديسردييه ، لمناسبة هذا الخلاص ، تقديم كأس من
« البنش » ، وتوسّل إلى فريدريك ليحضر ، معلناً له أنه سيجد
نفسه مع هيسوتيه الذي كان ممتازاً بالنسبة إلى سينيكال .
في الواقع كان « الفلمبار » قد ضمّ إليه غرفة أعمال ، عمل
في إعلاناتها : « متجر خمور . - إدارة إعلانات . - مكتب تحصيل
واستعلامات ، الخ » . لكن البوهيمي كان يخاف أن تسيء
مصلحته إلى اعتباره الأدبي ، فأقْبى سينيكال يمسك الحسابات .
بالرغم من أنها وظيفة ذات مردود زهيد ، فبدونها كان سينيكال
قضى جوعاً . لم يرد فريدريك أن يحزن الموظف الطيّب ، فقبل
دعوته .

قبل ثلاثة أيام ، لَمَعَ ديسردييه بنفسه بلاطات سقيفته
الحر ، اعتق بمجلسه ، ونفض الغبار من مدفأته ، حيث كنت
تري ، تحت كرة ، ساعة مرمريين هابطة * ونارجيلة . استعار من
البواب شمعدانين لأن مشكاته وشمعدانه الصغير لا تكفي

* راسب كلسي متحجر في سقوف المغاور .

للانارة . ويلمع جهاز تنويره هذا على الصوان ، تغطيه فوط ثلاث ، ليحمل ، بلياقة أكثر ، معكروناً ، بسكويّاً ، فطيرة حلوى واثنتي عشرة قنينة جعة . وفي المقابل ، حيال حائط ممدود فوقه ورق أصفر ، مكتبة صغيرة من خشب الأكابو فيها « حكايات » لاشامبودي ، « أسرار باريس » ، « نابوليون » لنورفينس - ووسط المخدع ، في إطار من خشب البليساندر الفاخر ، يتسم وجه بيرنجيه !

المدعوون (بالاضافة إلى ديلورييه وسينيكال) كانوا صيدلياً حديث النجاح ، لكن لا مال له لتركيز نفسه ، وشاباً من « عائلته » ، وموزّع خمر ، ومهندساً معمارياً وموظّفاً في شركة تأمين . ما استطاع ربحمبار المجيء . أسفوا لغيابه . استقبلوا فرميدريك بحفاوة بالغة ، جميعهم علموا ، بواسطة ديسردييه ، خطبته عند السيد دمبوز . اكتفى سينيكال بأن مدّ إليه يده متظاهراً بالوقار .

بقي واقفاً قرب المدفأة . والآخرون جالسون والغليون في الشفاه ، يستمعون إليه يطنب في حديث عن الاقتراع العالمي ، الذي منه يجب أن يتأتى انتصار الديمقراطية ، وتطبيق مبادئ الانجيل . وفضلاً عن ذلك ، فالوقت يقترب ، تزايد ، بكثرة ، المآدب الاصلاحية في المقاطعات ، ييامون ، نابولي ، توسكانا ...

- صحيح ، قال ديلورييه مقاطعاً ، لا يمكن هذا أن يدوم مدة أطول !

وراح يرسم صورة للوضع .
لقد ضحّينا بهولندا للحصول من انكلترا على الاعتراف
بلويس - فيليب ، وضاع هذا الحالف الانكليزي الشهير بسبب
حفلات الزواج الاسبانية ! في سويسرا ، يدافع السيّد غيزو ،
ماشياً في ركاب النمسوي ، عن معاهدات ١٨١٥ . تحضّر لنا
بروسيا ، بوحدتها الجمركية ، اضطرابات . المسألة الشرقية
لا تزال معلّقة .

- ليست هذه حجة لأن الغراندوق قسطنطين يرسل
هدايا إلى السيّد أومال ليعتمد على روسيا . وبالنسبة إلى
الداخل ، ولا مرة كنت ترى مثل هذه العماوة والغباوة ! حتى
أكثرهم باتت غير متماسكة ! أخيراً ، في كل مكان ، حسب
الكلمة المعروفة ، لا شيء ! لا شيء ! لا شيء !
وتابع المحامي ، واضعاً يديه على خصره : أمام مثل هذه
الأعمال المخزية ، يظهرون مسرورين !

أحدثت هذه الإشارة إلى تصويت شهير تصفيقات . فتح
ديسردييه قنينة بيرة . طرطشت الرغبة الستائر ، فهو لم يتنبّه لهذا ،
راح يحشو كل غليون ، يقطع فطيرة الحلوى ، يقدم منها ، نزل
مراراً ليرى هل وصل « البنش » ، وما لبثوا أن تحمّسوا ، إذ
لكلهم السخط ذاته ضدّ السلطة . عنيفة هي ، من دون أي سبب
آخر إلا بغض الظلم ، ومزجوا ، إلى الاعتراضات العادلة ،
الماخذ الأكثر تفاهة .

تحسّر الصيدليّ على حالة أسطولنا البائسة . وسيط شركات

التأمين ، كان يتساهل مع خفيري المارشال سولت . وديلورييه ومشي باليسوعيين الذين جاؤوا ، جهازاً ، وتركزوا في « ليل » . وراح سينيكال يلعن السيد كوزان لأنّ الانتقائية ، إذ هي تعلم فصل اليقين عن العقل ، تنشر الأنانية ، تهدم الوحدة ، وبما أن موزع الخمر يفهم بهذه الأمور ، فهو قال عالياً انه غالباً ما ينسى هذه الفضائح .

- الحافلة الملكية التي على خط الشمال تكلف ثمانين ألف فرنك ! فمن يدفع ؟
- نعم ، من يدفعها ؟ ردّد موظف التجارة ، غاضباً كأنه من جيبه هو سيدفع .

نشأ عن ذلك اعتراضات ضدّ طمّاعي البورصة ورشوة الموظفين . كان عليهم الارتفاع أكثر ، حسب سينيكال واشتكى أول الأمر الأمراء ، من كانوا ينعمون عادات الوصاية .
- ألم ترّ أصدقاء دوق مونتبسيير ، يعودون من فنسان ،

سكارى ويقلقون بأغانهم عمّال ضاحية سانت أنطوان ؟
- بل ان البعض صرخ : « ليسقط اللصوص ! » أنا كنت هناك ، وكنت أحد الصارخين .

- أحسن ! حتى الشعب ، أخيراً ، بدأ يفهم منذ دعوى « تاست - كويير » .

- لكن هذه الدعوى نفسها آلتني ، قال ديسردييه ، لأن هذا يعيب جندياً قديماً !
أكمل سينيكال : أتعرفون أنه اكتشف عند دوق دو

براسلان . . . ؟

لكن خبطة قدم فتحت الباب . دخل هيسونيه .
 - مرحباً أيها السادة ! قال وهو يجلس على السرير .
 ما ألمح أحد إلى موضوعه الذي كان ندم عليه ، زد على
 ذلك أن « المارشالة » كانت وبخته ، بسببه ، بعنف .
 كان قد حضر ، لتوه ، في « مسرح ديماس » ، « فارس
 البيت الأحمر » ، ووجدها مسرحية مسيئة .
 رأي كهذا أدهش الديموقراطيين ، - إذ ان هذه الدراما ،
 بميولها ، بالأحرى ببيئاتها ، تدغدغ أهواءهم . اعترضوا . وحسباً
 للموضوع سأل سينيكال إذا كانت تخدم الديمقراطية .
 - نعم . . . ، لربما ؛ لكنها بأسلوب . . .
 - وبعد ، هي جيّدة ، ما هو الأسلوب ؟ إنه الفكرة !
 ومن دون أن يفسح لفريدريك بالكلام :
 - كنت أقول ، في قضية براسلان . . . قاطعه هيسونيه .
 - آه ! هوذا ، بعد ، لازمة مبتدلة ! هي تضجروني !
 - وسواك أيضاً ! أردف ديلورييه . فقد استقطبت خمس
 جرائد ! إسمع هذه الملاحظة .

وإذ أخرج مفكرته ، قرأ :

« لقد قاسينا ، منذ تأسيس فضلى الجمهوريات ، ألف
 ومئتي وتسع وعشرين دعوى صحافية ، نجم عنها للكتاب : ثلاثة
 آلاف ومئة واحد وأربعون سنة سجنًا ، مع المبلغ البسيط وهو
 سبعة ملايين ومئة وعشرة آلاف وخمسمئة فرنك غرامة » . - لطيف

هذا ، أليس كذلك ؟

كلّهم بمرارة سخروا . وقال فريدريك متحمساً كما
الآخرين :

- إن جريدة « الديمقراطية الهادئة » تعدّ رواية عنوانها
« حصّة النساء » .

- جيّد هذا ! قال هيسّونيّه ، إذا كانوا يمنعون عنا حصتنا
بالنساء !

- ولكن ما هو غير الممنوع ؟ صرخ دييلورييه . ممنوع
التدخين في اللوكسمبور ، ممنوع غناء نشيد بيّوس التاسع !
- وقد منعوا مأدبة عمّال المطابع ! قال ، بوضوح ، صوت

بهيم .

إنه صوت المهندس المعماري ، المحجوب بظل المخدع ،
والذي بقي صامتاً حتى الآن . أضاف انهم ، في الأسسوع
الماضي ، قد حكموا على المدعوّ روجيه بتهمة إهانة الملك
قال هيسّونيّه : روجيه مقلّي .

بدت هذه الدعابة في غاية الوقاحة ، لسينيكال الذي أخذ
عليه المدافعة عن « مشعوذ دار البلديّة ، صديق الخائن
ديمورييه » .

- أنا ؟ بالعكس !

هويري لويس - فيليب تافها ، حقيراً قومياً ، إلى ما هنالك
من أوصاف تحقيرية . وشرع البوهيميّ في العبارات السرية ،
واضعاً يده على قلبه : - « انه دائماً بلذّة جديدة . . . - القومية

البولونية لن تنقرض . . . - أعمالنا العظيمة سنتابع . . . أعطوني
مالاً لعائلي الصغيرة . . . » جميعهم ضحكوا كثيراً ، معلنيته
جسوراً لذيذاً ، متوقداً الدهن ، تضاعف الفرح عند مرأى وعاء
« البنش » يحمله بائع شراب .

لهب الشراب والشموع ، بسرعة أدفأ المنزل ، ونور
السقيفة ، مخترقاً الساحة ، كان ينير ، في المقابل ، طرف سقف
مع قسطل المدخنة المنتصب أسود في وجه الليل . راحوا يتحدثون
عالياً ، جميعاً معاً ، كانوا خلعوا ستراتهم الطويلة ، يصطدمون
بالأثاث ، يصدمون الكؤوس .

هتف هيسّونيه :

- أصدعوا سيّدات مستنّت ، ليكون هذا برج « نيل » .
وطفق الصيدليّ ، الذي كانت الخمر تدور في رأسه إلى ما
لأنهاية ، يهدج بملء صدره :

عندي ثوران كبيران في اصطلي

ثوران كبيران أبيضان . . .

وضع له سينيكال يده على فمه ، ما كان يحب الفوضى ،
وبدا المستأجرون على نوافذهم ، مفاجئين بالصخب الغريب الذي
كان يدور في شقة ديسردييه .

الشاب الطيب كان سعيداً ، وقال ان هذا يذكره مجالسهم
القديمة الصغيرة ، في شارع نابوليون ، مع ذلك ينقص
الكثيرون ، منهم بيلران . . .
- نستطيع التخلي عنه ، قال فريدريك .

واستخبر ديلورييه عن مارتينون .

- ما حلّ به هذا السيّد المثير للاهتمام ؟

سريعاً ما باح فريدريك بسرّه ، بنيتّه السيّئة تجاهه ، هاجم روحيتّه ، طبعه ، أناقته المزوّرة ، وكلّ ما فيه . انه مثال القرويّ الطارىء ! فالأرستوقراطية الجديدة ، البورجوازية ، لا توازي القديمة ، طبقة الأشراف . دافع عن هذا ؟ ووافقه الديموقراطيّون ، - كما لو انه جزء من واحدة وهم خالطوا الأخرى . كانوا مسرورين به . قارنه الصيدلي ، حتى ، السيّد التون . شيء ، الذي ، مع كونه ، صاحب إقطاعة ، هو يدافع عن قضية الشعب .

أزفت ساعة الرحيل . جميعهم تفرّقوا بعد مصافحات قويّة ، وحبّاً منه ، رافق ديسردييه فريدريك وديلورييه في عودتهما . ومنذ وصولهما إلى الشارع ، بدا المحامي كأنّه يفكّر ، وبعد صمت ، قال لفريدريك :

- إذن ، فأنت لديك مآخذ على بيلران ؟

فلم يخفّ فريدريك حقه .

مع ذلك ، كان الرسّام سحب لوحته الشهيرة من الواجهة . يجب ألاّ نتخاصم بسبب ترّهات ! ماذا يفيد أن نربح عدواً ؟

- لقد خضع لمبادرة مزاجيّة ، مبرّة هي عند رجل لا يملك فلساً . لا يمكنك أن تفهم هذا ، أنت !
وإذ صعد ديلورييه إلى مسكنه ، لم يترك الموظف

فريدريك ، فقد ألزمه ، حتى ، على شراء الرسم . واقعاً ، إذ كان بيلران يش من إحتجاله ، فقد خدعها بالقول إنه لأجلهما قبل بالمهمة .

حدّثه ديلوريه بهذا ، أصرّ . معقولة كانت ادّعاءات الفنان .

- أكيد أنا ، أنه ، لربما ، بخمسمائة فرنك . . .

- آه ! أعطها له ! خذ ، هاكها ، قال فريدريك .

حُملت اللوحة في المساء ذاته . بدت له أشنع مما كانت عليه في المرة الأولى . كانت أنصاف الظلال والظلال قد اكمدت بتأثير اللمسات الأخيرة ، وبدت معتمة بالنسبة إلى الأضواء التي بقيت مشرقة هنا وهناك ، ناشزة على الجملة .

ثار فريدريك من كونه اشتراها ، بذمها بمرارة . صدّقه ديلوريه من دون دليل ، وأقرّ تصرّفه ، لأنه يطمح ، دائماً ، إلى تأليف كتيبة يكون رئيسها ، بعض الرجال يعتزّون بأن يعهدوا إلى أصدقائهم بأمور هي ، إليهم ، كريمة .

في هذه الأثناء ، لم يكن فريدريك عاد إلى آل دمبوز . رؤوس الأموال تعوزه . ستكون شروحات لا تنتهي ، تأرجح ليقرّر . لربما معه حق ؟ لا شيء ثابتاً ، الآن ، لا قضية الفحم الحجري ولا سواها ، عليه التخلّي عن مثل هذا الجو . في الأخير ، أبعده ديلوريه عن المشروع . صار مفضلاً لكثرة الحقد ، وبالتالي ، هو يحبّ فريدريك في وضعية سيئة . يبقى موازياً له ، بهذه الطريقة ، وأكثر حميمة معه في وحدة الشعور .

ولقد نُفِذت طلبية الأنسة روكْ بطريقة سيئة للغاية . كتب إليه والدها ، مزوداً إياه بالشرح الدقيقة جداً ، وأنهى رسالته بهذه الدعابة : « مع المجازفة بإصابتك بدوخة . . . العبيد ! » . ما كان فريدريك يستطيع إلا العودة عند أرنو . صعد إلى المحلّ ، ولم يرَ أحداً . متهدّماً بيت التجارة ، يقلّد الموظفون إهمال سيدهم .

حاذى خزانة الرفوف الطويلة ، المحملة خزفيات ، تُشغل ، من طرف حتى الآخر ، وسط المكان ، وإذا وصل إلى الآخر ، أمام المكتب ، مشى بخطوات أقوى ، لعلّ أحداً يسمعه .

إذ رفع السجف ، بدت السيدة أرنو .

- ماذا ، أنتِ هنا ! أنتِ !

- نعم ، همست على بعض اضطراب . كنت أبحث . . .

لاحظ محرمتها قرب المكتب ، وظنّ أنها نزلت عند زوجها لتفهم ، لتتوضّح ، ولا شكّ ، قلقاً ما .

- إنما . . . بحاجة أنت ، ربما ، لغرض ما ؟

- لا شيء ذا بال ، سيّدي .

- هؤلاء الموظفون لا يطاقون ! يتخلّفون دائماً .

يجب ألاّ نلومهم . على العكس ، هو يهنيء نفسه على المناسبة .

بسخرية نظرت إليه .

- وبعد ، وهذا الزواج ؟

- أيّ زواج ؟
- زواجك !
- أنا ؟ أبداً مطلقاً !
- قامت بحركة إنكار .
- متى سيحدث هذا ؟ نلجأ إلى ما هو دون المتوسط ياساً من الجميل الذي كان حلمنا !
- مع ذلك ، لم تكن كلّ أحلامك بهذه . . . البراءة !
- ماذا تريد أن تقولي ؟
- حين كنت تنزّه في حفلات السباق مع . . . أشخاص !
- لعن « المارشالة » . تذكر أمراً .
- لكنك ، أنت ، من طلب إليّ ، من زمان ، أن أراها ، اهتماماً بأرنو !
- أجابت هارّة رأسها :
- وتستفيد من هذا الأمر لتتسلّى .
- يا ربي ! لننسّ كل هذه الحماقات !
- صحيح ، بما أنك ستزوّج !
- ونحنقت غصتها عاضة شفيتها .
- حينها صرخ :
- لكنني أكرّر لك أن لا ! تعتقدين أنني أذهب أدفن نفسي في الريف لألعب الورق ، أراقب البنّائين ، وأتنزّه بالقبقاب ! لأي غاية ؟ أخبروك أنها غنية ، أليس كذلك ؟ آه ! أهزأ تماماً بالمال ! هل بعد أن تمنيت كلّ ما هو أجمل ، وأكثر حناناً ، وأكثر سحراً ،

نوعاً من الفردوس بشكل إنساني ، وحين وجدته ، أخيراً ، هذا
 المثال ، حين تخفي عني هذه الرؤيا كل ما عداها . . .
 واخذ رأسها بيديه ، وراح يقبل جفونها ، مردداً :
 - كلا ! كلا ! كلا ! لن أتزوج أبداً ! أبداً ! أبداً !
 تقبلت مداعباته مسمرة من المفاجأة والنشوة .
 صفق باب المحل على الدرج . قفزت . وبقيت باسطة اليد
 كأنما لتأمره بالصمت . اقتربت خطوات . ثم قال أحدهم في
 الخارج :

- هل سيدي هنا ؟

- أدخل !

كوعها كان على المكتب وهي تدير ريشة بين أصابعها ،
 هادئة ، حين فتح المحاسب الباب .
 قام فريدريك .

- سيدي ، أتشرف بأن أحييك . الغرض يكون جاهزاً ،
 أليس كذلك ؟ أيمكنني الاعتماد على هذا ؟
 لم تجب بشيء . لكن هذا التواطؤ الصامت ألهم وجهها
 بكل احمرار الزنى .

عاد إليها في الغد ، فاستقبلته . ابتدأ فريدريك ، بلا
 مقدمات ، يبرر اللقاء في حفلات السباق . وحدها الصدفة جعلته
 يكون مع تلك المرأة . ومع التسليم بكونها جميلة (وهو أمر ليس
 صحيحاً) ، كيف يمكنها تعطيل فكرها ، ولو لحظة ، طالما هو
 يحب أخرى .

- تعرفين هذا جيّداً ، قلته لك .
- خفضت السيّدة أرنو رأسها .
- لقد غضبت لكونك قلته لي .
- لماذا ؟
- أبسط اللياقات تفرض الآن ألا أراك بعد !
- دافع عن براءة حبّه . يجب أن يصرّح الماضي بالمستقبل ،
- وعد نفسه ، كان ، بعدم تكدير حياتها ، بعدم إزعاجها بشكاواه .
- لكن أمس كان قلبي يطفح .
- يجب ألا نفكّر ، بعد ، بذلك ، يا صديقي !
- مع ذلك ، أين الشرّ حين شقيّان يمزجان تعاستهما ؟
- لأنك ، أنت أيضاً ، لست سعيدة ! أوه ! أعرفك ،
- ولا أحد يجيب حاجات المحبّة عندك ، أو الاخلاص . سأفعل كلّ
- ما تشائين ! لن أغضبك ! ... أقسم لك بهذا .
- وترك نفسه يسقط على الركبتين ، بالرغم منه ، خائراً بفعل
- ثقل داخليّ ثقيل جداً .
- قالت : إنّهض ! أريد ذلك !
- وأعلنت له ، بالحاح ، أنه لن يعود يراها إذا لم يكن طائعاً .
- آه ! اتحدّاك بهذا ! أجاب فريدريك . ماذا عندي لأهتمّ
- به في العالم ؟ الآخرون يكدّون في سبيل الثروة ، الشهرة ،
- السلطة ! أنا ، لا مهنة لي ، أنتِ اهتمامي الأوحده ، كل ثروتي ،
- هدفي ، مركز وجودي ، أفكاري . من دونك لا أستطيع الحياة كما

لا من دون الهواء ! ألا تشعرين بتسامي روحي يصعد نحو
روحك ، وأنها تمتزجان ، وأنني أموت دون هذا ؟
طفقت السيدة أرنو ترتجف بكل أطرافها .
- أوه ! اذهب من هنا ! أرجوك !

أوقفه تعبير وجهها المضطرب . ثم تقدّم خطوة . لكنها
تراجعت ضامّة يديها .

- دعني ! بحق السماء !
وكان فريدريك يحبّها حباً عظيماً ، فخرج .
وسرعان ما غضب من نفسه ، واعترف بأنه غيبي ، وبعد
أربع وعشرين ساعة عاد .

لم تكن السيدة موجودة . بقي ، ضائعاً من حب جنوني
وسخط ، على قرص الدرج . ظهر أرنو وأعلمه أنّ امرأته
ذهبت ، هذا الصباح ، لتسكن في بيت ريفي صغير يستأجرونه في
« أوتوي » ، بعد أن لم يعد لهم بيت « سان كلو » .

- إنها ، أيضاً ، واحدة من نزواتها ! أخيراً ، بما أن هذا
يلائمها ! وأنا أيضاً ، هذا أفضل ! هل نتعشى معاً هذا المساء ؟
ادّعى فريدريك عملاً عاجلاً ، ثم أسرع إلى أوتوي .
صرخت السيدة أرنو صرخة فرح . حينها ، تلاشى كل
حقده .

ما تحدّث أبداً عن حبه . وبالغ في تحفظه ، ليوحي لها
بالثقة . وحين سأل إن كان بإمكانه الرجوع ، أجابت :
« بلا شك » ، مقدمة يدها التي سريعاً ما سحبتها .

منذئذٍ ، ضاعف فريدريك زيارته. كان يعد الحوذني بحلوان وفير . إنما ، غالباً ما بطء الحصان ويجعل صبره ينفد ، فينزل . ثم ، على عجل ، يصعد سيارة نقل عام . ويروح يتفحص ، باشمئزاز ، وجوه الناس الجالسين أمامه ، غير الذاهبين إليها . يعرف بيتها من زهرة العسل الضخمة المغطية ، من جانب واحد ، أخشاب السقف . نوع من شاليه سويسريّة مدهونة بالأحمر ، مع شرفة خارجيّة . في الحديقة ، ثلاث شجرات كستنا مسنة ، وعلى أكمة ، في الوسط ، مظلة قشّ يحملها جذع شجرة . عريشة ضخمة سيئة التعليق ، تمتد من مكان إلى آخر ، كجبل مهترىء ، تحت اردواز الحيطان . يطول صوت الجرس القاسي دقه ، ويتنظر طويلاً ، دائماً ، قبل أن يأتي أحد . كل مرة يحسّ باختناق ، بخوف لا محدد .

ثم يسمع ، على الرمل ، طرطقة قبقاب الخادمة ، أو هي السيّدة أرنو نفسها من تأتي . ذات يوم ، وصل وراء ظهرها إذ كانت مقرّفة أمام مرّجة مخضوضرة بحثاً عن البنفسج . أرغمها مزاج ابنتها على وضعها في الدير . أما ابنها فكان يقضي بعد ظهره في مدرسة . ويقيم أرنو حفلات غداء طويلة في البالية رويال ، مع ريجمبار والصدّيق كومبان . فلن يفاجئها أيّ متطفّل .

كان الاتفاق تاماً على ألاّ يملكا نفسيهما . هذا الاتفاق ، وكان يضمّنها ضد المجازفة ؛ هو سهل تسارّهما . أخبرته حياتها الماضية ، في شارتر ، عند أمّها ، تقاها في

حوالى الثانية عشرة ، ثم حبّها الجنوني للموسيقى ، حين كانت
تغني حتى الليل ، في غرفتها الصغيرة ، حيث كشفت الأسوار .
أخبرها أحزانه في المعهد ، وكيف ، في سمائه الشعرية ، يتلأأ ،
كان ، وجه امرأة ، وإذ ، لأول مرة رآها ، عرفها امرأة الرؤيا .
كانت ، عادة ، لا تدور هذه الأحاديث ، إلّا على سنوات
تخالطهما . يذكرها بتفاصيل لا معنى لها ، لون ثوبها في فترة
معينة ، أي شخص وصل ذات يوم طارئاً ، ما قالت مرة ، وتجبب
مذهولة :

- نعم ، أذكر هذا !

ذوقهما ، أحكامهما ، هي ذاتها . وغالباً ما كان يهتف
المستمع للآخر :

- وأنا أيضاً !

فيجب الآخر بدوره :

- وأنا أيضاً !

وتكرج ، بعد هذا ، شكاوى كثيرة على العناية الالهية :

- لماذا لم تشأ ذلك السماء ؟ آه لو كنّا التقينا ! . . .

- آه ! لو كنت صبيّة أكثر ! تنهّدت .

- لا ! لو كنت أنا أكبر قليلاً !

ويتصوّران حياة عاشقة فقط ، كثيرة الغنى للمء الوحدة

الأكثر وساعة ، فائضة بالأفراح ، مزدرية كل الشقاء ، وتنقضي

الساعات في مساة طويلة ، كان بالامكان عمل أي شيء متألّق

ورفيع كما اختلاج النجوم .

يكادان ، دائماً ، يكونان في الهواء الطلق في أعلى الدرج .
تتطاول أمامهما ، رؤوس الأشجار ، وقد أرهقها الخريف ، بغير
تساوٍ ، حتى طرف السماء الشاحبة ، أو يذهبان إلى طرف الجادة
عبر سرادق كلِّ أثنائه كنبه من كتّان رماديّ . تَبْقَعُ المرأة نقاط
سود ، تنثر الجدران رائحة عفنة ، - ويبقيان هناك يتحدثان عن
حالهما ، عن الآخرين ، عن أي شيء ، بانسراح أحياناً ، تبدو
أشعة الشمس ، المخترقة حصيرة النافذة ، من السقف إلى
البلاط ، كأوتار قيثارة ، فتدور ، في هذه القضبان النورانية ،
ذرات غبار . تروح تتسلّى في أن تحرقها بيدها . - يسكها
فريدريك ، بلطف ، ويتأمل تشبيك عروقها ، برّغلات جلدها ،
شكل أناملها . كلاً من أصابعها ، لوحده كان أكثر من شيء ،
يكاد يكون إنساناً .

أعطته قفازاتها بعد محرمتها بأسبوع . صارت تناديه
« فريدريك » ، يناديا « ماري » ، وإذ هو يعبد هذا الاسم ،
يقول إنه يتقصّد أن يتنفّسه في ذهوله ، الذي يبدو يحوي غيوم
بخور ، نثير ورود .

توصّلا إلى تحديد مسبق ليوم زيارته ؛ وإذ تخرج ، كما في
صدفة ، تمشي أمامه في الطريق .

لم تكن تفعل شيئاً لتثير حبه ، ضائعة هي في هذه اللامبالاة
التي تطيع السعادات الكبرى . ظلت ترتدي ، طوال الفصل ،
مبدلاً من حرير داكن ، مزخرفاً بمخمل مشابه ، إنه ثوب واسع
ملاثم ليونة حركاتها ورزانة مظهرها . من جهة أخرى ، هي

تلامس مرحلة نضج النساء ، مرحلة التفكير والحنان معاً ، حيث أنّ النضج الذي يبدأ ، يلون النظر بشعلة أعمق ، حين تمتزج قوة القلب بتجربة الحياة ، وفي نهاية التآلق ، يفيض المرء كله بغنى في تناسق جماله . ولا مرة كانت ألطف ، ولا أكثر حلماً . تستسلم إلى شعور يبدو لها حقاً مكتسباً بسبب آلامها ، واثقة من أنها لن تضعف . زد على أن هذا ، طيباً كان وجديداً للغاية ! يا للهوّة بين فظاظة أرنو وولع فريدرىك !

كان يخشى من أن يفقد ، بكلمة ، كل ما كان يظن نفسه ربحه ، قائلاً لذاته إنه يمكن تملك مناسبة ، ثانية ، ولا نقع ثانيةً في بلاهة . أرادها تهب نفسها ، ولم يُرد أخذها . يبهجه حبها اليقيني كتذوق قبلي للامتلاك ، وسحر شخصيتها يلقى قلبه أكثر من حواسه . كانت غبطة لا محدودة ، نشوة عظيمة ، فنسي ، حتى ، إمكان سعادة مطلقة . بعيداً عنها ، تفترسه شهواته المتفجرة .

ويا لسرعة ما صار يحدث في محاوراتها مسافات صمت شاسعة . نوع من الحياء الجنسي ، يجعلها ، مرات ، يحمرّان واحدهما أمام الآخر . كلّ عناية لاختفاء جبهها هي تفضحه ، ثم صار رهيباً ، لكثرة ما تملكها سلوكهما . سخط إحساسهما بسبب التدرب على هكذا كذبة . بلذّة يتنعمان برائحة الأوراق الرطبة ، يتألمان من هواء الشرق ، يغشاهما غضب لا مبرر له ، هواجس مآثمية . يسبب لهما ، وقع الأقدام ، وطرطقة إطار النافذة ، هلعاً كما لو أنهما مذبنان . يشعران نفسيهما مدفوعين نحو هاوية ، يحيط

بها حو عاصف ، وحين تصدر شكاوى ، من فريدريك ،
وتظلمات ، تروح تقرّ بدبها هي .
- نعم ! لقد عملت سوءاً ! إن لي مظهر غنجة ! لا تعد
أبداً !

حينها ، يكرّر العهود نفسها ، - التي كانت كل مرة ،
تستمع إليها بلذّة .

أوقفت مواجهاتها عودتها إلى باريس وهموم السنة الجديدة .
حين عاد ، كان يبدو على ملامحه شيء ، أكثر جسارة . تخرج ،
كانت ، كلّ هنيهة ، لتلقي أوامر ، وتستقبل ، بالرغم من
توسلاته ، كل البورجوازيين الذين يأتون لرؤيتها . فتسمعهم
ينقادون للحديث عن ليوتاد ، السيّد غيزو ، البابا ، فتنة بالرم
ومأدبة الدائرة الثانية عشرة الكانت توحى إليهم بانشغالات بال .
يتعزّى فريدريك ، كان ، حين يروح يطعن بالسلطة ، لأنه ، كما
ديلوريه ، يتمنّى ثورة عالمية . هو ساخط الآن إلى هذا الحدّ . من
جهتها ، السيّد أرنو تكمد .

كان زوجها غارقاً في الهوس ، ينفق على عاملة في المصنع ،
تلك التي يدعوها البرّذويّة . السيّد أرنو بنفسها أخبرت فريدريك
بهذا . أراد أن يرى ، في هذا ، حجة « لأنه
بخونك » .

- أوه ! بتّ لا أقلق أبداً ! قالت .
بدا له هذا التصريح تأكيداً كاملاً لحميمتهما . هل هذا
يريب أرنو ؟

- لا ! حتى الآن !

روت له ، أنه ، ذات مساء ، تركها وحيدتين ثم عاد ، بعد ان استرق السمع من وراء الباب ، وبما انها يتحدثان كانا ، على أمور مختلفة ، لا أهمية لها ، صار ، من حينها يحيا بثقة تامة .

- وعن حق ، اليس كذلك ؟ قال فريدريك بمראה .

- بلى ، بدون شك !

كان الأجدر ألا تجازف بمثل هذه الكلمة .

ذات يوم ، لم تكن في البيت ، في الساعة المعهودة لمجيئه ، كان الأمر ، بالنسبة اليه ، خيانة .

وغضب فيما بعد لرؤيته الأزهار الكان يحملها ، موجودة دائماً في كأس ماء .

- أين تريد ، إذن ، أن تكون ؟

- أوه ! ليس هنا ! فضلاً عن انها ، هنا ، ببرودة أقل مما

هي على قلبك .

بعد فترة ، لامها لكونها ذهبت الى المسرح بدون أن تقول له . لربما رآه سواء وأعجبوا بها وأحبوها . كان فريدريك يصبر على هواجسه فقط ليخاصمها ، ليؤرقها ، هو بدأ يكرهها ، وهذا ، أكيداً ، الأقل الذي لحق بها من آلامه !

فاجأها ، بعد ظهر يوم ما (حوالى منتصف شباط) شديدة التأثير . كان أوجين يشكو من مرض في حلقه . مع ان الطبيب طمأنها ، كان ، إلى أن الأمر بسيط ، زكام ، عجب فريدريك لظهر الصبي الذاهل . مع ذلك طمأن أمه ، ذكر ، كمثل ،

- أطفالاً كثيرين من عمره ، مثله أصيبوا وبسرعة شفوا .
 - حقاً ؟
 - طبعاً بالتأكيد !
 - أوه ! كم أنت طيّب !
 وأخذت يده . حضنتها .
 - أوه ! أترك يدي .
 - لا عليك ، طالما أنك تعطينها للمؤاسي ! ... تصدّقي
 تماماً في هذه الأمور ، وتشكّين بي ... حين أحدثك عن حبّي !
 - لا أشكّ أبداً ، يا عزيزي المسكين !
 - لمّ هذا الارتياب كما لو انني شقيّ يريد الافراط ! ...
 - أوه ! لا ! ...
 - لو كان لي ، فقط ، برهان ! ...
 - أيّ برهان ؟
 - الذي نقدّمه لأوّل قادم ، ذلك الذي وهبته أنا .
 وذكرّها أنها خرجا ، ذات مساء ، في غروب شتائي ،
 والطقس ضباب . كل هذا كان مضى من زمان ! فمن يمنعها ،
 اذن ، من أن تظهر متأبّطة ذراعه ، أمام الجميع ، بلا خوف
 منها ، بلا ظنّ منه هو ، ولا أحد حولهما يزعجهما ؟
 - فليكن ! قال بشجاعة في التقرير أدهشت ، أوّل الأمر ،
 فريدريك لكنه بحيويّة أجاب :
 - تريدان أن أنتظرك في زاوية شارع « برونشيه » وشارع
 « دي لافيرم » ؟

- يا الهي ! يا صديقي ... تمت السيّد أرنو .
 أضاف بدون أن يفسح لها مجال التفكير :
 - أفترض الثلاثاء القادم ؟
 - الثلاثاء ؟
 - نعم بين الثانية والثالثة !
 - سأكون حاضرة !
 وبحركة خجل ، أدارت وجهها . قبل فريدريك عنقها .
 - أوه ! ليس هذا حسناً ، قالت . تجعلني أندم .
 انفصل عنها ، إذ خشي تقلّب النساء المعتاد . ثم همس ،
 على العتبة ، بلطف ، كشيء متفقٍ عليه تماماً :
 - إلى الثلاثاء !
 خفّضت عينها الجميلتين بطريقة محتشمة ومستسلمة .
 كان فريدريك صمّم على أمر .
 يأمل ، أنه ، بفضل المطر أو الشمس ، سيتمكن أن يوقفها
 تحت باب وحين هي هكذا ، ستدخل البيت الصعب ، هو
 اكتشاف بيت مناسب .
 راح يبحث ، وحوالي منتصف شارع « ترونشيه » ، قرأ ،
 من بعيد ، على لافتة : « شقق مفروشة » .
 إذ فهم الصبي قصده ، أراه ، للحال ، في « الدور
 المسروق » * ، غرفة وغرفة منفصلة مع مخرجين . حجز فريدريك

* دور منخفض فوق الدور الأرضي .

لشهر ودفع سلفاً .

ثم ذهب الى محلات ثلاثة يشتري العطر الأكثر ندرة . تزود بقطعة تخريم مقلد ليبدل غطاء السرير المقيت المن قطن أحمر ، انتقى زوج خف من ساتان أزرق . وحده ، الخوف من أن يبدو فظاً جعله يتروى في مشترياته ، عاد بها : - وبورع يفوق تقوى محضري المذايح لزياح القربان ، بدّل أمكنة الأثاث ، ثنى بنفسه ، الستائر ، وضع خلنجاً على المدفأة ، بنفسجاً على الصوان ؟ أراد لو يستطيع يبلط الأرض بالذهب . « غداً ، قال في نفسه ، نعم ، غداً ! لأحلم أنا » . وأحسّ قلبه يخفق بضربات قوية بتأثير هذيان أمله ، وإذا تمّ كل شيء ، وضع المفتاح في جيبه ، كما لو ان السعادة التي تنام هنا يمكنها ان تهرب .

حين عاد ، كانت تنتظره رسالة من أمّه .

« لمّ هذا الغياب الطويل ؟ بدأ سلوكك يظهر شاذاً . أفهم أن تكون ، إلى حدّ ما ، ترددت أول الأمر أمام هذا الزواج ، مع ذلك ، فكّر ! » .

وكانت تحدّد الأشياء : دخل خمسة وأربعين ألف ليرة . وفوق ذلك ، سيُحكى فيه . والسيد روكّ ينتظر جواباً نهائياً . وبالنسبة للصبيّة ، فوضعها ، فعلاً ، مقلق . « هي تحبّك كثيراً » .

رمى فريدريك الرسالة من دون ان ينهيها ، وفضّ أخرى ، إنها من ديلاوريه .

« عزيزي ،

« الاجاصّة نضجت ، وبحسب وعدك ، نعوّل عليك
نجمع عليك . نجتمع غداً عند طلوع الشمس ، في ساحة
البانتيون . أدخل مقهى سوفلو . عليّ أن أتحدّث اليك قبل
المظاهرة » .

« أوه ! أعرفها ، مظاهراتهم . الف شكر ! عندي موعد
الطف » .

ومنذ الحادية عشرة ، من الغد ، كان فريدريك خرج .
يريد يلقي نظرة أخيرة على الاستعدادات ، ثم ، من يدري ،
يمكن ان تكون ، صدفة ، قد أنت مسبقاً ؟ » وهو يخرج من شارع
ترونيشي ، سمع ، وراءه « المادلين » ، جلبّة كبيرة ؛ تقدّم فلاحظ
في آخر الساحة الى الشمال ، أناساً بقمصان فضفاضة
وبورجوازيين .

في الواقع ، كان بيان نشر في الصحف دعا ، إلى هذا
المكان ، كل المكتتبين في الوليمة الاصلاحية . لكنّ الوزارة
سارعت في بلاغ وأعلنت منع ذلك . والمعارضة النيابية عدلت في
المساء عن موقفها ؛ لكنّ المواطنين والذين كانوا يجهلون قرار
الرؤساء هذا ، جاؤوا الى الموعد يتبعهم عدد كبير من
الفضوليين . وفد من المدارس حمل نفسه ، بعد قليل ، عند
أوديلون بارو . هو ، الآن ، في الشؤون الخارجية ؛ ويجهلون ان
كانت المأدبة ستقام ، ان كان الحكم سينفذ تهديده ، إذا كان
الحراس الوطنيون سيحضرون . غاضبون هم ضد التواب كما ضد
السلطة . كانت الجموع تتزايد أكثر فأكثر حين ، فجأة ، ارتجّ في

الفضاء نشيد « المارسيّاز » .

إنهم الطلاب وصلوا . يمشون ، على صفين منتظمين ،
ساخطي المظهر ، عراة الأيدي جميعهم يهتفون :
- عاش الاصلاح ! ليسقط غيزو !
أصدقاء فريدريك هم ، طبعاً ، هنا . سيرونه يأخذونه
معه . بنشاط مال الى شارع « الأركاد » .

بعدما دار الطلاب دورتين حول « المادلين » ، نزلوا صوب
ساحة الكونكوردد . كانت مملأى بالناس . تبدو فيها الجموع ، من
بعيد ، حقل سنابل سوداء تترجّح .
في الوقت نفسه ، اصطف جنود من الجيش في وضع
قتالي ، الى شمال الكنيسة .

مع هذا ، توقفت الجماعات . وينتهي الأمر ، راح رجال
الشرطة يوقفون الأكثر تمرداً ويصحبونهم ، بعنف ، الى مكتب
الشرطة . ظل فريدريك صامتاً ، بالرغم من غضبه ، يأخذونه مع
الآخرين ويخسر السيّد أرنو .

بعد قليل ، ظهرت خوذ موظفي المجلس البلدي . راحوا
يضربون حوليهم مهتدين بالسيف . وقع حصان ، خفوا
يسعفونه ، وحين صار الفارس على السرج ، هربوا جميعاً .
ساد صمت طويل . توقف الرذاذ الذي كان بلل الطريق .
اسرعت غيوم راح يكتسها بفتور هواء الغرب .
طفق فريدريك يطوف شارع « ترونشيه » ، متطلعاً أمامه
ووراءه .

صارت الثانية .

- آه ! قال في نفسه ، « الآن هي تخرج من بيتها ، انها تقترّب » ، وبعد هنيهة : « كان لديها الوقت لتصل » . حتى الثالثة ، ظل يحاول تهدئة نفسه . « كلاً ، لم تتأخر ؛ قليلاً من الصبر » !

ولأن لا عمل لديه ، راح يتأمل المحلات القليلة : مكتبة ، سراج ، مخزن ثياب حزن . سريعاً ما عرف كل أسماء المؤلفات ، كل عدة الرجل ، كل أنواع الأقمشة . عجب التجار ، أول الأمر ، لكثرة ما رأوه يمرّ ويعود ، ثم خافوا ، فأقفلوا واجهاتهم . لقد أخرها ، ولا شك ، عائق ما ، وهي تتألم منه . إنما ، يا للفرح بعد لحظة ! - لأنها سوف تأتي ، هذا أكيد ! « هي وعدتني بذلك ! » مع ذلك ، استبدّ به قلق لا يطاق .

عاد الى الفندق ، لا يعرف لماذا ، كأنها يمكن ان تكون فيه . لربما هي ، في اللحظة نفسها ، وصلت الى الشارع . قذف نفسه خارجاً . لا أحد ! وراح يقرع الرصيف من جديد .

صار يراقب نقوب البلاط ، فم الميازيب ، الشماعدين ، الأرقام فوق الأبواب . وصارت الأشياء ، الأصغر رفاقاً له ، بالأحرى مشاهدين ساخرين ، وبدت له واجهات البيوت المتشابهة ، لا تُحتمل . تألم من البرد في قدميه . أحسّ أنه يذوب ضنى . صوت خطواته يرنج له دماغه .

حين رآها صارت الرابعة في ساعته ، شعر بدوخة ، برعب . حاول ان يردّد أشعاراً ، يحسب مطلق شيء ، يخترع

حكاية . انه لمستحيل ! فصورة السيّدة أرنو تمتلكه . وّد لو يركض
للقائها . إنّما أي طريق يسير فيه ، خوف ألا يتلاقيا ؟

اقترب من عميل ، نقده خمسة فرنكات ، وسأله الذهاب
الى شارع الفردوس ، عند جاك أرنو ، والاستعلام من البوّاب
« إذا السيّدة في البيت » . ثم انزاع في زاوية شارع « دي
لا فيرم » و« ترونشيه » ، بطريقة يرى فيها ، بتتابع ، في
الشارعين . عند آخر ما يراه ، على البولفار ، تمشي جموع غير
واضحة كأنها تزلق . أحياناً يرى عفرة خوذة جندي خيال كأنها
قُبعة امرأة . ويوسّع حدّقيه ليعرفها . تقدم منه ولد رث الثياب
يحمل مرموطاً * في صندوقه ، وسأله صدقة وهو يبتسم .

عاد رجل السترة المخملية . « لم يرها البواب تخرج » . من
يؤخرها ؟ لو أنها مريضة لقال ! هل هي زيارة ؟ ليس أسهل من
أن لا تستقبل . خبط جبهته .

- « آه ! غبي أنا ! هو الهياج الشعبي ! . . . هذا التفسير
الطبيعي هذّاه . ثم ، فجأة ، لكنّ حيّها هادىء » . وأرهقه شكّ
رهيب مقيت . « لو هي لن تأتي ؟ لو ان وعدّها لم يكن سوى كلمة
لتُبعدني ؟ لا ! لا ! » ما يمنعها ، حتماً ، صدقة غريبة ، حادث
يجب كل احتراس . إنّما ، في هذه الحالة ، كانت كتبت . وأرسل
خادم الفندق الى مسكنه ، شارع ريمفور ، ليعرف هل هناك
رسالة .

* حيوان لبون قاضم ينام طول الشتاء .

لا رسالة . سَكَن روعه غياب الأخبار .

راح من عدد قطع النقود، من مظهر المارة، من لون الشعر .
 وحين يكون التنبؤ منافيا يحاول ان لا يصدقه في غضبه المتزايد على
 السيد أرنو، شتمها بصوت خافت . ثم أصابه ضعف حتى
 الغثيان ، وفجأة ملامح أمل . سوف تظهر . هي هنا ، وراءه
 يستدير : لا شيء ! رأى ، مرة ، على بعد حوالى ثلاثين خطوة ،
 امرأة بالقامة نفسها ، بالثوب نفسه . لحقها ، لم تكن هي !

صارت الخامسة ! الخامسة والنصف ! السادسة ! أضيئت
 المصابيح ولم تحضر السيدة أرنو .

حلمت ، في الليلة السابقة ، انها كانت على رصيف شارع
 ترونشيه من زمان . تنتظر هناك أمراً ما غير محدد ، إلا أنه مهم ،
 وبدون أن تدري لماذا ، تخاف أن ترى . لكن كلباً صغيراً لعيناً ،
 مستبساً ضدها ، راح يعض أطراف ثوبها . بعناد يعود وينبح
 أعلى . استيقظت السيدة أرنو . استمر النباح . أصبحت سمعها ،
 ينبعث ، كان ، من غرفة ابنها . ركضت اليه حافية . كان الولد
 نفسه يسعل . يدها مشتعلتان ، وجهه احمر ، وصوته غريب البحة
 شاذها . يتزايد اضطراب تنفسه من لحظة لأخرى ، حتى
 الصباح ، منحنية على فراشه تراقبه .

في الثامنة جاء ضارب طبل الحرس الوطني يعلم السيد أرنو
 ان رفاقه ينتظرونه ، بسرعة ارتدى ملابسه وذهب ، واعدأ بأنه
 سيمر ، للتو ، على الطبيب ، السيد كولو . وإذ لم يصل السيد
 كولو حتى العاشرة ، أرسلت السيدة أرنو وصيفتها تستعلم .

الطبيب في رحلة الى الريف ، والشاب الحالّ مكانه غير موجود .
يحتفظ أوجين برأسه على طرف المخدة ، فاركاً ، دائماً ،
حواجه ، موسعاً منخاريه . تحوّل وجهه الصغير التعيس أكثر
شحوباً من شراشقه . ويخرج من حنجرتة صفير يحدّثه كل شهيق
وهو يقصر شيئاً فشيئاً ، ييبس ، وقد أصبح كأنه آلي . صار سعاله
يشبه ضجّة الآلات الوحشيّة التي تجعل الكلاب الكرتونية تنبح .
سيطر على السيّد أرنو هلع . ارتقت على الأجراس ، طالبة
النجدة ، صارخة :

- طبيب ! طبيب !

خلال دقائق عشر ، وصل سيّد بربطة عنق بيضاء وعوارض
رمادية ، حسن الهندام . وجّه أسئلة كثيرة عن عادات المريض
الصغير ، وعمره وطبعه ، ثم فحص حلقه . أكبّ على أوراقه
وكتب وصفة طبّيّة . كان مظهر هذا الرجل الهادئ كريهاً . يوحي
انه محنّط . أرادت ان تضربه . قال انه يعود في المساء .

سريعاً ما عادت نوبات السعال المخيفة . أحياناً ، كان
الولد يشب واقفاً ، بشكل مفاجئ . حركات تشنجية تزعزع له
عضلات الصدر ، ويتجوّف بطنه ، في زفيره ، كأنه يكاد يحنّث
لكونه ركض . ثم يقع ، رأسه الى الخلف وفمه واسع الانفراجة .
تحاول السيّد أرنو أن تجعله يتلع محتوى قوارير ، شراب عرق
الذهب* ، جرعة إثمديّة** . لكنه يُبعد الملعقة منتحباً بصوت

* جذر يقّيء .

** دواء للنفّس مركّب بخاصة من ملح الاند .

ضعيف . تحسبه ينفث كلماته .
بين وقت وآخر ، تعاود قراءة الوصفة . كانت تخيفها
ملاحظات الصيغة . لربما أخطأ الصيدلي ! يوقعها عجزها في
يأس . وصل تلميذ السيد كولو .

إنه شاب ذو ملامح متواضعة ، جديد في المهنة ، وهو لم
يخف ، أبداً ، شعوره ، لبث متأرجحاً ، أول الأمر ، خوف
المجازفة ، ثم أشار بوضع قطع ثلج على رأس الولد . طويلاً
بحثوا حتى وجدوا ثلجاً . انشق جراب الثلج . وجب ابدال
القميص . كل هذا أحدث له نوبة سعال جديدة مرعبة الازعاج .

طفق الولد ينزع البياضات عن عنقه ، كما لو هو يريد ازالة
العائق الذي يخنقه ، ويجرمش الجدار ، يمسك بستائر مرقده
الصغير ، باحثاً عن نقطة ارتكاز للتنفس . ازرق وجهه ، الآن
وبدا يهزل كل جسمه ، المبلل عرقاً بارداً ، عيناه الزائغتان تتعلقان
بأمه ، بخوف رمى بذراعيه حول عنقها ، تعلق بها بطريقة
يائسة ، همست ، وهي تدفع شهقاتها ، بكلمات حنونة :

- نعم يا حبي ، يا ملاكي ، يا كنزي !

ثم خيمت لحظات صمت .

ذهبت وأتت بالألعاب ، دمية بحدبتين ، مجموعة رسوم ،
نثرتها على سريريه لتسليه ، حاولت ، حتى ، الغناء .

بدأت بأغنية كانت تقولها له من زمان ، حين كانت تترجمه
وهي تقمطه على هذه الكرسي الصغيرة المنجدة ذاتها . لكنه
ارتجف جسده كله كموجة بتأثير تيار هواء ، جحظت عيناه ؛

حسبته سيموت ، وأشاحت كي لا تراه .

بعد لحظة ، كانت لها الجرأة لأن تنظر اليه . لا يزال يحيا .
تتابعت الساعات ، ثقيلة ، كثية ، لامتناهية يائسة . وما عادت
تحسب الدقائق إلا بمقدار تقدم هذه الحشرة . ارتجاجات صدره
تقدفه الى الأمام كأغما لحظمه ؛ تقياً ، في الأخير ، شيئاً غريباً
يشبه الورق الأصفر . ما كان ؟ تصورت أنه قطعة من أحشائه .
لكنه تنفّس بانتظام . أخافها مظهر الراحة هذا أكثر من أي أمر
آخر . كانت ذاهلة ، متدلية الذراعين ، ثابتة العينين ، حين
وصل السيّد كولور . رآيه ان الولد نجا من الموت .

ما فهمت أوّل الأمر ، وطلبت تكرار العبارة . ألم يكن الأمر
واحداً من تطمينات الأطباء ؟ ذهب الطبيب بمظهر هادئ .
ارتاحت ، حينها ، كأن الحبال التي كانت تضغط قد فُكّت .

- نجا ! معقول !؟

وفجأة ، بدت لها فكرة فريدريك بطريقة واضحة قاسية .
إنه إنذار من العناية الإلهية . لكن الرب برحمته ، لم يرد أن يعاقبها غاماً !
يا للتفكير في ما بعد ، لو هي استمرت في هذا الحبّ ! سيشتمون
ابنها ، ولا شك ، بسببها . ولمحته السيّد أرنو ، شاباً ، جريئاً في
مبارزة ، محمّلاً على نقالة ، ميتاً . فقفزت قفزة واحدة الى
الكرسي الصغيرة ؛ وقدمت الى الله ، من كلّ قواها ، متسامية
بروحها الى الأعالي ، كمحترقة ، تضحية حبها الأوّل ؛ ضعفها
الوحيد .

كان فريدريك قد عاد الى مسكنه . لا يزال في كرسيه

المريح ، ولا قدرة عنده ، حتى ، على لعنها . أخذته سنة من النوم ، وعبر كابوسه ، سمع هطول المطر ، ظاناً ، دائماً ، أنه لا يزال هناك ، على الرصيف .

في الغد أرسل - بنوبة ضعف وتحاذل أخيرة - وسيطاً عند السيِّدة أرنو .

حصل على الجواب نفسه ، إما لأن الرسول لم يقم بمهمته ، أو لأن عندها الكثير تقوله ولا تستطيع بكلمة . كانت الاهانة كبيرة . أخذه غضب كبرياء . أقسم ، في نفسه ، أنه لن يكون له ولا رغبة . واختفى حبه كورقة حملها اعصار . أحسّ براحة ، بفرح واثق ، ثم بحاجة لأعمال عنف . فانطلق في الشوارع بغير هدف .

كان رجال من الأرباض يمرّون ، مسلمين بالبنادق ، بسيوف قديمة ، بعضهم حاملاً قبعات حمراء ، وكلهم يشدون « المارسيّاز » أو « الجيرونديين » . هنا وهناك حارس وطني يستعجل ليلتحق بمقرّه . في البعيد طبول ترنّ . يتقاتلون عند بوابة سان مارتان . في الأجواء بعض مظاهر شجاعة وشراسة . لا يزال فريدريك يمشي فقد جعلته حركة المدينة الكبيرة سعيداً .

عند أعلى خراسكاتي ، رأى نوافذ « المارشالة » . طرأت له فكرة مجنونة ، نزع شباب ، فاجتاز البولفار .

كاد باب العربات يُقفل ، ودلفين ، الوصيقة ، تكتب فوقه بالفحم : « السلاح مسلم » ، فقالت له بحيوية :

- آه ! سيّدتي في حالة سيئة ! فقد طردت هذا الصباح

خادمها الذي كان يهينها . هي تظن أنهم سينهبون أينما كان . تكاد
تموت خوفاً ! وفوق هذا ، فقد فارقها السيّد !

- أيّ سيّد ؟

- الأمير !

دخل فريدريك صالون النساء الصغير . ظهرت
« المارشالة » بتّورة داخلية ، وشعرها مسترسل على ظهرها ،
مشوشة .

- آه ! شكراً ، جئت تنقذني ! هي المرة الثانية ! لا تطلب
الثمن ، أنت !

- الف عذر ! قال فريدريك ، مطوقاً خصرها بيديه .

- كيف ؟ ماذا تفعل ؟ تتمت « المارشالة » ، مفاجأة ،
وفرحة معاً لهذا الأسلوب .

أجاب :

- أتبع الدرجة ، أغبّر سيرتي .

تركت نفسها تنقلب على الأريكة ، وأكملت الضحك تحت
وابل قبلاته .

أمضيا بعد الظهر ينظران ، من نافذتهما ، الناس في
الشارع . ثم صحبها للعشاء في « التروا- فرير- بروفنسو » .
طالت المأدبة ، ولذيذة كانت . عادا سيراً على الأقدام لعدم وجود
عربة .

مع اعلان تغيير الحكومة ، تغيّرت باريس . الكلّ
فرحون ؛ منتزّهون يطوفون ، وأضواء في كلّ شقّة تحوّل الليل

نهاراً . يعود الجنود متمهلين الى ثكناتهم ، متعبين ، متكوم الحزن في وجوههم . كنت تسمع الناس يخيونهم صارخين : « يحيا الجيش ! » يكملون لا يخبون . على العكس ، في الحرس الوطني ، يلوح الضباط بسيوفهم متحمسين صارخين : « يحيا الاصلاح ! » وتضحك هذه الكلمة ، كل مرة ، العاشقين . فريدريك كان يمزح . انه فرح جداً .

وصلا عبر شارع ديفو الى الشوارع العريضة . كانت القناديل البندقية ، المعلقة في البيوت ، تؤلف زخارف نارية . يتحرك ، في أسفل ، نجمهر غامض ؛ وتلمع وسط هذا العتم في أماكن مختلفة ، رؤوس حراب . تقوم جلبة كبيرة ، فالجمهور كثير الازدحام ، العودة المباشرة مستحيلة ؛ دخلا شارع كومارتان ، وفجأة ، انفجرت وراءهما ضجة شبيهة بقرعة قطعة حرير كبيرة جداً يمزقونها . انه التراشق بالرصاص في شارع « الكابوسين » .

- أوه ! إنهم يحطمون بعض البورجوازيين ، قال فريدريك بهدوء . هناك حالات يصبح فيها الانسان الأقل شراسة ، منفصلاً تماماً عن الآخرين ، إلى حد أنه مستعد لرؤية انقراض الجنس البشري بدون خفقة قلب .

كانت تصطك اسنان « المارشالة » وهي متشبثة بذراعه . اعلنت انها باتت عاجزة عن السير ولو عشرين خطوة . حينها ، وبلباقة حاقدة وليحقر السيّد أرنو في نفسه ، اصطحبها الى فندق شارع ترونشييه ، الى الشقة التي كانت محضرة للأخرى . لم تكن ذبلت الأزهار . والتخريم قائم على السرير . أخذ

من الدرج الصغير الخفّ الصغير . رأّت روزانيت هذه المجاملات
لطيفة جداً .

استيقظت نحو الأولى على فرقعات بعيدة ، رأته يشهق ورأسه في
الوسادة .

- ما بك ، يا حيّ الغالي ؟

همس فريدريك :

- إنه فيض السّعادة . من زمان بعيد وأنا أرغب بك .



فوصى ٢٣ شاط ١٨٤٨ .

القسم الثالث

I

فجأة ، أيقظه من رقاده ضجيج تراشق بالرصاص . وبرغم
توسّلات روزانيت ، ظلّ ملحاً على الذهاب لمعرفة ما يحدث .
نزل ناحية « الشانزيله » من حيث انطلق الرصاص . وعند زاوية
شارع « سان أونوريه » ، التقاه رجال بقمصان فضفاضة
بصرخون :

- لا ! ليس من هنا ! إلى القصر الملكي !
تبعهم فريدريك . كانت انتزعت أسوار كنيسة
« الصعود » . لحظ ، في مكان أبعد قليلاً ، ثلاث بلاطات وسط
الطريق . إنها ، ولا شك ، بداية ثورة أهلية . كذلك رأى شقف
قناني ، ورزم أسلاك حديدية لعرقلة سلاح الفرسان . وفي الهنيهة
ذاتها ، انطلق ، من شارع ضيق ، شاب شاحب ، شعره الأسود
المتناثر على كتفيه ، مضموم بنوع من قماط حمصيّ . يمسك بندقية
جنديّ ، ويركض على رؤوس أصابعه كأنه مرّوبص ، ويبدو

رشيماً كفهد . كان يُسمع ، بين حين وآخر ، دويّ انفجارات . مساء البارحة غير الشعب تنظيماته بسبب مرأى الحمالة الحاملة خمس جثث لمت من بين جثث بولفار « الكابوسين » . وفي حين كانت مساعدات المعسكر تتابع في « التويلري » ، وكان السيد موليه منهمكاً في تشكيل حكومة جديدة ، والسيد تير يحاول تأليف أخرى ، وفي حين كان الملك يحاك ، يتأرجح ، ثم يسلم بوغو القيادة العامة ليمنعه من استخدامها ، كانت الثورة ، وتديرها ذراع واحدة ، تنظم بشكل رائع . راح خطباء مهتاجو الأسلوب يخطبون بالشعب في زوايا الشوارع ، آخرون يدقون ناقوس الخطر في الكنائس في وقت واحد ؛ يذيون الرصاص ، يحضرون الخرطوش ، لقد اقتلعوا وقلبوا كل شيء : أشجار الشوارع ، المبولات العامة ، المقاعد ، الأسوار ، مصابيح الطرق . . . وصارت باريس ، في الصباح ، ملأى بالمتاريس . لم تطل المقاومة ، تدخل الحرس الوطني أينما كان ؛ - حتى أن الشعب ، في الثامنة ، كان صار يمتلك ، طوعاً أو كرهاً ، خمس ثكنات ، وتقريباً كل دور الحكام ، والنقاط الاستراتيجية الأكثر أماناً . انهارت الملكية ، تلقائياً ، في انحلال سريع ، وكانوا يهاجمون مركز « قصر الماء » لتحرير خمسين سجيناً ما عادوا موجودين فيه .

توقف فريدريك ، قسراً ، عند مدخل الساحة . كانت تملأها جماعات مسلحة . تحتل سرايا من الجيش شارعي « سان توماس » و « فروماتنو » . حاجز هائل يسد شارع فالوا . انفتح

الدخان الذي كان يتأرجح في أعلاه ، تراكض رجال فوقه قائمين بحركات كبيرة ثم اختفوا . ثم عاد التراشق بالرصاص . ردّ على الرصاص المركز من دون أن يُلمح أحد في الداخل . كانت شبائيكه المحمية بمصاريع من سندان ، فيها كوى مرمى . وابتدأ البناء ، بطابقه ، بجانحيه ، بينبوعه في الأول ، وبابه الصغير في الوسط ، يتبّع بلطخات بيض بتأثير الرصاص . بقي فارغاً مدخله المثلث الدرجات .

إلى جانب فريديك ، رجل بقبّعة يونانية حاملاً جعبة فوق سترته الصوفية ، هو يتخاصم مع امرأة مغطاة بمدراس . كانت تقول له :

- إرجع ! إرجع !

- دعيني وشأني ! أجاب الزوج . يمكنك ، وحدك ، مراقبة البيت . أيها المواطن ، إنني أسالك ، أمعقول ؟ قمت بواجبي في كلّ مكان ، في ١٨٣٠ ، في ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٩ ! اليوم قتال ، فيجب أن أقاتل ! إذهي أنت !

وخضعت البوّابة لتحذيراته ولتحذيرات حارس وطني قريهم ، أربعينيّ ، وجهه ساذج يزينه طوق لحية شقراء . يحشو سلاحه ويطلق النار ، متحدّثاً مع فريديك . وهو هاديء وسط الفتنة كبستاني في حديقته . أخذ يتملّقه شاب لابس جنفياً ليحصل على كبسولات ليستعمل بندقيته ، غدارة صيد جميلة أعطاه إياها « سيّد ما » .

- تمسّك بظهري أنت ، قال البورجوازي ، واحتم !

سُتَقْتَل !

تدق الطبول للحشد . ترتفع صرخات حادة ، صيحات الانتصار . هيجان دائم يهزّ الجمهور . لم يكن فريدريك يتحرك ، مأخوذاً بين جماعتين غامضتين ، زد على أنه مفتون ولاه إلى حدّ فائق . لم يكن للجرحى الذين يقعون ولا للموتى الممددين ، شكل جرحى حقيقيين أو موتى . بدا له أنه يحضر مسرحية .

شوهد ، وسط هذا التموج الهائل ، فوق الرؤوس ، شيخ في ملابس سوداء على حصان أبيض وسرج نحلي . هو يحمل ، ببدا ، غصناً صغيراً أخضر ، وبالأخرى ورقة ، ويهزها بعناد . وإذا يش من جعلهم يستمعون إليه ، انسحب .

كانت انسحبت فرقة الجيش وبقي البلديون ، وحدهم ، يدافعون عن الموقع . انقضّت على المدخل موجة من أصحاب البسالة ، هُزموا ، وصل سواهم . وتخلخل الباب ، مرتجاً تحت ضرب قضبان الحديد . ما استسلم المدافعون . لكنّ مركبه محشوة حشيشاً تشتعل كمشعال هائل ، جُرّت صوب الجدران . وبسرعة جيء بحزم حطب ، وقش ، وبرميل . التهمت النار كل الحجارة ، صار يتصاعد الدخان من كل البناء كأنه منجم كبريت . تصاعد لهب هائل بصوت حارّ ، في أعلى ، من بين أعمدة الدربزين . كان يسكن الطبقة الأولى من القصر الملكي حراس وطنيون . تُطلّق النيران من كل نوافذ المكان ؟ تصفر الرصاصات ، اختلطت مياه الينبوع المشقوق بالدماء ، وراحت تؤلف بركاً في الأرض . كنت تراهم يزلقون في الوحل ، يطرطش

الثياب ، قبعات الجنود ، السلاح . شعر فريدريك بشيء رُخو تحت قدمه ، كانت يد رقيب بمعطف رمادي ، ملقى ووجهه في المياه والوحل . ظلت تصل زمر جديدة من الشعب ، دافعة المقاتلين إلى المركز . صار التراشق بالرصاص أسرع . محلات بائعي الخمر مفتوحة كانت . فهم يذهبون ، بين وقت وآخر إليها ، يدخنون غليوفاً ، يشربون كأس بيرة ، ثم يعودون للقتال . سُمع كلب ضائع يعوي . وهذا مما أثار الضحك .

اهتز فريدريك ، صدم برجل أصابته رصاصة ووقع على كتفه محسراً . أحس حينها بالنقمة ، لكان هذه الرصاصة موجهة إليه . واندفع إلى الأمام ، أوقفه حارس ، قال :

- هذا غير مجد ! لقد خرج الملك منذ هنيهة . آه ! إذا لم

تصدقني فاذهب وانظر !

مثل هذا التأكيد طمأن فريدريك . كانت ساحة الكاروسيل هادئة . لا يزال قائماً فيها ، منفرداً ، فندق « نانت » . والبيوت إلى الراء ، وقبة اللوفر المواجهة ، ممر الغابة الطويل إلى اليمين ، وهكذا الأرض البور التي كانت تتموج حتى أكواخ عارضني السِّلَع ، جميعها كانت غارقة في لون الهواء الرمادي ، حيث تمتزج هينمات بعيدة من الضباب ، - بينما ، في طرف الساحة الآخر ، يقطع ، بدقة ، الضوء الساطع الهابط عبر انفراج الغيوم على واجهة التويلري ، إلى بياض ، كل النوافذ . قرب قوس النصر حصان ميت ، ممدد . وخلف الأسوار ، جماعات من خمسة أو ستة أشخاص يتحدثون . كانت أبواب القصر مفتوحة ، والخدام على

الأبواب يفسحون في المجال للدخول .

في غرفة صغيرة في الأسفل ، قُدمت قهوة بالحليب . جلس بعض الفضوليين إلى الطاولات وهم يمزحون ، بقي الآخرون واقفين وبينهم حوزي ومركبة خيل . أخذ ، بيديه كلتيهما ، قممًا مليئًا سكرًا ، تلفت يمنة ويسرة بنظرة حائرة ، ثم راح يأكل بشهية متعاطمة ، وأنفه غارق في الوعاء . عند أسفل الدرج الكبير ، رجل يسجل اسمه في سجل . عرفه فريدريك من وراء .

- عجباً ، هيسونيه !

- أجل ، أجباب البوهيمي . أدخل نفسي في البلاط .

أليست مزحة جيدة ؟

- أتريدنا أن نصعد ؟

ووصلا إلى قاعة الجنرالات . جميع رسومهم لم تُصَب بأذى ، باستثناء رسم بوغو وقد أصيب ببطنه . تراهم متكئين إلى سيوفهم ، وراءهم ركيزة مدفع ، وفي وضعيات رائعة يُقسمون مع المناسبة . كانت الساعة الأولى والدقيقة العشرون كما تشير ساعة حائط كبيرة .

فجأة ، دوى نشيد المارسيّاز . انحنى هيسونيه وفريدريك على الدرابزون . إنه الشعب ، أسرع في الدرج ، هازأً بحركات مدوخة ، رؤوساً عارية ، خوذاً قُبعات حمراء ، رماحاً وأكتافاً ، باندفاع إلى حدّ أن منهم من كانوا يختفون في هذه الكتلة المتحرّكة ، التي كانت تصعد ، دائماً ، كنهر يدفعه مدّ الاعتدال ، بخوار طويل بتأثير اندفاع لا يُغلب . انتشر الشعب في عل ،

وسقط النشيد .

ما عاد يُسمع سوى وقع الأقدام وصخب الأصوات .
اكتفى الجمع المسلم بالنظر . إنما ، بين وقت وآخر ، يحطم مرفق
زجاجاً ، أو إناءً ، أو هو يوقع ، عن منضدة مزخرفة ، تمثالاً
صغيراً . يقطع خشب التغطية وقد ضُغِط . كل الأوجه حمراء ،
ومنها يتصبب العرق نفاطاً كبيرة . أسر هيسونيه بهذه الملاحظة :
- لا يشم الأبطال جيداً !

- آه ! قال فريدريك ، مزعج أنت .

ودخلا ، مدفوعين بالرغم منها ، شقة في سقفها قبة مخملية
حمراء . يجلس ، على العرش ، في الأسفل ، بروليتاري ذو لحية
سوداء ، قميصه مفتوح ، مظهره جذلان وأبله كما تمثال . يصعد
آخرون السلم ليجلسوا مكانه .

- يا للوهم ! قال هيسونيه . هكذا الشعب السيّد !

رُفِع الكرسيّ المريح على امتداد الأيدي ، واخترق كل
الغرفة متأرجحاً .

- تَبّاً له ! كيف يترنح ! مركب سفينة الدولة مؤار فوق بحر

عاصف ! إنه يُطَبط . إنه يُطَبط !

اقتربوا به من نافذة ، وقدفوه ، وسط الصغير .

- يا للشيوخ المسكين ! قال هيسونيه إذ رآه يقع في الحديقة ،

حيث نُحِل ، من جديد ، بحيويّة ، ليتنزّه حتى الباستيل ويُحرق .

حينها ، تفجّر فرح جنوبي ، كما لو أنه ، بدلاً من العرش ،

ظهر مستقبل لا محدود من السعادة ، وكسر الشعب ، ومزّق المرايا

والستائر ، الثريات ، الشماعدين ، الطاولات ، الكراسي ،
المقاعد ، الأثاث كله ، حتى البومات الرسوم و سلال الجنود . كل
هذا تأكيداً لملكه أكثر منه انتقاماً . بما أن الانتصار قد حصل ،
فيمكن أن يتسلّوا ! لبس الأوباش زياً غريباً ساخراً من الدانتيل
والكشمير . لُفّت أهداب الزينة الذهبية على أكمام القمصان
الواسعة ، زينت قبعات ريش النعام رؤوس الحدادين ، وجُعِلت
أوسمة جيش الشرف أحزمة للبغايا . كلّ راح يرضي نزوته ،
بعضهم يرقص ، ويشرب بعض آخر . تلمّع امرأة ، في غرفة
الملكة ، عصابات رأسها بالمرهم ، هاويان يلعبان الورق خلف
ستار ، أشار هيسّونيّه إلى فريدريك يدلّه على شخص يدخّن
غليونه القصير متكئاً على شرفة ، وضاعف الهيجان الضجة
المستمرة للبورسلان المحطّم ، وقطع الكريستال التي تردّد صداها
طافرة كصفائح الهرمونيكّا .

ثم تكذّر الهيجان . فضولية داعرة جعلتهم ينقبّون في كلّ
الغرف ، في كلّ خلوة ، يفتحون كلّ الأدراج . أغرق محكومون
بالأشغال الشاقة أيديهم في مضاجع الملكات ، وراحوا يتقلّبون
فوقها ، عزاء لهم ، لكونهم ما استطاعوا اغتصابهنّ . آخرون ،
راحوا يتسكعون ، بوجوه أكثر عبوساً ، صامتين ، باحثين عن
سرقة أي شيء ، لكن الجموع كثيرين كانوا . ما كنت تلاحظ ،
من فتحات الأبواب ، في صفّ الشقق المتتالية ، إلّا كتلة الناس
الداكنة بين الأشياء المذهّبة ، تحت غيمة من غبار . كل الصدور
لاهثة كانت ، تصير الحرارة خانقة أكثر فأكثر ، وإذا خاف

الصدیقان الاختناق ، خرجا .

كانت تنتصب في غرفة الانتظار ، عاهرة ، مقلدة تمثال الحرية ، جامدة ، مفتوحة العينين ، مخيفة .

ما إن تقدما ثلاث خطوات في الخارج ، حتى وصلت فصيلة من الحراس البلديين بمعاطفهم ، تقدموا نحوهما ، وخلعوا قبعات رجال الشرطة ، كاشفين ، معاً ، عن صلع جماجمهم ، وحيوا الشعب باحترام كبير . تغطرس المتصرون ذوو الثياب الرثة عند شهادة الاحترام هذه . فرح بهذا أيضاً هيسونيه وفريدريك .

لقد أثارتهما حماسة . فعادا إلى القصر الملكي . كانت تكدست جثث جنود على القش في شارع فرومنتو . مرّاً قربها هادئي الأعصاب ، فخورين حتى بأنها أظهرها رباطة جأش .

كان القصر مكتظاً بالناس . في الساحة الداخلية سبع محرقات تشتعل . كانوا يرمون عبر النوافذ ، بيانوات ، صوانات وساعات جدران . كانت مطافئ تضخ المياه حتى السطوح . يحاول أوغاد قطع قساطل بسيوفهم . جعل فريدريك بوليتكنيكياً يتدخل . بدا هذا غيباً ، لم يفهم . واستسلم الرعاع ، في الرواقين ، وهم أسياد الأقبية ، إلى شراة مخيفة . سال الخمر سواقي ، غطي الأقدام ، راح السوقه يشربون من قعر القناني ويصرخون مترنحين .

قال هيسونيه :

- فلنخرج من هنا ، يقرفني هذا الشعب .

وعلى امتداد ممر أورليانز ، جرحى ممددون أرضاً على فرش ،

أغطيتهم ستائر قرمزية . وتجلب لهم بورجوازيات صغيرات من
الحي حساء ، ثياباً .

قال فريدريك :

- لا نأس ! أنا أجد الشعب رائعاً .

كان الدهليز الكبير مليئاً بأناس غاضبين . رجال يريدون
الصعود إلى الطوابق العليا للاجهاز على كل شيء ، وحراس
وطنيون ، على الدرج ، يحاولون جاهدين منعهم عن ذلك .
أجراهم كان صياداً ، حاسر الرأس ، شائك الشعر ، متناثر
حمالات السلاح . قميصه كانت نائثة بين بطلونه وثوبه ، ويقاقل
مستبسلاً وسط الآخرين . عرف هيسونيه ، وهو ثاقب البصر ،
من بعيد ، أرنو .

بعدها انتقلا إلى حديقة التويلري ليكونا بحريتهما أكثر .
جلسا على مقعد ، وظلا ، لدقائق ، مغمضي الجفون ،
ضائعين ، إلى حد لم يكونا قادرين على الكلام . كان المارة
يتصادمون من حولهما . سُميت دوقة أورليانز وصية ، انتهى كل
شيء ، ورأيتهم يشعرون بهذه النشوة التي تلي النهايات السريعة ،
في حين ظهر خدم ، في كل سقيفة من القصر ، ممزقين بذلات
الخدم عليهم . يرمونها في الحديقة علامة التوسل . صاح الشعب
بهم ساخراً ، فانسحبوا .

لفت انتباه فريدريك وهيسونيه قبضاي يمشي بحيوية بين
الأشجار ، وبندقية على الكتف . تحزم سترته الحمراء على
خصره ، جعبة خرطوش ، تلفت على جبينه ، تحت كاسكيتيه ،

محرمة . أدار رأسه . إنه ديسردييه ، وقال ، مرتباً في أحضانها :
- آه ! يا للسعادة ، يا صديقي العزيزين !

وعجز عن قول أي شيء آخر ، لكثرة ما هو يلهث فرحاً
وتعباً .

لا يزال واقفاً منذ ثمان وأربعين ساعة . كان عمل في الحَيِّ
اللاتيني ، قاتل في شارع رامبوتو ، أنقذ ثلاثة جنود خيالة ، دخل
التويلري مع رتل دونويي ، بعدها إلى مقر الوزارة ثم إلى دار
البلدية .

- ها أنذا آت من هناك ، للتو ! كل شيء على ما يرام !
الشعب ينتصر ! العمال والبورجوازيون يقبلون بعضهم بعضاً !
آه ! لو كتبنا تعرفان ماذا رأيت ! يا للناس الطيبين ! يا له من أمر
جميل !

وبدون أن يلحظ أنها من غير سلاح :
- كنت واثقاً أنني سأجدكما هنا ! كان الأمر صعباً في وقتٍ
ما ، لا بأس !

سالت على خده نقطة دم ، وردّ على سؤالها ، قال :

- أوه ! لا شيء ! خدش رمح !
- مع ذلك يجب أن تعتني بنفسك .
- باه ! قوي أنا ! ماذا يؤثر هذا ؟ لقد أعلنت الجمهورية !
سنكون سعداء بعد اليوم . كان يتحدث صحفيون أمامي ، من
لحظة ، قالوا إننا سنحرر بولونيا وإيطاليا ! لا ملوك من بعد ! كل
الأرض حرة ! كل الأرض حرة !

وفتح ذراعيه بوضعية منتصر ، وملفتاً إلى الأفق ، لكن
صف رجال كانوا يركضون على الرصيف قرب الماء .

- آه ! يا للشيطان ! كدت أنسى ! الأقوياء مشغولون .
عليّ أن أذهب ! الوداع !

استدار ليهتف إليهما ، وهو يلوح ببندقية :

- فلتحيا الجمهورية !

كانت ترتفع من مداخل القصر أعاصير من دخان أسود
تحالطها شرارات . ويبدو صوت الأجراس ، في البعد ،
كتأوهات مذعورة . وفي كل مكان ، يميناً وشمالاً ، يطلق
المنتصرون النار . وبالرغم من كون فريدريك ليس محارباً ، فقد
أحسّ بشورة دمه الغالي . أخذته مغناطيسية الجماهير المتحمسة .
راح يتنشق ، بلذة حسية ، الهواء العاصف مليئاً بروائح البارود ،
وفي هذا الوقت كان يرتعش بتأثير دفقات حب كبير ، حنان فائق
وشامل ، كما لو أن قلب الانسانية كلها ينبض في صدره .

قال هيسونيه متائباً :

- ربما آن الأوان ، للذهاب لتثقيف السكان !

تبعه فريدريك إلى مكتبه ، في ساحة البورصة . هو ، راح
يكتب لجريدة « تروا » عن الأحداث بأسلوب غنائي ، كانت مقالة
جيدة وقّعها . ثم تعشياً معاً في مطعم . كان هيسونيه ، مطرقاً .
فاقت غرائب الثورة غرائبه هو .

حين عاد ، بعد القهوة ، إلى دار البلدية لمعرفة الجديد ،
كان الخادم المعتاد قد عاد إلى الأعلى . تسلى الحواجز كما ظني

الجلب ، واستجاب إلى الحراس بدعابات وطنية .
وعلى ضوء المشاعل ، سمعا إعلان تشكيل الحكومة المؤقتة . أخيراً ، عند منتصف الليل ، عاد فريدريك إلى بيته وقد أنهكه التعب .

- وبعد ، قال لخدمته وهو يساعده في خلع ملابسه ، هل أنت مسرور ؟

- نعم ، بلا شك يا سيدي ! لكن ما لا أحبه هو هذا الشعب المنتظم !

حين استيقظ فريدريك ، صباح اليوم التالي ، فكّر في ديبلوريه . أسرع إليه . كان قد ذهب المحامي منذ قليل وقت بعدما عُيِّن مندوباً في مقاطعة . كان وصل مساء أمس إلى وزير الداخلية في الحكومة المؤقتة « لادرو - رولان » ، وظل يلح عليه حتى أعطاه مركزاً ، رسالة . عدا ذلك ، قال البواب ، ينبغي أن يكتب الأسبوع المقبل ، ليعطي عنوانه .

بعد هذا ، ذهب فريدريك يرى « المارشالة » استقبلته بخشونة ، رآته أهملها . ذهب حقدها بسبب تأكيدات عودة السلام . كل شيء هادئ ، الآن ، ولا سبب للخوف ، أخذ يقبلها ؛ وأعلنت أنها مع الجمهورية - كما كان فعل سيادة مطران باريس ، وكما ينبغي أن تصرّح ، برشاقة رائعة الحماسة ، هيئة القضاء ، مجلس الدولة ، الجمعية ، جنرالات فرنسا ، سانغرينيه ، السيد دو فلّو ، كل البونابرتيين ، كل الملكيين ، وعدد كبير من الأورليانيين .

سريعاً كان سقوط الملكية ، إذ ، بعد زوال الدهشة الأولى ، عجب البورجوازيون من كونهم لا يزالون أحياء . بدا الاعداء بلا محاكمة لبعض اللصوص ، وقد رموا بالرصاص بدون تقديم إلى المحاكمة ، شيئاً عادلاً تماماً . وراحوا يرددون ، لفترة شهر ، عبارة « لمارتين » عن العَلَم الأحمر ، من « أنه لم يقم إلا بدوره (شان دي مارس) ، بينما العَلَم المثلث الألوان » ، الخ . . . وانتظموا ، كلهم ، تحت ظلّه ، لا يرى في ألوانه الثلاثة ، كل حزب ، إلا لونه هو - واعداء نفسه ، أكيداً ، بأنه ، حين يصبح الأقوى ، سينزع منه اللونين الآخرين .

ولقد دفع الحزن والتسكع الجميع للخروج من وحدتهم ، لكون الأعمال متوقفة . وقُلل إهمال الملابس الفرق بين الطبقات الاجتماعية ، راح الكره ، انتشرت الآمال ، وامتلات الجماهير عذوبة . بدا واضحاً على الوجوه ، تكبر الحق المنتزع . وكانوا بفرحة عيد شعبي ، لم يكن شيء ، أكثر مرحاً من طابع باريس في الأيام الأولى .

كان فريدريك يأخذ « المارشالة » من ذراعها ، ويتسكّعان ، معاً ، في الشوارع . تتسلّى ، كانت ، بوريدات تزيّن العُروات ، برايات معلقة في كل النوافذ ، بملصقات ، من كل لون ، ملصوقة على الجدران ، وترمي ، بين مكان وآخر ، بعض مالٍ في صندوق الاعانات للجرحى ، ومركز ، هو ، على كرسيّ وسط الطريق . ثم تروح تتوقف أمام رسوم كاريكاتورية تمثل لويس - فيليب حلوانياً ، بهلواناً ، كلباً ، مصاص دماء .

لكن رجال « كوسيدير » ، كانوا يخيفونها ، إلى حدّ ما ، بسيوفهم وحملاتهم . أحياناً أخرى ، تراهم يزرعون شجرة الحرية . والسادة رجال الاكليروس يسهمون بالاحتفال ، مباركين الجمهورية ، يرافقتهم خدم ذوو شرائط من ذهب ، والجمهور يرى هذا حسناً جداً . والمنظر الشائع كان رؤية وفود ذاهبة إلى دار البلدية تطلب أمراً ما ، لأن كل مهنة ، كل مصنع ، ينتظر كان ، من الحكومة ، النهاية الجذرية لشقائه ، كذلك صحيح أن بعضهم كان يأتي لتقديم النصح ، أو التهنة ؛ أو فقط لمجرد زيارة قصيرة ورؤية دوران الآلة .

ذات يوم ، نحو منتصف آذار ، وفريدريك يجتاز جسر الأركول لينفذ مهمّة لروزانيت في الحيّ اللاتيني ، رأى صفّاً من أناس بقبعات غريبة ، ولحي طويلة ، يتقدّم . في الطليعة يمشي زنجي ضارباً الطبل ، وهو موديل قديم في محترف ، والرجل الذي يحمل راية تحفّق عليها في الهواء هذه الكتابة : « الرّسامون الفنّانون » ، لم يكن سوى بيلران .

أشار إلى فريدريك لينتظره ، ثم عاد بعد خمس دقائق ، لأن لديه الوقت الآن ، إذ ان الحكومة تستقبل ، في هذه الأثناء ، قضايا الصخور . هو ذاهب مع زملائه لطلب تأسيس ميدان للفن ، شكل من سوق يناقشون فيه مواضيع الفن . تنتج عن هذا أعمال رائعة ، إذ الجميع يفيدون من مواهب بعضهم البعض . وقريباً تصبح باريس مغطاة بتمائيل رائعة يزخرفها ، ولقد بدأ ، حتى ، بواحد يمثل الجمهورية . جاء واحد من رفاقه يأخذه ، إذ

تَبْعَهُمْ وفد من تجار الدواجن .

- يا للسخرية ! دمدم صوت من الجماعة . دوماً هناك
دعابات ! لا شيء رسمياً !

إنه ريجمبار . لم يصافح فريدريك ، لكنه اقتنصها مناسبة
لينثر كآبته .

كان يمضي أيامه متسكعاً في الشوارع ، مداعباً شاربته ،
مبحلقاً بعينيه ، قابلاً ومعمماً أخباراً مخزنة ، وليس لديه سوى
عبارتين : « احذروا ، سوف يُطْفِئ علينا ! » ، أو : « يا
للشيطان ! إنهم يوارون الجمهورية ! » ما كان راضياً من شيء ،
وبخاصة من كونهم لم يستعيدوا الحدود الطبيعية . فقط ، إسم
لامارتين يجعله يهز كتفيه . وحين سأل فريدريك عما كان يجب أن
يحصل ، أجاب ضاغطاً له يده حتى ليسحقها :

- استعادة الرين ، أقول لك ، استعادة الرين ! يا
للعجب !

ثم شكّا ردّ الفعل .

انكشفت حقيقتهم . نهب قصور « نوبي » و « سوريسن »
حريق « الباتينول » ، اضطرابات ليون ، كل التطرفات ، كل
الشكاوى ، هم يضخمونها الآن ، مضيفين إليها نشرة « لادرو-
رولان » ، سعر أوراق النقد الالزامي ، الدخل المتراجع ستين
فرنكاً ، أخيراً ، كجور أقصى ، كضربة أخيرة ، كرع فريد ،
ضريبة الخمسة والأربعين سنتياً ! - وفوق هذا كله ، هناك
الاشتراكية ! بالرغم من أن هذه النظريات ، الجديدة كلعبة

الاورز ، كانت نوقشت كفاية ، ومن أربعين سنة ، بما يملأ
مكتبات ، فقد ظلت تروّع البورجوازيين كوابل من النيازك
الجوية . صاروا غاضبين بموجب هذا الكره الذي يحدثه مجيء أية
فكرة لأنها فكرة لعينة منها تستمد ، في ما بعد ، مجدها ، ويستج
عنها أن يصبح كل خصومها أدنى منها ، مهما بلغ بها التأخر .

إذن ، فلقد سمت الملكية إلى مستوى الدين وامتزجت
بالله . والتشنيعات التي وجهت إليها ، بدت كأنها تدنيس
المقدسات ، تكاد تكون كأكل لحم البشر . وبالرغم من التشريع
الأكثر إنسانية ، والممكن حصوله ، فقد عاد للظهور شبح سنة
٩٣ ، واهترت قِطاعة المفصلة في كل مقاطع لفظة « جمهورية » ؛ -
ما لم يكن يمنع احتقارها لضعفها . راحت فرنسا تصرخ ذعراً ،
كأعمى بدون عصا ، كطفل فقد مربيته ، إذ شعرت أنها
بلا سيد .

والذي ، من الفرنسيين ، يرتجف الأكثر ، كان السيد
دمبروز . فالوضع الجديد يتهدد ثروته ، وبخاصة يحتال على
خبرته . نظام هذه الجودة ، ملك بهذه الحكمة ! هل هذا ممكن ؟
ستتصدع الأرض ! منذ الغد ، سرح خدماً ثلاثة ، باع أخصته ،
واشترى ، للخروج في الشوارع ، قبعة هشة ، فكر ، حتى ،
بارخاء لحيته . وبقي في منزله ، واهن القوى ، متعللاً ، بمرارة ،
بالجرائد الأكثر عداء لأفكاره ، وصار كثيباً إلى حد أن الدعابات
على غليون « فلوكون » ، ما استطاعت أن تنتزع من شفثيه
بسمه .

كان يخشى ، كمناصر للنظام القديم ، انتقام الشعب من ممتلكاته في « شمبانيا » . وتذكر وهو يفكر في هذا هذيان فريدريك . فظنَّ أن صديقه الشاب رجل ذو تأثير كبير ، وان لم يكن في إمكانه خدمته ، فعلى الأقلَّ يستطيع حمايته ، بحيث انه ، في صباح ما ، ذهب إليه يرافقه مارتينون .

قال ان ليس لهذه الزيارة من هدف سوى رؤيته قليلاً والتحدّث اليه . وبعد مجاملات ، أكبَّ يظهر سروره من الأحداث ، وكان يتمسك ، من كلّ قلبه ، بـ « شعارنا الرائع : حرية ، مساواة ، أخوة ، وأنه طوال عمره ، جمهوري في الصميم » . وان كان يصوّت ، في النظام الماضي ، للوزارة ، فذلك ، بكل بساطة ، ليعجل سقوطاً لا مفر منه . وغضب ، حتّى ، على « غيزو » الذي أوقعنا في ورطة لانحسد عليها ، فلنعترف بهذا ! وبالمقابل ، فهو كثير الاعجاب بلامارتين الذي بدا « رائعاً ، بشرفي ، أما بالنسبة إلى العلم الأحمر . . . » .
- نعم ! أعرف ، قال فريدريك .

بعد هذا أعلن تعاطفه مع العمّال .
« لأننا ، أخيراً ، بطريقة أو بأخرى ، كلّنا عمّال ! » وبالف في التجرّد حتّى الاقرار بأنّ « برودون » على حق . « أوه ! حقّ كثير ! » ثم تحدّث عن معرض الرسم ، حيث رأى لوحة بيلران رأى هذا طريفاً ، وتأثّر به .

دعم مارتينون كلّ هذه الكلمات بملاحظات استحسانية ؛ هو أيضاً يفكر « في الانضمام بصراحة الى الجمهورية » ، وتكلّم

على ابيه الفلاح ، مظهراً أنه قرّوي ، رجل من الشعب . وسرعان ما آل الحديث الى انتخابات مجلس النواب ، وإلى المرشحين في دائرة « فورتيل » . ورأوا أن لاحظ المرشح المعارضة .

- يجب أن تحلّ مكانه ! قال السيد دمبرز :

احتجّ فريدريك .

- إيه ! لماذا إذن ؟

رأى أنه سينال أصوات المتطرفين ، لأرائه الشخصية ، والمحافظين بسبب انتمائه العائليّ . وأضاف المصرفيّ مبتسماً :

- لربما أيضاً ، وإلى حدّ ما ، بسبب تأثيري .

اعترض فريدريك أنه لن يعرف كيف يتصرّف .

- لا شيء أسهل ، تجعل سكّان « الأوب » يزكّونك عبر نادٍ

في العاصمة . ليس المطلوب الجهر بالرأي السياسي كما يحدث يومياً ، بل يجب عرض رصين للمبادئ .

- أنقل إليّ هذا ؟ أعرف ما يتوافق وتلك الناحية !

وستقدر ، أكرّر لك القول ، على تقديم مساعدات كبيرة للبلاد ، لنا جميعاً ، لي أنا .

في ظروف كهذه يجب التعاون ، وإذا كان فريدريك في

حاجة الى شيء ، هو أو أصدقائه . . .

- أوه ! شكراً جزيلاً ، سيّدي العزيز !

- شرط المعاملة بالمثل ، طبعاً !

كان المصرفيّ ، بالطبع ، رجلاً طيباً .

ما استطاع فريدريك ان يمنع نفسه عن التفكير في

نصيحتته ؛ وسرعان ما بهره نوع من النشوة عرض وجوه المؤتمر الكبيرة . بدا له أن فجراً رائعاً سيرز . روما ، فيينا ، برلين كلها في ثورة ، بعد طرد النمساويين من البندقية ؛ أوروبا كلها تتحرك . انها ساعة الاسراع بالتحرك ، ولربما دفعه ؛ ثم أغره ثوب النّواب الذي سيرتدونه . منذ الآن هو يرى نفسه في الصّدار المقلوب مع حزام مثلت الألوان ؛ وصارت الرغبة شديدة ، كذلك التخيّل ، فصارح ديسردييه .

تحمّس الشاب الطيّب .

- طبعاً ، بالتأكيد ! ترشّح !

مع ذلك فقد استشار فريدريك دييلورييه ، الذي كانت المعارضة التي اعاقته في مقاطعته زادت لبيراليته . فأرسل اليه ، على جناح السرعة ، إرشادات مهمة . لكنّ فريدريك في حاجة لعدد أوفر من المؤيدين ، فأسرّ بالأمر إلى روزانيت ، يوماً ، بوجود الأنسة فانتاز .

كانت واحدة من هؤلاء العازبات الباريسيّات اللواتي ، بعد إعطائهنّ الدروس كل مساء ، أو محاولة بيع رسوم صغيرة ، أو ترتيب مخطوطات بسيطة ، يعدن إلى غرفهن والوحد عالق بتنانيرهن الداخليّة ، يحضرن العشاء ، ووحدهن يأكلنه . ثم إذ يضعن أرجلهن على مدفأة القدمين ، في ضوء قنديل وسخ ، يرحن يحلمن بحبّ ، بعائلة ، ببيت ، بشرة ، بكل ما يعوزهن . وكسواها ، كانت حلمت ، عبر الثورة ، بالانتقام : - فاندفعت في دعاية اشتراكيّة جامحة .

ان تحرّر البروليتاري ، حسب الفاتناز ، غير ممكن إلا بتحرّر المرأة . تطالب بقبولها في كل الوظائف ، التفتيش عن الأبوة ، بشريعة أخرى ، بالنقض ، أو ، أقله ، « بتنظيم أزكى للزواج » . حينئذ تتزوج كل فرنسية من فرنسي أو تتبنّى هِرمًا . يجب ان تكون المرضعات والمولّدات موظّفات يقبضن معاشات من الدولة . ان يكون هناك لجنة لامتحان مؤلفات النساء ، ناشرون خاصون للنساء ، مدرسة بوليتكنيكية للنساء ، حرس وطني للنساء ، كل شيء للنساء ! وبما أن الحكم لا يقرّ بحقوقهن ، عليهن الانتصار على القوة بالقوة . عشرة آلاف مواطنة ، ببنادق جيّدة ، في وسعهن إرعاب دار البلدية !

بدأ لها ترشيح فريدريك ملائماً لأفكارها . شجّعته مظهره له المجد يلوح في الأفق . سرّت روزانيت بأن يكون لها رجل يتحدّث في مجلس النواب .

- ثم ، لربما سلموك مركزاً جيّداً .

وأصيب فريدريك ، رجل كل النقائص ، بجنون عام . كتب خطاباً وراح يعرضه على السيّد دمبروز .

على ضجة الباب الكبير الذي أغلق ، انشقّ ستار خلف نافذة ، ظهرت امرأة ما سمح له الوقت بمعرفتها ، لكن لوحة ، في غرفة الانتظار ، استوقفته ، انها لوحة بيلران وقد وضعت على كرسيّ ، مؤقّتا ولا شك .

هي تمثل الجمهورية أو التقدم ، بصورة السيد المسيح قائداً
قاطرة ، تخرق غابه استوائية كثيفة . صرخ فريدريك بعد هنيهة
تأمل :

- يا للدناءة !

- اليس كذلك ؟ قال السيد دمبروز ، وقد ظهر فجأة على
هذه الكلمة ، ومتصوراً أنها لا تتعلق باللوحة بل بالعقيدة المعظمة
عبر اللوحة . وصل مارتينون في اللحظة نفسها . انتقلوا الى
الغرفة . وكان فريدريك يسحب من جيبه ورقة حين أطلت الانسة
سيسيد ، فجأة وقالت بمظهر ساذج :

- هل خالتي هنا ؟

قال المصرفي :

- تعرفين جيداً أن لا . لا يهتم ! اعتبري كأنك في بيتك يا
آنستي .

- أوه ! شكراً ! سأذهب .

ما كادت تخرج ، حتى بدأ مارتينون يبحث عن محرمته .

- نسيته في سرتي ، أعذراني !

- حسناً ! قال السيد دمبروز .

في الواقع ، لم يكن مخدوعاً بهذه الحيلة ، بل وبدا كأنه
يُشجعها . لماذا ؟ لكن مارتينون عاد بسرعة ، وابتدأ فريدريك
بخطابه . قَطَب المصرفي جيبه ، منذ الصفحة الثانية التي تذكر ،
كعيب ، تفوق المصالح المالية ، ثم راح فريدريك يطالب بحرية

التجارة .

- كيف . . . ؟ عفوك !

لم يسمع فريدريك ، وأكمل . يطالب ، هو ، بضريبة الدخل ، بالضريبة التصاعديّة ، بالاتحاد الفيدرالي الأوروبي ، وبتثقيف الشعب ، وتشجيع الفنون الجميلة .

- أين الضرر حين يدخل البلد ، من أشخاص مثل ديلاكروا وهينغو ، مئة ألف فرنك كدخل ؟

ويتهي الخُطابُ بنصائح الى الطبقات العليا .

- لا تَبْذَرُوا شيئاً أيها الأغنياء ! أعطوا ! أعطوا !

توقف وبقي واقفاً . مستمعا الجالسان بقيا صامتين ؛ حملق مارتينون ، والسيد دمبروز شاحب الوجه . أخيراً ، بدّد عجبه بابتسامة هزيلة ، قال :

- رائع خطابك ! وامتدح كثيراً مبناه لثلا يتحدّث عن

المعنى .

أخافته هذه الحدة من جانب شاب مسالم ، كدلالة خاصة . حاول مارتينون تهدئته . فالحزب المحافظ سيثأر قريباً ، ولا شك ؛ لقد طردوا مندوبي الحكومة المؤقتة من مدن كثيرة : وتعيّنت الانتخابات في الثالث والعشرين من نيسان ، إذن فالوقت كافٍ ، باختصار ، يجب ان يترشّح السيد دمبروز نفسه في منطقة « أوب » ومن لحظتها ، ما عاد مارتينون فارقه . أضحى سكرتيره وأحاطه باعتناءات بنويّة .

وصل فريدريك عند روزانيت شديد السرور من نفسه .

دلار كان هناك ، وأخبره أنه يعمل « نهائياً » على أساس أنه مرشح للانتخابات عن السين . وفي اعلان منه « الى الشعب » بلهجة رفع الكلفة ، كان الممثل يمدح نفسه فهو يفهمه ، وهو ، إنما كَوْن لأجل خلاصه ، « معذباً بالفن » ، الى حد أنه تجسيد له ، مثاله ، - ظاناً ، فعلاً ، أنه ذو تأثير عظيم على الجموع ، حتى انه سيقترح ، في ما بعد ، في مجلس وزاري ، ان في وسعه إخضاع فتنة وحده ؛ وبالنسبة للوسائل التي سيستعملها ، أجب :

- لا تخف ! أبدي لهم رأسي !

ولكي يذله فريدريك ، أعلمه بترشيح نفسه . وإذا رأى الممثل الفاشل ان زميله العتيد يطلب الريف ، أعلن انه خادمه وتبرع بأن يرشده في الأندية .

زارا الأندية كلها ، أو كادا ، الحمر والزرقي ، الغاضبون والهادئون ، المتزمتون والوقحون ، الزاهدون والسكارى ، من قرروا موت الملوك ، من ابلغوا بغش البقالة ؛ وحيثما كان ، راح المستأجرون يكرهون المالكين ، يهاجم الشيوعيون الرهبان ، والأغنياء يتآمرون على الفقراء . كثيرون يريدون ، كانوا ، تعويضات كشهداء الشرطة القدامى ، آخرون يطلبون مالاً للاستفادة من اختراعات لهم ، أو هي تصاميم لأكثر من مشترك* ، مشاريع لأسواق إقليمية ، نظم سعادة عامة . - ثم ، هنا وهناك ،

* تجمع إنتاجي دعا إلى إقامته الفيلسوف الاشتراكي فورييه ، وفيه يعيش العمال عيشة مشتركة .

بريق ذهن في هذه الغيوم من البلاهة ، نداءات مباغطة كلطخات ،
 الحقّ المصوغ بتجديف ، وزهور بلاغة على شفّتي نذل يحمل ،
 مباشرة ، حمالة سيف على صدره العاري . أحياناً أخرى ، يحضر
 سيد ، أرستقراطي بسيط السمات ، يتحدّث عن أمور شعبية ،
 ولا يكون غسل يديه ليُظهرهما خشتين . يعرفه مواطن ، يوسعه
 الأكثر تقى اهانات ، فيخرج والغضب في أعماقه تعاطفاً مع
 الذوق السليم ، يجب ذمّ المحامين دائماً ، وخدمة صيغ ، أكثر
 الأحيان ، مثل هذه : « جلب حجره الى البناء ، - مشكلة
 اجتماعية ، - محترف » .

ما كان دلمار يهمل المناسبات حيث يمكنه التكلّم ، وحين
 يعود لا يجد شيئاً ليقوله ، يكون معينه في ان يستقرّ ، ويده على
 خصره ، ويده الأخرى في سترته ، مستديراً ، فجأة بطريقة يُظهر
 فيها رأسه جيّداً ، حينها يرتفع التصفيق ، وتصفيق الأنسة فانتاز
 في عمق الصالة .

ماجرؤ فريدريك على المجازفة برغم ضعف الخطباء بدا له
 كل هؤلاء الناس إما شديدي الجهل ، أو شديدي العدا .

لكن ديسردييه طفق يبحث ، وأخبره بوجود نادٍ في شارع
 سان جاك ، إسمه « نادي الذكاء » . اسم كهذا يثير أملاً ، وفوق
 ذلك ، سيأخذ هناك أصدقاء .

اصطحب الذين كان دعاهم الى شراب « البنش » .
 المحاسب ، موزّع الخمر ، المهندس المعماريّ ، بيّلمان نفسه

كان جاء ، ولربما أتى هيسونيه ؛ ويقف على الرصيف ، أمام الباب ، ويحجم مع شخصين ، أولهما صديقه كومبان ، رجل يكاد يكون قصيراً ، موسوم بالزهرى ، عيناه حمراوان ؛ والثاني نوع من قرد أسود ، كثيف الشعر ، يعرفه ، فقط ، « كمواطن من برشلونة » .

مرّوا عبر ممر ، ثم أدخلوا غرفة كبيرة ، يستعملها ، بلا شك ، نجّار ، وجدرانها التي لا تزال جديدة ، يُشتمّ منها الجص . أربع مسارج معلقة أفقياً ، تعكس نوراً ضئيلاً . على منبر في آخر العرفة ، مكتب وجرس صغير ، في الأسفل طاولة تمثّل المحكمة ، ومن الجانبين ، مكتبان أدنى لأمناء السرّ . وكان المستمعون الجالسون إلى المقاعد ، مؤلفين من رسّامين فاشلين مسنّين ، من معلّمي مدارس ، من رجال أدب غير مطبوع . كنت تجد في صفوف سترات ذات قبات سميكّة ، بين مكان وآخر ، قبة امرأة أو بذلة عامل . حتى أن طرف القاعة ، كان مليئاً بالعمّال ، حاولوا ، أكيداً ، لكونهم عاطلين عن العمل ، أو أن خطباء قد أدخلوهم للتصفيق .

اهتمّ فريدريك ليجلس بين ديسردييه وريجمبار ، الذي ما كاد يجلس حتى وضع يديه على عصاه وأغمض جفنيه ، بينما ، في الطرف الأخير ، يقف دلمار مشرفاً على القاعة كلّها .
ظهر سينيكال على مكتب الرئيس .

ظنّ الموظف الطيّب أن هذه المفاجأة سترضي فريدريك .

هي أغاظته .
 كان الجمع يحتفظ باحترام كبير لرئيسه . انه من هؤلاء
 الذين أرادوا ، في الخامس والعشرين من شباط ، تنظيمًا سريعاً
 للعمل ، كان قرر ، في الغد ، مهاجمة دار البلدية . وبما أن كل
 شخص كان يقتدي بمثال ، الواحد ينقل سان جوست ، الآخر
 دانتون ، الآخر مارا كان هو يحاول أن يتشبه ببلانكي ، الذي كان
 يقلّد روبسبير . يجعله قفازاه السوداء وشعره الواقف ، ذا طابع
 صلب ، شديد الملاءمة .

افتتح الجلسة بإعلان حقوق الانسان والمواطن ، فعل إيمان
 عادي . ثم بدأ صوت جهوري بإنشاد « ذكريات الشعب »
 لبيرانجيه .

ارتفعت أصوات أخرى :

- لا ! لا ! ليس هذا !

راح المواطنون يزأرون في الطرف :

- الكاسكيت * !

وأنشدوا كجوقة :

« ارفع قبّعتك أمام الكاسكيت اركع أمام العامل ! » .

وعلى إشارة من الرئيس ، صمت الجمهور . واحد من أمناء

السر ، باشر فرز الرسائل .

* رمز البروليتاريا .

- يعلن بعض الشباب أنهم يحرقون ، كل ليلة ، أمام البانتيون ، عدداً من جريدة « الجمعية الوطنية » ، ويطلبون إلى كل المواطنين أن يقتدوا بهم .

- براقو ! هذا أمر نعتمده ! أجب الجمهور .

- المواطن جان - جاك لانغرينو ، طبّاع ، شارع دوفين ، يربد إقامة نصب تخليداً لشهداء ترميدور * .

- ميشال - إيفاريست - نيوميسين فنسان ، أستاذ سابق ، ينقل أمنية أن تتبنى الديمقراطية الأوروبية وحدة اللغة . يمكن استخدام لغة ميتة كمثل اللاتينية المتطورة .

- لا ! ليس اللاتينية ! هتف المهندس المعماري .

- لماذا ؟ أجب أستاذ .

وشرع هذان السيدان بمناقشة ، تدخّل فيها آخرون ، يدلي كل برأيه ليبر ، وما لبثت أن صارت مضجرة للغاية ، فذهب كثيرون .

لكن رجلاً متقدماً في السن يحمل عند أسفل جبهته العالية نظارات خضراء ، طلب الكلمة لنقل خبر عاجل .

كان بحثاً عن توزيع الضرائب . تتابع الأرقام إلى ما لانهاية ! انفجر نفاد الصبر ، أول الأمر ، همساً ، محادثات ، لم يزعه شيء . ثم راحوا يصفرون ، ينادون « أزور » ؛ أنب سينيكال الجمهور ، وظل الخطيب يتابع كآلة . واستوجب أسكاته

* الشهر الحادي عشر من السنة الجمهورية الفرنسية .

سحبه من مرفقه . بدا الرجل كخارج من حلم ، وإذ رفع نظاراته
بهاء :
- معذرة أيها المواطنون ! معذرة ! أنا أنسحب ! ألف
عذر !

فشل هذه القراءة بلبل فريدريك . خطابه كان في جيبه
لكن الارتجال أفضل .

أعلن الرئيس أخيراً أنه يجب الانتقال إلى المسألة المهمة ؛
قضية الانتخاب ، ما نوقشت اللوائح الجمهورية الكبرى . فضلاً
عن ذلك ، فإن « نادي الذكاء » له ملء الحق ، كغيره ، في أن
يؤلف واحدة ، « تزعج الباشوات في دار البلدية » ، والمواطنون
المتحايلون على التفويض الشعبي ، يمكنهم تقديم مستنداتهم .
- إذن ، هيا ! قال ديسردييه .

كان رجل بثوب كاهن ، جعد الشعر ، ذي مظهر نزيق ،
قد رفع يده . أعلن ، متلجلجاً ، أن اسمه « ديكريتو » ، كاهن
ومهندس زراعي ، وضع مؤلفاً عنوانه : « أسمدلة » . أرسل إلى
دائرة بستانة .

ثم ارتقى المنبر مواطن بقميص فضفاض . إنه رجل من
عامة الشعب ، عريض الكتفين ، وجهه ضخم وفي غاية
اللطف ، وشعره أسود طويل . اخترق الجماعة بنظرة تكاد تكون
حسية ، أعلى رأسه ، وإذ رفع يديه ، أخيراً ، قال :
- أيها الاخوة ! لقد أبعدتم « ديكريتو » ، وحسناً فعلتم ،
إنما ليس هذا إلحاداً ، لأننا ، جميعاً ، مؤمنون .

كثيرون استمعوا فاغري الفم ، بهيئة مبتدئ في التعليم ، وبأوضاع ذاهلة .

- وليس أيضاً لأنه كاهن ، فنحن أيضاً كهنة . العامل كاهن ، على غرار مؤسس الاشتراكية ، سيدنا كلنا ، يسوع المسيح !

فالوقت كان حلّ لافتتاح ملكوت الله ، يقود الانجيل ، تماماً ، إلى ٨٩ ! بعد هدم العبودية ، تقويض البروليتاريا . فقد انقضى عمر الكره ، ولسوف يبدأ عمر الحب .

- المسيحية هي مفتاح السماء وأساس البناء الجديد . . .
- هل تدعنا وشأننا ؟ صرخ موزع الكحول . من أرسل إلينا رجل دين كهذا !

أحدثت هذه المقاطعة فضيحة كبرى . فالجميع ، تقريباً ، صعدوا على المقاعد ، راحوا يصرخون - مهتدين بقبصاتهم : « ملحد ! أرستقراطي ! سافل ! » في حين كان جرس الرئيس يدق بلا انقطاع وصرخات مثل : « النظام ! النظام ! » تتضاعف . إنما ، بما أنه جريء ، ومسند بثلاثة « فناجين قهوة » شربها قبل المجيء ، راح يقاتل وسط الآخرين .

- كيف ؟ أنا أرستقراطي ! يا للسخف !
وإذ سُمح له بالافصح ، أعلن أنه لن يكون هدوء مع الكهنة ، ولأن الحديث كان ، للحظات ، عن الاقتصاد ، يكون الأمر في غاية الروعة ، لو تُحذف الكنائس ، وحقّ القرايين ، وكل أنواع العبادات .

اعترض أحدهم مدّعيّاً أنه ذهب بعيداً .
 - نعم ! لقد ذهبت بعيداً ! ولكن ، حين يفاجأ مركب
 صغير بالعاصفة ...

أجابه آخر دون أن ينتظر انتهاء التشبيه :
 - موافق ! إنما الهدم مرة واحدة كبناء بلا بصيرة .
 - أنت تهين البنّائين ! زجر مواطن مغطى بالجلس ؛
 وراح ، مصراً على الظن أنهم تحدوه ، يقذف شتائم ، يريد
 القتال ، يتركّز في مقعده . يشق ثلاثة رجال كثيراً ليلقوه
 خارجاً .

مع ذلك ، ظل العامل يتمسك بالمنبر .
 أخطره السكرتيان بوجوب النزول . اعترض على عدم
 الحق بإنزاله .

- لن تمنعوني عن الصراخ : حب خالد لحبيبتنا فرنسا !
 حب خالد أيضاً للجمهورية !
 حينها ، قال كومبان :

- أيها المواطنون ! أيها المواطنون !
 وإذا حصل على شيء من الصمت ، لكثرة ما ردّد : « أيها
 المواطنون » ، ركّز يديه الحمرابين الشبيهتين بجدة على المنصة ،
 أمال جسده إلى الأمام ، وقال غامزاً بعينه :
 - أظن أنه يجب الافساح في المجال أكثر لرأس العجل .
 جميعهم صمتوا ، ظنوا أنهم لم يسمعوا جيّداً .
 - نعم ! رأس العجل !

انفجرت ثلاثمئة ضحكة دفعة واحدة . ارتج السقف .
أمام كل هذه الوجوه المهتاجة بالفرح ، تراجع كومبان . أعاد
الكرة بلهجة غضبي :

- ماذا ! لا تعرفون رأس العجل !
وحدثت حدة ، جنون . أسرفوا في الضحك ، حتى أن
بعضهم وقع أرضاً ، تحت المقاعد .
لم يعد في إمكان كومبان الصمود ، فلجأ إلى ريجمبار وأراد
جره .

- لا ! قال . سأبقى حتى النهاية .
هذه الاجابة جعلت فريدريك يحزم أمره . وراح يتلفت يمينا
وشمالاً ليستمدّ العون من أصدقائه ، رأى بيلران على المنصة
أمامه . رآه الفنان بين الجموع .
- أريد أن أعرف أين مرشح الفن في كل هذا ؟ أنا ،
أنهيت ...

- ليس علينا إلا صنع لوحات ! قال ، بعنف ، رجل
هزيل ، وجنتاه ملطختان بالأحمر .
صرخ بيلران ليسكتوه .

لكن الآخر تابع بنبرة مأساوية :
- ألم يكن في إمكان الحكم ، حتى الآن ، إلغاء البغاء
والفقر بمرسوم ؟
وإذ نال ثقة الناس من خلال هذه الكلمة ، تابع مندداً
بفساد المدن الكبيرة .

- عار وخيانة ! كان يجب تلقّف البورجوازيين عند الخروج
من البيت الذهبي وأن نبصق في وجوههم ! أقلّه إذا لم يكن الحكم
يشجّع التعهّر ! لكن موظفي الجمرک ، هم ، تجاه بناتنا
وشقیقاتنا ، على بذاءة ...

لكنّ صوتاً من بعيد ، قال :

- هذا غريب !

- إدفعوه خارجاً !

- ينتزعون منا ضرائب ليسددوا حساب الدعارة ! هكذا ،
فإنّ مرتبات الممثل المرتفعة ...

- إليّ ! صرخ دلار .

قفز إلى المنصة ، أبعد كل الناس ، واستوى مكانه . وراح
يستفيض في شرح الرسالة الحضارية التي للممثل ، معلناً أنه يحتقر
مثل تلك التشكيات السخيفة . ولكون المسرح هو مقرّ الثقيف
الوطني ، فسيقترح لاصلاح المسرح ، وأوّلًا ، لا إدارات ،
لا امتيازات .

- أجل ! من أيّ نوع كانت !

ألهب الممثل بحركاته الجماهير ، وتلاقت الاقتراحات
المخرّبة .

- لا أكاديميات ! لا مؤسّمات !

- لا رسالات !

- لا بكالوريا !

- فلتسقط الألقاب الجامعيّة !

- لنحافظ عليها ، قال سينيكال ، إنما فلنكن ممنوحة بالانتخاب العام ، بالشعب ، القاضي الحقيقي الوحيد !
والأكثر أهمية ، ليس هذا . يجب ، أول الأمر ، تجاوز المستوى فوق رؤوس الأغنياء ! وصورهم مغممين بالجرائم تحت سقوفهم الذهبية ، بينما الفقراء يتضورون جوعاً في أكواخهم ، يعتنون بكل الفضائل .

ضج المكان بالتصفيق إلى حد أنه توقف . بقي ، للحظات ، مغمض الجفنين ، رأسه إلى الوراء كمن يتمرجح على هذا الغضب الذي يحدثه .

ثم طفق يتحدث بطريقة عقائدية ، بعبارات حاسمة كالقوانين . على الدولة أن تستولي على المصرف وشركات التأمين . يلغي نظام الوراثة . يتأسس رأس مال شركة لمصلحة العمال . وأمور أخرى كثيرة هي مفيدة للمستقبل . هذه ، الآن ، تكفي . وقال عائداً إلى موضوع الانتخابات :

- يلزمنا مواطنون أنقياء ، رجال جدد كلياً ! هل من يتقدم ؟

نهض فريدريك . حصلت جلبة موافقة ، أحدثها أصدقاؤه . لكن سينيكال ، آخذاً وجهاً على غرار فوكيه - تنفيل ، راح يسأله عن اسمه واسم عائلته وآبائه ، وعن حياته وتقاليده .

أخذ فريدريك يجيبه بإيجاز وبعض شفثيه . سأل سينيكال إذا ما كان أحد يرى عائناً لهذا الترشيح .

- كلا ! كلا !

لكنه ، هو ، كان يرى . كلهم انحنوا وراحوا يسترقون
السمع . ما كان الرفيق المترشح أسهم بمبلغ لمؤسسة ديمقراطية :
جريدة . أكثر ، إنه ، في الثاني والعشرين من شباط ، وبالرغم
من أنه كان على علم ، فقد تخلف عن موعد في شارع البانتيون .
- أقسم أنه كان في التويلري ! هتف ديسردييه .
- أتستطيع أن أقسم أنك رأيته في البانتيون ؟
خفض ديسردييه رأسه ، صمت فريدريك ، راح أصدقاؤه
يتطلمعون إليه بأسى ، مصدومين .

تابع سينيكال :

- أقله ، هل تعرف مواطناً يخبرنا بمبادئك ؟
- أنا ! قال ديسردييه .
- أوه ! هذا لا يكفي ! هل هناك آخر ؟
استدار فريدريك صوب بيلران . أجابه الفنان بحركات
كثيرة تعني :
« آه ! يا عزيزي ، لقد رفضوني ! يا للشيطان ! ماذا
تريد ! »

حينها لكز فريدريك ريجمبار .

- أجل ! صحيح ! حان الوقت ، فلأذهب !
وحاذى ريجمبار المنبر ، ثم ، دالاً على الاساني الذي لحق

به :

- اسمحوا لي أيها الرفاق ، بأن أقدم لكم وطنياً من

برشلونة .

حيًا الوطنيّ تحية كبيرة ، أدار ، كإنسان آليّ ، عينيه
الفضيتين ، وواضعاً يده على قلبه ، انطلق في عبارات طويلة
بالاسبانية .

وهتف فريدريك :

- أطلب الكلام !

لكن الاسباني تابع كلمته بلغته .

مرة ، بعد ، أراد فريدريك أن يُسمع صوته :

- ولكن ، أيها الرفاق ...

أكمل الاسباني .

فقال فريدريك :

- هذا مضحك ! لا أحد يفهم !

هذه الملاحظة أغاظت الجمهور .

- أخرج ! أخرج !

- مَنْ ؟ أنا ؟ سأل فريدريك .

- أنت ذاتك ! قال سينيكال بمهابة : أخرج !

نهض لينصرف . وظل صوت الايبيري يلاحقه بخطابه .

- أرسطو ! صرخ سوقي مظهرًا قبضة يده لفريدريك الذي

كان منطلقاً غاضباً .

لام نفسه على تفانيه من دون أن يفكر أنّ الشكاوى ضده

صحيحة . يا للفكرة المشؤومة ! فكرة هذا الترشيح ! ولكن يا لهم

من حمير ، يا لهم من أوغاد ! راح يقارن نفسه مع هؤلاء الرجال

وبيلسم جرح كبريائه بالمقارنة مع بلاهتهم .
بعدها ، أحسّ بالحاجة لرؤية روزانيت . ستكون راحة
هذه الانسانة اللطيفة بعد كل هذه البشاعات والتفاسيح .
تعرف ، كانت ، انه سيحضر في المساء إلى نادٍ . مع هذا ، لم
تسأل حتى ولا سؤال ، حين دخل .
قرب النار كانت تخطط بطانة الثوب . فاجأه عمل كهذا .
- عجباً ، ماذا تفعلين ؟
- أنت ترى ، قالتها بخشونة . انني أصلح أسمالي ! هذه
هي جمهوريتك .
- لماذا جمهوريتي ؟
- هل هي جمهوريتي أنا ؟
وراحت تلومه على كل ما يحصل في فرنسا منذ شهرين ،
تشتكيه لكونه قام بالثورة ، لكونه سبب الانهيار ، لكون الناس
الأغنياء يتركون باريس وهي ستموت في ما بعد في المستشفى .
- تتحدّث عنها على مزاجك أنت ومداخيلك ! وإذا سارت
الأمر على هذا النحو ، فلن تدوم طويلاً مداخيلك .
قال فريدريك :
- معقول ، فالأكثر تفانياً هم ، دائماً ، غير مقدّرين ؛ وإذا
لم يحافظوا على ضمائرهم ، فالمتوحّشون الذين يجازفون معهم
يدفعونهم للقرف من التفاني .
تطلّعت اليه روزانيت ورموشها متقاربة .
- هه ؟ ماذا ؟ أيّ تفانٍ ؟ الظاهر انك لم تنجح ؟ هذا

افضل ! سيعلمك هذا ان تقوم بأعطيات وطنية . أوه !
لا تكذب ! أعرف أنك أعطيتهم ثلاثمئة فرنك ، لأن جمهوريتك
تحب الانفاق عليها ! إمرح معها أيها الرجل الطيب !
انتقل فريدريك ، تحت هذا الوابل من الحماقات ، من خيبة
الى خيبة أكثر ثقلًا .

انسحب الى آخر الغرفة . ذهبت اليه .

- هيا ! فكر قليلاً ! في الوطن كما في البيت لا بد من
سيّد . بطريقة أخرى ، كلّ يجعل مقبض السلة يرقص . أولاً ،
كل الناس يعرفون ان ليدرو- رولان غارق بالديون ! وبالنسبة
للأمارتين ، كيف تريد أن يتأقلم شاعر مع السياسة ! آه ! لقد
اعليت رأسك ، وطننت نفسك أذكى من الآخرين ، على أيّ
حال ، هذا صحيح ! لكنك تناقش دائماً ؛ لا يمكن القاء كلمة
معك ! هاك ! مثلاً ، فورنييه- فونتين ، محلات سان روك ؛
اتعرف كم ينقص ! ثمانمائة ألف فرنك ! و« غومر » الحزام ، وفي
المقابل ، هو جمهوري آخر ، يكسر ، كان ، ملاقط صغيرة على
رأس زوجته ، ولقد شرب كثيراً من الأيسنت الى حدّ سينقلوه الى
دار صحتّه . هكذا ، هم جميعاً ، الجمهوريون ! جمهورية بنسبة
خمس وعشرين في المئة ! آه نعم ! تبجح أنت !
خرج فريدريك . دفعته للقرف غباوة هذه الفتاة اذ
انكشفت ، فجأة ، بلغة سوقية . شعر انه عاد وطنياً .

تفاهم مزاج روزانيت السيّء . تغضبها الأنسة قانتاز
بحماسها . كانت ظنّت ذلك رسالة ، فخطبت باطناب ،

وغطت ، واذهي أقدر من صديقتها في هذه المواضيع ، فقد أثقلتها بالبراهين .

وصلت ذات يوم غاضبة من هيسونيه الذي كان أجاز لنفسه خلاعات في جمعية النساء . سُرّت روزانيت بهذا السلوك معلنة ، حتى ، انها ستتنكر بثياب رجل لتذهب « تجبرهن بواقعهن وتجلدهن جميعاً » . وفي اللحظة ذاتها ، دخل فريدريك . - سترافقي ، أليس كذلك ؟

وبالرغم من وجوده ، راحتا تتخاصمان ، متصرفّة الواحدة كبورجوازية والثانية كفيلسوفة .

النساء ، بحسب رأي روزانيت ، مخلوقات ، قَطْعاً ، للحبّ أو لتربية الأولاد ، لإدارة بيت .

وبحسب الأنسة فانتاز ، يجب ان تجد المرأة مركزاً لها في الدولة . قديماً ، كانت الفرنسيات تشرعن ، والانكلوساكسونيّات أيضاً ، وزوجات « المهورون » كنّ جزءاً من المجلس . فالعمل الحضاري كان موحّداً . عليهن ، جميعهن ، الاسهام فيه ، وإبدال الأنانية بالأخوة ، الفردية بالجماعية ، وبالتجزئة الثقافة الواسعة .

- حسناً ، كفى ! أصبحت تتحدّثين بالثقافة أنتِ !

- لم لا ، على كل حال ، فالأمر متعلّق بالانسانية ، بمستقبلها !

- اهتميّ بمستقبلك أنتِ !

- هذا يخصّني وحدي !

غضبنا . تدخل فريدريك . حنقت فانتاز وتوصلت ، حتى للمدافعة عن الشيوعية .

- يا للحماقة ! قالت روزانيت . أيمكن ان تتحقق في وقت ما ؟

ذكرت الأخرى ، كمثال ، « الاسينيين » ، الاخوة مورافى ، يسوعى الباراغواي ، عائلة البنغون ، في أوفيرن قرب تير ؛ وبما انها كانت تقوم بحركات كثيرة ، فقد أخذ سلسال ساعتها بعلبة حليها ، بخروف ذهبي صغير متدل . وفجأة ، شحبت روزانيت شحوباً شديداً . تابعت الأنسة فانتاز تخلص علبتها .

- لا تزعجي نفسك لهذه الدرجة ، قالت روزانيت . بت أعرف ، الآن ، آراءك السياسية .

- ماذا ؟ أجابت فانتاز ، وقد احمرت كعذراء .

- أوه ! أوه ! إنك تفهميني !

لم يفهم فريدريك ، فبينها ، أكيداً ، طراً أمر اهم وأكثر حميمية من الاشتراكية .

- ومتى يحدث هذا ؟ قالت الفانتاز وقد وقفت باقدام . إنه

قرض يا عزيزي ، دين لقاء دين . !

- نبأ لك ، لا أنكر ديوني ! لبضعة آلاف فرنك ، قصة

والله ! على الأقل أقترض أنا ، لا أسرق أحداً .

جهدت الأنسة فانتاز لتضحك .

- أوه ! أضع يدي في النار .

- إحدري ! هي يابسة تماماً ، تحترق .
 قدّمت لها العانس اليد اليمنى ، وقالت وهي محتفظة بها
 مرفوعة في وجهها :
 - لكن هناك كثيرين من أصدقائك يجدونها كما يشتهون !
 - أندلسيون إذن ؟ كصنّاجات !
 - عاهرة !
 حيّتها « المارشالة » تحية كبرى ، قالت :
 - ليس هناك أكثر فتنة !
 لم تحب الأنسة فانتاز بشيء . ظهرت نقاط عرق على
 صدغيها . تجمّدت عيناها على السجّادة . كانت تلهث .
 توجّعت ، أخيراً ، نحو الباب ، قالت وهي تصفقه بقوة :
 - بونسوار ! ستصلك أخباري !
 - بالتوفيق ! قالت روزانيت .
 هدّها ارهاقها . تراخت على الأريكة ، مرتجفة ، هامسة
 شتائم ، ساكبة دموعاً . أكان وعيد فانتاز ما يؤرقها ؟ لا ! فهي
 تهزأ به تماماً ! في النهاية ، الأخرى مدينة لها ، ربما ! وانسل اسم
 دلمار وسط دموعها . اذن ، فهي تحبّ الممثل !
 وتساءل فريدريك : « اذن ، لماذا أخذتني ؟ من أين عاد ؟
 من يضغط عليها لتحفظ بي ؟ ما معنى كلّ هذا ؟ »
 تابعت شهقات روزانيت القصيرة . ما تزال على طرف
 الأريكة ، ممدّدة على جنبها ، خدّها الأيمن على يديها اللتنتين ، -
 وبدت كائناتاً لطيفاً ، غير واعٍ ومتألماً ، فاقترب منها ، وبرفق قبلها

على جبينها .

حينها ، أكدت له حنانها ، سيكونان حُرَيْن بعد ذهاب الأمير . لكنها تجد نفسها ، حالياً ، متزعجة . « رأيتني بنفسك ، أنت ، ذلك اليوم ، حين كنت استعمل بطاناتي العتيقة » . لا عربات الآن ! وليس هذا كل شيء . فالمنجد يهدد باستعادة أثاث الغرفة والصالون الكبير . هي لا تدري ماذا تفعل .
 رغب فريدريك لو يجب : « لا تحزني أبداً ! سادفعا ! »
 لكن ، ربما هي تكذب . علمته التجربة . فتوقف ، فقط ، عند التعزيات .

ما كانت مخاوف روزانيت بلا طائل . وجب ردّ الأثاث ومغادرة الشقة الجميلة في شارع دروو . أخذت أخرى ، على بولفار « بواسونير » ، في الطابق الرابع . طُرف صالونها القديم كانت كافية لتسبغ على الغرف الثلاث طابعاً مغناجلاً . رُكبت ستائر صينيّة ، خيمة على الشرفة ، وفي الصالون سجادة من البازار لا تزال جديدة كلياً ، مع طنافس من حرير زهريّ . ساعدها فريدريك كثيراً بمشترياتها هذه ، كان يشعر بفرحة متزوج حديث العهد ، يمتلك بيتاً له ، وامرأة . ولكونه يستقر هنا كثيراً ، هو يأتي ، كل مساءً تقريباً ، ينام .

ذات صباح ، وهو خارج من غرفة الانتظار ، لمح في الطابق الثالث ، على الدرج ، قلنسوة جندي صاعد من الحرس الوطني . إلى أين هو ذاهب ؟ انتظر فريدريك . لا يزال الرجل يصعد ، والرأس محنيّ قليلاً . رفع عينيه . أنّه السيّد أرنو . فالوضع

واضح . احمرًا معاً ، وقد اعتراهما الارتباك نفسه .
 وجد ارنو وسيلة ، قبل الآخر ، للخروج من حيرته .
 - هي أحسن ، اليس صحيحاً ؟ كما لو أنّ روزانيت
 مريضة وجاء ليعودها .
 استفاد فريدريك من هذه الوسيلة .
 - أجل ، طبعاً ! خادمتها اعلمتني بهذا . يريد القول انها لم
 تستقبله .
 ثم بقيا متواجهين ، غير مقرّرين ، وناظرين واحدهما الى
 الآخر ، يريد ، كل منهما ، ألا يخرج . بتّ ارنو المسألة مرة
 بعد .
 - آه ! أعود في ما بعد ! أين تريد الذهاب ؟ أرافقك ؟
 وحين صارا في الشارع ، تحدّث بصورة طبيعيّة كالمعتاد .
 لا يملك طبعاً حسوداً أو هو رجل طيّب جداً فلا يغضب .
 على كل حال ، فالوطن يشغله . لقدبات لا يتخلّى ،
 الآن ، عن اللباس العسكريّ . في التاسع والعشرين من آذار ،
 كان دافع عن مكاتب جريدة « الصحافة » . عندما هاجموا مجلس
 النواب ، امتاز بشجاعته ، وكان واحداً من المادبة الكبرى التي
 أقيمت لحرس « أميانس » الوطنيّ .
 وهيسوئيّه هو الأكثر استفادة من مطرته وعلب سيجاره ،
 فهو دائم الخدمة معه . انما ، لكونه وقح الطبع ، يروح يتسلّى
 بمعارضته ، ذاتاً أسلوب المراسيم الركيك ، محاضرات
 اللوكسمبور ، التيروليين ، كل شيء ، حتى عربة نقل الفلاحة

التي تجرّها جياذ بدلاً من الثيران ، ومرافقة فتيات بشعات .
أرنو ، على العكس ، يدافع عن السُّلطة ويحلم بحل الأحزاب .
مع ذلك ، فأعماله تأخذ وجهة سيئة . وما كان كثير الأسف
عليها .

لم تحزنه قط علاقات فريدريك و«المارشالة» . لأنّ هذا
الاكتشاف أباح له (في سريره) ، قطع النفقة التي كان اعادها لها
بعد رحيل الأمير . تذرّع بعائق المناسبات ، انتحب كثيراً ،
وكانت روزانيت كريمة . ولأنه لا يشكّ بأن فريدريك لا يدفع
للمارشالة ، تراءى له ان «يقوم بمقلب» ، توصل ، حتى ، الى
ان يختبئ ويخلي له الجو ، حين يلتقيان .

هذه الشراكة كانت تجرح فريدريك . وبدت له ملاطفات
منازعه سخرية طالت كثيراً . ولكن ، حين يأخذه الحنق ، يحذف
كل خط للعودة الى الأخرى ، وهذه هي الوسيلة الوحيدة لسماع
شيء عنها . وكان تاجر الخزيّات ، حسب عادته ، أوروباً فكرياً ،
يذكرها طوعاً في محادثاته ، ويسأله ، حتى ، لماذا هوبات لا يأتي
لرؤيتها .

وإذا استنفد فريدريك كلّ حججه ، أكّد انه ذهب عند
السيدة أرنو مرات عدة بدون طائل . اقتنع أرنو ، لأنه ، غالباً ما
كان يشكو أمامها غياب صديقتها ، وتجيّب دائماً انه لم يأت بطريقة
ما تجعل هاتين الكذبتين ، بدلاً من ان تنفضها ، هما تتأيدان .
صار أرنو يحبّه أكثر للطافته وللفرح بكونه مخدوعاً ، ويدفع
الالفة حتى آخر الحدود ، لا احتقاراً ، انما ثقة . كتب اليه ، ذات

يوم ، انّ عملاً سريعاً يسكه في الريف لأربع وعشرين ساعة ، ويتوسّل اليه أن يحرس بدلاً منه . لم يجرؤ فريدريك حتى الرفض ، وحضر الى مخفر كاروسيل .

كان عليه ان يحتمل مجتمع الحراس الوطنيين ! بدوا له ، جميعاً ، أكثر إهيمية من جعبتهم ، باستثناء مطهر ، هورجل ظريف يشرب بطريقة مفرطة . كان الحديث الرئيسي يتعلق بابدال حمالة السلاح بالنطاق . آخرون حنقون ضد المحترفات الوطنية . كنت تسمعهم يقولون : « الى أين نحن ذاهبون ؟ » ومن يسمع يجب ، فاتحاً عينيه كما لو هو على شفير هاوية : « الى أين نحن ذاهبون ؟ » حينها يهتف انسان أكثر جسارة : « لا يمكن ان يدوم هذا ! يجب التخلص من هذا ! » وضجر فريدريك حتى الموت : كانت الأحاديث نفسها تتكرّر كلّ مساء .

مفاجآت كانت كبيرة ، حين رأى أرنو ، في الحادية عشرة ، وقد جاء قائلاً : انه اقبل مسرعاً ليحرّره بعدما أنهى عمله . لم يكن له عمل ، انه اختراع لُمضي ، وحيداً ، أربعاً وعشرين ساعة مع روزانيت . لكنّ أرنو الطيّب كان كثير الظنون ، بحيث انه ، وهو في عياء ، سيطر عليه تبكيت . جاء يشكر فريدريك ويدعوه للعشاء .

- الف شكر ! لست جائعاً ! لا أريد سوى أن أنام !
- هذا سبب آخر لتعشى معاً ، باكراً ! يا لك من فاتر الهبة ! لا نعود الى بيتنا الآن ! الوقت متأخر ! وهناك خطر !
استسلم فريدريك ، مرة بعد . جامل أرنو إخوته بالسلاح

وبشكل خاص المطهر : ما كانوا ينتظرون رؤيته . جميعهم يحبونه . ولقد كان فتى طيباً حتى انه أسف لعدم وجود هيسويته . لكنه بحاجة ليغمض عينيه دقيقة لا أكثر .

- تمّدّد قربي ، قال لفريدريك ، وهو ينطرح بطوله على سرير المخيم ، بدون ان ينزع عنه حمالات السلاح .
رغمًا عن النظام ، أحفظ بيندقيته خوفاً من انذار بغارة ، بعدها ، تمت بضع كلمات : « حبيبي ! يا ملاكي الصغير ! » وما لبث ان غفا .

صمت من كانوا يتكلمون . منزعجاً من البراغيث ، أخذ فريدريك ينظر حواليه . وسط الجدار الأصفر العالي ، لوح طويل تشكّل فيه الأكياس سلسلة من حذبات صغيرة ، بينما في الأسفل ، قائمة البنادق ، ذات اللون الرصاصي ، الواحدة قرب الأخرى . يرتفع غطيظ الحراس ، وقد ارتسمت بطونهم بغير وضوح في الظل . تغطي الموقد قنينة فارغة وصحون . تحيط بالطاولة المتناثر عليها ورق لعب ثلاث كراسي قش . وسط المقعد طبل متدلية قدته . والهواء الساخن النافذ عبر الباب يجعل السراج يدخن . كان أرنو ينام فاتح الذراعين ، وبما ان قندق بندقيته الى اسفل وبشكل منحرف نوعاً ، كانت الفوهة تصل تحت ابطه . لحظ ذلك فريدريك وخاف .

« إنما لا ! مخطيء أنا ! لا شيء يُخشى ! مع ذلك لو يموت ... » .

وفجأة ، راحت لوحات كثيرة لا تُحصى تمرّ بباله . رأى

نفسه معها ، ليلاً ، في محطة للمسافرين ، ثم على ضفة نهر في مساء صيفي ، وتحت انعكاس قنديل « عندهم » ، في « بيتهم » . ولقد توقّف ، حتى ، عند حسابات الأسرة ، وعند ترتيبات الخدم ، متأملاً ، لامساً ، منذ الآن ، سعادته ؟ - وليحقّق ذلك ، فما عليه إلّا ان يضغط ديك البندقيّة ! بالمستطاع دفعه بواسطة إصبع الرجل ، تنطلق الطلقة ويكون الأمر صدفة ، لا أكثر !

توسّع فريدريك بهذه الفكرة ككاتب مسرحي يؤلّف . بدا له ، فجأة ، انها ليست بعيدة التحقيق ، وانه سيفعل ، أحسن رغبة تدفعه الى هذا . فاستبدّ به خوف كبير شعر بلذّة ، وسط هذا القلق . واستغرق في الفكرة ، أكثر فأكثر ، شاعراً ، بخوف ، أنّ وساوسه تختفي . في رعب رؤياه ، احمى سائر الكون ، وما عاد وعى نفسه إلّا عبر ضيق لا يطاق ، في الصدر .

- نشرب نبيذاً أبيض ؟ قال مطهّر الهواء الذي استيقظ . قفز ارنو مسرعاً ، وإذ شرب نبيذاً أبيض أراد القيام بدور فريدريك في الحراسة .

ثم اصططحبه للغداء في شارع شارتر ، عند بارلي . ولأنه بحاجة لاستعادة قواه طلب لنفسه صحتين من اللحم ، سرطان بحر ، عجة بيض بالروم ، سلطة ، الخ ، مروية كلّها بالنبيذ المعتق ، بالاضافة الى الشامبانيا والتحلية والمشروبات الروحية . لم يعترضه فريدريك ، إطلاقاً . منزعجاً كان ، كما لو ان

الآخر اكتشف ملامح فكر على وجهه .
 كوعا ارنو على طرف الطاولة ، وهو جُدُّ منحني . وإذ يرهقه
 ارنو بنظره ، يبوح له بتصوراته .
 يرغب ، كان ، باستئجار كل رُدمِيَّاتِ جبهة الشمال
 ليزرعها بطاطا ، أو بتنظيم موكب هائل على الشوارع العريضة ،
 يكون فيه « عطاء العصر » . يستأجر كل النوافذ ، بمتوسط
 ثلاثة فرنكات ، مما يضمن له ربحاً معقولاً . وباختصار ، يحلم ،
 كان بثروة كبيرة عن طريق الاحتكار . مع ذلك ، فقد كان
 أخلاقياً ، يستنكر الانحراف ، سوء السيرة ، يتحدث عن « أبيه
 المسكين » ، ويفحص ضميره ، كما يقول ، كل ليلة ، قبل ان
 يسلم روحه لله .

- قليلاً من الكوراسو*، اليس كذلك ؟

- كما تشاء .

أما بالنسبة للجمهورية ، فستنظم الأمور ؛ وسيكون
 الرجل الأسعد في الأرض ، وناسياً نفسه ، راح يمتدح صفات
 روزانيت ، وحتى قارنها بزوجه . انها لشيء آخر ، لا تتصور
 افخاذاً بهذا الجمال .

نخبك !

دق فريدريك كأسه بكأس ارنو . مسaire ، كان أكثر من
 الشراب إلى حد ما . وبالإضافة إلى هذا فالشمس تبهره . وحين

* شراب مسكر منكّه بقشر نوع من البرتقال المجفف .

صارا ، معاً ، في شارع فيفيان ، كانت كتفاهما تتلامسان بأخوة .
وإذ دخل فريدريك بيته ، نام حتى السابعة . بعدها ذهب
عند « المارشالة » . كانت خرجت مع أحدهم . لربما مع أرنو؟
وبما انه لم يدر ما يفعل ، أكمل نزهته على البولفار ، لكنه ما
استطاع تجاوز بوابة سان مرتان ، لكثرة الازدحام .

كان الفقر يهمل عدداً كبيراً من العمال ، يتركهم وشأنهم ،
فيجتمعون ، هنا ، كل مساء ، يعرضون وضعهم ، ولا شك ،
وينتظرون اشارة . « اندية اليأس » هذه ، تتزايد بشكل مخيف ،
بالرغم من وجود قانون يحرم التجمهرات ، والكثيرون من
البورجوازيين يتوجهون ، يوماً اليها ، تبجحاً ، درجةً .

رأى فريدريك ، فجأة ، وعلى خطوات ثلاث منه ، السيد
دمبروز ومارتينون ، أدار رأسه ، لأن السيد دمبروز كان نجح في
ان يعين مندوباً ، فضمر له الحقد . انما أوقفه الرأسمالي .

- كلمة واحدة ، سيدي العزيز . لديّ أمور أوضحها

لك .

- لا أسالك شيئاً .

- أكون ممتناً لك ! اسمعني .

ما هذا خطاه ، كان ، اطلاقاً . هم توسّلوا اليه ، إنّه مجرّب
الى حدّ ما . ساند أقواله مارتينون : قدمت اليه وفود كثيرة من
نوجان .

- على كل حال ، ظننتني أكون حراً ، طالما . . .

دفعه من الناس على الرصيف ألزمت السيد دمبروز على

الابتعاد . عاد بعد هنيهة ، ليقول للمارتينون :
 - ان هذا خدمة حقيقية ! لن تأسف عليها أبداً . . .
 أسند الثلاثة ظهورهم الى حائط محل ، قصد التحدّث
 بحريّة .

يُسمع ، بين وقت وآخر ، صراخ : « ليحيا نابوليون !
 ليحيا باربيس ، ليسقط ماري ! » . يتحدث الجمع اللامُحصى
 بصوت عالٍ جداً : - وكل هذه الأصوات ، معكوسة بالبيوت ،
 تؤلّف ، كانت ، شبه ضجيج الأمواج الدائم في مرفأ . ويسكتون
 أحياناً ، فتسمع نشيد المارسيّا يرتفع . وتحت ارتاج ، يعرض
 رجال ، بملامح غامضة ، عصياً بنبال . وإذ يمرّ أحياناً كائنات ،
 الواحد أمام الآخر ، يغمزان ويتعدان بمهارة . تشغل الأرصفة
 جماعات من المتسكّعين ، يتحرّك ، على البلاط ، جمهور مزدحم .
 تطل من شوارع ضيقة زمر كاملة من رجال الشرطة وتختفي ما ان
 تظهر . أعلام حمراء صغيرة ، هنا وهناك ، تبدو كلهب ، يقوم
 الحوذيون ، من على مقاعدهم العالية ، بحركات كبيرة ثم
 يعودون . إنه حركة ، مشهد من الأكثر غرابة .

قال مارتينون :

- كم كان هذا سلى الأنسة سيسيل !
 - تعرف تماماً انت ، أن زوجتي لا تحب أن تأتي قريبي
 معنا ، أجاب السيّد دمبروز ضاحكاً .
 يكاد لا يعرف . لثلاثة أشهر كان بصرخ : « فلتحيا
 الجمهورية ! » وحتى كان صوت لنفي الأورليانيين لكنّ التساهلات

يجب ان تنتهي . يبدو غاضباً إلى حدّ يحمل ، في جيبه ، دَبّوساً* .
مارتينون كذلك ، يملك مثله . كان انسحب من النيابة
العامة ، بما ان هيئة القضاء لم تعد ثابتة ، وصار انف من السيّد
دمبروز .

يكره المصرفيّ ، بخاصة ، لامارتين (لكونه دعم لادرو -
رولان) ، ومعهم بيار لورو ، برودون ، كونسيدياران ، لاوزيه ،
كل المغامرين ، كل الاشتراكيّين .

- فماذا يريدون ؟ الغي رسم الدخول على اللحم وسجن
المدين ؛ والان يُدرّس مشروع مصرف للرهن العقاري ذلك
اليوم ، كان مصرفاً وطنياً ! وهاك خمسة ملايين في الموازنة للعمال !
إنما ، لحسن الحظ ، انتهى ، بفضل السيّد دو « فلو » ! رحلة
سعيدة ! فليذهبوا !

في الواقع ، كان وزير الاشغال العامة ، وقّع في هذا
اليوم ، إذ هو احتار كيف يعيل المئة وثلاثين ألفاً من رجال الورش
الوطنية ، قراراً يدعو فيه كل المواطنين بين الثامنة عشرة والعشرين
للخدمة كجنود أو للذهاب الى الريف وفلاحة الأرض .

أغضبهم هذا الخيار ، فهم كانوا مقتنعين بأن هناك إرادة ما
لتقويض الجمهورية . تفجعهم الحياة بعيداً عن العاصمة
كمنفى . تصوّروا أنفسهم يموتون بالحُمى في مناطق وحشية . زد
على ذلك ، أن الكثيرين من المعتادين الأعمال السهلة رأوا الزراعة

* عصا محدّدة الرأس .

إذلاً لهم ، رأوا الأمر خديعة ، تافهاً ، إنه الرفض القطعي لكلّ التمهّدات . يقاومون ؟ تُستعمل القوة . ما شكّوا في ذلك وراحوا يتأهبون للتحذير منها .

ارتدّت التجمهرات الصاخبة التي تشكّلت في الباستيل وفي الشاتليه الى البولقار ، في حوالى التاسعة . من بوّابة سان دني الى بوّابة سان مارتان ، تجمهر هائل ، كتلة واحدة بأزرق غامق يكاد يكون أسود . عيون الرجال التي كانت تراهم ملتبهة ، لونهم شاحب ، وجوههم هزيلة بفعل الجوع ، ساخطة بسبب الظلم . في هذا الوقت كانت تتكدّس غيوم . صارت الجماهير ، بسبب السماء العاصفة التي ألهمت حماسها ، تدور على ذاتها ، غير مقرّرة ، متأرجحة كأمواج صاخبة ، تشعر ، كنت ، في أعماقها ، بقوة عظيمة ، وشبه طاقة عنصر . ثم طفقوا ، جميعاً ، يغنون : « مصاييح ! مصاييح ! » نوافذ كثيرة لم تُضأ ، رشقوها بالحصى . رأى السيّد دمبروز أن من الحكمة الذهاب . رافقه الشابان .

كان يتوقّع مصائب كبيرة . يستطيع الشعب ، مرة بعد ، اقتحام المجلس ، وهذا الخصوص ، روى كيف كان ليموت في الخامس عشر من نّوار لولا تضحية أحد أفراد الحرس الوطني .

- لكنه صديقك ، كدت أنسى ! صديقك صانع الخزفيّات ، جاك أرنو ! - كاد رجال الثورة يخنقونه ، أنقذه هذا المواطن الطيّب : حمله بيديه وأخذه جانباً . من حينها ، توثّقت بينهما علاقة ما . - يجب ان نتعشّى معاً ، في مرّة ما ، وبما انك كثيراً ما تراه ، أكّد له انني أحبه . انه رجل ممتاز ، مفترى عليه ،

برأيي . هو نبيه ! تحيَّاتي اليه ، مرة بعد ! طبت مساءً . . .
 بعدما غادر فريدريك السيّد دمبروز عاد عند « المارشالة » ؛
 وبمظهر كامد جداً قال أنّ عليها الاختيار بينه وبين أرنو . أجابت
 بعدوبة أنها لا تفهم هؤلاء « القصار ذوي السّمنة » ، لا تحبّ
 أرنو ، لا تتعلّق به إطلاقاً . كان فريدريك عطشاً لترك باريس ما
 اعترضت وغادرا ، في الغد ، إلى فونتينبلو .
 يميّز الفندق الذي فيه نزلا ، عن الفنادق الأخرى ،
 بنافورة مياه مسقّسة وسط ساحة . تنفتح أبواب الغرف على
 ممشى ، كما في الأديار . غرفتها ، كبيرة كانت ، فيها أثاث جيّد ،
 مفروشة بالهندي* . وهادئة نسبة لندرة المسافرين . أمام البيوت ،
 يمرّ بورجوازّيون لا عمل لهم . وحين تطلع الشمس ، يلعب تحت
 نوافذهم ، في الشارع ، أولاد لعبة الحواجز ؛ - وهذا الهدوء ،
 بعد ضجيج باريس ، أحدث لهما مفاجأة ، راحة .
 ذهباً ، في الصباح الباكر ، يزوران القصر . وبما انها دخلا
 عبر السور ، فقد رأيا واجهته كلّها ، مع الأجنحة الخمسة ذات
 السقوف العالية ، ودرجه الهلالي الممتد حتى طرف السّاحة ،
 يُزخرفه ، من اليمين ومن الشمال ، بناءان أدنى علواً في البعيد ،
 يمتزج بهنّ الحجر على البلاط بأسلوب القرميد المتوحّش . وكل
 القصر ، الصديء اللون كلّامة عتيقة ، يميّزه شيء ، ذو فخامة
 هادئة ، نوع من عظمة عسكريّة وحزينة .

* نسيج قطني مطّيع ومشجّر كان يُصنع في الهند .

ظهر ، أخيراً ، خادماً يحمل علبة مفاتيح . أطلعهما ، أولاً ، على أجنحة الملكات ، فمصلّى الباب ، فمقصورة فرنسوا الأول ، بعدها طاولة الأكاجو الصغيرة التي عليها وقع الأمبراطور استسلامه ، وفي واحدة من الغرف التي تقسم قاعة عرض الأيائل العتيقة ، المكان الذي قتلت فيه كريستين مونالديتشي . استمعت روزانيت الى هذه القصة باهتمام ، ثم التفتت الى فريدريك ، قالت :

- كان هذا حسداً ، ولا شك ؟ إحدرا !

بعد هذا ، انتقلا الى قاعة المجلس ، فقاعة الحرس ، فقاعة العرش ، وصالون لويس الثالث عشر . يصل من النوافذ العالية ، والتي هي بلا ستائر ، نور أبيض ، يعلو غبار خفيف مسكات غلاّقات النوافذ ، والقدم النحاسية للمنافذ المزخرفة ، تغطّي شراشف سميكة الكراسي المريحة الوسيعة ، وهنا وهناك نجاد تمثل آلهة الأولمب ، بيسييه أو معارك الاسكندر . تتوقف روزانيت ، كانت ، كل مرة تمر أمام المرايا ، لتسوي عُصابات شعرها .

وصلا ، بعد الساحة ومُصلّى سان ساتورنان ، الى قاعة الأعياد .

دُهشا لروعة السقف المقسّم قطعاً مثمّنة الزوايا ، مطلية بالذهب والفضة ، ثم مرصّعة بدقة تفوق دقة التحفة ، وكذلك أخذوا بوفرة اللوحات التي تغطّي الجدران في المدفأة العملاقة ، حيث يحيط بأسلحة فرنسا مناجل وجعبات ، الى منصة الموسيقيين

المنشأة في الطرف الآخر في عرض القاعة . العشر النوافذ ذات القناطر مشرّعة كلّها ، لامعة اللوحات في الشمس ، والسماء الزرقاء تكمل ، إلى ما لا نهاية ، لارورد الأقواس ، ويبدو ينجي ، من عمق الغابات التي تملأ الأفق قِمَاتِها الضبابيّة ، صدى صيحات الهجوم عبر الأبواق العاجيّة ، ومشاهد الباليه الميتولوجيّة ، جامعة تحت اوراق الأشجار ، أميراتٍ وأسياداً متنكرين بلباس حورياتٍ وربّات غابات ، - زمن العلم البري ، والأهواء العنيفة ، والفن الفخم ، حين كان المثال في حمل الناس في الحلم ، وحين كانت عشيقات الملوك تختلطن بالكواكب . أجمل هذه الجميلات كانت طلبت رسمها ، الى اليمين ، بصورة « ديان » القنّاصة ، وحتى ديان الجهنمية ، لتؤكد ، بلا شك ، قدرتها حتى من وراء القبر . كل هذه الرموز تؤكد مجدها ؛ ويبقى ، هنا ، شيء منها ، صوت لا يتميّز ، إشعاع يتواصل .

أخذ فريدريك بشبقٍ مرتدّ إلى الماضي وغير واضح .
وليلهي رغبته ، بدأ ينظر الى روزانيت بحنان ، وقد سألها إذا لم ترد أن تكون تلك المرأة .

- آية امرأة ؟

- ديان دو بواتيه !

كرّر :

- ديان دو بواتيه ، عشيقة هنري الثاني .

صدرت عنها « آه » قصيرة . كان هذا كل شيء .

أكد صمتها ، بوضوح ، أنها لا تعرف شيئاً ، لا تفهم شيئاً ، حتى انه قال لها ملاطفة :

- لربما ضجرت ؟

- لا ، لا ، بالعكس !

كان يلاحظ على وجهها اجتهاداً ، نية احترام . واذ جعلتها هذه الهيئة الرضية أجمل ، عذرها فريدريك .

بحيرة السبوط* أمهجتا أكثر . رمت ، خلال ربع ساعة ، قصاع خبز في المياه ، لترى السمك يقفز .

فريدريك كان جالساً قريباً ، تحت الزيزفون . هو يفكر بكل الأشخاص الكانوا تردّدوا على هذه المدينة ، شارل كيست ، آل فالوا ، هنري الرابع ، بيار لوگران ، جان - جاك روسو و« نادبات الأروقة الأولى الجميلات » ، فولتير ، نابوليون ، بيوس السابع ، لويس فيليب ؛ أحسّ نفسه محاطاً ، بجانب هؤلاء الموق الصاخيين ، جعله يشرد هذا الالتباس بالصور ، بالرغم من أنه وجد فيه سحراً .

نزلاً أخيراً ، إلى الروضة .

انها مستطيل واسع ، تريك ، من النظرة الأولى ، ممراتها الصفراء العريضة ، مربعاتها المخضرة الاعشيشاب ، شرائط شمشادها** ، أشجارها الهرمية النريينية ، اخضرارها الكثيف ،

* أو السبوط هو نوع من السمك يعيش في المياه الحلوة .

** جنس حنية للتزيين من الفصيلة البقسية يستخدم في الحائن لتحديد التحوم

ومساكبها الضيِّقة ، حيث ترك زهور مشورة بقعاً على الأرض
الرمادية . في آخر الحديقة منتزه يمتد ، تخترقه كله قناة طويلة .
إنَّ للمراكز الملكية ، في حدِّ ذاتها ، كآبة مميزة ، تتعلق ،
ولا شك ، بمسافاتها الشاسعة بالنسبة لنزلائها القلّة ، كذلك
بالصمت الذي نفاجاً به بعد كل ذلك الصخب ، وبالترف الجامد
الدالّ ، بشيخوخته ، على زوال سلالات مالكة ، وعلى البؤس
الخالد لكل شيء ؛ - وإنَّ انبعاث العصور هذا ، المتخذُّ والحزين
كما عطر موميا ، يجعل ، حتى الرؤوس الساذجة تشمه . تضاءبت
روزانيت كثيراً . عادا الى الفندق .

تأمنت لهما ، بعد الغداء عربية مكشوفة . خرجا من فونتينبلو
عبر مستديرة عريضة ، ثم صعدا في طريق رملي في غابة صنوبر
صغيرة . صارت الشجرات أكبر ، وكان الخوذي ، بين وقت
 وآخر ، يقول : « هوذا الاخوة سياموا ، فارامون ، بوكيه
دوروا . . . » ، غير ناس أياً من المواقع الشهيرة . وحتى متوقفاً
مرات ، ليفسح لهما مجال التأمل .

دخلا غابة فرائشار . تزلق العربية ، كانت ، على العشب
الأخضر كزلاجة . تهدل حمامات غير مرئية . وفجأة ، ظهر خادم
مقهى . فنزلا أمام سور حديقة فيها طاولات مستديرة . وراحا
يمشيان على صخور كبيرة ، ووصلا ، سريعاً ، إلى آخر المضيق ،
بعدهما تركا ، الى الشمال ، أسوار دير متهدم .

هذا المضيق ، مغطى من جانب ، بمزيج من صلصال رملي
وعرعر ، بينما ، في الجهة الأخرى ، ينحدر المرتع شبه الأجرد

صوب قعر الوادي ، حيث يرسم ممراً خطاً شاحباً بين الخلنج ،
وتُلَمَح في البعيد ، قمة قمعية مسطحة مع برج لمبنى لإدارة البرق ،
الى الوراء .

بعد نصف ساعة ، نزلاً ، مرة بعد ، لتسلق مرتفعات
أسبريمون .

ترسم الطريق منعرجات بين الصنوبرات القصيرة
والكثيفة ، تحت صخور جانبية بارزة التواءات . تتميز هذه الزاوية
من الغابة بشيء مخنوق ، يكاد يكون وحشياً ومتأثلاً . تتذكر
النسك رفاق الوعول الكبيرة الحاملة صليب نارين قرونها ، وهم
يستقبلون بابتسامات أبوية ، ملوك فرنسا الطييين ، راكعين أمام
مغارتهم . تملأ الجو الحار رائحة صمغية تتلاقى جذور على مستوى
الأرض ، مثل عروق . تعثرت بها روزانيت ، حزنت ورغبت في
البكاء .

لكنها سريعاً ما استعادت فرحها عالياً ، إذ رأت ، تحت
سقف من الأغصان ، نوعاً من حانة ، وفيها تباع أخشاب
محفورة . شربت قنينة شراب ليمون ، اشترت عصا من خشب
بهشية* . وبدون أن تعير انتباهاً للمنظر الذي نكتشفه من على
الهضبة ، دخلت « مغارة قطاع الطرق » ، يسبقها صبي يحمل
مشعلاً .

كانت تنتظرهما العربية في « با - برايو » .

* جنس شجر وجنية حرجية .

رَسَام بقميص زرقاء رفع نظره وتطلّع اليهما يَمْرَان . كان
يرسم عند جذع سندية ، وعلبة الوانه على ركبتيه .
فجأة ، أمطرت غيمة ، وسط منحدر « شايْلِي » ، جعلتهما
يردّان غطاء السيّارة . سريعاً ما توقّف المطر ، وبدأت الشوارع
تلمع في الشمس ، حين دخولهما المدينة .
أخبرهما مسافرون وافدون حديثاً أنّ معركة رهيبة أدمت
باريس . لم تفاجأ روزانيت ولا عشيقها . ثم ذهب الجميع ، وعاد
النزل هادئاً ، أطفئ الضوء ، وناما على سرير نافورة المياه في
الساحة .

دعبا ، في الغد ، لرؤية « غورج -أو- لو » ، « بحيرة
الجنّيات » « لون - روشيه » و« مارلوت » . وبعد غد توجّها كيفما
اتفق ، كيفما أراد حوذيّهما ، بدون ان يسألأ أين يكونان ، وغالباً ما
كان يهملان المواقع الرائعة .

يجدان أنفسهما مرتاحين في عربتهما اللاندو العتيقة ، الواطئة
مثل أريكة ، والمغطاة بقماشة مقلّمة حائلة الألوان ! تمرّ أمام
أعينهما الحفر ملأى بأشواك الغابات ، بحركة لطيفة ومستمرة .
تخترق الخنشار كالأسهم ، أشعة بيضاء ، ويبدو لهما ، أحياناً ،
طريق غير مطروق ، بخطّ مستقيم ، وعليه أعشاب نابثة هنا
وهناك ، باسترخاء . وسط المفارق ينشر صليب اذرعه الأربع ، في
مكان آخر ، تنحني أعمدة كأشجار ميتة ، وتغريك باللاحاق بهما ،
دروب ضيقة ملتوية ، ضائعة تحت الأوراق . حينها ، كان الجواد
يستدير ، دخلاها ، غاصا في الأوحال . أبعد قليلاً ، كان نما

الطحلب على حدود الأخاديد العميقة .

كانا يحسبان انها بعيدان عن الآخرين ، وحدهما . لكن يمرّ فجأة ، ناطور صيد ومعه بندقيّة ، أو زمرة نساء رتّة الثياب تجرّ على الظهر رزمات قصبان طويلة .

حين توقّفت المركبة ، كان يخيم صمت عام . فقط ، كنت تسمع نفس الجواد ، وصوت عصفور ضعيفاً ، مكرراً .

النور الذي كان يضيء ، في أمكنة ، حدود الغابة ، كان يترك أعماقها في الظلّ ، أو ملطّفة في الخطوط الأولى بنوع من غروب ، هي تشرّ في أبعاد الأبخرة البنفسجية ، ضوءاً أبيض . وسط النهار ، تروح الشمس ، الهابطة عمودياً على الوساعات الخضراء ، تلطّخها ، تعلّق نقاطاً فضيّة على رؤوس الأعصان ، تضلّع البقع المخضوضرة العتب بسحابات شديدة الخضرة ، ترمي بقعاً ذهبيّة على طبقات الأوراق الميتة . تلمح ، وأنت ترفع رأسك ، السماء خلّلت رؤوس الشجر . بعضه المرتفع بلا-هاية ، يبدو بسماوات بطاركة وأباطرة ، أو ، هو متجاوز الأطراف ، يركب كان بجذوعه الطويلة ما يشبه أقواس النصر : شجرات أخرى ، نابتة من الأرض بشكل منحنيّ ، كانت تبدو كأعمدة وشبكة السقوط .

انفتحت هذه الكثرة الضخمة من الخطوط العموديّة . حينها ، تجلّت للعيان موجات خضر هائلة بحدبات متفارّة حتى مسافة الأودية حيث تتقدّم تلال أخرى تشرف على سهول شقراء تنتهي بأن تضيق في شحوب غامض .

كانا ، وهما واقفان الواحد خلف الآخر ، على هضبة ،
يتنشقان الهواء ، ويشعران أن روحهما يدخلها شبه عنجهية حياة
أكثر حرية مع غزارة في القوى ، فرح لا سبب له .
تنوع الأشجار يجعل المنظر متغيراً . شجر الزان ذو القشرة
البيضاء والناعمة تختلط تيجانه . الدرداد يقوّس ، برخاوة ، فناداته
ذات الاخضرار المزرقة . تنتصب بهشيات شبيهة بالبرونز في
الفراخ النيرة * . تم تأتي جماعة من البتولات ** النحيفات ،
محنة بأوضاع رثائية . والصنوبر التناسقي كقصبات الأورغ ، يبدو
كأنه يغني في تمرجه الدائم . وكان هناك سنديان خشن ،
ضخم ، يرتعش ، يتمطى على الأرض ، يعانق بعضه بعضاً ،
ولأنه صلب الجذوع كجذع الانسان ، كان ينطلق بأذرعه العارية
نداءات يأس ، تهديدات غضوبة كجماعة جبابة تجمّدت في
غضبها . يهيم فوق البحيرات ، شيء أكثر ثقلاً ، ارتخاء محموم ،
مقطعاً صفحة مياهها بين أدغال الشوك . لون نباتات صخور
الممرات الضيقة ، حيث تأتي الذئاب لتشرب ، كبريتي ، محروقة
كما بأقدام الساحرات ، ونقيق الضفادع المتواصل يجيب صراخ
طيور الزاغ *** المحوّمة. بعد ذلك ، اخترقا الفرجات الرتيبة

* جنس شجر حرجي من الفصيلة الملوقة .

** أشجار حرجية من الفصيلة البتولية .

*** طيور من الغربان

للغابة ، مزروعة بأشجار مستقاة هـا وهـناك . تصاعد ضجيج حديد . ضُرب قوِيّ وكثُر : إنها ، في جانب التلّة ، جماعه من قلاعي الحجاره تقرر الصّحور . تضاعفت المقالع أكثر فأكثر ، وانتهت بأن كَوْنَت كلّ المظر ، تكعيبيّة كيوت ، مسطّحة كبلاط ، متساندة ، مائله ، مختلطة كأنها آثار متغيّرة العالم ومشوّهه لمدينة اختفت . لكنّ هيجان أصداؤها تجعلك تحلم ببراكين ، بطوفانات ، بالكوارث الأرضيّة الكبيرة المجهولة . قال فريدريك بأنّها هنا منذ بدء الخليقة وستبقى حتى النهاية ، أدارت روزانيت رأسها مؤكّدة أن « هذا سيجعلها مجنونة » ، ودهت تقطف خلنج . أزهاره البنفسجية الصغيرة ، الواحدة فوق الأخرى ، تؤلّف ، كانت ، أوسمة غير متوازية ، والأرض . تحتها ، كأنها شرابات سود في طرف الرمال المبرّقة بالميكاسا* .

وصلا ، يوماً ، إلى نصف تلّة رملية . أرضها ، وهي لم تعرف قدماً ، مضلّعة بتموجات متناسقة ، يقوم ، هنا وهناك ، كشناخ** على سرير محيط جاف ، صخور ذوات أشكال مبهمه للحيوانات ، سلاحف مقدّمة رأسها ، عجول بحر تدبّ ، أفراس نهر ودبية . لا أحد هناك . لا صوت . تبهر الرمال التي تصفعها الشمس ، وفجأة ، في هذا التموّج النوراني ، بدت الحيوانات

* حجر لامع ذو صفائح .

** أنف الجبل الخارج منه والداخل في البحر .

تتحرك . بسرعة عادا ، هاربين من الدوار ، إلى حد ما مدعورين .

بلغا رصانة الغابة . وكانا يصمتا لساعات ، تاركين نفسيهما لتمرجمات النواض ، فيلبثان كمأخوذين في نشوة هادئة . مطوقا خصرها ، يروح يستمع إليها تتحدث بينما ترقزق العصافير ، ويراقب ، في لمحة واحدة ، العنب الأسود لمعطفها وكوى الخلدنج ، جوخة ؟ وشاحها ، لولبيات الغيوم ، وحين يميل إليها ، تتمزج عذوبة جسدها بعطر الغابات الفواح . يسرها كل شيء ، يظهران لبعضهما ، كما شيء طريف ، أسلاك العذراء معلقة في الأدغال ، ثقباً ملأى بالماء وسط الحجارة ، سنجاباً على الأغصان ، طيران فراشتين تتبعانها ، أو ظبية ، على عشرين خطوة منها ، تمشي ، بهدوء تحت الأشجار . بمظهر كريم ولطيف ، ومعها الشادن جنباً إلى جنب . كادت روزانيت تركض وراءها تريد لو تقبلها .

خافت ذات مرة ، حين قدم رجل ، فجأة ، وأراها ثلاث أفاع في علة . بقوة ارتعت على صدر فريدريك ، كان سعيداً لضعفها ولا حساسه بأنه قوي ليحميها .

ذلك المساء ، تعشياً في نزل على ضفة السين . كانت الطاولة قرب النافذة ، وروزانيت قبالة ، راح يتأمل أنفها الصغير الدقيق والأبيض ، شفيتها المضمومتين ، عينيها الصافيتين ، عصائب شعرها الكستنائية الكان ينفخها الهواء ، ووجهها البضاوي الجميل . ثوبها الحريري الجديد يلتصق ، كان ،

بكنفيها النازلتين إلى حدّ ما ، ويداها ، الظاهرتان من كميتها
الواسعتين تقطعان ، تسكان الشراب ، تتقدّمان على الشرف .
قدّمت لهم دجاجة كاملة ، سمكيّة أنقليس ، خمرة حامزة ، خبزاً
قاسياً ، سكاكين مثلمة . كل هذا زاد فرحهما ، وهما . كادا
يظنان أنفسهما في رحلة في إيطاليا ، في « شهر عسلهما » .

خرجتا يتنزهان ، قبل عودتهما ، على طول حافة النهر .
السماء بزرقة حوّة ، مكورة كما قبة ، تتكىء ، عند
الأفق ، على تخريم الغابات في طرف الحقل المواجه ، كانت تظهر
قبة جرس في قرية ، وأبعد ، إلى الشمال ، يكوّن ، سقف بيت ،
لطخة حمراء على النهر الكان يبدو جامداً على امتداد انعطافه . مع
ذلك ، ففضبان الأسل تتلوّى ، وتهزّ المياه ، برقة ، عصوات
مغروزة على الضفة للامساك بالشباك ، وهناك ، كذلك ، قفة
سُوحر* ، وزورقا إنقاذ أو ثلاثة . وقرب النزل ، فتاة بقبعة قش
تنشل دلاء من بئر ، كل مرة تنشلها ، يروح فريدريك يستمع ،
بفرحة لا توصف ، إلى صرير السلسلة .

ما يشك ، كان ، في أن سعادته ستدوم حتى نهاية حياته ،
بهذا المقدار بدت له سعادته طبيعيّة ، ملازمة لحياته ، ولشخصيّة
هذه المرأة . دفعته حاجة للملاطفة . أجابته بكلمات عذبة ،
وبتربيت لطيف على كتفه ، وبمجاملات فتنته مفاجآت . كشف
لها ، أخيراً ، جمالاً كلي الجدّة ، لم يكن ، ربما ، سوى انعكاس

* نوع من الصفصاف تُستعمل أغصانه اللينة في صناعة السلال .

الأشياء المحيطة ، إلا إذا جعلتها تتفتح إمكانيات سرية .
يستريحان في قلب الريف ؟ يتمدد ، رأسه على ركبتيها ، في
ظل شمسية كبيرة ، أو هما يقيان ، نائمين على بطنهما في وسط
العشب ، واحدهما بمواجهة الآخر ، يتأملان بعضهما ، مستغرقين
في عيني بعضهما ، متعطشين إلى بعضهما ، راويين غليلهما ، ثم
يمكثان صامتين جفونهما نصف مطبقة .

أحياناً ، كانا يسمعان في البعيد قرع الطبول . تكون دقة
الانذار يدقوها في القرى ، للذهاب والدفاع عن باريس .
- آه ! عجباً ! الفتنة ! يقول فريدريك بشفقة مزدرية ،
يبدو له كل هذا التحرك بائساً بجانب حبها ومقابل الطبيعة
الخالدة .

ويروحان يتحدثان عن أي شيء ، عن أمور يعرفانها تماماً ،
عن أشخاص لا يهتمانها أبداً ، عن ألف أمر لا معنى له . تحدّثه
عن وصيفتها وعن مزيّنها . يوماً ، رأت نفسها وقد ذكرت
عمرها : تسعة وعشرون عاماً ، إنها تشيخ .

ومن دون إرادة منها، كانت تجربته في مرات كثيرة تفاصيل
عنها . كانت بائعة في محل ، قامت برحلة إلى انكلترا ، بدأت
دراسات لتكون مثّلة ، كل هذا بدون تمهيد ، ولم يكن ليقدّر أن
يؤلف منها وحدة متكاملة . ذات يوم ، وهما جالسان تحت دلبة ،
في مقلب حقل ، روت له أكثر من هذا . وفي الأسفل ، على
حدود الطريق ، فتاة صغيرة ، حافية القدمين ، ترعى بقرة . مذ
رأتهما ، أتنها طالبة صدقة ، ومسكة بيد تنورتها الداخلية

الممزقة ، كانت تحك ، بالأخرى ، شعرها الأسود الذي يغمر ،
كشعر مستعار للويس الرابع عشر ، كل رأسها الأسمر ، المشع
بعينها الرائعتين .

قال فريدريك :

- ستكون جميلة جداً فيما بعد .
- كم تكون محظوظة لو كانت بغير أم ! أجابت روزانيت .
- ماذا ؟
- بلى ، أنا ، لولا أمي . . .

تهدت ، وطفقت تتحدث عن طفولتها . كان أهلها
فيساجين . كانت تخدم أباه كتلميذة . فالرجل الطيب المسكين
يأما كان يرزح ، زوجته تسبه وتبيع كل شيء لتذهب تشرب .
كانت روزانيت تراقب غرفتهما : النول مصفوف ، طويلاً ، في
مقابل النوافذ ، القدر على الموقد ، السرير مدهون بلون
الأكاجو ، درج في المقابل ، وحجرة السلم المعنمة حيث نامت
حتى الخامسة عشرة . أخيراً ، قدم سيد ، وهو رجل سمين ،
وجهه بلون الشمشاد ، يبدو متديناً ، ويرتدي الأسود . تحدث
وأماها ، مرة ، إلى حد أنه ، بعد ثلاثة أيام . . . توقفت
روزانيت ، وبظرة مليئة وقاحة وخشونة أضافت :

- كانت تمت الصفقه !

ثم ، بحية حركة فريدريك :

- بما أنه كان متزوجاً (كاد يخشى المجازفة في بيته) ،
- أخذت إلى غرفة صاحب مطعم ، وقيل لي انني سأكون سعيدة

وسأتلقي هدية جميلة .

« أول ما صفعني ، وأنا بالبواب ، كان شمعداناً من فضة مذهبة ، على طاولة عليها طعام لشخصين . في السقف مرآة تعكسه ، وستائر الجدران الحريرية الزرقاء ، كانت تجعل الشقة كلها تشبه مضجعاً . دهمتني مفاجأة . تفهم أنت ، كائناً شقياً لم يكن رأى شيئاً ! أخذني خوف بالرغم من انبهاري . رغبت في الخروج . مع ذلك فقد بقيت .

« المقعد الوحيد كان أريكة قرب الطاولة . ارتخت تحتي . فم جهاز التدفئة يرسل نحوي نسمة حارة ، وكنت بقيت هنا لم آخذ شيئاً . دفعني الصبي الكان واقفاً إلى الأكل بسرعة صب لي كأس خمر كبيرة ، دار رأسي ، أردت أفتح النافذة ، قال لي : « كلا ، يا آنسة ، هذا ممنوع » . وغادرتي ، كانت الطاولة ملانة بأشياء كثيرة ما كنت أعرفها . لا شيء بدا لي حسناً . فارتديت إلى مجمع مربى ، ورحت أنتظر . لم أكن أدري ما يؤخره عن المجيء . فالوقت متأخر ، نصف الليل أو أقل قليلاً ، ما عدت أستطيع الصمود إرهاقاً ، وفيما أنا أدفع واحدة من الوسادتين لأتمدّد بطريقة أفضل ، رأيت تحت يدي ، نوعاً من البوم ، دفترأ ، كانت صوراً فاحشة . كنت أنام فوقها ، حين دخل » .

خفضت رأسها ، ولبثت مفكرة .

كانت الأوراق قريهما تهمس في ركام من الأعشاب ،

وقمعية* كبيرة تتمايل ، وفيض النور كموجة على المرجة
الخضراء ، ويقطع الصمت ، من حين لآخر ، رعي البقر التي لم
تكن تُرى ، بعد .

أطرت روزانيت تراقب نقطة في الأرض ، على خطوات
ثلاث منها ، بثبات ، منخاراها خافقان ، مأخوذة . أخذ
فريدريك يدها .

- كم قاسيت ، يا حبيبي المسكينة !
- نعم ، قالت ، أكثر مما تظنّ !... حتى اني أردت
الموت ، منعوني .
- كيف ؟

- آه ! لا نفكر بذلك ، بعد !... أحبك ، سعيدة أنا !
قبلني . ونزعت نطف شوك علقت بأسفل ثوبها ، واحدة فواحدة .
فكر فريدريك ، بخاصة ، بما لم تقله . كيف استطاعت أن
تخرج من التعاسة ؟ إلى أي عشيق مدينة هي بتربيتها ، ماذا كان
جری في حياتها حتى يوم مجيئه الأول إليها ؟ رغبتها الأخيرة تمنع
الأسئلة . فقط ، سأها كيف تعرّفت إلى أرنو .
- عن طريق فانتاز .

- ألسيت أنت من رأيته مرة في «الباليه- رويال» معها
كليهما ؟

ذكر التاريخ بالتحديد . حاولت روزانيت التذكّر ،

* جنس زهر .

ذلك .

هذا صحيح ! . . . ما كنت فرحة في تلك الأثناء !
 لو كان بدا ممتازاً . لا يشك فريديريك بهذا . مع
 يقهما رجل غريب الأطوار ، مليء عيوباً ، اجتهد في
 بها . وافقته .

- ما هم ! . . . مع ذلك نحبه ، هذا الجمّل !

- حتى الآن ؟ قال فريديريك .

احمرّت ، نصف مبتسمة ، نصف غاضبة .

- إيه كلاً ! إنه من الذكرى القديمة . لا أخفي عنك

شيئاً . حتى لو حدث هذا ، فهو أمر مختلف ! على كلّ حال ،
 لا أجذك لطيفاً بسبب ضحيتك .

- ضحيتي ؟

أخذت روزانيت ذقنه :

- بلا شك !

ومُزَازَنَةٌ مثل الأطفال :

- ما كنا ، دوماً ، عُقلاء ! لقد نمنا مع زوجته !

- أنا ! أبداً !

تبسّمت روزانيت . جرحته ابتسامتها ، بدت له دليل

لا مبالاة . لكنها ، بلطفٍ ، أجابت ، وينظرة من نظراتها التي

تتوسّل الكذب :

- أكيد أنت ؟

- طبعاً !

أقسم فريدريك بشرفه أنه لم يفكر ، أبداً ، بالسيدة أرنو
لكونه يعشق أخرى عشقاً كبيراً .

- من هي هذه ؟

- هي أنتِ ، يا كَلِيَّةَ الجمال !

- آه ! لا تسخر مني ! تعيظني !

وجد من الفطنة اختراع حكاية ، تعلّق . وجد تفاصيل
بمناسبات معيّنة . مع ذلك ، فقد جعلته ، تلك ، تعيشاً جداً .
- طبعاً ! لاحظ لك !

- أوه ! أوه ! ربما ، يريد أن يجعلها تعرف ، من خلال
هذا ، حظوظه السعيدة الكثيرة ، لتكون عنه رأياً أفضل . وهكذا
روزانيت ما ذكرت جميع عشاقها ليحترمها أكثر ، لأنه ، وسط
الاعترافات الأكثر حميمية ، هناك دائماً قيود ، خجلاً ، لطافة أو
شفقة . نكتشف ، عند الآخر ، أو في الذات ، ورطبات أو حماقات
تمنع المتابعة ، فضلاً عن ذلك ، نشعر أننا لن نكون مفهومين ،
فالتعبير الدقيق صعب مهما كان الموضوع ، والذوبان الكامل ،
نادر .

لم تكن « المارشالة » المسكينة عرفت أحسن من هذا .
غالباً ، وهي تنظر إلى فريدريك ، تتمرّج دموع في جفونها ، ثم
ترفع عينيها ، أو تمدّهما صوب الأفق كما لو هي لمحت فجراً ما ،
عظيماً ، آفاق سعادة لا محدودة . أخيراً ، في يوم ما ، أعلنت أنها
ترغب في الذهاب إلى القدّاس ، « ليحمل هذا سعادة لحبنا » .
من أين ، إذن ، قاومته كل تلك المدة الطويلة ؟ هي

لا تعرف ، ولا لماذا . مرّات كثيرة أعاد سؤاله ؟ أجابت وهي تضمّنه بين ذراعيها بقوة :

- لأنني كنت أخشى أن أحبك كثيراً يا حبيبي !
صباح الأحد ، قرأ فريدريك في جريدة ، اسم ديسردييه في
لائحة أسماء الجرحى . صرخ مظهراً الجريدة لروزانيت ، أعلن أنه
سيذهب للحال .

- لماذا ؟ ماذا ستفعل ؟
- لأراه ، لأعتني به !
- إنما لن تتركني وحدي ، أليس كذلك ؟
- تعالي معي .
- آه ! شكراً جزيلاً ! أذهب أتورط في شغب كهذا !
شكراً !

- لكن لا يمكنني ...
- يه يه يه ! كأن ليس في المستشفيات ممرضون ! ثم ، كان
ما يخصّه هذا ، بعد ؟ كلّ لنفسه !
غضب لهذه الأنانية ، وراح يلوم نفسه لكونه لم يكن هناك
مع الآخرين . لامبالاة بهذا المقدار تجاه مصائب الوطن ، بدت له
حقيرة وبورجوازية . وفجأة ، أثقل عليه حبه كجريمة . حرّدا
لساعة .

ثم توسّلت إليه ليصبر ، ولا يعرض نفسه .
- لو ، صدفة ، قتلت !
- إيه ! أكون قمت بواجبي !

ثارت روزانيت . فواجهه ، قبل كل شيء ، أن يحبها . فهو ، إذن ، بات لا يريد لها . هذا ليس حساً مشتركاً . يا لها فكرة ، يا إلهي !

طلب فريدريك كشفاً بالحساب . إنما لم يكن الرجوع إلى باريس ، بالأمر السهل . فعربة مكتب سفريات (ليلوار) ، ذهبت منذ قليل ، و « برلينيات » (ليكونت) لم تذهب ، وال « ديليجنس » التي لـ (بورديوته) لن تمر قبل الليل ، ولربما كانت مليئة ، لا يعرف عنها شيئاً . بعد أن أضاع وقتاً طويلاً في هذه الاستعلامات ، أتته فكرة الذهاب إلى المحطة . لكن مدير المحطة رفض إعطاءه جوادين ، إذ لم يكن يحمل جواز سفره . استأجر ، أخيراً ، عربة (هي نفسها الكانا تنزها بها) وحوالي الخامسة وصلاً أمام فندق التجارة في ملين .

كانت ساحة السوق مغطاة بأهرام البنادق . فقد رفض المدير توجه الحرس الوطني إلى باريس . لكن الذين لم يكونوا من مقاطعته ، كانوا يريدون متابعة طريقهم . إنهم يصرخون . والنزل مليء ضوضاء .

أعلنت روزانيت ، وقد أخذها الخوف ، أنها لن تذهب أبعد من هنا ، وتوسلت إليه أن يبقى . وهكذا صاحب النزل وزوجته . تدخل شاب كان يتعشى ، مؤكداً أن المعركة ستنتهي قريباً ، ومع ذلك يجب إتمام الواجب . حينها تضاعفت شهقات « المارشالة » . غضب فريدريك . أعطاها ثروته ، قبلها بحيوية ، واختفى .

فور وصوله إلى كورباي ، أخبروه ، في المحطة ، أنّ الثّوّار قطعوا خطوط الحديد بين مسافة وأخرى ، ورفض الحوذيّ أن يتعد به أكثر . قال إنّ جواديه مرهقان .

ومع هذا ، فقد حصل فريدريك بمعاونته ، على عربة « كبريولة » في حالة سيئة ، قبل صاحبها بأن يوصله إلى « باب إيطاليا » بمبلغ ستين فرنكاً عدا الحلوان . إنّما أنزله سائقه ، على مئة خطوة من الباب ، وعاد . كان فريدريك يسير في الطريق ، حين ، فجأة ، قابله خفير بحربة . أوقفه أربعة رجال صارخين : - هوذا واحد منهم ! احذروا ! فتشوه ! إنه شرير ! وغدا عظيمة كانت دهشته ، إلى درجة تركهم يقودونه إلى المركز العسكري في المستديرة نفسها حيث يتلاقى بولفار غوبلين والمستشفى ، وشارعا غودفروي وموفتار .

على مفارق الطرقات الأربعة ، كانت متاريس أربعة تؤلف كُوم بلاط هائلة . مشاعل تنشّ هنا وهناك ، وبالرغم من الغبار الكان يرتفع لاحظ جنوداً مشاةً وحراساً وطنيين ، كلهم سود الوجوه ، وقحون ، وحشيون . منذ قليل كانوا استولوا على الموقع ، أطلقوا النار على رجال كثيرين ، ما يزال خوفهم قائماً . قال فريدريك إنّ آتٍ من فونتينبلو لاغائة رفيق له جريح يسكن شارع بيلغون ، أوّل الأمر ، ما أراد أحد تصديقه ، تفحصوا يديه ، حتى أنهم شمّوا أذنيه ليتأكّدوا من أنّ لا رائحة بارود فيه . لكثرة ما كرّر القول نفسه ، انتهى بأن أقنع نقيباً أمّر رامين باصطحابه إلى مركز حديقة النباتات .

نزلوا بولفار المستشفى . هبّ نسيم قوي ، أحياء .
استداروا ، بعدها ، عبر شارع سوق الجياد . كانت حديقة
النباتات ، إلى اليمين ، تؤلف كتلة سوداء كبيرة ، بينها ، إلى
اليسار ، تشع كحريقة واجهة كنيسة سيّدة الرحمة ، المضاءة
نوافذها كلّها ، وظلال سريعة تمرّ على زجاجها .
ذهب رجلاً فريدريك . رافقه آخر حتى مدرسة
البوليتكنيك .

شارع سان فيكتور معتماً ، كان ، لا مصباح ولا ضوء في
المنازل . يُسمع كل عشر دقائق :

- أيها الحرس ! إحذروا ! وتمتدّ هذه الصرخة ، وسط
السكون ، كصدى حجر يقع في هوة .

يقترّب ، أحياناً ، وقع أقدام ثقيلة . تكون دورية من مئة
رجل على الأقل ، يتسرّب من هذه الكتلة الغامضة ، وشوشات ،
صليل حديد مبهم ، وإذ تبعد بتمایل إيقاعي ، يتلاشى كل
صوت في الظلمة .

في قلب المفارق جندي خيال ، ثابت . يمرّ ، بين وقت
وآخر ، ساع ، مسرعاً ، ثم يعود الصمت . يسمع للمدافع
المتنقلة على البلاط دحرجة هائلة . ينقبض القلب لهذا الصخب
المغاير لكلّ ضجيج آخر . يبدو ، حتى ، كأنه يوسع الصمت
الكان عميقاً ، مطلقاً ، - صمتاً أسود . يقترّب رجال بقمصان
بيضاء من الجنود ، يقولون لهم كلمة ، ويختفون كما أشباح .
كان مركز مدرسة البوليتكنيك يضيق بالناس . نساء يسدّدن

العتبة يطلبين رؤية أبنائهنّ أو أزواجهنّ . يحولونهنّ إلى البانتيون وقد حولوه مستودع جثث ، - وما كانوا يستمعون إلى فريدريك . عائد ، مقسماً ، أن صديقه ديسردييه ينتظره ، هو مشرف على الموت . أعطوه ، في الأخير ، عريفاً ليقوده إلى أعلى شارع سان جاك ، عند عمديّة الدائرة الثانية عشرة .

ساحة البانتيون كانت ملأى بجنود نائمين على القشّ . يبرز النهار . تنطفئ أنوار المعسكر .

لقد خلّفت الثورة في هذا الحيّ آثاراً رهيبة . أرض الشوارع ، من طرف لآخر ، محدّنة بنفاوت . يبقى على المتاريس ، وهي آثار ، عربات نقل عام ، قساطل غاز ، دواليب مركبات ، وفي أماكن مختلفة ، بقع سوداء صغيرة ، يجب أن تكون دماً . مخرّقة البيوت ، كانت ، بشطايا ، وتبدو هياكلها كقشّارة الجفصين . بسمار واحد ، ماتزال عالقة بعض مشرّبيات النوافذ ، وكأنها خرق . الأبواب مفتوحة على الفراغ ، بعد أن انهدّت الأدراج . كنت ترى داخل الغرف بأوراقها المملّعة ، ترى ، مرات ، أن بقيت فيها أشياء منمنمة . لاحظ فريدريك ساعة حائط ، عود ببغاء ، صوراً .

حين دخل دار العمديّة ، كان الحراس الوطنيون يتحدثون باستفاضة عن قتلى برياً ونيفرييه ، عن المندوب شر بونيل وعن مطران باريس . يقولون إن الدوق أومال ذهب إلى بولونيا ، باربيس هرب من فنسان ، ان سلاح المدفعية وصل من بورعيس وأنّ نجدات الريف تتوافد . حوالى الثالثة ، أعلن أحدهم أخباراً

سارّة ، ممثّلون عن الثورة كانوا عند رئيس مجلس النواب .
فرحوا ، وبما أنه كان لا يزال معه اثنا عشر فرنكاً ، طلب
فريدريك اثنتي عشرة قنينة نبيد ، آملاً بهذه الطريقة الاسراع في
الافراج عنه . وفجأة ، بدا كأنهم سمعوا تراشق رصاص . توقف
شرب الخمر ، نظروا إلى المجهول بعيون حذرة ، قد يكون هنري
الخامس .

ولثلا ما يتحمّلوا مسؤولية ، نقلوه إلى عمديّة الدائرة
الحادية عشرة ، حيث لم يسمحوا له بالخروج قبل التاسعة
صباحاً .

خرج راكضاً حتى شارع فولتير . رأى هرماً يبيكي ، على
نافذة ، وعيناه مرفوعتان . كان نهر السّين يجري بهدوء . السّماء
زرقاء صافية ، وفي أشجار التويلري ، بعض عصافير ترقزق .
كان فريدريك يجتاز ميدان الفروسية حين مرّت نقالة . قدّم
المركز العسكريّ السلاح ، بسرعة ، وقال الضابط متلمساً قبّعته :
« المجد للشجاعة العائرة الحظ ! » . كانت هذه العبارة قد صارت
شبه إلزاميّة ، من يتلفظ بها ، يبدو دائماً منفجعلاً بأبّهة . جماعة من
شباب غاضب تواكب النقالة صارخة :

- سنثار لكم ! سنثار لكم !

تدور السيّارات على البولفار ، ونساء أمام الأبواب تحضرن
الضّمادات . في هذه الأثناء ، كانت الثورة انكسرت أو تكاد .
يعلن ذلك بيان من كافانايك وقد ظهر للتوّ . ظهرت ، في طرف
شارع فيفيان مفرزة من جنود الحرس الوطني . حينها ، أطلق

البورجوازِيون صيحات الحماسة . رفعوا قَبَعاتهم ، صفقوا ،
رقصوا ، أرادوا أن يَقْبَلوهم ، يقدّموا لهم المشروب ، وراحت تقع
زهور من الشرفات ، ترميها النساء .

أخيراً ، وصل فريدريك عند ديسردييه في العاشرة والمُدفع
يدويّ لاحتلال ناحية سان أنطوان . وجده في سقيفته ، ممدداً على
ظهره ونائماً . خرجت امرأة من الغرفة المجاورة ، بخطوات
صامتة : إنها الأنسة فاتناز .

انتحت بفريدريك جانباً ، وأخبرته كيف جرح ديسردييه .
السبت ، في شارع لافايت ، كان شاب ملتفت بعلم مثلث
الألوان ، يصيح بالحرس الوطني من على حاجز : « إذهبوا أطلقوا
النار على إخوانكم ! » وبما أنهم كانوا يتقدّمون ، فقد رمى
ديسردييه بندقيته ، أبعده الآخرين ، قفز إلى الحاجز ، وبلطمة من
حذائه ، جندل المتمرد وانتزع منه العلم . وُجِدَ ، فيما بعد ، تحت
الأنقاض ، وقد احترقت فخذة شظيّة نحاس . اقتضى توسيع
الجرح لانتزاع الشظيّة . هي ، الأنسة فاتناز ، وصلت في المساء
عينه ، ومد ذلك ، لم تفارقه .

بذكاء ، كانت تحضّر كل يوم ما يلزم للتضميد ، تساعد
ليشرب ، تلاحظ ، بدقّة ، أقل رغائبه ، تروح وتأتي ، أكثر خفّة
من جاسوس ، تتأمّله بعينين حنونتين .

خلال أسبوعين ، ما تعيّب فريدريك عن الحضور كلّ
صباح . يوماً ، وهو يتحدّث عن تفاني الفاتناز ، هزّ ديسردييه
كتفيه .

- إيه كلاً ! ذلك لمصلحة !

- أو تظنّ ؟

أجاب : « متأكد أنا ! » ولم يرد أن يفسّر أكثر .

تبالغ في تقديم الخدمات له ، حتى لتأتيه بالجرائد الكانت تمتدح فعله الجميل . بدت تزعجه هذه المدائح . حتى انه اعترف لفريدريك بقلق ضميره .

لربما كاد يكون في الطرف الآخر مع ذوي القمصان الفضفاضة ، لأنهم وعدوهم بأمور كثيرة لم يفوا بها . زعماءهم يكرهون الجمهورية ، ولقد بدوا شديدي القساوة معهم ! كانوا مخطئين ، ولا شك ، إنما ليس كلياً . وطفق الشاب الطيب تعذبه هذه الفكرة : انه قد يكون صارع العدالة .

سينيكال ، المسجون في التويلري تحت الشرفة التي على حدود الماء ، ما كان يعرف هذه الهواجس .

هناك كانوا تسعمئة رجل ، مكومين في الوساخة ، بلا نظام ، سوداً من البارود والدم المختر ، مرتجفين حرارة ، صارخين حنقاً ، وما كانوا يسحبون من بموتون من بين الآخرين . يظنون ، أحياناً ، أنهم يطلقون النار عليهم جميعاً ، يشعرون بهذا مع دوي انفجار مفاجيء ، فيتسارعون إلى الجدران ، ثم يتهاوون في أمكنتهم ، أغبياء جعلهم الألم ، حتى ليبدو لهم أنهم يعيشون في كابوس ، في وهم مأتم . بشبه القنديل المعلق في عقد القبة بقعة دم ، وترفرق أشعة صغيرة خضراء وصفراء تسببها انبعاثات القبو الصغير . وخوفاً من الأوبئة ، تشكلت لجنة . تراجع رئيسها ،

منذ الخطوات الأولى ، مذعوراً من رائحة البراز والجنث . حين يتقدم السّجاء من منفذ ، يروح الحراس الوطنيون الذين هم في الوظيفة - ليمنعوهم من زعزعة السياج - ينكبّون عليهم ضرباً بالحراّب ، كيفما أتى الضرب .

إجمالاً ، ما كانوا يطاقون . هؤلاء الذين ما كانوا شاركوا في القتال ، أرادوا الظهور . يكون فيضاً من الخوف . ينتقمون ، مرة واحدة ، من المحلّات ، الأندية ، التجمّعات ، العقائد ، من كل من كان ساخطاً من ثلاثة أشهر ، ورغماً عن النصر ، فالمساواة (كما لعقاب المدافعين عنها وسخرية بأعدائها) كانت تبدو ، بازدهاء ، عدالة حيوانات فظة ، بمستوى الثورات الدموية نفسها ، إذ ان التحمّس للمصالح وازى هذيان الحاجة ، كان للأرستقراطية هيجان الفسق ، وما بدت قبعة القطن أقلّ شناعة من القبعة الحمراء . وحكمة الشعب مضطربة كانت ، كما بعد ثورات الطبيعة الكبرى . إن رجال فكر كثيرين لبثوا بلهاء مدى الحياة .

السيد روك كان صار فائق الشجاعة ، إلى حدّ ما مجازفاً . بعدما وصل مع النوجاتيين إلى باريس في السادس والعشرين ، التحق بالحرس الوطني الكان ينجّم في التويلري ، بدلاً من أن يرجع مع مواطنيه . وسعيداً جداً كان إذ جعل في الحراسة أمام السرفة التي على حدود الماء . على الأقلّ ، هنا ، هم تحت أمرته هؤلاء اللصوص المتسكّعون ! متشياً ، كان ، بهزيمتهم ، بحقارتهم ، ولم يكن يستطيع إمساك نفسه عن ذمّهم .

واحد منهم ، مراهق ذو شعر أشقر طويل ، وضع وجهه على القضبان سائلاً خبزاً . أمره السيد روك بالصمت . لكنّ الشاب راح يكرّر بصوت مثير للشفقة .

- خبزاً !

- أمعي أنا ؟

ظهر سجناء آخرون في النافذة ، بلحاهم الشائكة ، وعيونهم المشقّة ، متناكبين صائحين :
- نريد خبزاً .

سحط السيد روك إذ رأى سلطته غير مقدّرة . سدّد إليهم ، ليخيفهم ، لكنّ الشاب ، رافعاً رأسه ، صرخ ، مرّة بعد :
- خبزاً !

- خذ ! إليك ! قال السيد روك مطلقاً النار .

صدر ضجيج هائل ، ثم لا شيء . بقي شيء أبيض قرب الدلو .

بعد هذا ، عاد السيد روك إلى بيته ، إذ هو يملك ، في شارع سان مارتان ، بيتاً يحتفظ به للاستراحة . والأضرار التي كانت أحدثتها الثورة في واجهة مسكنه ، ما تلكأت في جعله يغضب . لكن بدا له ، وهو ينظر إليه ثانية ، أنه قد ضخّم الضرر . وإن عمله ، منذ لحظات ، هدّاه كتعويض .

كانت ابنته نفسها من فتح له الباب . قالت له ، مباشرة ، إن غيابها الطويل أقلقها . خستيت سوءاً ، جرحاً .

رقّق قلب السيد روك هذا التأكيد على الحبّ البنوي .

عجب كيف جاءت بلا كاترين .
 - لقد أرسلتها بجمّة ، أجابت لويز .
 واستخبرت عن صحته ، عن أمور وسواها ، ثم ، بمظهر
 غير مبالٍ ، سألته إن كان التقى فريدريك صدفة .
 - لا ! أبداً !
 لأجله وحده ، قامت برحلتها .
 خطوات شخص في الممشى .
 - آه ! معذرة . . .
 واختفت .
 ما وجدت كاترين فريدريك . إنه غائب منذ أيام ،
 وصديقه الحميم ، السيّد ديلورييه ، يسكن ، الآن ، في الريف .
 ظهرت لويز ، من جديد ، مرتجفة ، لا تستطيع الكلام .
 استندت إلى الأثاث .
 - ما بك ؟ ماذا حلّ بك ؟ صرخ والدها .
 أشارت أن لا شيء ، وقامت بعد جهد مضى .
 صاحب المطعم المقابل ، أتى بالحساء . لكن السيّد روك
 كان ألمّ به انفعال كبير . « الأمر خطير » ، وأصيب ، وقت
 التحلية ، بنوع من الغشيان . بسرعة طلبوا طبيباً ، وصف
 جرعاً . ثم ، حين صار في سريره ، طلب السيّد روك ، أكبر
 عدد ممكن من الأغذية ، ليعرق . كان يتنهد ، يتأوه .
 - شكراً يا كاترين العزيزة ! - قبلي أبالك المسكين يا حبيبتي !
 آه ! هذه الثورات !

وبما أن ابنته راحت تعتقه لأنه مريض وهو يتعذب لأجلها ،
أجاب :
- نعم ! معكِ حق ! لكن الأمر يفوق طاقتي ! أنا حسّاس
جداً !



إليزا شليسنجر الواقع .. مدام أربو « التربية العاطفية »

II

تستمع السيّدة دمبروز ، في صالونها ، بين قريبتها والآنسة
جونسون ، إلى السيد روك يجبر عن متاعبه العسكريّة .

تعضّ شفّتها ، تبدو تتوجّع .

- أوه ! ليس هذا بشيء ! سوف يمرّ !

وبنبرة أنيقة :

- عندنا ، على العشاء ، واحد من معارفك ، السيّد

مورو .

ارتعشت لويّز .

- ثم ، فقط ، بعض أصدقاء حميمين ، بينهم الفرد دو

سيزي .

وامتدحت أساليبه ، وجهه ، وبخاصه طبائعه .

تكذب ، كانت ، السيّدة دمبروز ، أقلّ مما كانت تظن ،

يحلم الفيكونت بالزواج . أسرّ بذلك إلى مارتينون ، مضيفاً أنه

واثق من أنه يعجب الآنسة سيسيل وأن أهلها سيوافقون .

لا بد أن يعرف عن البائنة معلومات مشجّعة لكي يجازف

بمهارة كهذه . والحال أن مارتينون يرتاب بأن تكون سيسيل الابنة

الطبيعية للسيد دمبروز ، وفي هذه الحالة ، من المغالاة طلب
يدها . هذه الجراءة فيها مخاطر ، وكان مارتينون ، حتى الآن ،
تصرّف بطريقة لا مجازفة فيها ، على كل حال ، هو لا يعرف كيف
يتخلّص من الحالة . كلام سيزي حتم عليه ، وكان تقدم بطلبه
إلى صاحب المصرف الذي ، إذ لم يجد مانعاً ، أعلم السيدة
دمبروز بالأمر .

ظهر سيزي . وقفت ، قالت :

- إنك تنسانا . . . سيسيل .

وفي اللحظة عينها ، دخل فريدريك .

هتف السيد روك :

- آه ! أخيراً ! ها نحن نجدك ! ذهبت إليك مع لويز ،
ثلاث مرات ، هذا الأسبوع ! إن أموراً كثيرة تشغله ، وراح يجد
أعذاراً أخرى . ولحسن الحظ ، بدأ المدعوون يفدون : أول الأمر
السيد بول دي غريمونفيل ، الديبلوماسي الكان لمح في الحفلة ،
ثم فوميشون ، هذا الصناعي الذي كان مدحه ، ذات مساء ،
تفانيه المحافظ ، تتبعهما دوق دو مونتروي - نانتوا المسنة .

لكن صوتين ارتفعا في غرفة الانتظار .

قال صوت :

- متأكدة أنا .

أجاب الصوت الآخر :

- يا سيدتي الحبيبة ، يا سيدتي الحبيبة ! لطفاً ، إهدئي !
إنه السيد دونوانكور ، عجوز جميل ، محطّ السحنة بمرهم

بارد ، والسيدة دولارسيلوا ، زوجة مدير من قبل لويس - فيليب . ترتجف ، كانت ، بذعر ، هي سمعت ، من لحظات ، لحن بولكا على ارغن ، وهذا علامة بين الثوار . كثير من البورجوازيين كانت لهم تصورات ماثلة ، يحسبون أن رجالاً ، في سراديب الأموات ، سوف يقتحمون ناحية سان جرمان ، تنطلق من الأقبية شائعات ، وتحدث ، في الخفايا ، أمور مشبوهة .

في ذلك الوقت ، اجتهد الجميع في تهدئة السيدة دي لارسيلوا . عاد الهدوء . لا شيء يخشى منه « كافيلاك أنقذنا ! »

كان مخاوف الثورة ما كانت كافية ، يضاعفونها . كان هناك ثلاثة وعشرون ألف محكوم بالأشغال الشاقة من جانب الاشتراكيين ، - لا أقل ! -

ما كانوا يشكون ، أبداً ، يكون الأطعمة مسممة ، بأن بعضاً من جنود الحرس الوطني قد نُشِروا بين لوحتين ، وبالتطوع في الجيش الذي كان يعلن النهب ، الحريق .

- وشيء ما فوق ذلك ! أضافت المديرية السابقة .

- آه ! أيتها العزيزة ! قالت بخفر السيدة دمبروز مشيرة بنظرها إلى الفتيات الثلاث .

خرج السيد دمبروز من غرفته مع مارتينون . أدارت رأسها وأجابت على تحيات بيلران كان يتقدم ، نظر الفنان إلى الجدران نظرة كئيبة . انتحى به ، صاحب المصرف ، وأفهمه أنه ، حتى الآن ، عمل على إخفاء لوحته الثورية .

- بلا شك ، قال بيلران ، سقوطه في نادي الذكاء غير من

آرائه .

أسرّ إليه السيّد دمبروز ، في غاية التهذيب ، انه سيكلفه بأعمال أخرى .

- ولكن معذرة ! ... - آه ! أيها الصديق العزيز ! يا للسعادة !

- أرنو والسيّدة أرنو كانا أمام فريدريك .

أصيب كما بدوار . كانت أزعجته روزانيت طوال بعد الظهر بإعجابها بالجنود ، فاستفاق حبه القديم .

جاء مدير الخدم ، أعلن للسيّدة أن المائدة جاهزة . أمرت الفيكونت ، بنظرة ، ليلزم سيسيل ، قالت بصوت منخفض لمارتينون : « يا له من مسكين ! » وانتقلوا إلى غرفة الطعام .

وسط السماط ، تحت أوراق أناناس خضر ، يقوم مرجان * يمتد خطمه صوب شقة يحمور ** ، وملامساً بذنبه هرم سلطعون . وتقوم في سلال هرمية من خزف سكسوني قديم ثمار تين ، كرز ، إجاص وعنب (هي من بواكير الزراعة الباريسية) ؛ من وقت لآخر ، تختلط باقة زهر بأوان فضية نيرة ، تملأ المسكن نوراً لطيفاً ستائر حريرية بيضاء مسدلة على النوافذ ، يربطه منهلان فيها قطع ثلج ، ويقوم بالخدمة خدم كبار بسرّويل قصيرة . كل هذا يبدو أفضل بعد تأثر الأيام الماضية . يستعبدن فرح الأمور التي

* نوع من السمك .

** حيوان لبون مجترّ من فصيلة الأيائل .

خافوا يفقدونها . وعبر نونانكور عن هذا الشعور العام بالقول :
- آه ! فلنأمل أن يسمح لنا السادة الجمهوريون بالعشاء !
- بالرغم من أخوتهم ! أضاف السيد روك بذكاء .
كان هذان المحترمان إلى يمين السيدة دمبروز وإلى يسارها ،
أمامها زوجها ، بين السيدة دي لارسيلا وبجانها الديبلوماسي ،
وبين الدوقة المسنة التي يحتك بها فوميشون . ثم بعدهم الرسام ،
تاجر الخزفيات ، الأنسة لويز ، وبفضل مارتينون الكان خطف
مكانه ليكون قرب سيسيل ، وجد فريدريك نفسه إلى جانب
السيدة أرنو .

ترندي ، كانت ، ثوب بارج * أسود ، في رسغ يدها
سوار ذهبي ، وكما في أول عشاء له عندها ، شيء ما أحمر في
شعرها ، غصن فوشيه فاتنة في كعيكاتها . ما استطاع أن يمسك
نفسه عن القول لها :

- ها نحن ، من زمان ، لم نلتق !
- آه ! أجابت ببرود .
- أضاف بعذوبة صوت لطفت وقاحة سؤاله :
- هل فكرت بي ، في مرة ما ؟
- لماذا أفكر بك ؟
- جرح فريدريك لهذه الكلمة .
- لربما ، بعد كل شيء ، معك حق .

* نسيج صوفي رقيق مصنوع في مدينة بارج الفرنسية .

إنما ، نادماً بسرعة ، أقسم أنه لم يعيش ، أيّ يوم ، بدون أن يفتك به ذكرها .

- لا أصدق شيئاً مما تقول ، يا سيّد .

- تعرفين ، مع ذلك ، أنني أحبكِ !

لم تحب السيّد أرنو .

- تعرفين أنني أحبكِ .

ظَلَّت صامّة .

« إيه . دعك منها ! » قال فريدريك في ذاته .

وإذ رفع عينيه ، لحظ الآنسة روك إلى الجهة الأخرى من

المائدة .

كانت ظنّت أنه من المثير ارتداء ثياب خضر ، وهو اللون الذي لا يأتلف مع لون شعرها الأحمر . وبما أن عقدة حزامها عالية جداً ، فقد كان عقدها يغرقها . هذا السوء في الأناقة ، أدّى ، ولا شك ، إلى برودة سلام فريدريك . راحت تراقبه من بعيد ، بحسرية . وأرنو ، قربها ، بالغ في غزله وما استطاع أن يتزاع منها كلمات ثلاثاً ، إلى حدّ أنه ما عاد يعمل ليعجب ، بل طفق يستمع إلى الحديث . كان ، يدور على عصير الأناناس المركز في لوكسمبور .

لويس بلان ، بعد فوميشون ، يمتلك فندقاً في شارع سان دومينيك ويرفض تأجير العمّال .

- ما أجدّه غريباً ، أنا ، قال نونانكور ، هو لادرورولان

الذي يصطاد في أملاك السّلطة !

- هو مدين بعشرين الف فرنك لأحد الصاغة ! أضاف
 سيزي ؛ وحتى ليطمح ...
 أسكتته السيّد دمبروز
 - آه ! من السافر الاندفاع في سبيل السياسة ! أيها
 الشاب ! اهتّم ، بالأحرى ، بجارتك !
 بعدها شرع الرجال الرزينون يتتقدون الجرائد .
 أرندو دافع عنها ؛ تدخّل فريدريك سمّاها بيوت تجارة شبيهة
 بالأخرى . كتابها ، اجمالاً ، حسب رأيه ، بلهاء ، أو مزاحون ؛
 عرض ان يسمّيهم ، وقابل بسخرية عواطف صديقه السخية . ما
 رأت السيّد أرندو في ذلك انتقاماً منها .
 في هذه الأثناء ، كان الفيكونت يعذب نفسه ، جاهداً ،
 ليعجب الأنسة سيسيل . تبسّط ، أولاً ، في الحديث لاطهار ميوله
 الفنيّة ، مستنكراً شكل القناني وحفر السكاكين . ثم تكلم على
 خيول اصطبله ، على خياطه وصانع قمصانه ؛ أخيراً افتحم باب
 الدين ، ووجد وسيلة لاسماعها أنه يتمّم كلّ واجباته .
 مارتينون كان يتصرف بطريقة أفضل ، بنمط رتيب ، ناظراً
 اليها باستمرار ، شرع يمتدح مظهرها الذي يشبه مظهر الطائر ،
 شعرها الأشقر الباهت ، يديها القصيرتين جداً ، كانت تلتذّ هذه
 الفتاة البشعة لهذا الوابل من الاطراءات .
 ما عاد يُسمع شيء ، جميعهم يتكلّمون معاً عالياً . يريد ،
 السيّد روك ، لحكم فرنسا « ذراعاً حديدية » . أسف نونانكور
 حتى ، لزوال المقصلة السياسيّة . كان يُقتل كل هؤلاء الأوغاد .

- انهم ، حتى ، جنباء ، قال فوميشون . لا أرى شجاعة
في التلطي وراء المتاريس .
- على فكرة ، قالت السيدة دمبروز ملتفتة الى فريدريك ،
حدثنا عن ديسردييه .
كان الموظف الطيب ، صار بطلاً ، كما سألينس ، الاخوة
جينسون ، المرأة بيكييه ، الخ .
بدأ فريدريك يروي قصة صديقه . عاد اليه نوع من
الهالة .
وانتهوا ، بشكل طبيعي ، الى رواية قصص بطولة مختلفة .
لم يكن صعباً ، حسب رأي الديلوماسي ، مواجهة الموت ،
الدليل ؟ من يقتتلون بالمبارزة .
- يمكننا الاستعلام عن هذا من الفيكونت ، قال
مارتينون .
احمر الفيكونت احمراراً شديداً .
نظر اليه المدعوون . همست لويز ، التي كانت أكثر تعجباً
من الآخرين :
- ماذا هناك ؟
- لقد تقهقر أمام فريدريك ، أجاب ارنو بصوت
خفيض :
- أتعرفين شيئاً ، يا آنستي ؟ سأل ، سريعاً ، نونانكو ؛
وذكر جوابه للسيدة دمبروز ، التي راحت ، منحنية نوعاً ، تنظر
الى فريدريك .

لم ينتظر مارتينون أسئلة سيسيل. أخبرها ان هذا الأمر كان يتعلق بشخص كثير العيوب . تراجعت الفتاة ، بهدوء على كرسيها ، كأنما لتهرب من ملامسة هذا الفاسق .

عادت المحادثة . دارت الخمر الطيبة ، انتعشوا . تحمس بيلران للثورة بسبب المتحف الاسباني الذي ضاع نهائياً . هذا ما كان يثيره بالأكثر . كرسام . عند هذه الكلمة سأله السيد روك :

- ألسنت أنت صاحب لوحة مهمّة ؟

- ربما ! آية لوحة ؟

- انها لوحة تمثل سيّدة بثوب ... للحقيقة ! ... شفاف ، مع محفظة نقود وطاووس الى خلفها .

احمرّ فريدريك بدوره : تظاهر بيلران بعدم السماع .

- مع ذلك انه ، فعلاً ، من رسمك ! هو يحمل توقيعك ، وعليه عبارة تذكر انه ملك السيد مورو .

ذات يوم ، والسيد روك وابنته ينتظرانه عنده ، رأيا رسم « المارشالة » . اعتبر حينها انه « رسم قوطي » .

- لا ! قال بيلران بعنف . انه رسم امرأة .

أضاف مارتينون :

- رسم امرأة حيّة تماماً ! أليس كذلك ، يا سيزي ؟

- إيه ! لا اعرف عنه شيئاً .

- ظننتك تعرفها . انما ، بما أنّ هذا يثير لك المتاعب ،

الف معذرة !

خفض سيزي عينيه ، مظهرأ ، بتلبّكه ، أنّه لعب دوراً

يدعو للرثاء لمناسبة هذه اللوحة . بالنسبة لفريدريك ، لا يمكن للمثال إلا أن تكون عشيقته . صار هذا واحداً من هذه الاقتناعات التي تتكوّن بسرعة ، ووجوه الحضور تؤكد الأمر بوضوح .

- « كم كان يكذب عليّ ! » قالت السيّدّة أرنو في نفسها .
- « اذن لأجل هذا تركني ! » فكّرت لويز .

تصوّر فريدريك ان هاتين القضيتين تضران به . وحين صاروا في الحديقة ، عاتب مارتينون .

انفجر عاشق الأنسة سيسيل ضاحكاً في وجهه .
- إيه ! أبداً ! هذا ينفحك ! هيّا تقدّم !

ماذا يريد أن يقول ؟ من جهة أخرى ، لم كلّ حسن الالتفات هذا المغاير كثيراً لعادته . من دون ان يفصح بشيء ، ذهب الى الطرف ، حيث تجلس النساء ، كانوا الرجال واقفين ، وبيّتران في الوسط يشرّ بأفكاره . أفضل ما كان لصالح الفنون ، كانت الملكية ولا شكّ بات يشمئز من الأزمنة الحديثة ، « حين لا تكون إلا بسبب الحرس الوطني » ، تأسف على القرون الوسطي ، على لويس الرابع عشر ، هنّا السيد روك على آرائه ، مصرّحاً حتى ، بأنها تقلب كل أفكاره المسبقة عن الفنّانين . لكنه سرعان ما ابتعد ، وقد جذبه صوت فوميشون . ارنو كان يحاول التأكيد على وجود اشتراكيتين ، الواحدة حسنة ، الأخرى سيّئة . الصناعي ما كان يجد فرقاً ، يصاب بالدوار غضباً حين سماعه كلمة ملكيّة .

- انه حقّ تکرّسه الطبیعة ! يتمسک الأطفال بالعالم ، کل البشر يشاطرونني الرأي ، کل الحيوانات ؛ حتی الأسد ، لو يستطيع الکلام لأعلن نفسه مالکاً ! هکذا أنا ، أيها السّادة ، بدأت برأسمال خمسة عشر الف فرنک ! كنت أنهض ، خلال ثلاثین سنة ، وبناتظام ، فی الرابعة صباحاً ! قاسیت شتی اصناف العذابات حتی حصلت ثروتي ! وجاؤوا يؤثّدون لی اننی لست صاحبها ، أن مالي ليس مالي ، أن المملکة ، فی النتيجة ، هي السرقة !

- لکن برودون ...

- دعني وشأني بلا برودون ! لو كان هنا ، أظن اننی كنت خنقته !

كان لیخنقه . بعد الکحول بخاصة ! ، فوميشون لا يعود یعرف ذاته ؛ قریباً من الانفجار کقبلة ، كان وجهه المعرّض للانفجار .

- مرحبا ، أرنو ، قال هيسّونيّه ، الذي مرّ ، برشاقة ، علی العشب الأخضر .

كان آتياً للسید دمبروز بالنسخة الأولى من نشرة اسمها « الخطر المتجدّد » يدافع فیها البوهيمي عن مصالح جمعیة رجعیة ، وقدمه المصرفي لمدعويّه علی هذا الأساس .

سلاهم هيسّونيّه ، ذاكرأ ، أولاً ، أنّ تجّار الشحم يدفعون ثلاثمئة واثنین وتسعين صبیاً لیصرفوا کلّ مساء : « مصاييح ! » ثم ، وهو یهزأ بمبادئ سنة ٨٩ ، بتحرّر العبيد ، بخطباء

اليسار ، اندفع حتى لجعل نفسه قاضياً على حاجز ربما حسداً للبورجوازيين الذين كانوا تعشوا جيداً . لم تعجب الحملة أهدأ . ما كان الوقت وقت مزاح . قال ذلك نونانكور مذكراً بموت المطران « آفر » ، والجنرال « بریا » . دائماً يتذكرونها ؛ يحتجون بهما . أعلن السيد روك وفاة المطران : « كل ما هناك من مجد » ؛ أعطى فوميشون الوسام للعسكري ؛ وبدلاً من البكاء ، ببساطة ، على هذين الفقيدين ، تناقشوا المعرفة أيهما سيثير غضباً أكثر . ولقد حصلت مقابلة ثانية بين لامورسير . لا أحد من الشركة ، باستثناء أرنو ، استطاع رؤيتهما يعملان . الى ان ذلك لم يمنعهم من اصدار حكم قاطع عليهما . فريدريك أنكر معترفاً بأنه لم يحمل السلاح . استحسن هذا ، بحركة منها ، الديبلوماسي والسيد دمبرز . في الواقع ، محاربة الثورة كانت تعني الدفاع عن الجمهورية . مع كون النتيجة سعيدة ، فقد وطلتها . والآن ، اذ تخلصوا من المهزومين ثمنوا لو يتخلصون أيضاً من المنتصرين . ما إن وصلت السيدة دمبرز الى الحديقة ، مصطحبة سيزي ، حتى راحت توبّخه لرعونته . واذا رأت مارتينون ، صرفته ، ثم ارادت ان تعرف من قريبها الجديد سبب سخريته من الفيكونت .

- ليس هناك سبب .

- وكل ذلك كأنه لصالح السيد مورو ! فباي هدف ؟

- ولا هدف . فريدريك شاب لطيف . أحبه كثيراً .

- وأنا أيضاً ! ليأت ! اذهب وأت به !

بدأت تغض من شأن مدعوها ، برقة ، بعد عبارتين
لا معنى لها أو ثلاث ، وهذا يعني انها ترفعه فوقهم . ما تأخر عن
ذم النساء الأخريات قليلاً ، وهي طريقة لبقة للملاطفة . لكنها
كانت تتركه ، بين وقت وآخر ، كان مساء استقبال ، تصل
نساء . ثم تعود الى مكانها ، والترتيب الفجائي لمقعديهما يسمح لها
بأن لا يسمعها أحد .

بدأت بشوشة ، رصينة ، حزينة ومفكرة . لم تكن تهمها
انشغالات النهار . كان هناك نسق كامل لعواطف ليست عابرة .
طفقت تشتكي من الشعراء الذين يشوهون الحقيقة ، ثم رفعت
عينها صوب السماء ، سألت اسم نجمة .

كان في الشجر فانوسان صينيان أو ثلاثة ، يحركها الهواء ،
فترتعب منها اشعة على ثوبها الأبيض . تجلس ، كانت ، كما على
عادتها مرتدة قليلاً الى الوراء على كرسيها الواسع المريح ، ومقدم
أمامها . كنت ترى مقدّم حذاء ساتاني أسود . وبين وقت
وآخر ، تطلق السيّد دمبروز كلمة بنبرة عالية ، وأحياناً ضحكة .

ما كانت هذه الأمور المغناجة لتصل الى مارتينون المهتم
بسياسيل ، لكنها تتجه لتصدم روك الصغيرة التي كانت تتحدّث
مع السيّد أرنو . هي الوحيدة ، بين هذه النسوة ، التي ما بدت
حركاتها ، بالنسبة اليها كريمة . جاءت جلست قربها ، ومستسلمة
لحاجة المآزة ، سألتها :

- فريدريك مورو يحسن التحدّث ، أليس كذلك ؟

- تعرفينه ؟

- أوه ! جيداً ! نحن جيران ، ولقد لاعبني وأنا صغيرة .
 رمتها السيدة أرنو بنظرة طويلة تعني : « أتصور أنك
 لا تحبينه ؟ »

لكن نظرة الفتاة وبلا تردد ، أجابتها : « بلى ! »
 - أترينه كثيراً ؟

- أوه ! لا ! فقط عندما يأتي إلى أمه . منذ عشرة أشهر ولم
 يزرها ! ومع ذلك كان تعهد بأن يكون أكثر دقة .
 - يجب ألا تثقي كثيراً بوعود الرجال يا ابنتي !
 - لكنه لم يخدعني ، أنا !
 - كما لم يخدع سواك !

ارتعشت لويـز : « هل يكون صدقة ، وعدّها بشيء ،
 هي ؟ » وانقبض وجهها ريبةً وكرهاً .
 تكاد تكون خافت من كلمتها السيدة أرنو . ارادت
 تستعيدها ثم صمتت .

وبما انه كان موجوداً قبالتهما ، على كرسيّ يطوى ، راحتا
 تنظران عليه ، الواحدة بخفر ، من تحت جفونها ، الأخرى
 صراحة ، مفتوحة الفم ، إلى حدّ أن قالت له السيدة دمبروز :
 - إستدر لتراك !

- من هذه ؟

ابنة السيّد روك !

ومازحته على حب هذه الريفية . رفع التهمة عن نفسه ،
 محاولاً الضحك .

- أمعقول هذا ! أسألك ! فتاة قبيحة مثل هذه !
 راح يشعر ، حينها ، بلذّة خيلاء كبيرة . تذكر تلك
 الليلة ، الكان فيها خرج وقلبه مليء خزيّاً ، وتنفس ملء رثته .
 أحسّ نفسه تماماً في مكانه الحقيقي ، تقريباً في بيته ، كما لو ان كل
 هذا ، بما فيه فندق دمبروز يخصّه . تستمع اليه النساء في نصف
 دائرة . وليتألّق ، أعلن أنّه مع إعادة الطلاق اليجب ان يكون
 سهلاً إلى حدّ الافتراق والعودة الى ما لا نهاية ، بقدر ما نشاء .
 صرخن ؛ بعضهن تهاشن ، تعالى بريق أصوات خافتة في
 الظل ، عند اسفل حائط مغطى بالزراوند * . مثل قوّة دجاجات
 فرحات . وراح يوسّع نظريته بثقة يسببها الشعور بالنجاح . حمل
 خادماً طبقاً مليئاً بالبوطة . تقدّم نحوه الرجال . كانوا يتحدثون
 عن أعمال التوقيف .

حينها انتقم فريدريك من الفيكونت حين أوهمه بأنه ربما
 سلاحق لكونه ملكياً . يعترض الآخر ، يذكر أنّه لم يبارح
 غرفته ؛ يروح خصمه يزيد الفرص السيئة . السيّدان دمبروز
 ودوغريمونفيل كانا مسرورين . ثم لاطفا فريدريك متأسفين لكونه
 لم يستفد من مؤهلاته لمساندة النظام . وسلّما عليه ، بوّد ، منذ
 الآن ، يمكنه الاعتماد عليهما . وأخيراً ، بما أنّ الجميع كانوا
 يذهبون ، انحنى الفيكونت طويلاً أمام سيسيل .
 - أتشرّف كثيراً ، آنستي ، بأن أتمنى لك مساءً سعيداً .

* نبات متعرّش يُستعمل بعضه للتزيين .

أجابت بنبرة جافة :

- بونسوار ! لكنها ابتسمت لمارتينون .

ولكي يتابع السيد روك محادثته مع ارنو ، عرض عليه ان يرافقه والسيدة ارنو ، باعتبار الطريق واحدة . لويز وفريدريك مشيا في الامام . أمسكت بذراعه ، وحين صارت بعيدة ، إلى حد ما ، عن الآخرين :

- آه ! أخيراً ! أخيراً ! كم عانيت طوال السهرة ! كم هؤلاء النساء خبيثات اكم هن متكبرات ! أراد ان يدافع عنهن .

- أولاً ، كان في إمكانك محادثتي وأنت تدخل . منذ سنة ولم تأت !

- لا ، ليس من سنة ، قال فريدريك ، سعيداً في ارجاعها الى هذا التفصيل ليتلافى ما عدا ذلك .
- ليكن ! فقد بدا لي الزمن طويلاً ، هذا كل شيء ! إنما ، أثناء هذا العشاء الكريه ، كنت أظنك تحجل بي ! آه ! أفهم ، لا أملك ما يعجب . مثلهن .

- أنت غخطئة ، قال فريدريك .

- حقاً ! أقسم أنك لا تحب واحدة منهن .

- أقسم .

- وأنا وحدي من تحب ؟

- طبعاً !

جعلها هذا التأكيد سعيدة . أرادت تضيع في الشوارع

ليتنزّها ، معاً ، طوال الليل .
 - كنت كثيرة القلق هناك ! ما كانوا يتحدثون سوى عن
 الحواجز ! رأيتك تقع على ظهرك ، مغطى بالدم ! أمك في فراشها
 مع روماتيزمها . لم تكن تعرف شيئاً . كان عليّ السكوت ! ما
 عدت أستطيع ! فاصطحبت كاترين .
 وأخبرته برحيلها ، كل الطريق ، والكذبة التي واجهت بها
 أباه .

- يعيدني خلال يومين . تعال غداً مساء ، كما لو الأمر
 صدفة ، واستفد من الفرصة لتطلب يدي للزواج .
 ولا مرة كان فريدريك بعيداً هكذا عن الزواج . فضلاً عن
 أنّ الأنسة روك بدت له انساعة صغيرة مثيرة للضحك . يا له من
 فرق بينها وبين السيّدة دمبروز ! ينتظره غد آخر غير هذا ! متأكد
 من هذا ، صار اليوم . أيضاً ، ليس هذا هو الوقت المناسب
 للارتباط ، بقرار بهذه الأهمية . الآن تلزمه الإيجابية ؛ - ثم ،
 فقد رأى السيّدة أرنو . أقلقته صراحة لويز .
 أجاب :

هل فكّرت جيّداً في هذه الخطوة ؟
 - ماذا ؟ صرخت ، وقد جمّدتها المفاجأة وأخذها الغضب .
 قال ان الزواج الآن ضرب من الجنون .
 - هكذا أنت لا تريدني ؟
 - أنت لا تفهميني !
 وانطلق في هذر متلبك ، ليخبرها انه انشغل بأمور قاهرة ،

وأن له أعمالاً لا حصر لها ، وأن ثروته نفسها مهددة (قطعت لوزير كل شيء بكلمة واحدة) ، وأخيراً أن الظروف السياسية تعترضه . إذاً ، فالأكثر عقلانية ، هو بعض تريث ستتدبر الأمور ولا شك ؛ أقله ، هو يأمل هذا ؛ وإذا لم يجد سبباً آخر ، تظاهر ، فجأة ؛ بأنه كان يجب ان يكون صار عند ديسردييه منذ ساعتين . وإذا حياً الآخرين ، انقذف في شارع هوتفيل ، استدار حول الملعب ، عاد الى البولفار وصعد راکضاً الطبقات الاربع الى روزانيت .

غادر السيد أرنو وزوجته السيد روك وابنته عند مدخل شارع سان دمي . عائدان صامتين . هو ، لا يستطيع الكلام لفرط ما ثرثر ، وهي لأنها تشعر بتعب ، حتى أنها لتستند على كتفه . انه الرجل الوحيد الكان ، خلال السهرة ، أظهر عواطف نبيلة . أحست نفسها تجاهه مليئة تساعاً . وكانت تحتفظ بنوع من الحقد ضد فريدريك .

- أرايت سحتته أثناء الحديث عن الرسم ؟ حين أخبرتك أنه عشيقها لم تكوني لتصدقيني !
- أوه ! نعم ، كنت مخطئة !
ركّز أرنو على هذا ، فقد سرّ لانتصاره .
- أراهن ، حتى ، أنه تركنا ، قبل قليل ، للذهاب إليها !
هو الآن عندها ! يمضي الليلة هناك .
أنزلت ، السيدة أرنو ، رأسيتها كثيراً .
- لكنك ترتجفين !

- لأنني بردانة قالت .
- أما لويز ، فمذ نام أبوها دخلت غرفة كاترين ، هزتها من كنفها ، قالت لها :
- إهضي ! ... بسرعة ! أسرع ! واتيبي بعربة الخيل .
- أجابتها كاترين ان لا عربات في مثل هذه الساعة .
- إذن فستأخذيني بنفسك .
- إلى أين ؟
- عند فريدريك !
- مستحيل ! ماذا ؟
- تريد أن تتحدث إليه . لا تستطيع الانتظار . تريد أن تراه للحال .
- أو تعتقدين ! التقدّم ، هكذا ، وسط الليل إلى بيت !
- أضيفي إلى هذا أنه يكون نام الآن .
- أوقفه !
- لكن هذا لا يليق بأنسة !
- لست آنسة ! أنا زوجته ! أحبه ! هيّا بنا ، تدثري بشالك .
- وقفت كاترين عند طرف سريرها وطفقت تفكر . أخيراً
- قالت :
- لا ! لا أريد !
- إذن ا بقي ! أذهب أنا !
- انسلت لويز ، كما حنّش ، في الدرج . انطلقت كاترين

وراءها ، أدركتها على الرصيف . لم تنفع نصائحها ، فتبعتها وهي تنهي عقد قميص نومها . بدت لها الطريق طويلة جداً . راحت تشتكي من رجلها الهرمتين .

- ثم ليس لي ما يشدني مثلك ، يا سيّدة !
ثم رقّ قلبها .

- يا للقلب الشقي ! ترين ، لم يبق لك سوى كاترينك !
هي ، بين وقت وآخر ، تعاودها الهواجس .
- آه ! جعلتني أقوم بعمل طائش ! لو استيقظ والدك ! يا إلهي ! ردّ غضبك عنا !

أوقفتها ، أمام مسرح « فاريتي » ، فصيلة من الحرس الوطني . ذكرت لهم لويز ، بسرعة ، أنها ، وخادمتها ، ذاهبتان إلى الطبيب في شارع ريمفور . تركوها تمرّان .
عند زاوية المادلين ، التقتا بفصيلة ثانية ، وإذا قدّمت لويز الحجة نفسها ، قال لها واحد منهم :

- هل هذا لمرض تسعة أشهر ، يا قطي الصغيرة ؟
- غوغيو ! صرخ النقيب ، بلا بداءات وأنت في الخدمة !
- انصرفا يا سيّدتى !

استمرّت النكات برغم الأمر :

- تمتعي جيّداً !
- احتراماتي للطبيب !
- احذري الذئب !
- يجنّان المزاح ، قالت كاترين ، عالياً . إنهم شباب !

وصلتا ، أخيراً ، عند فريدريك . دقت لويز الجرس بقوة
مراراً . انشَقَّ الباب ، وأجاب البَوَّاب عن سؤالها :

- لا !

- إنما لا بد أن يكون نائماً !

- لا ، أقول لك ، منذ ثلاثة أشهر وهو لا ينام في بيته !
وسقط زجاج نافذة حجرة البواب بوجهها كمقصلة . بقيتا
في الظلمة تحت عقد القنطرة . صرخ بهما صوت خائق :

- أخرجاً !

انفتح الباب ثانية ، فخرجتا .

وجدت لويز نفسها ملزمة بالجلوس على حافة الطريق ،
وبكت ، من كل قلبها ، مستسلمة ، ورأسها بين يديها . راح
يزغ النهار ، طفقات مركبات تمر .

أعادتها كاترين وهي تسندها ، تقبلها ، تقول لها كلاماً عذباً
معزياً من خلال تجربتها . يجب ألا يسيء العشاق إلى ذواتهم بهذا
القدر . إذا ما فقد هذا ، فستجدن كثيرين سواء !

III

بعدها هدأت حماسة روزانيت للحرس الوطني ، عادت أكثر فتنة من أي وقت ، واعتاد فريدريك ، لا شعورياً ، الحياة عندها .

أفضل أوقات النهار هو الصباح على الشرفة . تزوج ونحيء حوله ، بقميصها الفضفاض الذي من الباتستا . وقدمها العاريتان في خفها ، تنظف قفص عصافيرها ، تسكب الماء لسمكاتها الحمر ، وتعمل في صندوق ملأى بالتراب ، منها ترتفع سلبوتيات * تزين جداراً . ثم ، مستندين إلى شرفتهما ، ينظران ، معاً ، العربات والمارة . ويتدفان في الشمس ، يرسمان مشاريع للسهرة . يتغيب لساعتين على الأكثر ، بعدها يخرجان إلى مسرح ما ، يجلسان في مقصورات المسارح ، تستمع روزانيت إلى الآلات ، وباقة زهر كبيرة في يدها ، بينما يروي لها فريدريك ، همساً في أذنها ، أخباراً فرحة أو غزلة . مرات أخرى ، يأخذان

* مفردا سلبوت وهو جنس نباتات عشبية من فصيلة السلبوتيات أوراقها وازهارها مأكولة .

مركبة توصلهما إلى غابة بولونيا ، حتى وقت متأخر يتنزهان ، حتى منتصف الليل . يعودان ، أخيراً ، عبر قوس النصر والممر الكبير ، متنشقين الهواء والنجوم فوق رأسيهما ، وتبدو كل مصابيح الغاز ، حتى آخر الجادة الكبيرة ، كعقد لؤلؤ مشع .

دائماً ينتظرها فريدريك حين يريدان الخروج . تطيل الوقت كثيراً لتجعل حول ذقنها شريطي معطفها ، ولحالبها تبتسم ، أمام درجها ذي المرأة . ثم تأخذ به من ذراعه ، ترغمه على التمرير قربها :

- نحن في وضع حسن هكذا ، معاً ، جنباً إلى جنب ! آه !
يا حبي المسكين ، سأفترسك !

هو ، الآن ، تابعها ، ملكها . على وجهها ، منه ، إشعاع دائم ، في الوقت ذاته الذي تبدو مرثية أكثر في تصرفاتها ، مكورة أكثر في أشكائها . ومتغيرة يراها ، ومع ذلك ، هو لا يعرف أن يقول كيف .

أخبرته ، يوماً ، كخبر مهم ، أن السيد أرنو قد جهّز محلّ نبيل أبيض لعاملة قديمة في مصنعه ، يأتي إليه كل مساء ، « يصرف كثيراً ، أسبوعياً ، وحتى فهو قد أعطاه أثاثاً من خشب البليساندر » .

- كيف عرفت هذا ؟ سأها فريدريك .

- أوه ! متأكدة أنا !

كانت دلفين ، تنفيذاً لأوامرها ، قد استعملت . هي تحب ، إذن ، أرنو ، لتهمّ به بهذا القدر ! اكتفى بأن أجابها :

- ما ضرّك من هذا ؟

فوجئت روزانيت بالسؤال :

- لكنّ الوغد مدين لي ! أليس من المستكره رؤيته ينفق

على بغايا ؟

ثم ، وبأسلوب حقد ظاهر :

- فضلاً عن ذلك ، هي تسخر منه تماماً ! لديها عشاق

ثلاثة آخر ، هذا افضل اولتستنفيله على آخر فلس ، أكون سعيدة !

في الواقع ، كان أرنو يترك نفسه تستغله البردوية في مقابل

تساهلات حبّ شيخوخه .

توقّف مصنعه . أعماله يرثى لها . حتى أنه ، ليعاودها

ناشطة ، فكّر ، أول ما فكّر ، في تأسيس مقهى غناء حيث

لا يقدّمون سوى الأغاني الوطنيّة ، إذ يقدم له الوزير إعانة ماليّة ،

تصبح هذه المؤسسة ، في آن معاً ، مركز دعاوة ومنبع أرباح .

ولكن ، بما أنّ السلطة تغيّرت ، استحال كل شيء . الآن ، يفكّر

هو ، بمتجر قبعات عسكريّة كبير . إنّما يعوزه رأس المال للانطلاق

فيه .

لم يكن ، بعد ، سعيداً داخل بيته . لا تبدو لطيفة معه

السيدة أرنو ، بل هي ، أحياناً ، فظة . مارت هي ، دائماً ، إلى

جانب أبيها . وهذا مما كان يزيد الخلاف ، وصار البيت

لا يطاق . كان يخرج غالب الأحيان صباحاً ، يمضي نهاره

متسكعاً ، مشوراً لينسى ، ثم يتعشى في حانة مستسلماً للأفكاره .

غياب فريديريك المتواصل ، يقلق عاداته . فبعد ظهر يوم ، أتاه ، توسّل إليه يعود لزيارته كما من زمان ، فوعده فريديريك بذلك .

ما كان يجرؤ ، فريديريك ، على العودة عند السيّدة أرنو . يبدو له أنه قد خانها . لكن رأى عدم عودته إلى أرنو جبناً . تعوزه الحجج . فيجب الحسم ! وذات مساء ، سرى إليه .

التجأ إلى ممرّ جوفروي ، لأن السماء تمطر ، هناك اقترب منه ، على ضوء الواجهات ، رجل قصير ضخم . ما تلكاً فريديريك لمعرفته : انه « كومبان » ، الخطيب الذي أثار كثيراً من الضحك في النادي بسبب اقتراحه . كان يتكّى إلى ذراع شخص متزيّ بقبّعة زواويّ حمراء ، شفته العليا طويلة جداً ، سحتته صفراء كبرتقالة ، فكّه الأسفل تغطيه لحية خفيفة ، ويتأمله بعينين كبيرتين مليئتين إعجاباً .

كان « كومبان » فخوراً به ، ولا شك ، لأنه قال :
- أقدم لك هذا الجريء ! انه واحد من الحداثيين ، أصدقائي ، إنه وطني ! هل نتناول شيئاً ؟

وإذ شكره فريديريك ، ندّد ، مباشرة ، باقتراح « راتو » ، هو مناوره للاستقراطيين . للتخلص منهم ، إعادة سنة ٩٣ واجبة ! ثم استعلم عن ريجمبار وعن بعض آخرين يضاهونه شهرة ، أمثال « ماسلان » ، « سانسون » ، « ليكورنو » ، « مارشال » ، وأمريء اسمه ديلورييه ، مجازف في قضية الغدارات التي احتجّزت مؤخراً في « تروا » .

- كل هذا كان جديداً على فريديك . « كومبان » يعرف شيئاً أكثر ، تركه قائلاً :
- إلى اللقاء قريباً ، أليس كذلك ، فأنت منهم ؟
- ممن ؟
- من رأس العجل !
- أيّ رأس عجل ؟
- آه ! إنك مزاح ! قال « كومبان » وربّت له على بطنه .
واختفى الارهابيان في مقهى .
- بعد عشر دقائق ، لم يعد فريديك يفكر في ديلورييه . كان صار على رصيف شارع الفردوس أمام منزل ينظر في طابقه الثاني ، وراء الستائر ، ضوء مصباح .
- أخيراً صعد الدرج .
- هل أرنو هنا ؟
- أجابت الوصيفة : - لا ! إنما أدخل .
وفاتحة ، فجأة ، باباً :
- سيّدتي ، إنه السيّد موروا
قامت أكثر شحوباً من عقدها . ترتجف .
- شرفتنا بهذه الزيارة المفاجئة التي لا نعرف لها سبباً .
- لا شيء ! شوق لرؤية أصحاب قدامى ا تابع ، وهو يجلس :
- كيف حال هذا الـ « أرنو » الطيّب ؟
- ممتاز ! لقد خرج .

- آه ! إني لأفهم ! دائماً عاداته المسائيّة القديمة ، قليلاً من
التسلية !

- لم لا ؟ بعد نهار حسابات الانسان بحاجة إلى الراحة !
شرعت تمتدح زوجها كعامل . اغضب هذا النشاء
فريدريك . وملاحظاً على ركبتيها قطعة قماش سوداء وشرائط
مصفورة زرقاء ، سأها :

- ماذا تفعلين ؟

- أسوي سترة لابنتي .

- على فكرة ، أين هي ، إني لا أراها ؟

- في مدرسة داخلية ، أجابت السيّدة أرنو .

تلاّلات دموع في عينيها ، لم تتركها تنسكب ، وغرزت
إبرتها بسرعة . تناول ، بثقة ، عدداً من مجلّة كاريكاتوريّة ، عن
طاولة قربها .

- غريبة رسوم « شام » الكاريكاتوريّة هذه ، أليس
كذلك ؟

- بلى .

ثم ، من جديد ، استغرقا في صمتهما .

ألهمت ، فجأة ، زخة مطر ، زجاج النوافذ .

- يا للطقس السيّء ! قال فريدريك .

- فعلاً ، لطيف منك أن تأتي في مثل هذا المطر الغزير !

- أوه ! لا يهمني أنا ! لست مثل من يمنعهم من الذهاب

إلى مواعيدهم !

سألته بسذاجة :
- أيّ موعد ؟
- ألا تتذكرين ؟
ارتعشت ، وخفضت رأسها .
برفق ، وضع يده على ذراعها .
- أوكد لك أنك جعلتني أنألم كثيراً .
أجابت متلجلجة الصوت :
- لكنني كنت خائفة على ابني !
وأخبرته قصة مرض أوجين الصغير وكل مخاوفها ذلك
النهار .

- شكراً ! شكراً ! لا أشك ! ما زلت أحبك كما دائماً !
- إيه ! لا ! ليس صحيحاً !
- لماذا ؟
برود نظرت إليه .
- أنت تنسى الأخرى ! هذه التي كنت تنزهها في حفلة
السباق ! المرأة التي رسمها في بيتك ، عشقتك !
- حسناً ، بلى ! أعلن فريدريك . لا أنكر شيئاً ! بائس
أنا ! اسمعيني !
إذا ما حصل عليها ، فيأساً ، كما الانتحار . فضلاً عن
ذلك ، فقد جعلها شقية ، لينتقم بها من خجله . « يا للتشكيل !
ألا تفهمين ؟ » .
أدارت السيّد أرنو وجهها الجميل ، مائة إليه يدها ،

وأغمضا عيونهما مأخوذتين بنشوة كتمايل عذب ولامتناؤه . وبقيتا
يتأملان بعضهما ، متواجهين ، قرييين .

- هل أمكنك التصديق أني لم أكن أحبك ؟

بصوت خفيض أجابت ، مليء عدوبة :

- لا ! برغم كل شيء ، كنت أشعر ، في عمق قلبي ، أن
هذا مستحيل ، وأن سيأتي يوم يختفي فيه العائق الذي بيننا .

- أنا أيضاً ! وكنت أرغب برؤيتك حتى الموت !

- ذات مرة ، في « الباليه - رويال » ، مررت بجانبك !
- حقاً ؟

وأخبرها بسعاده يوم رآها مجدداً عند آل دمبروز .

- لكن كم كنت أكرهك في المساء ، ونحن نعود من

عندهم !

- يا للشباب الشقي !

- حياتي تاعسة جداً !

- كذلك حياتي !... إذا لم يكن سوى الهموم ،

والكآبات ، والاهانات ، كل ما أعانيه كزوجة وكأم ، لن أشكو

منه ما دمتنا سنموت ، ما هو مخيف ، هو وحدتي ، من دون أي

شخص ...

- لكنني هنا ، أنا !

- أوه ! نعم !

تملكتها موجة حنان . انفتح ذراعها ، وغابا ، واقفين ، في

قبلة طويلة .

سَمِعَتْ طَرِيقَةً عَلَى الْبَلَاطِ . امْرَأَةً قَرِيبَهَا ، إِنَّهَا رُوزَانِيَتْ .
 عَرَفَتْهَا السَّيِّدَةُ أَرْنُو . كَانَتْ عَيْنَاهَا مَفْتُوحَتَيْنِ بِلَا حُدُودِ ،
 تَتَفَحَّصُهَا ، مَلِيئَتَيْنِ مَفْاجِئَةً وَغَضَبًا . آخِرًا قَالَتْ لَهَا رُوزَانِيَتْ :
 - أَتَيْتِ أَتَحَدِّثُ إِلَى السَّيِّدِ أَرْنُو ، بِخُصُوصِ أَعْمَالِ .
 - لَيْسَ هُنَا ، كَمَا تَرِينَ .
 - آه ! هَذَا صَحِيحٌ ! قَالَتْ « الْمَارْشَالَةُ » ، كَانَ مَعَهَا حَقٌّ
 خَادِمَتِكَ ! أَلْفَ عَذْر !
 وَمُسْتَدِيرَةٌ صُوبَ فَرِيدْرِيكِ :
 - يَبْدُو أَنَّكَ هُنَا ، أَنْتِ !
 احْمَرَّتِ السَّيِّدَةُ أَرْنُو لِهَذِهِ اللَّهْجَةِ غَيْرِ الْمَتَكَلِّفَةِ أَمَامَهَا ، كَأَنَّهَا
 صَفْعَةٌ فِي مَلءِ وَجْهِهَا .
 - لَيْسَ هُنَا ، أَكْرَرُ لَكَ الْقَوْلَ .
 عِنْدئِذٍ قَالَتْ « الْمَارْشَالَةُ » بَهْدَوًى ، وَكَانَتْ تَسْطَلِّعُ هُنَا
 وَهَنًا :
 - أَنْعُودُ ؟ مَعِيَ عَرَبَةٌ .
 - - حَافِلٌ أَنْ يَظْهَرَ كَمَنْ لَمْ يَسْمَعْ .
 - هَيَّا ، تَعَالِ !
 - آه ! بَلَى ! إِنَّهَا مَنَاسِبَةٌ ! إِذْهَبِ ! إِذْهَبِ ! قَالَتْ السَّيِّدَةُ
 أَرْنُو .

خَرَجَا . انْصَحْنَتِ عَلَى دَرَابِزِينَ الدَّرَجِ لِتَرَاهُمَا . وَنَزَلَتْ
 عَلَيْهِمَا ، مِنْ أَعْلَى الدَّرَجِ ، ضَحْكَةٌ عَالِيَةٌ مَمْرُقَةٌ . دَفَعَ فَرِيدْرِيكِ
 رُوزَانِيَتْ إِلَى الْعَرَبَةِ ، جَلَسَ قَرِيبَهَا ، وَطَوَالَ الطَّرِيقَ لَمْ يَتَفَوَّهَ

بكلمة .

كان هو نفسه سبب العار الذي يحقره تدفقه . يشعر ،
معاً ، بخجل ذلّ محطّم ويتأسّف على سعادته . حين كاد
يتملكها ، صارت مستحيلة ، نهائياً ! - وبسبب غلطة هذه ، هذه
الفتاة ، هذه العاهرة ! أراد يخنقها . كان يخنق . وإذ دخلا
المنزل ، رمى قبعته كيفما اتفق ، وانتزع ربطة عنقه بحنق .
- آه ! لقد قمت بعمل مُستنكر ، أقرّي بهذا !

وقفت ، بفخر ، في وجهه .

- وماذا بعد ؟ أين الضرر ؟

- كيف ؟ هل تتجسّسين عليّ ؟

- أهي غلطتي ؟ لماذا تذهب تتسلّى عند النساء الشريقات ؟

- لا يهم ! لا أريدك تشتمينهنّ .

- بماذا أهنتها ؟

لم يقدر أن يجيب . وبنبرة حقودة أكثر :

- إنما ، تلك المرة ، في « شان - دي - مارس » . . .

- آه ! إنك تسثمّني بقصصك القديمة !

- حقيرة !

رفع قبضة يده .

- لا تقتلني ! حبلى أنا !

تراجع فريدريك .

- تكذّبين !

- أنظر إليّ !

تناولت مشعلاً قربته من وجهها ، قالت :
- أتعرف هذا الوجه ؟

مبقعاً ، كان ، يبقع صفراء صغيرة ، منتفخة بتميز . لم
ينكر فريدريك وضوح ما رأى . ذهب فتح النافذة ، تمشى قليلاً
طولاً وعرضاً ، ثم تهاوى على كرسي .

تهدئة ، كان ، هذا الحدث ، هو يؤجل ، أولاً ،
انفصالهما ، ثم هو يقلب كل مشاريعه . مع ذلك ، فقد بدت له
فكرة أن يصير أباً غريبة ، غير مقبولة . إنما لماذا ؟ إذا ، لو بدلاً
من « المارشالة ؟ » . . . وصار حلمه عميقاً جداً ، إلى حد التخيل .
بات يرى ، على السجادة ، أمام المدفأة ، طفلة صغيرة . تشبه
السيدة أرنو وتشبهه ، إلى حد ما ، - سمراء وبيضاء ، عينان
سوداوان ، رموش طويلة جداً ، شريطة وردية في شعرها
المشوك (أوه ! كم كان يحبها !) وبدا له أنه يسمع صوتها :
« بابا ! بابا » .

اقتربت منه روزانيت ، وقد تعرّت ، لمحت دمعة في
جفونه ، قبلته ، طويلاً ، على جبهته . نهض قائلاً :

- تباً له ! لن نقتله هذا الطفل !

طفقت تثرثر طويلاً . بالتأكيد سيكون صبيّاً ! سيسمّيه
فريدريك . يجب البدء بتحضير جهازه ؛ - وإذ رآها سعيدة بهذا
المقدار ، تملكته شفقة . وبما أنه ، الآن ، غير غاضب ، أراد
يعرف سبب تصرفها ذاك تلك الساعة .

ذلك يعود إلى أن الأنسة فانتاز أرسلت إليها ، أثناء النهار ،

سنداً مستحقاً من زمان ، فأسرعت إلى أرنو تطلب مالا .
- كنت أعطيتك ! قال فريدريك .
- كان أسهل عليّ أن آخذ منه ما هولي وأردّ للأخرى ألفها
من الفرنكات .
- أهذا ، فقط ، كل ما عليك لها ؟
أجابت :
- طبعاً !

في التاسعة من مساء الغد (وهي الساعة المعيّنة من
الحاجب) ، حضر فريدريك عند الأنسة فاتناز .
اصطدم ، في غرفة الانتظار ، بقطع أثاث مكدّسة . لكن
صخب أصوات وموسيقى قاده . فتح باباً فلقى نفسه وسط
حفلة . كان دلمار واقفاً أمام بيانو ، تعزف عليه فتاة ذات
نظارات ، وقوراً كمغرور ، ينشد قصيدة « انسانية » عن البغاء ،
يدور صوته الأجرس يسانده تساقق ممّوه . إلى جانب الجدار صف
نساء مرتديات ، بعمامة ، ثياباً قائمة بدون قبة قميص ولا أردان .
خمسة أو ستة رجال ، كلّهم مفكّرون ، موزّعين هنا وهناك على
كراسٍ . وفي كرسيّ مريح أساطيري قديم ، كهيكل عظيمي ؛ -
وتمتّزج برائحة مصباحين قوية بشذا الشوكولا الكانت تملأ أكوساً
تردحم فوق طاولة قمار .

كانت الأنسة فاتناز قائمة عند زاوية من زوايا المدفأة ،
وشاح شرقي حول خصرها . ديسرديه إلى الجهة الأخرى
المقابلة . يبدو متزعجاً ، إلى حدّ ما ، من موقعه . على كلّ حال ،

فالوسط الفني يُنجله .

هل كانت انتهت علاقة فاتناز مع دلمار؟ لا ، ربما . مع ذلك ، تبدو مهمّمة بالموظف الطيّب . وإذا طلب إليها فريدريك حديثاً على انفراد ، أشارت إليه لأن يدخل ، معها ، غرفتها . وحين سدّدت الألف فرنك ، سألته ، بعد ، الفوائد .

- ليست مهمة ، قال ديسردييه .

- أسكت أنت !

كان هذا الضعف محبباً إلى فريدريك كتصحيح لضعفه . حمل السند وما عاد تحدّث ، مطلقاً ، عن الفضيحة عند السيّدة أرنو . ولكن ، ظهرت له ، مذكّات ، كل عيوب « المارشالة » . كان لها ذوق رديء لا يعدل ، كسل غير مفهوم ، جهل متخلف ، إلى حدّ اعتبار الدكتور ديروجيه شهيراً جداً ، وكانت فخورة بأن تراه ، ثانية ، وزوجته ، لأنها « متزوّجان » . وهي تلقن بمظهر متحدلق ، الأنسة إيرما ، أشياء الحياة ، وهذه إنسانة بسيطة وهبت صوتاً معقولاً ، يعشقها سيد « جيّد جداً » ، هو موظف سابق في الجمارك ، وبارع في لعب الورق . كانت تدعوه روزانيت « لولويّ الضخم » . لم يعد فريدريك يستطيع التحمّل ، ولا كذلك ، ترددات تلك الكلمات السخيفة مثل : « قليلاً من الغرنيّة ! إلى شايو ! ما أمكن ، أبداً ، معرفة ، الخ » . وراحت تعاند ، في الصباح ، لنفّض الغبار عن طرائفها بزوج قفازات بيضاء قديمة ! ثار ، بخاصة ، لأجل تصرفاتها تجاه خادمتها ، التي كانت مهمّاتها ، باستمرار ، متأخرة ، والتي

كانت ، حتى ، تقرضها مالاً . وحين تتحاسبان ، تتشاجران
كامرأتين سوقيّتين ، ثم تتصالحان مقبلتين بعضهما بعضاً . صارت
جلساتها ، متقابلين ، حزينة . كان نوعاً من الانفراج ، بالنسبة
إليه ، حين عادت ، مجدداً ، سهرات السيّدة دمروز .

هذه ، على الأقل ، تسليّه ! تعرف ، هي ، مكائد
الناس ، تبدّل السفراء ، شخصيّة الخيّاطات ، وإذا ما كان
يتحاشاها في الأمكنة العامة ، يكون ذلك بطريقة مؤاتية تماماً ،
معها يمكن اعتبار العبارة احتراماً أو سخريّة . فيراها ، كان ،
وسط عشرين شخصاً يتحدثون ، لا تنسى واحداً ، تستدرجهم
إلى الأجوبة التي تريدها ، متحاشية المحفوفة بالمخاطر ! تبدو
حيميّات ، أشياء عاديّة تروّجها ، مطلق ابتسامه من ابتساماتها
تسبّب حلماً ، سحرها ، أخيراً ، لا يحلّل ولا يحدّد . حين يكون
فريدريك برفقتها ، يشعر ، كلّ مرّة ، بلذّة الاكتشاف ؛ ومع
هذا ، هو يجدها ، دائماً ، على هدوئها ذاته ، الشبيه ببريق المياه
الشفّافة . إنّما ، لماذا تصرّفاتنا ، تجاه قريبتها ، هي هذه البرودة ؟
وحتى انها ، أحياناً ، تحدجها بنظرات غريبة .

مذ بدأ حديث الزواج ، راحت تعترض ، عند السيّد
دمروز ، على صحّة « الابنة الحبيبة » ، وأخذتها ، في ما بعد ،
إلى حمامات بالاروك . عند العودة ، برزت ذرائع جديدة :
فالشباب لا مركز اجتماعياً رفيعاً له ، ولا يبدو هذا الحب الكبير
جدياً ، وإنّ الانتظار لا مجازفة فيه . أجاب مارتينون انه ينتظر .
كان سلوكه ممتازاً . طفق يعظّم فريدريك . أكثر : أخبره عن

الوسائل التي تسرّ السيّد دمبروز ، ملمّحاً إلى انه يعرف ، من قريبتها ، عواطفها .

وبالنسبة الى السيّد دمبروز ، وبعيداً عن الغيرة ، فقد راح يحوط صديقه الشاب بالتقدير ، يستشير به بأمور مختلفة ، قليلاً ، حتى ، على مستقبله ، إلى حدّ أنه ، يوماً ، وهما يتحدثان عن السيّد روك ، همس بأذنه ، بدهاء :

ـ حسناً فعلت !

وجميعهم في هذا البيت ، سيسيل ، الأنسة جونسون ، الخدم ، البواب ، جميعهم يلاطفونه . يأتي كلّ مساء ، تاركاً روزانيت ، فقد جعلها حملها أكثر رصانة ، وحتى ، حزيناً الى حدّ ما ، كما لو أنّ انشغالات بال اقلقتها . تجيب عن كل الأسئلة :

ـ تخطيء أنت ! أنا في صحّة جيّدة !

كانت مهتمة بسندات خمسة وقّعتها من زمان . وهي ، اذ لم تحرّروا على اخبار فريديريك بالأمر ، عادت إلى ارنو الذي وعدها ، خطياً ، ببيع أرباحه من إنارة مدن لانغدوك بالغاز (مشروع ممتاز) ، طالباً إليها ألا تستخدم هذه الرسالة قبل اجتماع مجلس المساهمين . وراح يؤجّل هذا الاجتماع ، من اسبوع إلى أسبوع . و« المارشالة » في حاجة الى المال . تموت ولا تطلب من فريديريك . لا تريد منه . هذا يفسد حبّها . هو يؤمن ، بطريقة حسنة ، بمصاريف المنزل . لكن ما يؤخّره عن تقديم الأفضل لعشيقته ، فمركبة صغيرة يستأجرها شهرياً ، ومصاريف أخرى لا غنى عنها ، منذ ان راح يتردّد على آل دمبروز . مرتين أو ثلاث

مرات ظن نفسه وهو يعود قبل المعتاد ، يرى ظهور رجال تختفي بين الأبواب ! وكانت تخرج ، مراراً ، بدون ان تقول أين تذهب . ما أراد فريدريك إثارة الأمور . سيَتخذ يوماً ، موقفاً نهائياً . يحلم ، هو ، بحياة أخرى ، أكثر مرحاً وأكثر رفعة . هكذا مثال ، يجعله متساهلاً تجاه فندق دمبرز .

إنه فرع حميم من شارع بواتييه . التقى ، هناك ، م . ا . المتنفذ ، ب . الشهير ، س . الغامض ، ز . الفصيح ، ي . الهائل ، الشخصيات المرموقة القديمة لقاعدة اليسار ، مغامري اليمين ، عمدة المدن المعتدلين ، ممثلي الكوميديا الدائمين . دُهِش للهجتهم الحظيرة ، صغاراتهم ، أحقادهم ، عدم إيمانهم - كل هؤلاء الذين كانوا صوّتوا إلى جانب الدستور ، يكذبون لتقويضه ؛ - ويتحركون كثيراً ، يذيعون بيانات ، نقداً ، ينشرون سير حياة ، حياة فوميشون لهيئته اعتبرت رائعة أدبية . نونانكور يهتم بالدعاوات في الارياف ، السيد دو غريونفيل يثير الأكليروس ، مارتينون يؤلب بورجوازيين شباباً . كل ، حسب وسائله ، وظّف نفسه ، حتى سيزي نفسه وهو يروح الآن ، مفكراً في الأمور الجدّية ، يتجول كل النهار في عربته لأجل الحزب .

السيد دمبرز ، كما باروميتر ، حدّد التغير الأخير . ما يتكلمون على لامارتين ، إلّا يذكر هذه الكلمة لرجل من عامة الشعب : « كفانا عبقرية شعريّة ! » صار كافينيك ، في عينيه ، خائناً . الرئيس الذي كان أظهر اعجابه به خلال أشهر ثلاثة ،

بدأ احترامه له يخفّ (هولم يجده «الدافع الضروري») ؟ وبما ان الحاجة الى منقذ دائمة ، طفق يلجأ ، منذ قضية المعهد الفني ، بشانفرنيه : « شكراً ، يا رب ، على شانفرنيه . لنأمل أن شانفرنيه . . . أوه ! لا يُخشى شيء طالما أن شانفرنيه . . . » . قبل أيّ أمر ، كانوا يمتدحون السيد « تير » على كتابه ضد الاشتراكية ، وفيه برز مفكراً وأديباً معاً . يسخرون ، كلياً ، من بيار ليزو الذي كان يستشهد في المجلس بمقاطع من الفلاسفة . يلقون النكات على المشروع المشترك . يصفقون لـ « معرض الأفكار » ؛ ويقارنون الكتاب بأريستوفان . ذهب فريدريك الى هناك ، كما الآخرون .

إن الثروة السياسية والحبيبة الغالية دغدغت خياله . ومهما بدا له هؤلاء الأشخاص سخفاء ، فهو فخور بمعرفتهم ، ويتمنى في نفسه ، تقدير الطبقة البورجوازية . إن عشيقته كالسيدّة دمبروز تحقق له هذا .

وراح يعمل كل ما يلزم .

يتواجد في طريق نزهتها ، لا يتأخر عن إلقاء التحية عليها في مقصورتها في المسرح ، وبما انه كان يعرف ساعات ذهابها الى الكنيسة ، يروح يربط خلف ركن بوضع كتيب . يتبادل وإياها رسائل قصيرة بحجّة تعليمات فضوليّة ، استعلامات عن حفلة موسيقية أو استعارة كتب ومجلّات . وبخلاف زيارته المسائيّة لها ، يزورها ، أحياناً ، زيارة أخرى أواخر النهار . ويروح فرحه يتدرّج ، صُعداً ، وهو يجتاز بالتتابع ، البوابة الكبيرة ، الساحة ،

غرفة الانتظار ، الصالونين ، يصل ، أخيراً ، إلى صالونها الصغير ، سرّي كقبر ، فاتر كمخدع ، حيث يمكن الاصطدام بغرزات الأثاث بين كل الأنواع هنا وهناك : خزانات بياض ، درئيات ، كؤوس وصوانٍ مُبرنقة ، مثلّمة ، عاجية ، دهنجية* ، تفاهات ، باهظة الثمن ، غالباً ما هي مجدّدة . هناك ، أيضاً ؛ أشياء بسيطة ، ثلاث حصبات ملساوات من ايتريتا لثقالة الورق ، قُبعة فريزون معلقة بحجاب صينيّ ، مع ذلك ؟ فكل هذه الأشياء تتناسق . وحتى لتؤخذ بنبل المجموعة ، وتنبه لعلو السقف ، لوفرة البوابات ، ولطول الأهداب الحريرية ، طائرة على ركائز المقاعد المذهّبة .

تكاد تكون ، دائماً ، على أريكة لشخصين ، قرب حوض الزهور المزخرف فتحة النافذة . يروح يوجّه إليها المديح الأكثر صحّة ، من على طرف بوفة بدواليب . وتنظر اليه ، رأسها مائل نوعاً ، والفم مبتسم .

يقرأ لها ، كان ، صفحات شعر ، مضمّناً إليها روحه ، ليثير اعجابها ، ويصل الى تقدير الآخرين . تُخرسه بملاحظة محقّرة أو عمليّة . ويعود حديثهم الى الموضوع الخالد : الحبّ ! يتساءلان من يسبّبه ، أهى النساء تشعر به أحسن من الرجال . وهل من فوارق بينهم في النظرة اليه . يحاول ، فريدريك ، إيضاح رأيه ، متحاشياً المغالاة والتملّق . صار هذا الأمر نوعاً من صراع ، لذيذ

* من الدهنج وهو كربونات النحاس الطبيعي المهذرت .

أحياناً ، متسئم أحياناً أخرى .
لم يكن يشعر ، قربها بحيوية كل وجوده الذي كانت تدفعه
نحو السيدة أرنو ، ولا بالفساد الفرح حيث كانت وضعته
روزانيت . لكنه يشتهيها كشيء غير عادي وصعب ، لأنها نبيلة ،
لأنها غنية ، لأنها تقيّة ، متصوّراً أنّ لها ملاطفات عاطفية نادرة كما
تخاريمها ، مع تعاويز على الجسد وطهارات في الفساد .

استخدم حبّ القديم . أخبرها ، وكأنها المهمته بذلك ، كل
ما كانت السيدة أرنو ، قديماً ، جعلته يشغره ، ذبوله ، تخوّفاته ،
أحلامه ، وكامراً معتادة هذه الأمور ، تستمع اليه ، ومن دون ان
تدفعه لا تستسلم لشيء . وما استطاع إغراءها كما استطاع
مارتينون الزواج . لنتهي الأمر مع عاشق قريبتها ، اهتمته بأنه
يقصد مالها ، حتى انها توسلت الى زوجها ليختبر هذا بنفسه .
فأعلن السيد دمبروز للمارتينون ، ان سيسيل ، بما هي يتيمة ،
فلا أمل له ، إطلاقاً ، بأية ثروة .

إذ لم يصدّق مارتينون هذا الأمر ، أو لثلاً يخطيء نفسه بعد
فوات الأوان ، أو لواحد من تلك المعائدات الحمقاء التي هي اعمال
عبريّة ، أجاب أنّ إرثه ، وهو دخل خمسة عشر ألف ليرة ،
يكفيه . أثر في المصرفي ، هذا اللاهتمام غير المتوقع ، وعده بمركز
جانب مع تأمين الكفالة اللازمة ، وفي نوار ١٨٥٠ ، تزوّج
مارتينون الأنسة سيسيل . لم تقم حفلة . سافر العروسان في المساء
ذاته إلى إيطاليا . في الغد ، زار فريدريك السيدة دمبروز . بدت
له أكثر شحوباً من المعتاد . ناقضته ، بخشونة ، حول موضوعين

أو ثلاثة ، من غير أهميّة . عدا هذا ، فكل الرجال أناثيون .
مع ذلك ، فهناك بعض المخلصين ، أمثاله .
- آه عجباً ، ! مثل الآخرين !
كانت عيناها حراوين ! إنها تبكي . ثم قالت وهي تحاول
الكلام :

- اعذرني ! أنا مخطئة ! انها فكرة حزينة انتابتني !
ما فهم شيئاً .
هم ! «إنها أقلّ قوّة مما تصوّرت » فكر في ذاته .
دقت الجرس تريد كأس ماء ، شربت جرعة ، أرجعت
الكأس ، وتشكّكت من أنّ أحداً لا يخدمها كما يجب . وليسليها ،
عرض نفسه كخادمها ، مدّعياً أنّ باستطاعته تقديم الصحون ،
نفض الغبار ، مناداة الناس ، وعرض ، أخيراً ، أن يكون
وصيفها ، أو بالأحرى ، خادماً ملازماً ، بالرغم من انقضاء هذه
الدرجة . يريد الوقوف ، وراء سيّارتها ، بقبّعة من ريش الديك .
- وكم سأتابعك ، سيراً ، بفخامة ، حاملاً على ذراعي
كلباً صغيراً !

- أنت مريح ، قالت السيّدة دمبروز .
- اليس جنوناً ، تابع ، ان يحمّل كلّ شيء ، يحمل الجذّ !
هناك الكثير من المتاعب ولا حاجة لاختلافها . لا شيء يستأهل
الأم . رفعت السيّدة دمبروز حاجبيها ، علامة موافقة مبهمة .
هذا التكافؤ في العواطف دفع فريدريك الى المزيد من
الجرأة . بات الآن ، يفيد من تعثراته السابقة ، أكمل :

- أجدادنا عاشوا أفضل منا . لماذا لا نطيع تحريضاً
يدفعنا ؟ ليس الحب في ذاته ، بعد كل شيء ، أمراً بهذه الأهمية !
- لكن ما تقوله منافٍ للأخلاق !
كانت عادت الى أريكتها . جلس على طرفها ، في مقابل
قدميها .

- لا تظني أنني أكذب ! لأنه ، لارضاء النساء يجب
التصرف بلامبالاة مهرج ، أو باندفاع تراجيدي ! تسخرن بنا حين
نصرّح لهن بحبنا ، ببساطة ! أرى ، انا ، هذه المبالغات البها
تتلاعبن نوعاً من خيانة الحب الحقيقي . حتى انا بتنا لا نعرف
كيف نبوح بخاصة أمامهنّ . . . من يملكن . . . روحاً عجباً .
نظرت اليه ورموشها نصف مطبقة . خفض صوته ، منحنيّاً
صوب وجهها .

- نعم ! أنت تخيفيني ! لربما اسأت اليك ؟ . . . معذرة !
. . . ما كنت أريد قول كل ما قلته ! ليس هذا ذنبي ! أنت جميلة
جداً !

أغمضت السيّدة دمبروز عينيها ، وفوجيء بنصره السهل .
توقّفت أشجار الحديقة التي كانت ترتعش برخاوة . توشّح السماء
غيوم ثابتة بأسراب حمراء ، وحصل ، كما وقف عامّ للأشياء
وبغموض ، عادت الى ذهنه مساءات متشابهة وصمت مشابه .
أين تمّ ذلك ؟

ركع ، أخذ يدها ، وأقسم لها حبّاً خالداً ، ثم ، وهو
ذاهب ، اشارت اليه يعود وهمست له بصوت مخفوض :

- إرجع للعشاء ! سنكون وحيدين !

بدا لفريدريك ، وهو ينزل الدرج ، أنه صار رجلاً آخر ، ان الحرارة المنتشرة للدفيئات الحامية تحيطه ، انه يدخل ، نهائياً العالم السامي للزناة النبلاء والمغامرات العاطفية الكبيرة . للثبات في المركز المتقدم ، يكفي الاحتفاظ بامرأة كهذه . لكونها شرهة ، هي ، أكيداً ، للقدر ، والحركة ، ولكونها ، كذلك ، زوّجت الى رجل قليل الذاكرة خدمته بشكل مدهش ، هي تريد كائناً قوياً تقوده . لا شيء مستحيل الآن ! أحسّ نفسه بقادر على اجتياز مثني فرسخ على الحصان ، على العمل ليالٍ متتابعة من دون تعب ، طفح قلبه تكبراً .

على الرصيف ، أمامه ، كان رجل يرتدي سترة قديمة يمشي خافض الرأس ، وبمظهر رزوح ، فاستدار فريدريك ليراه . رفع الآخر وجهه . انه ديلورييه . يتلعثم . قفز فريدريك الى عنقه .

- آه ! يا صديقي المسكين ! ماذا ! هذا انت !

واصطحبه الى بيته وهو يسأله أسئلة كثيرة معاً .

مندوب لادرو-رولان السابق روى ، أول الأمر ، الصعوبات التي لقيها . بما انه أخذ يعظ المحافظين بالأخوة والاشتراكيين باحترام القوانين ، فقد أطلق هؤلاء عليه النار ، وأولئك أتوا بحبل لشنقه . ولقد خلعه ، بالعنف بعد حزيران . كان اشترك في مؤامرة ، انها مؤامرة السلاح الذي صودر في تروا . اعتقوه لعدم وجود الأدلة . ثم ارسلته لجنة العمل الى لندن حيث اصطدم بالصفع مع رفاقه وسط مأدبة . وفي العودة الى

باريس . . .

- لم تأت إليّ؟

- كنت غائباً باستمرار! كانت لحاجبك مظاهر غامضة ،
ما عرفت ماذا أفكر ؛ بالإضافة الى اني ما رغبت في الظهور مجدداً
بمظهر الفاشل .

كان طرق أبواب الديمقراطية عارضاً ان يخدمها بقلمه ،
بكلمته ، بانطلاقاته ؛ أقفلت في وجهه الأبواب ، يتخلّصون
منه . باع ساعته ، مكتبته ، بياضه .

- كان الموت جوعاً فوق جسور « بل - إيل » مع
سينيكال ، أفضل .

لم يُدهش كثيراً فريدريك الذي كان يسوّي ربطة عنقه ،
لهذا الخبر .

- آه ، هل نفى هذا السينيكال الطيّب ؟
أجاب ديلوربيه وهو يجول بنظره فوق الجدران العالية ،
بمظهر حسود :

- الجميع ليس لهم حظك !
- أعذري ، قال فريدريك ، دون ان ينتبه للتلميح ،
سأتمشى في المدينة . ستأكل هنا ، أطلب ما تشاء ! وحتى ، نم
في سريري .

اختفت مرارة ديلوربيه أمام محبة هذا الكمال .

- سيربك ؟ لكن . . . أزعجك ؟!

- كلاً ، أبداً ! عندي سنواه !

- آه حسناً جداً ، قال المحامي مبتسماً . أين ستتعثى ؟
 - عند السيّدة دمبروز .
 - هل ... صدفة ... أن ... ؟
 قال فريدريك :
 - أنت كثير الفضول ، مبتسماً ابتسامة تؤكد هذا الاعتقاد .
 واذا التفت الى الساعة ، عاد فجلس .
 - الأمر هكذا ! ويجب ألاّ تيأس ، أيها المدافع القديم عن
 الشعب !
 - عجباً ! ليختلط بهذا الآخرون !
 كان المحامي يكره العمال لكونه عانى منهم في مقاطعته وهي
 منطقة فحم حجرّي . كل بئر استخراج كانت انشأت حكومة
 مؤقتة تبلغها أوامرها .
 - مع ذلك ، فسلوكهم كان حسناً في كلّ مكان . في
 ليون ، في ليل ، في باريس لأنهم ، على غرار اصحاب المصانع
 الذين أرادوا اقضاء المتوجّات غير الوطنيّة ، أراد هؤلاء السّادة
 ابعدا العمال الانكليز ، الألمان ، البلجيكيين ، وأهل « سافوا » !
 أمّا بالنسبة الى ذكائهم ، فإلى أيّ أمر أدّت ، في كلّ ثورة الملكية ،
 رابطتهم الشهيرة ؟ دخلوا ، العام ١٨٣٠ ، في الحرس الوطني ،
 من دون ان يتميّزوا ، حتى بالحسّ الفطري للسيطرة . ألم يظهر ،
 مجدداً ، بعيد الـ ٤٨ ، الجسم المهني مع اعلامهم الخاصّة بهم !
 راجوا يطالبون ، حتى ، بممثّلين عنهم ، لا يتحدّثون إلاّ
 لأجلهم ! تماماً كما نواب الشمندر ، لا يهتمون إلاّ بالشمندر ! -

آه ! يكفيني ما عانيت من هؤلاء الشيوعيين ، صاغرين الواحد بعد الآخر ، أمام مقصلة روبسيار ، وتحت نعال الأمباطور ، ومظلة لويس فيليب ، أوباش دائمو التفاني لمن يرمي في أفواههم خبزاً ! يحتجون دائماً ضدّ رشوة تاليران وميرابو ، لكن الموظف البسيط يبيع الوطن مقابل خمسين سنتياً ، إذا وعدوه بتعرفة شوط السباق بفرنكات ثلاثة . آه ! يا للخطأ ! كنا استطعنا اشعال أوربا في زواياه الأربع !

أجاب فريديك :

- كانت تنقص الشرارة ! كنتم ، فقط ، بورجوازيين صغاراً ، والأفضل بينكم مدّعون حمقى ! أما العمّال فبماكانهم التشككي ، لأنه ، إذا ما استثنيت مليون مكتب في اللائحة المدنيّة ، وانعمت عليهم بالطريقة الأكثر تملّقا ، لا تكون عملت لهم إلّا كلاماً ! فالسجل يبقى بأيدي ربّ العمل ، والأجير ، (حتي أمام العدالة) يبقى ادنى من سيّده ، لأنهم لا يصدّقونه . أخيراً ، فقد بدت لي الجمهورية هرمة . من يدري ؟ فربما ان التقدّم لا يتحقّق إلا عبر الأرستقراطية أو عبر رجل ؟ المبادرة تبدأ ، دوماً ، من أعلى ! والشعب قاصر برغم كل الادّعاءات ! قال ديلوربيه :

- قد يكون معك حق .

فجمهور المواطنين ، حسب فريديك ، لا يطمح إلّا للراحة (كان استفاد في فندق دمبروز) ، وكل الحظوظ للمحافظين . مع هذا ، فهذا الحزب ينقصه رجال جدد .

- لو تتقدّم ، واثق أنا . . .
 لم يكمل فهم ديلورييه ، مرّر يديه فوق جبينه ، ثم فجأة :
 - ولكن أنت ؟ لا شيء ، يمنعك . لم لاتصيرنائبا ؟ - على
 اثر انتخاب ثان ، فقد بقي في منطقة (الأوب) ترشيح شاغر . اذ
 انتخب مجدداً السيد دمبرز للمجلس التشريعي ، فهو ينتمي الى
 دائرة أخرى . « أتريد أن أهتم بالأمر ؟ » كان يعرف الكثير من
 أصحاب الحانات ، المعلمين ، الأطباء ، كتاب المحامين
 والمحامين . « من جهة أخرى ، نجعل القرويين يصدّقون كل ما
 نريده ! » .

شعر فريدريك بطموحه يتجدّد .
 أضاف ديلورييه :
 - عليك ان تجد لي وظيفة في باريس .
 - أوه ! ليس الأمر صعباً بواسطة السيد دمبرز .
 - بما اننا تحدّثنا عن الفحم الحجري ، قال المحامي ، ماذا
 حلّ بشركته الكبرى ؟ انها وظيفة من هذا النوع تلزمني ! - وأكون
 نافعا لهم ، وأنا أحافظ على استقلاليّتي .
 وعد فريدريك باصطحابه الى صاحب المصرف خلال أيام
 ثلاثة .

كان شهياً عشاؤه مع السيّد دمبرز ، وجهاً لوجه .
 تبسم في مواجهته ، الى الجانب الآخر من الطاولة ، من فوق
 ازهار في سلّة ، في ضوء مصباح معلق . ومن النافذة المفتوحة ،
 كانا يشاهدان النجوم . قليلاً تحدّثا ، يداخلهما الشك من

نفسيهما ، واذا يدير الخدم ظهورهم ، يرسلان لبعضهما قبلة
بأطراف الشفاه . أخبرها بفكرة ترشّحه . استحسنتها ، متطوّعة
بأن تجعل السيّد دمبروز يعمل له .

في المساء ، حضر بعض الأصدقاء ، لتهنئتها وتسليتها ، قد
تكون كثيية لفقدائها قريبتها ؟ على كل حال ، فحسناً فعل الزوجان
بالسفر ، في ما بعد يطراً الأولاد ، والعقبات ! لكنّ إيطاليا ليست
كما يُحلم بها . وهما ، ما يزالان في عمر الأوهام ، ثم ان رحلة
الزواج تبذر كلّ شيء ! والأخيران اللذان بقيا كانا السيّد دي
غرمونفيل وفريدريك . ما أراد الديبلوماسيّ الذهاب . أخيراً ،
نهض في نصف الليل . أشارت السيّد دمبروز الى فريدريك
بالذهاب معه ، وشكرته لتليتها هذه ، بضغط على اليد ، أكثر
عدوية من أيّ أمر آخر .

هتفت « المارشالة » فرحاً حين رآته مجدّداً . هي انتظرت من
الخامسة . احتجّ بمسعى ضروري لأجل ديلورييه . كان لوجهه
مظهر نصر ، هالة ، بهرت به روزانيت .
- لربما كان هذا بسبب ثوبك الأسود الذي يناسبك تماماً .

لكنني ما وجدتك ، أبداً ، بهذا الجمال ! كم أنت جميل !
أقسمت في ذاتها ، في انطلاقة حنان ، انها لن تستسلم
لآخرين مهما حدث ، ولو تناتشها الشقاء !

تلاّأت عيناها الجميلتان بشهوة عظيمة ، جعلت فريدريك
يجذبها فوق ركبتيه ، وقال في ذاته : « يا لي من وغد ! » متفاخراً
بفسقه .

IV

كان السيّد دمبروز ، حين قدم عليه ديلوريه ، يفكر في احياء مشروعه الكبير في الفحم الحجري . لكنّ هذا الدّمج للشركات كلّها في واحدة كان عملية سيّئة . صار احتجاج ضد الاحتكار ، كما لو أنّ مثل هذه الاستثمارات لا يلزمها رؤوس أموال طائلة ! لكنّ ديلوريه ، الذي كان قرأ ، عمداً ، كتاب غوبيه ومقالات السيّد شابّ في « جورنال دي مين » ، يعرف المسألة تماماً . برهن أنّ قانون ١٨١٠ يحقّق ، لمصلحة صاحب الامتياز حقاً لا يتزعزع . زد على هذا ، أنه في الامكان إعطاء المشروع صبغة ديمقراطية : منع اجتماعات مناجم الفحم الحجري يُعتبر تعدياً حتى على مبدأ الرابطة .

أسرّ إليه السيّد دمبروز بملاحظات لكتابة بحث . ووعدّه ، بخصوص تعويض أتعابه ، وعوداً لا يوازيها سخاء سوى غموض حجمها .

عاد ديلوريه إلى فريدريك وعرض عليه نتيجة المداولة . أكثر ، فقد رأى السيّد دمبروز عند أسفل الدرج وهو عائد .

- أهنتك عليها !

ثم تحدّثا عن الانتخابات . كان ثمة مجال لاختراع شيء ما .
عاد ديلورييه بعد ثلاثة أيّام ومعه ورقة محرّرة للجرائد وهي
رسالة يستحسن فيها السيّد دمبروز ترشيح صديقه . يدعمه محافظ
ويمتدحه شيوعي ، فيجب أن ينجح . كيف وقع الرأسمالي على مثل هذا
الهلديان ؟ وبدون أي اضطراب منه ، كان المحامي أطلع عليها
السيّدة دمبروز ، وإذ وجدتها جيّدة تكفّلت بالباقي .
فاجأت فريدريك هذه الانطلاقة . مع ذلك فقد
استحسنها . ثم ، بما أنّ ديلورييه سيفاوض السيّد روك ، فقد أخبره
بوضعه تجاه لويـز .

- قل لهم ما تشاء ، إن أعمالي مضطربة ، سأهتمّ بترتيبها ،
تستطيع الانتظار ، فهي صبيّة !
ذهب ديلورييه ، ورأى فريدريك نفسه كرجل فعّال جداً .
إلى هذا ، فهو يشعر بإرواء غليل ، بلدة عميقة . فرحه بامتلاك
سيّدة غنيّة لا يلجمه أيّ عائق . فالشعور يتوافق والمحيط . وحياته ،
الآن ، فيها حلاوات أينما كان .

وربما أن الحلاوة الأشهى هي تأمل السيّدة دمبروز ، بين
كثيرين ، في صالونها . لياقة حركاتها تجعله يحلم بجلسات أخرى ،
في حين تتكلّم بنبرة باردة ، يروح يتذكّر كلمات حب همستها ، كل
التقدير لفضيلتها ، يلجمه كساحر يعود إليه . وكان بوّده ، مرات ،
أن يهتف : « أفضل منكم أعرفها ! إنها لي ! » .
ما تأخّرت علاقتهما في أن تصبح شيئاً متفقاً عليه ، مقبولا .
وراحت السيّدة دمبروز ، طوال الشتاء ، تصطحب فريدريك في

كل الأنحاء .

يكاد ، كل مرة ، يصل قبلها . ويراها تدخل ، عارية الذراعين ، المروحة في اليد ، وحبات اللؤلؤ في شعرها . تقف ، كانت ، على العتبة (يحيطها حاجب الباب كإطار) ، وتكون عندها حركة تردّد بسيطة ، غامزة الجفنين ، لتكتشف هل هو هنا . تأخذه في عربتها ، يجلد المطر كوى النوافذ ، يتحرك المارة ، كما الظلال ، في الوحل ، يلاحظان ، كل هذا ، بغموض ، مشدوداً واحدهما إلى الآخر . وبأعذار شتى ، يبقى ساعة طويلة في غرفتها .

استسلمت السيدة دمبروز ، بعامل الضجر خصوصاً ، لكن هذه التجربة الأخيرة يجب ألا تضيع . تريد ، هي ، حباً كبيراً ، وراحت تغدق عليه الدلال والملاطفات .

أرسلت له زهوراً ، صنعت له كرسيّاً منجّدة ، أعطته علبة سيجار ، ظرف أدوات كتابة ، ألف شيء صغير يوميّ الاستعمال لئلا يقوم بعمل ما من دون أن يذكرها . أبهجت هذه الملاطفات أولاً ثم بدت له أموراً عادية .

كانت تصعد في مركبة خيل ترسلها عند مدخل ممرّ ، تخرج من الطرف الآخر ، ثم ، منسلة على امتداد الجدران ، بوشاح ، على الوجه ، مزدوج ، تصل إلى الشارع حيث فريدريك المنتظر كحارس ، يأخذ بذراعها ، بحيوية ، ليقودها إلى بيته . يكون هادما في النزهة ، والحاجب يتسوّق ، ترمي نظرة حواليتها ، لا شيء يخشى أو تصعد نهدة كمنفيّ يرى وطنه من جديد . يجعلها الحظ جسورين . تتضاعف مواعيدهما . ذات مساء ، حضرت

فجأة بزي حفلة . يمكن أن تكون هذه المفاجآت خطيرة . لامها لتهورها ، وفوق ذلك لم تعجبه ، فصدارها المفتوح كثيراً ، يكشف عن صدرها الهزيل .

اكتشف ما كان أخفاه : خيبة حواسه . لكن ذلك لم يمنعه من التظاهر بالأشواق الكبيرة ، إنما ، ليشعر بها ، كان عليه أن يستحضر صورة روزانيت أو السيّد أرنو .

هذا الضمور العاطفي أطلق لرأسه كامل الحرية ، وأكثر من أي وقت ، راح يحلم بمركز مهم في الحياة . بما أن عنده مرقاة كهذه ، على الأقل ، فليستفد منها .

ذات صباح ، حوالى منتصف كانون الثاني ، دخل سينيكال غرفته . وعلى دهشته العجبي أجاب أنه سكرتير ديلوريه . وهوّات إليه برسالة . تتضمّن أخباراً حسنة ، وتلومه ، مع ذلك ، على إهماله . عليه الذهاب إلى هناك .

قال نائب المستقبل انه ، في الغد ، سيكون في الطريق . لم يعبر سينيكال عن رأيه في هذا الترشيح . تحدّث عن ذاته وأعمال البلاد .

هي تعجبه ، مهما كانت تدعو للرئاء ، فالمسيرة ، واضحة ، نحو الشيوعية . الادارة سائرة ، من تلقائها ، إليها ، على أساس أن الشؤون التي ترعاها الحكومة تزداد كل يوم . أما بالنسبة للملكية ، فدستور سنة ٤٨ ، بالرغم من نقائصه ، لم يكن يصفونها . فباسم المصلحة العامة ، كانت الدولة تستطيع أخذ ما يلائمها . أعلن سينيكال أنه مع السلطة ، ولحق فريدريك ؛ في هذه الأحاديث ،

مبالغة في كلماته التي كان قالها لديلوريه . ندّد الجمهوري حتى بتقصير طبقات العمّال .

- ان روبسبيار ، عندما دافع عن حق العدد القليل ، أنى بلويس السّادس عشر أمام الجمعية التأسيسية الوطنية ، وأنقذ الشعب . نهاية الأمور تجعلها مشروعة . والديكتاتورية ؛ أحياناً ، لا غنى عنها . فليحيا الظلم ، إذا كان الظالم يعمل الخير ! استمرت مناقشتها طويلاً جداً ، وإذ قام ليذهب ، باح سينيكال (وكان هذا سبب زيارته) بأن ديلوريه يبدو نافذ الصبر لصمت السيّد دمبروز .

لكن السيّد دمبروز مريض . يراه فريدريك كلّ يوم ، فبصفته صديقاً حميماً هو يظلّ قربه .

دهش الرأسمالي كثيراً لنقص الجنرال شانفرنيه . في المساء ذاته ، أصيب بحرارة كبيرة في الصدر مع إحساس بالاختناق فلم يعد يستطيع البقاء في السرير . علّق جُلب له الراحة السريعة . اختفى السعال الناشف ، وصار التنفس اهدأ . وبعد ثمانية أيام ، قال وهو يتناول حساء :

- آه ! تحسّنت ! لكنني خسرت الرحلة الكبرى !

- ليس بدوني ! صرخت السيّد دمبروز ، ملّحة بهذه الكلمة إلى أنها لا تحتمل العيش من دونه .

بدلاً من أن يجيب ، التفت إليها وإلى عشيقها بيسمة ذات مغزى ، فيها ، في الوقت نفسه ، استسلام ، تساهل ، سخرية ، وحتى نكتة ، مُضمراً يكاد يكون فرحاً .

أراد فريدريك أن يذهب إلى نوجان ، اعترضت السيدة دمبروز . وصار يجزم ويفك حقائقه حسب تعاقب المرض . فجأة ، بصق السيد دمبروز الدم بغزارة . وإذ استشير « أمراء العلم » ، لم يقولوا جديداً . راح فخذاه يتفتخان ، ويزداد الضعف . أراد ، أكثر من مرة ، رؤية سيسيل التي كانت في الطرف الآخر من فرنسا مع زوجها وقد جعل جايياً منذ شهر . أمر ، بحزم ، بإحضارها . كتبت السيدة دمبروز رسائل ثلاثاً وأظهرتها له .

ما عادت تفارقه لحظة ، باتت لا تنام ، غير متكلة على الراهبة . صار الرجال الذين يأتون عند الحاجب يستعلمون عنها بإعجاب . وأخذ المارة بالاحترام أمام كمية التبن الكبيرة المنشورة في الشارع تحت النوافذ ، لثلا يصل ضجيج عجلات المركبات إليه . وفي الخامسة من الثاني عشر من شباط ، بدأ نزف مخيف . أعلن الطبيب الحاضر أن الحالة خطيرة . وبسرعة ركضوا عند كاهن .

خلال اعتراف السيد دمبروز ، راحت زوجته تنظر إليه من بعيد ، بفضول . بعد ذلك وضع الطبيب الشاب دواءً منقطعاً وانتظر . لم تكن الغرفة مضاءة بالقدر ذاته ، فالأثاث كان يحجب ضوء القناديل . عند أقدام السرير ، فريدريك والسيدة دمبروز يراقبان المحتضر . الكاهن والطبيب يتحادثان بصوت خفيض . والراهبة تهمهم ، راکعة ، بصلوات . أخيراً ارتفعت حشرجة . بردت اليدان ، بدأ الوجه

يشحب . يتنفس ، أحياناً ، نفساً عجيباً ، صار التنفس اندر ،
تتم كلمتين مبهمتين أو ثلاثاً ، زفر نفثة صغيرة في الوقت الذي
أغمض عينيه ، ومال رأسه إلى المخذة .
ظلّوا ، جميعاً ، للحظة ، جامدين .

اقتربت السيّدة دمبروز . وببساطة من يقوم بواجب ، ودون
جهد ، أغمضت له جفنيه .

ثم أبعدت يديها حانية قامتها كما في انقباض يأس ، وخرجت
من الغرفة ، مستندة إلى الطيب والراهبة . بعد ربع ساعة ، صعد
فريدريك إلى غرفتها .

كنت تشمّ فيها رائحة لا تحدّد ، فوح أشياء لطيفة يملأها .
يمتدّ ، وسط السرير ، ثوب أسود ، متبائناً على غطاء السرير
الزهري .

كانت السيّدة دمبروز واقفة عند زاوية المدفأة . حسبها حزينّة
إلى حدّ ما بدون أن يفترض عندها آلاماً كبيرة . وبصوت مكتئب
سألها :

- تتألّمين ؟

- أنا ؟ لا ، أبداً .

وإذ هي تستدير ، لمحت الثوب ، تفحصته ، ثم قالت له ألا
يتضابق .

- دخن إذا شئت ! أنت عندي !

وينهدة كبيرة :

- آه ! أيتها العذراء ! يا له من اعتناق !

دُهِشَ فريدرىك لهتافها . رَدَدَ مَقْبَلًا يدها :

- مع ذلك فقد كُنَّا حُرِّين !

بدا هذا التلميح إلى سهولة مغامراتها وكأنه جرح السيِّدة دمبروز .

- إيه ! أنت لا تعرف الخدمات التي كنت أقدمها له ، ولا في أيِّ قلق كنت أحيًا !
- كيف ؟

- بالتأكيد ! هل كانت هناك ضمانة في أن تبقى قِربك ابنة الزنى تلك ، ابنة أُدخِلت إلى البيت خلال خمس سنوات ، وهي ، بدوني ، لكانت وقعت ، طبعاً ، في حماقة ما .

وشرحت أعمالها . كانا تزوّجا بحسب نظام الافتراق . إرثها كان ثلاثمئة ألف فرنك . حسب الاتفاق ، أُمِنَ لها السيد دمبروز في حال بقائها بعد موته ، خمسة عشر ألف ليرة دخلاً مع مُلكيّة الفندق . إنما ، بعد وقت قليل ، أوصى لها بكل ثروته . وراحت تقدرها ، بمقدار ما هو ممكن أن تعرف الآن ، بأكثر من ثلاثة ملايين .

فتح فريدرىك عينين كبيرتين .

- كان الأمر جديراً بالاهتمام ، أليس كذلك ؟ مع ذلك ، فقد أسهمت في مساعدتها ! عن ثروتي كنت أدافع . كانت سيسيل لتسلمني بغير عدل .

- لمْ لَمْ تأتي لرؤية والدها ؟ قال فريدرىك .

عند هذا السؤال ، حملقت فيه السيِّدة دمبروز ، ثم ، بنبرة قاسية :

- لا أعرف ! هي ، ولا شك ، بلا عاطفة ! أوه ! أعرفها
أنا ! لن تحظى مني بفلس !
- لم تكن مزعجة ، أقله منذ زواجها .
- آه ! زواجها ! قالت ، ساخرة .
ولامت نفسها على معاملتها الحسنة لهذه البلهاء ، التي كانت
حسودة ، انتهازية ، خبيثة . « كل نقائص والدها ! » راحت تذمه
أكثر فأكثر . إنه إنسان عميق الزيف ، لا يطاق ، قاس كحصاة ،
« رجل سيء ، رجل سيء ! » .
يقع في أخطاء ، وحتى البسيطة منها . وها السيدة دمبروز تقع
في واحدة منها ، بهذا الفيض من الحقد . فريدريك ، بمواجهتها ،
يطرق مصدوماً .
نهضت ، وعلى مهل ، استلقت على ركبتيه .
- وحدك طيب ! وحدك أحبك !
رق قلبها ، وهي تنظر إليه ، وانفعال عصبي دفع دموعاً إلى
عينها ، فهمت :
- أتتزوجني ؟
ظن أنه لم يفهمها ، أولاً . أذهله هذا الغنى .
أخيراً ، قال ، وهو يتنهد :
- أوتشكين ؟
ثم سيطر عليه نوع من الطهر ، وليعوض على المتوفي ، تقدم
بأن يسهر عليه طوال الليل . وبما أنه ينجل ، كان ، من هذه
العاطفة الورعة ، أضاف بنبرة طليقة :

- لربما كان هذا أفضل .

- نعم ، قالت ، بسبب الخدم !

كان أخرج السرير ، كلياً ، خارج المضجع . . الراهبة عند أقدامه . وبجانبه يقوم كاهن ، وآخر ، طويل هزيل ، ذو مظهر إسباني ومتعصب . وعلى خزانة صغيرة تغطيها فوطه بيضاء ، تشتعل مشاعل ثلاثة .

جلس فريدريك على كرسي ، وطفق ينظر إلى الميت . أصفر وجهه كالتبن . قليل من الريق الدامي يطبع زاويتي شفثيه . كان وشاح يلف رأسه ، سترة صوفية ، وصليب فضي على صدره ، بين ذراعيه المشبوكين .

كان انتهى هذا الكائن المليء حركة ! كم عمل في المكاتب ، صفت أرقاماً ، سَمَسَر بأعمال ، سمع تقارير ! كم من كلام معسول ، ابتسامات ، انحناءات تبجيل ! لأنه كان هَلَل لنابوليون ، للقوزاقيين ، للويس الثامن عشر ، للعام ١٨٣٠ ، للعمال ، لكل الأنظمة ، متعلقاً بالسلطة بحب كبير إلى حد أنه كان مستعداً ، لكي يبيع نفسه ، أن يدفع .

لكنه ترك أملاك فورتيل ، ثلاثة مصانع في بيكاردي ، غابة كرانسيه في منطقة اليون ، مزرعة قرب أورليان ، ثروات مالية محترمة .

هكذا ، راجع فريدريك ثروته ، وهي ستؤول إليه ! ففكر ، أول الأمر ، في ما « سوف يقولون » ، في هدية لأمه ، في مرابطه المستقبلية ، في حوزي عائلته الهرم الذي كان يريد أن يكون

حاجباً . . . فالخلعة لن تبقى ذاتها ، وهذا أمر طبيعي . سيجعل من الصالون الكبير غرفة العمل . ولا شيء يؤخره في أن يجعل ، في الطابق الثاني ، قاعة عرض للوحات ، بعد هدم ثلاثة جدران . ولربما هناك إمكان ، في الأسفل ، لتنظيم قاعة حمامات تركية . أما بالنسبة إلى مكتبي السيد دمبروز ، وهو غرفة لا تعجبه ، فما يمكنه أن يجعل منها ؟

لم يكن يقطع تصوراته سوى الكاهن الذي يخطط ، أو الراهبة التي تهتم بالنار . لكن الحقيقة تؤكد لها ، فالجثة قائمة ، دائماً ، هنا . جفونها كانت تفتحت من جديد ، وللبؤبؤين الغارقين في الظلمات اللزجة تعبير غامض ، لا يطاق . ظنّ فريدريك أنه يرى فيهما كحجة ضده ، وشعر بتوبيخ ضمير ، لأنه لم يكن له ما يشكوه ضد هذا الرجل ، الذي كان ، على العكس . . . « هيا بنا ! عجوز مسكين ! » وراح يراقبه من مكان أكثر قرباً ، ليتأكد مجدداً ، هاتفاً له بباطنه :

« وماذا بعد ؟ هل قتلتك ؟ »

في هذه الأثناء ، كان الكاهن يصلي شحيمة ، والراهبة ، تسهر ، جامدة ، وفتيلة المشاعل الثلاثة تمتد .

خلال ساعتين ، كينت تسمع دوران مركبات سائرة نحو السوق « الهال » . ابيض زجاج النوافذ ، مرت عربة ، ثم جماعة دواب تكدح على البلاط ، وضربات قدوم ، صراخ باعة جوالين ، صيحات بوق . كل شيء غدا يختلط بضجيج باريس الكبير وهي تستيقظ .

راح فريدريك لينظم الأمور . حمل نفسه ، أولاً ، إلى دار
المختارّة ليصرّح بالوفاة . ثم ، عندما أعطى طبيب الموت شهادة
وفاة ، عاد الى المختارّة يصرّح أية مقبرة تريد العائلة ، ولينفق
مع مكتب مواكب الدفن .

عرض الموظف رسماً وبرناجماً ، يشير الأول إلى أنواع الدفن
المختلفة ، والثاني إلى تفصيل الديكور الكامل . أيريدون مركبة
بمقصورة أم مركبة مزينة ، جياداً كثيرة ، غرفة خوذ للخدم ، حروفاً
أولى أم شعار النسب ، مصابيح جنازية ، رجلاً لحمل شعائر
الشرف ، وكم من السيارات ؟ تبسط فريدريك ، أصرت السيّد
دمبروز على أن لا تهتمّ بأمر .
بعدها ، عاد إلى الكنيسة .

راح كاهن موكب الجنازات يستنكر استغلال مواكب الدفن ،
من هنا فالرجل الذي يحمل شعائر الشرف لا لزوم له ، الكثير من
الشموع العسلية أفضل ! وتم الاتفاق على قداس غير صارخ ترتفع
فيه الموسيقى . وقع فريدريك ما تمّ الاتفاق عليه ، مع إلزام يدفع
كل المصاريف .

اتجه ، من ثم ، إلى دار البلدية لشراء الأرض . تكلف حكرة
الأرض ، التي من مترين طولاً ويعرض متر ، خمسمئة فرنك .
أ تكون حفرة متبدلة أم دائمة ؟
- آوه ! دائمة ! قال فريدريك .

بجدية كان يهتمّ ، يُتعب نفسه . ينتظره رخام في ساحة
الفندق ليعرض عليه مقاييس وتصاميم قبور يونانية ، مصرية ،

عربية . لكن مهندس البيت كان تفاوض مع السيّدة وفي الدهليز ، على الطاولة ، كل أنواع الاعلانات المتعلقة بتنظيف الفرش ، بتطهير الغرف ، بمختلف أساليب التحنيط .

عاد ، بعد الغداء ، عند الخياط لأجل ثياب حداد الخدم . وكان عليه بعد ، أن يقوم بآخر مشترياته ، فقد أوصى على قفازات من فرو القنّس ، وكان يناسب قفازات من خيط مشاقة الحرير . في العاشرة من اليوم التالي ، حين وصل ، وُجد الصالون مليئاً بالناس ، وكلّهم ، تقريباً ، يقولون بمظهر كثيب مقترين من بعضهم بعضاً :

- أنا الذي رآه من شهر ! يا إلهي ! هذا قدرنا جميعاً .

- نعم ، ولكن فلنحاول أن يكون أبعد ما يمكن !

حينها ، أطلقوا ضحكة رضى صغيرة وانخرطوا في أحاديث لا علاقة لها بالمناسبة .

أخيراً ، قال رئيس التشريفات (ويرتدي ثوباً أسود على الطريقة الفرنسيّة وسروالاً قصيراً ، شيش إلى خصره وتحت إبطه قبعة مثلثة الزوايا) ، بحياء ، الكلمات المعتادة : « أيها السادة ، حين ترون الأمر مناسباً » . فذهبوا .

كان يوم سوق الأزهار في ساحة « المادلين » . الطقس صاف وجليل - والنسيم الذي كان يهزّ البيوت القماشية ، راح ينفخ ، من الطرفين ، القماشة السوداء الهائلة المعلقة على الباب . يتكرّر شعار السيّد دمبروز ، وهو على قماشة مخملية مربعة ، ثلاث مرات . وهو يقول : « عبر كل طريق » .

اصعد الحمالون الثابوت إلى قمة الدرج ، ودخلوا .
مفروشة بالأسود المصليات الست والدائرة النصفية
والكراسي . عند أسفل الخورس تؤلف منصّة النعش وشموعها
العسلية ، بؤرة أنوار صفراء . وفي الزاويتين شماعدین تشتعل
عليها نيران .

جلست الشخصيات الأبرز في الحرم ، الأخرى في جناح
الكنيسة ؛ وابتدأت الرتبة .

كان الجهل بالأمور الدينية عميقاً ، إلا عند القلّة ، حتى أن
رئيس الاحتفال اضطر ، بين وقت وآخر ، لأن يشير إليهم
بالوقوف ، بالركوع أو بالجلوس . يتناوب مع الأصوات ارغن
وكونتروباسان. وفي لحظات السكون ، كنت تسمع دندنة الكاهن
على المذبح . ثم تعود الموسيقى والتراويل .

ينزل نور كامد من القبة الثلاث ، لكن الباب المفتوح
يرسل ، أفقياً ، نوراً كنهر صفاء أبيض يلامس كل الرؤوس
العارية ، ويجوّم ظلّ ، وسط فضاء قلب الكنيسة ، آتٍ عبر
انعكاس الذهب المزركش تعاريق مثلث القبة وورقية تيجان
الأعمدة .

راح فريدريك ، ليتسلّى ، يستمع إلى الصلاة . يتأمل
الحضور ، يهتمّ برؤية الرسوم المرتفعة جداً والتي تمثل حياة
« المادلين » . ولحسن الحظّ جاء بيلران يجلس قربه ، وبدأ ،
للحال ، تحليلاً طويلاً للجدرانيات . قرع الجرس . خرجوا من
الكنيسة .

توجهت عربية الموق ، المزينة بأعلام متدلّية وبقنزعات عالية ، نحو مقبرة « بير - لاشيز » ، تجرها أربعة جياذ سود بجداثل في الأعراض ، وقنزعات على الرأس ، يغطيها ، حتى الحوافر ، جُلّ مزركش عريض مطرّز بالفضة . يحمل الخوذيّ ، وهو بجزمة فروسيّة ، علماً بثلاثة قرون بعرف طويل متدلّ . يمسك الخبال أربعة أشخاص : مراقب مالي في مجلس النواب ، عضو في مجلس منطقة « الأوب » ، مندوب عن شركات الفحم الحجري ، - وفوميشون كصديق . بعد هذا تأتي عربية الفقيد واثنان عشرة سيارة حداد . إلى الخلف ، يملأ المدعوون وسط البولفار .

توقف المارّة ليروا كل هذا ، صدى نساء ، وطفلهن بين أذرعهن ، على كراسي ، وبدأ محتسو البيرة في المقاهي يظهرون في النوافذ ، وبأيديهم عصي البليار .

كانت الطريق طويلة ، وكما في المآدب الرسميّة ، ترى التحفّظ أولاً ، ثم انفتاح القلب ، أهمل الوضع العام . لم يكن لأحد حديث إلا عن رفض تخصيص الرئيس ، وقد أقرّه المجلس . كان السيّد بيسكاتوري قد ظهر فظاً للغاية ، ومونتالمبير « رائع كما هي العادة » ، وفي الأخير فان السادة شامبول ، بيدو ، كريتون ، وكل المجلس ، تبعوا رأي السيّد كوانتام ، بوشار وديفور .

تتابعت هذه الأحاديث في شارع روكيت ، المطرّز بالمحلات ، حيث لا نرى سوى سلاسل زجاج ملوّن ، وحلقات سوداء صغيرة عليها رسوم وأحرف ذهبيّة ، - مما يجعلها تشبه مغاور ملأى بالرواسب الكليسيّة ، ومحلات خزف مزخرف . إنما صمت

الجميع ، تلقائياً ، أمام سور المقبرة .
 تنتصب القبور وسط أشجار ، أعمدة مكسرة ، أهراماً ،
 هياكل ، دُكُنْ ، مسلات ، سراديب بأبواب برونزية . كنت
 تلاحظ ، في بعضها ، ما يشبه الصالونات الصغيرة المعتمة ، وفيها
 كراس مريحة بسيطة وكراس أخرى تطوى . تتدلى خيوط عنكبوت
 كخرق في سلاسل المرامد ، ويغطي الغبار باقات بشرائط ساتانية ،
 وصلباناً . وأينما كان : بين أعمدة الدريزين ، على القبور ، تيجان
 متبقية ، وشماعدين ، آنية ، أزهار ، أطباق سوداء تعلوها أحرف
 ذهبية ، شخوص حصص : صبيان صغار وبنات صغيرات ، أو
 ملائكة صغار يمسكها في الفضاء سلك : والكثير له سقف توتياء .
 تنزل من أعلى المسلات حتى أقدام البلاط ، حبال من زجاج
 مفتول ، أسود ، أبيض وأزرق ، بثنيات طويلة كأنها أفاع .
 والشمس عليها ، تجعلها تتلألأ بين صلبان من خشب أسود ،
 وتتقدم عربة الموتى في الدروب الكبيرة . المبلطنة كشوارع مدينة .
 بين وقت وآخر ، يصفق جازع . وهناك نساء جاثيات يتحدثن
 بهدوء إلى الأموات ، وأثوابهن إنها تقدمات على العشب . يخرج من
 خضرة الطقسوس * .

متروكة ، بقايا يحرقونها .
 كانت حفرة السيد دمروز في جوار مانويل وبنجمان
 كونستان . تنحدر الأرض ، في هذا المكان ، بمنحدر وعر . فتحت

* شجر للزينة .

الأقدام رؤوس أشجار خضراء ، أبعد ، مدافئ بمطافئ ، ثم تمتد المدينة كلها .

استطاع فريدريك تأمل المنظر وقت إلقاء الخطب .
الخطاب الأول كان باسم مجلس النواب ، الثاني باسم مجلس منطقة الأوب العام ، الثالث باسم شركة الفحم الحجري في ساون-اي -لوار ، الرابع باسم الشركة الزراعية في يون ، وهناك آخر باسم جمعية خيرية . أخيراً ، ها هم يعودون ، حين بدأ رجل مجهول يقرأ خطاباً سادساً باسم جمعية تجار عاديّات أميانس .
وكلهم استغلّوا المناسبة للتشجيع بالاشتراكية التي مات السيّد دمبروز ضحيّتها . ان ما قصر في عمره هو منظر الفوضى وتفانيه هو في سبيل النظام ، امتدحوا مزاياه ، استقامته ، كرمه وحتى صمته كممثل للشعب ، لأنه ، وإن لم يكن خطيباً ، فهو يمتلك ، في المقابل ، صفاته الصلبة ، وهي ألف مرة أفضل ، الخ ، مع كل الكلمات الواجب قولها . « نهاية قبل أوانها ، حزن أبديّ ، الوطن الآخر ، وداعاً ، بالأحرى لا ، إلى اللقاء ! » .

أهيل التراب الممزوج حصى ، وما عاد ليكون موضوع حديث بين الناس .

فقط تحدّثوا عنه وهم يعودون . وما تأخّروا في تقديره . هيسّونيّه ، الذي كان عليه أن ينقل وقائع الدفن إلى الصحف ، استعداد الخطب بشكل ساخر ، لأن السيّد دمبروز كان واحداً من أبرز دافعي « البرطيل » في العهد الماضي ثم عادت سيّارات الحداد بالبورجوازيين إلى أعمالهم ، لم يدم الاحتفال طويلاً ، فراحوا

يهتثون أنفسهم بذلك .

ومتعباً ، فريدريك ، دخل منزله .

حين عاد ، في الغد ، إلى فندق دمبروز ، أخبروه أن السيدة تعمل في المكتب ، تحت . كانت الملفات والأدراج مفتوحة بشكل فوضوي ، دفاتر الحسابات مرمية يميناً وشمالاً ، وهناك ملف من ورق قديم عنوانه : « تغطيات ميثوس منها » كان مرمياً أرضاً ، فاته أن ينتبه إليه ويلمّه . كانت السيدة دمبروز مخفية ، مدفونة في الكرسي الكبير .

- وبعد ؟ أين أنت ؟ ماذا هناك ؟

قامت بقفزة واحدة .

- ماذا هناك ؟ لقد انهرت ، انهرت ! أسمع ؟

استدعاهما الكاتب العدل ، السيد أدولف لانغلوا ، إلى مكتبه ، وأعطاهما وصية كتبها زوجها قبل زواجهما . بها يوصي بكل شيء لسيسيل ، ولقد ضاعت الوصية الأخرى . شحب فريدريك . لا شك أنك لم تعرفي كيف تفتشين ؟

- ولكن انظر ! قالت السيدة دمبروز ، مظهرة له المكان .

الحزنتان مفتوحتان ، محطمتان بضربات بلطة ، وكانت قلبت المكتب ، نقتب خزانات الحائط ، هزت مماسح الأرجل ، حين ، فجأة ، أسرع ، صارخة صرخة حادة ، إلى زاوية لمحت فيها علبة صغيرة لها قفل نحاسي . فتحتها فإذا فيها الفراغ !

- آه الشقي ! أنا من اعتنت به بكل تفان !

ثم انفجرت شهقات .

- لربما في مكان آخر ؟ قال فريدريك .
 - إيه كلا ! كانت هنا ! في هذه الخزانة . رأيتها حديثاً . لقد
 احترقت ! متأكدة أنا !
 ذات يوم ، في بداية مرضه ، نزل السيد دمبروز ليوقع بعض
 معاملات .

- لا شك أنه فعل ذلك حينها !
 ووقعت ، خاتمة ، على كرسي . لا تكون أم في ثياب الحداد
 أمام مهد فارغ بهذه الحالة التي كانت فيها السيدة دمبروز أمام
 الخزنتين المشرعتين . ثم بدأ ألمها - برغم دناءة السبب - عميقاً جداً
 لدرجة أنه راح يحاول تعزيتها على أساس أنها ، بعد كل شيء ، ما
 آلت إلى الفقر .

- هذا هو الفقر لأنني لا أستطيع أن أهبك ثروة كبيرة !
 لم يكن بقي لها سوى ثلاثين ألف ليرة كدخل ، من دون
 الفندق الذي يساوي ، ربما ، بين ثمانية عشر إلى عشرين ألفاً .
 بالرغم من أنها كادت تكون ثروة لفريدريك ، فهو لم يشعر
 بأية خيبة . وداعاً لأحلامه وللحياة الحلوة التي كان سيحياها ! فالنبيل
 يدفعه للزواج من السيدة دمبروز . ففكر لحظة ، ثم قال بصوت
 حنون :

- لكنني سأحصل عليك !
 ارتمت بين ذراعيه ، فضمها إلى صدره بحثو فيه إعجاب
 بذاته . رفعت وجهها ، وكانت كفت عن البكاء ، مشرقة سعادة ،
 وأخذت يده ، همست :

- آه ! ما شككت بك أبداً ! حسبت هذا !

لم يعجبه هذا التأكيد المسبق .

ثم اصططحته إلى غرفتها ، وراحا يرسمان مشاريع . فعلى فريدريك أن يقدم ، فيحسن وضعه . وقدمت له ، بخصوص ترشيحه ، نصائح مذهلة .

كانت النقطة الأولى أن يعرف جملتين أو ثلاثاً في الاقتصاد السياسي . عليه التخصص بأمر ما ، كمرابط الخيل مثلاً ، كتابة رسائل عدة حول مسألة ذات منفعة محلية ، أن يكون بتصرفه ، دائماً ، مكاتب بريد أو تبغ ، تقديم الكثير من الخدمات البسيطة . والسيد دمبرز ، بهذا الخصوص ، مثال جيد . فهو ، مرة ، أوقف في الريف مركبته ، الملائى بالأصدقاء ، أمام حانوت إسكافي واشترى لضيفه اثنتي عشر زوج حذاء ، وله حذاء فطيع القبح - وكانت له المرأة على انتعاله خلال خمسة عشر يوماً . جعلتهما هذه النكتة فرحين . روت له سواها بدفق رضى ، وشباب ، وظرف . شجعت فكرته على رحلة سريعة إلى نوجان . وداعهما كان

حنوناً ، ثم ، مرة بعد ، على العتبة ، همست :

- تحبني ، أليس كذلك ؟

أجاب فريدريك :

- إلى الأبد !

كان ينتظره في بيته رسول معه رسالة تعلمه أن روزانيت ستعجب . انشغل كثيراً ، في الأيام الأخيرة ، فما عاد فكر بها . هي ، الآن ، في مؤسسة خاصة في شايو .

أخذ فريدريك عربة خيل وانطلق .

قرأ ، في زاوية من شارع ماربوف ، على لوحة وبأحرف عريضة : « دار صحة وتوليد بإدارة السيّدة أليسنديري ، قابلة قانونيّة من الدرجة الأولى ، خريجة دار التوليد ، مؤلفة كتب مختلفة ، الخ » . ثم ، وسط الشارع ، على باب مستدير ، يكرّر الاعلان (بدون كلمة توليد) : « دار السيّدة أليسنديري للصحة » مع كل ألفاها .

طرق فريدريك الباب .

أدخلته وصيفة ، بمظهر جارية ، إلى صالون فيه طاولة أكاجو ، وكراسٍ مخملية ذات لون أحمر رماني ، وساعة جدار تحت زجاج .

بعد لحظات ، ظهرت السيّدة أربعيّة سمراء ، نحيلة القامة ، ذات عينيّن جميلتين ، وتبدو عليها خبرة التقاليد . أخبرت فريدريك بخلاص الأم في سلام ، وأصعدته إلى غرفتها .

راحت روزانيت تضحك بما يفوق الوصف . وقالت بصوت خفيض ، كمغمورة بدفقات الحب الذي يكاد يخنقها :

- على رسلك ، إنه صبي ! مشيرة إلى طفل قرب سريرها .
أزاح الستائر ، ورأى ، وسط الثياب ، شيئاً أحمر على أصفر ، كثير التجاعيد ، كرية الرائحة وهو يصرخ .

- قبله !

أجاب ليخفي اشمئزازه :

لكني أخاف أن أؤذيه !

- لا لا لا -

فقبل ولده بطرف شففيه .

- كم يشبهك !

وتعلقت في عنقه ، بذراعيها الضعيفتين ، بفيض عاطفة لم تعرفها من قبل .

عاودته ذكرى السيّدة دمبرز . رأى من القضاة خيانة هذا الكائن المسكين ، الذي يحبّ ويتألم بكل عفوية طبيعته . بقي قربها ، أياماً عديدة ، حتى المساء .

سعيدة ، كانت ، في هذه الدار النائية . دُرف الواجهة تبقى مقفلة باستمرار . تطلّ غرفتها ، المفروشة بالفارسي* ، على حديقة كبيرة . تحيطها ، بكثير عناية ، السيّدة أليسندي التي خطأها الوحيد هو استشهادها بمشاهير الأطباء على أنهم أصدقاؤها الحميمون . تضعر كثيراً هي ورفيقاتها اللواتي هنّ في الغالب من الريف ، فلا أحد يأتي لزيارتهم . لحظت روزانيت أنهن يحسبنها ، وأخبرت فريدريك بذلك ، متفاخرة . لذلك لزم التحدث بصوت خفيض . الفواصل رقيقة ، والجميع يسترقون السمع ، بالرغم من ضجيج البيانو الدائم .

كان ، أخيراً ، يستعدّ للذهاب إلى نوجان ، حين تسلّم رسالة من ديلاورييه .

يخبره بأن مرشحين جديدين برزا . أحدهما محافظ ، والآخر

* نوع من القماش المدهون مصدره فارس .

شبيوعي . فمهما يكن الثالث ، لن يكون له الحظ . ذلك خطأ فريدريك . لم يستفد من الوقت الملائم ، كان عليه أن يجيء من قبل للتحرك . « لم يروك ، حتى ، في جمعيات المزارعين ! » ويلومه المحامي لكونه لا علاقة له ، أبداً ، بالجرائد ، « آه ! لو عملت ، قديماً ، بنصائحي ! لو كان لنا جريدة رائجة ! » وكان يلحّ على هذا . بالاضافة إلى هذا ، فكثير من الأشخاص الذين كانوا سيصوتون إلى جانبه ، كرمى للسيد دمبروز ، سيتخلّون عنه ، الآن . ديلورييه منهم . إذ بات لا ينتظر شيئاً من الرأسمالي .

حمل فريدريك رسالته إلى السيدة دمبروز .

قالت : ألم تذهب ، إذن ، إلى نوجان ؟

- لماذا ؟

- لأنني ، من ثلاثة أيام ، رأيت ديلورييه .

فهو ، إذ عرف بموت زوجها ، جاء يقدم لها ملاحظات عن الفحم الحجري ، ويعرض عليها خدماته كرجل أعمال . بدا هذا غريباً على فريدريك . وما كان يعمل صديقه هناك ؟

رغبت السيدة دمبروز بمعرفة كيف أمضى وقته منذ افتراقهما .

أجاب :

- كنت مريضاً .

- كان عليك ، على الأقل ، أن تعلمني .

- آوه ! لا ضرورة لذلك . وعلى أية حال كان هناك الكثير

من المتاعب ، والمواعيد ، والزيارات .

من حينها ، راح يمضي حياة مزدوجة ، ينام ، بورع ، عند

« المارشالة » ويمضي بعد ظهره عند السيّدة دمبروز ، فلم يكن له ، هكذا ، سوى ساعة حرة وسط النهار .
وضعا الطفل في الريف ، في أنديلي . يذهبان لرؤيته كل أسبوع .

كان بيت المرضعة في أعلى القرية ، في عمق ساحة صغيرة معتمّة كثر ، أرضها يعلوها الثبن ، دجاج هنا وهناك ، عجلة خضار تحت السقيفة . تبتدىء روزانيت تقبل ابنها بجنون ، تروح وتجي ، تحاول حلب العنزة ، تأكل رغيفاً ضخماً ، تتشقق رائحة الزبل ، تريد أن تضع شيئاً منه في محرمتها .

ثم يروحان في نزهات طويلة . تدخل عند أصحاب المشاتل ، تنزع أغصان اليلك المتدلّية خارج الجدران ، تصرخ بالحميز التي تجرّ عربة : « حا ! دي ! » ، تقف تتأمل ، عبر السياج ، داخل الحدائق الجميلة ، أو تأخذ المرضعة الولد ، يضعونه في ظلّ جوزة ، وتروح المراتان ، في سداجات مضجرة ، خلال ساعات .

قربها فريدريك ، يتأمل مربعات الكروم في منحدرات الحقل ، مع أوراق شجرة من مكان لآخر ، الدروب الترابيّة الشبيهة بشرائط مزرقة ، البيوت المنتشرة في اخضرار بقع بيضاء وحمراء . ويمتد ، أحياناً ، أفقياً ، دخان قاطرة ، عند أقدام التلال المغطاة بالأوراق ، كأنه ريشة نعامة كبيرة ، يطير طرفها الخفيف . ومن بعد ، تقع عيناه ، مجدّداً ، على ابنه . يتصوره شاباً ، سيجعل رقيقه ، لكن لربما كان غيباً ، سيكون شقياً بالتأكيد .

لا شرعية ميلاده تطفئ عليه دائماً . سيكون أفضل له لو لم يولد ،
ويهمس فريدريك : « يا للولد المسكين ! » وقلبه متفتخ بكآبة
لا تفسير لها .

غالباً ما يتأخران عن الانطلاق الأخير . فتوبّخه السيّدة
دمبروز لعدم دقته في مواعيده . يخترع لها قصة . .

عليه ، بالمقابل ، اختراع أخرى لروزانيت . لم تكن تفهم
بما يقضي سهراته ، وحين ترسل بطلبه لا تجده إطلاقاً ! يوماً ،
وهو في بيته ، ظهرتا ، تقريباً ، معاً . أخرج « المارشالة » وخبّاً
السيّدة دمبروز متلدراً بأن أمّه ستصل .

وسريعاً ما سلّته كلباته . يردّد على الواحدة الوعد الذي
يكون ، من اللحظات ، قطعه للأخرى ، يرسل إليهما باقات زهر
متشابهة ، كاتبا إليهما في الوقت نفسه ، ثم يقيم بينهما مقارنات :
وهناك ثلاثة موجودة ، باستمرار ، في باله . استحالة حصوله
عليها ، تبرّر خياناته التي كانت تلهب شهوته بشكل متتالٍ ،
وبقدر ما يخون الواحدة منها يزداد حبّها له ، كما لو أن حبهما له
يتأجج بالتساوي ، وكان الواحدة منها ، بنوع من المزاحمة ، تريد
أن تنسبه الأخرى .

يوماً ، قالت له السيّدة دمبروز : أعجب بثقتي ! وهي
تفضّر رسالة يعلمونها بها أن السيّد مورو يعيش حياة زوجيّة مع
واحدة اسمها روز برون .

- أهى فتاة سباق الخيل ؟

وأضاف :

- يا للهذيان ! دعيني أرى .

لم تكن الرسالة موقعة ، وهي بحروف رومانية كبيرة . في البدء تساهلت السيّد دمبروز مع هذه العشيقة التي كانت تغطّي زناهما . ولكن ، إذ صار حبها أقوى ، طلبت إليه قطيعة نهائية ، وهذا أمر ، حسب فريدريك ، منته من زمان . وإذ أنهى احتجاجاته ، قالت غامزة بجفניה حيث تشرق نظرة شبيهة برأس خنجر تحت الموسلين :

- وبعد ، والأخرى ؟

- آية أخرى ؟

- زوجة تاجر الخزفيات !

رفع كتفيه باستخفاف . لم تصرّ .

وإذ هما يتحدّثان ، بعد شهر ، عن الشرف والاستقامة ، وفريدريك يمتدح أمانته (بطريقة عرضيّة ، احتياطاً) ، قالت له :

- صحيح ، شريف أنت ، إنك لا تعود إلى هناك .

تمتم فريدريك مفكراً في المارشالة :

- إلى أين ؟

- عند السيّد أرنو .

توسّل إليها أن تبوح له من أين هذا الاستعلام . كان عن طريق خياطتها ، في الطابق الثاني ، السيّد ريجمار .

هكذا ، تعرف هي حياته ، وهو لا يعرف شيئاً عنها .

في هذه الأثناء ، كان وجد ، في غرفة زينتها ، رسماً مصغراً لسيّد بشارين طويلين : أهو نفسه ، من عنه أخبروه ، من

زمان ، قصة انتحار غامضة ، إنما ، ولا وسيلة ممكنة ليعرف عنها أكثر ! وماذا يفيد ؟ فقلوب النساء كما هذا الأثاث ، ملأى بالأدراج ، الواحد في قلب الآخر . نتعذب ، نكسر أظافرنا ، فلا نجد فيها سوى زهرة يابسة ، نتف غبار ، أو الفراغ ! ثم ، ربما هو يخشى أن يعرف عنها الكثير .

كانت تجعله يرفض الدعوات التي لا تستطيع تلبيتها معه ، تحتفظ به إلى جانبها ، تخاف أن تفتقده . وبالرغم من هذا الاتحاد ، وهو كل يوم يتزايد ، انكشفت بينها ، فجأة ، هاويات بخصوص أشياء لا أهمية لها : رأي بشخص ، بعمل فني .

تلعب اليانو ، كانت ، بطريقة صحيحة وقاسية . وما تمنعها روحانياتها (هي تعتقد بارتحال الأرواح إلى النجوم) ، من الامساك ، جيداً ، بصندوقها . متعالية ، هي ، مع هؤلاء الأشخاص ، تبقى عيناها قاسيتين أمام أسمال الفقراء . تنفجر أنانيةً ساذجة في عباراتها العادية : « ماذا يضيرني ؟ سأكون حسنة جداً ! هل أنا بحاجة ! » وألف عمل صغير غير قابل للتحليل ، كرهه . كان عليها التنصت خلف الأبواب ، والكذب على معرفها . وأرادت من فريدريك ، حباً منها للسيطرة ، أن يرافقها الأحد إلى الكنيسة . أطاع ، وحمل الكتاب .

خسارة ميراثها غيرتها بطريقة ملحوظة . وعلامات الحزن ينسبونها الى موت السيد دمبوز جعلتها أكثر جاذبية . وكما من زمان ، راحت تستقبل كثيراً من الناس . ومنذ سقوط فريدريك في الانتخابات ؛ صارت تطمح لها بقصادة في ألمانيا .

وأول شيء يجب عمله هو الخضوع للأفكار السائدة .
 بعضهم يفضل الامبراطورية ، آخرون الاورليانيين ،
 آخرون الكونت دوشامبور . لكنهم ، جميعاً ، متفقون على
 ضرورة اللامركزية ، وعُرضت ، في هذا السبيل ، طرق كثيرة
 منها هذه : تقسيم باريس شوارع كثيرة قصد تأسيس قرى فيها ،
 نقل مقر الحكومة إلى فرساي ، جعل المدارس في بورج ، إلغاء
 المكتبات ، تسليم كل شيء إلى جنرالات الأقسام ، وكانوا
 يمتدحون الريف ، فالرجل الأمي أكثر حساً من الآخرين ! كثر
 الحقد : ضد المعلمين الابتدائيين وضد تجار الخمر ، ضد صفوف
 الفلسفة ، ضد دروس التاريخ ، ضد الروايات ، السترات
 الحمراء ، اللحن الطويلة ؛ ضد كل استقلالية ، كل مبادرة
 فردية ، لأنه يجب « إعلاء مبدأ السلطة » ، لتكون باسم من
 تكون ، فلتأت من حيثما تريد ، المهم أن تكون القوة ، السلطة !
 يتكلم المحافظون ، الآن ، كما سينيكال . ما عاد فريدريك يفهم
 شيئاً ، ويجد ، من جديد ، عند عشيقته القديمة ، الأحاديث
 نفسها ، يتحدث فيها الأشخاص أنفسهم !

عقيمة ، صالونات الفتيات (إنها من هذه الفترة أخذت
 أهميتها) ، حيث يلتقي المصلحون من شتى الاتجاهات . ولقد
 أوحى هيسنويه ، الذي كان نذر نفسه لدم الأجداد المعاصرة (أمر
 مهم لبعث النظام) ، إلى روزانيت رغبة أن يكون لها كما لغيرها ،
 سهراتها . قدّم فيها تقارير ، وجلب ، أول الأمر ، رجلاً رصيناً ،
 فوميشون ، ثم ظهر نونانكور ، السيد دوغريونفيل ، السيد

دولارسيّلوا ، مدير سابق ، وسيزي ، الذي كان ، الآن ، رجل
زراعة ومسيحياً أكثر من أي وقت .

سوى هؤلاء ، يأتي ، كان ، عشاق قدماء للمارشالة ،
مثال البارون دو كومينغ ، الكونت دوجوميك وآخرون . صراحة
مظهرهم جرح فرديريك .

وبغاية أن يثبت وجوده ، زاد خدم البيت . فالتخذ وصيفاً ،
غير المسكن ، وجدّد الأثاث . كانت هذه المصاريف ضرورية
لإظهار زواجه أقل تفاوتاً عن ثروته ، وهي تنقص بشكل مخيف ،
وما فهمت روزانث من كل هذا شيئاً !

هي تعبد ، كبورجوازية مُسْقطة ، حياة المنزل ، منزل
صغير هادئ . مع ذلك ، فقد كانت سعيدة بأن يكون لها
« وجود » . تقول : « هؤلاء النساء ! » متحدثة عن شبيهاتها .
تريد أن تكون « سيّدة مجتمع » ، تظن نفسها واحدة منهن .
توسّلت إليه لا يدخن ، بعد ، في الصالون ، حاولت أن تجعله
ينحرف ، ليكون من الطراز الحسن .

أخيراً ، فهي تكذب على دورها ، فهي صارت رصينة ،
وقبل أن تمام ، حتى ، تبدي ، دائماً نوعاً من الكآبة ، بما أنه يوجد
على باب حانة شجر سرو .

اكتشف السبب : تحلم بالزواج ، هي أيضاً ! حنق
فريديريك . زد على ذلك أنه راح يتذكّر ظهوره عند السيّدة أرنو ثم
هو يضمّر لها حقداً لمقاومتها الطويلة .

ما عاد يبحث عنّ كان عشاقها . أنكرتهم جميعاً . هاجمه

نوع من الحسد . ثار للهدايا التي كانت تلقتها ، التي هي تتلقاها ، وبمقدار ما كان شخصها يثيره ، راح انشداد حسي عنيف وشهواني يقوده إليها ، توهّمات لحظة انقلبت كرهاً .

كلماتها ، صوتها ، بسمتها ، كل شيء فيها صار يكدره ، بخاصة نظراتها ، التفاتة المرأة الصافية دوماً والخرقاء . يجد نفسه ، أحياناً كثيرة ، أنه كثير الارهاق منها ، إلى حدّ يتمنى لو يراها تموت ولن يعجب . إنما كيف يغضب ؟ انها على عذوبة مثبّطة للهمة .

عاد ديلورييه وعرض إقامته في نوجان قائلاً إنه كان يساوم لشراء مكتب وكيل دعاوى . سعد فريدريك برؤيته ثانية ، مهمّ هو ! جعله الشخص الثالث برفقتها .

يتعشى ، عندهما المحامي ، بين وقت وآخر ، وحين تقوم اعتراضات ، يتدخل دوماً لمصلحة روزانيت ، حتى إن فريدريك قال له مرة :

- إيه ! نم معها إذا كان هذا يسليك ! بهذا القدر ، يرجو هو ، صدفة ما تحرّره منها .

تلقت ، حوالى منتصف حزيران ، إنذاراً يبلغها فيه الأستاذ أتاناس غوترو ، وهو محضّر دعوى ، بلزوم دفع أربعة آلاف فرنك خاصة الأنسة كليمنس فاتناز ، وإلاّ فلسوف يضطر إلى توقيفها في الغد .

في الواقع ، وقّعت كانت سندات أربعة من زمان ، ولم تدفع سوى واحد ، فالمال الذي كانت أدخرته أنفقته على حاجات أخرى .

ركضت عند أرنو . يسكن ، كان ، صاحبة سان جيرمان ،
والبواب يجهل الشارع . حملت نفسها عند أصدقاء كثر ، فلم تجد
أحداً ، وخائبة عادت . ما أرادت أن تقول شيئاً لفريدريك ،
خائفة من أن يسيء هذا الخبر الجديد إلى زواجها .

صباح الغد ، حضر الأستاذ أتاناس وبرفته مساعدان ،
أحدهما صاحب ، ذو وجه مراوغ ، ومظهر تفتتسه الشهوة ، الآخر
يرتدي ياقة اصطناعية وسيورة ران طويلة جداً ، مع غلاف اصبع
من ثفتا سوداء في سبأته ، وكلاهما وسخ بدناءة ، وبعنق ضخم ،
واكام قصيرة جداً .

رب عملهما ، رجل باهر الجمال ، على عكسهما ، شرع
يعتذر لمهتته الشاقة وهو ينظر الشقة ، « ملأى بأشياء جميلة ،
بشرقي ! » أضاف : « غير تلك التي يسهل الحصول عليها » .
وبإشارة ، اختفى المعاوان .

حينها ، تضاعفت ملاطفاته . أيكن التصديق أن شخصاً
ساحراً بهذا المقدار ليس له صديق رصين ! فإن بيعاً بأمر القضاء
لهو شر حقيقي ! لا يقوم المرء منه أبداً . حاول إخافتها ، وإذ رآها
ذاهلة ، أخذ ، بسرعة ، مظهراً أبوتاً . كان يعرف هؤلاء
الناس ، كان له عمل مع كل هؤلاء النساء ، وإذ هو يسميهم ،
راح يتفحص الاطارات على الجدران . إنها لوحات قديمة من أرنو
الطيب ، مخططات لسومباز ، مائيات لبوريو ، ثلاثة مناظر
لدبتمر . هي ، بالطبع ، لا تعرف ثمنها . استدار صوبها الأستاذ
غويزرو ، قال :

- عجباً ! هاك . لأظهر لك أنني إنسان طيب ، فلنعمل هذا الأمر : أعطيني لوحات ديتمر هذا ! وأدفع كل شيء . هل اتفقنا ؟

في هذه اللحظة ، دخل فريدريك بمظهر عنيف ، وقبّعت على رأسه . كانت دلفين أعلمته بالأمر في غرفة الانتظار ورأى المتبرسين . استعاد الأستاذ غوترو هدوءه ، وإذ بقي الباب مفتوحاً :

- هيا ، سيدي ، اكتبنا في الغرفة الثانية : طاولة من خشب السنديان ، مع لوحها الإضافيين ، صوانا سفرة ... أوقفه فريدريك يسأله إذا هناك طريقة لمنع الحجز .
- أوه ! ممتاز ! من دفع ثمن الأثاث ؟

- أنا .
- حسناً ، قدّم اعتراضاً ، يصبح لديك متسع من الوقت .
أنهى الأستاذ غوترو ، بنشاط ، مهمته ، وعين ، لاجراء مستعجل ، الأنسة برون ، ثم انسحب .
لم يوجه فريدريك أي لوم . راح يتأمل ، على السجادة ، آثار الوحل تركتها أقدام هؤلاء المنفلذين ، ومحدثاً نفسه قال :
- يجب تدبّر المال .

- آه ! يا الهي ، كم أنا غبية ! قالت « المارشالة » .
نقّبت في درج ، أخذت رسالة ، وحيوية اتجهت إلى شركة الانارة في « لانغدوك » لتحول أسهمها .
عادت بعد ساعة . (لقد بيعت الأسهم من شخص آخر)

أجابه الموظف متفحّصاً رسالتها ، الوعد الذي كتبه أرنو : « هذا الأمر لا يجعلك ، مطلقاً ، مالكة . فالشركة لا تعترف بهذا » . باختصار ، فقد صرفها ، كادت تختنق . وكان على فريدريك التوجّه حالاً إلى أرنو ليستوضح الأمر .

لكن ، لربما ظنّ أرنو أنه آت لاستعادة الخمسة عشر ألف فرنك التي له ، بطريقة غير مباشرة ، في رهنيته التي ضاعت . ثم ، إن هذا الطلب ، إلى رجل كان عشيق عشيقته ، بدا له دناءة . وإذا اختار حلاً وسطاً ، ذهب إلى فندق دمبروز ليعرف عنوان السيّد ريجمبار ، أرسل إليها رسولاً ، وهكذا عرف المقهى الذي كان يتردّد إليه ، الآن ، زوجها .

إنه مقهى صغير في ساحة الباستيل ، فيه يبقى طوال النهار ، في عمق الزاوية اليمنى ، لا يتحرّك إلا ليُظهر أنه ليس جزءاً من الأثاث .

وبعد الانتقال ، تتابعياً ، من النصف كأس ، إلى الجرعة ، إلى النبيذ الحار ، وحتى المياه المحمرة ، عاد إلى الجعة ، وبين نصف ساعة وآخر ، تخرج من فمه هذه الكلمة : « كأس جعة ! » فقد اقتصر في كلامه على الضروري . سأله فريدريك إن كان يرى أرنو .

- لا !

- عجباً ، لماذا ؟

- غيبي !

لربما تفرّقهما السياسة ، وحسب فريدريك أنه من الأفضل

- الاستعلام عن كومبان .
- يا له من فظ ! قال ريجمبار .
 - كيف ذلك ؟
 - رأس عجل !
 - آه ! أعلمني ما هو رأس العجل هذا ؟
 - ابتسم ريجمبار ابتسامة مشفق :
 - سخافات !
 - قال فريدريك بعد صمت طويل :
 - إذن فهو غير منزله !
 - من ؟
 - أرنو !
 - نعم : شارع فلوروس !
 - أي رقم ؟
 - هل أخالط اليسوعيين ؟
 - كيف ! يسوعيون ؟
 - أجاب « المواطن » غاضباً :
 - بمال مواطن عرفته عليه ، عمل هذا الخنزير تاجر
 - سباحات !
 - مستحيل !
 - إذهب تأكد !
 - الامر صحيح . فقد تحول أرنو إلى الديانة بعدما أصيب
 - بوعكة صحيّة أنهكته . على كل حال ، « فهو يحتفظ ، دائماً ،

بأساس ديني» ، و «مزيج من مركبتيّتي وبساطة هي فيه طبيعيّة (لينقذ نفسه وثروته ، فقد دخل تجارة الأشياء الدينيّة .

لم يتعذب فريدريك في الاهتمام إلى مؤسسته ، يحمل عنوانها : « في الفنون القوطيّة - إحياء العبادة - زخارف كنسيّة - صنع تماثيل متعدّدة الألوان - بخور الملوك المجوس ، الخ . الخ » .

يقوم ، في زاويتي الواجهة ، تمثالان خشبيّان ، مبّعّان بالذهب ، بالأحمر القرمزي وبالأزرق السماوي ، الواحد شخص القديس يوحنا المعمدان مع جلد خروفيه ، والآخر يمثل القديسة جنيفاف ، ورد في مريولها ومغزال تحت إبطها ، ثم جماعات من جصّ : راهبة تعلّم فتاة صغيرة ، أم راکعة قرب مضجع صغير ، ثلاثة فتیان أمام الطاولة المقدّسة . الأجل كان نوعاً من دائرة تمثل داخل المغارة مع الحمار ، الثور ، والطفل يسوع ممدداً على التبن ، التبن الحقيقي . من أعلى إلى أسفل الرفوف ، كنت ترى ميداليات كثيرة ، سبحات من كل نوع ، أجران ماء مقدّس بشكل صدفة ، ورسوم الأسياد الكنسيّين بينها يشرق رسم المطران أفر ورسم غبطة البابا ، كلاهما يتسم .

كان أرنو ساحراً إلى مكتبه ، خافض الرأس . كان شاخ بشكل عجيب ، وحوالي صدغيه بثور زهرية اللون يقع فوقها انعكاس الصليبان الذهبيّة تحت وهج الشمس .

سيطرت على فريدريك كآبة أمام هذا الانحطاط . مع ذلك ، فقد حزم أمره إخلاصاً منه للمارشالة ، وتقدّم . في آخر

المحل بدت السيّدة أرنو ، فعاد على عقبيه .

- لم أجده ، قال وهو يدخل .

وذكر أنه سيكتب إلى كاتب عدله في هافر ليحصل على مال ، غضبت روزانيت . لم تر رجلاً بهذا الضعف ، بهذه الرخاوة ، في حين هي تكابد الحرمان غيرها يتنعم .

راح فريدريك يفكر في السيّدة أرنو المسكينة ، متصوراً كفافها المحزون داخل بيتها . كان جلس إلى المكتب ، وبما أن صوت روزانيت الحاد ما زال يلعلع ، قال :

- آه ! وحقّ السماء ، أسكتي !

- ستدافع عنهم ؟

- نعم ! صرخ ، إذ من أين هذه الشراسة ؟

- ولكن أنت ، لماذا لا تريدكم يدفعون ؟ ذلك خوفاً من

أن تبتي عشيقتك القديمة ، اعترف بهذا !

ودّ لو يصصرها بساعة الحائط ، خانه الكلام . صمت .

أضافت روزانيت وهي تتمشى في الغرفة :

- لسوف أواجهه بدعوى ، صاحبك أرنو . أوه ! لست

بحاجة إليك ! - وزامة شفيتها ، قالت : - سوف أستشير .

بعد ثلاثة أيام ، دخلت دلفين فجأة .

- سيّدي ، سيّدي ، هناك رجل ومعه وعاء صمغ يخيفني .

انتقلت روزانيت إلى المطبخ ، فرأت وغداً ، وجهه مبقع

بالجدري ، بذراع مشلولة ، يكاد يكون منطفئاً سكرأ ، يتلجلج .

إنه ملصق إعلانات الأستاذ غوترو . إذ ردّ الاعتراض على

الرهان ، فالبيع حتماً سيتبع .
لأنه تعب من صعوده الدرج ، طلب ، أولاً ، كأساً صغيرة ، ثم الشمس أمراً آخر ، الاستعلام عن أوراق المسرح ، ظاناً أن السيدة ممثلة . بعدها ، طفق لدقائق عديدة ، يغمز غمزات غير مفهومة ، أخيراً أعلن أنه ، بأربعين فلساً ، يمزق زوايا الاعلان الذي كان ألصقه تحت على الباب . فيه روزانيت مسمّاة باسمها . قسوة استثنائية تمثّل كل حقد « الفانتاز » .

حساسة كانت من زمان ، وحتى ، انها في محنة قلب ، كتبت إلى بيرانجيه تستشيره . لكنها غاضبة صارت بفعل زوابع الحياة ، فهي ، مرة بعد مرة ، اعطت دروساً في البيانو ، ترأست مآذب ، شاركت في جرائد أزياء ، أجرت شققاً مؤجرة ، هرّبت دانتيلاً في عالم النساء اللعوبات ، حيث سمحت لها علاقاتها بخدمة كثير من الرجال ، بينهم أرنو . ومن قبل كانت عملت في محلّ تجاري .

كانت تدفع للعاملات ، ولكل منهن دفتران واحد منهما يبقى دائماً بين يديها . ديسترديه الذي كان يحمل مرغماً دفتر المدعوة أورتنس بازلان ، تقدّم يوماً من الصندوق لحظة كانت الأنسة فانتاز تحمل حساب هذه الفتاة ١٦٨٢٢ فرنكاً ، دفعها أمين الصندوق . والحال أن ديسترديه ، في الليلة نفسها ، ما كان سجّل سوى ١٠٨٢ على دفتر بازلان . أعاد طلبه متحججاً ، ثم إذ أراد أن طمر قصة هذه السرقة ، أخبرها أنه أضاع المبلغ . أخبرت العاملة ، ببساطة ، كذبه للأنسة فانتاز ، ليكون قلبها

مرتاحاً ، هذه ، تحدّثت بذلك إليه ، بمظهر لا مبالٍ . اكتفى بأن أجاب : « أحرقتة » ، كان هذا كل شيء . تركت المحل بعد ذلك بقليل ، من دون أن تكون صدّقت ائتلاف الدفتر ومتصورة أنّ ديسردييه يحتفظ به .

عند سماعها خبر جرحه ، ركضت إليه بقصد أن تستعيده . وإذا لم تكتشف شيئاً ، برغم التنقيبات الدقيقة ، أخذها الاحترام ، ثم الحب لهذا الشاب المستقيم ، اللطيف ، البطل والقويّ ، ثروة مثل هذه ، كانت حلماً بالنسبة لعمرها . فأكّبت عليه بنهم شره ، وتركت لأجله الأدب ، الاشتراكية ، « النظريات المعزّية والمثاليّات السخية » ، البحث الذي كانت تبشّر به عن تحرير المرأة ، كل شيء ، حتى دلمار نفسه ، أخيراً عرضت على ديسردييه الاتحاد بالزواج .

بالرغم من أنها صارت عشيقته ، لم يكن يحبها ، إطلاقاً على كل حال ، لم يكن ، بعد ، نسي السرقة . ثم انها غنية جداً . رفضها . حينها ، قالت له باكية ، الأحلام التي كانت بها حلمت : أن يكون لها محل ملابس جاهزة . تمتلك هي الرأسمال الأوّل اللازم ، ولسوف يزيد أربعة آلاف فرنك في الأسبوع المقبل ، وروت ملاحقاتها للمارشالة .

حزن ديسردييه بسبب صديقه . تذكّر علبة السيجار الهدية إلى الحرس ، أمسيات شارع نابوليون ، والكثير من الأحاديث الممتعة ، الكتب التي استعارها ، الملاحظات الكثيرة التي أظهرها له فريدريك . فتوسّل إلى الفاتناز لتكف عن ذلك .

- إقبلها ! اجعلني مسروراً ! فأنا كئيب جداً ! ألم ينته كل شيء بعد ؟ كنت حسبت ، مع الثورة ، أننا سنكون سعداء .
أتذكر كم كان ذلك جميلاً ! كم كنا نتنفس جيداً ! ولكن ها نحن
وقعنا أسوأ من أي وقت .
ومحذراً في الأرض ، قال :

- هم الآن ، يقتلون جمهوريتنا ، كما قتلوا تلك الرومانية !
والبندقية المسكينة ! بولونيا ، المجر ! يا للفظاعة ! أول الأمر ، هم
اقتلعوا أشجار الحرية ، ثم قيدوا حق الاقتراع ، أفللوا الأندية ،
أعادوا الرقابة . وسلموا التعليم للاكليروس ، منتظرين التحقيق
الجنائي . لم لا ؟ هنالك محافظون يتمنون القوزاق ! يدينون
الصحف حين تتحدث ضد عقوبة الموت ، باريس تضيق
بالحراب ، ست عشرة مقاطعة في حالة حصار ، وها ان العفو العام
يُرفض ، مرة بعد !

أخذ جيبته بيديه ، ثم قال مبهداً يديه كما في خيبة كبيرة :
- مع ذلك لو نحاول ! لو كان لنا إيمان وطيد ، لأمكننا
التفاهم ! إنما لا ! فالعمال ليسوا أفضل من البورجوازيين ! لقد
رفضوا ، في «البوف» مؤخراً ، النجدة في حريق . بعض الحمقى
يعاملون «بريس» كاستورقراطي ! آلي يسخروا من الشعب ،
يريدون تسمية «نادو» للرئاسة ، ماسوني هو ، أترى ! وليس من
وسيلة ! ليس من دواء ! الجميع ضدنا ! - أنا ، لم أعمل سوءاً ،
أبدأ ، ومع هذا ، فكان حلاً ثقيلاً يثقل على معدتي . أجنّ لو هذا
يستمر . أرغب لو أقتل نفسي . أقول لك إنني لست بحاجة للمالي !

سترده لي ! أنا أدینك إياه !

قبل فريدريك المبلغ ، وكانت الضرورة ترغمه . هكذا لم تبقي لديه وسواس بلجهة « الفاتناز » .
إنما سرعان ما خسرت روزانیت دعواها ضد أرنو ، وعناداً منها ، أرادت الاستئناف .

تعب ديلوریه في إقناعها بأن وعد أرنو لا يشكل وثيقة هبة ولا تحويلاً منتظماً ، ما كانت ، حتى ، لتستمع ، فقد وجدت القانون غير عادل ، هذا لأنها امرأة ، فالرجال يساند بعضهم بعضاً ! مع ذلك خضعت في النهاية لنصائحه .

كان منزعجاً في البيت إلى حد ما ، فصار يأتي بسينيكال للعشاء . أزعجت هذه البساطة فريدريك ، الذي كان يسلفه مالا ، يخطط له ثياباً عند خياطه ، وكان المحامي يعطي ستراته الطويلة القديمة للاشتراك الذي كانت موارد عيشه مجهولة .

مع ذلك أراد خدمة روزانیت . ذات يوم إذ هي أظهرت له اثنتي عشر سهماً من شركة الصلصال (هذا المشروع الذي كلف أرنو ثلاثين ألف فرنك) ، قال لها :

- لكن هذا احتيال ! انه لأمر رائع !

فلها الحق باستحضاره أمام القضاء لتأدية ديونه . سوف تثبت ، أولاً ، أنه ملزم بدفع كل دين الشركة ، بعد هذا انه كان أعلن كديون جماعية ديوناً شخصية ، وأخيراً انه اختلس من الشركة العديد من الأغراض .

- كل هذا يجعله متهماً بالافلاس الاحتياالي بموجب المادتين

٥٨٦ و ٥٨٧ من قانون التجارة ، ولسوف نربح الدعوى ، يا حبيبتي ، تأكّدي من هذا .

قفزت روزانيت إلى عنقه . طلب إليها أن ترى ، في الغد ، حاميتها القديم ، فهو لا يستطيع الاهتمام بالدعوى لأنه منشغل في نوجان ، في الحالة الاضطرارية ، يكتب إليه سينيكال .

مفاوضاته لشراء مكتب كانت حجة . هو يمضي وقته عند السيد روك ، حيث بدأ ، ليس فقط بمديح صديقهم ، بل بتقليده ، مظهراً ولغة قدر الامكان ، - مما جعل لويز تثق به ، بينما ربح ثقة والدها نائراً ضد لادرو- رولين .

فريدريك لم يعد ، ذلك لأنه يخالط الأعيان ، وشيئاً فشيئاً ، أخبرهم ديلورييه أنه يجب كائناً ما ، أن له ولداً ، أنه ينفق على عشيقته .

كبيرة كانت خيبة لويز ، سخط السيّد مورو لم يكن أقل وقعاً . راحت ترى ابنها يدور صوب عمق هاوية مجهولة القعر ، جُرحت بدينها وتقاليدها ، وأحسّت كما بعار شخصي ، حين ، فجأة ، تغيّر لونها . وعندما يسألونها عن فريدريك تجيب ساخرة : - حسن ، حسن جداً .

كانت تعرف بأمر اعتزّامه الزواج من السيّد دمبروز . تحدّد الموعد ، وهوبات يبحث عن كيفية جعل روزانيت تتقبّل الأمر .

أواسط الخريف ، ربحت دعواها المتعلقة بأسهم شركة الصلصال . عرف فريدريك بهذا على بابه من سينيكال الآتي من

جلسة المحكمة .

لقد اعتبر السيّد أرنو شريكاً في كل الاحتمالات ، وبدا المدرّس القديم سعيداً ، إلى حدّ منعه فريدريك من الذهاب أكثر ، مؤكّداً له انه سيهتم بإبلاغ روزانيت الخبر . دخل عليها غاضباً .
- وبعد ، ها أنت مسرورة !

لكنها ، من دون أن تنتبه لكلماته ، قالت :
- أنظر !

ودلّته على ابنها نائماً في مهد ، قرب النار . وجدته ، صباحاً ، في حالة سيّئة عند مرضعته ، فأنت به إلى باريس .
كل أطرافه كانت هزلت بشكل غريب ، وعلت شفّيته نقاط بيضاء ، كانت تركبت داخل فمه كمثّل خثارات حليب .

- ماذا قال الطبيب ؟

- آه ! الطبيب ! يدّعي أن الرحلة زادت . . . بتّ لا أدري ماذا . . . أخيراً انه مصاب بالقلاع . أتعرف هذا ؟

ما تردّد فريدريك في القول : « بالطبع » ، مضيفاً أن الأمر ليس خطيراً . لكنه ، في المساء ، دُكر لمظهر الولد الواهن ولتقدّم البقع البيضاء ، الشبيهة بالعفن ، كأثما الحياة ، وهي تغادر هذا الجسد الصغير المسكين ، لم تترك فيه سوى مادة تنمو فيها نابثات .
يداه باردتان ، بات لا يستطيع الشرب ، وراحت مرضعة ، كان أتى بها البواب كيفما اتفق ، تردّد :

- يبدو لي مشرفاً على الهلاك !

أمضت روزانيت الليلة واقفة . في الصباح ، راحت إلى

فريدريك :

- تعال انظر ، انه لا يتحرك .

في الواقع ، كان مات . راحت تأخذه ، تهزه . تضممه منادية
إياه بأعذب الأسماء ، تغمره بالقبلات والشهقات ، تدور على
نفسها ، ضائعة ، تتف شعرها ، تصعد صرخات ، تركت نفسها
تسقط على طرف الأريكة ، حيث بقيت فاعرة الفم ، مع دفق دموع
منحدرة من عينيها الجامدتين . ثم أخذها خمود ، وهذا كل شيء في
المنزل . كان انقلب الأثاث . فوطتان مهملتان أرضاً أو ثلاث .
دقت السادسة . انطفأ سراج الليل .

حسب فريدريك ، مراقب كل هذا ، أنه يحلم . قلبه
انقبض قلقاً . بدا له أن هذه الميتة ليست سوى بداية ، وأن وراءها
شراً أعظم وشيك الحصول .

فجأة ، قالت روزانيت بصوت حنون :

- سنحتفظ به أليس كذلك ؟

رغبت بتحنيطه . لكن أسباباً كثيرة تقوم عائقاً دون ذلك
فالأفضل ، حسب فريدريك ، ولكون التحنيط غير مطبّق على
الأطفال ، أن يصنعا له لوحة . وافقت على هذه الفكرة . كتب إلى
بيتران ، وأسرعت دلفين بالرسالة .

وصل بيتران بسرعة ، يريد أن يمحو ، بهذه الغيرة ، كل
ذكرى لسلوكه . قال أولاً :

- يا للملاك الصغير المسكين ! آه ! يا ربي ، يا للمصيبة !

إنما ، شيئاً فشيئاً (بعدما عاد إليه الفنان) ، أعلن أنه ليس في

الامكان شيء مع هاتين العينين الداكنتين ، وهذا الوجه الأدكن ،
ان ذلك طبيعة ميتة حقاً ، وانه يلزم موهبة كبيرة ، وراح يتمم :
- أوه ! ليس ملائماً ، ليس ملائماً !

قالت روزانيت :

- أقله فلتكن صورة تشبهه .

- إيه ! تباً للمشابهة ! فلتسقط الواقعية ! فالروح تُرسم !
دعيني ! سأحاول أن أتصور ما كان سيصير .

فكّر ، جبينه في يده اليسرى ، والكوع في اليمنى ، ثم ،
فجأة :

- آه ! إنها لفكرة ! بَسْتِلْ مع انصاف ظلال ملوّنة ، تكاد
تكون مسطّحة ، نستطيع الحصول على نموذج مجسّم جميل ، فقط
على الأطراف .

أرسل الوصيفة تأتية بعلبته ، ثم ، بعدما وضع كرسيّاً تحت
قدميه وأخرى قربهُ ، بدأ يرسم خطوطاً كبرى ، بهدوء من يعمل
بموهبة . راح يمتدح قديسي جان دو كوريج الصغار ، الوصيفة روز
لفيلاسكيز ، الأجساد اللبنيّة لـدي رينولدز ، تميز لورنس ،
وبخاصة الطفل ذو الشعر الطويل والراكم لليدي غلور .

- على كل حال ، صعب وجود من يفوق هؤلاء الأولاد
جمالاً ! نوعية المثال (رافايل دلّ عليها عبر عذاراه) ، أهي أم مع
طفلها ؟

خرجت روزانيت ، فقد كانت تبكي ، قال بيلران سريعاً :
- وأرنو... أتعرف ما حلّ به ؟

- لا ! ماذا ؟
- وفوق ذلك سيتهي هكذا !
- عن أي أمر تتحدّث ؟
- لربما هو الآن ... عذراً !
- قام الفنان ليرفع رأس الجثة الصغيرة .
- تابع فريدريك :
- ما كنت تقول ... ؟
- أجاب بيلران وهو يغمز لقياس مسافاته بطريقة أحسن :
- كنت أقول إن صديقنا أرنو هو الآن ، ربما ، سجين !
- ثم ، وبنبهة سعيدة :
- أنظر قليلاً ! أهذا ما تريد ؟
- نعم ، حسن جداً ! ولكن أرنو ؟
- وضع بيلران قلمه .
- من خلال ما فهمت ، يلاحقه واحد اسمه مينيو ، وهو صديق حميم لريجمبار ، يا لرأسه هذا ، أليس كذلك ؟ تصوّر أن يوماً ...
- ايه ! ليس الأمر متعلقاً بريجمبار !
- صحيح وبعد ، مساء أمس ، كان على أرنو إيجاد اثني عشر ألف فرنك ، وإلا فالويل له .
- قال فريدريك :
- أوه ! لربما هذه مبالغة .
- لا ! أبداً ! هذا ما جعلني حزيناً ، حزيناً جداً .

ظهرت ، عند هذا ، روزانيت ، مع احمرارات تحت
جفنيها ، ملتبهة كما طبقات حمرة . وقفت إلى جانب الكرتونة
وراحت تنظر . أشار بيلران أنه سيصمت بسببها . لكن
فريدريك ، بدون محاذرة ، تابع :
- مع ذلك لا يمكنني التصديق ...

قال الفنان :

- أكرّر لك القول إنني الشقيته أمس ، في السابعة مساء في
شارع جاكوب . كان معه جواز سفره ، احتياطاً ، ويتحدث عن
إبحار إلى هافر ، هو وكل عائلته .

- كيف ؟ مع امرأته ؟

- من دون شك ! هورب عائلة طيّب ، فلا يستطيع العيش

وحده .

- وهل أنت متأكد ؟ ...

- تباً لك ! ومن أين تريده يجد اثني عشر ألف فرنك ؟

دار فريدريك دورتين أو ثلاثاً في الغرفة . صار يلهث ،

يعضّ شفّتيه ، ثم تناول قُبْعته .

قالت روزانيت :

- إلى أين تذهب ؟

اختفى ، ولم يجب .

V

كان ضرورياً إيجاد اثني عشر ألف فرنك ، وإلا فلن يعود يرى ، أبداً ، السيّدة أرنو ، وقد بقي له ، حتى الآن ، أمل لا يُقهر . ألم تكن غداء قلبه ، وحتى ، جوهر حياته ؟ ترنّح على الرصيف خلال دقائق ، تتأكله الهواجس ، ومع ذلك فهو سعيد لكونه لم يعد عند الأخرى .

من أين الحصول على المال ؟ يعرف فريدريك ، من نفسه ، كم يصعب الحصول عليه الآن ، ويمطلق ثمن . واحدة تستطيع مساعدته : إنها السيّدة دمبروز . تحتفظ ، هي ، بمكتبها ، وبصورة دائمة ، ببضع أوراق نقدية . توجّه إليها ، وبنبهة جريئة :

- أمعك اثنا عشر ألف فرنك تقرضيني إياها ؟

- لماذا ؟

هو سرّ آخر . أرادت أن تعرفه . لم يستسلم . كلاهما عائد . أخيراً قالت انها لن تعطي شيئاً ما لم تعرف لماذا هي تعطي . احمرّ فريدريك كثيراً . واحد من زملائه اقترف سرقة . يجب أن يتأمن المبلغ اليوم .

- هل تسميه ؟ باسمه ؟ هيّا ، ما اسمه ؟

- ديسرديه !

وارتمى على قدميها يتوسل إليها أن لا تقول شيئاً .

- أية فكرة لك غني ؟ أجابت السيدة دمبرز . كنا

لنحسب أنك المذنب . دع مظاهرك المأساوية ! هاك ، إليك المبلغ ، وأدّ له خدمة جلي !

ركض عند أرنو . لم يكن التاجر في محله . لكنه لا يزال

يسكن في شارع الفردوس ، لأنه يمتلك منزلين .

في شارع الفردوس ، أقسم البواب أن السيد أرنو غائب

منذ ليلة أمس . إنما بالنسبة للسيدة ، لم يجرؤ أن يقول شيئاً .

وبعدما انطلق صاعداً الدرج كسهم ، ألصق أذنه بالقفل . فُتح

الباب أخيراً . تجهل الخادمة متى يعودان ، فقد دُفع حسابها وهي

تستعدّ ، بدورها ، للذهاب .

فجأة سمع صفق باب :

- هل هناك أحد ؟

- أوه ! كلا يا سيدي ! إنه الهواء !

حينها انسحب . مهما يكن الأمر ، فإن اختفاء بهذه السرعة

يبدو غير مبرّر .

لربما استطاع ريجمبار أن ينيره بشيء ، فهو صديق مينيو

الحميم . وقاد نفسه إليه ، إلى مونارتر ، شارع الامبراطور .

تحاذي بيته حديقة مقفلة بسياج تسدّ منفذه صفائح حديد .

ترتفع الواجهة البيضاء فوق مدخل من ثلاث درجات .

وتلاحظ ، وأنت تمر على الرصيف ، غرفتي الطابق الأرضي ،
الواحدة صالون مليء بالأثاث المتناثرة على قطع الأثاث ،
والأخرى مشغل فيه عاملات السيّد ريجمبار .

كلهن مقتنعات بأن للسيّد اهتمامات كبيرة ، علاقات
كبيرة ، بأنه رجل ممتاز . حين اجتاز الممرّ بقبعته ذات الأطراف
المتدلّية ، بوجهه الطويل الرصين ، وسترته الطويلة الخضراء ،
توقفن عن عملهن . لم ييخل عليهن بكلمة تشجيع ، بمجاملة
بشكل قرار ، وفي ما بعد ، في البيت ، يجدن أنفسهن تعيسات
لأنهن نظرن إليه كمثال .

أياً منهن لم تكن تحبه مثل السيّد ريجمبار ، امرأة قصيرة
ذكية ، تعيله بمهنتها .

مد تلفّظ السيّد مورو باسمه ، اقبلت برشاقة تستقبله ، وقد
عرفت من الخدم ما يكون بالنسبة للسيّد دمبروز . زوجها كان
« دخل لتوه » ، وهو يتبعها ، راح فريدريك يقدر المسكن
والاسراف باللوحات المشمّعة الكانت موجودة . ثم انتظر لحظات ،
في شكل مكتب كان ريجمبار يختلي فيه للتفكير .
كان استقباله أقلّ نجهاً من المعتاد .

روى قصة أرنو . صاحب مصنع الخزفيات السابق كان فتن
مينيو بالكلام المعسول ، وهو مواطن يمتلك مئة سهم من جريدة
« العصر » ، مظهره له ، أنه يجب ، من الوجهة الديمقراطية ، تغيير
إدارة الجريدة ومكتب تحريرها . وبحجة تأمين انتصار رأيه في
الجمعية المقبلة للمساهمين ، طلب إليه خمسين سهماً ، قائلاً إنه

سيعطيها لأصدقاء مؤمنين يدعمون التصويت له . لن يكون مينيو أية مسؤولية ، فلن يختلف مع أحد . وإذا يتم النجاح ، سيجعل له ، في الهيئة الادارية ، مركزاً مرموقاً ، بخمسة إلى ستة آلاف فرنك أقله . أعطاه مينيو الأسهم . لكنّ أرنو باعها مباشرة ، وتركز ، بالمبلغ ، تاجر تحف دينية . وبسبب هذا ، مطالبات من مينيو ، ومطالبات من أرنو . أخيراً ، تهدد المواطن بدعوى احتيال إن لم يرد إليه الأسهم أو المبلغ الموازي : خمسين ألف فرنك .
بدا فريدريك في غاية الحزن .

- ليس هذا كل شيء ، قال الرجل . كان رضي مينيو ، وهو رجل طيب ، بالربع . وعود جديدة من الآخر ، لكنها ، بالطبع ، أحابيل . باختصار ، قبل أمس صباحاً ، أنذره مينيو ، رسمياً ، بدفع اثني عشر ألف فرنك ، خلال الأربع والعشرين ساعة ، مع حفظ حقه بالمبلغ المتبقي .

- لكن معي المبلغ ! قال فريدريك .

- مازح !

- عفوا ! انه في جيبي . لقد أثبت به .

- كم أنت غبي ! يالك من رجل ساذج ! على كل ، لم يبق

الوقت مناسباً ؛ قدّمت الشكوى ، وذهب أرنو .

- وحيداً ؟

- كلا ! مع زوجته . لقد شوهدا في محطة هافر .

شعب فريدريك بشكل عجيب . خشيت السيدة ريجمبار

من أن يغمى عليه . تمالك نفسه ، واستطاع ، حتى ، أن يسأل

سؤالين أو ثلاثة عن الحادثة الغريبة . حزن ريجمبار للأمر ، فهذا
يضرّ بالديمقراطية . فأرنبو كان دائماً بلا أخلاق ولا تنظيم .

- انه طائش حقيقي ! يحرق الشمعة من طرفيها ! سعيه في
معاشرة النساء جعله يضيع ! فالمواطن كان معجباً بالنساء
الفاضلات ، ويعطي مثلاً السيّد آرنبو . « لقد عانت الشيء
الكثير ! » .

امتّن فريدريك له على هذه الملاحظة ، وضغط على يده ،
بانسكاب ، كما لو انه حصل منه على خدمة .

وإذ دخل ، واجهته روزانيت بالسؤال : هل أنهيت كل ما

يلزم ؟

قال انه لم تكن لديه الشجاعة لذلك . وكان سار ، كيفما
كان ، في الشوارع ، ليتناسى .

انتقلا في الثامنة إلى غرفة الطعام ، لكنهما بقيا صامتين
يصعدان ، بين لحظة وأخرى ، نهدة طويلة ويرفعان ، للخدم ،
صحنهما . شرب فريدريك ماء الزهر . أحس نفسه مهتماً ،
محطماً ، مضى ، ما عاد يشعر بشيء إلا بتعب لا محدود .

ذهبت وجاءت باللوحة . تصطدم فيها الألوان الحمراء ،
الصفراء ، الخضراء ، الزرقاء ، ببقع عنيفة ، تجعل منها عملاً
قبيحاً ، يكاد يكون ساخراً .

على كل حال ، فالمت لم يكن ، بعد ، معروفاً . فلون شفثيه
الضارب إلى البنفسجي ضاعف بياض جسده . ازداد أنفه نحولاً ،
وعينه غارتا أكثر . يستريح رأسه إلى وسادة من تفتا زرقاء ، بين

بتلات الكاميليا ، وورود الخريف والبنفسج ، إنها فكرة الوصيفة ،
هما رتبتها كذلك ، بورع . على المدفأة المغطاة بغطاء مخرم
شمعدانان من فضة مذهبة ، تفصلهما باقتا بقس مقدس . في
آنيتين ، في الزاويتين ، تشتعل أقراص معطرة ، يؤلف ، كل
هذا ، مع المهد ، نوعاً من مذبج ، وتذكر فريدريك سهرته قرب
السيدة دمبروز .

كل ربع ساعة تقريباً ، كانت روزانيت تزيح الستائر لتنظر
إلى ابنها . راحت تتخيله ، بعد أشهر ، بادئاً بالمشي ، ثم في
المدرسة ، وسط الملعب لاعباً بالحواجز ، ثم شاباً ذا عشرين عاماً ،
وكل هذه الصور التي كانت تخلقها ، تجعلها تشعر أنها فقدت ،
بعدها ، أولاداً ، - فازدياد الألم ضاعف حسها الأمومي .
كان فريدريك يفكر ، وهو على الكرسي الآخر ، في السيدة
أرنو .

هي ، ولا شك ، في الطريق الحديدي ، وجهها في زجاج
قاطرة ما ، ناظرة الريف يهرب وراءها من جهة باريس ، أو هي على
جسر سفينة بخارية ، كأول مرة رآها فيها ، لكنها ، هذه المرة ،
تذهب إلى أماكن لن تعود فتخرج منها . ثم يتخيلها في غرفة فندق ،
معها حقائب في الأرض ، والباب يصطفيق في الهواء . وبعد ؟ ما
سيحل بها ؟ معلّمة ، سيّدة مرافقة ، وصيفة ماذا ؟ هي مسلمة إلى
صُدْف التعاسة . يؤرقه جهله لمصيرها . كان عليه الوقوف في وجه
رحيلها ، أو الذهاب وراءها . ألم يكن زوجها ، حقيقة ؟ وراح
يشعر كما يتمزق في كل كيانه ، إذ يفكر أنه لن يلقاها من بعد ، أن

كل شيء انتهى ، انها فقدت نهائياً . فباضت دموعه ، وهي
حُصرت منذ الصباح .

لاحظت روزانيت دموعه .

- آه ! أنت تبكي مثلي ! أمتألم أنت ؟

- نعم ! نعم ! ! أنا متألم ! . . .

ضمّمها الى صدره ، وراحا يشهقان متعانقين .

السيدة دمروز تبكي كذلك ، نائمة على بطنها ، في

سريرها ، ورأسها بين يديها .

في المساء ، اذ جاءت أولمب ريجمبار لتقيس لها ثوبها الملّون

الأول ، أخبرتها بزيارة فريدريك ، وأنه ، حتى ، يحمل اثني عشر

الف فرنك للسيد أرنو .

هكذا ، فهذا المال ، مالها هي ، هو ليمنع رحيل الأخرى ،

ليحتفظ لنفسه بعشيقه !

طفحت غضباً ، أول الأمر . وقرّرت طرده كخادم . هذاتها

دموع سخية . فالأفضل عدم الحديث في ذلك ، عدم البوح

بشيء .

في الغد ، حمل اليها فريدريك الاثني عشر الف فرنك .

رجته الاحتفاظ بها ، في حال الحاجة ، لصديقه ، وسألته

كثيراً عن هذا السيد . فما كان دفعه الى هذه الثقة الزائدة ؟ انها امرأة

ولا شك ! فالنساء يدفعن بك الى كل الجرائم .

حير فريدريك هذا التهكم . شعر بندم كبير للوشاية . انما ما

يطمئنه هو أنّ السيدة دمروز لن تعرف الحقيقة .

مع ذلك ، فقد تمسكت بالأمر . لأنها ، بعد غد ، استعلمت
عن رفيقه الصغير ، ثم عن آخر ، عن ديلوريه .
- أهو رجل واثق وذكي ؟
امتدحه فريدريك .

- قل له ان يربي في صباح ما : أريد استشارته في قضية .
كانت وجدت مُدرجة وثائق قديمة تتضمن سندات كان أرنو
أنكرها تماماً وعليها توقيع السيِّدة أرنو . بسبب هذه كان فريدريك ،
مرة ، حضر عند السيِّد دمبروز وقت غدائه ؟ وبالرغم من أن
الرأسمالي ما أراد متابعة الاستيفاء ، كان جعل محكمة التجارة
تحكم ، ليس فقط بإدانة أرنو ، بل وزوجته التي كانت تجهل ذلك ، لأن
زوجها وجد من المناسب ان لا يخبرها بالأمر .

انه سلاح ، هذا ! لا تشك السيِّدة دمبروز في الأمر . لكن
كاتب عدلها ربما نصحتها بالامتناع عن التنفيذ . أرادت كائناً غير
معروف . وتذكرت ذلك الشيطان الكبير ، ذا السحنة الوقحة ،
الذي كان عرض عليها خدماته .

بسذاجة أبلغ فريدريك رسالتها .
سر المحامي بأن يكون على علاقة بسيِّدة كبيرة مثل هذه .
فركض اليها .

أخبرته أن التركة تعود لابنة اختها ، وهذا سبب آخر لتصفية
ديونها التي عليها تسديدها ، مصرة على ان تكدر الزوجين مارتينون
بافضل الطرق .

فهم ديلوريه ان هنالك سرّاً ما ، راح يحلم وهو ينظر في

السِّنَدَات . اعاد اسم السيِّدة أرنو ، مكتوباً بخطها ، أمام عينيه كل شخصها ، وذكره بما لقي منها من اهانة . فلم لا يتقم ، مادام الظرف ملائماً ؟

فنصح السيِّدة دمبروز بأن تنبيع بالمزاد الديون الميؤوس منها المتعلّقة بالتركة . يعود فيشتريها مسخر خفية ويتابع الملاحقات . يتكفل ، هو ، باحضار هذا الرجل .

وحوالى أواخر تشرين الثاني ، فيما كان فريدريك ماراً بشارع السيِّدة أرنو ، رفع عينيه نحو النوافذ ، فلمح إعلاناً على الباب فيه ، بأحرف كبيرة :

« مبيع أثاث فخم ، يتضمّن أدوات طبخ ، بياضات للجسم وللمائدة ، قمصاناً ، دانتيلاً ، تنانير داخلية ، بناطلين ، كشميرا فرنسياً وهندياً ، بيانو إرارد ، صوانين سندانيتين من طراز عصر النهضة ، مرايا من البندقية ، بوابات من الهند ومن اليابان . »
« انه أثاثهم ! » قال فريدريك في ذاته . وأكد البواب

هواجسه .

لكن من يكون الشخص البائع ، فهو يجله . لكن المثلث ، وهو السيّد برتلموت ، قد يزوده ببعض الايضاحات .

لم يشأ الموظف البلدي ، أوّل الأمر ، أن يقول أي دائن يتابع عملية البيع . أصرّ فريدريك . انه رجل اسمه سينيكال ، وكيل أعماله ، وسايه السيّد برتلموت أكثر فأعاره جريدته وفيها « إعلانات صغيرة » .

حين وصل فريدريك عند روزانيت ، رمى الجريدة ،

مفتوحة ، على الطاولة .

- اقربي !

- ماذا ! قالت بوجه هادىء آثاره .

- آه ! احتفظي ببراءتك !

- لا أفهم ما تقول .

- أنت من تبعين السيّدة أرنو ؟

- أعادت قراءة الاعلان .

- أين اسمها ؟

- إيه ! إنه أاثاها ! تعرفينه أفضل مني !

- قالت روزاينت رافعة كتفها :

- ماذا يعني ؟

- ما يعني ؟ أنت تأارين ، هذا كلّ ما في الأمر ! انها تنمّة

مضايقاتك ! ألم تشتمها إلى حدّ مجيئك اليها ؟ أنت ، الفتاة

التافهة ؟ لماذا تستسلين لتدمري المرأة الأكثر قداسة ، الأكثر

جمالاً ، المرأة الفضلى ؟

- مخطيء أنت ، أوكد لك !

- ملأه الغضب .

- تكذبين ! أنت تكذبين أيتها البائسة ! أنت تحسدنيها !

تمتلكين حكماً ضدّ زوجها ! تدخل سينيكال بأعمالك ! هو يكره

ارنو ، تفاهم كرهكما . رأيت فرحه حين ربحت الدعوى بشأن

الصلصال . أتكرين هذا ؟

- أقسم بشرفي . . .

- أوه ! أعرفه شرفك !
 وراح فريدريك يذكرها بعشاقها ، بأسمائهم ، مع التفاصيل
 ومناسباتها . تراجمت روزانيت وقد شحبت .
 - هذا يثير عجبك ! ظننتني أعمى لأنني كنت أغمض عيني .
 يكفيني اليوم ! لا تموت لخianات امرأة من نوعك . حين تصبح
 خianات فظيعة ننسحب ، هذا أفضل من عقابهن !
 رفعت ذراعيها :
 - يا الهي ، من غيرهُ ؟
 - لا أحد غيرك !
 - وكل هذا لأجل السيّدة أرنو ! ... صرخت روزانيت
 باكية .

بيروود قال :
 - لم أحبّ سواها !
 هطلت دموعها عند هذه الالهانة .
 - هذا يؤكد حسن ذوقك ! انسانية ناضجة ، لوها لون
 السوس ، سمينة ، عيناها كبيرتان كمنافذ كهف ، وفارغتان
 مثلها ! بما ان هذا يرضيك الحق بها .
 - هذا ما كنت أتمناه ! شكراً !
 جامدة لبثت روزانيت ، مشدوهة لتصرفاته الغريبة . تركت
 الباب يُغلق ، ثم بقفزة ، لحقت به في غرفة الانتظار ، طوّفته
 بذراعيها قائلة :
 - لكنك مجنون ! أنت مجنون ! هذا محال ! أحبك ! توّسلت

اليه : يا إلهي ، باسم طفلنا الصغير !

- أقرّي بأنك أنت وراء ذلك !

دافعت عن براءتها .

- ألا تريدان الاقرار ؟

- لا .

- أذن ، وداعاً ! وإلى الأبد !

- اسمعني !

استدار فريدريك .

- لو أنك عرفتني أكثر ، لعرفت أن قراري لا رجوع عنه !

- أوه ! أوه ! ستعود إليّ !

- أبداً !

وصفق الباب بعنف .

كتبت الى ديلورييه أن يأتي بسرعة . هي بحاجة إليه .

وصل ، ذات مساء ، بعد خمسة أيام ، وإذا أخبرته

بالانفصال ، قال :

- هذا كل ما في الأمر ؟ !

حسبت ، أول الأمر ، أن في استطاعته ردّ فريدريك إليها ،

إمّا الآن كل شيء ضاع ، علمت ، من بوابها ، قرب زواجه من

السيدة دمبروز .

أخذ ديلورييه يعظها ، بدا فرحاً ، مزاحاً . وبما أن الوقت

متأخّر كثيراً ، طلب أن يمضي الليلة على كرسيّ مريح . وفي الغد ،

مجدداً إلى نوجان ، وأخبرها أنه لا يعرف متى سيلتقيان . من الآن

حتى وقت قريب ، سيحصل تبدل كبير في حياته .
بعد ساعتين من عودته كانت المدينة في حالة ثورة . يحكى ،
كان ، أن فريدريك سيتزوج من السيّد دمبروز . عند هذا الخبر ،
ما استطاعت الانسات أوجيه الثلاث كتم الخبر ، فذهبن إلى السيّد
مورو ، التي أكدت الخبر بفخر . مرض السيّد روك . لويز أقفلت على
نفسها . سرى همس أنها جنت .

فريدريك ، لم يكن يستطيع اخفاء حزنه . لتسليه ، راحت
السيّد دمبروز تضاعف اهتماماتها به . تأخذه في نزعات ، طوال
بعد ظهر كلّ يوم ، في عربتها . مرة ، وهما يمران بساحة البورصة ،
فكرت بالدخول الى فندق الدالين للتسليه .

إنه الأوّل من كانون الأوّل ، اليوم الذي سيتم فيه « بيع »
السيّد أرنو . تذكر التاريخ ، وجهه بنفوره معلناً أنّ المكان لا يطلق
بسبب الجموع والصخب . تتمني ، كانت ، كما تقول ، أن ترمي
نظرة على المكان . توقفت العربّة . فكان عليه أن يتبعها .

يرى في الساحة ، مغاسل بدون أحواض ، خشب كراس ،
سلال عتيقة ، شقف بورسلان ، قناني فارغة ، فرش ، ورجال
بقمصان فضفاضة وسترات وسخة ، رماديّة كلّها بفعل الغبار ، ذوو
وجوه دنيئة ، مع بعضهم أكياس قماش على الكتف ، يتحدثون
جماعات أو يتنادون بصخب .

أثار فريدريك مضارّ التقدّم أكثر .

ـ لا عليك !

وبعدا الدرج .

في الغرفة الأولى ، الى اليمين ، كان رجال يتفحصون لوحات ، والدليل في اليد ؛ في أخرى يبيعون مجموعة سلاح صينية . أرادت السيدة دمبروز النزول . راحت تنظر الى الأرقام ، فوق الأبواب ، واصطحبته الى آخر الممشى ، نحو غرفة تغص بمن فيها .

للمحال عرف خزانتي « الفن الصناعي » ورفوفها ، طاولة عمله ، كل أثاثه اكان يؤلف مجمّعا في الطرف ، كل شيء حسب طوله ، كدسة عريضة من الأرض حتى النوافذ ، وفي جوانب الغرفة الأخرى يتدلّى السجّاد والستائر على طول الجدران ، تحتها أدراج يشغلها رجال مستنون نائمون . الى الشمال ، نوع من مكتب ، حيث المثلث ، بربطة عنق بيضاء ، يلوّح بمطرقة صغيرة ، برشاقة . قربه شاب ، فيه من الموظف الرحّالة ومن تاجر التذاكر المؤقّتة ، ينادي ببيع الأثاث . يحمل الأغراض الى طاولة ، ثلاثة صبيان ، يحيط بهم ، جالسين في صف ، تجار سقط وياثعون بالمفرّق . خلفهم تتحرّك الجموع .

حين دخل فريدريك ، كانت عادت التنانير الداخلية ، وخارات الكتفين ، المحارم ، وحتى القمصان ، التي انتقلت من يد إلى يد ؛ أحيانا يرمونها من بعيد ، فتخترق الفضاء ألوان بيضاء ، بعدها ، بيعت أثوابها ، ثم احدى قبّعاتها وقد سقطت ريشتها المكسورة ، ثم فراقها ، ثم ثلاثة أزواج جزمات ؛ - بدا له تقاسم بقاياها هذه ، التي فيها وجد ، بغموض ، أشكال أعضائها ، عملاً فظيماً ، كما لو كان رأى غرباناً تتناثش جثة . ضايقه جوّ الغرفة

المثقل باللهات . قدّمت له السيّدة دمبروز قارورتها ، تقول انها تتسلّى كثيراً .

وراحوا يعرضون أثاث غرفة النوم . يعلن السيّد برتلموت سعراً . يكرّزه المنادي ، بسرعة ، بصوت أعلى . وينتظر الموظفون الثلاثة ، هدهود ، ضربة المطرقة ، ثم يحملون القطعة الى غرفة مجاورة . هكذا اختفت واحدة بعد أخرى ، السجّادة الكبيرة الزرقاء المزركشة بزهور كاميليا التي كانت تلامسها قدمها وهي آتية اليه ، المثواة الصغيرة المنجّدة حيث كان يجلس دوماً بمواجهتها حين يكونان وحيدين ؛ عاكساً المدفأة التي كان عاجها صار بفعل لمس يديها ؛ مدبسة مخملية لا تزال شائكة بالدبابيس . انها أجزاء من قلبه تذهب مع هذه الأشياء ؛ خدّرت رتابة الأصوات نفسها ، الحركات نفسها ، أتعبته ، أحدثت فيه خدراً حزيناً ، انحلالاً .

سمع طقطقة حبر قرب اذنه ، روزانيت تلامسه . كانا عرفت بهذا المبيع من فريدريك ذاته . وبما ان حزنها كان انتهى ، أرادت الاستفادة . أتت تشاهد ، مرتدية سترة ساتانّية بيضاء ذات اضرار لؤلؤيّة ، وثوب بزينة كريهة ، مقفّزة بدقّة ، بمظهر المنتصرة .

شحب غضباً . نظرت الى المرأة التي ترافقه . عرفتها السيّدة دمبروز ، وللحظات تأملت إحداها الأخرى ، من رأسها حتى أخمص قدميها ، بدقّة ، لاكتشاف النقص ، العيب ، - الواحدة تحسد ، ربما ، شباب الأخرى ،

وهذه مغتازة بظرف ، تحسد بساطة منافستها الأرستقراطية .
أشاحت أخيراً ، السيّدة دمبروز برأسها ، مبتسمة بوقاحة
غريبة الغموض .

كان الدّلال أظهر بيانو ، - انه خاصتها ! واقفاً ، نقر ،
بيميناه ، سلماً موسيقياً ، وأعلن ان البيانو بألف ومئتي فرنك ، ثم
أنزله إلى الف ، ثمانمائة سبعمئة .

سخرت السيّدة دمبروز من الآلة الموسيقية .
وضع ، أمام تجار السّقط ، صندوق مجوهرات صغير مع
ميداليّات ، وزوايا . وأقفال فضيّة ، انه الصندوق ذاته الذي كان
رآه في العشاء الأوّل ، في شارع شوازول ، ثم انتقل الى روزانيت ،
وعاد الى السيّدة أرنو . راحت عيناه تحتلسان النظر اليه وهما
يتحدّثان . هو متصل بذكرياته الأعزّ ، وكانت روحه تذوب حناناً
حين قالت السيّدة دمبروز فجأة :

- هه ! سوف أشتريه !
- لكنه فقال لا يلفت الانتباه .
هي ، على العكس ، رآته جميلاً جداً . وراح الدّلال يمتدح
نعومته :

- تحفة من عصر النهضة ، بثمانمائة فرنك ، أيها السادة !
يكاد يكون كلّ من الفضة ! مع شيء من كربونات الكلسيوم
الطبيعي يعود فيلدع !

وإذا ندفعت بين الجموع ، قال فريدريك :
- يا للفكرة الغريبة !

- أهذا يزعجك ؟
- لا ! ولكن ماذا نستفيد من هذه التحفة ؟
- من يدري ؟ قد نضع فيها رسائل حب !
ونظرت إليه نظرة جعلت تلميحها في غاية الوضوح .
- يجب ألا ننقب في أسرار الأموات .
- ما كنت أحسبها ميتة .
أضافت : « ثمانمائة وثمانون فرنكاً ! »
قال فريدريك :
- ليس ما تفعلينه مستحسناً .
ضحكت .
- انما ، يا صديقتي العزيزة ، هذا أول طلب أطلبه منك .
- لكنك لن تكون زوجاً لطيفاً ، أتعرف ؟
رفع أحدهم الثمن ، رفعت يدها قائلة :
- تسعمائة فرنك !
- تسعمائة فرنك ! ردّد السيّد برتلموت .
- تسعمائة وعشر . . . وخمسة عشر . . . وعشرون . . .
وثلاثون ! يصرخ الدلال ملاحقاً الجمهور بنظره ، ويحرك رأسه
بطريقة متلاحقة .
قال فريدريك :
- أظهر لي أنّ زوجتي عاقلة .
صحبها ، بلطف صوب الباب .
تابع المثلّث .

- هيا ، أيها السّادة ، هيا ، تسعمائة وثلاثون ! هل من يشتري بتسعمائة وثلاثين ؟
توقّفت السيّدة دمبروز وكانت وصلت الى العتبة ، وبصوت مرتفع :

- ألف فرنك !
سرت رعشة في الجمهور ، صمت .
- ألف فرنك ، أيها السّادة ، ألف فرنك ! لا أحد يزيد شيئاً ! اتفقنا ؟ ألف فرنك ! - مبروك !
خبطت المطرقة العاجيّة .
سلّمت بطاقتها ، فأرسلت اليها علبة الحلّي . أغرقتها في فروة يديها . أحسّ فريدريك ببرد يخترق قلبه .
ما كانت السيّدة دمبروز تركت ذراعه ، وما جرّوت على النظر اليه مواجهة حتى الشارع ، حيث تنتظرها عربتها .
قذفت نفسها اليها كلص يهرب ، وحين جلست ، التفتت ناحية فريدريك . كانت قبّعته في يده .

- ألا تصعد ؟
- كلاً ، يا سيّدي !
وإذ حيّاها ببرود ، أغلق البوّابة ، ثم أشار إلى الخوذيّ بالذهاب .

شعر ، أوّل الأمر ، شعور فرح واستقلال مسترّد ، فخوراً ، كان ، لكونه ثار للسيّدة أرنو مكرّساً لها ثروة . ثم عجب لتصرّفه ، وأصابه تيّس لا محدود .

نقل اليه خادمه صباح الغد الأخبار . صدر قرار بالأحكام العرفية ، حُلّ المجلس ، وقسم من ممثلي الشعب في كازاس . لم يهتم بالأمر العامة ، فقد كان مأخوذاً بأمره .

كتب الى موردين لالغاء طلبات كثيرة متعلقة بزواجه الذي بداله ، الآن ، فكرة خسيصة . ولعن السيدة ديمروز ، لانه ، من أجلها ، كاد يقترب دناءة . نسي « المارشالة » ما عاديهم ، حتى ، بالسيدة أرنو ، - غير مفكر إلا بذاته - ضائعاً في انقراض أحلامه ، مريضاً ، مليئاً الماء وخذلناً . وتمنى طراوة الأعشاب ، كرهاً للوسط المزيف حيث كان تألم كثيراً ، هناك راحة الريف ، حياة مسترخية تنقضي في ظلّ السقف المولدي ، مع قلوب بيضاء . ونخرج ، أخيراً ، مساء الأربعاء .

تقف على البولفار جماعات كثيرة . بين وقت وآخر ، تفرقها دورية ، وأذ تغيب يعودون مجدداً . يتحدثون بحرية ، يصرخون ضد الفرقه بهتافات وشتائم لا أكثر .

- كيف ؟ ألن يتقاتلوا ؟ سأل فريدريك عاملاً .

أجابه الرجل ذو القميص الفضفاضة :

- لسنا حمقى لهذه الدرجة ، فنقتل لأجل البورجوازيين !

ليتدبروا أمورهم !

ودمدم رجل ، ناظراً الى الريفي شزراً :

- اشتراكيون أوغاد ! لو نستطيع ، هذه المرة ، إبادتهم !

ما فهم فريدريك شيئاً تجاه هذا الحقد والبلاهة . زاد قرفه من

باريس . وفي الغد ، ذهب الى نوجان مع القافلة الأولى .

سريعاً ما اختفت البيوت ، بدأ الريف يظهر . هويستعيد ،
وحيداً في مقطورته ورجلاه على المقعد الصغير ، أحداث الأيام
الأخيرة ، وكل ماضيه . تذكر لويز .

- « كانت تحبني ، هذه ! أخطأت في عدم تمسكي بتلك
السعادة ... هيا ! فلا تفكر بعد ، بالأمر ؟ » .

وبعد دقائق خمس :

« من يدري ؟ ... لم لا في ما بعد ؟ » .

راحت أحلامه ، كما عيناه ، تغوص في آفاق مبهمة .

« ساذجة كانت ، قروية ، تكاد تكون متوحشة ، إنما لطيفة

للغاية ! »

ويمقدار ما يقترب من نوجان ، تقترب منه . حين مرورهم
بحقول سوردون تصوّرها ، كما من زمان ، تحت شجر الحور ،
قاطعة أسلاً على ضفاف البرك . وصلوا فنزل .

اتكأ فوق الجسر لرؤية الجزيرة من جديد والحديقة حيث كانا
تنزّها ذات يوم مشمس ؟ - وبما ان دوخة الرحلة والهواء الطلق
والوهن الذي يحتفظ به من عواطفه الحديثة العهد ، أحدثت فيه ،
كلها ، نوعاً من الحماس ، قال في نفسه :

« لربما لم تكن في البيت ، لو ذهبت لرؤيتها ! » .

كان جرس كنيسة القديس لوران يقرع . وأمام الكنيسة ، في
السّاحة ، تجمع فقراء ، وعربة ، هي الوحيدة في البلدة (هي
الكانت تستخدم في الأعراس) ، وفجأة بدا عروسان تحت البوابة
الكبيرة بين دق من البورجوازيين بربطات عنق بيضاء .

حسب نفسه متوهماً . إنما لا ! انها نفسها ، لويز ! - مغطاة
بطرحة بيضاء نازلة من شعرها الأشقر حتى قدميها ، وهو نفسه ،
ديلورييه ! - مرتدياً ثوباً أزرق مطرزاً بالفضة ، هو ثوب مدير . لماذا
اذن ؟

اختبأ فريدريك بزاوية بيت ، ليمرّ الموكب .
استدار صوب الخط الحديدي ، وعاد إلى باريس ،
خجلاً ، خاسراً ، محطماً .

أكد له حوذيّ العربة أن الحواجز عادت من « قصر المياه »
حتى الملعب الكبير ، وأخذ طريق ضاحية القديس مارتان . نزل
فريدريك عند زاوية شارع بروفنس ليذهب عبر الطرقات الواسعة .

كانت الخامسة ، تمطر رذاذاً على رصيف الأوبرا
بورجوازيون . والمنازل المقابلة مقفلة . لا أحد في الشبايك .
وجنود خيالة ، على امتداد البولفار ، يجنون بأقصى سرعة ، محنيين
فوق جيادهم ، سيفهم مجرد ؛ واعراف خوذهم ، ومعاطفهم
البيضاء الكبيرة المرتفعة وراءهم ، تمرّ فوق نور مصابيح الغاز ،
الكانت تتلوى في السهول وسط الضباب . تنظر اليهم الجموع ،
ساكنة ، خائفة .

تأتي زمر من الشرطة ، بين هجمات الفرسان ، لترد الناس
عن الشوارع .
إننا ، ها ان رجلاً على درج « تورتوني » ، - انه ديسردييه ، -

يُعرف من بعيد لقامته الطويلة ، يبقى دون حراك مثل كريتيدي * .
تهدّد بسيفه واحد من عملاء المقدمة ، وقبّعته المثلثة القرون
على عينيه .

حينها ، تقدّم ديسردييه خطوة ، راح يهتف :
- لتحيا الجمهورية !

وسقط على ظهره ، ذراعاه ممدودتان كصليب .
ارتفع ضجيج خوف بين الناس . نظر الشرطي حواليه
دائرياً ، وفريدريك ، فاغراً فاه ، عرف فيه سينيكال .

* تمثال امرأة يتخذ بدلاً من عمود في مبنى .

VI

سافر .

عرف كآبة المراكب ، برودة النهوض تحت خيمة القوارب ،
ذهول المناظر والآثار ، مرارة الملاحظات التي تنقطع .
عاد .

خالط الناس ، عرف مغامرات حب أخرى . لكن تذكره
الدائم لحبه الأول ، جعل مغامراته تافهة في عينيه . ثم ان حدة
اللهفة ، حتى زهرة الحس ، كانت فُقدت ، طموحاته ، كذلك ،
انحسرت . انقضت سنوات ، وهو يتحمل بطالة ذهنه وجمود
قلبه .

وعند انسكاب الليل ، أواخر آذار ١٨٦٧ ، إذ كان وحيداً
في غرفته، دخلت امرأة .

- سيّدة أرنو !

- فريدريك !

أخذته من يديه ، جذبتة بلطف صوب النافذة ، وراحت
تنظر اليه مرّدة :

- إنه هو ! إذن إنه هو !

ما كان يرى في غَبَشِ الغروب ، سوى عينيها تحت غلالة
وجهها التي من دانتيلًا سوداء تحجب وجهها .
جلست ، بعدما وضعت على حافة المدفأة حافظة نقود
صغيرة بلون أحمر رماني . راح يتسم واحدما للآخر ،
لا يستطيعان الكلام .

وجّه إليها أخيراً عدداً من الأسئلة عنها وعن زوجها .
يسكنان أقصى بريطانيا ، ليعيشا في اقتصاد ويدفعا ديونها .
وبدا أرنو ! ويكاد يكون دائم المرض ، هرمًا . تزوّجت ابنتها إلى
بورديو ، وابنها في حامية « موستانغانيم » . ثم رفعت رأسها :
- لكنني أراك مجددًا ! سعيدة أنا !

لم ينس ان يخبرها أنه ، حين سماعه بالمصيبة ، ركض
اليهم .

- عرفت !

- كيف !

كانت رآته في الساحة ، واختبأت .

- لماذا !

حينها ، وبصوت متلجلج ، ومضطرب ، وبتقطُّع طويل
بين كلماتها :

- لقد خفت ! نعم ... خفت منك ... من نفسي !

جعله هذا اليوم ، يرتجف من لذة حسّية . راح يدق قلبه
دقات كبيرة . تابعت :

- أعذرني ، ما استطعت المجيء قبل (وبعدما دلّته على

المحفظة الصغيرة ذات اللون الأحمر الرماني المغطاة بربيش ذهبي : (طرّزتها على نيتك ، عمداً .. تحتوي هذا المبلغ ، أنتجته أراضني بيلفيل .
شكرها فريدريك على الهدية ، لائماً إياها على إزعاجها نفسها .

- لا ! ليس لأجل هذا جئت ! كنت مصرة على هذه الزيارة ، ثم سأعود ... إلى هناك .
وراحت تجربته عن المكان الذي تعيش فيه .

إنه بيت وضيع من طابق واحد مع حديقة ملأى شمشاداً ضخماً وعمراً مزدوجاً من شجر الكستناء يصل حتى أعلى التلة ، حيث تطل على البحر .

- أذهب أجلس هناك ، على مقعد سميته : فريدريك .
ثم راحت تنظر إلى الأثاث ، التحف ، الأطر ، بشراة ، لتخملها في ذاكرتها . كان رسم « المارشالة » نصف غُجاً بستر .
لكن الذهب والبياض اللامعين وسط العتمة ، لفتا انتباهها .
- يبدو لي أنني أعرف هذه المرأة .

- مستحيل ! هي رسم إيطالي قديم .
صارحته أنها ترغب بنزعة في الشوارع ، وهي برفقته .
خرجوا .

كان ضوء المحلات ينير وجهها الشاحب بين وقت وآخر ، ثم تغمره الظلمة مجدداً . يمشان بين العربات ، بين الجماهير ، غير منفصلين عن بعضهما البعض ، غير سامعين شيئاً ، كأنها

يمشيان معاً في الريف ، على فراش من الأوراق الميتة .
 راحا يخبران بعضهما بعضاً عن أيامها العتيقة ، عن
 عشاءات زمن « الفن الصناعي » ، عن عادات أرنو ، طريقته في
 سحب حرفي قَبْته الاصطناعية ، في سحق دهن التجميل على
 شاربيه ، وعن أشياء أخرى أكثر حميمية وأكثر عمقاً . أيّ شعور
 غريب للذيد أحسّه حين سمعها تغني للمرة الأولى ! كم كانت
 جميلة يوم عيدها في سان كلو ! ذكرها بحديقة أوتوي الصغيرة ،
 بعشايا في المسرح ، بلقاء على البولفار ، بخدم عتاق ، بعبثها .
 تعجب ، كانت ، لذاكرته . قالت :

- تعاودني كلماتك ، أحياناً ، كصدى من بعيد ، كنغم
 جرس آتٍ مع الهواء ، ويخطر لي أنك معي حين أقرأ مقاطع حب
 في الكتب .

- لقد جعلتني أشعر بكل ما فيها من آلام . بتّ أفهم
 أولئك العشاق أمثال « فرتير » الذي لا يزدري الفطائر التي كانت
 تعدّها شارلوت .

- يا للعزيز المسكين !

تنهّدت . وبعد صمت طويل :

- مهما يكن ، فقد كنا نحبّ بعضنا بعضاً .

- ولم نمتلك بعضنا بعضاً !

قالت :

- لربما كان هذا أفضل .

- لا ! لا ! يا للسعادة التي كنا عشناها !

- أوه ! أظن هذا ، مع حبّ كحبّك !
وهو ، حتّى ، قويّ ليدوم بعد هذا الانفصال الطويل !
سألها فريدريك كيف اكتشفت ذلك الحبّ .
- ذات مساء حين قبّلت رسغي بين القفّاز والكم . قلت
لنفسي : « هو يحبّني . . . يحبّني ! » مع ذلك فقد كنت أخشى
التأكّد . تحفّظك كان عذباً إلى حدّ أني كنت أسرّ به كولاء غير
إرادي ومتواصل .
لم يندم على شيء . فالألمة القديمة جوزيت .
حين عادا ، خلعت السيّدة أرنو قبّعتها . أضاء شعرها
الأبيض مصباح موضوع على منضدة مزخرفة . حدث كما صدمة
في قلبه .
ليخفي لها خيبة . ألمه ، رجع على قدميها ، أمسك يديها
وراح يسكب لها كلمات حنونة .
- يبدو لي أنّ لشخصيتك ، لأقل حركاتك ، أهميّة فائقة
يرتفع ، كان ، قلبي كالغبار وراء خطواتك . كنت في
ضوء قمر في ليلة صيف ، حين كل شيء عطور ، ظلال ناعمة ،
بياض ، مدى لا متناه . ولذاذات الجسد والروح ، أحسّها ،
كنت ، في اسمك الذي كنت أردّده لذاتي ، محاولاً تقبيله على
شفتيّ . ما كنت أحلم بشيء أبعد من هذا . أنت ، سيّدة أرنو ،
تماماً كما أنت ، مع ولدك ، حنونة ، رصينة ، جميلة حتى
الاهيار ، وطيبة ! كانت هذه الصورة تمحو كل صورة أخرى . هل
كنت أفكر بهذا ، فحسب ! طالما أنني كنت أحفظ في عمق نفسي

بموسيقى صوتك وبراءة عينيك !

كانت تتقبل ، بنشوة ، هذه الملاحظات لأجل المرأة التي ما كانتها بعد . انتشى فريدريك بكلماته ، وقع في تصديق ما كان يقول . محنية فوقه ، كانت السيّد أرنو ، وظهرها إلى النور . أحسّ على جبينه مداعبة لهاثها ، وعبر ثيابه ملامسة جسدها . أيديهما تضغط على بعضها ، رأس جزمته متقدماً كان أمام ثوبها ، فقال لها يكاد يكون خائراً :

- مرأى قدمك يجعلني مضطوباً .

حركة حياء جعلتها ترفعها إلى الراء . ثم ، جامدة ، وبهزة المروبيين الخاصّة :

- في سني ! هو ! فريدريك ! ... ولا واحدة كانت محبوبة مثلي ! لا . لا ! ماذا ينفع الصبا ؟ أسخر تماماً ! أحتقرهنّ جميعاً ، من يأتين إلى هنا !

- أوه ! لا أحد يأتي ، أبداً ! قال فريدريك بمجاملة .

أشرق وجهها ، وأرادت أن تعرف إن كان سيترّوج .

أقسم أن لا .

- بالتأكيد ؟ لماذا ؟

- بسببك ، قال فريدريك وهو يضمّها بين ذراعيه .

بقيت هكذا ، قامتها إلى الراء ، فمها نصف مطبق ،

عيناها عاليتان . دفعته ، فجأة ، بمظهر يأس ، وإذ رجاها أن تستجيب له ، قالت خافضة رأسها :

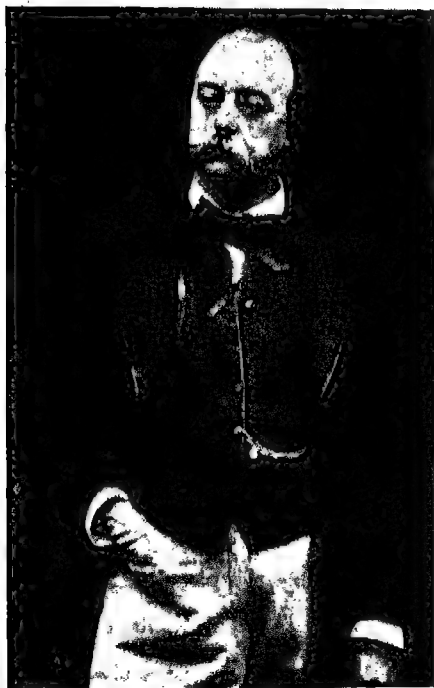
- كنت أريد إسعادك .

فَكَرَّ فريدرىك أن السيِّدة أرنو جاءت لتهب نفسها .
وأخذته شهوة أقوى من كل مرة ، ناثرة ، عنيفة . مع ذلك فقد
أحسَّ بشيء غامض ، تقزُّز ، وكما دعر مرتكب محرَّم . صَدَّه
خوف آخر ، أن ينفر منها في ما بعد . أيّ قلق سيكون ا - ومعاً ،
تعقُّلاً ولئلا يسقط مثاله ، استدار على أعقابهِ وراح يدخن
سِجَّارة .

راجت تتأمَّله وملؤها الاعجاب .
- كم أنت رقيق ا وحدك أنت ا وحدك ا
دقَّت الحادية عشرة . قالت :
- بهذه السرعة ا ربيع ساعة وأمضي .
عادت فجلست . لكنها صارت تراقب الساعة ، وهو
يكمل التمشور مدخناً . ما عادا وجدا شيئاً بقولانه . هناك
لحظة ، أثناء الانفصال ، لا يعود فيها الشخص المحبوب معنا .
أخيراً ، بعدما تجاوز العُرب الدقيقة الخامسة والعشرين .
تناولت قُبعتها بالرباط ، على مهل .
- وداعاً ، أيها الصديق ، يا صديقي الحبيب ا لن أراك
بعد ، أبداً ا كانت هذه آخر محاولاتي كأمراة . لن تفارقك
روحي . فلتهبط عليك كل بركات السماء ا
وقبلته في جبينه كأم .

لكنها بدت تبحث عن شيء ، وطلبت مقصاً .
رفعت مشطها ، فانسكب شعرها الأبيض كله .
بقسوة ، اقتطعت ، من الجذور ، خصلة طويلة .

- إحتفظ بها ! وداعاً !
حين خرجت ، فتح فريدريك النافذة . حين صارت على
الرصيف أشارت إلى عربة خيل كانت مارة ، بالتقدم . صعدت .
اختفت العربة .
كان هذا كل شيء .



أتبتدىء الحياة من جديد ... في هذه السن ؟

VII

في أوائل هذا الشتاء ، كان فريدريك وديلوريه يتحادثان في زاوية قرب النار ، وقد تصالحا ، مرة بعد ، بحتمية طبيعتها التي كانت ، دائماً ، تجعلهما يتصلان ويتحابان .
أخبر الأول ، باختصار ، تفاصيله والسيد دمبروز ، وزواجهما في ما بعد من انكليزي .

الآخر ، من دون أن يخبر كيف تزوج الأنسة روك ، روى أن امرأته ، ذات يوم ، هربت مع مغنٍ . ليتخلص من هذا الوضع الشاذ ، راح يجازف في مديريته ، بحماسة حكومي زائدة . أقالوه . بعدها ، صار رئيس استعمار في الجزائر ، سنكرتيراً لباشا ، مسؤولاً عن جريدة ، وسيط إعلانات ، ليصل ، في النهاية ، إلى مركز موظف دعاوى قضائية في شركة صناعية .

أما بالنسبة إلى فريدريك ، وقد أنفق ثلاثة أرباع ثروته ، فقد كان يعيش كبورجوازي صغير .

ثم استعلما ، بالتتابع ، عن أصدقائهما .
مارتينون هو الآن عضو في مجلس الشيوخ .

هيسّونيه يشغل منصباً مرموقاً ، تحت أمرته كل المسارح وكل الصحافة

سيزي ، وقد استغرق في الأمور الدينية وصار أباً لثمانية ولاد ، يسكن قصر جدوده .

بيلران ، بعدما تحمس للفوريرية* والطب التجانسي ، والطاولات المتحرّكة ، والفنّ القوطي والرسم الانساني ، صار مصوراً ، وعلى كل جدران باريس ، تراه ممثلاً بثوب أسود ، بجسم ضئيل ورأس ضخّم .

وصديقك الحميم شينيكال ؟ سألّه فريدريك .

- اختفى ! لا أعرف عنه شيئاً ! وأنت ، أين حبك الكبير ، السيّد أرنو ؟

- هي في روما مع ابنها وهو طيار .

- وزوجها ؟

- مات العام الفائت .

- عجباً ! قال المحامي . ثم خابطاً على جبينه :

- للمناسبة ، رأيت ذات يوم ، في محلّ ما ، تلك

« المارشالة » الطيبة ، آخذة بيدها صبيّاً تبته . هي أرملة سيّد

اسمه أودري ، وقد صارت بدينة جداً ، ضخمة . يا للتراجع !

هي التي كانت قامتها نحيفة جداً في الماضي .

* مذهب فوريه الاجتماعي .

لم يخف ديلوريه أنه استفاد من يامه ليتأكد بنفسه .
- كما وعدتني ، على كل حال .

كان هذا الأقرار تعويضاً عن الصمت الذي لزمه تجاه مبادرته بخصوص السيّد أرنو . ولقد غفرها فريدريك ، طالما أنها لم تنجح .

بالرغم من كونه كان جرح قليلاً للاكتشاف ، فقد حاول أن يتسم . وذكر « المازشالة » ذكره « الفاتناز » .

ما كان رآها ديلوريه أبداً ، ولا آخرين كثيراً كانوا يأتون عند أرنو . لكنه يتذكر تماماً ريجمبار .
- ألا يزال يحيا ؟

- بالكاد ! هو يجرجر نفسه ، بانتظام ، كل مساء ، من شارع غرامون حتى شارع مونغارتر ، أمام المقاهي ، ضعيفاً ، محدودباً ، هزياً ، كشبح .
- وبعد ، وكومبان ؟

صرخ فريدريك صرخة فرح ، وطلب إلى المندوب القديم للحكومة المؤقتة ، أن يخبره سرّ رأس العجل .

- هي بدعة انكليزية . لمحاكاة الاحتفال الذي كان يقيمها الملكيون في ٣٠ كانون الثاني ، وبسخرية ، أسس مستقلون مادة سنوية فيها يأكلون رؤوس عجول ، ويشربون نبيذاً أحمر في جماجم عجول ، شاهرين أنخاباً متمنين إبادة آل « ستيوارت » .

نظم إرهابيون ، بعد ترميدور* ، أخوية مشابهة ، مما أثبت أن
البلاهة خصبة .

- يبدو لي أنك هدأت بخصوص السياسة .

قال المحامي :

- بفعل العمر .

واختصرا حياتهما .

كان كل منهما خسرهما ، من حلم بالحب ، ومن حلم
بالسلطة . ما سبب هذه الخسارة ؟

- قد يكون بسبب النقص في الاستقامة .

قال فريدريك :

- بالنسبة إليك ، قد يجوز ذلك . أنا ، على العكس ، فقد

أخطأت لفرط الاستقامة ، بدون حساب لألف أمر ثانوي ، أقوى
من كل شيء . غلب عليّ المنطق ، وأنت العاطفة .

ثم تشكّيا من الصدفة ، الظروف ، الفترة التي ولّدا فيها .

قال فريدريك :

- ليس هذا ما كنّا نحلم به ، من زمان ، في « سانس » ،

حين كنت تريد ، أنت ، كتابة تاريخ نقديّ للفلسفة ، وأنا ،

رواية كبيرة عن نوجان في القرون الوسطى ، وجدت موضوعها في

« فرواسار » : كيف أن سيّد بروكار دوفينيسترانج ومطران تروا

هاجا سيّد أوستاش أمبريكيكور . أتذكر ؟

* محل صيد السمك .

وراحا يتشققان نسيم شباهما ، ومع كل عبارة يقولان :
- أتذكر ؟

تذكراملاعب المعهد ، الكنيسة ، غرفة الاستقبال ، غرفة السلاح عند أسفل الدرج ، وجوه بعض النظار والتلاميذ ، واحداً كان اسمه أنغلمار من فرساي كان يفصل سيورة ران لجزمات قديمة ، السيد ميربال وندماء الصهب ، أستاذ الرسم التخطيطي والرسم الكبير ، فارو وسوريري ، اللذين كانا على خلاف دائم ، والبولوني ، مواطن كوبرنيك ، مع نظام مجموع سيارات صنعه من كرتون ، كأنه فلكي نقال دفعنا له مرة ، ثمن الجلسة ، وجبة غداء في قاعة الطعام ، - ثم تذكرنا إفراطهما في الشرب أثناء العطل ، تدخينهما أول غليون ، توزيع الجوائز ، فرح العطلات . وهما في عطلة ١٨٣٧ ذهبا عند التركية .

إنها امرأة اسمها الحقيقي « زورايد تورك » ، وكثير من الأشخاص كانوا يحسبونها مسلمة ، تركية ، مما يزيد على شاعرية مقرها الواقع على ضفة المياه ، خلف السور . وحتى في الصيف ، بيتها محاط بالظل ، يُعرف من قمقم سمك أحمر قرب إناء خزامى على شبك . تنقر على الزجاج ، وأنت تمر ، آنسات بقمصان نوم بيضاء ومسحوق تجميلي على الخدود وأقراط طويلة في الأذنين . وفي المساء ، تغنين ، على مهل ، بصوت أجش ، على عتبات الباب .

يعكس مكان هلاك النفس هذا ، في كل الدائرة ، بريقاً هائلاً . يشيرون إليه بتلميحات : « المكان الذي تعرف ، - شارع

ما ، - عند أسفل الجسور . مزارعات الجوار يرتجفن منه خوفاً على أزواجهنّ ، البورجوازيات لأجل خادماتهن ، لأن طاهية السيّد نائب المدير ضُبطت هناك ، وكان ، بالطبع ، هاجس كل المراهقين السريّ .

وذات أحد ، أثناء صلاة العصر ، وكان فريدريك وديلورييه مرّاً به من قبل ، قطفا زهوراً من حديقة السيّد مورو ، ثم خرجا من بوابة الحقول ، وبعد دورة كبيرة في الكروم عادا عبر المصيدة فانسلاً عند التركيّة حاملين باقتي أزهارهما الكبيرتين . قدّم فريدريك باقته ، كعاشق لخطيبته . لكن الحرارة المخيّمة ، والتخوّف من المجهول ، ونوعاً من تبيكيت الضمير ، وحتى لذة رؤية كل هذه النساء تحت تصرّفه ، من نظرة واحدة ، كل هذا أذهله كثيراً فشحب كثيراً ولبث مكانه ، لم يتفوّه بكلمة . ضحككن كلّهن ، فرحات لتلبّكه ، وإذا حسبهن يسخرن منه ، هرب . وبما أنّ فريدريك يمتلك المال ، فقد رأى ديلورييه نفسه مضطراً للحاق به .

شوهداً خارجين . كانت هذه قصة لم تُنس طوال ثلاث سنين .

راحا يرويان هذه الحكاية بإطناب ، يكمل واحدهما ذكريات الآخر وحين انتهيا ، قال فريدريك :

- هو هذا أفضل ما حصلنا عليه !

- نعم ، لعل هذا صحيح ، قال ديلورييه ، هو هذا

أفضل ما حصلنا عليه !

المَلَف

حياة غوستاف فلوبر

- ١٨٢١ . ١٢ كانون الأول . مولد غوستاف فلوبر في رَوَّان .
- ١٨٣٢ . دخل ، في شباط ، الصف الثامن في « المعهد الملكي »
في رَوَّان حيث تابع دروساً عادية .
- ١٨٣٤ . ١٨٣٧ . كتابات مدرسية وخارج نطاق الدراسة
لوحظ ، في ما بعد ، أنها كانت بدايات أدبية
مبكرة .
- ١٨٣٦ . صيفاً : لقاءه في تروفيل للسيدة شليسنجر التي ظلت
حبه الكبير طوال حياته : شخصية السيدة أرنو في
« التربية العاطفية » تمثل العاطفة التي كنّها فلوبر لها .
- ١٨٣٧ . بدايات نشره في جريدة أدبية في رَوَّان .
- ١٨٣٨ . ١٨٣٩ . كتابة « مذكرات مجنون » و « سمار » .
- ١٨٤٠ . صيفاً : إذ قُبِلَ حائز بكالوريا في الآداب فور انتهائه
من صف الفلسفة ، سافر في البيرنيه وكورسكا .
- ١٨٤١ - ١٨٤٣ . عاش في رَوَّان وفي باريس ، درس الحقوق
في باريس بقليل حب وقليل اجتهاد ، كتب « تشرين
الثاني » (أنهاه في ٢٥ تشرين الأول ١٨٤٢) ، يباشر

- ما نسميه « التربية العاطفية الأولى » (شباط ١٨٤٣) ، يرتبط ، في باريس ، بمكسيم دوكمب .
- ١٨٤٤ . كانون الثاني . أول صدمة عصبية ، لم تحدّد ، بوضوح ، طيباً . وضعت حداً لدروسه ولحياته الباريسية ، اضطرته للانسحاب إلى ملكية كرواسيه قرب روان ، وتدخله أو تثبته هكذا في طبعه المنزوي .
- ١٨٤٥ . ١٧ كانون الثاني . أنهى « التربية العاطفية » ، كتابة أولى ، ولم تظهر سوى ثلاثين عاماً بعد وفاته .
- نيسان - حزيران . رحلة في بروفانس ، في إيطاليا الشمالية وفي سويسرا .
- ١٨٤٦ . ٢١ كانون الثاني . ولادة كارولين همار ابنة أخت فلوير التي تزوجت أرنست كومنفيل في ١٨٦٤ وإذ ترمّلت تزوجت الدكتور فرانكلين - غرو . انهار آل كومنفيل سينقل على فلوير في أواخر أيامه . وان ضياع أوراقه المحفوظة ، بعد موته ، على يد كارولين سيطلق المجال واسعاً لكثير من التقلّبات .
- تموز : بداية علاقة فلوير بلويس كوله وقد التقاها الشهر الماضي . توقفت العلاقة في آب ١٨٤٨ ثم عادت بعد ثلاثة أعوام لتنتهي في ١٨٥٥ .
- ١٨٤٧ . أيار - آب : رحلة مع مكسيم دوكمب إلى أنجو فبريطانيا ونورماندي .
- ١٨٤٨ . ٢٤ أيار : يياشر فلوير « تجربة القديس أنطوان »

- (كتابة أولى) ، أنهاها في ١٢ أيلول ١٨٤٩ .
- ١٨٤٩ . ١٨٥١ . رحلة إلى الشرق مع مكسيم دوكمب .
في ٢٩ تشرين الأول ١٨٤٩ : الانطلاق من باريس :
مصر ، فلسطين ، سوريا ، لبنان ، آسيا الصغرى ،
القسطنطينية ، اليونان ، إيطاليا . العودة في تموز
١٨٥١ .
- ١٨٥١ . أيلول : يياشر فلوير « مدام بوفاري » ، رحلة إلى
لندن . مراسلته مع لويز كوليه تنير جوانب نفيسة جداً
ومعلومات مهمة عن عملية تكوّن الرواية ومذهبه
الأدبي .
- ١٨٥٦ . ٣٠ نيسان . الفراغ من « مدام بوفاري » وقد
ظهرت ، مع حذف ، في « مجلة باريس » ، من أول
تشرين الأول إلى ١٥ كانون الأول .
- نؤار - تشرين الأول . كتابة « تجربة القديس
أنطوان » (كتابة ثانية) ، منها مقتطفات ظهرت في
« الفنان » في كانون الأول وكانون الثاني وشباط .
- ١٨٥٧ . كانون الثاني - شباط . دعوى جنحية على « مدام
بوفاري » لانتهاكها ، قال ، حرمة الأخلاق العامة
والدينية والتقاليد ، - بالرغم من الحذف القاسي من
قبل المجلة . ظهرت الرواية ، بعد التبرئة ، في
المكتبات في نيسان .
- أول أيلول . يياشر فلوير « سلميو » .

- ١٨٥٨ . نيسان - حزيران . رحلة إلى تونس والجزائر .
- ١٨٦٢ . ● نيسان . الفراغ من «سلمبو» ، وقد ظهرت في المكتبات في تشرين الثاني . بالرغم من الانتقادات ، فقد اشتهرت بسرعة ، ويكفّ فلوير عن التسبّب بحياة الوحدة .
- حزيران . فلوير ، وهو يحلم بـ «التربية العاطفية» وبـ «بوفار وبيكوشيه» ، يباشر ، بالمشاركة ، «قصر القلوب» ، (مسرحية جنّ) .
- كانون الثاني . يبدأ بحضور «عشاءات ماني» ، وقد أسّسها ، الشهر المنصرم ، غافارني ، آل غونكور ، سانت بوف ، الخ . التقى فيها تورغنييف في شباط ١٨٦٣ .
- ١٨٦٣ . ٤ كانون الأول . الفراغ من «قصر القلوب» والتي لم تقدّم أبداً ، ولقد ظهرت في «الحياة المعاصرة» سنة ١٨٨٠ .
- ١٨٦٤ . أول أيلول يباشر فلوير كتابة «التربية العاطفية» التي كان أولاً جمع وثائقيّتها وقرر تصميمها .
- تشرين الثاني : دُعي عند الامبراطور في «كومبيين» .
- ١٨٦٥ : تموز . رحلة إلى «بادن - بادن» .
- ١٨٦٦ . تموز . رحلة إلى انكلترا .
- ١٥ آب . جعل فارساً في جيش الشرف .

- ١٨٦٩ . ١٦ أيار . إنهاء « التربية العاطفية » التي ظهرت في المكتبات في تشرين الثاني . خلال ذلك توفي بويلهيه ثم سانت - بوف .
- ١٨٧٠ . عمل فلوير في كتابة الثالثة لـ « تجربة القديس أنطوان » التي ظهرت في المكتبات في نيسان ١٨٧٤ .
- آب . يياشر فلوير « بوفار وبيكوشيه » ، كان بها يحلم من عشرين سنة .
- ١٨٧٣ . تموز - تشرين الثاني . تأليف « المرشح » ملهاة بأربعة فصول ، ولم تقدّم سوى بعض المرات في الفودفيل - آذار ١٨٧٤ ، وظهرت بعد ذلك بقليل في المكتبات .
- ١٨٧٤ . تموز . رحلة إلى سويسرا .
- ١٨٧٥ - ١٨٧٧ . كتب فلوير « أسطورة القديس جوليان المضيف » ، « قلب ساذج » و « هيروديا » ، نشرها في دوريات ثم جمعها في جزء واحد ، « قصص ثلاث » ظهرت في نيسان ١٨٧٧ . وأثناء ذلك ظل يتابع عمله في « بوفار وبيكوشيه » .
- ١٨٨٠ . ٨ نّوار . توفي في « كرواسيه » .
- ١٨٨٠ - ١٨٨١ . طبع « بوفار وبيكوشيه » في « المجلة الجديدة » بين كانون الأوّل وآذار ، ثم في المكتبات في آذار ١٨٨١ .

إشارات

لم يكن فلوير ينتهي من تصحيح مخطوطة « سلامبو » ، في تشرين الأول من عام ١٨٦٢ ، حتى أسرّ إلى صديقة له : « أحلم بكتاب آخر ، ولكن ما زالت تنقصني أشياء كثيرة ، قبل أن أستطيع وضع تصميم له . أشعر برغبة عظيمة بل بحاجة ملحة إلى الكتابة هذا كل ما أعرفه عن نفسي » .

خلال الأشهر الأولى من عام ١٨٦٣ ، استمر مستغرقاً في حلمه ، مفكراً في الرواية المقبلة التي باح بشأنها لآل غونكور ، في شهر أيار من العام نفسه ، أنها ستكون « سلسلة من التحاليل والثرثرات الرديئة التي لا عظمة فيها ولا جمال . وبما أن الحقيقة ليست بالنسبة إليّ شرطاً فنياً ، لا يمكن إذاً أن أنقاد إلى كتابة تفاهات من هذا القبيل ، بالرغم من أنها مرغوبة في أيامنا هذه » . كما أن أحلامه قد توقفت عند كتابه المقبل بوفار ويكوشيه ، الذي لن يكون بدون روابط قري مع « التربية العاطفية » ، ثم ما لبث أن توقف ، لكي يشغل نفسه ، دوغما شديد إيمان بعالم الحب ، في « قصر القلوب » الذي سينجز كتابته في نهاية السنة . وعند ذلك ، قفل عائداً إلى « التربية العاطفية » . وفي رسالة موجهة إلى أمه ،

يرجح أنها تعود إلى كانون الثاني ١٨٦٤ يقول : « ... أفكر
بلا هوادة في روايتي ... وأربط بهذا العمل ، كعادي ، كل ما
أرى وأشعر » .

وقد بقيت لهذا القلق الكابوسي ، آثار عديدة ، إقرأ مثلاً
الملاحظات التي نشرتها السيدة ماري - جان دورّي (فلوير
ومشاريعه المخطوطة) : هي قليلة العدد ، موجزة ، مجزأة ،
ولكنها أسرة ، نشاهد فيها خطوطاً لا تلبث أن تتخذ أشكالاً ، كما
لو أنها في قلب الضباب .

غير أن فلوير يحرص على أن يبعث الحياة ، ولو ذهنياً ، في
ما كان يجمعه بصديقه الدائم بوييه : شبابه ، مغامراتهما
العاطفية ، انطلاقاتهما ، قرفهما ، الألوان المعنوية والعاطفية التي
أسبغها عليها في الوقت الذي حدثت فيه ، وكذلك الأحداث
التاريخية التي يستند إليها ، كما سنرى في ما بعد ، إذ إن حكاية
الرواية تستلزم عوداً إلى الماضي .

ويوقف مشروعه ، ثم لا يلبث ، كعادته ، أن يستأنف
الكتابة في أوائل أيلول ١٨٦٤ ، ولا ينهيها إلا في السادس عشر
من أيار ١٨٦٩ ، أي بعد خمس سنوات تقريباً . حينها أضاف إلى
صديق له ، بأسلوب المتنصر ، وكانت الساعة تشير إلى الخامسة
إلا خمس دقائق صباحاً ، بشرى انتهاء كتابه : « إنني على طاولتي
منذ الثامنة من صباح أمس ، ورأسي يكاد ينفجر » . وخلال
سنوات الخلق الأدبي هذه ، كانت مراسلاته ، بكل أسف ، أقل
غنى بالبوح والتصريح ، منها مع « مدام بوفاري » .

كانت كتابته تتطلب الكثير من العناء ، غير أنها كانت أقل حدة من السابق ، ومقطوعة بأسفار عديدة أو بمزيد من النشاط والتنوع في حياته الاجتماعية ، وأحياناً لا علاقة لها بالرواية .

صدر كتاب « التربية العاطفية » عن دار ميشال ليفي في السابع عشر من تشرين الثاني ١٨٦٩ (حاملاً تاريخ ١٨٧٠) .

وقد تعددت آراء النقاد : سارسي وباربي دورفيني انتقدها بشدة ، أما جورج ساند وبانفيل فقد استقبلاه بحفاوة . والواقع أن العصر لم يكن ملائماً تماماً . ويدعي مكسيم دو كمب أنه في أثناء مروره وفلووير أمام أنقاض حرائق ثورة عامية باريس ، في حزيران ١٨٧١ ، قال له فلووير : « لو فهموا « التربية العاطفية » ، لما حصل شيء من هذا » . هذا مع الإشارة ، إلى أنه ، وإن كان من المناسب اتخاذ جانب الحذر مما يقوله ماكسيم دو كامب ، إلا أنه من الضروري سماعه . ففي ١٨٧٤ ، كتب فلووير إلى تورغونيف يقول : « إن ما يؤلمني ، هو سقوط « التربية العاطفية » ، وعدم فهمه هو ما يدهشني » . لقد كان على الكتاب أن ينتظر عشر سنين حتى يجد نفسه في المكان اللائق به . عشر سنين كانت كفيلة بتهدئة الخواطر ، وبروز أجيال جديدة ، وبالتغيير .

ثمة ناقد متحفظ ولكن باعتدال ، حذر بدون حماسة ، متأثر بالعمل ولكنه غير منقاد له . إنه فلووير نفسه ، ويقول في رسالة له منذ أوائل تشرين الأول ١٨٦٤ : « أريد أن أكتب التاريخ الأدبي لأبناء جيلي ، أو بقول أصح « التاريخ العاطفي » لهذا الجيل . إنه كتاب وشهوة . ولكنها الشهوة التي نصادفها في عصرنا ، وهي

شهوة ساكنة هادئة . إن الموضوع ، كما عاجته ، شديد الالتصاق بالحقيقة ، ولأنه كذلك ، فهو يفتقر قليلاً إلى عنصر الامتاع ، كما انه يفتقر بنفس النسبة إلى الأحداث والدراما ، فضلاً عن ان الحركة تمتد على مساحة من الزمن طويلة جداً .

ثمة معلقون يدون إعجابهم « بالوضوح » الذي تتجلى في رأي فلوير . ونحن لا ننقاد لهم ، ذلك أن الروائي ، ربما وصف مقدماً بنية المؤلف موضوع البحث ، ولكنه يقدر خطأ فضائله . إنه يحكم من خلال عادات الوسط الذي ينشأ فيه ، وليس من خلال قدرته الخلاقة الذاتية ، التي يمكن أن تكون محقة ، تجاه البورجوازي الذي يستند إليه ، والمسمى « غوستاف » .

إن أول مصدر يغرف منه فلوير ، هو فلوير نفسه الذي كان قد بدأ باكراً جداً ، يجرب بعض المواضيع التي كان من المفترض أن تنسّق « التربية العاطفية » في ما بينها ، كما في كتابه « مذكرات مجنون » الذي صدر عام ١٨٣٧ ، وفي كتابه « تشرين الثاني » عام ١٨٤٢ ، وفي الطبعة الأولى من كتابه « التربية العاطفية » عام ١٨٤٥ . إن هذه الأخيرة التي ظهرت بنفس العنوان وفي نفس الاتجاه من الانشغالات ، موثوق بها تماماً ، وغير ناضجة بدون أدنى شك ، ومختلفة تماماً عن الطبعة الأولى للرواية الصادرة عام ١٨٦٩ . ففي الفترة الممتدة ما بين ١٨٦٤ - ١٨٦٩ ، يستوحى فلوير كتاباته الماضية ، أقل مما يستوحى بعض الثوابت في طبيعته ومزاجه .

يؤكد مكسيم دو كمب بخصوص الشخصيات : « ولا

شخصية إلا أستطيع تسميتها ، فقد عرفتها جميعاً أو عايشتها » .
هذا دقيق ، لكنه ليس صحيحاً كلياً . فمهما كان فلوير
موضوعياً ، أو مهما أراد أن يكون كذلك ، فالحركة الذاتية للرواية
تحوّل قليلاً ، إنما دائماً ، ما كان حفظه من دقة الملاحظة .

وهكذا فإن فريدريك مورو مدين حتماً لسيرة فلوير
الذاتية ، ولكن ملامح ، منه ، متنوعة ، وهي ليست نبيلة ، تمثل
حقاً ، ملامح من دو كمب . أما بالنسبة للسيدة أرنو ، فإننا
نعرف ، منذ اكتشافات السيّد جيرار كايي المذهلة ، أن الواقع
يتخطى الوهم . لقد جسّد فيها فلوير حب حياته الأكبر ، لكنه لم
يقبل كل شيء في إليزا شليسنجر . وذاك أرنو هو موريس
شليسنجر صاحب شخصية الزوج المحوّرة . والسيدة دمبروز هي
السيدة دولوسير التي كانت إحدى عشيقات ميريه ثم دو كمب .
أما السيّد دمبروز فهو بوييه - كرتيه ، رجل أعمال ونائب مع
بعض ملامح من آخرين ، وهكذا ، فإن عائلة دمبروز ، في
الرواية ، ليست هي نفسها عائلة دولوسير في الحقيقة . وديلورييه
يمثل في الوقت نفسه دو بوييه ودو كمب . ومن جهة أخرى ، فإن
روزانيت والفتاناز تميّلان معا ، وليس حصراً ، إلى السيّد
براديه . . . الخ .

لقد اهتم فلوير ، منذ بداية أحلامه ، وبجدية ، بالتوثيق
(لم يسمح ، قط ، لهذه بالتعدي على الأخرى) . وحدثت ، مرة
بعد في حياته ، فترة مطالعات هائلة ، وتراكمت عنده الملاحظات
والملفات . من بينها كتب ، جرائد ، قصص ، مسارات

الآخرين . وفي الواقع ، إننا لتساءل كيف استطاع أن يضمّن ، في روزنامة ملأى ، دراسة كثير من أصحاب العقائد الاشتراكية ، مثلاً . لا شك أنه يتميز بموهبة نادرة من التغلغل والاستيعاب . إن استقصاءاته اللامحدودة تابعت خلال سنوات الكتابة . إنها ، دائماً ، المطالعات . رحلات اختبار ، مراقبة . تحقيقات شخصية . كان له همّ راسخ : أن يُشرك في طلب الخدمة أصدقاءه وأصدقاء أصدقائه لتسجيل شهاداتهم . يسأل ، كان ، محاربى العام ١٨٤٨ (وهو لم يهمل الأكثر تواضعاً ، لأنهم الأقرب إلى الحدث وقت بروزه ، إذن إلى الحقيقة الروائية) ، يستخبر عن مرض الخناق عند (تروسو) وفي المستشفى ، ولقد أعاد ، في غابة فونتينبلو ، النزعات التي عهد بها في ما بعد إلى فريدريك وروزانيت ، وسجل تفاصيلها دقيقة دقيقة أو هو كاد . واستخبر عن نساجي ليون ، عن نقاط باريس المحددة حيث كان للحرس الوطني وللجيش مراكزهم أثناء الثورات الشعبية ، كذلك عن تقنية الخزفيات وتجارتها ، عن حفلات سباق الخيل في سان دو مارس ، عن قضايا البورصة ، عن الأزياء النسائية سنة فسنة ، الخ .

إذن ، فهو كان ، بطريقة ما ، يحضّر هذه الرواية المعاصرة ، حسب الطريقة نفسها التي حضّر بها رواية قديمة سبقت هذه ، الفرق هو أنه ، حسب قانون التبعية الذي يعطي مؤلفه إحدى طبائعه ، هو ، هذه المرة ، لم يتوقّف عن أن يصل الوثائق بتجربته الشخصية ، محيياً بعضها بذكر الأخرى التي كانت تكشف

له ، في المقابل ، وعلى تقطع ، المعنى العميق . وإن صوت
العاطفة الخفيض وكذلك صوت الضمير - سر النغمة - لم تُكتشف
قط عبر الارغانات القديرة لكل هذه الوثيقة .

كان فلووير يعرف المجازفة التي يقدم عليها . « ان الوسط
الذي تتحرك فيه شخصياتي ، كما نقرأ في إحدى رسائله سنة
١٨٦٦ ، هو غزير ومتحرك إلى حد أنها مهددة بالضياح ، مع كل
سطر ، بالاختفاء . فأنا مضطر إذن لأن أعيد إلى مستوى ثانٍ
الأمر التي هي ، على التحديد ، الأكثر أهمية » . وفي رسالة تعود
إلى العام ١٨٦٨ ، نقرأ : « خفت أن تلتهم الركائز الأمور
المفترض أن تحتل الواجهة . هنا هنا خطأ النوع التاريخي . ان
الشخصيات التاريخية أكثر أهمية من الشخصية المنهج الخيال ،
بخاصة حين لهذه عواطف متزنة . فنحن نهم بفريدريك أقل من
اهتمامنا بلامارتين » . لا نعرف إن كان في باله مثل فابريس في
واترلو ، ما هو ثابت ، انه ، هو أيضاً ، توصل إلى تخاصم مع
الواقع التاريخي حفاظاً على الحقيقة الروائية .

نتخذ هنا ، كأساس ، الطبعة الأخيرة التي نشرها فلووير .
ظهرت بعد عشر سنين عن الطبعة الأولى وقبل وفاته بستة أشهر ،
عند شاربنتيه في تشرين الثاني ١٨٧٩ ، حاملة تاريخ ١٨٨٠ .
وإننا لننقل نوعين من التهيئات .

من جهة نحن نعدّل - بالاستناد ، حين الحاجة ، إلى
الكتابة الأساسية - فيها بعض أخطاء مطبعية أو أخطاء سهو
واضحة .

ومن جهة أخرى فنحن نلحق بالنص تصحيحات قام بها فلوير نفسه على نسخة من طبعة ١٨٧٩ محفوظة في كرواسيه . كانت هذه التصويبات ، في المرة الأولى ، مهمورة بتوقيع ل . أندريو في نشرة كانون الأول ١٩٦٥ من جمعية أصدقاء فلوير . يبدو أنها ، حتى الآن ، بقيت غير منشورة ، فليست هي متناولة في طبعة واسعة الانتشار .

في الحقيقة ، ليس الأمر هنا إلا تكملة للعمل الواسع المتعلق بالمراجعة التي كانت سجلتها طبعة ١٨٧٩ . وان الطبعت اللاحقة منذ الطبعة الأساسية لم تكن تقدم ، في الواقع ، شيئاً جديداً . هذه ، على العكس ، سمحت في ١٩١٠ للبحثة د . ل . ديموريست بأن يعثر فيها على أربعمئة وخمسة وتسعين اختلافاً . ويخشى أن يكون هذا الرقم أقل من الحقيقي ، لكن هذا المجموع ، صحيحاً كان أم تقريبياً ، لا يؤكد إلا نسبة تحتفظ على كل حال بقيمتها ذات المغزى : إحدى عشرة إضافة فقط ، مقابل أربعمئة وعشرين حذفاً . لم يطرأ أي تبديل على الهيكلية إنما هنالك حذف لمئة وخمس وعشرين « ولكن » لتسع وثلاثين « عندئذ » ، لاثنتين وثلاثين « و » ، لاحدى وثلاثين « ثم » ، لثلاثة وعشرين « مع ذلك » ، الخ .

تفاصيل صغيرة ؟ بلا شك . إنما ألا معنى لحمل ملاحظة بسيطة ، وبإصرار ، حول تفاصيل صغيرة ؟ كان يحذف فلوير كل الكلمات التي وظيفتها تسجيل ألفاظ منطقية : فالاتصالات والعلاقات ، برأيه ، يجب أن تستنتج من تنظيم العبارات بين

بعضها ، ببساطة ، بلا حاجة إلى تشديد بطريقة أوضح ، وبهذه الطريقة ، وأنت تلاحق كلمات الربط ، غخلا بروابط الاعراب والتفكير ، ومفضلاً الملاحظة على تفسير التسلسلات ؛ يكتشف ، كان ، الايقاع الروائي الجديد الذي كان بروس ولا شك ، أول من وصفه وهذه الأبحاث المعاصرة أو تلك لم تنته بعد من تعميقه . إن ملاحظتنا ، طبعاً ، لا تنتبه لكل هذه المتغيرات : فهي كثيرة جداً . لقد عملنا على تقديم بعضها ، وقد انتُخبت من بين تلك التي تدل أفضل على قرار كاتبنا وتنفيذه .

كان فلوير عهد إلى مكسيم دو كمب بمخطوطته ، فسجل له مئتين وخمسين ملاحظة . عمل الروائي بكثير منها . أشرنا إلى بعضها في الملحق ، منها رآه موافقاً ومنها وجده حماقات لا قيمة لها . ولقد أسقطنا الكثير عما كان لأن ثَمَس مفردات اللغة أو القواعد ، كان فلوير يواجه مراراً « لبتريه » الذي كان حينها في زهوة تحديثه ، بأكاديمية مكسيم دو كمب الذي يخبر عنه ، مازجاً ، ولا شك ، الحقد بالواقع : « كان يدعي ، دائماً يدعي أن الكاتب حرّ ، حسب ضرورات أسلوبه ، في أن يقبل أو يرفض التعليمات اللغوية التي تحكم اللغة الفرنسيّة ، وأن الشروط الوحيدة الواجب الخضوع لها هي شروط التناسق » .

أما بالنسبة إلى الايضاحات التاريخيّة ، وغالباً ما هي مفيدة ، فكنا نريد جمعها في عرض واحد متواصل ، أو لوحة واحدة متسلسلة تسلسلاً زمنياً . كان مستحيلاً مثل هذا العمل . لأن أحداث العام ٤٨ ، والحركات التي سبقتة أو مهدت له ،

وتلك التي تبعتها ليست بارزة في الرواية حسب التاريخ : كان
 وجب ، على هامش التاريخ ، تأليف « ما وراء التاريخ » مشوهاً .
 هنا نرى إلى أي مجال نجح فلوير في تحطّي الصعوبة التي كان
 يخشى : فقصته تدور حول تسلسل الأحداث بدون أن تتوحد
 فيها ، وأبطاله يحتفظون ، في فورات غضبهم ، بشكلهم المحدّد
 وقدرهم . قرب فريدريك ، ليس لامارتين ، كما يجب أن يكون ،
 سوى كومبارس . إذن فلقد قرّنا ألا نشرح تلميحات الرواية ،
 إلا حسب نسق النصّ ، حسب الطريقة الأكثر إيجازاً ، وضمن
 الحدود التي هي مرتبطة بالتوسّع الروائي من غير منافسة القاموس
 أو الكتاب . وطبعاً ، إن ملاحظاتنا مدينة بالكثير ، وتقريباً بكل
 شيء إلى السلف الذين ذكرت أسماءهم ، وإلى سلف السلف :

فهرست

٥	تقديم أليزتيهويه
	التربية العاطفية
١٦	القسم الأول
١٥٧	القسم الثاني
٤٢٦	القسم الثالث
	الملف
٦٣٩	حياة فلوير
٦٤٥	إشارات

منشورات عويدات ١٩٨٣ / ٨٤١

Flaubert
L'éducation
sentimentale

Traduction arabe

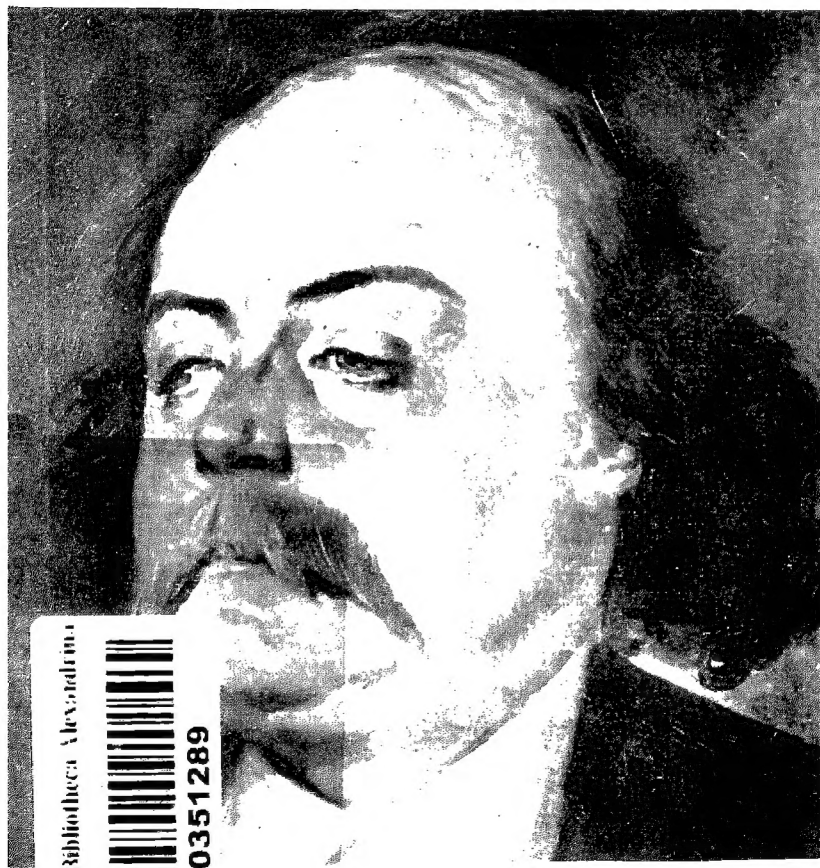
par

Elie M. KHALIL

MARIANNE / OUEIDAT

Beyrouth

Gustave Flaubert
L'éducation sentimentale



Biblioteca Alexandrina



0351289

